تاريخ العرب العام

إمبراطوريةُ العرب، حضارتُهم، مدارسُهم الفلسفيةُ والعلميةُ والأدبيةُ

تأليف المستشرق العلامة

ل. أ. سِيدِيُّو

أستاذ التاريخ في كلية سان لويس، والعضو في مجلس الجمعية الآسيوية، وفي اللجنة المركزية للجمعية الجغرافية، وسكرتير كوليج دو فرانس، إلخ.

نقله إلى العربية

عادل زُعَيْتِر



تاريخ العرب العام

المحتويات

الموضوع	الصفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حَجَبَ عاملُ التعصبِ وعاملُ السياسةِ وجهَ الحقِّ عن الغرب عِدَّةَ قرون، فأنكر الغرب ما للعرب من مقامٍ كريمٍ في التاريخ العامِّ، وأنكر ما كان لهم من أثرٍ عظيمٍ في تمدين العالم، وترىٰ بين الحين والحين نورَ الحقِّ يخترق ذلك الحجابَ الكثيف مع ذلك، فيجري علىٰ لسان أناس من جَهابذةِ الغرب كصاحبِ «حضارة العرب» الفيلسوف العلامةِ «غوستاف لوبون» وكصاحبِ «تاريخ العرب العام» المستشرق العلامة «لويس أميلي سِيديُّو».

نَشر لوبونُ كتابَ «حضارة العرب» الجليلَ سنة ١٨٨٤م، وَنُشرتْ ترجمتُنا له سنة ١٩٤٥م، وأعيد طبعُها سنة ١٩٤٨م، ورأينا أن مؤلف كتاب «حضارة العرب»، وإن سَلكَ في تأليفه طريقًا جديدًا لم يَسبقه إليه أحدٌ فحاول فيه بعث حضارة العرب من مَرْقَدِها وإظهارها للملأِ علىٰ وجهها الصحيح، لم يخرج عن النطاق الذي رسمه لدراسة حضارة العرب، فلم يبحث في وقائع العرب وحوادثهم إلا بالمقدار الذي تقتضيه مباحثُ هذه الحضارة.

إذن، هنالك فراغٌ لا بد من مَلئهِ، ونرىٰ لِزَامًا أن نصنع ذلك بأن ننقل إلىٰ العربية كتابًا يكون مُتِمًّا لكتاب «حضارة العرب» ويكون كتابُ «حضارةِ العرب» مُتمًّا له، ونبحث عن الكتب التي أُلفتْ في اللغتين الفرنسية والإنكليزية، فلا نَجدُ بينها ما هو خيرٌ من كتاب «تاريخ العرب العامِّ» للعلامة سِيديُّو، فقد أبصرناه متساوقًا هو و«حضارة العرب» في المناحي والأهداف، وقد أبصرناه مُبَشرًا بكتاب

«حضارة العرب»، وقد جاء فيه: «نأسف علىٰ أننا لم نَدْرُس حتىٰ الآن درسًا عامًّا ما شاده العربُ من المباني في سورية والعراق وفارس والهند الخلاصة فنبصرُ أنه لم يُبذل جهدٌ في إعادة تلك الأسماء إلىٰ أصلها العربيِّ، وذلك كله خلافًا لِمَا ادعاهُ عليّ مبارك باشا.

وقد يُعتذر عن ذلك بأن يقال إن الخلاصةَ العربيةَ مقتبسةٌ من الطبعة الفرنسية الأولىٰ التي تختلف عن الطبعة الفرنسية الثانية بعض الاختلاف، ولكن هذا لا يُعفي واضعي تلك الخلاصة من مسؤولية مخالفةِ نصوص الطبعة الأولىٰ نفسها وتلخيصها علىٰ ذلك الوجه الخاطئ وإعراضهم عن الطبعة الثانية الفرنسية التي صدرت قبل طبع الخلاصة العربية بسنواتٍ كثيرة.

من أجل ذلك رأينا الوفاءَ للمؤلف بإعادة الحقِّ إلىٰ نِصابه، ولو بعد حينٍ، فعزَمنا علىٰ ترجمة كتاب «تاريخِ العرب العامِّ» من الطبعة الفرنسية الثانية مع المحافظة علىٰ الأسلوب العربيِّ، فكانت الحالُ التي نَعرضها بها علىٰ القراء.

ولا نرىٰ أن نُسْهِبَ في بيان المصاعب التي قاسيناها في تذليل موضوعات الكتاب الطريفة واصطلاحاتهِ العلمية الكثيرةِ وإعادة المئات من أسماء الأعلام المُحرَّفةِ في الأصل الفرنسي إلىٰ أصلها العربي، فكنا نقضي عدةَ ساعاتٍ كي نعثرَ علىٰ الأصل العربي للاسم الواحدِ غير معتمدين علىٰ تلك الخلاصة العربية في أية عبارةٍ أو كلمةٍ أو اسمٍ.

وفي الكتاب نصوصٌ مقتطفةٌ من الكتب العربية فأعدنا أكثرها إلىٰ أصلها العربي، وأما النصوصُ التي لم نعثر علىٰ أصل عربيٍ لها، وهي قليلة جدًا، فقد ترجمناها من الأصل الفرنسي إلىٰ العربية فوضعنا عليها إشارة (*) تنبيهًا للقارئ كما وضعنا علامةَ استفهام علىٰ بضعة الأسماء التي لم نجد لها أصلًا في الكتب العربية لِشدة تحريف رسمها في الأصل الفرنسيِّ، وللكتاب ذيلٌ وتعليقٌ في الفلك والمصادر علىٰ الخصوص، فلعلنا نترجمهما فنجعلهما في جزء خاص إذا سَمَحت الأحوالُ بذلك.

أَلا إننا نطمعُ أن تمتاز ترجمتُنا لكتاب «تاريخ العرب العامِّ» بالوضوح والصحة، فإذا حالفني التوفيق في ذلك وكان للعرب نفعٌ من هذه الترجمة فإنني أكون قد نِلتُ ما أرجو، والله الموفق.

نابلس (فلسطين)

✍ **عادل زعيتر**

❀ ❀ ❀

لما كنا حريصين علىٰ «الأمانة العلمية» وحتىٰ لا ندع وجهة نظر خاصة تفرض نفسها علىٰ القارئ، فقد رأينا أن نتصل (بمجمع البحوث الإسلامية) ليبدي رأيه في هذا الكتاب فتفضل مشكورًا بكتابة «التذييلات» التي أثبتناها في أماكنها ورمزنا لها بأرقام، مع تعقيب مفصل نشرناه في نهاية الكتاب . . .

«الناشر»

تنبيه

أتمَّ صديقي لـ. أ. سِيديِوٌّ تأليف كتاب «تاريخ العرب العام» قبل وفاته، فطبعَ جزءه الأول تقريبًا، ففوضت أسرته إليَّ إنجاز ما بقي فقمتُ بذلك.

ولم أغير شيئًا في أساس هذا الكتاب ولا في تناسقه وشكله فظلَّ كما شاء سِيدِيُّو، وكان من الممكن أن يُرغبَ في استخدام سِيدِيُّو لعدد كبير من المؤلفات العصرية، ولكن غايته لم تكن إصدار كتاب قائم علىٰ التحذُّق، بل أراد رسم صورة حيةٍ ساطعة لحركة الإسلام العجيبة في جميع نواحي التاريخ والأدب والفلسفة، والعلم علىٰ الخصوص، وحَفَزته دراساتُه الخاصة إلىٰ اعتنائه العظيم بكلِّ ما هو خاصٌّ بالعرب في الحقل العلمي، فَوُفِّقَ لبعث حضارة غابرة مؤثرةٍ في حضارتنا، فأعاد إلىٰ الأمة العربية مكانها، وهي التي ملأت، بما أنتجته، الفراغ الذي كان في تقاويم الروح البشرية بين مدرسة الإسكندرية والمدرسة الحديثة.

وبهذا الكتاب يُحكمُ في لَوْذَعِيَّةِ مؤلفه الأدبية، فمن النادر أن تجد بين المستشرقين من طَرَّزُوا دراساتهم بمثل أسلوبه الصحيح الرائع، فالحقُّ أن أسلوب «تاريخ العرب» هو مثال الأسلوب التاريخي.

رَسَمَ العالمُ النبيلُ والعالي النفس والعضوُ في المجمع العلمي ومديرُ كلية فرنسة (كوليج دو فرانس) مسيو إدوارد لابولاىٰ حياةَ سِيدِيُّو[١] في خُطبته الآتية التي نطق بها في المأتم الحافل.

---

(١) نجد في الصفحة ١٢١ من الجزء الأول من كتابنا «تاريخ المستشرقين» ترجمة مفصلة لسيديو.

سادتي:

«نجتمع بالقرب من ضريحِ عالمٍ متواضعٍ يفوق فضلُهُ المال والنَّشّبَ، فأسدىٰ إلىٰ الآداب والثقافة في حياته الطويلة الشريفة ما لا نستطيع أن ننساه من الخِدَم».

هو ابن مستشرقٍ ممتازٍ، هو قد وُلد سنة ١٨٠٨م، فدخل الجامعة مُبكرًا فعُينَ أستاذًا للتاريخ في كلية البوربون، ففي كلية هنري الرابع، ففي كلية سان لويس، فترك أطيب الذكريات في هذه المعاهد الثلاثة الكبرىٰ، فكان له تلاميذ كثيرون، فظل أكثرُهم أصدقاء له.

«بيد أن سِيدِيُّو كان يسير وراء هدفٍ عالٍ: كان راغبًا في اتباع خطوات أبيه، كان يريد، علىٰ الخصوص، أن يُتم ما تركه أبوه ناقصًا من التصانيف، ففي هذا سرُّ دراساته في الفلك والرياضيات والجغرافية عند العرب، وإن شئتَ فقلْ سرّ عمله العظيم الذي كان يتطلب معارف مختلفةً أشدَّ الاختلاف، بعيدًا بعضها من بعض أشدَّ البُعد، وفي هذا سرُّ «تاريخ العرب»، هذا التاريخ الذي قُدِّرَ منذ نشره تقديرًا صائبًا، هذا التاريخ الذي كان سِيدِيُّو يُعيدُ طبعه فيصحح مسوداتهِ الأخيرة حتىٰ عَشية وفاته.

«وهل أحدثُ عن الخدم التي أَسدىٰ مسيو سِيدِيُّو بها إلىٰ الثقافة؟ لقد عَينه الأستاذ الشهير مسيو سِيلفِستِر دو ساسىٰ، في سنة ١٨٣٢م، سكرتيرًا لكلية فرنسة وسكرتيرًا لمدرسة اللغات الشرقية الحية، فأدار هذين المعهدين العظيمين في أكثر من أربعين سنة، فأدخل إليهما النظام والاقتصاد، وهو الذي وُضِعَ في الصف الثاني، فكان مع ذلك نشيطًا متأهبًا علىٰ الدوام ويَطِيبُ لي أن أشهد له بذلك، وأنا الذي قُدِّرَ له، منذ ثلاث سنوات، أن يُعْجَب باقتداره وإخلاصه غير مرة.

«كان مسيو سِيدِيُّو يحبُّ كليةَ فرنسة التي كانت وطنًا له، وكانت مالًا له، وكتب مسيو سِيدِيُّو تاريخ كليةِ فرنسة، ولا يزال هذا التاريخ مخطوطًا، وهنالك ما يدعو إلىٰ اعتقاد تمامِه، وهذه هي الوصية التي يتركها لنا، فقد أراد أن يكون نافعًا لنا حتىٰ بعد موته.

«وهنا، حيث تزول كلُّ عظمة، لا مجال، أيها السادة للمجاملة والإطراء، ولكنه يجب علىٰ من ظَلُّوا أحياء أن يُقرُّوا بحقوق من خدموا العلم من غير أن يثني عزائمهم جحودُ الطالع وتهزهُمْ تصاريف الدهر.

«وإني، حين أُثني علىٰ سِيدِيُّو فأمتدحُ شجاعته وإخلاصه ونزاهته وصلاحه أثقُ بأنني أجد صدًىٰ لذلك في جميع القلوب، أقول الحق، وأنتم شهود إن أفضل ما يُمدحُ به سِيدِيُّو هو أن حياته تجعله أهلًا لعفو الله وغفرانه، وليست حسراتُنا بخادعةٍ لنا، فَسِيدِيُّو كان عالمًا صادقًا ورجل خير.

«ودَاعًا يا سِيدِيُّو! إن كلية فرنسة، إذ تحفظ ذكراك، تكون قد حَفظتْ ذكرىٰ صديق أمين لم تُنكر هِمتُه قط، وسيبقىٰ اسمك ملازمًا لهذه الجُدُر القديمة حيث عِشت زمنًا طويلًا محلًّا لمحبة الجميع واحترام كبيرهم وصغيرهم.

«وداعًا يا صديقي ورفيقي! وداعًا!».

ستبقىٰ ذكرىٰ سِيدِيُّو عزيزةً علىٰ كلِّ من يُقدرون صفاتِ قلبه وروحه العالية، وسيبقىٰ كتابهُ: «تاريخ العرب العام» حيًّا في ذاكرة الأجيال القادمة، ولن يشمله قولُ ذلك الشاعر الفرنسي[١] الذي تتساوق نَفْحَتهُ وروح العصر:

«الأمواتُ هم الذين لم يتركوا أثرًا».

✍ غوستاف دوغا[٢]

(١) مسيو سولي برودوم.

(٢) إن غوستاف دوغا مستشرق مشهور ولد سنة ١٨٢٤م وتوفي سنة ١٨٩٤م، وكان أستاذًا للعربية في مدرسة اللغات الشرقية، وعني بجغرافية العالم الإسلامي، فله فيها مباحث مهمة، وله تاريخ في فقهاء المسلمين وفلاسفتهم، وله كتاب «تاريخ المستشرقين» إلخ. (المترجم)

إلى القارئ

يظهر، وقد قلتُ ذلك في موضعٍ آخر، أنه قُصدَ نسيانُ العرب وإنكارُ ما كان لهم من تأثيرٍ في الحضارة الحديثة دَامَ دوام القرون الوسطىٰ.

فانظر إلىٰ بُوسُوِيه تَجده في أحاديثه عن التاريخ العام قد بحث في عظمة الدول القديمة وانحطاطها، ثم وقف تجاه دولة العرب، التي بدأ أمرها قبل شارلمان بمائتي سنة مُؤجلًا إلىٰ حين اكتشاف أسبابِ ما أصابه محمدٌ وخلفاؤه من النجاح العجيب، وما سكت عنه بُوسويه ساعد علىٰ إسدال ستار صفيق من الظلام والغموض زاده التعصب والجهل كثافةً مع الزمن.

واليوم ترىٰ اسم العرب يمَّحي حتىٰ تحت اسم الشرقيين والمحمديين والمسلمين والهاجريين والمغاربة والترك، حتىٰ تحت اسم الهنود، وهو إذا ما ذُكرَ فللإهانة والازدراء، وما علمنا أن مغازيَ العرب وإقامتهم بين القرنين الثامن والحادي عشر بجنوب فرنسة أسفرت لا ريب عن آثارٍ لا تزول من لغتنا وأن نفوذ العرب كان باديًا في مختلف أدوار تاريخنا، لا فرق في ذلك بين زمن الغزوات الأولىٰ وزمن الحروب الصليبية، ولا حينما أدىٰ طردُ العرب من إسبانية إلىٰ استقرار قبائل منهم بأُفِرْن ولِيمُوزَن الدنيا، وأن لهجاتِ هذه الولايات مملوءةٌ بالكلمات العربية، وأن أسماء الأعلام فيها تُبدي شكلًا عربيًا في كل خُطوة كما تبديه اصطلاحاتنا العلمية أيضًا، وما يأتيه علماء اللغة المعاصرون عندنا، ومنهم العالمُ لِيتْرِيه العزيزةُ صداقتُه علينا، من اشتقاقاتٍ يقف شعرَ الرأس كما قال بَسْكال.

ومن المؤسف أن جَهِلَ أفضلُ علمائنا في اللغة لهجاتِ الشرق، فظلت اللغة العربية التي حافظت علىٰ صفائها بفضل القرآن، وهي أدعىٰ اللغات إلىٰ العجب، حرفًا ناقصًا عندهم، حتىٰ إنه لم يَدُرْ في خَلدهم أن الكلماتِ، التي يفترضونها إيطاليةً أو إسبانيةً أو برتغالية فلا تَنِمُّ علىٰ أصلٍ لاتيني، قد اقتبستْ من العربية، وهم الذين لا يستطيعون مع ذلك، أن يَنْسَوْا أن شبه جزيرة إيبِرْية ظلت كلها تقريبًا خاضعةً لسلطان الإسلام من القرن الثامن إلىٰ القرن الخامس عشر، وأن جُزُرَ البحر المتوسط الكبرىٰ، وصقلية علىٰ الخصوص، والشواطئ الإفريقية كانت قبضةَ العرب في تلك المدة، وأن البابا يوحنا الثامن كان يدفع إليهم جِزيةً سنويةً ليَقِي إيطالية الجنوبية من غاراتهم، وأن المدن: بَلَرْمَ والقاهرة وفاس، إلخ. كانت زاخرةً في الآداب ازدهارَ بغدادَ وقرطبة، وأن الإدريسيَّ كَتَبَ، في سنة ١١٥٠م، رسالته العربية في الجغرافية إلىٰ الملك النصرانيِّ رُوجَر الثاني، وأن الإمبراطور فردريكَ الثاني استقبل في بلاطه حَفَدَةَ ابن رشد بعد قرن، وأنه يجب في الحقيقة ألا يُبالَىٰ بمؤلفات السادة نارْدُوتْشِىٰ ودُوزِىٰ وسُوزَا ومستشرقي فرنسة حتىٰ تَجِدَ الافتراضاتُ العريقةُ في الوهم لها مجالًا.

ولا يُنْكَرُ، فضلًا عن ذلك أن الخلفاء كانوا في القرن التاسع من الميلاد سادةَ إمبراطوريةٍ واسعةٍ رائعةٍ لامعةٍ تقضي بالعجب، وأن خلفاء بغداد كانوا يرسلون وفودًا وهدايا إلىٰ الإمبراطور شارلمان وإلىٰ عاهل الصين، وأنهم كانوا مثالَ العظمة الحقيقية بِنُظُمِهم الصالحة وعنايتهم بالآداب والعلوم، وأن ما شِيدَ من المدارس في أرجاء دولتهم كان يُوقِدُ مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصىٰ وعَمَدِ هِرْكُولَ ناشرًا آثار الفن العربي الرائعة في كل مكان عاملًا علىٰ تجديد الدمِ في عروق العالم الهَرِم.

ولم يكن دون ذلك، في تَقدم العلوم، تأثيرُ مدرسة بغداد التي كانت متوسطةً بين مدرسة الإسكندرية والمدرسةِ الحديثة فهيأت لهذه المدرسة الحديثة اكتشافاتها، ونحن مَدِينُونَ للعرب في الحقل العلمي، ونعترف مع ذلك بأن مترجمينا كانوا يَتلَهَّوْنَ بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويهًا غريبًا إلىٰ الغاية فَينمُّ ما اتخذَ من الاصطلاحات علىٰ الجهل والارتباك، وليس مما نتصوره درجةُ تفريط

مترجمينا، ودرجة إهمال ملوكنا الذين بَدَوْا حُماةً للأدب، فكان علىٰ حكومتنا النيرةِ أن تسلك تجاه المخطوطات العربية مثل ما وُفقَ له خلفاءُ بغدادَ تجاه كتب الإغريق، وأن تَبذُلَ كلَّ نفيسٍ للبحث عن تُرَاثِ جيلٍ آخر في الميدان الثقافي، أفليس من الفضائح ألا يكون لدينا نُبَذٌ من فلكيي العرب في القرن العاشر ومن جاء بعدهم، وألا نستطيعَ أن نَظفَر بنسخة كاملة من كلِّ ما أَلفوه؟

وأنكىٰ من ذلك ألا نعرف بالضبط ماذا تحتويه النُّثاراتُ المبعثرةُ في بعض مكتبات أوربة، ومن المحزن ألا تُلاقي الجهود التي تُبذلُ لتحقيق هذه الأماني غيرَ تشجيعٍ قليلٍ، وذلك في هذا الزمن الذي غيرت المؤلفاتُ الحديثة فيه ما عُدَّ ثابتًا من المذاهب والعقائد تغييرًا أساسيًا.

فلقد حلَّ الوقت الذي تُوَجهُ فيه الأنظار إلىٰ تاريخ تلك الأمة التي كانت مجهولة الأمر في زاويةٍ من آسية فارتقت إلىٰ أعلىٰ مقام فطبَّق اسمُها آفاقَ الدنيا مدة سبعة قرون.

ومصدرُ هذه المعجزة هو رجلٌ واحدٌ، هو محمد فقد أُلهِمَ محمدٌ المبادئَ اليهودية والنصرانية فأقام دينًا بعيدًا من الخوارق[1] فكان له أتباعٌ حُمسٌ، ومن هؤلاء عقبة بن نافع الذي قال حينما بلغ أقصىٰ حدود إفريقية الغربية: «اللهم ربَّ محمد لولا أن أمواج هذا البحر تعوقني لذهبت لأنشرَ مجد اسمك العظيم في أقصىٰ حدود الدنيا».

قُدِّرَ عمل محمد بن عبد الله تقديرًا مختلفًا إلىٰ الغاية، وحُكِمَ في أمره بهوًىٰ وَعَمًىٰ في بعض الأحيان، فانبرىٰ للدفاع عن الحق كوسان دُوبِرْسُفال في كتابه عن العرب قبل الإسلام وفي عصر محمد إلخ. ومسيو غراسَن دو تاسىٰ في كتابه النفيس عن الإسلام، بيد أنه يمكن أن يُنَبأَ في شأن الإسلام بمثل مصير أكثر الأديان فيقال إنه ليس من طبيعة الأوامر والنواهي التي تلائم أممًا في بعض البيئات أن تكون شاملةً.

---

(١) لم يشرع محمد دينًا من عنده، لفَّقه من مبادئ الديانات السابقة، وإنما شرعه له الله الذي شرع ما سبق من ديانات، فاتحد معها أصولًا وأهدافًا، وزاد عليها ما يلبي متطلبات البشرية ويلائم تطورها.

ويتألف من الختان الذي اقتُبِسَ من الشريعة اليهودية، وتحريمِ العادات التي وجب منعُ الرديء منها، وحظر فنِّ التصوير الذي زاوله الناس في كل زمن، حاجزٌ تتعذر مجاوزته بين أمم مختلفة الأصول والميول، فلذا تَقَصَّفَتْ شَوْكةُ العرب في سهول بواتيه أمام مقاومة قبائل الجرمان التي انتحلت النصرانية.

وإننا حين نَرسُمُ تاريخ عظمةِ العربِ وانحطاطهم، نكون قد أضفنا برهانًا آخرَ إلىٰ كلمات بُوسُوِيه الحسنة الآتية:

«إذا ما مرتْ أمام أعينكم، كلمح البصر، كُبْرَياتُ الدول التي زلزلت الكون، لا الملوك والقياصرة، وإذا ما تَمثلتم بالتتابع قدماء الآشوريين ومتأخريهم والماديين والفرس واليونان والرومان وأبصرتم انقضاض بعضِ هذه الأمم علىٰ بعضٍ عَلِمتُمْ أنه لا روابط وثيقة بين الناس وأن التقلب والاضطراب هما عاملا القسمة في أمور البشر».

تاريخ العرب العام

و

تاريخ دولتهم

البابُ الأول

جغرافية بلاد العرب

والعربُ قبل محمد

الفصل الأول
جغرافية بلاد العرب

بلادُ العرب قطرٌ واسعٌ تبلغ مساحته نحو ضعفي مساحة فرنسة، وهي ستة وعشرون ألف فرسخ مربع كما جاء في أحدث الإحصاءات، ويحيط الماء بأطرافها الثلاثة، وتمس بطرفها الثالث إفريقية وآسية التي تكاد تكون منفصلةً عنها، ويحدها الخليج الفارسي والبحر الهندي والبحر الأحمر من الشرق والجنوب والغرب، ويحدها برزخ السويس من الشمال الغربي، وأما حدُّها الشمالي فيبدأ بغزةَ، المدينة الفلسطينية الواقعة علىٰ شواطئ البحر المتوسط، ويمرُّ من جنوب البحر الميت إلىٰ شرق الأردن، ثم يمر من دمشق إلىٰ الفرات فيتبع مجراه لينتهي إلىٰ الخليج الفارسي.

ولم يكن داخلُ بلاد العرب معروفًا عند القدماء، ولم يكن لدىٰ الإغريق والرومان رأي واضح في تقسيمات بلاد العرب الجغرافية، فلم يقل هيرودتس غير بضع كلمات عن جزيرة العرب مع أنه ساح كثيرًا وجمع معارف مفيدة وافرة عن المصريين والماديين، ثم جاء بعده إراتوستين وأغاتارْشِيد وبلين وأريان وإسترابون وديودرسُ الصقليُّ فأتَوا بمعلوماتٍ أوسعَ من تلك، غير أنهم عَزوا في الغالب إلىٰ بلاد العرب ما كان يُدخل إليها من منتجات الهند للتجارة.

ومن بين قدماء الكُتابِ يظهر أن بطليموس أحسنُ من قدروا وضع بلاد العرب، فكان يسهل عليه أن يجمع معلوماتٍ موثوقًا بها عن بلاد العرب بسبب قربها من مصر وبقائها مُفتحة الأبواب لرياد سكان شواطئ النيل، وكان بطلميوس متعسفًا فيما أتىٰ به من التقسيمات مع ذلك، فلم يعتمد عليه جِغرافيو العرب قط،

فهو قد قسم بلاد العرب إلىٰ ثلاث مناطق كبيرة: بلاد الحجر العربية (بطرا)، وبلادِ العرب الصحراوية، وبلادِ العرب السعيدة، فتدلُّ هذه الأسماء، مع ذلك علىٰ طبيعة الإقليم دلالةً عامةً، فأما المنطقة الأولىٰ فلا تكاد تشتمل علىٰ غير الجزيرة الواقعة بين الخليجين المتفرعين من أقصىٰ شمال البحر الأحمر، وأما المنطقة الثانية فتمتدُّ من حدِّ ذينك الخليجين الشرقيِّ إلىٰ حدود سورية وما بين النهرين فإلىٰ البحر الهندي مُحاذيةً الخليج الفارسي، وأما المنطقة الثالثة، أو القسم الجنوبي، فيتألف منها بلاد العرب السعيدة حيث عَدَّ بطليموس في زمانه ستًّا وخمسين أمةً مختلفةً و١٦٦ مدينة ومرفًا وبلدًا، فذكر من هذا العدد ستَّ عواصمَ وخمسة أمصار ملكيةٍ، ولا اتفاق في قصص المؤلفين علىٰ مساحة هذه المنطقة الأخيرة، فبعضهم يوسعها بإفراط، وبعضهم يحصُرُها بين الجبال المجاورة للمحيط الهندي، وليس في هذا الاختلاف ما يصعب إدراكه عند العلم بأن نَزواتِ الخيال تحلُّ محل الحقيقة، وعندي أن التقسيمات التي اصطلح عليها العرب أفضلُ من تلك بمراحلَ، فهي تناسب جميع أدوار التاريخ، وتلائم وَصف جزيرة العرب ملائمة تامة، فيذهب العرب إلىٰ الحدود التي ذكرناها آنفًا، وذلك مع استثنائهم منها جزيرة سيناء تقريبًا وصحاري كلدة وسورية كما يُعلم من جغرافية الإدريسيِّ.

وتكونت جزيرة سيناء من الخليجين: السويس وأَيْلَة، وتمتدُّ جزيرة سيناء شمالًا إلىٰ البحر الميت، وكانت براريها الواسعةُ منزلًا للعبريين بعد خروجهم من بطرا قاعدةً لها، وكانت الجبال: سيناءُ وهورُ وحوريبُ، مسرحًا لكثير من أدوار التوراة، وكانت صحارىٰ سورية والعراق وكلدة، وهي المعروفة اليوم ببوادي دمشق وحلب وبغداد والبصرة، مُوصدةً لجزيرة العرب دون سكان آسية الصغرىٰ وفارس، ولو لم تكن جزيرةُ العرب طريقًا صالحةً للتجارة لَأبعدَ جَذْبُها كلَّ فاتحٍ عنها، فمن شأن جَوْبِ بواديها الرملية اختصارٌ لطريق التجار الحاملين إلىٰ الغرب منتجاتِ الهند، ولطريق التجار الجالبين إلىٰ أمم الشرق سِلع بلاد اليونان وإيطالية في مقابل ذلك، ومن الواقع أن الإنسان إذا ما سار من مصبِّ الفرات بلغ دمشقَ رأسًا، وسهلَ عليه أن ينتهي منها إلىٰ موانئ البحر المتوسط، علىٰ حين أن الإنسان إذا ما صعِد مع الفرات إلىٰ جبال أرمينية اضطرَّ إلىٰ مجاوزة هذه الجبال

وإلىٰ قَطْعِ جميع آسية الصغرىٰ فتكبدَ نفقاتٍ عظيمة، وفي هذا تجد سرَّ الأهمية الكبيرة التي اتفقت لتَدْمُر القديمة الواقعة في البادية فكانت تحمي القوافل وتضمنُ سلامة المواصلات، وأصبح العرب بعد أن خرَّبَ الرومان تَدْمُرَ، سادةً مطلقين لتلك الطرق بالتدريج، والعربُ إذ كانوا متعودين لحياة البادية مطلعين علىٰ سر قواهم تصرفوا تصرف السادة في تلك البقاع بلا منازع، وفي هذه البقاع سنرىٰ ظهور مملكة الحيرة والأنبار، وظهور قبيلة الأنباط القوية، وظهور الغساسنة بالتتابع.

ومن خلف تلك البقاع في الجنوب ندخل بلاد العرب الحقيقية، وهي تُقسمُ إلىٰ ثماني مناطق:

١- الحجاز، وهي تقع في جنوب جزيرة سيناء الشرقي علىٰ طول البحر الأحمر.

٢- اليمن، وهي تقع في جنوب الحجاز.

٣- حضرموت، وهي تقع في شرقي اليمن علىٰ ساحل الهنديِّ.

٤- مَهْرَة، وهي تقع في شرق حضرموت.

٥- عُمان، وهي تتصل بالخليج الفارسي في الشمال وبالبحر الهندي في الجنوب والشرق وتحدها مهرة في الجنوب الغربي.

٦- الأَحساء، وتسمىٰ بالبحرين، أيضًا لأهمية الجزر التي تجاورها، وهي تمتد علىٰ طول الخليج الفارسيِّ من حدود عُمان إلىٰ الفرات.

٧- نجد، وهي تقع في جنوب بادية الشام، وتشتمل علىٰ وسط جزيرة العرب بين الحجاز والأحساءِ مع إقليم اليمامة أو العروض حيث كانت مدينة هجر، وتتألف من تلالٍ رملية علىٰ الخصوص.

٨- الأحقاف، وهي تقع بين عُمان والأَحساء ونجد وحضرموت ومهرة.

وليست معارفنا عن هذه المناطق المختلفة متساوية، فإذا كان السُّيَّاح قد وصفوا بعض هذه المناطق وصفًا جزئيًا فإن بعضها الآخر ظل مُوصدًا دون ريادهم، فالمباحث التي دُرست فيها حتىٰ الوقت الحاضر شؤون الحجاز واليمن، والحجازُ واليمن هما البلدان اللذان عُنيَ بهما علىٰ الخصوص. لا تزال ناقصةً

كثيرًا، فلا تكاد تجدُ لهما حدًّا دقيقًا، ولا نزال نجهل حتىٰ هذا الزمن وجود عسير: البلد الواسع الذي يصل بين ذينك البلدين ويسكنه قومٌ مقاديم محبون للقتال، وإذا كان هذا هو حال معرفتنا لشواطئ البحر الأحمر التي يجعل وضعُها الجغرافي دخولَها سهلًا، فماذا يقال عن داخل جزيرة العرب التي لم يَجُبها من الخليج إلىٰ الخليج غيرُ أوربيٍّ واحد، أو عن الشواطئ الجنوبية والشرقية التي لم يَكَدْ الإنكليز يبدؤون بقياسها؟

والحجازُ يستوقف النظر في الدرجة الأولىٰ لاشتماله علىٰ مِصْرَيْ بلاد العرب المهمين: مكة والمدينة أو يثرب، فأما مكة، وهي المعروفة قديمًا بمكرُبَة[1]، فقد وُلِدَ فيها محمد، وكانت مكةُ مكانًا للحج منذ قرون، فكانت تُزَارُ لِيُسجدَ في معبد الكعبة أمام الحجر الأسود الذي قيل إن عباد الله العليِّ أَتوا به من السماء في زمن إبراهيم، وأما المدينة فلا بد من أنها كانت منافسة لمكة، وليس فيما يُحيطُ بهذين المصرَيْن اللذين أقيما في داخل البلاد من الأراضي ما يكفي لإعاشة سكانهما، فهما يَجلبان المِيْرَة من المدينتين الواقعتين علىٰ سواحل البحر الأحمر والصالحتين لتكونا مرفأين لهما، وهما: ينبع التي هي ميناء المدينة، وجُدَّةٌ التي هي ميناء مكة، ويتخلل الحجازَ أكثبةٌ وآكامٌ خصيبةٌ تُتخذُ عادةً منازل للقبائل، وتقوم قُرىٰ حولها، وتعلوها حصونٌ يُلجأُ إليها حين الغارة، وتخرج سفوحها حبوبًا وفواكه، وكلًا للقطاع، وينابيعَ للماء، وتقوم بالقرب من هذه الآكام مدينة الطائف المعروفة بجنةِ مكة والتي تشتهر فواكهها كثيرًا.

وتُلحق بالحجاز تهامةُ، أو البقعة التي تمتد من الجبال إلىٰ البحر، وتشتمل تهامةُ علىٰ مدينة القنفذة، ويُطلقُ علماء الجغرافية اسم تهامةَ علىٰ جميع الساحل، لمقابلته بنجد، المكانِ المرتفع المرتد أرضًا، ويفرق علماء الجغرافية تهامة الحجاز عن تهامة عسير وتهامة اليمن الممتدتين من خولان إلىٰ عدن.

ويتألف من اليمن جزء بلاد العرب الجنوبيُّ، وتسمىٰ اليمن بالبلاد السعيدة، وتقع عسير في شمالها، وكانت لأهل اليمن صلاتٌ مستمرة بالمصريين والأحباش والفُرس وجميع الأمم المسافرة في البحر الهندي فأسفر ذلك عن قيام حكومة

---

(١) عرف القدماء مكة باسمها الآرامىٰ «مكربة» ومعناه «مكة الكبرىٰ» (المترجم).

منتظمة فيها منذ القديم، وسكانُ اليمن هم الذين عرَفهم القدماء بحِمْيَر فمارسوا أمورَ الزراعة والتجارة بلا انقطاع، وهم لم يكتشفوا إلَّا مؤخرًا البُنَّ الذي هو ثمرةُ أرضهم الحقيقية والذي يصدرونه إلىٰ جميع أسواق العالم، ولو كانوا يستخدمون الآلاتِ والأدواتِ بِحِذْق أكثر مما هم عليه، ولو كانوا يعرفون إيجاد نظام للرِّي أحسنَ مما لديهم، لاستطاعوا أن يزيدوا مصدر ثرائهم هذا، فعندهم ما يساعد علىٰ نشوءِ هذا النبات من اعتدال الجوِّ وارتفاع الأراضي ورطوبتها أكثر مما في أيِّ مكان آخر، وفي اليمن مدنٌ كثيرةٌ مدينةٌ اليوم في رخائها لتجارة البُنِّ، ومنها مخا والحديدةُ ولوهيا وعدنُ، وكان الذهب والعطور مما يصدر من موانئ جزيرة العرب ولكن العرب يستخرجون من الجُزر الهندية معظمَ المعادن الثمينة والأفاويه التي يرسلونها إلىٰ الخارج من خُلجان بلادهم وبلاد فارس.

ومن أشهر مدن اليمن نذكر مدينة سَبَأ، التي تسمىٰ مأرب أيضًا، ونذكر صنعاء التي تنازعت هي ومكةُ لقب عاصمة جزيرة العرب زمنًا طويلًا، وصنعاء هي التي اتخذها أقيالُ اليمن وملوك تُبَّع ثم مَرازِبَةُ الفرس وعمالُ الأحباش مقرًا لهم، وفي صنعاء يقطن اليوم أقوىٰ أمراء اليمن.

وتتصل باليمن حضرموت المشتملة علىٰ ظفارَ وشبامَ، وتتمتع حضرموت بمثل جوِّ اليمن ومنافعها، وكان القدماء يجدون في طلب عود نِدِّها، ومهرةُ أقل منها خِصبًا، فيستعين أهلوها في معايشهم بموارد من الخارج، وهي ذات بحرٍ كثير السمك فيغتذون به هم ومواشيهم، وتواجه عُمانُ بلادَ الهند فكان يمكنها أن تجلب منها كل السلع لو كان عندها ما تؤديه في مقابل ذلك، ومن سوء الحظ أن كانت لا تنتج غير قليل من النحاس والرصاص والتمر والخضر، وأنها لم تمثل دورًا تجاريًا يناسب موقعها، وتحتوي الأحساءُ جميع ساحل الخليج الفارسي الممتد من عُمان إلىٰ البصرة، وهي تُبدي لمن يسيرون بحرًا في شواطئها منظرًا كئيبًا حزينًا إلىٰ الغاية، ويدوم منظرها هذا إلىٰ أن يحل موسم صيد اللؤلؤ، ففيه يتغير منظر كل شيء، وتنقلب بذلك إلىٰ مركز تجاري كبير، فهنالك تَفِدُ القبائل المقيمة بداخل البلاد عادةً إلىٰ شواطئ البحر ليتساوموا هم وأهلُ السواحل وجزر البحرين، وبذلك تكتسب القطيف والأحساء والخط ودارينُ، التي تكون خالية في

الأوقات العادية، جمهورًا عاملًا صاخبًا، فإذا ما انقضىٰ هذا الدور انصرفت القبائل وهُجِرَت المدن وحمل التجار سلعهم إلىٰ أسواق الهند وفارسَ، وعادت الأحساء بلقعًا واسعًا.

انتهىٰ كلامنا من مناطق بلاد العرب البحرية الست وهي: الحجازُ واليمن وحضرموت ومهرةُ وعمانُ والأحساء، وتقع المنطقتان الأُخرتان في الداخل، وهما: الأحقاف التي هي بُقعةٌ صحراوية مجهولة تُلحق بها اليمامة في بعض الأحيان، ونَجْدُ التي نعلم أنها تشتمل علىٰ عددٍ كبير من الواحات وأنها ذات مراعٍ جيدةٍ وأنها ذاتُ خيولٍ وجمالٍ مشهورة بقوتها.

ولم تُوصف نَجْدُ بدرجة الكفاية في غير الزمن الأخير، فتتألف من نجد (الأرض المرتفعة) أو بلادِ العرب الوسطىٰ، هضبة محاطةٌ بصحارٍ تمتدُّ حولها جبال جديبةٌ في الغالب، فالإنسان إذ يُوغِلُ فيها من الشمال، أي حين يغادر في معانَ الطريقَ المؤديةَ إلىٰ مكة من دمشق، يبلغ بعد سير خمسة أيام في سُهُوب جَدِيبَة، وادي الجوفِ الذي هو نوعٌ من الواحات مؤلفٌ من ثماني قُرىٰ خاضعة لرئيس واحد، ثم يجب أن تُقطعَ الصحاري الرملية المعروفة بالنفود للوصول إلىٰ مساكن أخرىٰ وإلىٰ جبل شمر الذي يؤدي إلىٰ الهضبة الوسطىٰ، أي إلىٰ نَجْد، بِمَمَرٍّ ضيق فيه.

ومدينةُ حايلَ هي مقرُّ جبلِ شمر، ويقيم بها أميرٌ يمتد سلطانه إلىٰ الجوف، ويُقرُّ هذا الأمير بالصدارةِ للأمير الوهابيِّ في الرياض.

والبقاعُ النجديةُ الأخرىٰ هي السديرُ في الشمال، والوشمُ والعارضُ في الوسط، والأفلاجُ في الجنوب الغربيِّ، واليمامةُ والحريقُ المتصلان بصحراء الدهناء في الجنوب.

والرياضُ، في العارضِ، قد انتزعتْ من الدرعية مرتبةَ العاصمة للسلطان الوهابيِّ الذي فرضَ نُظمه علىٰ الأحساءِ والقطيف في شاطئ الخليج الفارسيِّ وعلىٰ القصيم في الغرب، والذي أوغل في الجنوب الشرقي حتىٰ وادي سليل بين الدواسر ووادي نجران.

والقصيمُ بلدٌ خَصيبٌ تقوم فيه المدينتان: بُريدة وعُنيزة، ولا يفصله عن المدينة سوىٰ باديةٍ ضيقة، وتتصل القصيم بالرياض بطريقين: فالطريقُ الأولىٰ تمرُّ من قاعدة الوشم: شقراء، والطريقُ الثانية تمر في شمال تلك من الزُّلْفَىٰ ومن الوادي الواقع بين هذه المدينة وجبل الطويق.

ولبلاد العرب علىٰ اتساعها وهي التي قُسمتْ كما تقدم شكل الوادي الواحد المثلث الأضلاع فينتهي رأسه إلىٰ جبال طورس بين نهر هاليس (قِيزِيل إيْرمَق) والفرات، وتتألف ضلعاه من سلستي جبال، تنزل إحداهما من خلال سورية وفلسطين مسماةً بلبنان وما وراء لبنان، ثم تَصِلُ إلىٰ جزيرة العرب فتمتدُّ محاذيةً للبحر الأحمر إلىٰ باب المندب، وتحاذي السلسلة الأخرىٰ مجرىٰ الفرات والخليج الفارسي لتنتهي إلىٰ مضيق هُرْمُز، ويتمُّ المثلث بخطٍّ من الأراضي المرتفعة يصلُ بين المضيقين، ويتألف من أسفل الوادي سهلٌ كثير الانخفاض ذو جوٍّ أشدَّ هولًا من جوِّ السواحل، فبينما تجعل الأمطارُ المباركةُ أرضَ السواحل خصيبةً لا تجدُ في ذلك السهل من يقدرُ علىٰ مقاومة الحرِّ والجدب، والجوُّ يحمل إلىٰ السهل في الغالب بخارًا وعَفَنًا يتصاعدان من البحر الميت ومن بحيرات مِلحةٍ أخرىٰ، وهنالك ريحُ السموم، التي يزعم العرب أنهم يعرفونها من رائحتها الكبريتية، فتُهلكُ النباتَ الذي لم تُجفِّفْه أشعة الشمس، وهذه الريح ليست أقلَّ فتكًا بالإنسان والحيوان مما بالنبات، فهي تُسممُ من لا يعرف أن يحترس من تأثيرها المشئوم، فتُغَطِّي بالرمل بدنه الهامد، وغير ذلك سواحل المحيط، ولا سيما اليمن حيث الهواء النقيُّ علىٰ الدوام، وفصلُ الحرارة في اليمن هو فصل الأمطار، فإذا لم ينزل من السماء ماءٌ قام، لحسن الحظ نَدىٰ غزيرٌ مقامه فيها وتتدرج الأراضي اليمانية في الارتفاع من الساحل، ويَنْجُمُ عن اختلاف الارتفاع تعديلٌ في جوِّ مختلف الأمكنة وسهولةٌ في الرِّي، ومن شأن كثرة عوارض الأرض تلطيفُ أثر أشعة الشمس التي تنصبُّ عموديًا في الانقلاب الصيفي، ومن فوائد ذلك استقرارُ أهل جزيرة العرب بتلك السواحل، وما كانت البادية لِتُهْجَرَ مع ذلك، فللبداوة التي تفرضها البادية سحرها الذي لا يقاوم، وفي هذا تعويض من الأخطار الدائمة التي تحيقُ بها، فلا شيء يثني الأعرابي الراعي عن طراز الحياة التي اختارها، ولو قامت هذه الحياة علىٰ أرض لفوحٍ كثيرةِ

الرمل لا تُنبتُ الذرة والأرز والبُرَّ، ولو نزفت فيها الآبار ونفدت مياه الأحواض في كل حين، ولو عَطِلتْ نخلُها من الثمر بسرعة، ولو هزلت مراعيها من فورها.

قال هِرْدِر: «يظهر أن جزيرة العرب، وهي من بقاع الدنيا الممتازة، قد أعدتها الطبيعة لتهبَ لشعوبها خُلقًا خاصًا، فكأن البادية الكبرىٰ التي تمتدُّ بين مصر وسورية ومن حلبَ إلىٰ الفرات قُطرٌ تَتَري جنوبي، فما فتئ هذا القُطرُ، الذي هو مجالٌ واسع لقبائل من الأعراب والرعاة الرُّحَّل، يكون قبضة عربٍ متنقلين منذ أحقاب، فطرازُ حياة هؤلاء القوم، الذين يعدُّون المِصْرَ سجنًا، يقضي بقيام فخرهم علىٰ قِدَم عرقهم وباعتمادهم علىٰ ربهم، وعلىٰ غنىٰ لغتهم وشعرهم، وعلىٰ رشاقة خيولهم، وعلىٰ لمعان سيوفهم وعلىٰ حِرَابهم التي يعتقدون أنهم أمانة في أيديهم فيمكنكم أن تقولوا والحالة هذه إن جميع هذه الأمور قد هيأتهم منذ زمن بعيد للدور الذي يمثلونه ذات يوم في أجزاء العالم الثلاثة، ولكن علىٰ وجهٍ يخالف شأن تَتَرِ الشمال مخالفةً تامة».

الفصل الثاني
العرب قبل محمد

قال هِرْدِر: «كان العرب في زمن الجاهليةِ، والجاهليةُ ما يُسمون به أزمنةَ تاريخهم الأولىٰ، منتشرين خارجَ جزيرتهم أيضًا، فأقاموا ممالك صغيرةً في العراق وسورية، وكان بعض قبائلهم يقيم بمصر، وكان الأحباش مُتَحدِّرين من عرقهم، فكانت صَحاري إفريقية تلوح أنها مراثٌ لهم، فالعرب إذ كان يَفصلهم عن آسية العليا بُحُورٌ من الرمل فيقيهم ذلك شرَّ هجمات الغزاةِ الفاتحين لم يَجدوا ما يُكدِّرُ صَفْوَ حريتهم ولا صفو ما يستنبطونه من الافتخار والتمدح بأصلهم وبشرف أرُومَتِهِم وبقدر لسانهم الطبيعيِّ الفصيح، أضف إلىٰ هذا ما كان يؤدي إليه وجودهم في مركز تجارة الجنوب والشرق من النظر في معارف جميع الأمم المجاورة ومن مقاسمة هذه الأمم لهم نشاطهم التجاريَّ الذي أصبح طبيعةً فيهم بفضل موقعهم الميمون، فاتفقت لهم بذلك ثقافةٌ عقليةٌ لم يظهر مثلُها في جبال أُورال أو جبال أَلْتائي، وقد نشأ لسان العرب اللطيف الخالص مشبعًا بالمواعظ المجازية والحكم الأدبية قبل أن يُفكَّر في تدوينه كتابةً بزمن طويل، وفي طور سيناء تلقىٰ العِبريون ألواحَ الشريعة ومكث قوم موسىٰ مع قبائل العرب علىٰ الدوام تقريبًا.

ولا يزال العرب محافظين علىٰ طبائع أسلافهم البدوية، وهم علىٰ ما في الأضداد من غرابةٍ، يتصفون بسفك الدماء وحقنها، وباعتقاد الخرافات وردِّها، وبالإيمان والإلحاد وهم علىٰ ما يظهر ذوو فُتُوَّةٍ خالدة يقدرون بها علىٰ القيام بجليل الأعمال عندما يؤمنون بمبدأ جديد، وهم أحرارٌ كرامٌ شُمُّ الأُنوف غِضابٌ مقاديمُ يجمعون في مثالهم بين الفضائل والمساوئ الخاصة بقومهم.

«والعربيُّ نشيطٌ، ويعودُ نشاطه إلىٰ وجوب كسب عيشه بنفسه، وهو صبورٌ، ويرجع صبره إلىٰ ما لا محيص عنه من احتمال الآلام والمِحن، وهو محبٌّ للحرية، والحريةُ هي الأمر الوحيد الذي اتفق له أن يتمتع به، وهو محاربٌ، ويحارب حاقدًا كلَّ من يحاول استعباده، وهو قاسٍ علىٰ نفسه صارمٌ وَلُوعٌ بالانتقام في الغالب.

«ونرىٰ العرب متماثلين في أمور العزِّ والشرف، لتماثل أحوالهم ومشاعرهم، ويقوم فخرهم علىٰ السيف والقِرَىٰ والبلاغة، فبحدِّ السيف يصونون حقوقهم، وبالقرىٰ يتجلَّىٰ كرم أخلاقهم، وبالبلاغة يحسمون ما لا يقدرُ عليه السلاحُ من الخصام».

وتقسيم العرب إلىٰ قبائل هو نتيجةٌ للبداوة أيضًا، وبعضُ العادات كان يقوم مقام القانون عند العرب، وكان كلُّ بطنٍ من العرب يجتمع حول رئيس تستند سلطته إلىٰ حقِّ البكرِيَّة، وكان هذا الرئيس الأَبَويُّ يحمل لقب شيخ أو سيد، وكانت البطون المهمة عند العرب تمثل دورًا كدور شرفاء رومة ونُبلاء أوربة، وكان أحد الشيوخ يرأس الآخرين فيبدو قائدًا لهذا الجيش الصغير، وكان هذا الشيخ يتلقب، أحيانًا بالأمير، ولكن سلطته كانت محدودة إلىٰ الغاية فلم يكن في حِرْزٍ من الثأر، أي في حِمًىٰ من مبدأ القصاص الفطريِّ أو الدية، وكانت جميع المصالح تُفوَّضُ إليه، علىٰ ألا يَفصلَ بينها وبين مصالحه الخاصة ما عُدتْ القبيلة أسرته وحملت اسمه، وهو وإن كان يقضي في الأمور العظيمة بنفسه، كان يجب عليه أن يُنصِتَ لرأي الشيوخ قبل المبادرة، وكانت القبائل كلها تسير علىٰ هذا النظام، وكان كثيرٌ من القبائل يجتمع في بعض المرات ليؤلف حِلْفًا فتكون الولاية لأقوىٰ الشيوخ، وقد تستنفد حربٌ ضَرُوسٌ مواردَ قبيلةٍ فَتُصْهَرُ هذه القبيلة في قبيلة أخرىٰ لحمايتها فَتُفَسِّرُ هذه الأحلافُ سِرَّ عدم بقاء كثير من القبائل.

ولم يطرأ تبديلٌ علىٰ نظام القبائل هذا ما استمسك العربُ بالبداوة التي نتجَ عنها، ولا يزال هذا النظام موجودًا مع تعديل، ففي كل مكان أقيمت فيه مُدُنٌ نرىٰ سلطة الشيوخ قد تحولت إلىٰ نظام استبداديٍّ، ولكن نظام القبيلة ظلَّ كما في الماضي العنصر الحقيقي لهذا المجتمع الذي تُعدُّ دراستهُ أمرًا طريفًا.

ويَرجع العربُ أصلَهم إلىٰ ذرية إبراهيم، وقحطان وإسماعيلُ هما جدَّا العرقين اللذين يعمران جزيرة العرب، ويسكن أحدهما جنوبها ويسكن الآخر شمالها، ويُسميان عادة بالعرب المُتَعَرِّبَة والعرب المستعربة، وهذا كان تِجَاه العرب العاربة الذين يجيء في الصف الأول منهم قوم عاد العمالقة. فيرىٰ فريقٌ أن هؤلاء من ذرية سام ويرىٰ فريقٌ آخر أنهم من ذرية حام، واستقرَّ العرب المُتَعَرِّبَة أو بنو قحطان باليمن فأقاموا فيها دولة سبأ ودولة حِمْيَر، وداوم سكان البراري علىٰ التكلم بلغة الحجازِ ونجدَ التي هي لغة العرب العاربة، وكان أهل المدن في اليمن يتكلمون بلغة حِمْيَر التي تعلمها بنو قحطان من أجدادهم، وكان ظهور العرب المستعربة بعد بني قحطان بزمن طويل ومما يُروَىٰ أنه أُوحيَ إلىٰ إبراهيم أن يقيم في مكةَ معبدًا مقدسًا فغادر سورية ممتثلًا أوامر الله القادر، وهَبَطَ إلىٰ بلاد العرب حيث بنىٰ الكعبة التي غدَتْ محلَّ تعظيم العرب مدةً طويلة، وأوجبت أعمالُ البيت إقامةَ الأبِ إبراهيم بالحجاز عِدَّةَ سنوات، وأعانه عليها ابنهُ إسماعيل الذي وُلِد في مكة، وبئرُ زمزم هي اليَنْبُوع الذي اكتشفته هاجر، وإلىٰ إسماعيلَ أتىٰ الملكُ جبريلُ بالحجر الأسود الشهير الذي اشتملت عليه الكعبة وقتًا كبيرًا، فيكون شاهدًا يوم الحساب لِمَنْ يسجدون أمامه، وفي أحاديث العرب غيرُ إشارةٍ إلىٰ العناية السماوية دالةٍ في نظرهم، علىٰ الأقل، إلىٰ أن شعبهم مختارٌ كبني إسرائيل.

ولم يَكَدْ بنو إسماعيل يزيدون عددًا حتىٰ انفصل بعضهم عن بعض فأسفر ذلك عن ظهور قبائل كثيرةٍ مستقلةٍ ذات نُظُم متماثلةٍ بدلًا من قبيلة واحدة، ومن هذه القبائل من اختارت لها مستقرًا، ورأىٰ أكثرُها العيشَ تحت الخيامِ في الصحراء مُفضلًا البداوة علىٰ غيرها، وإذ ما وضع رئيس يده علىٰ مرعًىٰ لم يصنع غير استنباح كلابه، فيؤدي هذا الإعلان الغريب إلىٰ رسم مُلْكٍ محظورٍ علىٰ قِطَاعِ المجاورين.

وبدا بنو قحطان مُرَجِّحِين حياة الحَضَر علىٰ سواها، وهجرت قبائل كثيرةٌ، مع ذلك، مِنطقةَ اليمن الخصيبة طلبًا للرزق في بلد آخر، فأتىٰ بنو جرهم مكةَ التي كانت قبضةَ إسماعيل فحالفوه، ولكن مع بقاء تنافس الأَرُومَتَيْن الكبيرتين:

العربِ المتَعَرِّبة والعرب المستعربة، فكان يُبْحَثُ عمن يكون رئيسًا لِيَتَّبِعَهُ الجميع عند الغارة، وعن المكان الذي يكون مركزًا للشعب العربيِّ - وكانت لكلا الحزبين قاعدتهُ، وَوَدَّ بنو إسماعيل أن تكون الصدارةُ لمكةَ فاستندوا في دعواهم إلىٰ قُدسية ما تحتويه من الآثار، وَوَدَّ بنو قحطان أن تكون مرتبةُ الشرف لصنعاءَ، فذكروا في دَعْمِ زَعمهم غِنَىٰ اليمن وَقِدَم أهِلها فطلبوا أن تكون صنعاء عاصمةً لبلاد العرب، ولم ينته الصراع بين الفريقين إلا في القرن السادس من الميلاد حين كَسَبَتْ مكةُ دعواها، أي حين رأىٰ محمدٌ إمتاعَ بلاده بالوحدةِ الدينية(١).

وإذا عَدَوْتَ بني قحطان وبني إسماعيل وجدتَ بلاد العرب تشتمل في غابر الأزمان علىٰ بقيةٍ من العروق الفطرية تَغْشَىٰ أخبارَها طبقةٌ كثيفةٌ من الغموض، وكلُّ ما يُعلمُ أو يُفترضُ هو أن قوم عادٍ جابوا، غالبين بقيادة شَدَّادٍ ولُقْمان، بلادَ العراق والهند قبل الميلاد بأكثر من ألفي سنة، وأنهم ملكوا بابلَ سنة ٢٢١٨ واستولَوْا علىٰ مصرَ في ذلك الحين باسم الرُّعاة أو الهِكْسُوس، ومما ظُنَّ أن هؤلاء ذهبوا إلىٰ الحبشة لِيعمرُوُها بعد أن طردهم بنو قحطان من اليمن مؤخرًا، وأنهم تركوا آثارًا في أثناء مرورهم ببلاد العرب حيث لا يزال يُشارُ إلىٰ مبانٍ عادية تحاكي عملَ الجبارِين، ويظهر أن العمالقة الذين يُعدُّون من فصيلة الرُّعاة أو الهِكْسُوس قد انتشروا في العصور الخالية في جميع أجزاء بلاد العرب، وأنه كان منهم فراعنةٌ كثيرون في مصر ولم يقيموا أبنية باقيةً مع ذلك، وكانت خاتمة الطَّوَاف أن تجمعوا في شمال جزيرة العرب مع الأدوميين والموآبيين والعمونيين واستولوا علىٰ سهوب بلاد الحِجْر العربية (بطرا) وعلىٰ سهول بلاد العرب الصحراوية المجاورة لفلسطين وسورية ودمشق، فحالوا بذلك دون دخول العبريين أرضَ كنعان، ولم ينفكوا يقاتلونهم قتالًا شديدًا، ثم غَلَبَهُم شاولُ (طالوت)، وأخضعهم داودُ الذي أضحىٰ سيدًا للبلد الواقع بين البحر الميت وخليج أَيْلَة (العقبة). ولم يلبث طموح سليمانَ أن امتدَّ إلىٰ ما هو أبعد من ذلك، فلم يقنع بالسيطرة علىٰ البحر الأحمر فَتَمْخُرَ فيه ما أنشئ في الفُرْضَتين أَيْلَةَ وَعَصيون جابر

(١) الصحيح أن ذلك كان في أوائل القرن السابع، لا في القرن السادس، وذلك لأن بدء البعثة النبوية كان في سنة ٦١١م. (المترجم)

من السفن، بل أراد أن يضيف إلىٰ تجارة بلاد العرب السعيدة (اليمن) تجارة الهند، وأن يَخصَّ بها شعبه بأن يحملَ عرب بوادي كَلْدَة علىٰ دفع الجزية، وقد وُفقَ لهذا، بَيْدَ أن موته سنة ٩٧٦ أدىٰ إلىٰ انفصال مملكة يهودا عن مملكة إسرائيل، فقطع بذلك ما بين أورشليم (القدس) ومدن آشور من الاتصال، وكَفَّتْ قبائل العرب عن إعطاء الجزية واسترد الموآبيون والعمالقة والأدوميون استقلالهم.

وَلِحُكم سليمان أهميةٌ عظيمةٌ في تاريخ العرب، مع ذلك فقد انتشر صيتُ هذا الملك الكبير في جميع جزيرة العرب، حتىٰ إن ملكة سبأ اليمانية سافرت إلىٰ القدس لتتحقق صحة ما كان يُروىٰ عن سلطانه، وما شاهدته هذه الملكة من أُبَّهَة بلاطِ ابنِ داودَ كان فوق ما سمعت فزاد إعجابها به، وإذا كان العرب قد خافوا، ذات حين، علىٰ حريتهم، فإن رُوعَهم هَدَأَ بما أبصروه من ضعف خلفاء هذا الملك وعجزهم، بَيْدَ أن الخطر أتاهم من ناحية أخرىٰ.

فَسُهُوبُ بلادِ العرب الصحراوية وبلاد الحجر العربية (بطرا) إذ كانت بين مصر وَكَلْدَة وَجَبَ أن تكون فريسةً لكل استيلاء يقع علىٰ هذين القطرين الغنيين، وهي ضرورية للفاتحين الذين يرغبون في امتلاك شواطئ الفرات والنيل، وَفَتَنَتْ ملوك نِينَوَىٰ وبابلَ الذين أرادوا الاقتراب من سواحل البحر المتوسط، وكان علىٰ العرب أن يقاوموا هؤلاء الأعداء الأشداء في بدء الأمر، فَوُفقوا لذلك فحررت كتائبهم الكثيرة العبريين من رِبْقَةِ الآشوريين غير مرة واعتبر كورش بالمصائب التي أصيب بها مَن ظهرَ قبلَه فلم يهاجم العرب قطّ، بل اكتفىٰ بدحر من كانوا يهددون عن كَثَب حدود ممالكه، ولما زَحَفَ قمبيزُ إلىٰ مصر دَارَىٰ سكان بلاد الحجر العربية (بطرا)، ثم سار خلفاؤه علىٰ غراره، فظل العرب غيرُ الخاضعين لأية جزيةٍ حلفاءَ مخلصين لهم حتىٰ انقراض دولة الماديين؛ ثم حضر الإسكندرُ ليُغيرَ علىٰ دارا قزمان (ابن دارا) فانحازوا إلىٰ هذا، فوقف الكثيرون منهم وقد كانوا مرتزقة لدىٰ بيطس، زَحْفَ ذلك البطل المقدونيِّ تحت أسوار غزة؛ وأراد آخرون منهم أن يمنعوه من دخول مصر، غير أن الإسكندر كان يعتمد علىٰ أسطوله الذي يُمِدُّه بالميرة الضرورية فمَرَّ، بغير مشقة، من فنيقية إلىٰ مصر محاذيًا شواطئ البحر، وهو لم يَنْسَ سلوك العرب، ولم يجازهم من فَوْره مع ذلك، ما عزم علىٰ

ألا يؤخر خِططهُ العظيمة ضدَّ ملك فارس طرفةَ عين، وفكر في الأمر عند عودته إلىٰ بابل بعد أن تقدم إلىٰ ما وراء نهر السِّنْدِ، وكان يَحفزهُ إلىٰ الحركة شيءٌ آخرُ غير الانتقام، أي كان يرىٰ أن فتح جزيرة العرب مما تَتِمُّ به انتصاراتهُ وأنه لا يستطيع أن يدَّعي أنه صار سيد آسية الغربية إذا ظل محرومًا تلك الجزيرة، فغدَا عاملًا علىٰ إرواء حرصه الثائر، فأرسل كثيرًا من ضباط أسطوله ليزوروا سواحل الخليج الفارسيِّ والبحر والأحمر، علىٰ حين كان وكلاؤه يُعدُّون جيشًا في مصر وسورية، ثم حضرته الوفاة وهو في الرابعة والثلاثين من سِنِيهِ تقريبًا، فنجا العرب بذلك، وكان قادته من كثرة الانهماك بمآربهم الشخصية ما لم يتصوروا معه أن يهجموا علىٰ العرب، وكانت بلاد الحِجر العربية (بطرا) قبضةَ قبيلةِ الأنباط، ولم يُكتب نجاح لِمَا قام به أَنْتِيغون ودِيمِتْريوس من المحاولات المتفرقة ضدها، وحينما أضحىٰ ملك البطالمة والسُّلوقيين ثابتَ الأساس تصدىٰ أولئك القادة لإخضاع تلك البلاد التي تفصل بين حدود دولتهم، فذهب ما قصدوه أدراج الرياح، ولم يكن بُومْبِيُوس أوفرَ حظًّا منهم، فأخذ الرومان يَنْشُدُون وُدَّ شعبٍ لم يقدروا علىٰ قهره.

ولم يبرز الأنباط الذين لم تقع عليهم عين في أثناء محاربة العبريين للعرب، إلا بعد غزو الإسكندر، ويعتقد مع ذلك أنهم كانوا مستقرين ببلاد الحِجْر (بطرا) منذ زمن بختنصر الثاني، ورَجَعهم كاترميرُ، في مُذكرته التي استشهدنا بها، إلىٰ أصل آرامي أو سرياني، مدعيًا أنهم أتوا من شواطئ دجلة والفرات، وألقىٰ ديودورس الصقلي نُورًا علىٰ أخلاقهم ذاكرًا بعض القوانين التي كانت سائدة لهم، مشيرًا إلىٰ ذكائهم مُحدثًا عن طِراز احتراب مقاتليهم، ومما كانوا يعاقبون عليه بالقتل بَذْرُ البرِّ وغرسُ الشجر المثمر وإقامة البيوت قائلين إن من يصنع مثل هذه الأمور يسهل الهوان عليه، ولم يكن لهم غير البرية منزلًا وغيرُ التجارة مشغلًا، وهم إذا ما وَرَدَ إليهم شيء من المُرِّ الصافي والبخور والأفاويه بطريق البحر الأحمر حملوه إلىٰ مرافئِ البحر المتوسط، وهم إذا ما هَدَّدَهم عدوٌّ أكثر منهم عددًا استدرجوه إلىٰ أماكن اعتزالهم وانزووا فوق صخرة منيعة فأكرهوا علىٰ السلم قائده الذي لم يستعدَّ للجوع والعطش، وتلك الصخرةُ مشهورةٌ، وعليها أُنشئت مدينةُ بطرا، والأنباطُ قاوموا جميع أعدائهم بفضل فنِّ حربهم اللبق، ولما قام

إليوس غالوس بغزوه لليمن ممتثلًا أمر أغسطس حوالي سنة ٢٤ قبل الميلاد اتخذ أحد الأنباط دليلًا له، ولما تاه في وسط البوادي اضطر إلىٰ العدول عن خِططه بعد بضعة انتصارات حربية هزيلة لا تعدلُ مشاقَّ الطريق، فأقلع الرومان عن فتح جزيرة العرب، ولا تكاد تُذكرُ حملةُ كاسيوس في عهد مارك أوريل سنة ١٧٠، وَلا هزيمةُ كومود، ولا محاولةُ سيفير ضدَّ بلاد العرب السعيدة سنة ١٩٥ أو سنة ١٩٩، وَلا انتصارُ مكرينَ الذي اشتُريَ بثمنٍ غالٍ سنة ٢١٧، إلخ، ولم يكن لجميع ذلك غيرُ نتيجة واحدةٍ مهمةٍ، وهي: أن بلاد الحجر العربية (بطرا) ضُمَّتْ إلىٰ الإمبراطورية الرومانية، وأن كورنيليوس بالما الذي كان عاملًا لتراجان جعل منها فلسطين ثالثة، فأضحت مدينة بطرا، التي زُيِّنَتْ بالمباني الفخمة والمسارح والملاعب والمعابد والقنواتِ، مستودعًا لتجارة عظيمة، فأخذ الأنباط يتوارون بالتدريج فزال اسمهم من التاريخ.

وكان قياصرة الروم سادةَ الملاحةِ في البحر الأحمر، وكانوا يحافظون علىٰ استقلال جزيرة العرب من حيث لا يدرون، بدلًا من القضاء عليه، وذلك في محاربتهم بقسوة للفرطانيين (الفُرْسِ الأُوَل)، وبينما كان الشعبان ينهكان قواهما علىٰ غير جدوىٰ كان العرب يعرفون كيف يهتبلون الفرص لإقامة دولتيهم القويتين علىٰ حدود بلادهم الشمالية، وهما: مملكةُ الحيرة أو الأنبار (حوالَيْ سنة ١٩٥) ومملكةُ غَسَّان (حوالي سنة ٢٩٢) ولكننا نرىٰ أن نُلقي نظرة علىٰ انفرادٍ إلىٰ أهمِّ الثورات التي حدثت في شمال بلاد العرب وجنوبها ووسطها، وذلك تمهيدًا لإدراك الوضع الذي كانت عليه جزيرة العرب قبيل ظهور محمد.

لم تَقُمْ في البلاد المجاورة لجزيرة العرب حكومةٌ قويةٌ منذ عهد الإسكندر إلىٰ حين خضوعها للرومان والفرطانيين، وكان ينطوي ضعفٌ كبير تحت ما كانت تتمتع به من الازدهار الظاهر دولةُ السلوقيين التي أكلتها الانقسامات الداخلية، وما كانت هذه الدولة لتحول دون قيام دول مستقلة في آسية الصغرىٰ، ولا دون انتصار المكابيين، ولا دون غزوات القبائل العربية، وكان من عادة هذه القبائل ألَّا تحترم حدودَ أكابر الملوك، وإذا كان من شأن مجاورتها للسلوقيين من ناحية الفرات أن تُرْدَعَ فإنها كانت تُوَفَّق في غاراتها الدورية من ناحية سورية، وهي

كانت تنتهز في كلِّ سنةٍ فرصة انهماك كتائب الأعداء في مغازيها البعيدة فتأخذُ بحدِّ سيوفها مغانم كثيرة ثم تعود علىٰ البادية بلا عقاب، ودامت أعمال سلبها، التي لا تستحق أن تُسمىٰ بالحملاتِ، إلىٰ زمن انقراض دولة السلوقيين، وكان الفضلُ في انقطاعها لسياسة الرومان والفرطانيين وأسلحتهم، وأقامت تانك الأمتان الحصون علىٰ الحدود، وَنُظِّمت الكتائب لمراقبة حركة العشائر المجاورة والعمل علىٰ التفريق بينها، واجتذبت هِباتُ الرومان رؤساء كثيرين فعاهدهم هؤلاء علىٰ زجر العشائر الرُّحَّل، فاستطاعوا أن يعصموا الحلفاء الجدد من الهجمات المتتابعة التي كانت تُهددُ أملاكهم، ومن الرؤساء من انحازوا إلىٰ الفرطانيين وكثيرًا ما كان الرؤساء ينتصرون لأحد ذينك الشعبين في أثناء اقتتالهما، فكان ما نَعلمُ من أن سبب نكبة قِرَاسُس هو رئيس عربيٌّ اسمه أَرِيمَن، فهذا الرئيس كان يتظاهر بالانتصار للرومان فاستطاع أن يَثنِي قائد المناطق الجبلية عن عزمه علىٰ التحصن بها، فاستدرج كتائبه إلىٰ وسط السُّهوبِ الواسعة حيث، كما قال بلوتارك، لا شجر ولا ماء وحيث لا تُبصرُ العين حدًّا يدعو إلىٰ الطمأنينة، فتمكن فرسان الفرطانيين، الذين كانوا متواطئين معه، من الهجوم علىٰ الرومان بما لديهم من عوامل النصر، فانتصروا بالخيانة علىٰ عدوٍّ نَهَكه الزحف الطويل، فكان عليه أن يدرأ عوادىٰ الجوع والعطش.

ولم يبدُ شأن العرب في احتراب الرومان والفرطانيين فقط، ولو كان لدينا علمٌ كافٍ بتاريخ الفرطانيين لوجدنا أن العرب كانوا يتدخلون، علىٰ الأرجح في فِتنِ هؤلاء وثوراتهم كما صنعوا في فتن رومة مع بُعدهم منها، وليس بمجهول أن بيسانيوس نيجر الذي انتخب قيصرًا للشرق سنة ١٩٣ كان يستند إليهم علىٰ الخصوص، وأن عربيًا اسمه فيليب لَبِسَ الثوب الأُرْجواني فأصبح صاحب التاج سنة ٢٤٦ غافلًا عن وطنه غيرَ نافع له، وأن العرب ظهروا علىٰ المسرح تبعًا لزينوبيا فهددوا آسية الصغرة فَخَفَّ إليهم أُورِيليان فخَرَّبَ تَدمُر فأصيبوا بضربة هائلة لم ينهضوا من تحتها (سنة ٢٧١).

ونذكر آل أذينة من الأمراء الذين ملكوا سورية الشرقية وقسمًا من العراق فكانوا معاصرين لأمراء الحيرة والأنبار الأولين، ويظهر أن آل أذينة كانوا قادةً

لفلول قبائل العمالقة القديمة التي هجرت منازلها مرةً أخرىٰ، وَيُفترضُ أن آخر هؤلاء الأمراء هو سِبْتِيم أديناس الذي كان زوجًا لزينوبيا فقُتِلَ سنة ٢٦٧، وَيَرْوِىٰ العربُ أنه هَلَكَ في الحرب التي شُنَّتْ علىٰ ملك الحيرة التنوخيِّ جذيمةَ فقتلت الملكةُ الزبَّاءُ (زينوبيا) جذيمةَ هذا بحيلةٍ، ومما يَقُصُّهُ العرب خبرُ عمرو بن عدي الذي كان من اللخميين أو النصريين، فانتقم من الزباء بأن خدعها قصيرُ بنُ سعدٍ فأخذها علىٰ حين غفلةٍ في قصرها، فقتلها عندما كانت تحاول الفرار من دهليزٍ مصنوع تحت مجرىٰ الفرات، وهذه الأنباء من الأساطير التي نُسجت بعناية فلا نقف عندها، وإنما نذكر أن الرومان بعد سقوط زينوبيا في سنة ٢٧٢ من الميلاد، فوضوا أمور حكومة العرب في سورية إلىٰ أمراء من التنوخيين ثم إلىٰ السليحيين الذين أزالت قبيلة غَسَّان ملكهم سنة ٢٩٢.

ولم يكن ظهورُ بني ساسان ونقلُ قاعدة الدولة الرومانية إلىٰ القسطنطينية ليحولا دون تصاول الأمم التي كانت تتنازع حكم الفرات، فقد تنافس الفرس والروم كتنافس الفرطانيين والرومان فيما مضىٰ، وذلك بعنادٍ أفاد مصالح العرب بما يثيرُ العجب.

وأضحىٰ ملوك الحيرة، الذين كانت أملاكهم تمتدُّ علىٰ ضفتي النهر، طلائع للجيش الفارسيِّ، علىٰ حين كان رؤساء غسان ملوكًا تابعين للروم مُثْرِين علىٰ حسابهم، وأقام التنوخيون، الذين غزوا العراق واستولوا علىٰ الأنبار سنة ١٩٢ بعد الميلاد، مدينةَ الحيرة علىٰ بُعدِ ثلاثة أميال من المكان الذي شيدت فيه الكوفة فيما بعد، وكان التنوخيون ينتسبون إلىٰ قبيلة قضاعةَ الكبيرةِ التي هي من أصلٍ يمانيٍّ، فكان يَقطُنُ أهمُّ فرعٍ منها في تهامةَ ثم في البحرين، فلما كانت سنة ٢٢٨ أعلن رئيس هذا الفرع جذيمةُ نفسه أميرًا تابعًا لأردشيرَ بنِ ساسان، ثم خَلَفَه عمرُو بنُ عديٍّ فكان رأسَ بيت اللخميين أو النصريين المالك الذي دام سلطانه إلىٰ سنة ٦٠٥ من الميلاد.

ولم يساعد عمرُو بن عدي عربَ مدينة حضر الواقعة في صحراء سنجار بين دِجْلَة والفرات والتي قاومت تراجانَ سنة ١١٦ وسيفير سنة ٢٠١ وبني ساسان سنة ٢٣١. فاستولىٰ عليها سابورُ الأول سنة ٢٤٠، وسيطر ملوكُ الحيرة علىٰ قبائل

العراق بعد أن خرب أوريليان مدينةَ تَدْمُر سنة ٢٧٢، فوسعوا رقعةَ دولتهم بالتدريج، وأوغلوا حتىٰ أنطاكية غير مرة، وحَذِقَ هؤلاء الملوك فنَّ الحرب، لا فنَّ الإدارة والحُكم، فتعذر عليهم أن يحافظوا علىٰ فتوحهم، فكانوا يقفون في الحرب عند حدِّ النهب، فكانوا يرتدون أمام العدوِّ فيتمُّ لهم نصر، علىٰ الدوام، بفضل تخنثِ الروم تاركين للفرس متابعةَ الحرب، ومن نتائج هذه المغازىٰ أن كانت كنوز آسية الصغرىٰ تتجمع في عاصمتهم، وأن كان هذا يساعد علىٰ منافستهم لأكاسرة طيسفونَ (المداين) وقياصرةِ القسطنطينية، وكانوا يُثيرُون بذلك حقدَ الرومان إلىٰ أبعد حدٍّ فيعمل هؤلاء للأخذ بالثأر غير مرة، فحارب ديوكلسيان في سنة ٢٨٩ وكنستانس في سنة ٣٥٣ الشرقيين، والشرقيون هو الاسم الذي كان يطلقه الرومان علىٰ عرب الشمال، فاستولىٰ يوليان علىٰ الأنبار سنة ٣٦٣ وَخربها، وقام فَلَنْسُ في سنة ٣٧٣ وتيودوزُ الشابُّ في سنة ٤١١ بِهجماتٍ جديدة، فكابد الملكُ المنذر الأول، الذي ساعد بهرام جور علىٰ الرجوع إلىٰ عرش الفرس، شرَّ هزيمةٍ دامية في سنة ٤٢١، وزعم المؤرخ سقراط أن مائة ألف عربي هَلَكوا في الفرات سنة ٤٤٨، وكان أنستاسُ أقلَّ حظًّا سنة ٤٩٨، فكاد يجلو عن العراق بأسره في حروب شَنَّها سنة ٥٠٢، وكان علىٰ النعمان الثالث الذي اشترك في هذه الحرب أن يدفع في السنة القادمة غزوَ قبائل بلاد العرب الوسطىٰ التي دعاها شيلتزيس بالقبائل التغلبية أو القبائل البكرية، وكان رئيسٌ هذه القبائل الحارثُ بن عمرو، الذي بدا سيدًا للحيرة ذات حين، من أنصار مذهب مَزْدَك المانوىٰ الذي رعاه قباذ، فخلع المنذرَ الثالث سنة ٥١٨، غير أن مزدكَ قُتِلَ بأمر أنو شروانَ بعد خمس سنوات، فأعيد إلىٰ المنذر الثالث جميعُ حقوقه، قال بروكوب: «ظلَّ هذا الملك أشدَّ أعداء الروم إرهابًا مدة تسع وأربعين سنة (٥١٣-٥٦٢) فقد كان مهيمنًا علىٰ الشرقيين (العرب) التابعين للفرس، فَبَغَىٰ علىٰ أملاكنا من كلِّ ناحية، فلم يَقْدِرْ أحدٌ من قادتنا ومن عُمالِنا العرب علىٰ مقاومته»، وكان ذلك الدورُ أكثرَ أدوار الحيرة ازدهارًا، ولما مات المنذر أضحت الحيرة خاضعةً لبنىٰ ساسان، فعاد هؤلاء لا يَرْضون بالجزية أو بأية علامة أخرىٰ دالةٍ علىٰ الاتباع، وكان نعمان الخامس آخرَ الأمراءِ اللخميين (٥٨٣-٦٠٥)، ثم انتصرت قبيلةُ بكر علىٰ الفرس في واقعة ذي قار سنة ٦١١، فصانت استقلالها في

البَحرين، وصارت الحيرةُ مَرزَبَةً فارسيةً يدير شؤونها نائب لكسرىٰ، وفي هذا الحين ظهر محمد علىٰ مسرح التاريخ.

اعترف عربُ العراق وما بين النهرين بسيادة ملوك الحيرة والأنبار منذ سنة ٢٧٢ وكان عرب سورية خاضعين للغساسنة في ذلك التاريخ تقريبًا، وكانت أزدُ التي هي من أصل يمانيٍّ قد استقرت ببطن مَرّ القريبِ من مكةَ حوالي سنة ١١٨ من الميلاد، ثم تفرق أهل هذه المستعمرة بعد مائة سنة من ذلك التاريخ ووقف غيرُ قبيلةٍ من القبائل التي كانت تتألف منها عند بِرْكَةِ غَسَّان الواقعة علىٰ حدود الحجاز فاشتُقَّ منها اسم الغساسنة الذي عُرِفُوا به في التاريخ، ثم تقدمت تلك القبائل، بعد إقبال وإدبارٍ، إلىٰ بُرَّة، وفي سنة ٢٩٢ نصب الرومانُ زعيمهم ثعلبة أميرًا تابعًا، ثم خلفه جفنةُ الأول فكان أصلَ الأسرةِ المالكة التي دام سلطانها إلىٰ سنة ٦٣٧ حين اعتنق آخرُ ملوك غَسَّانَ جبلةُ السادس الإسلام وكان الغساسنة مساعدين لقياصرة القسطنطينية في حروبهم ضد الفرس، وَتَنَصَّرَ الغساسنة حول منتصف القرن الرابع، وقاموا ضدَّ ملوك الحيرة بحروبٍ مستمرةٍ لم تُؤَدِّ إلىٰ نتيجة قاطعة، ونال الحارث الخامس، الأعرجُ بنُ أبي شمر، لقبَ ملكٍ ولقبَ بَطْرِيقٍ[1] من جوستينيان، وحضر في سنة ٥٣١ معركة كَلِنيكَة التي خسرها بليزار، ثم هزمه المنذر الثالث سنة ٥٣٩ فتلافىٰ هذا الخسران بعد سنواتٍ قليلة بأن غزا، منصورًا يهودَ خَيبر الواقعة في بلاد العرب، ثم سافر إلىٰ القسطنطينية فمات سنة ٥٧٢، ومما ذُكِرَ في أقاصيص العرب وأخبار الروم نبأ ملكتين غسانيتين مشهورتين هما: ماوية التي أعانت أرملة فالنس في أثناء حصار القوط لها وهي في عاصمتها سنة ٣٧٧، والأخرىٰ مارية الملقبة بذات القُرْطَين لإهدائها بعد تنصرها إلىٰ معبد مكةَ قُرْطَين لا يُقَدَّرَان بثمن.

وساعد الغساسنةُ حليفيهما موريس (٥٨٤-٥٨٨) وهرقلَ (٦١٠-٦٤١) علىٰ انتصاراتهما وقاتلوا في مؤتة سنة ٦٢٩، وقاسموا الرومَ سوءَ هزيمتهم في اليرموك ٦٣٤، ولم يخضعوا للخلفاء إلا بعد ثلاث سنين.

---

(١) البطريق: رتبة شرف عند الرومان، وبطارقة الروم كأقيال حمير، وأما البطريرك فهي رتبة رؤساء الكنائس (المترجم).

إذَنْ كان شمالُ جزيرة العرب محصورًا في أوائل القرن السابع بين الفرس والروم أصحابِ مصرَ وفلسطين، وجزيرة سيناء تقريبًا، وإن شئت فقل كان يؤدي الجزية إلىٰ دولة القسطنطينية ودولة طيسفون (المدائن) اللتين كان لهما سلطانٌ مبينٌ علىٰ بَوَادِي سورية والعراق وما بين النهرين.

ولم يَتَفَلَّتْ جَنوب جزيرة العرب من نِير الأجنبي زمنًا طويلًا، فقد أقام فيه بنو قحطان عدةَ عمارات بعد آل سبأ الذين شادوا فيه مأربَ وظفارَ وعدنَ ونجران إلخ. وما لدينا من الفرضيَّات الحديثة، التي يتعذر علينا أن نُسلم بها علىٰ عِلاتها، لا يَرْجِعُ هذه العمارات إلىٰ ما هو أقدم من سنة ٧٩٤ قبل الميلاد، وبالحميريين، الذين كانوا ينتسبون إلىٰ أرومة واحدة هم وأولئك، بدأ سلطان التبابعة الذي لم يَزُلْ إلا بسلاح الأحباش سنة ٥٢٥ بعد الميلاد، ومن التبابعة نذكر ملكَهم الأولَ الحارث الرائشَ الذي جمع كلَّ سلطةٍ بيده وتغلب علىٰ حضرموت ومهرةَ وعُمانَ.

وزاول أهلُ اليمن أمورَ الزراعة والتجارة في عهد التبابعة، فكان ما تعلمُ من خبر نظام الري الواسع الذي توزعُ به المياه في جميع نواحي اليمن، وكان البخورُ والعطورُ موردَ غِنًىٰ لليمن، قال المسعودي: «كان أهلُ اليمن في أطيب عيشٍ وأرفهه وأهنأِ حالٍ وأرغده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاءِ الفضاء وتدفق المياه وقوةِ الشوْكة»، وعند المقريزي أن الخط الحميرىٰ المعروف بالمُسندِ كان مؤلفًا من حروف منفصلة، ويظهر أن الكتابات التي اكتشفها ويلسِتِدُ وغُروتِنْدِنُ وهاليفي نماذجُ لهذا الخطِّ، بيد أن العلماء لم يستقروا علىٰ رأيٍ في ذلك.

وفي سنة ١٢٠ بعد الميلاد تقريبًا وقع حادث قليلُ الأهمية في ظاهره، فكان ذا شؤم علىٰ الحِمْيَرِيين، وبيان الأمر: أنه كان يوجد بالقرب من مأرب سدٌّ واسعٌ مُعَدٌّ لحفظ الماء الذي يتجمع علىٰ سفوح جبلين، فما كان هذا الماء المحصور بين منحدراتهما المرتفعة ليجريَ إلا من منفذٍ واحد، فإذا ما سُدَّ هذا المنفذ تَأَلّفَ حوضٌ عظيم تُرْوَىٰ بمائه الحقول علىٰ حسب احتياجات الفِلاحة، فلما فاض الماء فيضانًا مفاجئًا ذات مرة خَرِبَ السدُّ فتفلتت المياه من الحواجز التي صنعتها

يد الإنسان وتدهورت علىٰ الأرياف وأتلفت كلَّ شيءٍ وجدته في أثناء اندفاعها، ولم يكن للحادث ما بعده لو أراد السكانُ أن يعيدوا ما كان إلىٰ حاله السابقة، ولكنهم فَزِعوا من المشاقِّ والأخطار التي تنجم عن تنفيذ هذا المشروع، فَعَزَوْا إلىٰ انتقامٍ رباني هذه المصيبة التي فُتح لهم عهدٌ جديدٌ بها، وهم إذ غَدوْا مُعرضين لفيضاناتٍ دوريةٍ بسبب إهمالهم هجر أكثرهم بلاد اليمن ليقيم مملكة الحيرة ويقيم مملكة غسان.

وَعَمِلَ التبابعة لإعادة سابق رَوْنَقهم علىٰ غير جدوىٰ، وعانىٰ التبابعة مشاقَّ كثيرة للمحافظة علىٰ سلامة حدودهم، لا لتوسيع سلطانهم، واستولىٰ الأجنبيُّ علىٰ اليمنِ في القرن السادس من الميلاد، فلم يلاق فيها من يقاومه بجدٍّ لِمَا كانت عليه من الفوضىٰ، وسهل علىٰ الأجنبيِّ أن يستقرَّ باليمن بعد أن حُرمت غِناها بهجرة زُراعها منها، وكان هذا حوالي سنة ٥٢٥ حين حلَّ جَوْرُ الأحباش والفرس محلَّ حُكمِ التبابعة القوميِّ.

وكان لحكم التبابعة أدوارٌ مَجِيدة، وعَنَّ لمؤرخي العرب أن يجعلوه نموذجًا لِكُبرَيَاتِ الدول، ولو وجب تصديق قصصهم لوجب أن تكون دولةُ التبابعة قد اشتملت علىٰ قسمٍ من أقطار آسية وأخضعت الهند وحاربت ملوكَ الصين، ولوجب أن يكون من التبابعة من أَوْغلُوا في المغرب فبلغوا شواطئَ المحيط الأطلنطيِّ ومن جَدَّدُوا غزو الإسكندر، ومن المستحيل أن يُوفَّقَ بين هذه الأحاديث وما لدينا من أنباء أمم الشرق الأخرىٰ، فيجب، إذن ردُّها علىٰ أنها مختلقةٌ وأن يُكْتَفَىٰ بالقول إن اليمن كانت ذاتَ حكومةٍ منظمة منذ القديم.

وليس من الصعب تفسيرُ تلك الأقاصيص، فتاريخُ العرب لم يبدأ، بالحقيقة إلا في إبَّان عظمتهم وقوتهم بعد ظهور محمد، فلما بَهَرَت العربَ سرعةُ انتصاراتهم خيِّل إليهم أن أجدادهم من القادة المشهورين، فأرادوا رفع أصلهم فجسَّموا أمرَ الدولة الوحيدة التي كان لها بعض الأهمية فحافظت بلادهم علىٰ ذكراها، فمن هنا كان تُبَّعٌ ذو القرنين الذي لم يكن سوىٰ ابن فيليب المقدونيِّ، ومن هنا كان أفريقشُ الذي قهرَ البربرَ سنة ٥٠ قبل الميلاد، ومن هنا كانت بلقيسُ التي مَلَكَت بعد أفريقش بزمن طويل فلم يفرق العرب بينها وبين ملكة سبأ

المعاصرة لسليمان، ومن هنا كان شَمِر الذي بَنَىٰ سمرقند إلخ، ومن هنا كان نبأُ فتوحات التبابعة الذين لم يخرجوا من جزيرة العرب علىٰ ما يحتمل ولم يكن تاريخهم في الداخل سوىٰ قَصص حروب وأسلاب متصلة فأضيفت إليه أحاديث عن وقائعَ خارقةٍ للعادة غيرِ صحيحة.

وليس هنالك اتفاقٌ علىٰ خبر ما وقع من الحوادث بين تصدُّعِ أسداد مأرب والغزوِ الحبشيِّ فنشير إلىٰ المهم منها فقط، فما يُقصُّ أن تُبَّعًا أبا كرب غزا بلاد فارس فعاد مُثقَلًا بالغنائم فاستولىٰ علىٰ الحجاز أثناء رجوعه فحاصر يثرب المتمردة فزار الكعبة فاعتنق اليهودية فأدخلها إلىٰ اليمن، ومما يُقصُّ أن تيوفيلَ رسولَ القيصر قسطنطين بشَّر بالنصرانية في اليمن مع بقاء الوثنية دين البلاد السائد، وأن ملك الحِمْيَرِيِّين ذا نُوَاس تَهوَّد في أواخر القرن الخامس فأمر في سنة ٤٢٤ بقتل أهل نجران النصرانيةِ لامتناعهم عن الاقتداء به فعلمَ جوستانُ الأولُ خبر هذا الظلم فطلب من نجاشي الحبشة النصرانيِّ أن ينتقم من ذي نُوَاس فاستولىٰ النجاشي علىٰ اليمن بجيش مؤلف من سبعين ألف مقاتل، فلم يجد قائدُ الجيش أرياطُ عُسْرًا في إخضاع شعب نهَكَتْهُ الفتنة، فغلب ذا نواس، فقتلَ ذو نواس نفسه غرقًا في البحر سنة ٥٢٥، فاستطاع أرياطُ بعد موت علس ذي جدن خليفة ذي نواس، أن يقيم حكمه في اليمن بلا منازع، فحسد أرياطَ عاملُهُ أبرهةُ الأشرمُ لِمَا ناله من سلطان فقتله أبرهةُ غدرًا فجمع أبرهةُ جميع الأحباش تحت إمرته فانتحل لنفسه لقبَ نائب ملك فوجب عليه أن يخوض غِمَار عِدَّةِ حروب ليحتفظ بسلطته التي أخذها غصبًا فخرج من هذه الحروب ظافرًا.

وأبرهةُ هذا هو الذي أمر أُسقُفَ ظفارَ غِرِيجِنْسِيُوس بأن يُدَوِّن مجموعةً للقوانين فوُجدتْ نسختها الأصلية اليونانية في المكتبة الإمبراطورية بفينة، وفي صنعاءَ أُقيمت كنيسةٌ فخمةٌ إلىٰ الغاية لِتَحُلَّ محلَّ الكعبة، وكانت جهودُ أبرهةَ في جعل النصرانية دينَ جزيرة العرب الوحيد غيرَ مُجدِيةَ، وهو لم يَلبثْ أن مات بعد أن غُلِبَ أمام مكة التي أراد أن يهدم معبدها، فأسفرت مظالم أولاده عن جعل استبداد الأحباش أمرًا لا يطاق، فلم يقدر أهل اليمن علىٰ رفع النِّير عن كواهلهم بأنفسهم فطلبوا الحماية من أمراء الأجانب.

ولم يَسْطِعْ قيصرُ القسطنطينية الانتصارَ لشعب وثني فردَّ طلب أهل اليمن، ولم يَبْدُ كسرىٰ برويزُ، الذي حَرَّضه ملك الحيرةِ، صعبًا فأرسل في سنة ٥٧٥ أسطولًا إلىٰ عدنَ حيث أنزل كتائبه، فهَزَم الأحباشَ فطُرِدُوا من اليمن حوالي سنة ٥٩٧.

وظلت حالُ أهل اليمن كما كانت، فقد حُمِلُوا علىٰ إطاعة الفُرْسِ كما أطاعوا الأحباش، ولم يُؤذَوْا في شعائرهم الدينية مع ذلك، وَبَسَطَ المَرَازِبَةُ الجدد سلطانهم علىٰ حضرموت وعُمان والبحرين فضلًا عن ذلك.

إذن، كان يَحِيقُ بجزيرة العرب أخطارٌ عظيمة في القرن السابع، إذن، كان يَجْثِمُ علىٰ حدودها جاران قويان ويقتطعان منها بعضَ الأجزاء، ففصل قيصرُ الروم منها ولاية ليُدمجها في دولته، واستولىٰ كسرىٰ الفرس علىٰ أغنىٰ بقاعها.

وظلت نجدُ والحجازُ سالمتين من أي تسلط أجنبي، فإليهما وجب أن تلجأ كلُّ قوميةٍ عربيةٍ لتنيرَ الخارج فيما بعد، ولم تقم فيهما دولة متسلسلة المراتب كدولة التبابعة، فكانت تملكهما قبائل مستقلة راضيةٌ بأن تُدَبِّرَ أمور نفسها بنفسها مضحيةً بكلِّ غال لوقاية حريتها، ولم يتغير منظر هذه القبائل ولا تاريخُها منذ قرون، فكانت كالمجتمعات الصغيرةِ المتماثلةِ في الطبائع والعادات والأخلاق والمنفصلِ بعضها عن بعض في النظام السياسي والمتشابهة في أخبار حروبها ومنافساتها الدامية، ولم تسيطر واحدةٌ من هذه القبائل علىٰ الأخرىٰ لِمَا كان من تقاربها قوةً وموردًا، فكانت الثرواتُ، التي تُقسم بحسب الحظِّ عادةً، موزعةً علىٰ السواءِ بينها، أجل، كان بعض القبائل يغتني من التجارة، ولكنه كان ينشأ عن واسعِ العلاقاتِ احتياجاتٌ جديدةٌ فيقعُ التوازن.

وكانت القبائل المالكة لمدينتي الحجاز الكبيرتين (مكة ويثرب) تجيء في الصفِّ الأول، وكانت سِدَانَةُ الكعبة لجرهم الذين أَتَوْا من اليمن فَيُفترضُ أن إسماعيل صاهرهم، واختلطت عبادةُ الأصنام بعبادة إله إبراهيم منذ البداءة، ونجمَ عن إلحاد جرهم طردُهم حوالي سنة ٢٠٦ بعد الميلاد، وكانت قبائلُ كثيرةٌ من بني قحطان قد هاجرت إلىٰ الحجاز في مختلف الأزمان، فانتشرت قضاعة في البقاع الواقعة بشمال يثربَ، وأنشأ الأزديون حوالي سنة ١٨٠ من الميلاد

مستعمرةَ بطن مرّ التي ذكرناها آنفًا، أي قبل أن يذهبوا إلىٰ البحرين والعراق، وخَلَفَتْ خزاعةُ، التي هي من بطون أزد، جرهَم في سِدانة الكعبة سنة ٢٠٧ تقريبًا، فكانت سببًا في إدخال كثير من العادات الوهمية كعبادة هُبَل علىٰ الخصوص، وكانت الكعبة تحتوي جميعَ آلهة العرب، فتمثلُ الأصنامُ ال ٣٦٠، التي تشتمل عليها آلهة تابعةً واسطةً إلىٰ الله، ووَجدتْ خزاعةُ في القرن الخامس من الميلاد المنافسَ الموهوبَ في قريش الذين هم من ذرية إسماعيل فقبض رئيسُهم قُصَيٌّ علىٰ زمام السلطة العليا في سنة ٤٤٠ فنزلتْ خزاعةُ ببطن مرّ، وَجَمعَ قُصَيٌّ قبائل قريش حَوله، وجعل من مكة مدينةً مهمة، وأُقيم في مكة نظامُ حكومةِ الأعيان، وقُسِّمَتْ خِدَمُ الكعبة بين مختلف البطون، فَجُعِلَتْ الرِّفادةُ (وهي إعانةٌ تحولت إلىٰ ضريبة سنوية) والسِّقاية لهاشم المشهور بتوزيعه الحَسَا (الدَّشيشة) في كلِّ يوم، ثم لجدِّ محمدٍ، عبد المطلب الذي جَدَّدَ بئر زمزم في سنة ٥٤٠ كما رُوِي.

وتقول القصةُ إن العمالقة هم الذين شادوا يثرب، ثم انتقلت يثربُ إلىٰ قبائلَ من اليهود نذكر منها بني النَّضِير وبني قُرَيْظَةَ وبني قَيْنُقَاع إلخ، فلما كانت سنة ٣٠٠ بعد الميلاد استقرت القبيلتان الأزديتان الأوسُ والخزرجُ بأراضي أولئك واستولتا علىٰ يثربَ في سنة ٤٩٢، ثم انقسمتا بعد أن قاومتا غاراتِ تابعة اليمن، ودبَّ الضعف فيهما لِمَا نشَبَ بينهما من الحروب في السنوات ٤٦٧ و٥٢٠ و٥٨٣ و٦١٥، ثم سادهما الوِئَام بعد خمس سنوات فاتصلتا بمحمد.

ومارست القبائلُ اليهودية تجارةَ القوافل بنشاط، وصارت يثربُ تنافس مكة ثَرَاءً، ومكةُ كانت قد تفلتت من خَطرٍ داهم، فالعربُ إذ كانوا يحترمونها وَيُقدسون لمعبدها المعروف بالكعبة هَجَمَ عليها الأحباش الراغبون في نشر النصرانية في جزيرة العرب، فغزا أبرهة الأشرمُ الحجازَ علىٰ رأس جيشٍ مؤلفٍ من أربعين ألف رجلٍ فاستولىٰ علىٰ الطائف وَتبَالة، فاستبسلت قريشٌ في الدفاع عن مكةَ فأنقذتها من المصير الذي لاح أنه لا شيء يحفظها منه، فَعَزَت القصة إنقاذها إلىٰ الآلهة فزاد تكريمُ الناس لها.

وكانت مكة عاصمة جزيرة العرب بالحقيقة، ولم يُقِرَّ عربُ نجد والحجاز بسلطان قريشٍ السياسي مع ذلك، فكانوا يديرون شؤونهم بأنفسهم غير مكترثين للمصالح العامة، وكانوا يعلمون ماذا يقع حولهم مع ذلك، فأبصروا أن مِثلَ مصير الأنباط وَحِميَر مُصْلَتٌ فوق رؤوسهم وأن النجاةَ في الاتحاد.

وهنالك عوامل كثيرة كانت تَحْفِزُ القوم إلىٰ الوحدة العربية وهي:

أولًا: اتحادُ الأصل، فقد زال ما كان بين بني إسماعيل وبني قحطان من التنافس، لِمَا نتجَ عن غزوة نجاشي الحبشة من التقريب بينهم، فلم يبق لانضوائهم إلىٰ رايةٍ واحدةٍ سوىٰ خُطوةٍ واحدة.

ثانيًا: وَحدةُ الطبائع والعادات، فإذا ما استثنيت بعض القبائل النصرانية أو اليهودية وجدتَ جمهور العرب كان متمسكًا بأوهامِ الوثنية وقديم التقاليد، كعادة الختان والتضحية بجنس في سبيل الجنس الآخر واستعبادِ المرأة وتعددِ الزوجات وَوَأْدِ فقراء الآباء للبنات خَشيةَ الفضيحة ذات يوم، ووجدتَ العُجْبَ الهمجيَّ مع المغالاة في الشعور بالكرامة وما إلىٰ ذلك من مبادئ الفروسية التي تؤدي إلىٰ البطولة وتوحي بالشجاعة والكرم والانتصار للمظلوم باسم العدل وتفضيلٍ الوفاء بالوعود علىٰ كل شيء حتىٰ الحياة، ووجدت ما كانت تُبديه بلاد العرب من حبِّ الانتقام وما يَجُرُّ إليه من الشططِ وفرضِ مبدأ القِصاص علىٰ الجميع، وضرورةِ المساواة، والنهبِ وقطعِ السَّابِلَةِ اللذين يُسوِّغُهما الظَّفَرُ وإحلالُ الكَيدِ والقوةِ محل الحق، والقِرَىٰ مع إنكار الذات نحو الضيف، والتَّعَطُّشِ الشديد إلىٰ بُعْدِ الصِّيتِ وما يؤدي إليه من حميد الفِعَال وعظيمِ الآثام، ووجدتَ للحرص في جزيرة العرب أكبر شأن.

وليس من الصعب أن نُبْصِرَ أن تلك النفوس الفائرة المخاطرة إذا ما توجهتْ إلىٰ غرض واحد صالت صَوْلَةً لا تقاوم، وكان لا بدَّ من توفُّر شرطين للوصول إلىٰ مثل هذه النتيجة وهما: وحْدَةُ اللغة ووحْدَةُ الدِّين.

أُدْرِكتْ وحدة اللغة إلىٰ حدٍّ، فالعربُ إذ كانوا طَوْعَ غرائزهم، أَعَدُّوا ما تُصهرُ به لهجاتُ قبائلهم الكثيرة، وهم، إذ كانوا حِرَاصًا علىٰ نقل ذكرىٰ أعمالهم إلىٰ الحفدةِ، أحبوا الشعر الذي كان وسيلةً إلىٰ بلوغ ذلك وأرادوا ذيوع خبر

مجدهم في أرجاء جزيرتهم، ولكن ما يؤلفه أهلُ نجد والحجاز لم يكن لِيفهمهُ أهلُ اليمن، ولم تكن قبائلُ مِنطقةٍ واحدةٍ لتتخذ تعابير واحدةً، فانتحل الشعراءُ، لذلك رسالة إبداع لسانٍ أَعمَّ من ذلك، فكان من نتائج قصائدهم التي تُرددُ في كلِّ مكان أن أُقرَّت الكلمات التي يُعبرُ بها عن الأفكار تعبيرًا جازمًا، فكانت القبائل التي تستعمل تعبيرين مختلفين للإعرابِ عن رأي واحد تتخذُ التعبيرَ الذي اختاره الشاعر، فنشأ عن هذا أن تَكوَّنَ لسان العرب مقدارًا فمقدارًا.

وأدرك العرب فوائد الحضارة في ذلك الوقت، وأحاطوا أعمال الروح بما تستحقه من الاحترام، بعد أن كانوا لا يُؤَدُّونه إلا لفوز القُوَىٰ الجُثمانية، فقد أنشأ العرب أسواقًا عامةً يتعارفون فيها ويتَحابُّون، فلم تكن هذه الأسواق التي تقام في قرية عُكاظ الصغيرة الواقعةِ بين الطائف ونخلةَ علىٰ مسافة ثلاثة أيام من مكة، وفي المجنَّة، وفي ذي المجاز الواقع خلف جبل عرفات سوىٰ مؤتمراتٍ للشعر في الحقيقة.

ولا شيء أروع من تلك الأسواق علىٰ ما كان يسودها من البساطة، فقد كانت تشابه الألعابَ الأولمبية، فكان ينهض مقاتلٌ مُتزنُ الخُطىٰ أمام جمهور صامت جامع لحواسه، فلم يكن عليه من الزينة ما يشير إلىٰ أنه من طبقة عالية، فكانت الأبصار تتوجه إليه مع ذلك، فيُنشِدُ بصوته الرخيم من فوق مرتقًىٰ قصيدةً بأسرها، فتراه يَتَرَنَّمُ بأعماله السامية وشرف عشيرته أحيانًا، وتراه يَصِفُ نِعمَ الانتقام أحيانًا، وتراه يمتدح القِرَىٰ والشجاعةَ، ولا سيما الكرامة، أحيانًا، وتراه يُصَوِّرُ عجائبَ الطبيعة وعُزلة الصحراء والمناهل المُبتغاةَ وخِفَّةَ الغزال أحيانًا، وذلك علىٰ حين يسير الجمهور مع المشاعر التي يَوَدُّ الشاعر أن يُوحىٰ بها إليه، فيُشاهدُ علىٰ وجهة المُتنَبِّه علائم الإعجاب بالبطل الصابر في الضراء كما تُشاهدُ عليه علائمُ احتقار الجبان النَّذل، وما كان المستمعون لِيُخفُوا عواطفهم، والشاعر كلما تَوَسَّمَ اعتراف الجمهور بقدرته عاد إلىٰ نشيده بحماسة جديدة.

وشعراءُ العرب إذْ كانوا ذوي سلطان لا يبارَىٰ بَدَوْا مؤرخين لبلادهم قبل ظهور محمد، وشعراءُ العرب إذْ بَدَوْا قادة الرأي كانوا يرفعون أقوامًا ويَخفِضُون آخرين فيخشاهم الناس مع الاحترام، وقصائدُ الشعراء إذ ما تَقبلتها مؤتمرات

عكاظ بقبولٍ حَسَنٍ كُتِبَتْ بحروفٍ من ذهب علىٰ نُسُجٍ ثمينة وعُلِّقتْ في الكعبة لِتُحفظَ لِلحفدةِ.

فبفضل ذلك انتهت إلينا سبعُ قصائدَ أو معلقاتٍ لا تزالُ أسماءُ ناظميها مشهورةً وهم: امرؤ القيس المتوفىٰ سنة ٥٤٠، وطَرَفَهُ بن العبد المتوفىٰ سنة ٥٦٤، وعمرو بن كلثوم المتوفىٰ سنة ٦٢٢، والحارثُ بن حِلّزَة المولود سنة ٥٤٠، ولبيدُ بن ربيعة المتوفىٰ سنة ٦٦٢، وزهير بن أبي سُلمىٰ المتوفىٰ سنة ٦٢٧، وعنترة بن شَدَّاد المتوفىٰ سنة ٦١٥.

ويُمثلُ عنترةُ بن شداد شعر ما قبل الإسلام علىٰ الخصوص، ويستمع العرب تحت الخيام مساء لتلك الأشعار العجيبة بلذة، وهي التي تجمع بين سِحْرِ القصة المؤثرة المحزنة وَعُذُوبَةِ اللحنِ وفَتنهِ، فيجدونها شاملةً لِمَا يُثيرُهم من العواطف والشجُون، فكأنها وُضِعَتْ بلغةٍ معبرة عما يجيشُ في صدورهم.

ويُقدر أولئك الشعراء مع آخرين [كالمرقِّشَيْن (٤٩٥ و٥٣٠) والنابغة الذبياني (٦١٥) ودريد بن الصِّمَّةِ (٦١٠) وحاتم (٦٢٠) والأعشىٰ (المتوفىٰ حوالي سنة ٦٢٩)، الخ] تقديرًا عظيمًا.

ويشير أولئك الشعراء في أشعارهم إلىٰ الحوادث التي وقعت في نَجْدَ بين قبائل بلاد للعرب الوسطىٰ المستقلة، ومنها وقفُ معركةِ البيضاء لِغزواتِ أقيال اليمن، ومنها فتوح أمراء قبيلة كِندَة السابقين وفتوح الحارث الذي أصبح ملك الحيرة سنة ٥١٨، ومنها انتصارات سُلان (٤٨١) وَخَزازَ (٤٩٢) التي كتبت لربيعة وابنهِ كليب علىٰ عرب حِمْيَر، ومنها حربُ البَسُوس التي دامت بين بكر وتغلب من سنة ٤٩٤ إلىٰ سنة ٥٣٤، ومنها فوز أمير غطفان زهير علىٰ هوازن حوالي سنة ٥٦٧، ومنها حرب داحس الطويلة التي دامت بين بني عبس وذبيان من سنة ٥٦٨ إلىٰ سنة ٦٠٨، ومنها الحرب التي نشبت بين بني تميم وبين بني عامر حوالي سنة ٥٧٩، ومنها القتال المعروف بالرَّقْمِ والنُّبَعة واللِّوىٰ وسَلَىٰ وحوراء والذي اشتعل بين بني عبس وذبيانَ المؤتلفين وهوازن وبعض القبائل المُتَحَدِّرة من عِرْق خَصَفَة فدام من سنة ٦٠٩ إلىٰ سنة ٦١٥، ومنها احترابُ تميم وبكر الذي لم يَنْتهِ إلا سنة ٦٣٠ بعد الميلاد حين أسلمت هاتان القبيلتان.

وَتَجِدُ في شعر الشعراء الذين اشتهروا في هذا الدور وصفًا صادقًا لحياة عرب البادية الذين لم يُفسد الزمنُ طبائعَهم فكانت عنوان الشجاعة.

وليس من النادر أن كانت تحدُثُ بعدَ الوقائع الدامية مبارياتُ فخرٍ وكرمٍ عُرفت بالمُنافرَات كالتي حدثت في بني عامر سنة ٦٢٠ عند تنازع علقمةَ وعمرو بن الطفيل قيادة القبيلة، فقد عَرَضَ هذان الشاعران المقاتلان خصامَهما علىٰ رئيس قبيلةٍ أخرىٰ، فَحَلَّفَهُمَا هذا الحكمُ الجليل علىٰ الإذعان بغير لَجاج لِحُكْمِه الذي أجل النطق به مدة سنة، فحاول ذانك المتنافسان أن يأتيا في تلك الأثناء من أعمال الشجاعة والفضيلة ما يشار به إليهما بالبَنَان، فَيُخَيَّلُ إلىٰ الناظر إلىٰ ذلك أنه يعيش في دور الفروسية، فلما حلَّ الزمن المُقرَّرُ أعلن الحكمُ استحقاق كليهما للقيادة فاقتسما السلطة فظلَّا متحدين اتحادًا وثيقًا، فأحكامٌ كهذه كانت تصدر في احتفالٍ عظيم فتؤثر في النفوس تأثيرًا عميقًا، فلا نرىٰ، بعد تلك الأمثلة، ما يُستغربُ في خصال حاتم وزيد الخيل الطائيين اللذين كان يُضرَب بكرمهما المثل في أوائل القرن السابع من الميلاد.

وبينما كانت أقاصيص الشعراء تَطْبَعُ اللغة العربية بطابع الوحدة كان يَنضجُ في النفوس ما يؤدي إلىٰ نهوض القومية العربية علىٰ أساس متين، فالناس عادوا لا يؤمنون بالأصنام التي قامت عبادتها مقام عبادة الله منذ البَدَاءة، وأخذ الشعور الديني يَطفحُ من كلِّ ناحية، وَبَدتْ آثار الخلاف في كل جهة، وهجرت قبائلُ العبادةَ القديمة منذ زمن، وأصبحت تُعَدُّ في جزيرة العرب عِدَّةُ أديان عدا عبادةَ الأصنام، وأكرم بنو إسماعيل اليهود الذين طردهم الآشوريون والرومان والروم من بلادهم، وَرَأَوْا في أحاديث هؤلاء المطرودين احترامًا عميقًا لإله إبراهيم، وكان من نتائج هذه الذكريات التي أُثيرت بمهارةٍ اعتناقُ بعض العرب لليهودية، وصرتَ تُبْصِرُ انتشارًا لها، علىٰ الخصوص في خيبرَ ويثربَ الحجازيتين حيث تَوَطَّنتْ قبائل قوية كبني قُرَيْظَةَ وبني النضير منذ زمن طويل، وصرت تُبْصِرُ فريقًا كبيرًا من اليمن قد اعتنقها أيضًا، ومما ألمعنا إليه فيما تقدم أن أناسًا من التبابعة أعانوا علىٰ إدخال دين موسىٰ إلىٰ بلادهم حوالي سنة ٢٢٥ و٣١٠ و٤٩٥ من الميلاد، ودانت حِمْيَرُ بالصابئية أو المجوسية، وانتشرت هذه الديانة في شواطئ

الخليج الفارسيِّ، وكان يُرَىٰ بين سكان عُمَان أتباعٌ للبرهمية.

وانتحل الغساسنةُ، منذ سنة ٣٣٠، النصرانية التي كُتِبَ لها الفلاح في غير ناحية من بلاد العرب كما انتحلتها قبائلُ كثيرةٌ في العراق وما بين النهرين والبحرين وصحراء فارانَ ودومةِ الجندلِ، وكان من نتائج جهود نجاشي الحبشة وقيصر القسطنطينية ذيوعُ الإنجيل في اليمن، ومن شَرَفِ مستعمرة نجران النصرانيةِ أن كانت عُرْضةً للاضطهاد في عهد ذي نُوَاس حَوالي سنة ٥٢٣، وحاول أبرهةُ بعد ذلك التاريخ بخمسين سنة أن يجعل من كنيسةِ صنعاءَ موضعَ حَجٍ للعرب، ووجد من ملوك الحيرة من عَطفُوا علىٰ دين عيسىٰ حوالي السنوات ٣٩٥ و٥١٣ و٥٨٢.

وظلت الوثنية دِيانة جزيرة العرب السائدةَ بين المبادئ الجديدة التي انتشرت بالمواعظ والدعايات، وما كانت الآلهةُ، التي هي وسائلُ يُمجدها بعض القبائل، لتشابه الموجوداتِ الأدبيةَ التي ابتدعها الإغريق والرومان فعبدوها علىٰ صورٍ جُثمانية، بل كانت كما عند قدماء المصريين مؤلفة من حيوانات أو نباتاتٍ كالغزال والخيل والجمل والنخل والكَلأِ أو من أجسام غير عضوية كالصخر والحجر، إلخ. وكان العرب يقولون بإلهٍ عليٍّ، يقولون باللهِ، وكان بعض العرب يعبد الملائكة علىٰ صور الأصنام فيدعوها ببنات الله، وكان بعضهم يعبد الكواكب السيارة أو النجوم كالدَّبَرَان والشعرَىٰ وسُهَيْل، إلخ. وكان العرب يؤمنون بالجنِّ والغيلان والسحر والكهانة والقرابين والهواتف، وكانوا يستقسمون بسهام غيرِ مُسَنَّنَةٍ تُسمىٰ القِدَاحَ أو الأزلامَ، فيرضونَ بأسخف الخرافات، وكان لقبائلَ غير قليلة أصنامها الخاصة كَهُبَلَ واللّاتِ، إلخ. فتكرمها بأثمن الهدايا، وَتقربُ لها الضحايا، وما كان لمعبدٍ من النفوذ كما كان للكعبة التي أجمع الجميعُ علىٰ رِفْعَةِ شأنها.

وكانت الكعبة التي أراد أبرهة الأشرم أن يهدمها موضعَ أعظم تقديسٍ في كل زمن، وكان يُنظرُ إلىٰ الكعبة كَهِبَةٍ من الله للشعب العربيِّ حتىٰ تكون شاهدةً علىٰ أن العرب خيرُ أمة، وكانت الكعبة مُصَلًّىٰ لإبراهيم وإسماعيل، أي بيتًا لله، والكعبةُ إذ احتوت أصنامَ العرب الـ ٣٦٠ التي هي قُوًىٰ تابعةٌ، عُدَّتْ مشتملةً علىٰ

جميع الآلهة وغدتْ زُون[1] الأمة، وكان ما حام حول الكعبة من الأحاديث عزيزًا علىٰ العرب أجمعين، وكان العرب يجعلون منها مكانًا للحجِّ، ولم يُقَصِّر العرب في تزيينها وزخرفتها طامعين أن تفوق جميع معابد الدنيا رونقًا وبهاءً، وفي الكعبة وضعَ العربُ المعلقاتِ لتكون شاملةً لكلِّ شرف وتمجيد، وإلىٰ الكعبة كان عَبَدَةُ النار المعروفون بالصابئين يرسلون هباتهم، وكان اليهود أيضًا يُبدُون كلّ تقديس للكعبة المشرفة، وكان لِسدَنَةِ الكعبة قريش سلطانٌ دينيٌّ معترفٌ به من الجميع لذلك، وكان لقريش عقب كلِّ حج تعيينُ الأشهر الحرُمِ التي يوقف في أثنائها استعمال السلاح في جزيرة العرب بأَسْرِها، وكان يفرض علىٰ من يحضرون سوق عكاظ أن يُلقُوا أسلحتهم بين أيديهم قبل دخول المؤتمر الذي يحتمل، لولا هذا الحَذَر، أن ينقلب إلىٰ مكان اقتتالٍ دامٍ في الغالب، فكان يجب أن يؤثر إذن في قريش ومكة إذا ما أُريدت إقامة دينٍ وطنيٍّ واحدٍ في جزيرة العرب، فهذا ما أدركه محمدٌ تمامًا.

وكان عبد المطلب بن هاشم، الذي ولد سنة ٤٩٧ يمارس أمور السلطة العليا في مكة بين سنة ٥٢٠ وسنة ٥٧٩، وكان له شرفُ إنقاذ وطنه من غزو الأحباش وشاهد قبل وفاته أميرًا من حِمْيَر يطرد الأجانب من اليمن بمساعدة كسرىٰ الفرس، واعتقد في سنة ٥٦٩، أي بعد أن أصبح والدًا لثمانيةَ عشرَ ولدًا، أنه مُلزمٌ بإيفاء ما نَذَره بِطَيْشٍ من ذبحِ أحدِ أولاده أمام أصنام الكعبة، فوقعت القرعة علىٰ عبد الله الذي كان في الرابع والعشرين من عمره تقريبًا فكان أحب أولاده إليه، فلما عَقدَ نيتهُ علىٰ الذبح رفع أناس من قريش عَقيرتهم معارضين لهذا العمل البربري المشؤوم، فأشاروا عليه باستشارة العرافة التي لم تُعتمْ أن أخبرته بافتداء عبد الله بدية النفس التي هي عشرة جِمال بعد الاقتراع، فكتب علىٰ سهم غير مُسنٍ عشرة أعداد وكتبَ علىٰ سهم آخر اسمَ عبد الله، فوقعت القرعة تسعةَ مرات علىٰ عبد الله ولم تقع علىٰ الجمال إلا في المرة العاشرة، فذبح مئة جملٍ بدلًا من عبد الله، فغدا هذا العددُ، فيما بعد، بدلًا للدية عند قريش.

وتزويج عبد الله بعد ذلك بأيام قليلة آمنة بنت رئيس بني زهرة وَهبٍ، فأسفر هذا الزواج عن ولادة محمدٍ حوالي شهر أغسطس سنة ٥٧٠م.

---

(١) الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام.

الباب الثاني

مُحَمدَ والْقُرآن

الفصل الأول
حال بلاد العرب وقت ظهور محمد

كان كلُّ إنسان في جزيرة العرب مستعدًا لأكبر الانقلابات، وذلك في الدور الذي انتهينا إليه من تاريخ العرب، وكان يَمَّحي بالتدريج ما بين أقوام العرب من خصامٍ وما بين قبائلهم وعشائرهم من تنافس تجاه الخطر المشترك كما بيَّنَّا ذلك، فالعربُ كانوا يشعرون بضرورة الاتحاد لما رأوه من تهديد الروم في الشمال وتهديد الفرس في الشرق وتهديد الأحباش في الجنوب، وكان من نتائج الحوادث الأخيرة أن أخذت المبادئ القومية تنمو فيهم إلىٰ أبعد حد، ومن الإلهام أن أغرىٰ أهل اليمن الفرسَ بحلفاء الروم الأحباش، فكانوا يضعفون أعداءهم بتسليط بعضهم علىٰ بعض، ومما كان يُخشىٰ ألا يؤدي ذلك إلىٰ غير استبدال سيدٍ بسيدٍ، وكان قياصرة القسطنطينية يملكون بلاد الحِجر العربية (بطرا) وكان بلاط طيسفون (المداين) يمارس ضَربًا من السيادة في جميع البلاد الواقعة علىٰ شواطئ الخليج الفارسيِّ وفي اليمن، فكان يجب تنظيم عناصر المقاومة تجاهَ هذا الضغط المضاعف، ومن الحظِّ الحسن أن بدت الأحوالُ مساعدةً للعرب.

أحبطت الحجازُ غزو أبرهةَ فكانت أكبر قُدوةٍ، فاستردت مكةُ، بعزٍ، لقبَ العاصمة الذي أريد نزعُه منها، وعزم عبد المطلب علىٰ ربط جميع القبائل المستقلة بهذا المركز المشترك فذهب، بعد هزيمة الأحباش إلىٰ صنعاء لِيهنئَ، باسم قريشٍ، الأميرَ الحِميريَّ، الذي أعانه الجيشُ الفارسي، بعودته إلىٰ الحكم، فأبناء الوطن الواحد هم الذين كانوا يتدانون ويتفاهمون، وحدَث أن وَسم الشعراء لسان العرب بِسمةِ الاستقرار التي يتغلبُ بها علىٰ ما كان في مختلف أجزاء جزيرة

العرب من اللهجات الخاصة، فإذا ما بدت الوحدةُ الدينيةُ مفقودةً، بعدُ، كانت المعتقداتُ الدينيةُ تتداعىٰ في كل ناحية، فيثار علىٰ تقريب البشرية، وتُدحضُ عبادةُ الأصنام الباطلة، ويطالب بتحريم الزواج بزوجات الآباء، ويحملُ علىٰ عادة الوَأد الكريهة، ولسوف يتبددُ ظلام الخرافات الغليظة، التي لا تزال سائدةً، أمام أنوار إيمان جديد، وكان يمكن أن يكون للنصرانية مثلُ هذا السلطان، بَيدَ أن أدب الإنجيل الخالص القائم علىٰ الكفاف لا يُلائمُ شعبًا طَيعًا لأهوائه المادية، ويبدو بعضُ ذوي المواهب من المصلحين، ويدعون بني قومهم إلىٰ الدين الصحيح، فلما أضحىٰ ورقةُ بن نوفل وعثمانُ بن الحويرث وعُبيدُ الله بنُ جحش وزيد بن عمرو وغيرهم علىٰ علمٍ بفضل صلاتهم باليهود والنصارىٰ ناهضوا عبادة الأصنام ودعوا إلىٰ دين إبراهيم، ثم أخبروا، عند عجزهم عن تحقيق ما أرادوه، بأنه سيظهر في الأرض رسول لله، عما قليل فينتصر علىٰ الشيطان.

وبينما كانت النفوس تميل إلىٰ الوحدة في الداخل ميلًا عامًا كان استقلال العرب يتمُ بفضل ما يقع بين الروم والفرس من الحروب الطاحنة، وما وقع بين هاتين الأمتين من الصراع بلغ غايته في أوائل القرن الرابع من الميلاد، فأخضع كسرىٰ لحكمه ما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصرَ حينًا من الزمن، ثم عاد الحظ إلىٰ القسطنطينية بما قام به هرقل من الأعمال المَجيدة، وَنُهكت تانك الدولتان مع ذلك، فَظلت المدنُ متهدمةً وأثقلت الضرائبُ كاهل السكان، فكانوا يحتملون، علىٰ مَضضٍ، أمرَ حكوماتٍ ابتزت بقية أموالهم في سبيل اقتتالاتٍ غير مُجدية، ففقدوا شأن الأمم الفاتحة وخَسروا كل شعور بقواهم وأصبحوا من العجز بحيث لا يقدرون علىٰ مقاومة الزوبعة الهائلة التي سيثيرها صوت محمد ضدهم.

حقًا أن دولة جديدة تكونت فأظهرت نفسها للمرة الأولىٰ حين كان هرقلُ وكسرىٰ برويز يمضيان معاهدة السَّلم التي لم تكن غير وقفٍ للصراع المشؤوم بين تينك الدولتين لما نصت عليه من ضمانِ سلامةِ حدودهما مع عدم حل مزاعم كل منهما، وكان كسرىٰ يستقبل في قصره بِدَاسْتَاجردَ سفراء الأجانب، وقد بهرته أُبَّهَتُه فكان ينظر، راحمًا، إلىٰ عبادات رعاياه الدنيئة، ويُخبَرُ بأن هناك رسالةً إليه

من رسول سيدٍ عربي، فيؤذن إلىٰ هذا الرسول في المثول بين يديه، فلما أعطاه الكتابَ استوقف عنوانُه نظرَه لما ظل يَعدُ نفسه ملك الملوك مع قهر هرقل له، فهو قد أبصر سيدًا عربيًا صغيرًا يبدأ الكتاب باسمه، أي بما يدل علىٰ تَصدره بحسب عادات الشرقيين، فلم يرَ أن يقرأ الكتاب فمزقَه وداسه، وفُسر تأثيرُ ذلك تفسيرًا مختلفًا، فبُحث عن خطط ذلك السيد المجهول الأمر الذي أقدم علىٰ مخاطبة أعظم ملوك آسية بالكلمة: «من محمد عبد الله ورسوله إلىٰ كسرىٰ بن هرمز ملك الفرس» فعُلم بِدهشٍ، ما اتفق لابن عبد الله من النجاح السريع.

الفصل الثاني

محمد (٥٧٠ - ٦٣٢)

كانت سنواتُ محمدٍ الأولىٰ غامضةً، فقد تُوفي أبوه قبل ولادته بشهرين، فَعُنيت أمه آمنة به، ثم فقدها وهو في السادسة من سنيه، وهو لم يَرث غيرَ جاريةٍ سوداء مُسنة كُنيتها أم أيمن وغير خمسة جمال.

وكفله جده عبد المطلب الذي يظهر أنه شعر بما سيكون لحفيده من الشأن العظيم (٥٧٦-٥٧٩) ثم كفله عمُه أبو طالب الذي كانت له الرِّفادة، فكان مضطرًا إلىٰ كسب رزقه، وكان محمد متصفًا بالأُنس واللطف فاستوجب محبة الجميع، وشهدَ يوم نخلة ويوم شمطة (حَوالي سنة ٥٨٦) من أيام حرب الفِجار التي بدأت في سوق عكاظ بين هوازن وقريشٍ سنة ٥٨٠ فدامت تسع سنين، وكان أولُ سفره إلىٰ الشام مع عمه أبي طالب في سنة ٥٨٣، فبلغ بُصرَىٰ فاجتمع فيها ببحيرا الذي كان اسمه لدىٰ النصارىٰ، جرجيس أو سرجيس، فنال حُظوةً عنده.

ولُقب محمد بالأمين في الخامسة والعشرين من سنيه لأمانته وحسن سلوكه، ثم اعتمدته الأَيِّمُ المُثرِيَةُ وصاحبة التجارة الواسعة خديجةُ فسافر إلىٰ الشام فربح لها ربحًا عظيمًا، فقابلته بالشكر فَعرضت عليه أن يتزوجها، فغدا بذلك ربَّ أُسرةٍ، فنال مكانة كبيرة بمهارته في إدارة أموالها، وبما تم له من النفوذ عند آله، وكانت خديجة من أهم بطون قريش كما كان محمد من بني هاشم الذين لم يكونوا دون آلها شرفًا فكان منهم غيرُ واحد من أقطاب الكعبة.

واجتهد محمدٌ ليكون محترمًا لدىٰ من يحيطون به كأحسن ناصحٍ وأليقِ زعيمٍ، علىٰ أنه بلغ الأربعين من عمره فلم يُجاوز اسمُه مكة، ولم يَحدُثْ، بعدُ،

ما يُوجه به أنظار العرب إليه، وهو قد اشترك مع أهمِّ رجال قريش في حلف الفضول سنة ٥٩٥ لمنع ما يقع بينهم من ضروب الجور، وهو قد اشترك في تجديد بناء الكعبة سنة ٦٠٥، وهو قد ساعد علىٰ إحباط ما سعىٰ إليه عثمان بن الحويرث الذي أراد بعد انتحاله النصرانية، أن يجعل مكة تابعة لسلطان الروم، ولم يكن في سيره في ذلك الحين ما يُعد من الخوارق، فليس في كفالته لعليٍّ بن أبي طالب سنة ٦٠٦، وليس في تَبَنِّيه وإعتاقه للشاب الكلبي زيد بن حارثة، الذي اختطفه أعداء من العرب وباعوه رقيقًا، ما يُعدُ دليلًا علىٰ كرمٍ منقطع النظير عند بطون عشيرته، وليس فيما أبداه من الشجاعة في حرب الفِجار ما يمتاز به من غيره، وكان أُميًا كأبناء بلده فكان لا يستطيع حتىٰ القراءة، ولم يُنتج خياله الساطعُ، بَعد، ما يدلُّ علىٰ أنه ذو عبقرية شاعرية، وكلُّ ما يُميزُّ به هو أنه نال في أثناء رحلاته تجربة ومعرفة ممتازة لطبيعة الإنسان يَقدرُ بها علىٰ تقدير قيمة الرجل الأدبية من فوره، ومما كان يلاحظ في الحقيقة أنه كان يعتزل مع أُسرته في كل سنة في جبل حِراء غير البعيد من مكة فيقضي في صمت عزلته ليالي غارقًا في بحر من التأملات، وما كان أحدُ ليعلم موضوع تأملاته، فما كان لينطق بكلمة طائشة تجعله محل شكٍ وارتياب، وكانت مقاديرُ وطنه تضطرب في نفسه فيودُّ لو يَهَبُ له قوةً وعظمةً، وهو إذ كان يتمنىٰ لوطنه نظامًا غير الذي يَحيقُ به كان يسأل في نفسه كيف يستطيع أن يُنقِذَ النفوس مما هي غائصةُ فيه من الهمجية، وكان يشتاط غضبًا علىٰ عبادة القوم للأصنام ويبحث عن وسائل إبطالها، وهو إذ كان علىٰ علمٍ بتعاليم دين اليهود ودين النصارىٰ وكان يرىٰ كلا ذينك الدينين لا يُحققُ خِططَ الإصلاح السياسيِّ الذي يفكر فيه عزم علىٰ إقامة دين جديد، أجل، إن هذا لعملٌ جَللٌ، ولكنه لا شيء يقف العزيمة إذا ما نَشطت من عِقالها (٦١١).

كانت تصرفات محمد الأولىٰ فرديةً، فَكلمَ في الأمر خديجة وابن عمه عليا وعتيقهُ زيدًا وصَديقهُ أبا بكر مُعربًا لهم عن ضرورة إعادة دين إبراهيم إلىٰ سيرته النقية الأولىٰ مُبلغًا إياهم رسالته، فآمنوا به وشهدوا أنه رسول الله، ويَعجبون من صِلاته بالملك جبريل ويتلقون آيَ القرآن، التي أراد محمد نشرها لِيُوفقَ في عمله، علىٰ أنها من مصدر إلهيٍ، ويسمي محمد دينه الجديد بالإسلام الذي يَعني تفويض الأمر إلىٰ الله، وبالإيمان الذي يعني الاعتقاد، فاشتقتْ منهما كلمةُ المسلمين

وكلمة المؤمنين، وَيصرِّحُ ورقة بن نوفل، الذي كان في آخر عمره، بأن محمدًا نبي العرب.

ولم تكن تلك سوىٰ فواتحَ ضعيفةٍ، فلم ينشب أبو بكر، الذي كان الناس يُحبونه ويحترمونه، أن وُفقَ لجعل بعض سُراة القوم يُسلمون، ومن هؤلاء نذكر عثمان بن عفان، وتمضي ثلاث سنوات (٦١٤) فيبلغ عدد المسلمين ما يُكشفُ به عن سِرهم، فيعزم محمد علىٰ حلِّ عُقدته، فيجمع عشيرته ويعرضُ دينه عليهم، فيرفع للمرة الأولىٰ الراية ضد أباطيل بني وطنه، فيطلب، باسم العقل، تحطيم الأصنام التي يُؤتىٰ إليها من أقاصي البلاد للسجود أمامها، وَيُنصتُ إليه بِحيرة، ويعلن علي في ساعة حماسةٍ أنه وزيره، فقد قال محمد: «أيكم يؤازرني علىٰ هذا الأمر علىٰ أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟»، فسكت الحاضرون، فقال عليٌّ: «أنا يا رسول الله عونك، أنا حربٌ علىٰ من حاربت...»، وتؤثر بلاغةُ هذا المبدع في أناس آخرين فيعبدون الله الذي يدعو إليه، ولكن معظم القوم يتميز غيظًا مما يُلحدُ إليه، فيعلن أنه عدوٌّ لدين القوم، فَيهرعُ إلىٰ أبي طالب لِيردَّ جِماحه، فيضرعُ إليه أبو طالب أن يعدلَ عن خِططه، فيجده أبو طالب ممن لا تلين لهم قناةٌ حين قال له: «والله يا عمّ، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر»، وعلىٰ ما كان من عدم إيمان أبي طالب بمواعظه لم ينسَ أنه ابنُ أخيه فداوم مع بني هاشم علىٰ حمايته من أعدائه.

ظلت قريش، بعد تلك المحاولات العقيمة، وفية لعبادتها القديمة، ولم تجرؤ علىٰ مهاجمة عشيرةٍ شهيرةٍ ترتبط فيها بشتىٰ الصلات، بل رأت أن تُسفِّه محمدًا، غير عالمةٍ أنها تزيده شهرة بذلك، وهي لم تُقصر في رَميه بأقذع الشتائم وتعذيب أتباعه، فكانت كلما طاف حول الكعبة أسمعته ما فيه إهانته وما فيه تهديده، ويدخل محمدٌ، ذات يومٍ، بيته قانطًا، ثم يتجلدُ في الغد ويواظب علىٰ مواعظه، ويؤدي إسلام عمه حمزة إلىٰ جعل خصومه أشدَّ حذرًا مما كانوا عليه مع عدم تغييرهم شيئًا من عداوتهم، ويزعم هؤلاء الخصوم أن جبرًا الروميَّ المقيم بمكة هو الذي يملي علىٰ محمدِ وحيه فيجيبهم عن ذلك بالآية ١٠٣ من سورة النحل:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾.

وَيمعنونَ في فَتن محمد ويمنعون الإصغاء إلىٰ كلامه فيفرضون عقوباتٍ شديدةً علىٰ من يخالف، وتبتلي كل عشيرة من يُسلم من أبنائها بأقسىٰ معاملةٍ فتصبح الرَّمضاء مكان تعذيب لهؤلاء البائسين، ويهجر كثير من المسلمين مكة إلىٰ بلاد الحَبشة فيبلغ عدد المهاجرين إليها ثلاثةً وثمانين رجلًا وثماني عشرة امرأةً، وترسل قريشٌ وفدًا إلىٰ النجاشي ليرفض أتباع محمد، فيطلب النجاشي إيضاحًا عن الدين الجديد فَيرضىٰ عن مشاعر أولئك المهاجرين نحو عيسىٰ بن مريم فيمنحهم حمايته فيعتنق دينهم سرًا علىٰ حسب رواية مؤلفي العرب.

ولم يسطع محمد أن يبقىٰ في مسقط رأسه إلا بفضل حماية أبي طالب الكريمة له، وتمضي سبع سنين (٦١٥-٦٢٢)، فيبذل محمدٌ هِمةً لا تعرف الكلال في نشر تعاليمه، وما ينبغي لشيء أن يحول دون دعوته، لا فرق في ذلك بين وعيد قريش التي قاطعت عشيرته وحملتها علىٰ الانزواء في الجبال المجاورة لمكة بين سنة ٦١٦ وسنة ٦١٩، ولا بين وفاة حاميه الحليم أبي طالب سنة ٦١٩، ولا بين وفاة زوجته العزيزة خديجة سنة ٦٢٠.

وَيجدُ محمد في انتشار دينه ما يُسليه، ويزيد محمد نفوذًا برجوع المهاجرين من الحبشة وبإسلام عمر بن الخطاب الذي كان أشد أعدائه خطرًا.

ويروع هذا النجاحُ قريشًا فينصبون الأشراك لإهلاكه، فيحاول أن ينجو بأن يقيم بالطائف، فلا يستمع أهل الطائف إلىٰ كلامه فيطردونه فيعودُ إلىٰ مكة راجيًا أن يكون الزمان قد خَفف قليلًا من الأحقاد، فيبدو حَذرًا في هذه المرة أكثر مما في الماضي.

ويتزوج محمدٌ، في ذلك الحين، بسودة أرملةِ السكران وبعائشة بنت أبي بكر التي لم تزل صغيرة، وكان قد وُلد له من خديجة ثلاثة أبناء ماتوا صغارًا وأربعُ بنات هُنَّ: زينب زوجة أبي العاص ورقيةُ وأم كلثوم اللتان تزوجهما عثمانُ بن عفان، وفاطمةُ التي وُلدت سنة ٦٠٦ فأضحت في سنة ٦٢١ زوجةً لعلي بن أبي طالب.

ومما يُروىٰ، أيضًا، أن عُروجَ محمد الخارقَ للعادة قد تَمَّ في تلك السنة علىٰ البراق[1] الذي هو حيوان عجيب فانتهىٰ إلىٰ حضرة الله العلي، ولم تكن هذه الرحلة غيرَ ضرب من الرُّؤىٰ عند أكثر علماء المسلمين، ولم تكن هذه الأحاديث التي تلائم خَيالَ العرب المُتقد من الوسائل التي يبحث فيها الرسول الجديد للتأثير، فما أكثر ما طُلبَ منه أن يأتي بمعجزاتٍ يُؤيدُ بها رسالته، فيجيبهم عن سؤالهم بالآية ٧ من سورة الرعد:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾.

وكان محمدٌ يُؤَثرُ في النفوس بالكلام علىٰ الخصوص، ويمكن تَمثُّلُ هذا التأثير بإنعام النظر فيما كان يخاطب به المشركين من القول المنسجم الذي يملأ أسمىٰ الأفكار بالصور فمن ذلك سورة فصلت الآتية:

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذۡ جَآءَتۡهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُواْ لَوۡ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٞ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَقَالُواْ مَنۡ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ

(١) المشهور في كتب الأثر أن الإسراء، لا المعراج هو الذي علىٰ البراق (المترجم).

نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ . . .

وكان الناس يَقضون العَجبَ من كلامٍ لم يتعوَّدوه إلا قليلًا، فَيسلمونَ بكثرةٍ ومن أولئك عمرُ بنُ الخطاب الذي كان من أشد القوم عداوةٍ لمحمد فاختطف بعنفٍ سورةً من يَديْ أخته فتلاها فأُعجبَ بها فذهب إلىٰ محمد معلنًا إسلامه.

وفي موسم الحجّ من سنة ٦٢٠ استمع ستةٌ من أهل يَثرب إلىٰ محمد وهو يُبين قواعدَ الإسلام فآمنوا به ووعدوه بنشر تعاليمه بين بني وطنهم، فلما كان العام القادم (٦٢١) بايع النبي اثنا عشر مسلمًا من يثرب في العقبة القريبة من مكة ومعهم مُصعب بن عُمير الذي تَمَّ علىٰ يده إسلام أناس آخرين كما تم علىٰ يده جمعُ الأوسِ والخزرج، القبيلتين المختلفتين منذ زمنٍ طويل القويتين، تحت لواء الإسلام، ولما كانت سنة ٦٢٢ اجتمع بمحمدٍ خمسةٌ وسبعون شخصًا من أهل

يثرب في العقبة أيضًا، فعرضوا عليه المأوىٰ في مدينتهم وسألوه عن تركه لهم، وهم حلفاؤه، وعودته إلىٰ مسقط رأسه، إذا ما دعاه بنو وطنه، فقال: «بل الدمُ الدمُ، والهدمُ الهَدمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحاربُ من حاربتم، وأُسالم من سالمتم»، فقالوا: «إنا نأخذك علىٰ مصيبة الأموال وَقتلِ الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا؟» فقال: «الجنةُ»، فَسميتْ هذه البيعةُ ببيعة العَقبة الثانية أو بيعة العقبة الكبرىٰ، ويختار محمدٌ من بين أولئك اثني عشر نقيبًا ليكونوا وكلاءه في يثرب كما كان الحواريون وكلاء عيسىٰ.

وَعلمت قريشٌ خبر ذلك الحِلف فزادت قَسوةً فاستمر المسلمون علىٰ الهجرة فاقتحم محمد الخطر الذي كان يهدده، فقد حُكم بقتله، فحاصر أعداؤه بيته، فبحث عن سلامته بالفِرار، فهاجر هو وأبو بكر، علىٰ حين كان عليٌ مُدثرًا ببردة محمد الخضراء مُحولًا أبصار المهاجمين عنه بإخلاص سَخيٍ.

سَلك محمد وأبو بكر طريقًا معاكسةً ليثرب، ومكثا ثلاثة أيام بغار ثَورٍ البعيد من مكة ثلاثة أميال والواقع في جنوبها، واكتشفا بمهارةٍ بحثَ القوم عنهما، وتوجها إلىٰ شاطئ البحر وتَفلتا ممن يجدون في طلبهما، ووصلا بعد ستة أيام إلىٰ قرية قُباء التي هي من أراضي يثرب فأُقيم فيها المسجدُ الإسلامي الأولُ الذي لا يزال قائمًا، واتخذتْ هجرةُ محمدٍ مبدأ لتاريخ المسلمين، ووُقتت، علىٰ العموم، في ١٦ يوليه سنة ٦٢٢م.

وَلبث محمدٌ ثلاثة أيام بقباء حيث وافاه عليٌ، ثم دخل يثربَ ومن حوله مَوكبٌ كبيرٌ، ونزل ضيفًا علىٰ أبي أيوب، ولم يلبث أن اشترىٰ مكانًا واسعًا حيث نوىٰ أن يؤسس مسجدًا ومنزلًا له ولأسرته، وسُميت يثربُ بمدينة النبي، وجُمعت تحت اسم الأنصار تانك القبيلتان اللتان انضمتا إلىٰ راية الإسلام، وسُمي مسلمو مكة بالمهاجرين، وأراد محمد أن يؤاخي بين هؤلاء وأولئك وَيُوحد مشاعرهم فاختار كلُّ مهاجرٍ أخًا له من الأنصار، وزاد الإسلامُ بهاءَ ببعض من دخل فيه من الأعلام كسلمانَ الفارسي والحَبرين مُخيريق وعبد الله بن سلام، فشهدوا أن محمدًا رسولُ الله، وظلت القبائلُ اليهودية معادية للمسلمين مع ذلك، فوجدت سندًا لها في المنافقين الذين هم أنصار ساخطون مع ذلك.

وكان الزمنُ الذي لاح فيه فلاحُ محمدٍ أدقَّ حينٍ في حياته علىٰ ما يحتمل، فكان عليه أن يبدوَ حَذرًا يقظًا في مداراة من هُدُوا إلىٰ دينه حديثًا، واضطرَّ محمدٌ إلىٰ إبداء مَودةٍ لمن اعتنقوا دينه عن منفعةٍ أو إخلاص، ووَجدَ محمدٌ نفسه تِجاه أسئلةٍ خبيثةٍ لإثبات حقيقة رسالته في كلِّ حين، ووجب عليه أن يُرضيَ العالمَ غير غافلٍ عن شأنه طرفة عَين، ولم ينفكَّ الناس عن استشارته، ولم يَفتر عن تلاوة آي القرآن لبيان ما يفرضه الدين من قواعد السلوك، وتُراقبُ جميعُ أعماله، فما ينبغي أن يكون في حياته العامة، التي يفسرها كلُّ الناس، ثَغرةُ تناقض، فيكفي لأن يُعرض عنه إلىٰ الأبد أولئك الذين لا يزالون يترددون في عَده إنسانًا يعلو البشر إذا ما وجدوا مثل ذلك التناقض مع إعجابهم بثبات جأشه، ولم تكن حياته الخاصةُ لتخفىٰ علىٰ أحد، فلم يثبتْ أن كُشف ما فيه من ضعف[1]، وكأنَّ ذلك الجهد غيرُ وافٍ فكان لزامًا عليه أن يُفكر في تسيير أشدِّ أصحابه حميةً كعلي والزبير وأبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ، وكلٌ كان يستلهم ما يَحدثُ في منزل النبي ليظهر للملأ مثالَ المسلمين الحقيقيين.

قَضىٰ محمدٌ عامًا بين تلك التجاريب، فلما انقضىٰ أدرك أن دينه ينهار إذا ما تبددت حرارة أصحابه بسبب البطالة، وكانت الحربُ أفضل وسيلةٍ لإمداد نار الحماسة التي أوقدها، وكان يجب أن يُوجه إليه الأنظار، فما يتم له من الانتصارات الحربية يَعدُه دليلًا معجزًا علىٰ حماية الله له، فعقد نيته علىٰ سلوك سبيل الجهاد[2]، والجهاد ما رآه أكبر وسيلة لاستمالة الناس إلىٰ الإسلام.

---

(١) كان محمد نقي السر والعلن، طهور الظاهر والباطن، لا يوجد بين حياته الخاصة وحياته العامة حجاب، فسيرته في نفسه وفي بيته كسيرته بين الناس، وقد ظل بارزًا للأصدقاء والخصوم سنين طويلة، فما عرفت عنه ريبة ولا وقع تناقض بين سلوكه الخاص وسلوكه العام، والرسالة التي نادىٰ بها هي الرسالة التي عاش فيها وهي التي ضبطت أحواله كلها سواء ما اطلع عليه الناس أو ما خفي عن أعين الناس، ومثل ذلك لا يطيقه الأدعياء من أصحاب الشهوات ومن ذوي الرجولة المريضة والأخلاق الملتوية.
«محمد الغزالي السقا» (معالم الحق) ص ١٥.

(٢) لم يكن فرض الجهاد علىٰ المسلمين إلهاء لهم ولا شغلًا لأوقات فراغهم، ولا دفعًا لبطالة صاروا إليها، فقد كان عند المسلمين من المهام في بناء دولتهم وإقامة مجتمعهم ما يستغرق وقتهم ويستنفد طاقاتهم، وإنما شرع الجهاد للدفاع عن العقيدة والأوطان، لا تشفيًا ولا انتقامًا ولا طلبًا لمغنم مادي.
وتعليل بمثل الذي يقوله المؤلف لا يقبل لسخافته عقلًا ومنطقًا.

وكانت صيغة بيعة الإسلام سلمية حتىٰ ذلك الحين، فكانت تقوم علىٰ عدم عبادة أحدٍ غير الله الواحد وعدم السرقة وعدم قتل الأولاد وعدم الزنا وعدم الافتراء، وعلىٰ إطاعة ما يأمر به النبيُّ من العدل، فأضيف إليها فرضُ الجهاد.

وللنبي أن ينتقم من أعدائه جزاءَ ما وجهوه إليه من الشتائم بمكة، وأن يطالب قريشًا بحسابٍ عن نفيه، وأن يستغلَّ ما بين المدينة ومكة من التنافس التجاري بمهارةٍ فائقة، فبعد أن أملىٰ النبي عهدًا ناظمًا لعلاقات المسلمين فيما بينهم، ضامنًا لليهود حريتهم الدينية، تاركًا لهم حق التمتع بأموالهم مع إلزامهم بالاشتراك في نفقات الجهاد، خَرج إلىٰ الميدان هو وعمه حمزة فقام بعدة غاراتٍ غير مجدية، فلام عبدَ الله بنَ جحش علىٰ انتهابه قافلة، في شهر رجب الحرام (الآية ٢١٧ من سورة البقرة).

ولم تفتأ قريش تُوجهُ سهامَ النقد إلىٰ المسلمين، ولم يَفترْ شعراء قريشٍ عن هجو المسلمين بأعنف القصائد، فعهدَ إلىٰ ثلاثة من الخزرج، وهم حسان بنُ ثابت وكعبُ بنُ مالك وعبدُ الله بن رواحة، في الجواب، فلم تكن هذه الحربُ الكلامية غيرَ عاملةٍ علىٰ تحريك النفوس.

ويتأهب محمد لغزوة جديدة، وينظمُ، قبل القيام بها، صيامَ رمضان وإيتاء الزكاة وجعلَ الكعبة قبلة للمسلمين والدعوة إلىٰ الصلاة في أوقاتها بالأذان.

ويعلم محمدٌ خبرَ رجوع قافلة قريش المؤلفة من ألف بعير حامل من الشام ثمينَ السلع فيَخِفُّ، مع ٣١٤ رجلًا إلىٰ مهاجمتها، ومن هؤلاء ثلاثةُ فُرسان، ومن هؤلاء ٣١١ راجلًا، ويكون أبو سفيان علىٰ رأس تلك القافلة، ويُنبأ بَزحف أعدائه ويُوفقُ للإفلات منهم، وكان أبو سفيان قد استغاث بمكة، فيزحف ألفُ قرشيٍ إلىٰ وادي بدر بقيادة أبي جهل، فيسبقهم المسلمون إليه، ويعلم أبو جهل من رسول أبي سفيان أن القافلة نَجت، ويعتقد أبو جهل أن النصر آتيه فلا يرجع، فيخوض غِمارَ المعركة فَيُقتل فيها فيقتطف ذلك المهاجر المكي مجدَ النصر فيها.

وَيرفَعُ محمدٌ، وأبو بكر بجانبه، علىٰ عريش من الخشب صُنع خارج مَرمىٰ السهام بسرعةٍ، ويحث محمد أصحابه بمؤثر الكلام، ويخرج ثلاثة من قريش ويدعون أصحابَ النبي إلىٰ البِراز، فيخرج إليهم حمزةُ وعليٌ وعبيدةُ بن الحارث

فيتغلب هؤلاء عليهم، فيشتبك الفريقان، فيبصر محمدٌ، من فوره، ضعف أصحابه فَيثبُ راكبًا حصانًا فيرمي في الهواء حُفنة رمل قائلًا: «شاهت الوجوه!» فتدب الحمية في أصحابه من جديد فيتهجمون فيكسبون المعركة.

وليس النصر الأول فاصلًا في الحروب الدينية ما استعد الناس لخلط الحق بالقوة، ويكون لمعركة بدر من الأثر البعيد ما لم يتفق لأبلغ المواعظ، فقد ثبتت إيمان المؤمنين وكشفت عن أفئدة المنافقين، وزلزلت قلوبَ الكافرين.

واستطاع محمدٌ أن يُعد ألف مقاتل بعد عام، ولم يكن هذا العدد ليعدل الآلاف الثلاثة الذين جَهزتهم قريش للإغارة علىٰ أطراف المدينة، ولمحمدٍ أن يأملَ، مع ذلك، نيل نصر جديد بما بذره من النخوة في نفوس أصحابه، وهو الذي قد أجاب عن غارةٍ قام بها أبو سفيان بانتهاب قافلةٍ غنيةٍ في نجدَ، ولكن حسنَ الحظ لم يُكتب له في غزوة أحد، فقد نَجمَ عن خيانة المنافقين وتفرق كتيبةٍ مؤلفةٍ من خمسين نبَّالًا لجمع الغنائم قبل تمام النصر، خلافًا لما أُمِرت به، أن عُرض محمدٌ لأعظم خطر، وهو لم يتخلص من الموت الداهم إلا بأعجوبةٍ، فقد شُجَّ وجهه فسال الدم منه فلم يسطع أن يلجأ إلىٰ فجٍّ بجبل أحد إلا بمشقة، ولم يسلم من الجرح أبو بكر وعمرُ وعليُ الذي أظهر من الفروسية في بدء المعركة ما أظهر، ولم يسلم حمزةُ من القتل، ولم تتورع نسوة قريش، اللائي تبعن أزواجهن ليثرن حميتهن بوغىٰ الحرب عن اقتراف أفظع الكبائر في جُثث قَتلىٰ المسلمين المنثورة في ساحة القتال.

وأبو سفيان هو الذي كان يقود المشركين، وخالدُ بن الوليد هو الذي استفاد بحذقٍ من خطأ أولئك الرماة فأمال ميزان الفوز إلىٰ ناحية قريش، وكان لمحمدٍ في الأحوال التي أوجبت هزيمته ما ساعده علىٰ عدها جزاء عادلًا علىٰ مخالفة أوامره، ولما رَجع محمدٌ إلىٰ المدينة جَمع حوله من اشتركوا في تلك الغزوة فتقدم بهم إلىٰ حمراء الأسد ليُثبت أن هزيمة أحد لم تؤثر في شجاعته.

وكان من نتائج انتصار قريش أن صار النضال يصطبغ بالدماء، فاعلم أن محمدًا أطلق أسرىٰ بدر، ولم يقتلُ منهم سوىٰ رجلين كانا يسبانه بأفظع الشتائم، فلما انتهت غزوة أحد تنكر المسلمون للمشركين فكثرت الاغتيالات الفرديةُ، فترىٰ

رسل النبي يُقتلون أو يُعذبون تارةً، وترىٰ أناسًا من قريش يشترون بحياتهم جرائم حلفائهم تارة أخرىٰ.

وكان محمدٌ يجتنب مبادرة أهل مكة إلىٰ العدوان مع ذلك، فيبحث عن أسهل الانتصارات، ولم يُبد اليهود عطفًا إليهم، فكانوا يزعمون أن الدين الجديد لم ينفرد بشيء وأن إله الإسلام ليس سوىٰ يهواهم (إلههم) المُشوه، وكان ظاهرهم المبهمُ يدلُ علىٰ سوء نيتهم وحقدهم الخفيَّ.

ومما حدث أن هاجم محمدٌ بني قينقاع وأن طردهم من أرض المدينة بعد أن أخضعهم وغنم أموالهم، ومما حدث أن كان نصيب بني النضير مثلَ نصيب بني قينقاع فوزعت أموالهم بين مهاجري مكة وفق رغبة الأنصار، فراع اليهود هذان المثلان وما كان من قتل متعصبي المسلمين لأعداء النبي اليهود بين أهلهم فتحالفت القبائلُ اليهودية الأخرىٰ لمقاومة هذا العدو الراغب في إهلاكها علىٰ انفراد، فلم يصعب عليها أن تجد العونَ في قريشٍ وَغَطفانَ الذين جزعوا من غارات المسلمين علىٰ نجد وحول بدرٍ حتىٰ دومة الجندل، فأمر محمد بحفر خندق واسع أمام المدينة، فلم تقدر الأحزاب علىٰ مجاوزته مع ما بذلته من الجهود، فلم يلبث حِلف الأحزاب الذي انضم إليه بنو قريظة أن حُلَّ بعد أن نُثرت بذور الشقاق بمهارة بين الرؤساء، فَرفع الحصار عن المدينة علىٰ أثر مناوشات فردية امتاز فيها الشجاع علي بن أبي طالب، فهنالك بدأ محمد يهاجم، فَسحق بالتتابع أولئك الذين اتحدوا ضده فكادوا يقضون علىٰ سلطانه، فقهر في بدء الأمر بني قُريظة فضربت رقاب سبعمائة منهم علىٰ ما رُوي، فقام بغزواتٍ مختلفة ضد خزاعة وبني لحيان وبني المصطلق علىٰ حين كان وكلاؤه يعاقبون القبائل المعادية الأخرىٰ.

وسار محمد إلىٰ الحديبية في سنة ٦٢٨ متعللًا في الظاهر بعزمه علىٰ زيارة الكعبة التي شرفها القرآن، قاصدًا، في الحقيقة، أن يكون له في مكة من الصلات ما يتمكن به من دخولها، ولم ينشب أن اعترف بأن الأمر قبل أوانه، فاكتفىٰ بمهادنة قريشٍ لعشر سنوات مع حقه في زيارة البيت الحرام في العام القادم، وذلك بعد أن بايعه أصحابه بيعة الرضوان تحت الشجرة.

رَجع محمد إلىٰ المدينة، وأرسل رسلًا إلىٰ أمراء الأجانب لدعوتهم إلىٰ الإسلام، وسار إلىٰ يهود خيبر الذين كانوا سادة مركزٍ مُهم بعيدٍ خمسة فراسخ من مدينة النبيِّ فيجتذبون إليهم معظم تجارة الحجاز ونجد، ويقتحم عليٌّ بقوته جميع العوائق، ويُسفر استيلاء المسلمين علىٰ الحصون ذات الكنوز عن تقويض سلطان اليهود السياسي إلىٰ الأبد، ويتم انهيار اليهود بالاستيلاء علىٰ فدكَ ووادي القُرىٰ وتيماء، فوجب عليهم أن يُقروا بسيادة محمد بعد الآن، إن لم يقروا برسالته، وهو الذي أخذ مما غُنم منهم ما أراد تركه لآله من الميراث، ومن نتائج هذه الغزوة امتدادُ الإسلام إلىٰ ما وراء الحجاز، فجاءت من نجد عدة قبائل لتحيي في شخص ابن عبد الله سيد العرب، ومنحته هذه القبائلُ سلطانًا مطلقًا علىٰ نفسها، وطلبت إليه أن تتبعه في الحروب التي سيقوم بها.

وينجو محمد من سم تدسه له امرأة يهودية من خيبر، ويُبدي المسلمون له آيات الإخلاص عند كل بلاء، ويجمع في يده أمور السلطتين الدينية والمدنية، حتىٰ إن رجلًا من قريش قال: «إني جئت كِسرىٰ في ملكه وقيصر في ملكه... وإني والله ما رأيت ملكًا في قومٍ قط مثلَ محمد في أصحابه»، ويُملي محمدُ تعاليمه في المسجد مستندًا إلىٰ نخلةٍ أو جالسًا علىٰ منبر غير مزخرف فيثير كلامه حماسة المسلمين، وهو لم يترك فرصةً من غير أن يعلن عظمةً مصيره، فلما أمر بحفر الخندق أمام المدينة أمسك بمعولٍ فتطاير الشرر من صخر فقال: «أما الأولىٰ فإن الله فتح بها عليَّ اليمن والثانية الشامَ والمغرب والثالثة المشرق»، فاعتقد من سمعه صحة هذه النبوءات التي تحققت بعدئذٍ، ويرسل كتبًا إلىٰ ملوك الأرض، ويعلم أن كِسرىٰ مزق كتابه فيقول: «مزق الله مُلكه»، ويقابله هرقل بجواب لطيف، ويرسل إليه عظيم مصرَ المقوقس ونجاشي الحبشة بعض الهدايا، ويُسلم عامل كِسرىٰ علىٰ اليمن باذانُ، ويرفض أمير الغساسنة الحارثُ وأميرُ قبيلة بني حَنيفة في اليمامة هوذةُ ما اقتُرح عليهما.

مضت سنة علىٰ معاهدة الحديبية، فسار ألفا مسلم مع محمد فزاروا الكعبة سنة ٦٢٩، فكان لهذه الرحلة السلمية أبلغ أثر في النفوس، فاعتنق الإسلام غيرُ واحدٍ من ذوي الوجاهة، فبدا إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص نذيرَ سقوطٍ للوثنية عما قليل.

ويُقتلُ الملكُ الغساني شُرَحْبِيلُ الذي هو من عمال هرقل رسولَ محمد إليه ببُصرىٰ، فيؤدي ذلك إلىٰ اعتراك العرب والروم بشدة، فقد زحف ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة زيد بن حارثة للهجوم علىٰ جيوش الروم والسريان بالقرب من مؤتة الواقعة في البلقاء (بلاد الموآبيين القديمة) بجنوب دمشق، فقُتل زيد فَحلَّ جعفرُ بن أبي طالب محله في القيادة فقُطعت يدا جعفر فضم راية الإسلام بين ذراعيه المبتورتين فمات مُثخَنًا بخمسين طعنة أصيب بها كلها من أمامه، ثم خَر عبدُ الله بن رواحة صريعًا، وكان خالد بن الوليد أوفرَ حظًا، فدحر العدو، فعاد إلىٰ المدينة مع المحافظة علىٰ شرف المسلمين الحربيِّ.

ولم تزل مكة خارجةً عن دائرة انتصارات محمد، وهو شديد الاحتياج إلىٰ هذا البلد الذي هو مكانُ عبادة الأصنام وقاعدةٌ بلاد العرب، وهو راغبٌ في إقامة دينه الجديد إقامة متينة علىٰ أنقاض الدين القديم، ولم تُعتم الفرصةُ أن لاحت، فقد نقض أهلُ مكة الهدنة بالهجوم علىٰ حلفائه من خُزاعة، وكان محمد قد تقوَّىٰ بمن أسلم حديثًا من قبائل البدو، فسار إلىٰ مكة علىٰ رأس عشرة آلاف مقاتل فكان من نتائج هذا التظاهر أن ارتعب أعداؤه فلم يقاوموه، فخضع له العباس وأبو سفيان بلا حرب (١١ يناير سنة ٦٣٠).

سار محمد الظافر إلىٰ الكعبة فحطم جميع أصنامها وهو يقول: «**جاء الحق وزهق الباطلُ**»، وأبطل جميع مناصب الوثنية خَلا الحِجابة والسقاية فقد أبقاهما.

وما كان العمل ليقف عند ذلك الحدِّ، فقد امتنع بعض القبائل المعارضة في الحجاز عن اعتناق الإسلام، فكان قهرُ هذه القبائل أهمَّ ما يفكر فيه محمد، فأخضع خالد بن الوليد بني جَذِيمة، ووُفقت هوازن لتأليب جميع الساخطين، فختم بنصر حُنين الذي اشترِيَ بثمن غال وواقعةِ أوطاس حربُ الأوثان، واحتملت بنجاح ثقيفُ، التي أصرت علىٰ عبادة اللات، حِصار الطائف مدة عشرين يومًا، وأمل محمد أن تُسلم ثقيف مع الزمن فرفع الحصار وزار الكعبة مرة أخرىٰ وعاد إلىٰ المدينة.

كان فتحُ مكة وإسلام قريش وهزيمة هوازن وهدمُ معابد الأصنام ضربة قاصمة لعبادات العرب القديمة، وأخذت الوفود تَفد علىٰ النبي للإسلام، ونال

كعبٌ بقصيدة البُردة عفو النبيَّ بعد أن كان يهجوه بعنفٍ فيما مضىٰ، وأسلم بنو تميم بعد صراع مجيد.

ولـم يلبث نفير الحرب أن نُفخ فيه مع ذلك، فقد شاع كذبًا أن الروم ونصارىٰ العرب يحشدون قواهم في حدود سورية، فأُعلن الجهاد، فَعَزم أغنياءُ المسلمين علىٰ إنفاق أموالهم نصرًا للإسلام، فجمع عشرة آلاف فارس وعشرون ألف راجلٍ واثنا عشر ألف جمل، وسار النبي لابسًا بُردته الخضراء وراكبًا بغلته البيضاء علىٰ رأس هذا الجيش، بَيد أن المسلمين لم يلقوا عدوًا، بل لاقوا رياحًا سامةً ورمالًا صحراوية وحرًا شديدًا وعطشًا أليمًا، فكان محمد ينفخُ في أصحابه روح الشجاعة بلا جدوىٰ إذ يقول: «نار جهنم أشد حرًا»، ثم وصل المسلمون إلىٰ تبوك الواقعةِ في منتصف الطريق بين المدينة ودمشقَ فأمر بالعودة مكتفيًا بإخضاع المدن: الجَرباء وأذرُح وأَيلَة ودومة الجندل لحكم شرعه.

وظاهرة بقية ذلك العام (٦٣٠-٦٣١)، الذي يسميه المؤرخون عام الوفود، كثرة الدخول في الإسلام وأهميةُ من أسلموا، فقد أرسلت ثقيفُ، أهلُ الطائفِ، وأمراء حِمير باليمن ومهرة وأمراء حضرموت وعمان والبحرين واليمامة وفودًا إلىٰ محمد ليقدموا إليه عهود الطاعة، وقهر خالد بن الوليد بني طيِّئ بنجد ونصارىٰ نجران وأهلَ النخع... إلخ باليمن، أو أتىٰ هؤلاء للإعراب عن خضوعهم.

عمَّ الإسلام بلاد العرب، وانتشر عمال محمد في أنحائها لجباية الزكاة وتأييد سلطانه، وما سَلمت بلاد العرب، مع ذلك، من أناس طمعوا في الاستقلال، فادعىٰ مُسيلمة النبوة في اليمامة وادعاها طليحة في نجد وادعاها الأسود العَنسي في اليمن فوُجهت لإطفاء هذه الفتن حملاتٌ جيدة القيادة فمات محمد قبل أن يعلم ما أسفرت عنه.

وكان محمدٌ يشعر بألمٍ منذ بضعة أشهر أكثر من قبل، فأراد في أوائل سنة ٦٣٢ أن يتوج عمله بحجٍ زاخر، وقد سبق أن قام محمدٌ بعد الهجرة بزيارة البيت الحرام مرتين أي قام بالعمرة التي تُمكن في أي وقت من أيام السنة فتبعه في هذه المرة ١١٥٠٠٠ مسلم ليؤدوا مناسك الحج الأكبر الذي أمر به القرآن فعينت له الأيام الأولىٰ من ذي الحجة علىٰ حسب العادة، ثم خطب الأمة في جبل عرفات

بخطبة بليغة ختمها بقوله «**اللهم هل بلغتُ**»؟ فردَّد الجوُّ صدىٰ جوابِ الحجيج: «**نعم**»، فأضاف محمد إلىٰ ذلك قوله: «**اللهم اشْهَدْ**».

ويزيد انحراف صحة محمد بعد رجوعه إلىٰ المدينة يومًا بعد يوم، وكان حينئذٍ في الثالثة والستين من سنيه، ويَجدُّ في إعداد حملة جديدة لغزو سورية، ويَعينُ أسامةَ بن زيد قائدًا لها، ولم يلبث أن شَعرَ بدُنوِّ أجله، وكان يصلي بالناس إلىٰ ما قبل وفاته بثلاثة أيام، فقال من فوق المنبر: «**أيها الناس! من كنتُ جَلدتُ له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كنتُ شَتمتُ له عِرضًا فهذا عرضي فليستقد منه، ومن أخذتُ له مالًا فهذا مالي فليأخذ منه . . .**»، فادعت عليه امرأةٌ بثلاثة دراهم فأعطاها عِوضها، ويزيد محمدٌ مرضًا فيأمر حماه أبا بكر ليُصلي بالناس، ويجيء محمدٌ إلىٰ المسجد في ٦ يونية سنة ٦٣٢ ويوجهُ إلىٰ المسلمين نصائحَ كريمةً، ويتوفىٰ بعد بضعِ ساعاتِ بين ذراعيْ عائشة.

تلك هي أهم الأحوال التي اكتنفت حياةَ ذلك الرجل الخارق للعادة، وما كان تحريكه بعبقريته للهمم الفاترة في أمم الشرق بلغَ من القوة ما ترىٰ معه تلك الحركة باقيةً حتىٰ اليوم، أجلْ، إننا لا نرىٰ امتداح كلِّ ما في عمله العظيم بغير استثناء، ولكن لنرجع البصرَ إلىٰ ما اعترضه من ضروب العوائق، وإلىٰ ما ألقته طُقوس الوثنية الهمجية بين قومه من الجذور العميقة، وإلىٰ مالا يُحصيه عددٌ من الإصلاحات التي أوجبها بقوة بيانه لِنعلم أننا لا نستطيع إلا أن نُعجب بتلك النتائج العظيمة التي تمت بفضله.

الفصل الثالث
القـرآن

مبدأ محمدٍ السياسيُّ هو الذي يجب أن يُسلم له به، فهو قد أبصر حلول الزمن الذي يَجمعُ فيه مختلفَ قبائل جزيرة العرب في أمةٍ واحدةٍ، وذلك ضمن شريعةٍ دينيةٍ مدنيةٍ حربيةٍ «فكان جماعًا لما في بلاده من التجارة والنبوة والخطابة والشعر والاشتراع، فبدا مخلصًا للمثال العربيِّ في جميع وجوهه»، ولا يجدُ محمدٌ في أي من المعتقدات التي تساور النفوس ما يروي غليل أولئك القوم الذين مُلئوا أوهامًا وأضاليلَ، ويختار من تلك المعتقدات الكثيرة، بلباقةٍ، ما يلائم عقول العرب من غير أن يَصدمَ ميولهم وما فيهم من ضعف، فالكتابُ الذي يَعرضه عليهم هو مرآة أدبيةٌ ينعكس عليها ما في طبيعتهم من الفضائل والمساوئ والعواطف والعثرات والأوهام والحقائق.

ولم يدوّن القرآن تدوينًا متتابعًا، فكانت الأحوال تُملي علىٰ محمدٍ ما يُنذر به قومه، فارتبك المسلمون، حتىٰ عند وفاته، في الاهتداء إلىٰ ترتيب ما أُنزل إلىٰ النبي ترتيبًا تاريخيًا، وقام أبو بكر بهذا العمل فأَتمهُ الخليفةُ الثالث عثمان بالحقيقة[1].

---

(١) لم يرتبك المسلمون في ترتيب القرآن بعد وفاة النبي كما يقول المؤلف لأن النبي ﷺ مات والقرآن مكتوب ومحفوظ في الصدور كما تلقاه النبي عن الله ﷺ، وقد جمعه أبو بكر رضي الله عنه، وأدق ما يوصف به عمله أنه إجراء حكومي نحو تسجيل القرآن الكريم وضم جملة من الجذاذات الجامعة لسوره في حرز تحت يد الدولة، وأما ما فعله سيدنا عثمان بن عفان فقد كان عبارة عن نقل ما في تلك الصحف في مصحف واحد إمام، واستنساخ مصاحف منه ترسل إلىٰ الآفاق الإسلامية . . .
محمد الغزالي (نظرات في القرآن).

ويتألف القرآن، كما نقل إلينا، من ١١٤ سورة، وتتفاوت السُورُ طولًا، وُتُقسم إلىٰ آيات، والسورُ المَدنيةُ هي ثماني عشرةَ سورةً، وأما بقية السور فهي مَكيةٌ، ويترجح عدد الآيِ في السورِ الأربعين الأخيرة بين ثلاث آياتٍ وخمسين آية ولكل سورة اسمٌ خاصٌ، وتجدُ بضعَ سورٍ لا تتألف أسماؤها إلا من حروف أوائلها فلم تُفسر معاني هذه الحروف قط، وأقدم ما انتهىٰ إلينا من المصاحف المخطوطة كتب علىٰ رَقٍ بحروفٍ كوفيةٍ، وما نراه من المصاحف المكتوبة بالخطّ النسخيِّ لا يرجع إلىٰ ما قبل القرن الثالث من الهجرة.

ويُحيطُ المسلمون القرآنَ بأعظم تقديس، فلا يفتحون المصحف إلا بعد الوضوء، ومن القرآن يستنبط المسلمون قسمًا كبيرًا من عباداتهم، ويزين المسلمون جُدرَ مساجدهم وأعلامهم ومبانيهم بالآيات فتُذكرُهم هذه الآياتُ، التي أملتها عواملُ الأخلاق الخالصة تقريبًا، بما هو واجبٌ عليهم نحو الله ونحو بني ملتهم ونحو أنفسهم.

ويتصفُ الدين الذي بَشرَ به محمدٌ ببساطةٍ تقضي بالعجبِ، «فقد جاء جبريل في زيِّ أعرابيّ وسأل النبي: عَلامَ بنيَ الإسلام؟ فقال النبي: **بني الإسلام علىٰ خمسٍ: شهادةِ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان،** فقال جبريل: صدقتَ».

وكان محمدٌ يتكلم باسم الله علىٰ الدوام لتكون تعاليمه أعظمَ تأثيرًا؛ وكان يقول إن رسولًا من السماء يأتي إليه بأوامر الله تعالىٰ، ومن الواضح أن يكون خِتالٌ في وَجده[1]، وتُثبت قصةُ الحمامةِ الأليفة أن غيرته الشديدة لا تنفىٰ المحال في كل أمر، ويجب أن نعترف، مع ذلك، بأنه كان مؤمنًا بكمال مذهبه، وبأنه كان يعتقد، علىٰ العموم، عَدم احتياجه إلىٰ الغِرة لانتصار دينه، وكان أصحابه يطيعونه بخضوع واحترام، من غير أن يكونوا أداة صماء بيده، ودليل ذلك ما رواه

(١) إنكار لا يسوغه منطق ما دام أهل الكتاب يسلمون بوجود إله، وله جل شأنه أن يصطفي من عباده رسلًا يبلغون عنه، فلم لا يكون محمد رسولًا كالرسل السابقين، اختاره الله علىٰ علم نبيًا للعالمين ورسولًا إلىٰ الناس أجمعين، برهانه معه، ودليل صدقه بين يديه.

واقتضت حكمة الله إرساله لإنقاذ العالم حين عجزت الديانات السابقة -لما أصابها من تحريف وما خالطها من تزييف-أن تسدي عونًا، أو تسعف بإنقاذ.

أبو الفداء، الذي هو أفضل مترجميه، عما حَدثَ قُبَيلَ وفاته، فقد كان المرض، الذي يقوده إلىٰ القبر، بالغًا دوره الأخير، فصرخ قائلًا: «إيتوني بدواةٍ وصحيفة أكتب كتابًا لا تضلوا بعده أبدًا فيتردد الحضور ولا يبدون حَراكًا بدلًا من إجابته إلىٰ طلبه، فلما شاهد محمد سوء إطاعتهم أمرهم بالانصراف راجعًا عما اعتزمه، فمن كان من أولئك يُفكر في رد طلبه لو رأىٰ سلطان النبي إلهيًا في الحقيقة؟ وهل كان أولئك يمنعونه من تدوين وصيته كلَّا[1]، وما كان عمرُ ليقبلَ القرآنَ، علىٰ غرار أبي بكر وعثمان، إلا أنه رضيَ بما يأمر به من الإصلاحات ولأنه رأىٰ صلاحه لمستقبل الأمة التي قُدر لها[2]، وعمر هو الذي صرخَ في سَورةٍ ألمٍ بعد بضعة أيامٍ قائلًا: «والله ما مات، ولكنه ذهب إلىٰ ربه كما ذهب موسىٰ بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات». ويحارُ أبو بكر فيقول: «من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم يتلو هذه الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ . . . [آل عمران: ١٤٤]، ويتلو هذه الآية: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ولم يكن جواب النبي عند مطالبته بالمعجزات إلا: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] و﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) هذه زلة من المؤلف، فالمؤلف مع إشادته بذكر ما قام به النبي ﷺ من جليل الأعمال يذهب إلىٰ أن النبي كان يدعو إلىٰ دينه وهو يعلم أنه ليس موحًىٰ به من الله، فيكون المؤلف قد جاوز بذلك مثل ما ذهب إليه بعض علماء أوربة، كغوستاف لوبون الذي قال في كتاب «حضارة العرب»: «ولا يقف أي قول بخداع محمد ثانية أمام سلطان النقد . . . وكان محمد يعتقد أنه مؤيد من الله فيتقوىٰ فلا يرتد أمام أي مانع». ويكون المؤلف قد جاوز مثل ما ذهب إليه بعض المستشرقين كدرمنغم الذي ذكر في كتاب «حياة محمد» أن السيد الرسول كان لا يخطئ إلا فيما هو غير موحًىٰ به من الله إليه مقتربًا بذلك من رأي بعض علماء المسلمين، وليس هنا مجال الرد علىٰ قول المؤلف الخاطئ، وإنما نقول إن الذي حدا ببعض الصحابة إلىٰ معارضة النبي ﷺ في تدوين وصيته هو أن رغبة النبي تلك وقعت في دور انقطاع الوحي عنه وغلبة المرض عليه، حتىٰ إن عمر بن الخطاب قال آنئذ: إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله». (المترجم)

(٢) وذلك مع إيمان قوي بنبوة النبي ﷺ ويقين عظيم بصحة رسالته كما تدل عليه ترجمته الرائعة. (المترجم).

والقرآن مؤلفٌ من قطعٍ متفرقةٍ قُدمت إلىٰ المؤمنين علىٰ إنها منزلةٌ من الله بحسب مقتضيات الزمن فَدونت صفحةً بعد صفحةٍ، فلم تَخلُ من متناقضاتٍ بحكم الطبيعة لملاءمتها الأحوال كوصية قيصر[1]، بَيدَ أنه يجب النظر إليها في مجموعها قبل أن يُفكر في نقدها مفصلًا.

ومن شأن مبدأ التوحيد الجليل، الذي نُشر بين قومٍ وثنيين، أن يُضرمَ الحَميةَ في النفس المتحمسة العالية، ويسود هذا المبدأ القرآن، وإليه يعود إبداعه، ويجعل محمدٌ هذا المبدأ أساس دينه، وإليه يرجعُ سببُ سُموه علىٰ جميع الأديان، ويبدو هذا التوحيد المحض جازمًا تجاه علم اللاهوت الذي تَورط في الفِرق النصرانية بعد أن زاد عددها بفعل البدع، ولا مِراءَ في أن عظمة الله العليِّ وقدرته وحكمته وعدله وحلمه أمورٌ تستوقف أنظار ذوي النفوس المُثقلة بالأباطيل، و«أحدٌ أَحدٌ» كان وَغْيَ المسلمين ببدرٍ، ولا تخلو سورة في القرآن من قول محمد بالتوحيد.

وَيودُّ محمد أن يكون علىٰ وئامٍ هو والنصارىٰ واليهود فيعلن صحة كتبهم المنزلة، ويذهب إلىٰ أن كتابه جاء مُتمًّا لما تَقدمه[2]، غير أنه يرفض سِر الثالوث الذي لم ينفذْ إليه كما يظهر، كما أنه يخالف جوهرَ عيسىٰ الإلهي مع وضعه في المرتبة الأولىٰ من الرسل (الآية ٢٥٣ من سورة البقرة)، ويحيط مريم العذراء بهالةٍ من الاحترام فيدعوها بالبتول (الآية ٤٧ من سورة آل عمران، والآية ٢٠ من سورة مريم إلخ) ويثبت أنه سياسيٌ ماهرٌ فيقابلُ بتسامحٍ فريقَ المعارضين المنتشر بكثرةٍ في ولايات دولة الروم (الآية ٢٥٦ من سورة البقرة، والآية ٧٣ من سورة المائدة، إلخ.

---

(١) ليس في أحكام التشريع الإسلامي تناقض، وما يبدو من اختلاف فهو تدرج في التشريع، لأن الله جلت حكمته تلطف في أخذ عباده بكثير من الأحكام وتدرَّج في حملهم عليها، وذلك بتهيئة أحوالهم النفسية والاجتماعية لقبوله وتنفيذه، حتىٰ إذا تكاملت الصلاحية المنشودة لتطبيق الحكم المراد انكشف الغطاء الذي كان يتزحزح قليلًا قليلًا عن الحقيقة التشريعية الأزلية، ومن أمثلة ذلك تحريم الخمر، والربا وغير ذلك.

(٢) الإسلام دين يؤكد ما سبق، والقرآن يصدق ما بين يديه من التوراة والإنجيل، ويردد ما دعا إليه المرسلون السابقون، ويصحح ما حرف منه وتتفق مبادئه، وبعض صور عبادته، وسر هذا التوافق هو وحدة مصدرها، ومبعث هذا التصديق هو أمانة التبليغ عن الله الذي أنزل التوراة والإنجيل والقرآن.

ومحمدٌ، إذ كان رسول الملك الخالقِ، بَلغَ أن الله لا وَلدَ له، وأن إله الكون واحدٌ، وأن الله مصدر كل قوة، وأن إلىٰ الله مَردَّ مَن لم يُجيبوا دعوته، وأن النصارىٰ واليهود علىٰ الحقِّ ما دامت التوراة والإنجيلُ من الكتب المنزلة، فيكفي أن يعترفوا بأن القرآن جاء مُتمًا لهما[1]، وأن علىٰ الوثنيين والصابئين والمجوس أن يقطعوا كل صلة لهم بالماضي وأن يجحدوا بمعتقداتهم القديمة ليكونوا مسلمين، فترىٰ، إذن، أن كلمة «لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله» تُعبرُ عما كان يدور في خَلدِ النبي محمد.

ولا تجد في القرآن صفحةً لا توحي بمحبةٍ شديدةٍ لله، ويَودُّ محمدٌ أن يجتذب الناس إلىٰ عبادة خالق كل شيء، بغير واسطة، فلم يألُ جُهدًا في الدلالة علىٰ قدرته داعيًا إلىٰ النظر في عجائب الخلق جاء في القرآن: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [سورة ق: ٩، ١٠]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٦٥]، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [التغابن: ٤] و(الآيات ٢-٣٠ و٣٦ من سورة النحل، والآية ٤ من سورة التغابن، إلخ).

ويُذكر الله في البداءة أنه إله السلام، وأنه الرحمن الرحيم للتائبين، فَلما امتد شأن الإسلام ذُكر أنه العلي القويُ القادرُ علىٰ إبادة الأمم الكافرة[2] التي

---

(١) لقد أعلن القرآن أن اليهود والنصارىٰ حرفوا التوراة والإنجيل، وأنهم ليسوا علىٰ شيء حتىٰ يقيموا التوراة والإنجيل، وطلب محمد إلىٰ اليهود أن يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله، وأن يتبعوا ما جاء به، وأعلنهم أن الإيمان بالديانات السابقة فحسب لا يغني عن الإيمان بالإسلام شيئًا.

(٢) ليست هذه الملاحظة في محلها فإن صفات الله ناسبت كل موقف لم تكن مرتبطة به علىٰ وصف معين ببدء الإسلام، أو امتداد شأنه فترىٰ في السور المدنية مثل سورة الحشر قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣].
وفي سورة المائدة وهي مدنية نرىٰ قول الله تعالىٰ: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، ونرىٰ في السور المكية آيات التهديد والوعيد لمن كذب وعصىٰ فيقول الله في سورة الزخرف وهي مكية ﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ۝ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ﴾ [الزخرف: ٤١، ٤٢].

تكابر فلا تجد في كلام النبي دلائل علىٰ رسالته، فلم تكن قليلة الأمثلة التي تُسوغُ ما يؤدي إليه غضب الله من النتائج الهائلة.

وَيقُرُّ محمد بوجود الملائكة، والملائكةُ هم الذين يُبلغون إليه أوامر ربِّ العالمين (الآية ١٣ من سورة الرعد، الآية ١ من سورة فاطر، إلخ).

وفي المرتبة الأولي يجيء جبريلُ أو روحُ القدس، وميكائيل الذي هو مَلكُ الوحي، وعزرائيل الذي هو مَلكُ الموت، وإسرافيلُ الذي هو مَلكَ البعث، ويجيء الجنُّ بعد الملائكة فَيحاسّبون يوم القيامة، وليس إبليسُ المسلمين الذي هو زعيم العفاريت غيرَ شيطان اليهود وأَهْرِمَنِ المجوس (الآية ٣٤ من سورة البقرة، والآية ٣٢ من سورة النحل، والآية ١١١ من سورة الإسراء، والآية ٤٨ من سورة الكهف، إلخ).

ويقول محمدٌ بتتابع الوحي منذ بدء العالم، ويذكر من الأنبياء والرسل الذين بَلغوا كلام الله آدم ونوحًا وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ، وهو لم يَعُدَّ نفسه غير خاتمٍ لأنبياء الله القادر، وهو قد أعلن أن عيسىٰ بن مريم كان ذا موهبة في الإتيانٍ بالمعجزات، مع أن محمدًا لم يعطَ مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان محمدٌ يعترض محتجًا علىٰ بعض ما يعزوه إليه أشدُّ أتباعه حماسةً من الأعمال الخارقة للعادة!

ولكن ذلك كان من دواعي أَلم المسلمين الحقيقيين الذين وَدوا لو أن محمدًا أَيدَ رسالته بالآيات البينات، وهم، لكي يخَففُوا في نفوس أتباعه من أثر اعترافه بعدم قدرته علىٰ الإتيان بها، لم يُحجموا عن اكتشافهم في القرآن نبوءاتٍ كانت قد تحققت، أو عن عدهم أمرًا واقعيًا ما صدر عن الخيال الجامع من الرؤىٰ، ومن ذلك أن محمدًا أنبأ بانتصار هرقل علىٰ الفرس قبل وقوعه، فقد جاء في أول سورة الروم[1]: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ

---

(١) جرت سنة الله أن يؤيد أنبياءه بالمعجزات، فمعجزة صالح ناقته، ومعجزة موسىٰ عصاه، ومعجزة عيسىٰ طبه، وكلها معجزات مادية خارجة عن نطاق الرسالة، ولم يعط محمد مثلها وإنما أعطي معجزة ذاتية في رسالته والتفاوت في المعجزات مناسب لطبيعة كل رسالة وملائم لطبيعة أقوامها، فاقتضت حكمة الله أن تكون معجزة الرسالة الخاتمة شيئًا لا ينفصل عن جوهرها، فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابًا واحدًا هو القرآن إعلاء لقيمة عقل الإنسان، فيه كان التحدي وعليه اعتمد الرسول في سيرته مع =

سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٢-٥]، ومن ذلك أن بُدئت سورة الإسراء بالآية: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فبنيت علىٰ هذه الآية قصة المعراج العجيبة التي تقول بارتقاء محمدٍ إلىٰ السماء السابعة كما ذكرنا ذلك آنفًا.

ويظهر أن محمدًا أراد في الآيات ٨٩-٩٣ من سورة الإسراء أن ينقض سلفًا جميع تلك القصص الوهمية، فجاء فيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٨٩-٩٣].

ومحمدٌ كان يدرك، حين يخاطب العقلَ الإنسانيَّ علىٰ الخصوص، ضرورة إسماع صوت أقوىٰ من صوته، فينذر بغضب الله أولئك الذين يُعرضون عن الإسلام فيُذَكرهم، علىٰ الدوام، بما أصاب قومَ نوحٍ وعادًا وثمودَ وقومَ لوطٍ وأصحاب مَدْيَن من العذاب لكفرهم (الآية ٤٢ من سورة الحج، والآية ١٢ من سورة فصلت، إلخ)، وكان محمد يتلو الآية ٢٣ من سورة البقرة حينما يقول خصومه إن القرآن من صنعه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣].

ووُجدَ من لَامَ محمدًا علىٰ انتحاله مذهبَ الجَبرِيةَّ، بَيدَ أن المبدأ الذي

= أصدقائه وخصومه طول حياته ومن بعده ظل القرآن كتاب الإسلام الناطق بدعوته وحجته معًا.

ولم تخل حياة الرسول محمد من الخوارق التي أُيِّد بها النبيون السابقون أنها حملت طابعًا خاصًا فكانت ثانوية الدلالة في تصديق النبوة والشهادة لها.

ولم يألم المسلمون لعجز نبيهم عن الإتيان بمعجزة مادية كما يقول (سيديو) لعلمهم أن الله قادر علىٰ أن يؤيد نبيه بمعجزات مادية إلا أنه غالىٰ بقيمة العقل الإنساني الذي ينبغي أن يعول عليه في تصديق الرسالة.

يحتويه قرآنهُ لم يكن من نوع قضاء القدماء ولا من نوع قَدرٍ بعض المذاهب الحديثة، فليس في القدر الإسلامي ما يميت شجاعة المسلم أو يؤدي إل فتور همته، فهذا القدرُ مرادفٌ لِسُنةِ الكونِ التي تهيمن علىٰ جميع الناس وتضع حدًا لأعمالنا، «قيل للنبيِّ: يا رسول الله، أَعُلِمَ أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: نعم - قيل ففيم يعمل العاملون؟ قال كلٌ مُيسرٌ لما خُلقَ له»، و(الآية ٢٣ من سورة البقرة، والآية ٢٥ من سورة النساء، والآيتان ٢٧، ٢٨ من سورة يونس، إلخ)، وهنالك من المبادئ ما يؤدي إلىٰ أسوأ النتائج عند سوء فهمها، فما أعظم الفرقَ بين تأثير مبدأ القضاء والقدر في قومٍ حَطهم الاستعبادُ وتأثيره في قومٍ حُمسٍ مقاديم لا يبتغون غير الحرب والفتوح.

ويقول بعضهم إن القرآن يُنكر حريةَ الإنسان وإرادته وإنه يَحصرُ الإنسان ضِمنَ دائرةٍ من عدم الاكتراث سلبيةٍ، لما رُئيَ من نص القرآن علىٰ أن الله يختار أصفياءه في هذه الحياة الدنيا، ولما كُتب من نصرٍ لمن يجبُ أن ينتصروا ومن هلاكٍ لمن يجبُ أن يَهلِكوا في المعارك، ويستنبط بعضُهم قولَ القرآن بعدم فائدة الفضيلة لما رُئيَ من وضعه الإيمانَ وصالحَ الأعمال في مستوىٰ واحد لنيل ثواب الآخرة، ونحن لا نرىٰ ذلك من الحقِّ، ونحن نرىٰ أن محمدًا يذهب في قرآنه إلىٰ حرية الإنسان وتأثير إرادته في عمل الخير والشر، ويجب أن يُعترف، كما أصاب مسيو إلْسنر في قوله بأن محمدًا أثبت، علىٰ منواله، خلودَ الروح، والقليل من الناس من يحيا في ذاكرة الكونِ، ومن بؤس الحياة أَلا يفكرَ الإنسانُ في المستقبل، ومن الصواب تبديد ضروب الفَزَع الفارغ لا ريب، وهذا لا يعود علينا، مع ذلك، بغير نفع هزيلٍ نرىٰ به الأصل المُريد المُدرك العاقلَ ينحلُّ انحلالَ مادة أعضائنا، ومن غرائز الإنسان أن يناضلَ عن الروحانية، وإذا كنا نرىٰ العبقرية تولد مع شعور الإنسان المُعقد بمقاديره الخاصة التي تَنفُذُ في نهاية الأمر، وإن كان نفاذها يتأخر في الغالب، فلماذا يُعدُّ الحدسُ أو الحسُّ قبل الوقوع، الذي هو أمرٌ عامٌ من بعض الوجوه والذي هو ضربٌ من تَمدد الكيان، أمرًا خادعًا علىٰ الإطلاق؟ فلنجتنب مناهضته، فمبدأ المستقبل هو من أقوم مبادئ الأخلاق، ومن مفاخر محمدٍ أن أظهره قويًا أكثر مما أظهره أي مشترعٍ آخر (الآيتان ٢٦، ٤٥ من سورة البقرة، والآية ٣٢ من سورة الأنعام، والآية ٧٥ من

سورة يوسف، والآيتان ٦٢ و١١٢ من سورة النحل، والآية ٢٢ من سورة الإسراء، إلخ).

والناسُ يُعَدون لنعيم الجنة أو لنار جهنم ريثما يَحلُّ يومُ البعث ويوم الحساب، ويسألهم ملكان أسودان ذوا عيون زرقٍ أسماهما مُنكرٌ ونَكيرٌ، ويَزنُ جبريلُ أعمالهم بميزانٍ واسعٍ سِعة السماء والأرض، والإسلامُ يقول بمبدأ القِصاص عند عدم الدِّية، والمسلمُ إذا ما اقترف جرمًا أعطىٰ المجنيَّ عليه بعضَ حسناته، وهو إذا كان عاطلًا من الحسنات احتمل بعض ذنوب الآخر (السور: الطلاق، والتحريم، والإنسان، إلخ)، ويتبع المصيرُ مقدارَ الحسناتِ أو السيئاتِ، وعذابُ الكافر أبديٌّ، وعذابُ النصارىٰ واليهود أخفُّ، مع ذلك، من عذاب الصابئين والمجوس والمشركين، ولا سيما المنافقين الذين سينالون أشد العذاب، ويساق المجرمون إلىٰ الصراط الذي هو أَرقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف فيسقطون في النار، وأهون أهلِ النار عذابًا من له نعلان من نارٍ يَغلي منهما دماغُه كما يغلي المِرجَلُ، ويمرُّ المؤمنون علىٰ الصراط بسرعة البرق ويسكنون جِنانَ السماء السابعة حيث النعيمُ الذي أغرق الخيالُ الشرقيُّ في وصفه.

«يخدم المسلم في الجنة ثمانون غلامًا، ويتمتع المسلمُ في الجنة بنعيم وأماتعَ واسعةٍ، وتظل حدائقهُ مُخضرةً في ربيع دائم فَتهبُ له، كما يشتهي، ظِلالًا ذاتَ طَراءٍ وفواكه طيبةً، وفي الجنة غِياضٌ عَطرةٌ يُسبحُ في الخيال علىٰ خرير مياه عيونها إذا ما أريد الاستحمامُ في جَوسقٍ من الصدف والياقوت والعقيق مُزينٍ بجميع وسائل الترف، ولا تجدُ في الجنة ما يزعج المسلمَ من حرِّ النهار وقُرِّ الليل إذا ما سار أو استلقىٰ علىٰ شاطئ نهر تجري مياههُ في مجرىٰ من العنبر الأصفر والألماس والزُمرد، وما علىٰ المسلم إلا أن يأمر هنالك، حيث يكون لابسًا ثيابًا من حرير متربعًا في جلوسه بين الأزهار علىٰ بِساطٍ جميل، فَيؤتىٰ إليه بطعام فاخر في صحافٍ من ذهب، ويُعرض عليه ثلاثُمئة طَبقٍ في كل مرة، ويتوارد من الغِلمان ثلاثمئة كأنهم عِقدُ جُمان، وهم يَحملون إليه أكوابًا وأباريق من بِلوْر فَيسكبون له من شرابِ الجنة فلا يُصدعُ عنه ولا يُنزفُ، وفي الجنة يُلبي صوته اثنتان وسبعون من الحُورِ العينِ كأمثالِ اللؤلؤ المكنونِ فَيَزِدْنَه نعيمًا بأغانيهنَّ».

ولام بعضهم محمدًا علىٰ إخباره بما تحتويه جَنته من الملاذِّ الحسية، بيد أنه يجب ألا يُعزىٰ إليها ما ليس لها من التأثير، ولا أن يُجعل منها سبب استخفافٍ بدينه، فهو، إذ يَعِدُ من يؤمنون به من ذوي الفضل بسعادةٍ ساميةٍ، لم ينسَ أنه يخاطب أقوامًا من الغرب والشرق، فكان عليه أن يعرف السعادة بما تُؤلفُ منه العناصر في هذه الدنيا، والأديانُ الأخرىٰ، إذ كانت تَعدُّ الموتَ انحلالًا جُثمانيًا خالصًا فكانت تفترض أن البعث للروح وحدها، لم تَقلْ بأيِّ شأن للحواسِّ في قادم الآلام والمسارّ، وغيرُ هذا أمرُ الإسلام الذي يبعث الإنسان بعنصريه من كل وجهٍ، والمسلمُ يعتقد أن الله خالقُ كلِّ شيءٍ قادرٌ علىٰ بعث كلِّ شيءٍ، وليس بغريب، إذَنْ، أن ينظر المسلمُ إلىٰ وسائل السعادة الدنيوية كوسائل السعادة التي تكون في الحياة الآخرة، ولنَقل، مع ذلك، إن محمدًا لم يرجع إلىٰ خياله وحده في رسم جنته، فقد استعار أكثر ألواحه من الفرس واليهود والهندوس، فما كانت حُوره غيرَ «وَزانِ بَهشْت» التي يعمُرُ بها المجوسُ مأوىٰ السعادة، ومحمدٌ إذا كان يَعدُ، ملاطفًا، ضروب السعادة التي وُعد بها المؤمن الصحيحُ فإن هذا يحدث لدىٰ مخاطبته للجمهور علىٰ الخصوص مع وجود معنىٰ رمزي عنده لهذه العجائب، فهو يضع الملاذ الروحية في المرتبة الأولىٰ فقد قال: «إن أدنىٰ أهل الجنة منزلة لَمنْ ينظر إلىٰ جنانه وأزواجه ونعيمه وخدمه وسريره مسيرة ألف سنةٍ، وأكرمهم علىٰ الله مَن ينظر إلىٰ وجهه تعالىٰ غُدوةً وعَشيةً».

وليست المرأةُ محرومة نِعَمَ الحياة الآخرة كما زعم بعضهم، فبعد أن حَسنَ محمدٌ حال المرأة في هذه الدنيا بتعاليمه التي سندرسها عما قليل أعلن خلودها وأنها مَجزيةٌ بأعمالها، فقد جاء في الآية ٩٩ من سورة النحل: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [**النحل**: ٩٧]، (والآية ٢٩ من سورة الأحزاب، إلخ)، فلا فرق، إذن، في التمتع بالملاذ الروحية بين النساء وصفوةَ المؤمنين.

فأمَّا وقد فرغنا من بيان القواعد الأساسية للعقيدة الإسلامية فإننا نلخص المبادئ التي جاءت في القرآن:

إن الصلاة أهمُ ما فُرضَ علىٰ المسلمين (الآية ٢٣٩ من سورة البقرة،

والآية ١٣٠ من سورة طه، والآية ١٠٤ من سورة النساء)، والصلوات خَمسٌ في كلِّ يوم، وهي: صلاة الفجر وصلاة الظهر وصلاة العصر وصلاة المغرب وصلاة العشاء، وتُؤلف الصلاةُ من عدة ركعات، والركعة هي ما يُطلق علىٰ الأوضاع السبعة التي يقوم بها المسلم في صلاته، وَتُقامُ الصلاةُ بالتكبير، والتكبيرُ هو: «اللهُ أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهدُ أن محمدًا رسول الله، حَي علىٰ الصلاة، حيَ علىٰ الفلاح، قد قامت الصلاة، الله أكبر، لا إله إلا الله»، ثم يقال: «سبحانك اللهم وبَحمدكَ وتبارك اسمكَ وتَعالىٰ جَدك ولا إله غَيرك، أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم، بِسم اللهِ الرحمن الرحيم، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيم، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ»، ثم يُتلىٰ بضع آيات من القرآن، ثم تُختمُ الركعة بتكبيرتين تَفصلُ بينهما الكلمة: «سمعَ اللهُ لِمنْ حَمده، رَبنا ولكَ الحمد»، وقد تَبلُغُ ركعاتُ المسلمِ مئةً في اليوم.

وعلىٰ المسلم أن يتوضأ قبل الصلاة، وأن يكون مُحتشمًا في ثيابه، وأن يجمع حواسَّه، وأن يُوليَ وجهه شَطر المسجد الحرام بمكة (الآيتين ١٣٩ و١٤٤ من سورة البقرة، الخ)، ويُعلن المؤذن حلول وقت الصلاة خمس مراتٍ في اليوم، ويعلو المؤذنون المآذن بعد أن أقيمت فوق المساجد منذ خلافة الوليد فيدعون المسلمين إلىٰ الصلاة، ويستطيع المسلم أن يُوجهَ بدعاءٍ قصير وجهه إلىٰ الله في كل مكان مع ذلك، فما كان محمدٌ راغبًا في أن يغمُر الشكلُ كلَّ العبادة، فجاء في القرآن: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج: ٣٨]، وجاء في القرآن: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ولا ينبغي للنساء أن يقصدن المساجد، «فخيرٌ لهن أن يقمنَ بأمور دينهن في بيوتهن»، وأصبحت الجمعة يومَ راحةٍ، وفي الجمعة تُقام صلاةٌ جامعةٌ فيقوم

الخطيبُ الراتبُ بتفسير القرآن، ولا حَظر علىٰ المسلم بأن يقوم بعد صلاة الجمعة بأيِّ أمرٍ من أمور الدنيا أو بأن يتلهىٰ ضمن حدود العادة، «وبالصلاة نَصلُ إلىٰ منتصف طريق الربِّ، وبالصوم نَصلُ إلىٰ بابه، وبالصدقات ندخل قصره ‌*»‌.

وَيُفرضُ الصومُ في بعض أوقات السنة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ... ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ﴾ (الآيتين ١٨٣، ١٨٥من سورة البقرة، الخ).

والصدقات التي تفرضها الشريعةُ الإسلاميةُ علىٰ كل مكلف هي عُشْرُ ما يخرج من أرضٍ أو قطيع أو مال، والأقربون في الصدقات أولىٰ بالمعروف من غير منٍ ولا أذىٰ، (الآيات ٢٦٥ و٢٦٩ و٢٧٣ من سورة البقرة، الخ). ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ﴾ [البقرة: ٢٦٤]، ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٩، ٢٧٠]، ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَـٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧١] [البقرة: ٢٧٥]، ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧].

وفي القرآن حثٌ كبيرٌ علىٰ الفضيلة، خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخُلقي، (الآيات ٨٥ و١٧٦ و١٩١ من سورة البقرة، والآيتين ١١، ١٢ من سورة المائدة، إلخ)، وفي القرآن دعوةٌ كبيرةٌ إلىٰ تبادل العواطف وحسن المقاصد والصَّفح عن الشتائم، وفي القرآن مقتٌ للعُجبِ والغضب، وفي القرآن إشارةٌ إلىٰ

أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفي القرآن حضٌ علىٰ الإيفاء بالعهود حتىٰ مع الكافرين، وفي القرآن تحريضٌ علىٰ خَفض الجَناح والتواضع وعلىٰ استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لَعنهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٥]، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ . . . [النساء: ١٧، ١٨]، و﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١-٣]، و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]، ومن لم يمنع حدوث الذنب عند المقدرة يصبح شريكًا في الذنب، والدالُّ علىٰ الخير كفاعله، وقال النبي: «لا تحَاسدُوا ولا تناجَشوا[1] ولا تباغضوا ولا تَدابروا ولا يبغِ بعضُكم علىٰ بعضٍ وكونوا عباد الله إخوانًا».

ويكفي جميعُ تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشدًا لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن، وليس فيها ما يناقض ما ورد في الإنجيل، بَيد أنك لا تجد في القرآن ما في الإنجيل من التسليم الذي يفيد كثيرًا عند الشدائد، فترىٰ محمدًا يأذن، بين كثير من المتناقضات، في مقابلة السيئة بالسيئة كأن الناس لم يكونوا مستعدين لذلك قبل ذلك.

وما ذكرناه كان رخصةً لما طُبعَ عليه بنو قومه من عادات حبِّ الثأر، فتجد بجانب الآية ١٩٠ من سورة البقرة: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ﴾ [البقرة: ١٩٤] ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، ومحمدٌ حين يقول بمبدأ

---

(١) التناجش: هو الزيادة في ثمن البيع ليُغَرَّ المشتري.

القِصاص، الذي رضيَ به اليهود مع ذلك، يكون قد ساير أحكام زمانه وقومه (الآية ١٧٣ من سورة البقرة)، وفي هذا إيضاح لمختلف الآراء التي أبداها بعض الناقدين حول القرآن، ومن هؤلاء من جعلوا من ذلك مجموعة خدائعَ اختلطت بأرقىٰ المبادئ، ومن هؤلاء من لم ينظروا إلىٰ ما كان يُحيط بالنبيِّ من ضروب العوائق التي تعوق سيرهَ فلاموه علىٰ أعمالٍ يرفضها عقله، فلم يسمح بإبطالها ما فُطرَ عليه قومه من الخلق العاطفيِّ والأهواء.

ومن التجني علىٰ حقائق التاريخ ما كان من عَزو بعض الكُتابِ إلىٰ محمدٍ من القسوة والجُبن، فقد نَسيَ هؤلاء أن محمدًا لم يألُ جُهدًا في إلغاء عادة الآثار الموروثة الكريهة التي كانت ذات حُظوةٍ لدىٰ العرب كحُظوة المبارزات بأوربة فيما مضىٰ (الآيتين ٧٨ و٧٩ من سورة البقرة، والآية ١٢٧ من سورة النحل، إلخ)، وكأنَّ أولئك الكتابَ لم يقرؤوا آيات القرآن التي قضىٰ محمدٌ فيها علىٰ عادة الوأد الفظيعة (الآية ١٥٢ من سورة الأنعام والآية ٨ من سورة التكوير، إلخ)، وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به علىٰ أشد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيرًا من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلىٰ ما أبداه من أسفٍ علىٰ بعض الأحكام المبتسرة، وكأَنهم لم يُبصروا أن الأمة العربية تَعدُّ الانتقام أمرًا واجبًا وأنها ترىٰ من حق كل شخص أن يَقتُل من غير عقاب مَن يكون خطرًا عليه ذات يوم، وكأنهم لم يعلموا أن محمدًا لم يُسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يأل جُهدًا، في الغالب، في تقويم من يجور من أصحابه، وكلٌ يعلم أنه رفض، بعد غزوة بدر، رأيَ عمرَ بن الخطابِ في قَتلِ الأسرىٰ، وأنه عندما حَلَّ وقت مجازاة بني قريظة تَرك الحُكمَ في مصيرهم لحليفهم القديم سعدِ بن معاذ، وأنه صَفحَ عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض قَط، ما طُلب إليه من اللطف والسماح، وليس بمجهولٍ أن خالد بن الوليد الذي كان من أشجع قواده لم يسطع أن يرعوي بعد إسلامه من روح القسوة والصَّولة التي كانت تلازمه في زمن الجاهلية فلاحت له الفرصة بأن يَثأر بقريبه القتيل فأثخن في بني جَذِيمةَ فأجمع المسلمون علىٰ استفظاع عمله، فلما نبئَ محمدٌ بما صنع خالدٌ أسرع في ذَمِّه جهارًا فرفع يديه إلىٰ السماء قائلًا: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وَتحولَ

أصحابُ خالدٍ عنه، وأنكروا عليه سوءَ ما اقترف من هتك سِترٍ ورجوع إلىٰ دور الجاهلية، علىٰ حين كان النبي بعيدًا من ذلك الظلم الذي تم بدمٍ باردٍ فأراد النبي أن يُوحيَ إلىٰ سامعيه ما يساوره من مقتٍ واشمئزاز.

وليس من الصواب أن يقال إن محمدًا كان يجبنُ في الغالب، لِما رُويَ من أن رَجفةً خفيفةً اعترتْه في بدء يوم بدر، فما أكثر ما عرَّض حياته للخطر انتصارًا لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أحد حتىٰ بعد أن جُرح جبينهُ وخدُّه وسقطت ثَنيَّتاه[1] ووقع في حفرة من ظهر فرسه، وهو قد حافظ علىٰ اعتدال دمه حتىٰ بعد أن كُبَّ مرة أخرىٰ علىٰ وجهه فَشُق بحلق مِغفره، فنفخ بكلامه روحَ الشجاعة في أصحابه فنجا بذلك من الموت، وهو قد أوجب النصر بصوته ومثاله في معركة حُنيْن، ومن الحقِّ أن عَرفَ العالم كيف يُحيِّي قوة إرادته ومتانة خُلقه وفصاحته وعبقريته الشعرية وبساطته، ومن يجهل أنه لم يعدل، إلىٰ آخر عمره، عما يفوضه فقرُ البادية علىٰ سكانها من طراز الحياةِ وشظَفِ عيش؟ وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غِنًىٰ وجاهٍ عريضٍ، وهو لم يَعدُ حدَّ الشيخ العربي بمن كان يلازمه من الأصحاب والأقارب فَيحرسونه ويُعدون بطانةً له في آن واحد، وما كان خَتم النبي دون مراسيم ملك الفرس وقيصر الروم في حَملِ الناس علىٰ الطاعة.

وكان محمدٌ حليمًا معتدلًا، وكان يأتي بالفقراء إلىٰ بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطفٍ ورفقٍ جميع من يودون سؤاله، فيسحر كُلماءَه بما يعلو وجهه الرزينَ الزاهرَ من البشاشة، وكان لا يضجرُ من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلًا فلا ينِمُّ ما يقول علىٰ كبرياء أو استعلاء، وكان يُوحي في كل مرةٍ باحترام القوم له فيعرف كيف يستوجب ما تقتضيه الرسالةُ من تبجيلهم إياه.

ودلَّ محمدٌ علىٰ أنه سياسي محنكٌ بعدم إبطاله بعض العادات القديمة التي لا يعدل القوم عنها بلا اعتراض، فهو قد رَضي ببعض شعائر الصابئين كالحج إلىٰ الكعبة، وهو قد بدا أقرب إلىٰ اليهود منه إلىٰ النصارىٰ في الطقوس الخارجية، وما كان في غِنًىٰ عن النُظمِ الشائعة ببلاد العرب منذ زمنٍ طويل فكانت ضروريةً لتحقيق خِططه.

(١) الثنية: واحدة الثنايا، وهي أربع أسنان في مقدم الفم، ثنتان من فوق وثنيتان من أسفل.

ومحمدٌ الذي كان منظرُ الطبيعة غذاءً لعقله فعرف أن يسمو به إلىٰ خالقه شَعر في ذات نفسه ذاتِ الحسِّ بضرورة الإفصاح عما نَضج في فؤاده من الفكر بأقوالٍ وأفعال فيجب علىٰ من يبتغي إبداع دين أن يُبدع، إذن، رموزًا منظورة ظاهرةً، فهذا ما دُعي إلىٰ صنعه ذلك يخاطب قومًا تميزوا من بقية الشعوب بأوصافٍ خاصة، فأصبح لزامًا عليه أن يمنح دينه بعض المظاهر الأساسية التي وَجد النفع في التمسك بها لما تعد شِعارَ أُمته.

«وإن شيدَ المساجد وصوت المؤذن والركوعَ والسجودَ واحترامَ الأشهر الحرُم والحجَّ إلىٰ مكةَ والقيامَ بالأوامر التي تَمس الصحة العامة عن كَثَب أمورٌ يوافق عليها العربُ موافقةً شاملة، وإن العودة إلىٰ الصلاة باستمرارٍ أثارت مقاومةً كثيرةً، فالصلاة إذ كانت أمرًا شاقًا، مع أهميتها العظيمة لما يُدعىٰ بها المسلمُ ليل نهارَ إلىٰ الشعور بدينه، أوجبت تمردًا عنيفًا غير مرة، ثم غدت الصلاة كالنظام الذي يتعوده الجنديُ، والصلاةُ إذ يتصلُ بها الانسان بمقام الألوهية المجرد الصارمِ الذي لا تدركه الحواسٌ دون البال، تطبع المسلمَ بالتعصب الحماسيِّ والزهدِ القاتم والغرور الدينيِّ، والصلاةُ تُمسكُ الإسلام بغير هياكلَ، والصلاة تضمن دوام الإسلام بغير كُهانٍ».

وكانت الأشهر الحرمُ هُدَنًا حقيقية من الله، وكانت تَقفُ الحروب الدامية فَتحقنُ بها دماء كثيرةٌ، وهل كان علىٰ محمدٍ أن يُبطل هذه العادة المفيدة؟ كلا، وَحقَّ لمحمدٍ ألا يقضي عليها وأن يهب لها قوةً جديدة بِحمل الناس علىٰ احترامها، مستثنيًا المشركين من الاستفادة منها، جاء في الآية ٣٦ من سورة التوبة: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ والأشهر الحرم هي: شوال[1] وذو القعدة وذو الحِجة والمحرم.

وكان لمحافظة محمدٍ علىٰ الحج إلىٰ مكة سبب سياسيٌ، فلم تكن معابدُ

---

(١) ليس شوال من الأشهر الحرم، والأشهر الحرم هي: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادىٰ وشعبان، فثلاثة منها متواليات وواحد منها فرد. (المترجم)

الصابئين الأولىٰ غيرَ أماكن للتجارة يُرغِّبُ الناسُ في قصدها بضروب التسامح، وكان حجُّ الكعبة يَدُرُّ علىٰ أهل مكة مالًا وافرًا فوجب أن يُطمئنوا إلىٰ ذلك.

أجل، إن عمر بن الخطاب حَظر الاقتراب من البيت المُحرم علىٰ الكافرين غير أن المواسمَ ما انفكت تُغري التجار بالمجيء إليه من كل ناحية، كما كانت تدعوهم إلي سيوه وأكسوم، ولم يتحرج محمدٌ في الأمر بعادةٍ ملائمةٍ لمقاصده الخفية، وجاء في الآية الخامسة من سورة الشورىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ فإذا كان محمدٌ، المحتاجُ إلىٰ هذه العاصمة العامة التي يلتف حولها جميعُ العرب، قد استقر بالمدينة هي بلدٌ عربيٌ آخرُ، فإنه أدىٰ إلىٰ تقابل مصالحَ مختلفة في جزيرة العرب ما فَتئت تتصادم منذ القديم، وأدرك محمدٌ ضرورة اتباع مكة لدينه خَشية الإخفاق فجعل الكعبة مركز اجتماع عامٍ فتمسك بما فرضه الزمن من الحجِّ وشعائره، مع ما كان من خَطر مخادعة أهلِ المدينة الذين رَأوا بإيوائه أنه يكون لبلدهم المقام الأول.

ولا تنس أن لكل أمةٍ أذواقها وميولها، وأن جزيرة العرب محبةٌ لجميع الشعائر، فاقرأ قصص السياح الذين يَروون طِراز القِرىٰ وإيواء الغرباء هنالك تدرك صدق ذلك.

وكان محمد يفرِّق، كما رأينا آنفًا، بين العمرة التي يمكن القيامُ بها في جميع شهور السنة والحجِّ الذي أقرَّته العادة منذ القديم في اليوم العاشر من ذي الحجة: الآيتين ١٦٢ و١٩٣ من البقرة، إلخ).

ومن قصة الحجِّ الذي أَتمه النبي سنة ٦٣٢، كما رواها مسيو كوسان دوبرسفال، نعلمُ المناسكَ التي فُرضت علىٰ المؤمنين، فقد سار النبيُّ في اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة (٢٥ فبراير سنة ٦٣٢) ومعه تسعون ألف حاجّ، أو ١١٥٠٠٠ حاجٍ علىٰ رواية أخرىٰ، ومعه زوجاته في هَوادج، ومعه جِمالٌ كثيرةٌ مزينةٌ بالأكاليل للتضحية، وقضىٰ الليلة الأولىٰ في ذي الحُليفة حيث أحرم كما في المرتين السابقتين، والإحرامُ هو عكس الإحلال الذي يعود به المحرم إلىٰ ثيابه العادية، وقلد المسلمون النبي في إحرامه ورَددوا دعاء التلبية: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، الحمدُ والنعمة والشكر لك لبيك،

لَبيك لا شريك لك لبيك»، وداوم النبي علىٰ سيره إلىٰ مكة، وكان لابسًا قطعتي نسيج فتستر الأولىٰ، وهي الإزار، نصفه الأدنىٰ، وتستر الأخرىٰ، وهي الرداء، صدره وكتفيه.

ووصل النبي إلىٰ مكة في صباح اليوم الرابع من ذي الحجة (٣ مارس سنة ٦٣٢) فتوجه، من فوره إلىٰ الكعبة فاستلم الحجر الأسود باحترام فطاف حول الكعبة سبع مرات، فَرملَ[١] في ثلاث منها، ومشيَ في أربع، ثم عاد إلىٰ الحجر الأسود فقبله ثانية، بعد أن قام بدعاء عند مقام إبراهيم، ثم خَرج من الحَرم للدعاء في الصفا مُتمًا يومه بالسعي بين الصفا والمروة، ثم خاطب جميع المسلمين الذين كانوا في موكبه بقوله: «من لم يكن منكم معه هَدْيٌ فأحب أن يجعلها عمرة فليفعل، ومن كان معه هَديٌ فلا»، فأطيع علىٰ كرهٍ، فاضطرت النساء إلىٰ العدول عن الحج الأكبر، فلم يبق مُحرمًا غير النبي وعدد من أصحابه الذين كان معهم هَديٌ.

وعاد عليُّ بن أبي طالب من اليمن إلىٰ مكة في تلك الأثناء، وكان مُحرمًا جالبًا معه بضعة جِمالٍ ليضحي النبي بها، فأشركه النبي فيها آذنا له في الحج.

وقصد النبي مِنًىٰ في اليوم الثامن من ذي الحجة (٧ مارس) محاطًا بجمعٍ، فنُصبت له خيمة حيثُ صلىٰ الصلوات الخمس، أي ظل حيثُ هو إلىٰ اليوم التاسع من ذي الحجة حين بدت الشمس علىٰ الأفق، فَركب ناقته القصواء قاصدًا جبل عرفات.

وقف النبي، وما يزال علىٰ ناقته، فوق رَصفةٍ، فخطب في الناس، فكان يُرددُ جُمله، بين الحين والحين، ربيعةُ بنُ أمية بن خَلف القرشيُّ بصوته الجهير، فلما أتمَّ النبي خُطبتهُ ترجلَ وصلىٰ الظهر ثم العصر، ثم ركبَ ناقته القصواء فذهب إلىٰ ربوة أخرىٰ من جبل عرفات يقال لها الصخرات، فهناك بَلغ آية القرآن حيث يقول الله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ **[المائدة: ٣]**، فلما غربت الشمسُ توجه إلىٰ المزدلفة حيث صلىٰ المغرب وقضىٰ ليلته.

---

(١) رمل: هرول في مشيه.

وفي الغد، أي في اليوم العاشر من ذي الحجة (٩ مارس سنة ٦٣٢)، وقف النبي بعد صلاة الفجر في المكان المعروف بالمشعر الحرام، ثم جاوز مُسرعًا الوادي الصغير المعروف بِبطن مُحَسِّر ودخل وادي منىٰ، ومر من بعض الأماكن التي قيل إن الشيطان ظهر لإبراهيم فيها فرمىٰ علىٰ كل واحدٍ منها سبع جمراتٍ، ثم دخل الخيمة التي نُصبت له منذ عشية، فهنالك أُحضر الهديُ للتضحية فنحر بيده منه ٦٣ وفك ٦٣ رقبة، أي نَحر من الهدي وفك من الرقاب ما يعدل سنوات عمره التي حُسبت علىٰ حَسب التقويم القمري، وضَحىٰ عليٌّ بـ ٣٧ من الهدي.

وبعد أن فرغ النبي من ذلك النحر العظيم استدعىٰ حَلاقًا فقص شعره بادئًا بشقِّه الأيمن فوزعهُ بين أصحابه، وهيئ طعامٌ من لحم الضحايا، فأكل هو وعليٌّ منها، مُرسلًا بعضه إلىٰ أزواجه وآمرًا بتوزيع بقيته بين الحضور، ثم عاد إلىٰ مكة فصلىٰ فيها صلاة الظهر، ثم طاف بالكعبة قبل أن يدخل بيته.

تلك هي قصة ذلك الحج التي رواها المؤرخون فانتهت إلينا، ويُسمي المؤرخون ذلك الحج بحجة البلاغ لما أسفر عنه من تقرير مناسكه فدل عليها النبي بأقواله وأفعاله، ويُسمىٰ أيضًا حَجة الإسلام لما كان من قيام محمدٍ بها بعد انتشار دينه فَتم بها النظامُ الإسلامي، ويُسمىٰ أيضًا حَجة الوداع، وهذا الاسمُ أكثر شيوعًا، لما كان من وَداع النبي فيها للمسلمين ولوطنه مكة التي لم يرها بعدئذٍ.

وتَردُ إلىٰ مكة قوافلُ الحجاج في كل سنة من جميع بلاد الإسلام، فإذا ما بلغ الحجيجُ الأرضَ المقدسة تطهروا بالوضوء وأحرموا، ورفع كلٌ واحدٍ منهم صوته بالدعاء قائلًا: «اللهم إني نويت أداء فريضتك في الحج فاجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك فَيسر لي أداءَ ما نَويت»، ثم قصدوا الكعبة في أيِّ وقت أرادوا من الليل أو النهار، ووقفوا أمام الحجر الأسود المُدمج في جدار الكعبة وقال كل واحدٍ منهم: «اللهم إني عبدك والبلدُ بلدك والحرمُ حرمك والبيت بيتك جئت أطلب رحمتك وأسألك مسألة المضطر الراجي لرحمتك الطالب مرضاتك»، واستلموا الحجرَ الأسود وبدأوا بالطواف كما صنع محمد.

وقد تكلمنا عن الوضوء الذي تفرضه الشريعةُ الإسلامية قبل الصلاة وفي أثناء الحج إلىٰ مكة إلخ، فعلىٰ العربي الذي يجوب البادية حيث يُفقدُ الماء أن يتيمم، ومحمدٌ، إذ أمر بضروب الطهارة، عَملَ ما تقتضيه الصحة في البلاد الحارة، ومحمدٌ، إذ جعل من قواعد الصحة فرضًا ثابتًا، أسدىٰ إلىٰ أمته بخدمة خالصة (الآية ٤٦ من سورة النساء، والآيتين ٨، ٩ من سورة المائدة).

وما أوتيه محمد من الحكمة حَمله علىٰ تحريم بعض اللحوم المضرة والسوائل المتخمرة، جاء في القرآن: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾ [المائدة: ٢]، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩] (الآيتين ١٦٨ و٢١٦ من سورة البقرة، والآيات ١، ٤، ٦، ٩٠ من سورة المائدة، والآية ١٤٥ من سورة الأنعام، والآية ١١٦ من سورة النحل إلخ).

وبحث في تلك النصوص القرآنية كثيرًا، فقيل، بحقٍ، إن تحريم الخمر أمرٌ فرضه جوُّ جزيرة العرب وإن محمدًا لم يصنع غير إثبات عادةٍ قديمة في تلك الجزيرة، والصعوبة كلُّ الصعوبة كانت في إدخال مبدأ تحريم الخمر إلىٰ الأمم التي أخضعتها الفتوح للإسلام فوجدت أن تحافظ علىٰ عاداتها وطراز حياتها، فعند مثل هذه المعضلات بدت دقائق فقهاء المسلمين، فَوجد بينهم من زعم أن النبي حظر الإفراط في شرب الخمر أفلم يقل: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١] (الآية ٩٤ من سورة المائدة)، ومن الصواب، مع ذلك، أن يصار إلىٰ التحريم المطلق تجاه أناس لا يريدون أن يعملوا بهذا المبدأ الحكيم.

وقُل مثلَ ذلك عن الميسر الذي يؤدي إلىٰ الشدائد ويخرب الأُسر، فحقَّ لصاحب الشريعة أن يُحرمه، وقد استثنيت من ذلك ألعابُ التسلية التي تُريحُ الروح، فلم يجرؤ علىٰ تحريم الشطرنج أكثرُ الأئمة تشددًا (الآية ٢١٦ من سورة البقرة والآيتين ٩٢، ٩٣ من سورة المائدة).

ومما تقدم ترىٰ أن القرآن كتابٌ معدٌ، في الغالب، لشتىٰ التفاسير وأن من الحق ألا يوقف عند حرفية بعض تعاليم محمد، وألا يُعزىٰ إليه بعض البدع التي لم يقل بها، وأمرُ محمدٍ، في الغالب، هو أنه لم يصنع غير المحافظة علىٰ عادات بَلغتْ درجة من التأصل ما كان من غير الصواب إبطالها معها، ومن ذلك أن أمر المسلمون بالمحافظة علىٰ عادة الختان التي ثبت أمرها منذ أقدم الأزمان، ومن ذلك أن ظلَّ مبدأ تعدد الزوجات باقيًا علىٰ العموم[1] (الآية ٢٢٦ وما يليها من سورة البقرة، والآية ٣ وما يليها من سورة النساء)، ومن الظلم العظيم أن يعزىٰ إلىٰ محمد ما عليه المرأة في الشرق من سوء الحال، مع أنه جد في تحسينه، فالمرأة العربيةُ تنمو نُموًا تامًا قبل أن تبلغ سن الرشد، وهي تَهنُ بسرعة فيلوح أن الطبيعة قَضت عليها بالانحطاط والخضوع، فلما ظهر محمدٌ خفض عدد الزوجات الشرعيات إلىٰ أربع نسوة ناصحًا بالاقتصار علىٰ زوجة واحدة علىٰ أنه خيرٌ، فإذا ما خالف بنفسه هذا الحكم فلأسباب سياسية، فكان من نتائج مصاهراته إطاعة عدة قبائل له.

والقرآن، وهو دستور المسلمين المدني، رَفع شأن المرأة بدلًا من خَفضه، فقد جعل محمدٌ حصة البنت في الميراث تعدلُ نصف حصة أخيها مع أن البنات كُنَّ لا يرثن في زمن الجاهلية، ومحمدٌ، وإن جعل الرجال قوامين علىٰ النساء، بَيَّن أن للمرأة حق الرعاية والحماية علىٰ زوجها، وأراد محمدٌ ألا تكون الأيامىٰ جزءًا من ميراث ربِّ الأسرة فأوجب أن يأخذن ما يحتجن إليه مدة سنة وأن يقبضن مُهورهن وأن ينلنَ نصيبًا في أموال المتوفَّىٰ (الآية ٨، ١٤ من سورة النساء إلخ).

---

(١) دعوة محمد جاءت لإصلاح دنيا الناس وآخرتهم، فما رأت من أحوالهم وعاداتهم صالحًا أقرته، وما رأته ضارًّا بهم ألغته وحرمته أو قومته وعدلته ليحقق مصلحتهم، فالإبقاء علىٰ الختان لما له من آثار طيبة في الصحة العامة وسلامة البدن.
أما تعدد الزوجات فكان قبل الإسلام لا يقف عند حد في العدد، فوقف به الإسلام عند أربع وحاطه بضمانات تحقق الهدف منه، وجعل الإفراد خيرًا منه عند عدم توافر مسوغاته، والتعدد بضروراته أبقىٰ علىٰ عفة المجتمع وسلامة الأمة من الإفراد الذي يحمل علىٰ التعدد غير المشروع.

ولا شيء أدعىٰ إلىٰ راحة النفس من عناية محمد بالأولاد فهو قد حرم عادة الوأد، وشغل بالهُ بحال اليتامىٰ علىٰ الدوام (الآية ٧٧ من سورة البقرة، والآية ٢ من سورة النساء، والآية ١٥٣ من سورة الأنعام، والآية ١٤ و١٥ من سورة البلد، إلخ)، وكان يجد في ملاطفة صغار الأولاد أعظم لذة، ومما حدث، ذات يوم، أن كان محمدٌ يصلي فوثب الحسينُ بن علي فوق ظهره فلم يبال بنظرات الحضور فانتظر صابرًا إلىٰ حين نزوله كما أراد، وما ألطف أقوال محمدٌ عن حنان الأم وحب الوالدين، وما أجمل ما في كلمة محمد: «الجنة تحت أقدام الأمهات» من تكريم للأمهات! فيمكن أن يُكتب فصلٌ رائعٌ من حياة محمد حول هذا الموضوع.

وليس نكاح المسلمين بتابع لطقوس رسمية، فيكفي لتمامه إيجاب وقبولٌ من الزوجين أمام شاهدين، وفي القرآن تحريم للزواج بين أناس من درجات معينة: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ (الآيتين ٢٢٠ و٢٣٥ من سورة البقرة، والآيتين ٢٦، ٢٧ من سورة النساء، إلخ).

وأُحل الطلاقُ في الإسلام (الآية ٢٢٦ وما بعدها من سورة البقرة)، ولكن الطلاق جُعل تابعًا لبعض الشروط فيمكن الرجوعُ عنه عند الطيش والتهور، والطلاق لكي يكون باتًا، يجب أن يكرر ثلاثَ مراتٍ متتابعاتٍ يفصلُ بين كل واحدة منها شهر[1]، فالمرأة إذا ما طلقت لا تحل لزوجها الأول إلا بعد أن تنكح زوجًا آخر فيطلقها هذا الزوج، وهذا الحكم علىٰ جانبٍ عظيم من الحكمة لما يؤدي إليه من تقليل عدد الطلاق، ولا يحق للمرأة أن تطلب الطلاق إلا عند سوء المعاملة، وهي إذا ما نالت طلاقها لم تنل مثلما تَمنحه الشريعة من الفوائد عند تطليق البعل لزوجته (الآيات ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٣٠ من سورة البقرة).

(١) لم أجد في كتب الفقه نصًا علىٰ فاصلة الشهر التي ذكرها المؤلف. (المترجم).

وجزاء الزنا صارم (الآيتين ١٩، ٣٠ من سورة النساء، والآية ٣٤ من سورة الإسراء)، وكان قدماء العرب يرفعون جدارًا حول الآثمين فيميتونهم جوعًا، ورأي محمد رجم المرأة الزانية[١]، ورأىٰ رجم الرجل المحصن إذا ما زنىٰ، وإلا نُفي وجُلد مئة جلدة، ولابد من أربعة شهود لإثبات الزنا، ولم يقصر محمدٌ في منع انتشار الفجور، وللنبي نصائح غاليةٌ في سورة النور، والنبي يأمرُ المؤمنين بالاحتشام، والنبي يُنظم أمورهم، نحو أجرائهم وأبنائهم وآبائهم وأمهاتهم، برفقٍ أبوي ممزوجٍ بلسان المشترع الوقور الجليل.

وقيل إن محمدًا أقرَّ مبدأ الأثآر القديم بقبوله مبدأ القصاص (الآية ١٧٧ من سورة البقرة، والآية ٩٤ من سورة النساء)، ولا خلاف في أن إحلال العدل الفردي محلَّ العدلِ العام من المصائب الهائلة، وكان العرب يعدون الكيد والغدرَ والقتلَ أمورًا مباحة في الثأر بالدم المسفوح فرأىٰ محمدٌ أن يحارب الإفراط في الشر فقال بالدية فلم يُستمع له فظل العفو والعقاب من حقوق الأهل المظلومين[٢].

وقد تبدو عقوبة السرقة مفرطةً (الآية ٤٢ من سورة المائدة)، فكانت تُقطع أيدي السارقين، وكانت تقطع أيدي قُطاع الطرق وأرجلهم من خلافٍ، فَوجد فقهاء المسلمين عدة استثناءات لهذا الحكم محاولين تخفيف قسوته، فمحمدٌ أراد أن يلقي الرعب في قلوب من يطمعون في أموال غيرهم[٣].

وظهر محمدٌ شديدًا تجاه كل من غش وخان، وحَرم محمدٌ الربا بصريح القول (الآية ٢٧٦ من سورة البقرة، والآية ١٢٥ من سورة آل عمران إلخ)، فلم

---

(١) هذا إذا كانت الزانية محصنة، وأما غير المحصنة فتجلد مئة جلدة كما جاء في القرآن. (المترجم)

(٢) القصاص أمر لم ينفرد به الإسلام، بل جاءت به كل الشرائع السابقة لمنفعة الجماعة، وعلاج النفوس الآثمة حتىٰ تعيش الأمة آمنة مطمئنة. والقصاص ثأر عادل يحارب الإفراط في الشر، والأمر في ذلك لولي الدم إن شاء اقتص وإن شاء عفا، والعفو أحب إلىٰ الإسلام من القصاص.

(٣) ليست عقوبة السرقة مفرطة، فقطع اليد جزاء عادل لمن يمدها إلىٰ مال حرمه الله عليه ليقضي علىٰ عادات الجاهلية في انتهاب الأموال، وقطع الطريق... إلخ ولم يكن تشريع الفقهاء تخفيفًا من قسوة هذا الحكم، وإنما هو حد ماض لا يخرج عليه إلا من ظلم نفسه، وإنما استوثقوا له بتوافر شروطه الموجبة له مستلهمين فيه روح الدين وحكمة التشريع.

يأمر بغير استرداد الدائن لرأس ماله، فالربا، كما يجده القرآن، هو سوء استعمال الرجل الموسر لثروته، فجاء في القرآن: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ولا يظن القارئُ أن محمدًا كان يعطف علىٰ المدينين بما يخالف مبادئ العدل، فمحمدٌ كان يأمر بأن يُوفي المدينون بعقودهم بإخلاص، فينذرهم بعذابٍ مقيمٍ فضلًا عن عدم دعائه لمن لم يوفوا بعقودهم في أثناء حياتهم (الآية ٢٨٠ من سورة البقرة، والآيتين ٦٨، ٧١ من سورة آل عمران، إلخ).

وأمر محمدٌ بأن تُكتب العقود أمام شهودٍ، وأعلن فساد البيوع التي تَتمُّ بتغريرٍ، وحظرَ بواضح الكلام الاحتكار وحبس الأقوات، وقد قال زرادشت قبل محمدٌ: «لا إثم أعظم من أن يشتري الإنسان الحبوب وينتظر ارتفاع أثمانها ليبيعها بأسعار غالية».

وعلىٰ الشهود أن يؤدوا شهادتهم إذا ما دُعوا، ويمكنهم أن يمتنعوا عنها في أمر العقوبات البدنية، وفي القرآن: «من ستر علىٰ مسلم ستره الله تعالىٰ في الدنيا والآخرة[١]» (الآية ١٣٦ من سورة النساء، والآية ١١ من سورة المائدة)، ويُكتفىٰ بشاهدين في العقوبات خلا مسائل الزنا، ويُكتفىٰ بشاهدين أو شاهد وشاهدتين في الدعاوىٰ المدنية، والفضيحة كلُّ الفضيحة في شهادة الزور.

ومن الحق أن يؤاخذ محمدٌ علىٰ إبقائه الرِّق في بلاد العرب، فما كان أحد ليخالف شريعته في إبان سطوته لو أعلن حرية الموالي من المسلمين[٢]، وقد قال: «إنما المؤمنون أخوة»، ولكنه ذكر في مكان آخر الأرقاء والإماء، فبين ما

(١) ليس هذا من القرآن، وإنما هو من الأحاديث النبوية. (المترجم).

(٢) لم يبق الإسلام علىٰ الرق رضاء به وإنما تدرج في إلغائه لارتباط الاقتصاد القديم به، وكانت الطفرة في إلغائه أقرب شيء إلىٰ المستحيلات، فبدأ الإسلام بتحريم كل رق غير رق الأسرىٰ في الحرب ثم حسن إطلاقهم وسماه منًا وعفوًا يشكر عليه فاعله، ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه وجعل عونه مصرفًا من مصارف الزكاة في الإسلام وأوجب حريته في القربات والكفارات ودعا إلىٰ حسن معاملته حتىٰ تتم حريته فكان بسده منابع الرق، وتوسيع مصارف العتق، وصيانة حقوق الرقيق في فترة الانتقال مشرعًا حكيمًا بعيد النظر في العواقب.

يجب علىٰ سادتهم نحوهم، فشملهم بكرمه، فجعل فك المسلمين للرقاب من أحبِّ المكفرات للذنوب عند الله (الآية ٧٣ من سورة النحل، والآية ٣٣ من سورة النور، إلخ).

ولم يَقنع محمدٌ بأن يُنظم في القرآن صِلات بعض المسلمين ببعض، بل نَظم أيضًا، صلاتهم بالكافرين، والكافرون فريقان: فريق يؤمن بالله واليوم الآخر، لا برسالة النبي، وفريقٌ يعبد الأصنام ويشك في بعث الأموات، وعلىٰ المسلم الصالح أن يقاتل هؤلاء، كما يقاتل المرتدين والخوارج فيقتلهم ما لم يُسلموا، وليس من الضروري أن يُقسىٰ علىٰ الآخرين، بل يُقتصرُ علىٰ عدم الاتصال بهم بصلة النسب أو بصلة العهود الوثيقة.

وتجب مقاتلة أولئك عند التهديد، ومن الجهاد محاربةُ أعداءِ الله ورسوله، ومن الإلحاد اقتتالُ المسلمين، والجهادُ إذا ما أُعلن وجب القيام به بحماسةٍ وبسالةٍ درءًا للخطر عن الدين، فالله يطلب من عباده أن ينصروه قبل كل شيء: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وكانت غايةُ محمدٍ من ذلك القول إثارةَ حَمية العرب الحربية، وكان محمدٌ يَعُد السلاح أمضىٰ وسيلةٍ للدعوة ويَعد نُوَبَ الحرب نُوبًا لدينه فيدعو إلىٰ الجهاد جميعَ من اتبعوه من غير أن يُنيطوا آمالهم بأغنىٰ المغانم.

ثم ثبتت أركان دين محمد في الحجاز، فأصبح لِزامًا عليه أن يستغل روح الحرب في القبائل التي كانت تقتتل، لا ريب، لو لم يُسلطها علىٰ الأجنبي، وكان محمد مضطرًا، إذن، أن يحرك حمية العرب الحربية في سبيل دينه، ولم يصعب هذا علىٰ محمد، وهو الذي عرفَ كيف يتصرف في قلوب الناس، وهو الذي كان قادرًا علىٰ الإيحاء إلىٰ مختلف المشاعر من ذُعر وأمل وشجاعةٍ وحب للنصر وميلٍ إلىٰ الموت تَبعًا لمقتضيات الزمن، وإذا كانت سُورُ القرآن المكية مشبعة بروح التسامح لم تكن السورُ المدنية كذلك(١).

(١) انظر تذييل ص ٧٨.

«والمسلم جنديٌ من جنود الله الذي أورثه الأرض، فهو يتجند عن وجدانٍ واستعمال السلاح عند المسلم عمل ديني لا يقوم به إلا بإخلاصه له، والمسلم إذا ما انضوىٰ إلىٰ اللواء لم يمتنع عن القتال أو المبارزة إذا ما أمره الرئيس، ومن أفظع الجرائم أن يَفر المسلمُ من الجيش أو يمتنع عن الإنفاق علىٰ الجهاد (الآيات: ٧٣، ٧٩، ١٠٣ من سورة النساء، والآيتين ٣٨، ٣٩ من سورة التوبة، إلخ)، وعلىٰ المسلم عند هجوم الكافرين أن يترك، من فوره، شؤونه الخاصةَ، وأن يَهبَّ إلىٰ الدفاع عن المركز المُهددِ ولو كان بعيدًا ثلاثين فرسخًا، غير منتظرٍ أمرًا يتلقاه، ولا يُعفىٰ من الجهاد غير الصبيان والمجانين والحمقىٰ، ويجب علىٰ الأشخاص الآخرين من أحرار ومَوالٍ ورجالٍ ونساءٍ وأصحاءَ ومرضىٰ وعميان وكُسحانٍ أن يدافعوا جهد الاستطاعة، وأن يقاوم كل واحد منهم العدوَّ حتىٰ النهاية، والمرأة إذا لم تُفضل الموت علىٰ هدر شرفها تُعدُّ أثيمة».

ولا نرىٰ تخفيف هذه الأحكام الشديدة ما اشتُرط علىٰ المسلم، قبل التحاقه بالجيش، أن يؤدي ديونه ويدبر أمرَ أسرته ويمتارَ ويتجهز.

ومن أسباب استعلاء العرب قناعتهم الكبيرة واقتصارُهم في طعامهم علىٰ بضعة كيلوغرامات من التمر أو الشعير المُحمس لمدة شهرين.

ونجد حياة المعسكرات عند العرب ذات صبغةٍ جديةٍ رصينةٍ، فيحرم الميسرُ واللهوُ واللغوُ وفُحشُ الكلام علىٰ المجاهد العربي، ويجب علىٰ هذا المجاهد أن يتجمل بالصدق والتقوىٰ ومخافة الله كأساسٍ خُلقي عند كلّ محادثة، وأن يقوم بفروض العبادة بين صَليل السلاح، وأن يَقضي فواصل عمله في الدعاء والتأمل وتلاوةِ القرآن، وما عليه أولئك الشجعان من الوَرع يُبعدُ منهم كل فُجور، ومَن يُعاقر الخمر منهم يُعاقب بشدةٍ، ومما حدث ذات يوم، أن سَكرتْ شِرذمةٌ من الجنود سِرًا فطلبت إقامة الحد الشرعي عليها، ولا يقبل في الجيش كلُّ متطوعٍ بلا تمييز، بل يُبحث في سلوك كل متطوع وأخلاقه بدقةٍ، فما أعظم ما لاقاه أبو سفيان لِيؤذن له في السير إلىٰ الروم! فهو قد أسف علىٰ سابق غَواياته، فَمن مجدِ الانضواء إلىٰ الرايات الإسلامية اهتداءُ أشدِّ الناس ارتيابًا.

وتغمر الحمية الحربية حتىٰ النساء، فلم يُعِنْ هؤلاء النسوةُ المُترجلاتُ الإسلامَ علىٰ النصر فقط، بل كُنَّ يُردين بسهامهنَّ وَيقتلن بسيوفهنَّ كل مسلمٍ فارٍ أيضًا.

«الجنة أمامكم والنارُ خلفكم»، بهذه الكلمة وحدها كانت تُجمعُ الكتائبُ ذاتُ القيمة العجيبة، وكانت هذه الكتائبُ تَعرفُ من نَبيها أنه لا مفرَّ من القَدر، إن لم تَهلك في سبيل الإيمان وأن الحياة في الموت، وكان من نتائج نظام الغنائم تغذية الروح الحربية (الآية ١ وما بعدها من سورة الأنفال، والآية ٦ من سورة الحشر، إلخ)، وكانت أربعة أخماس الغنائم تُعطىٰ للجيش، وكان الخُمس يُوزعُ بين أكثر الناس سِلمًا علىٰ وجهٍ يُفيد الجهادَ، فيأخذ منه القُضاةُ وعلماء الأخلاق والشعراء والأدباء والمدرسون والغُرباء الذين لم يكن لديهم ما يعودون به إلىٰ بلادهم، فإذا ما ضل هؤلاء الغُرباء إليها شادوا بذكر كرم العرب وشرفهم.

ومما تقدم ترىٰ أن القرآن أبصر كلَّ شيءٍ، وأنه لم يُهمَل أمرٌ في عملِ محمدٍ الدينيِّ أو المدنيِّ أو الحربيِّ، وترىٰ السلطة الزمنية والسلطة الروحية قبضة رجلٍ واحد، ولا ترىٰ سلسلة مراتب ولا طوائف كهنوتية ولا طبقاتٍ ذاتَ امتيازات.

وذلك هو من آيات المجتمع الجديد الذي وضع أُسسه ابن عبد الله، وحكومة هذا المجتمع ليست مكلفةً بغير ما تفرضه الشريعة، ويمكن كلَّ مسلمٍ في هذا المجتمع أن يقيم الصلوات ويقوم بالوعظ في المساجد، ويُفوَّضُ إلىٰ ذوي البصائر في هذا المجتمع أن يقضوا في الخصومات مستندين في أحكامهم إلىٰ القرآن والحديث، ويجب علىٰ هؤلاء القضاة ألا يرضوا بمناصبهم الخطيرة إلا بفرضها عليهم، وَيُعدُّ هذا دليلًا كبيرًا علىٰ الإخلاص للنفع العام أو أكثر مما يدل علىٰ القيام بوظيفة القاضي، ويكون محمدٌ قد أتم اشتراع العربِ الحديثَ العجيب حين رَسم واجبات القضاء.

لقد بينا الصفات العامة التي تجعل من القرآن كتابًا مبتكرًا، مع ما ادعاه كثير من المؤرخين الذين قرؤوا فيه مبادئ وقصصًا مقتبسة من الكتاب المقدس فأسرعوا في قولهم إنه نسخة ناقصةٌ عنه، ونحن، حين نُقدرُ القرآن، نقول إن محمدًا لم يبتغ في تأليفه أن يمنح البشرية أدبًا أفضل مما في الإنجيل أو أن

يفرض دستورًا واحدًا[1] علىٰ جميع أمم الشرق، أو أن يَحصرَ الشعورَ الديني في حدودٍ أبديةٍ لا تتبدلُ، وإنما أراد أن يربط جميعَ قبائل جزيرة العرب بقاعدةٍ مشتركةٍ، وأن يُوحدها تحت لواء واحد، وأن يجعلَ بينها تضامنًا قويًا في المنافع فَتُقلع عما تَعودته من الأثرة المحلية وأن يُعَودها علىٰ الخضوع لنظمٍ واحدةٍ فَتنزعَ من صدورها الأحقاد فتتضافرَ علىٰ تعجيل حضارتها، فإذا ما نُظر إلىٰ القرآن من هذه الناحية ظهر اختلافُه الكبيرُ عن العهد الجديد والعهد القديم اللذين أريد قياسهُ بهما، ويمكن القرآن، من غير انتحال، أن يستعير من أحد العهدين أدبه وأن يستعير من الآخر اشتراعه، ويكون هذا عملًا نافعًا لو كانت مبادئه ودساتيرهُ تلائم، إذ ذاكَ، شعوبَ بلاد العرب، علىٰ ألَّا تَنقُضَ واحدة من الحقائق العقلية، والحقُ أنك لن تستطيع أن تَدَّعي، لائمًا، أن محمدًا ترك واحدةً من هذه الحقائق الكبرىٰ، فقد أعلنها علىٰ رؤوس الأشهاد ودعا إليها جميعَ من بدوا بعيدين منها، والحقُ أنك لا تَجدُ ما في القرآن من العقائد والمبادئ والشعائر والوعد والوعيد ما هو غيرُ مُنسجم مع ميول الأمة العربية، فيجب أن يصلَ القرآن، إذنْ، إلىٰ النتيجة التي أُعدَّ لها، فالقرآن إذ كان ملائمًا لما عند الشعب العربيِّ الفطريِّ من الاحتياجات الخُلقية والدينية والاجتماعية مُلخصًا لجميع النظم التي تجعل من هذا الشعب أمة قوية مُنورة تهافت عليه هذا الشعب، وقد بَهرت عبقرية ذلك الذي أملىٰ القرآن الشعبَ العربيَّ فانتحل هذا الشعبُ القرآن، ولكن هذا الشعب أخطأ

(١) اقتضت حكمة الله أن تكون رسالة محمد هي خاتم الرسالات، وشريعته عالمية أبدية، فجاءت إلىٰ العالم بطريقة كاملة في المعاش والمعاد، وقانون شامل لأمور الدين والدنيا، متضمنة مبادئ عامة وأصولًا كلية، تاركة التفاصيل وبعض الجزئيات للقائمين بالتطبيق مستلهمين فيها روح الدين وأهداف الشريعة، ومن ثم كان الإسلام قابلًا للتطبيق في كل زمان ومكان صالحًا لجميع الأمم ومختلف البيئات متىٰ تعمقناه وعرفنا كيف نستوحيه ونستنبط منه ما ليس منصوصًا عليه.

ويبدو غير صحيح عدم صلاحيته للتطور ومسايرة المدنية، والشعب العربي لم يحرم نفسه حق تحويله مع مقتضيات الزمن، قائمة المسلمين فصَّلوا مجمله، وقعَّدوا أحكامه، وجعلوا منه قانونًا محكمًا متطورًا لم تعرف الدنيا أعدل منه ولا أوفىٰ منه بمتطلبات البشرية في تطورها.

ولم ننتج عن تطبيق مبادئه تطبيقًا صحيحًا نتائج سيئة لم يكن يعلم بها محمد، بل صنعت مبادئ القرآن أمة قادت البشرية إلىٰ الخير، وأقامت في الأرض حكمًا عادلًا، وإنما شقيت الشعوب والأمم يوم تجافت عن مبادئ القرآن وتنكبت طريقه، ولقد عرف النبي ذلك وحذر منه.

كثيرًا إذ حَرمَ نفسه حقَّ تحويله مع مقتضيات الزمن، فكان في ذلك سِرُّ تأخره بعد حين، والشعب العربيُّ إذ حَملَ شعوبَ الغرب علىٰ الإذعان لمبادئ مخالفةٍ لأفكارها وعاداتها وَجدَ نفسه تجاه حواجز منيعةٍ فَصدمَ سُورًا من قُلُزٍّ[1] علىٰ غير جَدوىٰ، وما كانت نتائج تطبيق مبادئ القرآن علىٰ مختلف الشعوب، علىٰ وجهٍ مؤلمٍ، لِتظهرَ إلا بعد طويلِ زمنٍ، وما كان محمدٌ لِيُبصرَ ذلك[2].

---

(١) القلز: النحاس الذي لا يعمل فيه الحديد.

(٢) لتأخر العرب أسباب غير هذه لا محل لذكرها هنا، وقد بسط العلامة لوبون أسباب انحطاط العرب في كتاب «حضارة العرب» فأصاب في بيان معظمها، وإنما سها المؤلف عن أن الإسلام دين ديمقراطي وأن مبدأ المساواة التامة ساد الجميع بفضله، وأن الفقهاء ساروا علىٰ مبدأ «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأمكنة والأزمان» وأن المسلمين في عصر الخلفاء الزاهر كانوا يعلمون، بما كانوا يأتونه من ضروب الاجتهاد، كيف يوفقون بين تلك الأحكام واحتياجات الأمم التي انتحلتها، فلا نرىٰ، والحالة هذه، أن المؤلف أصاب في رأيه ذلك. (المترجم).

الباب الثالث

العرب بين وفاة محمد
واصطراع بني أمية وبني العباس
(٦٣٢-٧١٣م) - (١١-١٢٥هـ)

الفصل الأول

الخلفاء الأولون

بدت في بلاد العرب أيام محمدٍ حركةٌ غيرُ مألوفة من قبل، فقد خَضعت لسلطانٍ واحد قبائلُ العرب الغَيرىٰ علىٰ استقلالها والفخورُ بحياتها الفردية، وانضم بعض هذه القبائل إلىٰ بعضٍ، فتألفت أمةٌ واحدةٌ منها، وهل تنقضي هذه الحركة بانقضاء باعثها أو يختارُ العربُ من يخلُفُ سيدهم ليسير علىٰ غِراره في الطفرة إلىٰ ما وَعدهم بتحقيقه من المثل العالية؟ ذلك ما تجلىٰ حين وفاة محمد في سنة ٦٣٢، وهنالك من الأسباب القوية ما يجعل الناظر يفترض ارتدادًا إلىٰ النظام السابق، ومن تلك الأسباب أن لاح سكان جزيرة العرب، القانعون بطبائعهم البسيطة، غير مستعدين للتضحية ومنها حِقد هؤلاء السكان علىٰ كل ذي أفضليةٍ فلم ينسوا هذا الحقدَ إلا تجاه رسول الله، ومنها، وهو الأخير، ما كان للدين الجديد من جذورٍ ضعيفةٍ في جزيرة العرب علىٰ ما يظهر، وما كان الانحلال الذي قُدرَ حدوثه ليحدثَ بفضل رجالٍ ممتازين أيدوا محمدًا في أثناء رسالته الطويلة الشاقة فأعلنوا، بعزمٍ، أنهم سائرون علىٰ طريقه، فعرضوا القرآن، الذي كان معهم، علىٰ الجميع فاختاروا زعيمًا ليحمل الناس علىٰ احترام الشريعة فأبدعوا سلطانًا ساميًا خضع له العرب بلا جدال، ولا يعني هذا أن العرب أحدثوا نظامًا استبداديًا يقوم به فردٌ، وإنما أقاموا حكومة شعبية مستندة إلىٰ شريعة إلهيةٍ يديرها ولي أمرٍ منتخب مُقيدٌ في سلطته، فَحُصر عمل وليِّ الأمر هذا في وضع نُظم للأمن ولوظائف الدولة وواجباتها ولشئون الحربِ دون سن القوانين ما دام القرآن قد قيد أمراء المسلمين بربطه النظام الاجتماعي بالدين، فلما أراد

أولياء الأمور هؤلاء أن يتخلصوا، بعد زمنٍ، من شدة الأوضاع التي قال بها الإسلام لم يستطيعوا ذلك بلا مقاومةٍ، فقد وقفهم، عند حدهم، فريقُ الفقهاء الذي أصبح بالتدريج ضربًا من الكهنوت، وأصحابُ النبي هم الذين كانوا يقومون قبل الفقهاء، بمراقبة من اختاروه خليفة.

وأوائل الخلفاء هم: أبو بكر (٦٣٢-٦٣٤) وعمر (٦٣٤-٦٤٤) وعثمان (٦٤٤-٦٥٥) وعليٌّ (٦٥٥-٦٦٠)، فلم يُسكرهم سلطانهم، فلم يبحثوا عن النفائس والثراء، بل ظلوا أوفياء لحياة الزهد والورع التي كان محمدٌ قدوة لهم فيها، فكانوا، مثله، يقصدون المسجد للوعظ والصلاة ويستقبلون الفقراء والمظلومين في بيوتهم، وسار عمر بن الخطاب إلىٰ القدس ليتسلمها فسافر من المدينة إلىٰ فلسطين من غير حاشيةٍ أو حرسٍ، وتُوفي أبو بكر فلم يترك لورثته سوىٰ ثوبٍ وعبدٍ وجمل، وكان علي يتصدق علىٰ الفقراء في كل جمعةٍ بما عنده من النقود، أفلا نذكر أن أبا بكر كان يأخذ من بيت المال خمسة دراهم مُياومةً؟ أفلا نذكر أن عمر بن الخطاب كان ينام علىٰ دَرج المسجد بين المساكين؟ أفلا نذكر حُفنة تمر علي بن أبي طالب؟ فهذه الأمور هي وما ماثلها مما هو معروف، وكان الخليفة مسئولًا عن أفعاله، فأُكرِهَ عثمان علىٰ تقديم حسابٍ عن أموال الدولة، وكان يمكن الادعاء علىٰ الخليفة، ولم يأنف عليٌّ من الحضور إلىٰ المحاكم مُتهمًا نصرانيًا بسرقة سلاحه، وكانت أحكام القضاء نافذة، فلم يجرؤ أحد من أولئك الخلفاء الأربعة الذين عُرفوا بالخلفاء الراشدين علىٰ العفو عن مَدين، وكانت الشريعة واحدةً للفقير والغني والسريِّ والعامي، فلما حضر جَبَلَةُ بنُ الأيْهَم بعد إسلامه للاجتماع بعمرَ بن الخطاب لطم عربيًا وطئ إزاره، فطلبَ عمر منه أن يفتدي بنفسه وإلا أمر العربي بأن يَلطمه، فقال جبلة: «كيف ذلك وأنا مَلك وهو سوقةٌ؟» فقال عمر: «إن الإسلام جمعكما وسوىٰ بين الملك والسوقة في الحدّ» فَفرَّ جَبلةُ إلىٰ قيصر الروم، فأمر عمر بأن تُروىٰ هذه الحادثة إلىٰ الجيش، فما كان أحدٌ ليبقىٰ بذلك غريبًا عن الشؤون العامة في المدن والبراري.

ولم يضع محمدٌ نظامًا لخلافته، فأسفر سكوته عن ذلك أن تحركت ضروبُ الحرص إلىٰ أبعد مَدىٰ، فكلٌّ فَسرَ سكوته لمصلحته، حتىٰ إن بعضهم أجمع علىٰ

القول بأن النبي قَصد، بعدم تعرضه لأمر خلافته، أن يكون صِهرهُ وابن عمه عليٌّ بن أبي طالب خليفةً له، ولو قبل ذلك لحال دون ظهور ما ضرج القرنَ الأول من الهجرة بالدماء، وخشيَ عليٌّ أن يعارَض بحداثة سنه فلم يَبرز في الميدان، وعلم صحابةُ محمدٍ أن خواصَّ الأنصار أوشكوا أن يختاروا سَعد بن عُبادة الخزرجي للخلافة فأسرعوا في انتخاب أبي بكر الذي أقامه محمدٌ مقامه في الصلاة بالناس، فبايعه عمر بن الخطاب فاقتدىٰ جميع المسلمين بعمر في المبايعة.

وإليك ما قاله أبو بكر بعد مبايعته بالخلافة: «أيها الناس، قد وُليت عليكم، ولست بخيركم فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدقُ أمانة، الكذبُ خَيانة، والضعيف فيكم قويٌ عندي حتىٰ أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي منكم ضعيف عندي حتىٰ آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يَدع أحدٌ منكم الجهادَ في سبيل الله، فإنه لا يدعه قومٌ إلا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

واستخلف أبو بكر عمر بن الخطاب عند وفاته بعد سنتين، والمصلحة العامة هي التي أملت علىٰ أبي بكر ذلك، فقبل بالإجماع، ولم يَسرْ عمرُ علىٰ طريقة أبي بكر، فعَهد إلىٰ خمسةٍ من سُراةِ الإسلام في انتخاب من يخلفهُ، فأُقصي عليٌ من الخلافة بخُدعةٍ فلم يختر الأجدرُ بها لها في سنة ٦٤٤، فما كان عثمان بن عفان، وهو الشريف الصالح، قَوامًا بها لما لم يكن عنده من الحزم وقوة المبادرة ما يستطيع به أن يدير شؤون دولةٍ زادتها الفتوحُ أهميةً.

وكان اختيارُ عثمان خليفةً من عمل بني أمية الذين كانوا سادة قريش، فناهضوا رسالة محمدٍ عشرين سنة، فلم يُسلموا إلا لمصلحةٍ، فجعل أبو سفيان ابنه معاوية كاتبًا لمحمد وقريشٌ هؤلاء الذين كان عمرُ بن الخطاب قد زجرهم في خلافته الحازمة الرشيدة فرجوا أن يكون لهم سلطان علىٰ عثمان، فلمَا سخطوا علىٰ عثمان الخوَّار الحليم اشتعلت الفتن في الكوفة والبصرة ومصر، فدعا بعض الخطباء إلىٰ الثورة عليه، فلم يعرف عثمان كيف يُدير أمور سلطته بالحقيقة، فَنجم عن تراكم أغاليطه حدوثُ الكارثة التي أَودتْ بسلطته وبحياته في سنة ٦٥٥.

ولم يُجبل العربُ علىٰ الطاعة المطلقة، فكانوا يراقبون أدق أعمال أولي الأمر، فتأذىٰ الناسُ من محاباة عثمان لأقربائه ومن ميله إلىٰ أناسٍ فاقدي المزيةِ ومن قلة عنايته بأبطال الإسلام، فغدت المدينة ميدانًا للفوضىٰ، فقتل هذا الخليفة السيئ الحظ بعد أن طُرد من منبر النبي من غير أن ينفعه اتخاذه القرآن حِصنًا لصدره.

وما كانت الحوادث التي تواترت بعد ذلك لتحقق أمل أولئك الحراص الذين أوجبوا ذلك القتل، فاشتعلت الفتن في كل ناحية، ولم تكن لعلي ضلعُ في تلك المؤامرة، فلم يعارض أحدٌ في اختياره للخلافة، وعليٌ هو من تَعلَم حُريَّةَ ضميرٍ وحضورًا لمجالس المدينة مع ميله إلىٰ القيام بشؤون حياته المنزلية الهادئة، ولم يخل من سذاجةٍ تصريحُ عليٍ باستعداده لاعتزال سلطانه إذا ما وجد من هو أجدر منه، وذلك حينما استند إلىٰ قوسه الكبيرة فأخذ بيعة زعماء القبائل.

جَمع زوج فاطمة في شخصه حقوق الوراثة وحقوق الانتخاب، ووجب علىٰ كل واحد أن ينحني أمام صاحب هذا المجد العظيم الخالص. وما كان هذا ليحدث، فلما رَفض علي أن يُولي صاحبي آل معاوية طلحة والزبير الكوفة والبصرة انقلبت صداقة هذين الصاحبين إلىٰ حقدٍ شديد، وبدت أرملة محمدٍ عائشة بنتُ أبي بكر روح كل مكيدةٍ، ويهرعُ إلىٰ السلاح، ويؤخذ أحدُ عُمالِ عليٍ علىٰ حين غَفلةٍ ويُرهقُ، ويتوجه عليٌ إلىٰ العراق حيث التجأ قَتلةُ عثمان، ويغلبُ علىٰ طلحة والزبير في مكان يقال له الخُرَيبة، ويهلكان في الواقعة المعروفة بيوم الجمل سنة ٦٥٦، ويَأسر عليٌّ عائشة ويعاملها بالحسنىٰ ويرسلها إلىٰ المدينة مع ولديه الحسن والحسين، ويتخذ عليٌّ الكوفة مقرًا له، ويأخذ فيها بيعة العراق وجزيرة العرب وفارس وخراسان، ويعترف هنالك بأن حقه أظهر من حقوق الخلفاء الثلاثة السابقين، وينظر إليهم هنالك كغاصبين، واليوم ما فتئ الفرس يضعون اسم عليٍّ بجانب اسم محمد في صلواتهم، فَيسمي المسلمون هؤلاء بالشيعة متخذين اسم السنية لأنفسهم مُعربين عن احترامهم لأبي بكر وعمر وعثمان وللسنة.

رجا عليٌ أن يكون قد كسر شَوكة الفتنة، ولكنه أبصر في الشام عدوَّ بني هاشم معاويةَ بن أبي سفيان الذي اتحد هو وفاتحُ مصرَ عمرو بن العاص ذو الشهرة في تواريخ الإسلام، فينازع معاويةُ صهرَ النبي السلطة علىٰ رأس ثمانين ألف مقاتل مبديًا مقاومة لا تُرد، وتقع من الوقائع تسعون في مئة يوم وعشرة أيام ويهلك في تلك الحرب الأهلية خمسةٌ وأربعون ألفًا من أصحاب معاوية وخمسةٌ وعشرون ألفًا من جنود علي، ويأمر عليٌ كتائبه بألا تبدأ بالهجوم وبأن لا تجهز علىٰ الفارين، وبأن تحترم الأسارىٰ، وذلك وفق ما اشتهر به علي من الكرم المثالي، ويرفض معاويةُ ما عرضه عليه عليٌّ من تصفية قتالهما في مبارزة فردية، ثم يضطر ذانك المتنافسان، وذلك بعد حرب مذبذبة في سهول صِفين، إلىٰ النزول عند رغبة جيوشهما في إحالة نزاعهما إلىٰ التحكيم، ويُحكم علىٰ زوج فاطمةَ ويُنطقُ بخلافة معاوية، ولا يرضىٰ عليٌّ بهذا الحكم فلا يُنفَّذ ويتوجعُ عليٌّ، بحقٍ، من غدر حكمه فيعود إلىٰ الصراع، ويتفقُ ثلاثةٌ من متعصبي الخوارج علىٰ إنهاء ذلك الصراع الإلحادي بقتل علي وعمرو ومعاوية في آن واحدٍ، ويُجرَح معاوية ويقتل كاتبُ سرِّ عمرو بدلًا منه، ويقتل عليٌ فينادي أهلُ الكوفة بالحسن بن علي خليفة، ويظل معاوية سيد الشام ومصر وجزيرة العرب فيكون بنو أمية أصحاب مُلكٍ بمعاوية، وبذلك يكون «النظام الشعبي الذي ليست له دَعامةٌ غير السذاجة القبلية، كما قال إلْسِنِر، قد زال علىٰ ألا يظهر ثانية عند أي شعبٍ مسلم، فظلت أحكام الفقه والعادات التي استُنبطت من القرآن باقيةً بعد سقوط تلك الدولة الانتخابية مع ذلك، وظلت في الأمة والجيوش بقيةٌ من تلك المنازع الجمهورية التي تمنح الدول الصغيرة عظمةً والدول الكبيرة قوةً مع ذلك، وذلك إلىٰ حين ظهور دولة الغاصبين».

الفصل الثاني
العرب الفاتحون

كُتبَ للإسلام تقدمُ عظيمٌ في السنوات الثماني والعشرين، أي بين سنة ٦٣٢ و٦٦٠، وعاد المؤمنُ الحقيقيُّ لا يكون في الحجاز أو في صحارىٰ نجد، بل أضحىٰ مرابطًا علىٰ شواطئ النيل ودِجلة والأردن، وسار خلفاء محمد علىٰ سياسته فَرأوا أن أفضل وسيلةٍ لإعلاء شأن دينهم وإظهار قوة شعبهم العربي أن يناجز العربُ الأممَ المجاورة وأن يحركوا فيهم حميتهم الدينية وحماستهم للفتح، وكان أهم ما يساور أبا بكر، الذي نُصب خليفة منذ برهة، هو أن يدعو جميع المسلمين إلىٰ السلاح، ولكن جزيرة العرب كانت صعبة المِراس بعيدة من الانقياد.

كان كلٌ من طُليحة في نجد ومسيلمة في اليمامة وقاتلُ الأسود العنسي قيسٌ يؤلف لنفسه حزبًا هائلًا، ولم يكد النبي يغمض عينيه حتىٰ امتدت الفتنُ بسرعةٍ إلىٰ قبائل عُمانَ والبحرين ومَهرة وحَضرموت، وظهرت اضطرابات في الحجاز ومكة والطائف فأزيلت بسهولة، وكان أبو بكر قد أرسل إلىٰ الشام جيشًا بقيادة أسامة بن زيدٍ تنفيذًا لرغبة محمد الأخيرة، فلم يكن عنده جيشٌ يكفي لإخضاع العُصاة فاهتبلت غَطفان، وهي علىٰ رأس قبائل نجد، هذه الفرصة فحاولت أن تقتحم المدينة فدحرها الخليفة مرتين، فارتدت إلىٰ طُليحة بعد أن ذبحت مئتين من إخوانها المسلمين.

وكان الانقسام يدب في صفوف أعداء الخلفاء في غضون ذلك، فقد انضمت إلىٰ الزعيمين المرهوبين، طليحة ومسيلمة، النبية سَجاح بعد أن سارت

من العراق مع بني تغلب واتبعها بنو تميم وتوجهت إلىٰ اليمامة التي وُعدت بفتحها، فأخذ مُسيلمة ينظر إلىٰ ما ينتظره من المصائب بعين القلق، فعرض علىٰ سَجاح، في أثناء محادثةٍ، أن تتزوج به فقبلت، فانتهىٰ بذلك إلىٰ حملها علىٰ العودة مؤديًا مبلغًا كبيرًا من المال.

حلَّ الوقت الذي يَخف فيه خالد بن الوليد علىٰ رأس المسلمين لإخضاع الأنبياء الكاذبين، وعاد أسامة بن زيد من غزوه مثقلًا بالغنائم، وإن لم يستولِ علىٰ دومة الجندل التي كانت ملجأ للساخطين، ولما أمر أبو بكر خالدًا بأن يبدأ بالهجوم علىٰ قبائل نجد زوده بمثل النصائح التي زود بها أسامة فأوجب عليه أن يطلب من أعداء الإسلام ثلاثة أمور، وهي: الإسلام والصلاة والزكاة، ومما أوصىٰ به قوله: «لا تخونوا، ولا تغُلوا، ولا تَغدروا، ولا تمثّلُوا، ولا تقتلوا طفلًا صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلًا ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيرًا إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوامٍ قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له».

ولم يكد خالد بن الوليد يظهر في نجد حتىٰ انضمت إليه طيئ، وغُلب طُليحة في بُزاخةَ ففر إلىٰ بادية الشام، واستسلم بنو أسدٍ وغطفانُ وهوازن وسُليم فسلموا إلىٰ الغالبين من اشتركوا في ذبح المسلمين بعد غزو المدينة المشؤوم، فَرُجم بعضهم وقُذفَ بعضهم من فوق الصخور وحُرقَ بعضهم وأُغرق بعضهم في الآبار فألقت هذه الآثار القاسية رُعبًا في النفوس.

ثم سار خالد إلىٰ بني حنظلة، من بطون تميم الذين انحازوا بحماسةٍ إلىٰ النبيةِ سَجاح فتفرقوا أَيدي سبا أو أظهروا الطاعة، فأمر خالدٌ بقتل زعيمهم مالك بن نويرةَ، فتزوج بأرملته، فأثارت هذه القسوة المؤمنين عليه، فجاء أخو مالكٍ الشاعرُ متممُ بنُ نُويرة إلىٰ الخليفة مطالبًا بالانتصاف من خالد، فأيده عمر بن الخطاب في ذلك، فقبل أبو بكر اعتذارَ خالد فأدىٰ عنه دية الدم المسفوك.

ويظل مسيلمة سيد اليمامة مع ذلك، ويَقهر مُسيلمةُ جيشي المسلمين اللذين كانا بقيادة عِكرمة بن أبي جهل وشُرَحْبِيل بن حسنة، وَينفخُ روحَ الثقة التي لا حدَّ لها في بني حنيفة، ويتقدم خالد إلىٰ هَجَر ولا يقفُ شيءُ أمام سلاحه، ويخسرُ

مُسيلمة المعركة وحياته في يوم عقرباء، وتستسلم هَجر، ويدخل بنو حنيفة في الحظيرة.

وظل القرآنُ، حتىٰ ذلك الحين، محفوظًا في ذاكرة أصحاب محمد، وإن شئت فقل في ذاكرة حَملة القرآن، وكان هؤلاء يحفظون بالرواية، وعن تقوىٰ، كيف تُتلىٰ كل سورة، وما كان من القرآن مكتوبًا علىٰ الجلود وسُعوف النخل لم يَعدُ حدَّ بعض القِطَع، فلما قُتل كثير من القراء في معركة عقرباء رأىٰ أبو بكر من الحكمة أن تُجمع سُورُ القرآن في مصحفٍ، فقامت لجنة بذلك، فَحفظَ أولُ مصحفٍ عند إحدىٰ أرامل محمد: حفصة بنت عمرَ.

وأطفئت نيرانُ الفتن التي اشتعلت في البحرين وعُمان وسائر أقسام جزيرة العرب، وقطع العلاءُ بن الحضرمي صحراء الدهناء فَهزم أمام جُواثي بني بكرٍ الذين لبوا دعوةَ رئيسهم الحُطم فنادوا بأحد مناذرة الحيرة ملكًا، فأدىٰ استيلاؤه علىٰ جزيرة دارين إلىٰ نهاية الرِّدة.

ووَدَّ عِكرمةُ بن أبي جهل لو يَنسىٰ الناسُ هزيمته في اليمامة فاستولىٰ علىٰ دَبا عاصمة عمَان فَشتت شمل أتباع النبي الكاذب لقيط ذي التاج، ثم أخضع مهرة فأوغل في زحفه حتىٰ عدن، ثم التقىٰ بالقائد المهاجر بن أمية المخزومي الذي أتمَّ حديثًا إبادة بقية حزب الأسود العنسي باليمن، فألزم بالطاعة بني كندة في حضرموت، وهكذا أقرت بلاد العرب الحقيقة بسلطان أبي بكر، فأعلن هذا الخليفة الجهاد حالًا.

وجدَّ محمدٌ في إنماء روح الجندية بين العرب، وحبب محمدٌ إلىٰ العرب دعوة الناس إلىٰ الإسلام، وكان إيمان العرب بأن عباد الله الصالحين هم الذين يرثون الأرض يزيدهم قوةً، وكان ضرب من الحُمَيَّا الدينية يشمل نفوس العرب، ووضع زعماء العرب كلمة «الجنة أمامكم، والنار خلفكم» نُصب أعينهم فقادوا جنودهم إلىٰ معمعةٍ شديدةٍ فنشأ عن هذا البُحْران الروائي وهذا الفوران العاطفي تقويض لأعظم العوائق، وكان القادة يجعلون من أنفسهم المثل في كلِّ آن، فيدعون أشجع شجعان الأعداء إلىٰ المبارزة قُبيل كل معركةٍ، فيخرجون ظافرين من هذا الصراع الأوميرُسي فيظهرون سُباقًا في طريق المجد علىٰ الدوام.

وكان فنُّ الحرب غريبًا علىٰ العرب، ولم يكن عندهم سوىٰ الإيمان والشجاعة والإقدام، ولم يُعتم العربُ أن درسوا نُظم أعدائهم بدقةٍ فقلدوهم، فأصبحت لديهم كتائب منظمةٌ جاعلين فُرسانهم علىٰ الجناحين.

وسار العرب علىٰ مثال محمدٍ في الحراب قُبيل المساء متخذًا الليل جُنة عند الإخفاق فكانوا يجتنبون الاشتباك قبل صلاة الظهر، أو كانوا يحافظون علىٰ التوازن الحربي حتىٰ المساء ليعودوا إلىٰ الجهاد بكتائب جديدةٍ من الاحتياطيّ، مستفيدين من نَصب العدوّ الذي لا يتوقع هجومًا آخر.

ولم يكن العرب ماهرين في فن الحصار، فكان لابد من حبوط جهادهم تجاه الروم والفرس لو لم تنهك الروم والفرس حروبهم المتصلة فتستنزف ما بقي لديهم من عُصارة وحياة.

والروم والفرسُ إذ أضعفهم احترابهم عند الانتصار والانكسار علىٰ السواء بدوا غنيمة سهلةً غنيةً لمن يعرف كيف يأخذها، ولم يَعلم الرومُ، الذين انقسموا إلىٰ أحزاب متعادية متمذهبةٍ بمذاهبَ متناقضة فكانوا يَكلون أمرَ الدفاع إلىٰ أناس من المرتزقة، حقيقة من يحاربون معتقدين أن مقاتلة هؤلاء من نوع الحروب العادية التي تنتهي باتفاق وتفاهمٍ، فأضاعوا وقتًا ثمينًا في مفاوضة هؤلاء الذين لم ينحرفوا عن دستورهم القائل: «إما الإسلام وإما الجزيةُ»، وذلك في حالة النصر أو القهر علىٰ السواء، وهذا إلىٰ أن السكان كانوا يرضون، من غير تَذمُّرٍ، بسادتهم الجددِ الذين أبدوا من الإيفاء بالعهود أبدوا مبتعدين عن كل جَورٍ، حتىٰ إن إسلام الواحد منهم كان يكفي لدخوله في حظيرة غالبيه، فكان الادغام يتمُّ بما مُنحه العرب من حرية مصاهرة شتىٰ الأسر.

ولم تؤدِّ الشدة التي أبيد بها العصاةُ والأنبياء الكاذبون إلىٰ فتور في حميةِ المسلمين الحربية، فرأىٰ أبو بكرٍ أن يُنفذ خِططَ محمدٍ الذي كان قد سار إلىٰ الشام فرجعَ عند ما بلغه خبرُ الفِتن التي بدت في الداخل وكانت حملة أسامة للاستطلاع فأضحىٰ الأمر من الجد في هذه المرة، ويزود الخليفة عياض بن غنم وخالد بن الوليد بأوامر تُنعش روحَ شعبٍ من الرعاة فيوجههما إلىٰ غرب العراق فيلزم عياضًا بدخوله من المضيح بعد الاستيلاء علىٰ دومة الجندل، ويلزم خالدًا

بأن يقتحم الأُبلَّة علىٰ الخليج الفارسي فيجتمع بزميله عياضٍ تحت أسوار الحيرة.

وكان يعتقد أن قبائل العرب في العراق تسرع إلىٰ خلع نِير الفرس، فلم تصنع شيئًا من ذلك، فما وجد المسلمون في تلك البقاع غير أعداء، فنال خالد ثلاثة انتصاراتٍ تحت أسوار أمْغِيشَيا فدكها من أساسها، فنجم عن أمره بضرب رقاب من يقاومونه إلقاء اسمه هؤلاء إلىٰ مدىٰ بعيد، فاستسلمت الحيرةُ والأنبار وعينُ التمر، فظلَّ بلاطُ طيسفون (المدائن) مترددًا، فلم يؤدِّ اتساعُ الشِّقاق بعد قتل شيرويه لأبيه كسرىٰ إلىٰ غير انهيار دولة الأكاسرة.

وينحرف خالد بن الوليد قليلًا عن الطريق التي رُسمت له فيَخف إلىٰ إغاثة عِياض بن غنم الذي وُقف زحفه أمام دومة الجندل فيستولي عليها، ثم يعود إلىٰ الحيرة ويستأنف الهجوم فيهزم، بالقرب من الفراض الواقعة علىٰ شاطئ الفرات الشرقي، جيش الروم الذي انضم إلىٰ الفرس والعرب من بني تغلب، ثم استعد خالدٌ، بعد أن أدىٰ فريضة الحج علىٰ غير علمٍ من جيشه، لمجاوزة حدود الفرس فأتاه أمر أبي بكر بأن يتوجه إلىٰ الشام.

فإلىٰ الشام وجه الخليفة معظم جهوده فبلغت فِرقٌ كثيرةٌ الأردن (صُور وبتولمايس ومجرىٰ الأردن الأعلىٰ) وأوغلت في فلسطين، ومن الحظ الحسن أن بُدئ الاعتراك بانتصار العرب، ولكن الدائرة دارت علىٰ العرب أمام دمشق، فأسرع أبو عبيدة بن الجراح، علىٰ رأس نجدةٍ، ليتسلم قيادة الكتائب هو ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة.

ولا تشتمل سورية التي يسميها العرب ببر الشام (بلاد الشمال)، علىٰ الأراضي التي تمتد من جنوب طورس إلىٰ غرب الفرات فمنابع الأردن وحدها، بل تحتوي، أيضًا، جميع الأراضي الواقعة بين صحاري بلاد العرب وبرزخ السويس من الجنوب والبحر المتوسط من الغرب وجبال طورس من الشمال والفرات من الشرق مارة من منبع هذا النهر إلىٰ المكان الذي يتوجهُ منه إلىٰ الخليج الفارسيِّ بعد أن يكون قد جرىٰ من الشمال إلىٰ الجنوب في سهل سنجار.

أخذ أبو عبيدة يُهدد بُصرىٰ ودمشق وطبرية في آن واحدٍ فابتعد عنه النصر

بتوزيعه فَيالِقة، وامتثل خالدٌ أمرَ الخليفة، فغادر الحيرة علىٰ رأس تسعة آلاف مقاتل، فاستولىٰ علىٰ تدمر وحوران بلا قتال تقريبًا، ففتحت له الطريق إلىٰ شواطئ الأردن والأُرُنْط (نهر العاصي)، ثم وقف خالدٌ حيث هو بعد تلك الخطوة منتظرًا كتائب جديدة، ثم ظهر تحت أسوار بُسرىٰ.

وتدور المعركة فلا تنفع شجاعة المحصورين أمام حمية العرب، فتسقط بُصرىٰ في يد خالد بن الوليد علىٰ أثر خيانة واليها رُومانوس الذي اعتنق الإسلام، وتبيح حقوق الحرب النهب للغالب، ولم يقع شيء من هذا بعد أن طلب الأهالي الأمان، فاكتفىٰ الغالبُ بالجزية تاركًا لهم حريتهم الدينية.

ولم ينشب العرب أن قصدوا دمشق بعد سقوط بُصرىٰ، فأمدها هِرقل بخمسة آلاف مقاتل كانوا في أنطاكية، ولم يعرف القيصر مَدىٰ الخطر الذي يحيق بها، وكيف لا يرىٰ تفوقه علىٰ تلك القبائل البائسة المحبة للغنائم بما لدىٰ جنوده من حسن القوام وما لدىٰ ضباطه من تجاريب وما عنده من مضاء في السلاح وما عنده من دور صناعات غنية وما في مراكزه من قُوىٰ وما في مواصلاته وتموينه من سهولة؟ كان الروم يعرفون البلاد، وكان البحر قبضتهم، وكانوا يملكون ولاياتٍ عامرة خصيبة، وكان العرب يظهرون للروم من الجهلاء والفقراء والعدماء الذين لا يعرفون غير الحرب علىٰ الطريقة البدوية فيولون الأدبار، وكان جيش العرب يظهر للروم مؤلفًا من أخلاطٍ، فيبدو فرسانُ العرب بين مشاتهم، ويبدو بعض جنود العرب رَثَّ الثياب ويبدو بعضهم عاريًا ويبدو كل واحدٍ منهم مسلحًا، علىٰ حسب هواه، بقوسٍ وسهمٍ ودبوسٍ عند امتشاق حسامه أو هز رمحه، وكان الروم يرون أن حَملة أناسٍ هذه هي حالهم لن تكون غير غارة عارضة.

ولم يلبث هرقل أن غير رأيه حينما علم من كتاب أخذه من دمشق أن العدوَّ حاصرها فانتقل من همٍّ إلىٰ همٍّ فانطلق بجيشٍ من طرازِ تلك الجيوش التي حارب بها الفرس الغالبين فحُرِم، عن عدم دراية، المصادر التي كانت تمده بها سورية في حرب دفاعية.

وهرقل إذا كان يود أن يقابل العرب بمثل ما كان يقابل به الفرس فلابد من أن يكون علىٰ رأس كتائبه، وهذا ما لم يصنعه بعد أن برد الكِبرُ جسارته فقام

القائد وردان أوباهان مقامه، فلم ير هذا القائد أن يفاوض أهل دمشق لما كان من إفراطه في الثقة بجيشه، وبلغ هذا القائد من الاطمئنان ما اعتقد به أن العرب سيرفعون الحصار عن دمشق، والعرب فعلوا ما فعلوه ليقاتلوا الروم بالحقيقة، ويقضي خالد علىٰ آخر أمل للمحصورين بدحره لهم حينما حاولوا الخروج، ويعود مصير دمشق منوطًا بنتيجة المعركة التي تقع.

ولا شك في نتيجة المعركة إذا ما نُظر إلىٰ الأمر من ناحية العدد، فلم ينازل خالدٌ جيش هرقل المؤلف من ستين ألف جنديٍ بأكثر من عشرين ألف مقاتلٍ، ولم يسطع خالد أن يحمل العرب علىٰ الطاعة التامة، فلما كان كل واحدٍ من جنوده مشتهرًا بضرب من الشجاعة وجد إمكان سيره كما يريد وإمكان قتاله منفردًا كما يود، بيد أن حماسة جنود العرب كانت شاملة، ومما زاد جنود العرب حماسة ما أبدته من الحمية كتيبة المجندات التي أمرت بأن تُردي بسهامها كلَّ مسلمٍ يفرُّ، ويقتدي جنود العرب بقادتهم الذين وصف أرْيُوسْت أعمالهم العالية فلم يَدُر في قلوبهم سوىٰ الاشتهار بفعالهم، ويرفع جنود العرب أصواتهم بـ «الله أكبر»، ويقاتلون بصولةٍ لا تقاوم، وتزل أقدام الروم، ويُقتل منهم خمسون ألفًا في معركة أجنادين، علىٰ حسب رواية العرب، وتنجو بقيتهم في هزيمتها تحت أسوار دمشق أو حمص، ولا يقف بعضهم مُدبرًا إلا في أنطاكية سنة ٦٣٣.

أعاد الجيش العربي تنظيمه بسرعةٍ بعد صولة النصر الأولىٰ، وتوجه إلىٰ دمشق التي أراد خالدٌ أن يستولي عليها بأي ثمن، وعلم سكانها في هذه المرة أن دورهم قد حان، وما بذلوه من الجهود بقيادة صهر القيصر توماس للنجاة من عدوهم المرهوب ذهب أدراج الرياح، فلما غُلبوا في كل مرةٍ أرادوا الخروج فيها اضطروا إلىٰ التسليم قبل أن يتمكن هرقل من إمدادهم، فأخذوا يفاوضون أبا عبيدة بن الجراح الذي سمعوا الشيء الكثير عن حلمه ورفقه بالنصارىٰ والذي يفاخر بأخلاقه العالية أزهىٰ القرون وأرقىٰ أمم الدنيا، فأمنهم أبو عبيدة علىٰ حياتهم وأذن لمن يود الخروج منهم في أخذ بعض أمواله متعهدًا بألَّا يُقتفىٰ أثره قبل انقضاء ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، ففتحت دمشقُ أبوابها وَفق هذه الشروط، بيد أن أبا عبيدة التقىٰ عند وصوله إلىٰ الميدان العام بجنود خالد الذين فتحوا عَنوةً

أحدَ الأبواب المقابلة مُمعنين في قتل كل مَن يرونه في طريقهم، فكان من نتائج حزم أبي عبيدة أن سادت الرحمة والعدالة، فاكتفىٰ زميلُه خالدٌ بتعقب الأهالي الفارِّين بعد أن مضت المدة المتفَق عليها، فبلغهم بسرعة البرق، وشتت شملهم، واستلب ما لديهم، ثم رجع إلىٰ دمشق غانمًا.

هنالك علم خالدُ بن الوليد خبرَ وفاةِ أبي بكرٍ ونصب خصمه عمر بن الخطاب خليفة وعَزله من إمارة الجيش، فأذعن، من غير تذمرٍ، لهذا السقوط الذي لم يرَ أنه يستحقه، فداوم علىٰ الجهاد بقيادة أبي عبيدة الذي كان يُقدِّر له بَسالته ويعترفُ بِخدمه فلم ينفك عن استشارته في كل أمرٍ وعن عَده مساويًا له.

فإذا أضفتَ إنكار الذات هذا وحبَّ النظام هذا إلىٰ ذلك النبل العظيم قَضيتَ العَجب من أمر العرب الذين نُعتوا بالبرابرة علىٰ غير حقٍ، وما كان عمرُ بنُ الخطاب لَيعفو لخالدٍ قَسوته التي كانت تلازم انتصاراته في الغالب، وما كان عمرُ لُيخفي كرهه لهذا القائد مع عَذل أصحابه، وعمرُ هو الذي سَهر الليل لكيلا يَحدث ما يُكدر صفو أغنياء من الغرباء جاؤوا إلىٰ المدينة، وعمرُ هو الذي استمع لشكوىٰ يهودي علىٰ عاملٍ له في إحدىٰ الولايات فكتب علىٰ آجُرةٍ يقول له: «إما أن تعدل وإما أن تعتزل».

ولم يُجب خالد عن الطعنة التي أصابته إلا بجديد الأعمال، ومن ذلك أن جازفت كتيبة مؤلفة من خمسمائة فارس بنفسها في دخول سوق آبل طمعًا في الغنيمة فَضمنَ عودتها، ومن ذلك أن أعان علىٰ فتح حِمصَ علىٰ حين كان أبو عبيدة يُخضع باعتداله أريطوز الواقعة علىٰ شاطئ الأُرُنْط (نهر العاصي)، كما كان يخضعُ حَماةَ أو إفامية وأنطرطوس إلخ، ومن ذلك أن فتحَ قِنِّسْرِين عَنوةً بعد أن هزم الروم والغساسنة، ويفتح العرب بَعلبكّ أو هليوبوليس، ويسيرون مع مجرىٰ الأرنط إلىٰ أنطاكية كما أمر عمرُ، وفيما هم كذلك إذ يُنبأون باستعداد هرقل وجمعه جيشين لطردهم من البلدان الجميلة التي استولوا عليها، علىٰ أن يزحف أحدهما من أنطاكية ويقفَ سيرَهم، وعلىٰ أن يزحف الآخرُ من فلسطين فيأخذهم من الخلف (٦٣٥).

أَجلْ، إن تلك الخطة مُحكمة، ولكنها حَبطت بسبب اختلاف قادة الروم

وحَذَرِ العرب الذين أبصروا ما يهددهم من الخطر فارتدوا إلىٰ الأردن ليحولوا دون مرور جيش الروم من فلسطين، فتقهقر قائد جيش الروم قسطنطين بن هرقل إلىٰ قيسارية مكتفيًا بتوزيع كتائبه بين مدن الساحل الممتد من غزة إلىٰ طرابلس الشام، فرابط خالدٌ وأبو عبيدة علىٰ شواطئ نهر اليرموك الذي ينصب في نهر الأردن تحت بُحيرة طبرية، فعزم الروم علىٰ تقرير مصير سورية هنالك، وكان جيش هرقل مؤلفًا من مائة وخمسين ألف مقاتلٍ، كما جاء في أكثر الروايات اعتدالًا، وكان يسير علىٰ رأس هذا الجيش عربُ غَسان الذين ارتد مَلِكُهم جَبلةُ بنُ الأيهمِ عن الإسلام انتقامًا من الخليفة، وكان هرقلُ يعتمد كثيرًا علىٰ هؤلاء العرب فيقول: «لا يَقطعُ الألماسَ إلا الألماسُ»، ويُفوِّضُ أبو عبيدة أمورَ القيادة إلىٰ خالدٍ فيوحي خالدٌ إلىٰ المسلمين بما لا حَد له من الثقة، فيثبت أنه ابن بَجدتها مرة أخرىٰ، وتدور رَحىٰ الحرب عِدة أيام، فيهزم العربُ ثلاثَ مراتٍ، فيردهم النساء اللائي في المؤخرة إلىٰ ميدان القتال في كل مرة، ولم يُعَتم ميزان النصر أن مال إلىٰ العرب، فَيُسلمُ بنو غسان بعد خضوعٍ، وأصرَّ جبلة علىٰ معارضته فيأسف، بعد حين، علىٰ أنه انفصل عن إخوانه، ويموت جبلة في القسطنطينية فيهجرها حَفدته في القرن الخامس عشر إلىٰ بلاد الجركس فِرارًا من سلطان الترك العثمانيين.

وتفتحُ طريقُ أنطاكية وحلب للعرب، ويرابط عمرُو بن العاص أمام إيلياء (القدس) حيث يدافع صفرونيوسُ بحزمٍ، وَيهمُّ فتحُ القدس المسلمين كثيرًا لِما كان من احترام محمدٍ لها كاحترامه لمكة والمدينة تقريبًا، ويحاصر أبو عبيدة القدسَ بجميع جيشه حتىٰ يبلغَ أهلها الجُهد، ويرضىٰ صفرونيوسُ بتسليمها علىٰ أن يتسلمها الخليفة بنفسه، ويجيب عمرُ البطرك إلىٰ طلبه مع معارضة عثمان بن عفان، ويبدي عمرُ في تلك الرحلة من البساطة والكرم الشيء الكثير، وينال سكانُ إيلياء حريةَ الضمير كاملة، وُتحترم كنائسهم وتُفرضُ عليهم جِزيةٌ فقط، ويبحث الخليفةُ عن مكان هيكل سليمان ويأمر بإقامة مسجدٍ رائع عليه فَيسمىٰ مسجد عمرَ(١)، ويعود عمرُ إلىٰ المدينة مُعدًا عمرو بن العاص لفتح مصر (٦٣٧)،

(١) قصد المؤلف بذلك مسجد الصخرة المنقطع النظير، فهذا المسجد قد بناه الخليفة الأموي =

وَتُفتح الرملة فيعيد عمرُ إلىٰ خالد بن الوليدِ لقبَ أمير، ويجوب الجيشُ براريَ دمشق لفتح حلبَ وأنطاكية، وُيترك في فلسطين ابنا أبي سفيان يزيدُ ومعاوية مع أمرهما بأن يُشددا الخناق علىٰ الأمير قسطنطين في قيسارية ويستوليا علىٰ مُدنِ الساحل بسرعة، وَيدبُّ اليأسُ في الروم بعد هزيمتهم في أجنادين واليرموك فلا يقاومون في مكانٍ مقاومةً جِديةً، ويستردُّ أبو عبيدةَ وخالدٌ جميع الأماكن التي اضطرا إلىٰ إخلائها في أثناء ارتدادهما إلىٰ طبرية فيبلغان حلبَ، فيقفهما جنديٌّ باسلٌ اسمهُ يُوقِنًا مدة أربعة أشهر متحصنًا في أُطُمٍ بالقرب منها فيفتحُ مملوكٌ عربيٌ طريقًا لهما بين الصخور غير السالكة فيدخلانها منها، فيملك العربُ بفتح حلبَ أراضي واسعةً، فَيبصرون سهول العراق التي يفصِلها عنها نهر الفرات فقط، فيحتاج العرب إلىٰ أنطاكية لتكملَ بها حدود سورية، فيقوم هرقلُ بآخر جُهدٍ قبل أن يغادر هذه المدينة فَيجدُ أبو عبيدة تحت أسوارها جيشًا مستعدًا للقتال بعد أن نُظم علىٰ عَجل، فتؤدي هزيمة الروم واقتحامُ حِصنِ أورار، الذي كان يدافع عنه يُوقِنًا فاعتنق دينَ المسلمين وسياستهم، إلىٰ استسلام أنطاكية، فيتعهد أهل أنطاكية بدفع ثلاثمائة ألف دينار إلىٰ العرب في مقابل حَقن دمائهم وعدم انتهاب أموالهم (٦٣٨).

تدين أنطاكية لأبي عبيدة، فيودُّ أن يستولي بسرعةٍ علىٰ المدنِ التي ظل يرابط فيها حرسٌ للروم فيرسل خالدًا إلىٰ جهة شواطئِ الفرات ليفتحَ هيروبوليس ويفوض إلىٰ قوادٍ آخرين فتحَ مدن فنيقية، ويسهلُ النصرُ، ويحالف النصرُ سلاحَ الإسلام في كل جهةٍ، فترضىٰ هيروبوليس بالجزية التي فرضها خالد، ويقتحم المدافعُ السابقُ عن أُطم حلب يُوقنا صورَ وطرابلس، وتفتح قيسارية، التي غادرها قسطنطين، أبوابها ليزيد ومعاوية بعد أن هَلك كثيرُ من جنوده في كثير من

= عبد الملك بن مروان ورصد لإنشائه خراج مصر لسبع سنين، وأما المسجد الذي أمر عمر بن الخطاب ببنائه فقد أقيم في موضع المسجد الأقصىٰ الحالي علىٰ أصح الروايات، أي في الناحية الجنوبية من الحرم القدسي، ونرىٰ أن عمر بن الخطاب لم يأمر بأن يكون بناؤه رائعًا لميله إلىٰ البساطة ولما كان من إقامة عبد الملك بن مروان المسجد الأقصىٰ في مكان مسجده ذلك بعد زمن قصير، وتجد بيانًا رائعًا عن مسجد الصخرة المعروف عند الفرنج بـ «مسجد عمر» في كتاب «حضارة العرب» للعلامة غوستاف لوبون. (المترجم).

المناوشات، وتفاوض عَسقلان وغزة ونابلس وطبرية العدو عند ظهوره أمام أسوارها، وتصنع يافا وعكا وبيروت وصيدا مثل ذلك مع سهولة إمداد القسطنطينية لها بسبب موقعها البحري، ثم يتمُّ استيلاء العرب علىٰ سورية بفتح جَبلةَ واللاذقية.

وروىٰ بعض المؤرخين أن هرقل حاول في سنة ٦٣٨ استرداد القُطر السوري الغني، فأنزل أسطولٌ له جيشًا أتىٰ به من مصر إلىٰ الشواطئ القريبة من أنطاكية، علىٰ حين ظهر روم العراق، الذين اتحدوا هم وقبائل العرب المنتشرة بين دِجلة والفرات، أمام حِمص، فجمع أبو عبيدة فِرَقَه علىٰ عَجل، فثارت أنطاكية، وقنسرين وحلبُ والحاضرتان الواقعتان بجوارهما، مع بقاء قيسارية قبضة الروم، فبلغ عمرَ بن الخطاب خبرُ ما يُهددُ فتوحه، فأمر بأن يتوجه جيشان إلىٰ العراق ليحول العدوَّ، فاستعدَّ عمرُ بن الخطاب للالتحاق بأبي عبيدة، بيدَ أن عرب العراق وقبائل الحواضر أخذوا يفاوضون خالدًا سِرًا فأيقن الروم بعجزهم عن القتال وحدهم فَولوا الأدبار، فاسترد المسلمون، بغير عناء، قِنسرين وحلبَ وأنطاكية، ثم كَمل خضوع قبائل الشام بإسلام بني تنوخ وبني جرهم وبني كلب المتنقلين حتىٰ جوار تَدمُر.

وَبهرَ جمالُ سورية المسلمين، فاستقر بها معظم الفاتحين، ثم وفدَ إليها الطاعونُ في سنة ٦٣٩، فهلك به أكثر من خمسة وعشرين ألف شخصٍ، وكان أبو عبيدة بن الجراح وشُرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان ممن ماتوا به، وينجو خالدٌ من الطاعون، ويخسر خالد ما استرده من حُظوةٍ لدىٰ الخليفة، فقد اتهم بأنه احتفظ لنفسه بقسمٍ من بيت المال، فحَزَّه هذا القذف فقابل حَملات خصومه بصبر جميلٍ، فلما توفي سنة ٦٤٢ رُئي أنه لم يترك جواده وأسلحته وأَمَته.

وقلد عمرُ بن الخطاب عِياض بن غَنم ولاية حمص وسورية الشمالية، فأمره بفتح ما بين النهرين فلم تقاومه هذه الولاية، وخربت مُدنُ هذه الولاية في الحروب الرومية الفارسية الطويلة فأدت حملةٌ واحدةٌ منه إلىٰ استسلام الرقة وَسروجَ وحَران والرها (أورْفة) وقسطنطينة ودار أرسعني (رأس العين) ونصيبين

والموصل وآمد في سنة ٦٤٠، وسَمَّىٰ العربُ ما بين النهرين بالجزيرة بعد فتحهم، فقسموها أربعة أقسام: فالقسم الأول هو ديار الجزيرة، وقاعدتها الموصل الواقعة علىٰ نهر دجلة تجاه أطلال نينوي القديمة، والقسم الثاني هو ديارُ مضرَ وقاعدته الرقةُ، والقسمُ الرابع هو ديار ربيعةَ وقاعدته نصيبينُ، وتشتمل ديارُ مُضر وديارُ ربيعة علىٰ أوشروين القديمة وعلىٰ البلاد الواقعة بين الفرات وأعلىٰ دجلة، ويُسلم العرب من سكان هذه البقاع، ويحافظ بنو تغلب علىٰ نصرانيتهم فيلزمون بالجزية، ويُسلم بنو إياد لما كان من عدم إيواء هرقل الضعيف إياهم في كبدوكية، وهكذا كانت جميعُ قبائل العرب، وفي أواخر سنة ٦٤٠، مجتمعة في أمةٍ واحدةٍ خاضعة لسيدٍ واحدٍ.

فتح العربُ الجزيرة فهجموا علىٰ أرمينية التي لاح أنها لا تقف أمام سلاحهم، فوجدوا في هذا البلد ذي الجبال العالية شعبًا محاربًا فخورًا محافظا علىٰ قسطٍ من استقلاله تجاه جيرانه الأقوياء، وكان الأرمن قد تَعودوا الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم من غير أن يركنوا إلىٰ جيوش الروم، خلافًا لأهل سورية، فقاوموا غزو العرب، بشجاعة، وما كان بعيدًا أن يدحروا العربَ لو كانوا أكثر اتحادًا ولو كان كبراؤهم يُضحون بمنافساتهم الشخصية في ساعة الخطر، ولكنهم كانوا عاطلين من مثل هذه الوطنية، فاستفاد العرب من منازعاتهم الداخلية فاقتحموا كل مقاومة فتقدموا حتىٰ القفقاس من خلال إيبرية وجورجية، فلما أصبح العربُ والتركُ الخَزَرُ وجهًا إلىٰ وجه اضطروا إلىٰ الوقوف، فظلت أرمينية من البلاد التي تُعطي العرب الجزية (٦٤٦)، وكان من الفوائد التي نالها العرب بذلك أن أوغلوا في آسية الصغرىٰ من كبدوكية وفريجية فدل ذلك علىٰ فتح طريق القسطنطينية، ولم يستطع العربُ مجاوزة هذه الطريق مع ما بذلوه من جهود، ولم يظهر العرب سوىٰ مرة أمام غَلاسية فاستولوا علىٰ عمورية من غير أن يحافظوا عليها (٦٦٧)، ولم يجدد العربُ غاراتهم من هذه الناحية إلا بعد نصف قرن، ما دامت طريق البحر أقصر منها للوصول إلىٰ عاصمة الروم، وأنشأ معاوية بن أبي سفيان أسطولًا هائلًا بعد أن عُين واليًا علىٰ الشام، فلما حَلت سنة ٦٤٧ فرض علىٰ جزيرة قبرص جزية تعدل نصف دخلها، ولما حَلت سنة ٦٤٩ استولىٰ علىٰ الجزائر: إقريطش وكوسَ ورودس، ولمَّا حلت سنة ٦٥٥ رأىٰ أن يصارع

الأسطول الرومي فدمر قسمًا من سُفن القيصر قسطنطين الثاني في خليج إيصالُق الذي هو من شواطئ ليكية الواقعة علىٰ سفح جبل فينكس، ثم حفزه هذا النجاح إلىٰ إنشاء أسطول ضخم وإرساله إلىٰ القسطنطينية، فلم ينفذ عزمه هذا إلا بعد أن صار خليفة.

حلَّ ربيعُ سنة ٦٧٢، فأنزل جيشٌ عربيٌ إلىٰ شواطئ بروبونتيد (بحر مرمرة)، فجعل هذا الجيش معسكره غرب القسطنطينية في قاعدة المثلث علىٰ حين كانت ضلعا المثلث الأخريان والذروة المشرفة علىٰ البسفور قبضة الأسطول، ثم حارب المسلمون بحماسة كبيرة، وكان مما زادهم حَمية اشتراك ثلاثةٍ من أصحاب النبي في الفتح مع شيبتهم، ومن هؤلاء الأصحاب أبو أيوب الأنصاري الذي كان مُضيف النبي وقت الهجرة، فأبو أيوب قد قاتل حتىٰ قُتل فدفنه العربُ حيث قُتل، ثم أقيم علىٰ قبره، بعد زمن، مسجدٌ، وفي هذا المسجد يتقلد السلطانُ العثماني السيفَ عند جلوسه علىٰ العرش، ودام الحصارُ ست سنوات، وكان الأسطول يلجأ في شهر نوفمبر من كلِّ سنةٍ إلىٰ مرفأ سيزيقية الذي استولىٰ عليه، فلا يخرج منه إلا في أوائل الربيع، فيكون للروم بذلك من الوقت ما يعوضون فيه مما خَسروه، فيجيدون الدفاع، وكان يملك الروم في ذلك الحين قيصر ماهرٌ جسور، علىٰ خلاف العادة، اسمه قسطنطين الرابعُ الملقب ببوغانات، فانتفع هذا القيصر بالاكتشاف الجديد المعروف بالنار اليونانية التي تَحرقُ سفن الأعداء بما لا يُطفأ فأغضب ذلك العربَ، والعربُ إذ نهكهم جهادٌ لا طائل تحته وتعاقبت عليهم الشرور عَدلوا عن ذلك الأمر الصعب (٦٧٩)، فلم تسطع الكتائب العربية أن تعود من سيزيقية إلىٰ سورية إلا بمشقةٍ لما كان من تعقب الجيش، الذي أعدهُ قسطنطين، إياها وزال الأسطولُ، الذي حَطمتهُ الزوبعة عند دخوله خليج أنطاكية علىٰ شواطئ بنفيلية.

ويزعم بعض المؤرخين، كيتوفان وسدرينوس، أن معاوية التمس الصلح بعد تلك الكارثة، وأنه عاهد بلاط بيزنطة علىٰ دفع عشرة آلاف قطعة ذهبية وإعادة مئة مملوكٍ وتقديم خمسين جوادًا أصيلًا، ونحن نرىٰ أن الغرور الرومي حَولَ إلىٰ غرامةٍ حربيةٍ هذه الهدايا التي بعثَ بها الخليفة إلىٰ حليفه الجديد.

وَغدت القسطنطينية وآسية الصغرىٰ في حِرزٍ من غارةٍ العرب، فصرت لا ترىٰ للعرب أسطولًا يُزعج أملاك الروم في البحر المتوسط، فأراد قياصرة بيزنطة أن يغتنموا فرصة الفتن الداخلية التي كانت تُكدرُ صفو الخلافة فيستردوا قِسمًا من سورية، فبدوا علىٰ ثغور المسلمين حوالي سنة ٦٨٦، فَوجدَ عبد الملك بنُ مروان، الذي كان رابع خليفة لمعاوية فظهر له ثلاثة منافسين، أن يشتري ارتداد العدو، لا أن يلجأ إلىٰ جهادٍ لا تُعرف نتيجته. فقبل جوستينيان الثاني ما عرضه عليه بدلًا من أن يهتبل فرصةً لن يسنح مثلها، فلم يلبث هذا القيصر أن ندم علىٰ ما فرطَ فيه، فقد نسيَ عبدُ الملك عهوده بعد أن وَطد سلطانه فظهر أشد عُنجهية مما في أي زمن.

أضاع الروم سورية، وكان يمكنهم أن يحتفظوا بقسم منها لو كانت سياستهم أقل عمىٰ، فقد لجأ بعض النصارىٰ المتعصبين، الذين أسخطهم ما رَأوهُ من انتصار الدين الجديد، إلىٰ جبال لُبنان حيث يُنقذون استقلالهم منتحلين اسم المردائيين وحيث يدعون إلىٰ النصرانية من ارتد من أهل سورية، ولم يتوان هؤلاء عن مناوشة الغرب باستمرار والتقدم إلىٰ دمشق، وما كان هؤلاء من القوة بحيث يحاربون العرب جهرًا فيحملون الخلفاء علىٰ دفع إتاوةٍ خلافًا لما زعمه بعض المؤرخين، بل كانوا يستعينون ببعض الأماكن فيؤذون الخلفاء، ومما أثار غضب قياصرة القسطنطينية عليهم رفضهم المذهب الأرثوذكسي واقترابهم من المذهب اللاتيني، فَحفز هذا الأمر أولئك القياصرة إلىٰ هلاكهم بدلًا من اتخاذهم أعوانًا نافعين، فبلغ جوستينيان ذلك بالحيلة والغدر وذلك بأن تظاهر أحد قُواده بأنه يفاوض زعيمهم فقتل هذا الزعيم مستخفًا بأصول القرىٰ، فأرهبت هذه الجناية المردائيين فأُخذوا علىٰ غرة فاختطف الروم منهم اثني عشر ألفًا فساقوهم إلىٰ آسية الصغرىٰ، ففتح البلدُ الذين كانوا متغلبين عليه أبوابه للمسلمين معترفًا بسلطانهم (٦٩٠).

الفصل الثالث

فتوح جديدة

لم يكن الشقاق الديني ليقضم الروم في سورية وحدها حيث كانوا يخلقون لهم أعداء ممن ليس من صداقتهم بُدّ، بل كان لكلٍّ ولاية من ولاياتهم مذهبها وبدعتها، فكان يبدو للناظر وجودُ فرقتين لا يمكن التوفيق بينهما فيها، ولم تكن تانك الفرقتان، كما في القسطنطينية، حزبين يُخفيان تحت مناقشاتهما الكلامية خِططًا نسجها الحرصُ والطمع في الغالب، بل كانتا، في البُلدان التي خضعت للرومان بالسيف، ذاتي صبغةٍ أخرىٰ يتحول بها اختلافهما إلىٰ قضية قومية، وكانت مصر في سنة ٦٣٢ أظهر ما يبدو في ذلك، فكنت ترىٰ في مصر الروم الفاتحين المتمذهبين بالأرثوذكسية تقريبًا، وكنت ترىٰ فيها حَفدة سادةِ أرض البطالمة القدماء الذين اعتنقوا بِدعة الاطاخيين أو بدعة القائلين بطبيعةٍ واحدةٍ في المسيح، وهؤلاء كانوا قد لبوا دعوة أسقف الرُّها (أورفة) يعقوب البرادعي المتوفىٰ سنة ٥٧٨ فنظموا شؤونهم وتسلحوا لمقاومة خصومهم، فلم يفطن قياصرة الروم إلىٰ الهدف السياسي الذي تسعىٰ إليه جمعيتهم، فكانوا بعيدي النظر بانتخابهم رئيسًا في شخص المقوقس، الرجل الماهر الداهية الذي كان عظيم مصر حين غَزو أنوشروان إياها فكان يأخذ ضريبتها كلها لنفسه بدلًا من إرسالها إلىٰ القسطنطينية أو طيسفون (المدائن)، فجمع بذلك مالًا كبيرًا فبدا سخيًا نحو أبناء وطنه، فزاده كرمهُ نفوذًا، فما كان أحد ليماري في تمثيله لجميع الأقباط، فأرسل محمدٌ إليه رسولًا فقبل محمدٌ هديته، فوجد العربُ فيه حليفًا نافعًا بعد حين.

وكان عمر بن الخطاب قد فصل عمرو بن العاص من جيش الشام بعد فتح القدس، مُعدًا إياه لفتح مصر، وكان عمرو بن العاص شاعرًا مقاتلًا اشتهر في حروب الإسلام الأولىٰ، واشترك في فتح الشام اشتراكًا فعليًا، وكان من أقصىٰ أمانيه أن يفوضَ إليه أمر القيام بعملٍ مجيدٍ مملوء بالمهالك والأهوال، ويزحف عمرو بن العاص من غزة علىٰ رأس أربعة آلاف رجلٍ ويتقدم إلىٰ بيلوزة (الفَرَما) وَفق أمرٍ غامضٍ تلقاهُ من الخليفة.

ولم يكن الروم من الحذر بحيث يعدون مصر للدفاع، وكان الروم من الغرور بحيث يأنفون من إعطاء الجزية التي وَعد بدفعها بطركُ الإسكندرية سيروس باسمهم، ولم يأت الرومُ بعملٍ يُسوغ ما يدلّ عليه كلامهم من عجرفةٍ وكبرياء، بل اكتفىٰ القيصر بتعيين والٍ جديد علىٰ مصر، فلما لاح عمرُو بنُ العاص كان الروم عاجزين عن خوض المعركة، فاضطروا عند أول مناوشةٍ وقعت بالقرب من مصر، أي في مدخل برزخ السويس، إلىٰ الارتداد إلىٰ الحصون التي لم تكن مجهزةً تجهيزًا كافيًا.

ولم يلق عمرو بن العاص مقاومةً، فجاوز برزخ السويس، فظهر أمام مدينة فامية (بيلوزة القديمة) الواقعة علىٰ مدخل الدلتا، وتقاوم هذه المدينة شهرًا، ثم تستسلم مع عدم خبرة العرب في مهاجمة الحصون، فتفتح للعرب بذلك أبواب أجمل أقسام مصر.

حقًا أن طريقين فُتحتا للعرب باستيلائهم علىٰ فامية سنة ٦٣٩، فأصبح يمكن العرب أن يسيروا مع الساحل فيدوخوا جميع الحصون حتىٰ مدينة الإسكندرية فيوغلوا في داخل البلاد بعد أن تكون صلاتها بالبحر قد انقطعت، فمع أن هذه هي الطريقة المعقولة سلك العرب طريقة أخرىٰ تكون كلها وبالًا لو ساروا بين قومٍ من الأعداء، فالعرب زَحفوا من الصحارىٰ الممتدة من برزخ السويس إلىٰ النيل وتقدموا إلىٰ مصر الوسطىٰ فبدؤوا بحصارها، وكان لمِنفَ صنفان من الحماة: فالصنف الأول كان مؤلفًا من أصحاب القلعة الروم، والصنف الثاني كان مؤلفًا من الأقباط المقيمين بالمدينة والخاضعين لأوامر المقوقس، وما كان لعمرو بن العاص أن ينجح في جهوده ما اتفق الفريقان، فقد

حَبط كل هجوم قام به في سبعة أشهر، غير أن المقوقس حَمل الروم بِخدعةٍ علىٰ ترك القلعة مفاوضًا عمرو بن العاص، فأسفرت هذه المفاوضة عن اعتراف الأقباط بسلطان المسلمين في طول مصر وعرضها، علىٰ أن يكون الأقباط أحرارًا في ممارسة أمور دينهم، وعلىٰ أن يعطي كل منهم دينارين جِزية فبلغ مجموع ما دُفع في السنة الأولىٰ اثنىٰ عشرَ مليونَ دينارٍ، فدلَّ ما تم من إحصاء الأقباط علىٰ أن عددهم كان ستة ملايين، خلا النساء والشيوخ والأولاد الذين لم يبلغوا السادسة عشرة من سنيهم، فلمَّا أنجز عمرو بن العاص كل شيء دخل تلك المدينة التي اتخذها مقرًا لحكومته سنة ٦٤٠.

وكان القائد المحنك عمرو بن العاص يعرفُ أن النشاط هو سر النجاح في حروب الاستيلاء، فبادر الروم العدوان، فسار من منف إلىٰ الشمال فهزم الرومَ في كوم شريك بعد أن جمعوا شملهم فدحرهم إلىٰ الإسكندرية فحاصرها، فلم يترك أهلوها وسيلة من وسائل الدفاع إلا أتوها، فدامت مقاومتهم أربعة عشر شهرًا (٦٤٠-٦٤١)، ثم دارت الحمية في رؤوس المسلمين فدخلوا الإسكندرية عَنوة في ٢١ ديسمبر سنة ٦٤١، ففر الروم المغلوبون إلىٰ سُفنهم، فتقهقر فريقٌ منهم، مع ذلك، إلىٰ داخل البلاد ليجرب حَظه مرة أخرىٰ، فلم يترك له عمرو بن العاص من الوقت ما يتقوىٰ فيه، فترك الإسكندرية جَادًا في أثره ليسحقه، فلما عاد إليها وجد الروم قد رَجعوا من السفن فاستردوها فقتلوا حاميتها الإسلامية، فهجم عليهم مرة أخرىٰ فأكرههم علىٰ مغادرة عاصمة مصر إلىٰ الأبد، فما كاد عمرو بن العاص يصبح سيدها حتىٰ كتب إلىٰ الخليفة يسأله عن ضرورة انتهابها وتخريبها، فلامه عمر علىٰ تفكيره في ذلك ولو طرفة عين، فأمتعت، في الحال، بنظام إداري حكيم رشيدٍ فجعلت الجزية المفروضة علىٰ الأقباط شاملة لجميع السكان، وفضت علىٰ الأطيان والمزارع، فضلًا عن ذلك، ضريبة نسبيةٌ تابعة لقيمة الأراضي.

وفُوض أمرُ الجباية إلىٰ الأقباط أنفسهم لِحذقهم هذه الأمور الإدارية أكثر من المسلمين بسبب صلاتهم ولسانهم، ولن تنشب الضرائب أن بلغت مبالغ عظيمة فصار الخليفة يُنفق معظمها علىٰ الأعمال النافعة للبلاد، فأمر بإعادة إنشاء

قناة القُلزمِ القديمة التي كانت تصل النيل بالبحر الأحمر، وأراد عمرُ بنُ العاص حفر قناة السويس فعارضه عمرُ بن الخطاب لكيلا تكون للروم طريقٌ نافذةٌ إلىٰ المدينتين المقدستين وأقيمت مِنفُ باسم الفسطاط (مصر القديمة في الوقت الحاضر)، وكان الأهلون يخافون إذا لم تبلغ مياهُ النيل ارتفاعًا معينًا في زمن الفيضان فيضطرب حَبل الأمن في الغالب، فنقص عمرو بنُ العاص أذرعَ مقياس النيل إلىٰ الحدِّ الذي يبلغ النيلُ درجة مُطمئنة فلا يساور النفوس ذُعر باطلٌ بعد، وأنجزت بفضل تلك الحكومة الصالحة مشاريعُ عظيمةٌ فأعادت مصرُ شبابها في زمن قصير.

ورویٰ أبو الفرج، الذي عاش بين سنة ١٢٢٦-١٢٨٦ من الميلاد، وأبو الفداء الذي عاش بين سنة ١٢٧٣ وسنة ١٣٣١ من الميلاد أن حَرق مكتبة السرابيوم تم علىٰ أثر استيلاء العرب علىٰ الإسكندرية، بيد أننا إذا ما فكرنا في أن انتهاب الإسكندرية لم يقع في أثناء صَولة النصر الأولىٰ تَعذر علينا أن نعتقد صدور أمرٍ بدمٍ باردٍ بمثل هذا العمل الهمجي، ولا يسعنا، مع ذلك، أن نمر صامتين علىٰ قصةٍ تمسك بها كثيرُ من مؤرخي الزمن الحاضر فَعدت ثابتة، أول وهلةٍ، من الناحية التاريخية، فما افتُرض أن عمرو بن العاص سأل الخليفة عن مصير الكتب التي وُجدت في الإسكندرية فكان جواب عمر بن الخطاب الآتي: «وأما ما ذكرت من أمر الكتب فإذا كان ما جاء فيها يوافق ما جاء في كتاب الله فلا حاجة لنا به، وإذا خالفه فلا أرب لنا فيها وأحرقها»، مع أن الحق هو أنك لا تجد مؤرخًا معاصرًا لفتح الإسكندرية يروي هذا الخبر الذي، إن صحَّ، لا يشمل غير عدد يسير من الكتب بعد أن أُتلِف بعضُها في زمن قصير سنة ٣٩٠ وأُتلِفَ بعضٌ آخر منها في زمن تيودوز، وما كان في الإسكندرية شيء يستحق التلف غير أسوارها بالحقيقة، وما كان عمرو بن العاص ليهدم هذه الأسوار إلا بعد أن رفع سكانها راية العصيان بالحقيقة، وبيان الأمر: أن عثمان بن عفان لم يكد يُنصبُ خليفةً حتىٰ عَزل عمرو بن العاص من ولاية مصر، فأغضب ذلك أحبَّاءه المصريين، فلما برز الروم أمام الإسكندرية فاستولوا علىٰ القلعة فحاولوا أن يعيدوا سلطانهم إلىٰ قسم كبير من ذلك القطر خَشي الأقباط أن يُحاسبوا علىٰ سلوكهم الغادر السابق إذا ما عاد قياصرة القسطنطينية إلىٰ سيادتهم فطلبوا بصوتٍ

عالٍ إرجاع عمرو بن العاص، فرضي عثمان بذلك فعاد ذلك القائد العظيم إلىٰ حصار تلك المدينة التي دخلها عَنوة مرتين، فراعه ما سُفك تحت أسوارها من دم العرب الغالي بغزارةٍ فحلف لا يدع حجرًا علىٰ حجر منها حتىٰ يهدمه فأبر قسمه فأقام مسجدًا حيث وقف جنوده عطشىٰ الانتقام، مُسميًا إياه، باسم «جامع الرحمة» الجميل.

ولا شيء يدل علىٰ حماسة العرب في تلك الحروب الطاحنة أكثر من السرعة التي كانوا ينجزون مغامراتهم بها، فالعربُ، وإن غدوا سادة أغنىٰ الأقطار وأخصبها، نظروا شزرًا إلىٰ ما تؤدي إليه السلم من رَغد العيش فبحثوا عن انتصاراتٍ جديدة حاملين القرآن بإحدىٰ يديهم والسيف باليد الأخرىٰ.

وما كادت مصرُ تخضع للعرب حتىٰ نزل جيشٌ إسلامي إلىٰ بلاد النوبة (٦٤٣) ففرض الجزية علىٰ أميرها، ويعزز عمرو بن العاص كتائبه المؤلفة من العبيد السود بما هو غير مألوف قاصدًا أن يدل من يأتي بعده علىٰ الطريق التي يفتحها وأن يوغل في منطقةِ قِرنية التي أضاعت أُبَّهتها منذ زمن، وكان اسم قِرنية القديمُ بنتابوليس (المدن الخمس) فَحق لها أن تمتاز في وسط صحاري إفريقية، وتهدم مدنها الكبيرة في الماضي فتعرف بليبية فتحتويها أُسقفية مصر، ولم يكن علىٰ الزعيم العربي عمرو بن العاص إلا أن يضرب علىٰ برقة الجزية ليَعُدَّ نفسه سيد تلك المنطقة، ولم يذهب عمرو بن العاص إلىٰ ما هو أبعد من ذلك لما كان يحتاج إليه من الميرة قبل دخول طرابلس (المدن الثلاث) وقيامه بغزو شاقٍ طويل، ويعود عمرو بن العاص إلىٰ مصر ليعد كل ما يقتضيه انتشارُ الإسلام بسرعةٍ في شمال إفريقية، غير أن غيرة عثمان أوجبت عزله من منصبه الذي أجاد القيام به، وأدت إلىٰ تعيين قادة آخرين ليقوموا بفتوحات جديدة (٦٤٤).

فوض عثمان بن عفان ذلك الأمر إلىٰ عبد الله بن سعد الذي لم يكن مثل عمرو بن العاص، وكان عبد الله هذا كاتبًا لمحمد، ولم يشتهر عبد الله هذا في شبابه بغير روحه الماكرة، ولم يكتب عبد الله هذا ما كان يمليه عليه محمدٌ من آي القرآن، بإخلاص، بل كان يكتبها مُحرفًا لها ساخرًا بأصلها الإلهي مستخفًا بسذاجة المؤمنين فيما بعد، ويعترف عبد الله هذا بذنبه، وتؤثر ذكرىٰ ذلك في

منزلته تأثيرًا عميقًا، وهو إن لم يكن أخًا لعثمان من الرضاعة ما وُلِّيَ حكومة مصر، وما كان العرب ليزحفوا بإمرته بقصد الدعوة إلىٰ الإسلام زحفهم عن طمع فقد كان سيرُ العرب معه إلىٰ الغرب موضع شكٍ في البداءة، فهم وإن حاصروا طرابلس وقابس، لم يلبسوا أن رفعوا الحصار عنهما (٦٤٧).

ولم يعتم العرب أن وجدوا أنفسهم أمام العدو، فلبوا نداء المسلم الحقيقي عبد الله بن الزبير الذي فوض عبد الله بن سعد أمور القيادة إليه فساروا لملاقاة البطريق[١] غريغوار (جرجير أو جرجيس) الذي كان زاحفًا علىٰ رأس جيش عظيم مؤلف من مائة وعشرين ألف مقاتل كما جاء في بعض الروايات، فلم يكن جميعه من الروم، بل كان معظمه من المغاربة أو البربر، أي من أهل البلاد الأصليين.

وكان غريغوارُ ذلك يقوم بحكومة أملاك الروم في إفريقية الغربية، أي بحكومة قَرطاجة، التي اتخذت عاصمةً بعد أن أضحت البزاسين مهددةً، ونوميدية وموريتانية القيصرية وموريتانية السيتيفِية المشتملات علىٰ الجزائر وتلمسان وقِسم موريتانية الطنجية الذي لم يستول قوطُ إسبانية عليه، فلم تكن بين صحراء برقة ومضيق جبل طارق مدينة غيرُ خاضعةٍ لأوامره مستثناة من أن تدفع إليه الضريبة التي قررها القيصر، وكان غريغوارُ ذلك يقوم في مقابل ذلك بحماية الأهالي من غارات المغاربة الذين كانوا ينزلون بغتة من جبال أوراس ويصولون علىٰ السهل ويسلبون الأماكن غير المحصنة ويقتلون الجنود المنعزلين ثم يعودون مُثقلين بالحبوب والقِطاع إلىٰ الجبال حيث يتعذرُ علىٰ قادة الروم أن يتعقبوهم، وذهبت جهودُ حلفاء بيليزير في وضع حد لهذه الغزوات الدورية أدراج الرياح، فرأوا، بعد حملات غير مجديةٍ، أن يختموا تلك المنازعات الأزلية بالمفاوضات السلمية، فيجعلوا من أولئك الذين لم يستطيعوا إخضاعهم حلفاء لهم.

وينتهي إلىٰ البطريق غريغوار خبرُ وصول العرب، فيأمر جميع الفِرق التي يتصرف فيها بأن تتجمع علىٰ جناح السرعة حتىٰ يطرد بها العرب البرابرة الوُقَّح الذين بدؤوا يكدرون صفوَه، ولا يرىٰ غريغوارُ أن الخير كلَّ الخير في حشد جنوده

---

(١) «البطريق» رتبة شرف عند الرومان، وبطارقة الروم كأقيال حمير، وأما البطريك فهي رتبة رؤساء الكنائس (المترجم).

في الحصون، وأن الخير كل الخير في مناوشة العرب بِهجماتٍ متتابعة، ولا يرىٰ غريغوار، مع توالي هزائم الروم أمام العرب، أن عشرين ألف عربي يَغلبون مائة ألف أجنبي صُفوا تحت البنود، وينشب القتال بين الفريقين في يعقوبة كما في اليرموك، ويدوم النزال عِدة أيام، ويُختم بنصر العرب بفضل ابن الزبير الذي أثار ببسالته ومهارته إعجاب الناس، ولم يكن إعجاب الناس بزهد ابن الزبير أقل من ذلك، فهو، بعد أن قُتل غريغوار، أعرض عن ابنته فلم يتزوجها ثمنًا لنصره، فدل بذلك علىٰ أن غايته هي نصرُ الإسلام دون سواه، وتفتحُ للعرب، بعد انتصارهم، أبوابُ طرابلس والبزاسين، وكان يمكن سُبيطُلة أن تُبدي بعض المقاومة لما فيها من حصون ولكن الحظ خانها، فقد دخلها العرب ظافرين واستولوا علىٰ ما فيها من أموال كثيرة، فكان سهمُ الفارس منهم ثلاثة آلاف دينار وكان سهمُ الراجل ألف دينارٍ، ويعمُّ الهول جميعَ الولايات الرومية بإفريقية بعد هذه النكبة التي حلت بالروم، وتسير طلائع العرب إلىٰ قرطاجة، ويبدأ بالمفاوضة، ويعاهد عبد الله بن سعدٍ ألا يوغل في الزحف إذا ما أعطاه الروم ٢٥٠٠٠٠٠ دينار، وتُدفع هذه النقود حالًا، ويفي ذلك العربيُ بعهده فيعود إلىٰ مصر غيرَ محتفظ بالبلاد التي غزاها، ويظهر من سلوكه هذا أن جَمع الغنائم الوافرة كان همه الوحيد، وما كان خالد وعمرو بن العاص وابن الزبير ليصنعوا مثل ذلك، وابن الزبير هذا لم يكن آنئذ في الجيش فقد غادره إلىٰ المدينة ليخبر القوم بما تم من نصرٍ، وأراد عثمان أن يُفصِّل ابنُ الزبير نبأ تلك المعركة من فوق منبر النبيَّ، فلم يكن ذلك من حسن السياسة فقد أثار خيال ابن الزبير وأوجب طموحه إلىٰ الخلافة بعد حين.

ويُدهَشُ بَلاطُ القسطنطينية من المبلغ العظيم الذي دفعه رومُ إفريقية إلىٰ العرب ثمنًا لعودتهم، ويدعي أن قادته خانوه، ويعزمُ علىٰ زيادة الضرائب، فيطلب كنستان الثاني في سنة ٦٦٣ من والي تلك المنطقة مبلغًا يعدلُ المبلغ الذي أخذه عبد الله بن سعدٍ، فلم يمتثل ذلك الوالي الأمر، فينطلق إلىٰ معاوية الذي أضحىٰ خليفة، فيحرضه علىٰ فتح إفريقية مُطلعًا إياه علىٰ ضعف الروم وعلىٰ غنىٰ تلك البلاد وخصبها، وما كان معاوية ليجهل درجة تَحمُّس العرب للجهاد، وما كان ليغضبه أن يغذِّي حبهم للقتال فيكلل عهده ببعض المجد ويُوطد سلطان آله، فيوافق علىٰ الغزو من فوره.

زَحف والي مصر الجديدُ معاوية بنُ حُديج إلىٰ البزاسين، فلم يؤدِّ زحفه إلىٰ كبير نتيجة، فقد اقتصر ابن حديج علىٰ فتح جميع الشاطئ الممتد إلىٰ القرن EL-Korn (؟) وعلىٰ هزم جيش رومي وحمل هذا الجيش علىٰ العودة بغير نظام إلىٰ السفن بعد ظهوره لوقت قصير، وعلىٰ فتح عدة أماكن، ولا سيما جلولاء التي وَزع بعد انتهابها ثلاثمائة دينار علىٰ كل جنديٍ، ولم تكن هذه الحملة غارةً مع ذلك، فقد استقر العرب بتلك الديار مُعربين عن عزمهم القوي علىٰ تدويخ إفريقية بأسرها (٦٦٥).

ونُصب والٍ جديد علىٰ البلاد المفتوحة، ولم يكترث هذا الوالي لإدارتها اكتراثه لرفع راية المسلمين فوق المدن الرومية ولدىٰ المغاربة إلىٰ أبعد مدىٰ، وذلك الوالي هو عقبة بن نافع الجامع لجميع الصفات المرغوب فيها من شجاعة عند كل بلية، ومن إنكار للذات، ومن كرم وعظمة نفسٍ وإيمان لا يتزعزع، وعقبةُ بن نافع الذي تلك صفاته يبدي من الإقدام ما يجوب به شمالَ إفريقية كله بين شعوب من الأعداء فيصلُ إلىٰ المحيط الأطلنطي فيدفع حصانه إلىٰ البحر فيقول بحماسة: «اللهم ربّ محمدٍ لولا أن أمواج هذا البحر تعوقني لذهبت لأنشر اسم مجدك العظيم في أقصىٰ حدود الدنيا». ويعجب البربر بهذه البسالة الرائعة، ويبدو عقبةُ لهم رجلًا عاليًا، ويُدهشون من دِيم يؤدي إلىٰ مثل تلك الأعمال الكبيرة من غير أن يعرفوه، ولا شيء يقفُ أمام سلاح المسلم ذي البأس الشديد، فيرىٰ عقبة أن يضبط قبائل البربر خشيةَ تَقلبهم، فيعزم علىٰ تأسيس مدينة فيختار لهذه المدينة مكانًا ملائمًا قريبًا من قرطاجة بعيدًا من البحر بضعة فراسخَ، فيضع حجر القيروان الأساسي، فتَخلُف القيروانُ، التي صارت عاصمة إفريقية، قرطاجةَ التي كانت منافسة لرومة فيما مضىٰ، فيصبح ذلك المكان نقطة ارتكاز له فيعود إلىٰ سابق غزواته فيكاد فتحه يتم لإفريقية سريعًا بفضل ما أبداه من جهود الجبابرة لو لم يخسر العرب ثمرة انتصاراتهم بفعل الغدر والخيانة، فبينما كان عقبة بن نافعٍ راجعًا من غزوٍ طويلٍ فيتقدمهُ جيشهُ، وبينما كان عقبة مطمئنًا في المؤخرة بين ضباطه وبين كتيبةٍ صغيرة مؤلفةٍ من ثلاثمائة رجل أحاط به جحفل من البربر، وذلك بقيادة رجل كان أسيرًا عنده فأثار كبرياءه، ويحاول عقبة أن ينقذ بعض رجاله، ويأتي الحظ هؤلاء، ولكن أيتركون قائدهم الذي استعد لإيثارهم علىٰ

نفسه؟ ويرغبون جميعهم في أن يكون لهم مثل نصيبه فيموتوا شهداء الإيمان، ويصلون إذن، ويستلون سيوفهم إذن، ويكسرون غمودهم إذن، وينقضون علىٰ العدو فينالون الشهادة بين صفوفه إذن.

ويفتُّ خبر هذه الكارثة في ساعد العرب، ويحرك هذا التوفيق كوامن المغاربة فيأتون لحصار القيروان، ويسعدون بطرد أعدائهم الذين دب اليأس فيهم فيكرهونهم علىٰ الارتداد إلىٰ برقة (٦٨١).

وعلىٰ ما مني به المسلمون من الحبوط لم تكن حَملات عقبة غير ذات فائدةٍ لقضية الإسلام، فقد جعل عقبة اسم النبي يدوي حتىٰ شواطئ المحيط الأطلنطي، وشقَّ عقبة الطريق لفتح إفريقية، وقضىٰ عقبة علىٰ جميع موارد الروم فكتبت لهم السلامة بفضل عصيان المغاربة، والمغاربة هؤلاء اعتنقوا، بعد حينٍ، عادات العرب وطبائعهم ومبادئهم فأصبحوا أعوانًا للعرب الكرام الغالبين.

وبينما كان الإسلام ينتشر نحو الغرب علىٰ ذلك الوجه كان يُكتبُ له تقدم كبيرٌ سريعٌ في الشرق، والإسلام لم يكن ليجاوز شواطئ الفرات حتىٰ سنة ٦٣٤ فلم يكدْ يمضي علىٰ هذه السنة أربعون عامًا حتىٰ صِرتَ تراه منصورًا علىٰ ضفاف جيحونَ والسند.

ولاح، ذات وقتٍ، بعد فتح الحيرة والأنبار، أن العرب لا يهاجمون دولة الفُرس التي أنبأ النبي بانهيارها، فخالدُ بنُ الوليدِ، وإن أرسل كتاب تهديد إلىٰ بلاط طيسفون (المدائن)، دُعي إلىٰ حصار دومة الجندلِ ثم دُعي إلىٰ سورية، فاضطر إلىٰ ترك جيشٍ صغير في العراق بقيادة المُثنىٰ بن حارثة.

وكانت الفوضىٰ تأكل بلاد الفرس، فتداول عرشَ الأكاسرة عدةُ أمراء بعد قتل شيرويه لأبيه، وكان شهريرانُ، الذي هو أحد أولئك الأمراء، قد أرسل جيشًا مؤلفًا من عشرة آلاف رجل إلىٰ الحيرة فهزمهُ العربُ شرَّ هزيمة في المكان الذي كانت بابل قائمةً عليه، وكان من نتائج الفتن التي حدثت بعد جلوس دُخت زَنان وآزَرمِيدُخت علىٰ العرش أن صرف الفرس عن بذل جهود جديدة لاسترداد ما فتحه المسلمون، ولم يكن لدىٰ المُثنىٰ من المصادر ما يكفي للاحتفاظ بما استولىٰ عليه خالدٌ من البقاع الواسعة، فطلب المددَ من المدينة حين وفاة أبي يكر.

وكانت أولىٰ الولايات التي بدت لأعين العرب هي كَلدة أو آشور التي تكدَّس فيها ما جمعه السلوقيون والفرسُ من ثروات آسية، وكانت كلدة، التي يرونها نهران عظيمان بما تعرضه من الأطلال الواسعة، ولكن ذلك الأثر النفسيَّ ما كان يدوم فيهم زمنًا طويلًا لو ساروا إلىٰ السند فرأوا اختلافًا عظيمًا في المنظر، فأبصروا بلادًا عقيمة وسكانًا مبعثرين وجبالًا غيرَ صالحةٍ للعمران ورمالًا جديبةً بدلًا من السهول الخصيبة والأودية الجميلة والحدائق الزاهرة.

ويصبح عمرُ بن الخطاب خليفةً، ويطبع الحربَ الفارسية بنشاطٍ لا يبارىٰ، فيأمرُ بأن تكون القيادةُ لأبي عبيد وأن يكون المُثنىٰ دليلًا له، فتتمُّ انتصارات للمسلمين في النمارق والسقاطية، ويرسل رستمُ، ذو النفوذ في بلاط طيسفونَ، جيشًا بقيادة بهمنَ لقتال المسلمين، فتدور في قس الناطف رَحىٰ معركة هائلة، ويعتمد أبو عبيد علىٰ طالعه فيعبر الفراتَ علىٰ مرأىٰ من العدو فيهجم عليه في وضع غير ملائم، ويُشرف أبو عبيدٍ في إقدامه فيدوسه فِيلٌ فيهزم العربُ، ويُنقِذُ المثنىٰ بقية الجيش بعناء، فلم ينج من نَكباتٍ أُخَر إلا بما دبَّ بين أمراء الفرس من الشقاق، ويرىٰ رستم، الذي كان يمارس السلطة باسم بنت كسرىٰ أبرويز، تقلصَ نفوذه فيقتسم هو وزميله الفيرزان السلطان، ويقوم المثنىٰ بهجوم جديد في غضون ذلك، فيقهرُ مهران بالقرب من المكان الذي أقيمت عليه الكوفةُ فيما بعد، فيَدخُلُ الحيرةَ ويعبر الفراتَ ويوغلُ في ما بين النهرين ويهزم أمام تكريت بني النمر وبني تغلب الذين ظلوا أوفياء للفرس علىٰ حين كان عُماله يحتاجون تلك المنطقة من كل جانب، ويكون لانتصاراته ردُّ فعلٍ شديد، فيتهم رستم والفيرزان بأنهما يُضحيان بمصالح وطنهما في سبيل مآربهما، فيتناسيان اختلافاتهما فيناديان بيزدجرد الثالث بن شهريار بن كسرىٰ أبرويزَ مَلكًا، وتزول الخلافات وتعود إلىٰ الدولة وحدتها، وتوضع الخطط وتتخذ الأسباب لطرد العرب من العراق، ويرتد المُثنىٰ إلىٰ البادية حيث يأخذ وضع المُدافع.

وتقع تلك الحوادث في سنة ٦٣٤، ويأمر يزدجردُ، الذي رَجع تاريخ جلوسه إلىٰ ١٦ يونيه سنة ٦٣٢ (أي إلىٰ اليوم الأول للتاريخ الذي يحمل اسمه)، رستم بأن يسير إلىٰ المسلمين علىٰ رأس جيشٍ مؤلفٍ من مائة وعشرين ألف

مقاتل، ويعين الخليفةُ سعدَ بن أبي وقاصٍ قائدًا عامًا لجيش العراق، وينظم سعدٌ جيشه، ويرابط سعدٌ بالقرب من القادسية بعد أن حُرم نصائح المثنىٰ الذي مات حديثًا متأثرًا بجراحٍ أصابته يوم قس الناطف، وفي القادسية سَيقررُ مصيرُ دولة الفرس، وفي القادسية تقعُ ثلاثُ وقائع، وتسمىٰ الأولىٰ منها بيوم أرماث الذي لم ينصر فيه أحدٌ، وتسمىٰ الثانية منها بيوم أغواثَ الذي مال الميزانُ فيه إلىٰ جهة العرب، وتسمىٰ الثالثة منها بيوم عماسَ الذي قُتل فيه رستم فَهزم الفرسُ شَرَّ هزيمة.

أخذ المسلمون مغانم كثيرة، وَجعل سعدُ بن أبي وقاص خُمسها لبيت المال، وأعطىٰ من الباقي ستة آلاف درهم للفارس وألفي درهم للراجل، ورأىٰ عمرُ بن الخطاب توزيع خمس بيت المال علىٰ أولئك الغُزاة أيضًا، ونفلَ القراءَ في العطاء علىٰ حسب ما يحفظون من آي القرآن.

ويتبعُ سعدُ بنُ أبي وقاص انتصاراته، فيستولي علىٰ الحيرة التي ستنقص قيمتها عندما يُنشئ المسلمون بعد سنةٍ مدينة الكوفة التي ستكون قاعدة تلك المنطقة، وذلك علىٰ بعد ثلاثة أميال منها، وفي جنوبها الشرقي، ويستولىٰ عقبة بن غزوان علىٰ الأُبُلَّة القريبة من الخليج الفارسي، فَيضعُ أُسسَ البصرة علىٰ بعد أربعة فراسخ منها، فتنمو هذه المدينة بسرعةٍ فتصبح مستودعًا لتجارة الهند وآسية الشرقية.

ويستولىٰ سعدُ بنُ أبي وَقاص علىٰ جميع البلاد الواقعة في تلك الناحية من دجلة فيأخذ بابلَ وساباطَ ونهر شيرَ، ثم يخفُّ إلىٰ حصار طيسفون التي يسميها العرب بالمدائن، أو إلىٰ حصار طيسفون والمدائن لاشتمال اسميهما علىٰ طيسفون وسلوقية الواقعتين شرق بابل القديمة فَيفصلُ بينهما نهر دجلة.

ويُنبَّأ يزدجرد بما أسفرت عنه معركة القادسية، ويذهب إلىٰ حُلوان، وكاد يدخل عاصمته لو قاومت العرب ببسالةٍ، ولكن طيسفون فَتحتْ أبوابها وسَلمتْ إلىٰ المسلمين جميع ما جُمع فيها من الكنوز مع الزمن، وتُدمَّرُ هذه المدينة، لما سيكون من منافستها للكوفة والبصرة (٦٣٧)، ويتسلم الخليفةُ تاج كسرىٰ الأكبر وعلم دولته.

وَجمع يزدجردُ السيئ الحظّ جيشًا علىٰ عجلٍ ليقفَ به زحف العرب، غير أنه غُلب في جلولاءَ الواقعة شرق شطّ العرب (نهر دجلة والفرات بعد اجتماعهما)، فذهب لينزوي في مدينة إصطخر (برسيوليس القديمة)، علىٰ حين كان العرب الغالبون، الذين أصبحوا سادة بابل أو العراق العربي يستولون علىٰ آشور أو كردستان علىٰ طول دِجلةَ ويأخذون تَكريتَ والموصلَ وَحُلوانَ التي تَصلُ بين المدائن وميديه، أي العراق العجمي، من مضيق زغروس، فهنالك خاطب ذلك الأميرُ الشابُّ حُماة عرشه خطابَ اليائس محاولًا تجربة سلاحه مرة أخرىٰ، فتدور معركة دامية في نهاوند الواقعة جَنوب أكباتانَ، فتنتهي بما يسميه العرب بانتصار الانتصارات، فيفتحُ العربُ علىٰ أثرها عراق العجم وأذرَبيجان، أو أتروباتان، الواقعة علىٰ ساحل بحر قزوين الجنوبي الشرقي، ويفتح العربُ بالتتابع أصفهانَ وهمدانَ وقزوين وتوريز (تبريز) ويستولون علىٰ ثُغور الشيروان(١) وأرمينية فتقفهم في أرمينية الرومانية جموع من النصارىٰ الذين هاجروا من سورية إليها، ويقفهم في شمال أذريبجان الخزر الذين خربوا حصون القفقاس واجتاحوا جورجية وأرمينية الفارسية فَيرجعون إلىٰ كردستان فيعبرون دِجلة من جهة الموصل، فيمدونَ يَدَ المساعدة إلىٰ جيش الشام الذي أتم من ناحيته فتح ما بين النهرين أو الجزيرة فّيزيدون قوةً بذلك فيدخلون خوزستان وفارسيستان فيستولون علىٰ الأهواز الواقعة في جنوب خرائب سوس وشستر وجُنْدَيْسابُور فيطرد يزدجرد من اصطخر فيعدل عن الدفاع عن ولاياته الغربية، فيهرب إلىٰ مَروَ بخراسان بعد مناوشاتٍ يائسة ناقلًا إليها النار المقدسة.

ظهر المرزبان الهرمزانُ خصمًا أهلًا لقتال العرب، فقد وزع كتائبه بمهارةٍ بين حصون سوزيانة فاحتمل عبء الحرب لطويل زمنٍ، فلما بلغ منه الجهدُ استسلم وأسلم، فبعث به إلىٰ المدينة فَوجد الخليفة نائمًا بين المسلمين علىٰ دَرجِ المسجد الكبير، فراعه اجتماعُ عظمة الملك وبساطة الطبائع في شخصه، وهو لم ينتظر عفوًا من الخليفة الغالب، بل شكا إليه الظمأ قاصدًا الاستفادة من عادة العرب الذين يحمون الضيف إذا مست شفتاه قدحهم، ففطن عمرُ إلىٰ ما نوىٰ

(١) أو ألبانية، وهي غير ألبانية، أي بلاد الأرناؤود المعروفة الآن في أوروبة. (المترجم)،

فقال إنه لا يُقتلُ إلا إذا شرب الماء الذي يُعرض عليه، فهنالك كَسرَ الهرمزان المكارُ القدحَ فعفا عمر عنه وفق كلامه، ومقاومة هذا المرزبان وحدها هي التي كانت تحبطُ عمل العرب، فكان في خضوعه ختامُ فتح فارس، فلم يبق أمام عُمال عمرَ سوىٰ شعوبٍ مستعدة لإعطاء الجزية بلا تذمر.

ولم ير العربُ أن يَدَعوا أي عدوٍ خلفهم، فبدؤوا، قبل السير إلىٰ الشمال، بإخضاع سكان كرمان ومكران علىٰ طول شاطئ البحر الهندي، فدحروا إلىٰ ما وراء السند الهنود الذين أتوا لمساعدة الولايات المهددة، فلما خلا الجو للعرب في تلك الناحية تَوجهوا إلىٰ الرِّي التي عدت، بحق مفتاح خراسان أي مفتاح آرية وهرقانية (جرجان) ومرجيان (المرج) وبقطريان وبَرُوبَميزوس وأراشوازية، وكان يزدجرد قد انطلق إلىٰ برسيوليس (إصطخر) بكرمان فإلىٰ سجستان (إقليم درانجان القديم) فكادت محالفة أتراك بلاد ما وراء النهر له تؤدي إلىٰ اتخاذه خِطة الهجوم ذات يوم، فقد كان تائي تسونغ، وهو العاهل الأول من آل تانغ، يملك الصين في ذلك الحين، وكانت إمبراطوريته تمتد إلىٰ بحر قزوين، وكانت قبائل التركستان تدين له بالطاعة فألزمها بالانقياد لملك الفرس، فجمعت هذه القبائل خمسين ألفًا لنصرة ملك الفرس، واستعدت لمقاومة تقدم الإسلام، بيد أن غرور يزدجرد الباطل أثار كبرياء الترك فأفسد ضمائرهم فكان بينهم وبينه قتال، فاستولىٰ المسلمون علىٰ سجستان، وسقطت مَرو وهراةُ وَبَلخ وَنيسابورُ بيد الأحنف بن قيس الذي أمره الخليفة بفتح خُراسان، فكفىٰ قتال شهرين للقضاء علىٰ ديانة الفرس القديمة وعلىٰ آخر بني ساسان (٦٥٢)، فالتجأ يزدجرد إلىٰ تائي تسونغ، فقتله فُندقي غادرٌ علىٰ ضفاف نهر مُرغاب فَخُتم بقتله آل أردشير بن بابك الذين دام ملكهم ٣٢٩ سنة، فأذعنت بلادُ فارسَ بأسرها لسلطان الخلفاء.

ظهر زحف العرب كأنه سلسلة انتصارات حتىٰ ذلك الحين، ثم أخذ تقدمهم يصعب، فكان عبورهم نهرَ أكسوس (جيحون، أموداريا) سبب صراع شديد، فالعرب، وإن انتصروا علىٰ فرسان الترك عند أول مصادمة فجاوزوا سهولَ بُخارىٰ والصغد فأبصروا بُخارىٰ وسمرقند، لم يستولوا بالحقيقة علىٰ غير جزء يسير من تلك البلاد ولم يدخلوا سوىٰ مدينة ترمذ (٦٧٣-٦٧٤).

وبدا العربُ أوفر حظًا في غرب بلاد ما وراء النهر وعلىٰ شواطئ بحر قزوين وفي خُوارزم ففُرضت الجزيةُ علىٰ قاعدة خُوارزم وعلىٰ قَت وَزمخشر (٦٨٩)، واستولىٰ العربُ علىٰ جُرجان ومازندجران، ولكن هذه الانتصارات لا تُذكرُ إذا ما قيست بالانتصارات العظيمة السابقة، ولاح بطوء زحف غُزاة المسلمين أكثر وقفًا للنظر في سنة ٦٨١ في طرف إمبراطوريتهم الآخر حينما طَرد البربر العرب من القيروان إلىٰ برقة، وعلةُ ذلك أن العرب بذلوا في حروبهم الداخلية في منتصف القرن السابع من الهمة والنشاط ما كانوا ينالون به نصرًا مؤزرًا لو بذلوه في الخارج.

الفصل الرابع
بنو أمية (٦٦٠-٧٠٥)

قُتل عثمان، فَسُفكت دماء في غير سبيل القرآن، فما كانت خلافة علي إلا سلسلة طويلة لحروب أهلية، وكان محمدٌ قد رحم خصومَه العُتاه من قريش فأدخلهم إلىٰ حظيرة الإسلام، فكانت تتألف من هؤلاء طبقةٌ من الأشراف عند العرب فاستولوا بالتدريج علىٰ جميع مرافق الدولة، وكان عمر يزجرهم، فكانت لهم ضلعٌ في نصبِ عثمان خليفةً، فتخلصوا منه عندما أراد أن يُفلت منهم، ثم تذرعوا بحجة ثأره مع أن قتله كان من عملهم فدعوا إلىٰ الفتنة في جميع أنحاء الدولة، ثم قهروا بالحيلة عَليًا الذي كان لا يدانيه أحدُ في الشجاعة والمرُوءة، بعد أن عَجزوا عن الظَفر به، فَدلُّوا خِنجرَ متعصبٍ عليه[1].

ولم يكد معاوية بن أبي سفيان يَقبض علىٰ زمام السلطة حتىٰ ظهر أنه وليُّ أمر ممتازٌ، وأعاد عمرو بن العاص إلىٰ ولاية مصر مكافأةً له علىٰ مساعدته له، ولم يخشَ الحسنَ بن عليّ الأكبر الذي تَنزل له عن الخلافة في سنة ٦٦١ مكتفيًا بِعُزلةِ هادئةٍ في المدينة، وَردَ جماح حزب الخوارج المشاغبين، وجعل من الشام مقرَّ دولته، وأراد أن يجعل الخلافة وراثية في آله بعد أن كانت انتخابيةً، ووجد معارضةً دائمةً في زياد ابن أبيه الذي كان يُلقي الذُّعر في الشرق، فزالت جميعُ

(١) أراد المؤلف بذلك معاوية وصحبه، فلم نعلم أن هؤلاء كانوا ذوي ضلع في التخلص من عثمان وأن قتل عثمان كان من عملهم، وإنما نعلم أنهم تذرعوا بحجة ثأره فقهروا عليًا بالحيلة، وأما قتل عليٍّ فمن عمل الخوارج الذين ائتمروا به وبمعاوية وبعمرو بن العاص ليقتلوهم، فلم يوفقوا لغير قتل عليٍّ كما ذكر المؤلف في الفصل الأول من هذا الباب وفي أواخر هذا الفصل. (المترجم)

الموانع بموت هذا الطاغية فاعتُرف بيزيد وليًا للعهد، فكان جلوسُ يزيد هذا علىٰ العرش سببَ اشتعال فتن جديدة.

وَجدَ بنو أمية في الحجاز وفي العراق أناسًا أشداء، وكان أهلُ مكة يدعون بأن من حقهم اختيار الخلفاء فلم ينازعهم في ذلك أبو بكر وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ، وكان أهلُ الكوفة والبصرة يَدعون بذلك الحقِّ الذي يدلُ علىٰ الرفعة فيستندون إلىٰ عددهم وبأسهم وإقامة علي بين ظهرانيهم، وكان مما آلَمَ هذين الفريقين اتخاذُ دمشقَ عاصمةً للدولة، وكان مما كبحَ جِماحهما أن قَتل زيادٌ وعامله سمرة ما يزيد عن ثمانية آلاف شخص في البصرة وحدها، وكان مما أرهبهما قتلُ أفضل أهل الكوفة حُجر بن عدي الكنديِّ الذي لم يصنع غير الإشادة بذكرىٰ عليٍّ بن أبي طالب، وموتُ الحسنِ مسمومًا في المدينة سنة ٦٦١، وإماتة عائشة غَدرًا سنة ٦٧٥، وقتلُ عبد الرحمن بن خالد الذي كانت تُخشىٰ مزاياه، إلخ.

وارتدع ذانك الفريقان في خلافة معاوية، ولم يرفعا عَقيرتهما إلا بعد ما أريد تعيين من يَخلفه، ويعترف مسلمو الشام بابنه يزيد لما يدعونه من انتفاع الدولة بنظام الملك الوراثي، وتستند العراق المخلصة لمصالح أبناء عليٍّ، إلىٰ مثل ذلك النظام علىٰ أن تؤول الخلافة إلىٰ أبناء فاطمة الذين هم ورثة محمد الحقيقيون، ويُطردُ الوالي الذي نصبه يزيدُ بن معاوية من العراق ويغادر الحسين، الذي هو ثاني أبناء علي، جزيرة العرب ملبيًا دعوة أعيان العراق إياه مُعولًا علىٰ أن يكون رئيس الساخطين، والحسين بنُ عليٍّ كان قوامًا بما دُعيَ إليه ما ورثَ عن أبيه البأس والشجاعةَ، والحسينُ بنُ عليٍّ كان أكثر حرصًا من أخيه الحسن الذي خَذل أهله وذويه بتنزله عن الخلافة لمعاوية فعرف كيف يحفظ كرامته حتىٰ في زمن الضَّعة، والأمرُ الوحيدُ الذي كان عاطلًا منه هو ما اتصف به بنو أمية من روح الكيد والدسيسة، ويدنو الحسين من البادية، ويطفئ عاملُ يزيدَ عبيد الله بن زياد بأقسىٰ الوسائل نارَ الفتنة بالكوفة بعد أن كادت تنتشر في تلك الربوع، ويصل الحسينُ إلىٰ شواطئ الفرات جاهلًا خبر تلك الحوادث السيئة، وكان معه جميعُ أُسرته، وكانت قافلته مؤلفة من سبعين شخصًا، ويضطرب إذ يلاقي بالقرب من كربلاء جيشًا من الأعداء بدلًا من الأصدقاء ويتلقىٰ الباغي شمر بن ذي الجوشن

أمرًا بألا يُمهلَ، وتظهر كلُّ مقاومةٍ غير مُجدية ويريد حفيد النبي أن يَفرض شروطه فيطلبُ ثلاثة أمور: أن يؤخذ إلىٰ يزيد، أو أن يعود إلىٰ المدينة، أو أن يستخدم في مدينةٍ علىٰ حدود الترك ويرفض شمر ذلك فيفضلُ الحسين الموتَ علىٰ الأسرِ، ويحاط به من كل جانب ويخِرُّ مثخنًا بالجراح علىٰ أصحابه الذين كانت أرواحهم تفيض، ولم ينجُ من أولئك غيرُ أخواته وغيرُ ابنٍ له كان دون السن التي يقاتل بها، ويعيد الخليفة هؤلاء إلىٰ جزيرة العرب، ويُغضبُ قتلُ الحسين أهلَ الكوفة مع أنهم أوجبوه بوعودهم ونذالتهم، ويعتقد أهل الكوفة أنهم يستطيعون أن يزيلوا هذا العار الذي لا يُمحىٰ بأن يشيدوا بذكره إلىٰ أبعد مَدًىٰ، ولا يزال الشيعةُ يَعدون الحسين سيد شهداء الإسلام، والشيعةُ يُحيون في اليوم العاشر من المحرم من كل سنةٍ ذكرىٰ موته بمأتم ينفثون فيه حقدهم علىٰ السنية بأشجىٰ نحيب، وما كانت هذه البلية الهائلةُ لِتقضي علىٰ حزب العلويين الذين حاولوا القبضَ علىٰ زمام الأمور مرة أخرىٰ، وإنما حرمتهم الزعيم المحنك لزمنٍ وحملتهم علىٰ تأجيل آمالهم إلىٰ حين (٦٨٠).

وشعرت الحجاز بالألم العميق الذي أوجبه يومُ كربلاء في قلوب المسلمين الصادقين، فرفعت قريشٌ راية العصيان ملبيةً نداء عبد الله بن الزبير المشتهر بفصاحته ومواهبه الحربية والذي كان أبوه خصمًا لعليٍّ، فطردت من المدينة عاملَ يزيد ودَعت ابن الزبير إليها، فاقتدت مكة وما حولها بابن الزبير، فرأىٰ ابن الزبير في ذلك ما يسوِّغُ انتحاله لقب خليفةٍ، فأرسل يزيد جيشًا لمقاتلته، فقهر هذا الجيشُ قريشًا ودخل المدينة عَنوةً وحاصر مكة، فكان هذا عملًا جريئًا إلحاديًا، فخيف أن يؤدي إلىٰ فوران جميع الناس، والأمرُ مهما يكن فقد أوشك ذلك الجيشُ أن يفتح مكة لو لم يغيِّرْ موت يزيدَ بحوران، في اليوم الرابع من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ (٦٨٣م)، وَجهَ الأمور، فقد رجع جيش الحِصار إلىٰ الشام، فأذعنت جزيرةُ العرب ومصرُ والعراقُ وخراسانُ لابن الزبير، فكان هذا يؤدي إلىٰ زوال خلافة بني أمية بدمشق لو جاء ابنُ الزبير يطالب السوريين بالطاعة والسلاحُ بيده، ولكن ابن الزبير لم يُرد مغادرةَ الحجاز، فترك لأعدائه من الوقت ما يتفقون فيه علىٰ اختيار خليفةٍ، فقد أنف معاويةُ الثاني ابنُ يزيدَ من السلطة فاعتزلها بعد ستة أسابيع علىٰ الرغم من إصرار بني أمية، فخلفه مروانُ بن الحكم علىٰ أن

يجعل ولاية العهد لذي الأمل الكبير الشابِّ خالد بن يزيد، ولم يتمهل مروانُ فَهجم علىٰ أتباع ابن الزبير، فدل بما ناله من الانتصارات علىٰ أن زمن سقوط بني أمية لم يحن بعدُ، فهو، بعد أن دانت له حمصُ وبعضُ العراق سار إلىٰ مصر فقهر واليها ففوض إلىٰ أحد أولاده أمر جبايتها، وحُرمت الحجازُ البُرَّ الذي كان يُرسلُ إليها من قناة القلْزُم، فتعسَّر بذلك وضعُ ابن الزبير، ومما زاد هذا الوضع عُسرًا أن هُزم أخوه مصعب بن الزبير بعد أن تقدم بجيشٍ إلىٰ دمشقَ فعاد إلىٰ البصرة.

أوشك سلطانُ مروان أن يثبت بذلك النصر الذي كان آخر فوزٍ له، فقد تُوفِّي سنة ٦٨٤، فاستخف ابنهُ عبد الملك بحقوق خالد بن يزيد فقبض علىٰ زمام السلطة بالشام ومصر، فَنصبَ خليفة في ٣ رمضان سنة ٦٥هـ (أبريل ٦٨٥)، ويرىٰ عبد الملك بن مروان مكةَ مُوصدةً دون أتباعه فيأمرُ بأن يُحَجَّ إلىٰ بيت المقدس[1]، ويجد عبد الملك في جعل الإمبراطورية العربية قبضته وحده فيصوبُ هَمه إلىٰ العراق حيث تسود الفوضىٰ منذ قتل الحسين، ويعترف بعضُ أهل العراق بابن الزبير، ويظل آخرون منهم أوفياء مخلصين لآل علي غيرَ مطيعين لأي سريٍ لا يرضىٰ به زعماء هؤلاء المعروفون بالأئمة، ويسير حزبُ العلويين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي فيرده عبيدُ الله بن زياد، ويسير الحزب الآخر بقيادة المختار بن أبي عبيد الله الثقفي إلىٰ مكة انتصارًا لابن الزبير فلم يُقَدِّر ابن الزبير له خدمه فينحاز إلىٰ العصاة طامعًا في اغتنام الفُرص ونيل السلطان، وتزيد الفِرقُ الدينية أهل العراق انقسامًا وتُبعدهم من روح الاتحاد التي كانت سر قوة المسلمين

(١) إن اليعقوبي المتوفىٰ سنة ٢٨٤هـ هو أول من روىٰ ذلك، وقد ذكر اليعقوبي وبعض من ظهروا بعده من المؤرخين أن عبد الملك بن مروان قصد ببناء مسجد الصخرة الرائع صرف المسلمين عن الكعبة لكيلا يلزمهم عبد الله بن الزبير بالبيعة في موسم الحج، ووجد من هؤلاء المؤرخين من قال إن عبد الملك منع المسلمين من الحج إلىٰ مكة آمرًا بالحج إلىٰ بيت المقدس، فأمور مثل هذه مما كان يعجز عنه عبد الملك وغيره في ذلك العصر الذي ثبتت فيه أحكام الإسلام فكان يداس كل من تحدثه نفسه بنقض واحد منها مهما بلغ من الجبروت والطغيان، وإنما الحقيقة هي، كما ذكر المقدسي المتوفىٰ سنة ٣٧٤هـ، أن عبد الملك أراد ببناء مسجد الصخرة بتلك الروعة أن يزري بقبة كنيسة القيامة بأن يشيد ما هو أجمل منها بمراحل. (المترجم).

السابقين، ويدع عبدُ الملك بن مروان هذه الأحزاب تحتربُ ويُفني بعضها بعضًا، ويزحف سليمانُ بنُ صرد إلىٰ حدود الشام فيمزقُهُ عبيدُ الله بن زياد شَرَّ مُمزق، ويجمع المختارُ فُلول جيشه المقهور وينتحل لقبَ خليفةٍ ويثأر بدم الحسين فيقتلُ جميع الذين امتازوا في يوم كربلاء المشؤوم (ومنهم شمر بن ذي جوشن)، ويقتل عبيد الله بن زيادٍ الذي غَره نَصره الجديدُ فتقدم إلىٰ الكوفة، ويظل سيد العراق العربيِّ، غير أن مصعب بن الزبير داوم علىٰ القيادة في البصرة باسم أخيه عبد الله، فظهر في الميدان فبدا أحسنَ حَظًا من عبيد الله بن زيادٍ فغُلب المختارُ، فارتد المختارُ إلىٰ قلعة الكوفة فدافع دفاع الأبطال ومات موتة الشجعان (٦٨٦)، فاستسلم أتباعه، وكان عددهم سبعة آلاف، فضُربت رقابهم، وكان المختار قد ذَبح نحو خمسين ألفًا، عدا من قُتلوا في المعارك، متذرعًا بحجة الانتقام لذكرىٰ عليٍّ وأبنائه، فيا لهولِ الفِتن!

وينظر عبد الملك بن مروان بعين الارتياح إلىٰ اختلاف الأحزاب لِما يُبصره فيه من نصر قريب يناله، ويُخمد عبدُ الملك فتنة أوقدها عمرو بن سعيد بدمشق، ولم يبق أمامه من الأعداء سوىٰ مصعب بن الزبير فيغلبه في معركة مسكن فيدخلُ الكوفة بلا مقاومةٍ، ويؤتىٰ إليه في قلعة الكوفة برأس مصعبِ بن الزبير الذي آثر الموت وهو فارٌ فِرارًا شائنًا فيقول أحد الحاضرين لعبد الملك: «إني رأيتُ بهذه القلعة رأسَ الحسين أمام عبيد الله بن زياد ورأس ابن زياد أمام المختارِ ورأسَ المختار أمام مصعب ورأس مصعب أمام أمير المؤمنين»، فيتشاءم عبد الملك ويأمر بِدك القلعة.

وقدم من بقيَ من عمَّال مصعب بن الزبير في البصرة والموصل وفارس فروضَ الطاعة إلىٰ عبد الملك، ومن هؤلاء نذكر ذا البأس والحُنكة المهلب بن أبي صفرة الذي شتت شمل الأزارقة المنتشرين حول الأهواز فكانوا أعداء أشداءَ لكلِّ حكومةٍ قائمة فتمَّ بذلك إذعان جميع الولايات الشرقية الإسلامية لعبد الملك.

وما كان عبد الملك ليرضىٰ بشيءٍ قبل أن يبسطَ سلطانه علىٰ الحجاز الذي يَدينُ لابن الزبير فأرسل إلىٰ الحجاز الحجاج بن يوسف الثقفيَّ الذي كان يؤثرُ

بفصاحته تأثيرًا بالغًا في النفوس فأكره الحجاجُ ابنَ الزبير علىٰ الالتجاء إلىٰ مكة فلم يتردد الحجاجُ في حِصارها، وفي مكة كان ابن الزبير قد وضع جميع مصادره، فنالت بذلك ما تحتاج إليه من المؤن، وأُصلحت أسوارُها، وبدا حُماتها من الشجعان الماهرين، وما كان الحجاجُ ليقدرَ علىٰ تسكين وساوس جنوده الذين لم يجرؤوا علىٰ اقتحام أبواب البلد الأمين بغير صعوبةٍ، ثم وُفق لما أراد، فدخل مكةَ عَنوة بعد محاصرتها ثمانية أشهر فهلك عبد الله بن الزبير وأهم عماله علىٰ عتبة الكعبة، فأرسل الحجاجُ الظافرُ رؤوسهم إلىٰ الخليفة.

وَجد الحجاجُ في إعادة الأمن بمكة إلىٰ نصابه، ورأي الحجاجُ من المصلحة أن يثبت بأعماله الرسمية احترامه الدائم لتقوىٰ المسلمين، فأصلح بعنايةٍ فائقةٍ كلَّ تخريب حدثَ في مكة من الضرب بآلات الحرب، وكانت الكعبة قد هُدمت في الحصار الأول سنة ٦٨٣ فاضطر عبدُ الله بن الزبير إلىٰ تجديد بنائها، فكان للحجاج برفعها في هذه المرة مَجدٌ جديدٌ، ولما خضعت جزيرة العرب للحجاج أظهر قسوةً شديدةً تجاه أهل المدينة لأنهم كانوا أول من رفع راية العصيان ضِدَّ بني أمية.

وأثار الأزارقة فتنًا جديدة فاستدعىٰ عبدُ الملك الحجاج فنصبه واليًا علىٰ العراق وخراسان وسجستان، فأفاد الحجاجُ في منصبه الجديد قضية الإسلام كثيرًا بتوثيقه ما كان بين هذه الولايات من العُرَىٰ الضعيفة، وأظهر الحجاجُ شدةً عظيمةً نحو أهل العراق المستعدين لكلِّ ثورة، ولم يستثن من مذابحه من اشترك في قتل عثمان من رجال قريش.

رفع الأزارقة رؤوسهم، وجاسَ الخارجيان شبيبُ بنُ يزيدَ وصالحُ بنُ مسرح التميمي خِلال الدِّيار علىٰ رأس أَتباعهما المعروفين بالصفرية، ويخوض شبيبٌ وصالحٌ غِمارَ معركةٍ بالقرب من آمد فينالان فيها كثيرًا من المفاخر وإن لم يظفر فيها أحدٌ، ويؤخذ صالحٌ علىٰ حين غفلةٍ فَيُقتل بالقرب من الموصل، ويحالف الحظ شبيبًا فيستولىٰ علىٰ الكوفة وقتما كان الحجاج في البصرة، وتتعقبه كتائب أوفرُ عددًا مما عنده فيهزم من مكان إلىٰ مكانٍ حتىٰ أصبح في بلاد فارس وكرمان فيهلك بالقرب من دجيل الأهواز (٦٩٦).

ولم تر دولة العرب بعد ذلك ما يُكدر صفوها خلا الفتنة التي أثارها خصمُ الحجاج عبدُ الرحمن بن محمد بن الأشعث في سنة ٧٠١م، وكُتب النصر لعبد الرحمن هذا في أول معركةٍ فاستولىٰ علىٰ البصرة والكوفة، ثم تحولَ الحظ عنه فَقتل نفسه لكيلا يقع حيًا بين يدي منافسه.

ضَمن الحجاجُ النصرَ لبني أمية، ولم يبق من ينازعهم السلطان، وأصبح لسورية إشرافٌ علىٰ جميع الأقطار الأخرىٰ، وظلت دمشقُ عاصمة البلاد الإسلامية، وعاد إلىٰ جزيرة العرب غموضها السابق الذي لا يكشفه إلا مناسك الحجِّ، ورجع أهل نَجد والحجاز إلىٰ حياتهم الحرة السابقة، وعادوا لا يكونون عنصر الجيوش الإسلامية الأساسي.

ولم تقف نتائج الفتن عند ذلك الحّد، فقد غيرت هذه الفتن شكل سُلطة الخلفاء إذا لم تغير طبيعتها، أجل، ظلت هذه السلطة، كما كانت منذ البداءة، مطلقة في أمور الدنيا والدين، ولكن الخلفاء، إذ أقاموا بدمشق، انتحلوا أذواق الملوك الذين قهرهم العربُ وطبائعهم، وكان من نذالة رعاياهم الجدد أن أوحوا إليهم غرور قياصرة الروم وأكاسرة الفرس وأن أوجبوا خُسران العرب ما فُطروا عليه من الخُيلاء.

ويمكن أن يعزىٰ إلىٰ تلك الحروب الأهلية تناقصُ ما كانت تبديه الشعوبُ من الاحترام لمبادئ محمد، وعلىٰ ما ظل القوم يستندون به إلىٰ القرآن، وعلىٰ ما ظل به القرآن شريعة المسلمين الوحيدة، لم يتحرج المسلمون في مخالفة أوامره ونواهيه، ولا تنسَ أن للناس في الخلفاء القدوة، ومن الخلفاء يزيدُ بنُ معاوية الذي كان يعاقر الخمر مع تحريم النبي لها، ومن الخلفاء عبد الملك بنُ مروان الذي رسم صورته، مُتوشِّحًا بسيفه، علىٰ ما ضربه من النقود العربية الأولىٰ.

وتبالغ بطانة الخلفاء في إبداء تلك المناحي فيقتدي بها فريقٌ كبيرٌ من القوم، فيُستخف بالتكاليف الشاقة فتغدو الحمية الدينية التي كانت عاملًا قويًا في الجيوش صِبغة بعض الفرق التي تزعمُ أنها تعود بالمسلمين إلىٰ روح الإسلام الصحيح، كالخوارج والمعتزلة والقدرية والأزارقة والصفرية.

ويمتاز أتباع تلك الفرق بنشاطٍ عظيم، ويريد هؤلاء الأتباعُ الخير كما يقولون، ويكتوُون بنيران الفتن التي تَفُتُّ في عضد الدولة ويُضحون بأنفسهم في سبيل إيمانهم، ويبلغون من التعصب درجة يرون معها قتل النفوس وسيلةً لنصر مبادئهم.

وقتل عليٌ بخنجر خارجي اعتقد عودة السلام إلىٰ العالم بذلك، وتظاهر المعتزلة بالمطالبة بثأر عثمان، واقترف الأزارقة أفظع الجرائم مُهللين مُكبرين غيرَ ناظرين إلىٰ سنٍ أو جنسٍ، وكان المسلمون يشعرون بعجزهم تجاهَ أولئك المقاحيم الذين لم يبالوا بالموت، وما أكثر ما أبصر المسلمون مئة أو مئتين من أولئك ينازلون الألوف من أعدائهم في المعارك فيخرجون ظافرين أحيانًا مع تفاوت عدد الفريقين، ومناظر كهذه كانت تثير الإعجاب من غير أن تُؤدي إلىٰ الإصلاح المنشود العابس، ولم يقصر كل من الفريقين في الإثخان في الآخر، ويبلغ عدد من قتلهم الحجاج، الذي يمتدح مؤرخو العرب عظمته ودهاءه وعطفه وسخاءه، ١٢٠٠٠٠ شخص، ويبلغ عدد من كان يضنيهم السجنُ عند وفاته خمسين ألفًا أو يزيد.

وكانت الجزيرةُ وأذرَبيجان والعراقُ العجميُّ أكثر البلدان ازدحامًا بتلك الفرق، وتجد في ثباتها وشديد بأسها سر ما كان يصدره عمال خلفاء دمشق من الأحكام القاسية فيطفئونَ نارَ فتنتها بأنهار من الدماء، وعكس ذلك أمرُ المغرب الذي لم يقع فيه مثلُ ذلك فأخذ الإسلام يفوز فيه بعد فَترة.

الفصل الخامس
الإمبراطورية العربية الناهضة
سلطانُ خلفاء بني أمية

أنقذت انتصارات الحجاج عبدَ الملك من أخطر أعدائه، ولم تحدثْ أيةُ فتنةٍ في الدولة إلىٰ حين وفاته في سنة ٧٠٥، وأُحسنت حمايةُ النصارىٰ فكان الخليفةُ يدعوهم إلىٰ مجلسه، ويروىٰ أن يُوحَنا الدِّمشقي بن سرجيس، الذي كان أمينَ بيت المال في خلافة عبد الملك بن مروان بعد أن تخرج علىٰ الراهب قزماس فتعلَّمَ منه مباحثَ اللاهُوتِ، كان وزيرًا لهشام بن عبد الملك باسم المنصور فأدخل فلسفة اليونان إلىٰ العرب، فوَجَبَ، إذنْ، أن تُعزىٰ بواكيرُ أعمال العرب العلمية إلىٰ بلاط بني أمية، لا إلىٰ بلاطَ بني العباس، أي إلىٰ دمشق لا إلىٰ بغداد، ومن المبالغة مجاوزة هذا الحدَّ، فإذا كان بنو أمية قد شجعوا العلماء في إبان سلطانهم، فإن مجد إحياء مدرسة الإسكندرية يعود إلىٰ بني العباس.

كان الوليد أكبرَ أولاد عبد الملك، وتسلم الوليدُ زمام السلطة بلا مقاومة، فلما انقضىٰ عهده الذي دام عشر سنين (٧٠٥-٧١٥) خَلفه إخوته الثلاثة: سليمانُ ويزيدُ وهشامٌ بالتتابع تقريبًا، فلم تتخلل خِلافتهم سوىٰ فاصلة ثلاثِ سنوات كانت الخلافة فيها لابن عَمهم عمر بن عبد العزيز وَفق رغبة سليمان بن عبد الملك (٧١٧-٧٢٠)، فأبدىٰ عمرُ بن عبد العزيز عطفًا علىٰ آل عليٍ فمات مسمومًا، فخلفهُ يزيدُ الثاني ابنُ عبد الملك (٧٢٠-٧٢٤) فهشامُ بن عبد الملك (٧٢٤-٧٤٣).

ولم تزل الأحزابُ والفرقُ التي كانت تُكدر صفوة الدولة، ولم يكن سكوتها غير دليل علىٰ ضعفها، ولم تكن غير منتظرة فرصة ملائمة لتعود إلىٰ مزاعمها، ثم اعتقد العلويون حلول هذه الفرصة في سنة ٧٣٩، فوجهت أعمالهم المبتسرة وغيرُ المحكمة التنفيذ أنظار الخصوم إلىٰ مكايدهم الخفية، وكان من عدم حُنكتهم أنهم لم يتفقوا حتىٰ علىٰ اختيار أميرٍ جديرٍ بالخلافة، وأنهم تَخلوْا عن حفيد الحسين زيد مما عُرف عنهم من غفلةٍ وطيشٍ بعد أن اختاروه للزعامة، مع أنهم كانوا يَلومون أهلَ السنة علىٰ انحرافهم عن الدين الصحيح بإقصائهم عليًا والحسن والحسينَ عن الخلافة، وكان بعض العلويين مخلصًا لأبناء فاطمة إخلاصًا تامًا، وكان بعضٌ آخرُ منهم يطلب الخلافة لأبناءِ عليٍّ من زوجته الأخرىٰ، وكان فريقٌ ثالثٌ منهم يدعي أن هؤلاء تنزلوا عن حقوقهم لأبناء عَمِّ النبي العباس الذي كان دِعامةً ثابتة لسياسة النبي وأحد صحابته المتحمسين لدينه، وكان لا بد من انصهار هذه الأحزاب بعضها ببعضٍ حتىٰ يخشاها بنو أمية، وكانت هذه الأحزاب تقتصر في سياستها علىٰ إثارة عوامل الحسد والحقد ضد بني أمية مع ذلك، ثم اجتذب بنو العباس إلىٰ بنودهم الأسر التي تؤازر العلويين فكان في هذا سرُّ ما اتفق لهم من قوةٍ بعد حين.

والنصرُ سببٌ آخرُ يسر لبني عبد الملك أمر الخلافة، فكل الناس يشكرون لهم ما تم للجيوش الإسلامية من الانتصارات الجديدة، فيعدونَ هذا دليلًا علىٰ عناية الله بهم، فيرون سعادة الدولة بسلطان آلهم.

وابتعد بنو عبد الملك عن كل ما تَفْتُر به حمية المسلمين المنقطعةُ النظير التي يُقتحمُ بها كل عائقٍ فقادوا المسلمين إلىٰ الأمام، ولم يخشَ بنو عبد الملك توسيع رُقعة دولتهم الواسعة، فهم، إذ كانوا كرماء أو غيرَ ماهرين في إدارة الولايات بما يمكنهم أن يجعلوها به معين غنًىٰ لا ينضبُ بدلًا من الاكتفاء بجزيةٍ زهيدةٍ جدًا، بحثوا في الحروب الخارجية عن المال الضروري الذي يشترون به الأتباع ويكافئون به الأصدقاء الأوفياء، وهذا إلىٰ ما في المغازي البعيدة من إلهاء لمقاديم الناس وصرفٍ لهم عن المسائل السياسية الداخلية.

بَدت أوربة أهم مسرحٍ للفتح في هذه المرة، فَتوجه العربُ إلىٰ الشمال،

وذلك من غير تركٍ للقارتين الأخريين اللتين لم يفتحوا غير قسمٍ منهما بعد، ومما حدث أن حالت مقاومة القسطنطينية في سنة ٦٧٢ دون إيغالهم في أوربة من ناحية الشرق، فأتاهم الحظُّ من ناحية الغرب، فما كادوا يعبرون مضيق جبل طارق حتىٰ غزوا بلاد إسبانية وبلاد الغُول فتنازعوها هم وشعوب الجرمان التي كانت تَملكها منذ ثلاثة قرون.

شاهد العرب شواطئ البحر الأطلنطي بقيادة عقبة بن نافعٍ، وكان العرب يوغلُون، لا ريب في شبه جزيرة إسبانية قبل القرن الثامن لو سَمحت الفِتن الداخلية لهم بما يحتاجون إليه من المدد، والعرب قد تألب عليهم الرومُ والمغاربة فطردوهم من القيروان فأكرهوهم علىٰ الارتداد إلىٰ برقة.

وإن العرب لقانطون من الحظ إذ أمر عبدُ الملك بنُ مروان، المتغلب علىٰ جميع منافسيه، بأن يعود في إفريقية الشمالية إلىٰ علم النبي شرفه الذي حاق به الخطرُ في الحوادث الأخيرة، ففوض إلىٰ حسان بن النعمان أن يقوم بهذا العمل المجيد فتوجه حسانُ، قبل كل شيء، إلىٰ مدينة عقبة (القيروان) فدخلها بسهولةٍ، ومما رآه حسانُ أن يطرد الروم من إفريقية قبل أن ينتقم شر انتقام من البربر، فحاصر قرطاجة التي لم يجرؤ عربيُ علىٰ مهاجمتها قبل ذلك، لما بدا من خط دفاعها الهائل وحصونها القوية، وما كان شيء ليقاوم صولة كتائب المسلمين، فقد دخلتها هذه الكتائب عنوة فلم يتردد حسان في هدمها ليزيل منافستها للقيروان.

ويبحث أكثر الروم عن السلامة في السفن بمرفأ قرطاجة، ويستقر معظمهم بصقلية، ويقيم بعضهم بالأندلس، ويتذرع عدد قليلٌ منهم بالبأس فيداوم علىٰ الكفاح فيتخذ خارج إفريقية القنصلية، أي سطفورة وبنزرت، نقطة تجمع منتظرًا العون من القسطنطينية، ويجيء أسطولٌ رومي بالحقيقة، وينزل كتائب إلىٰ البرِّ غير مرةٍ، وتكون زيارة أطلال قرطاجة أجمل ما صنعته هذه الكتائب، ويُقلعُ الملاحون الأسطول فيتم ترك القياصرة لتلك الديار تركًا نهائيًا (٧٠٤).

لم يبق للعرب غيرُ إخضاع البربر، وتجتمع قبائل البربر، المنقسمة عادة، في حلف وتلتف حول الكاهنة التي زعمت أنها تأتي بالعجائب، وكانت هذه

الكاهنة ذات نفوذ بالغ وصيت واسعٍ عند بربر جبل أوراس لما جاءت به من النبوءات فأدت شجاعتها عند الخطر الداهم وحقدها علىٰ العرب، الذين لم تَعُدهم غير نهابين، إلىٰ إثارة جميع البربر، فتلك هي القوىٰ التي كانت تتصرف فيها.

وخشيَ قاهر قرطاجة حسانُ بن النعمان عرض الغنائم فلم يُرد الانزواء حتىٰ في القيروان فعاد إلىٰ مصر ليحفظ تلك الأسلاب في حرزٍ حريز.

ويخرب البربر البلادَ في غياب حَسان ويهاجمون العربَ والرومَ علىٰ السواءِ، ويؤلفون كتلة كثيفة ذات دوي لا يقاوم، ويدرك حسانُ ضرورة القضاء علىٰ كل رابطةٍ تصلُ بين هذا الحلف الواسع، فلما اجتمع لديه ما يكفي من القوىٰ جدّ في طلب الكاهنة التي أرادت اجتناب مخاطر الاعتراك بأي ثمنٍ، فحاولت الكاهنة أن تنجو من عدوها بتحويل إفريقية إلىٰ صحراء ومنع القُوت عن العرب فأهلك الزرع ودُكت المدن كما أمرت، وانقلبت شواطئ البحر إلىٰ خَلواتٍ، غير أن حسانَ بن النعمان أغذّ في السير وبلغ الكاهنة فحملها علىٰ القتال، فَغُلبت فقُتلت تاركة للمسلمين الساحل والداخل، فأكره العرب مغاربة جبال دَرَن، الذين لم يستطيعوا خلفاء بليزير أن يأخذوا منهم ضريبة، علىٰ تأدية الخراج، فأخذ فرسان العرب الأقوياء يجمعونه حتىٰ من أكثر ملاجئ أولئك خَفاءَ (٧٠٨).

ومن الصعب أن نعين المدىٰ الذي امتد إليه سلطان العرب بإفريقية بالضبط، فنحن لا نعرف عدد القبائل التي قهروها، ولا عددَ نفوس هذه القبائل، ولا مقدارَ ما وجب عليها أن تؤديه إليهم من الأتاوي، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن المغرب عند العرب (والمغرب ما يسمىٰ به العرب جميع البقاع الواقعة بين برقة والمحيط الأطلنطي) من أهم ما امتلكوه، حتىٰ إن الوليد بن عبد الملك قد رفع المغرب إلىٰ مرتبة عاليةٍ بين سلسلة الولايات بأن عينَ له نائبًا غير تابعٍ لحكومة مصر، وكان مما أدت إليه المغانم الثمينة التي جاء بها حسانُ بن النعمان أن تدفقت الهجرةُ العربية إلىٰ المغرب فكنت ترىٰ عربًا كثيرين يغادرون بلادهم طلبًا للغنىٰ في المغرب حيث ينشرون شريعة الإسلام علىٰ حين نُقل ثلاثمائة ألف

بربري إلىٰ آسية، وكان البربرُ، كالعرب، طليقين رُعاة بدويين، وكان عند البربر ما عند العرب من الغرائز والمشاعر والأنفة وحب الحرية وروح السلب واحترام القرىٰ، وما كان بين العرب والبربر من تماثل في العواطف والطبائع أدىٰ إلىٰ هدم الحواجز التي لم يسطع الرومان والوندال والروم أن يجاوزوها، فأضحىٰ البربر أمتن دِعامة لسلاحِ الإسلام، وتصبح إسبانية ميدانًا للحرب، ويرفضُ بعض البربر أن يختلطوا بالعرب، ويعرف حفدة أولئك بالقبائل التي تعيش اليوم في جبال الجزائر مُحافظةً علىٰ صبغتها القومية وحقدها علىٰ الأجنبي.

ويخلف موسىٰ بن نصير حسان بن النعمان، ويستطيع موسىٰ بن نصير أن ينال من زعماء البربر ثقةً لا حدَّ لها، فهو قد عرف كيف يجتذبهم إليه، وأن يضمهم إلىٰ كتائبه، وأن يبدي لهم أجمل العواطف، وأن يحملهم علىٰ اتباعه حيثما أراد (٧٠٩-٧١١).

وكانت لموسىٰ بن نصير خطته المرسومة، فأراد عبور مضيق جبل كالبة (جبل طارق) وفتح إسبانية ونَصر الدين الذي طاب مقامه فوق بَرٍّ إفريقية.

وكان القوطُ، الذين ملكوا إسبانية منذ أوائل القرن الخامس من الميلاد، يبدون قومًا ذوي قوةٍ وشجاعة، وقد دافعوا، علىٰ غير جَدوىٰ، عن موريتانية الطنجية وسبتة تجاه حصار موسىٰ بن نصير لهما عِدة مرات، وما كان موسىٰ بن نصير ليصبر علىٰ الهزيمتين اللتين أصاب بهما العرب بحرًا وَبْرا سنة ٦٨٣ ونائبُ الملك قيتيزا سنة ٧٠٩، وما كان موسىٰ بن نصير لينسىٰ أن أسطول القوطِ انضمَّ إلىٰ أسطول الروم ليراقب سواحل إفريقية القنصلية بعد هدم قرطاجة، فلذلك ولغير ذلك لم يتردد موسىٰ بن نصير في قبول ما عرضه عليه والي سبتة والممثل لحزبٍ عظيم الكونتُ يوليان من دخول شبه جزيرة إسبانية، .

ويعتقد موسىٰ بنُ نصير ضرورة إخبار بَلاط دمشق بما عقد نيته عليه، ويصف موسىٰ بنُ نصير للخليفة نضارة إسبانية وثراءَها بأروع الأوصاف، ويوافق الوليدُ علىٰ خِطط عامله موسىٰ موصيًا إياه بالاحتراز من الغدارين وبمداراة المسلمين الحقيقيين، ويقصد الوليد بذلك تقديم البربر عندما لا تلوح ظواهر النصر، ويُدرك موسىٰ مَغزىٰ ذلك، ويُعد فَيلقًا مؤلفًا من البربر علىٰ الخصوص،

ويعهد في قيادته إلىٰ طارق بن زياد البربري الذي اختبر جدارته وعَلم وقفه لنفسه علىٰ نصر الإسلام، ويقوم طارقٌ بريادٍ بحريٍ فيزور الساحل الإسباني الجنوبي المقابل للمضيق، ويكون المالك الكبيرُ في تلك الجهة الإسبانية الكونتُ يوليان دليل طارق فيسلمُ إليه قلعة الجزيرة الخضراء فيُنزل طارقُ إلىٰ البرِّ جيشه الصغير الذي لا يكاد عددُ جنوده يكون اثنىٰ عشر ألفًا، فَيحمل المكانُ الذي أقام فيه معسكره اسمه فيدعي جبل طارق.

ويرىٰ ذلك القائد البربري أن يثير شجاعة رجاله فَيحرقُ سُفنه، وُتكللُ أعماله الأولىٰ بالنجاح، وينتهي خبرُ هزيمة إديكو إلىٰ بلاط طُليطلة، ويكون لدىٰ هذا البلاط من الوقت ما يَقدر فيه علىٰ العمل بحزمٍ، ويدعو الملكُ رذريقُ مائة ألف رجلٍ إلىٰ الدفاع عن الوطن، وما كانت قوةُ مملكة القوط لتناسب اتساعها وعدد سكانها، ولم يكن في إسبانية، كما في بلاد الغول، شعبٌ معارضٌ لشعبٍ مقاتل له، مع أنك لا تجد بلدًا لم ينصهر فيه الرومان والبرابرة كما في إسبانية، وفي إسبانية كانت عناصر الضعف تبدو في صميم نظام المجتمع المقسوم إلىٰ طبقات متعادية فضلًا عن عطله من الروح العسكرية وزعجه بطلبات رجال الدين المتعصبين، وفي إسبانية كان التاجُ أمرًا انتخابيًا، وكانت مُدونةُ القوانين التي أُلفت في مجامع الأساقفة بطُليطلة خليطًا عجيبًا من قوانين الرومان وعادات الجرمان، وكانت المدنُ، التي يسودها النظامُ البلدي القديم محافظة علىٰ استقلالها المحلي خلا ما تطالبها به مجامع الأساقفة من الهبات الاختيارية بصلفٍ وكبرياء.

وفي إسبانية كان استرقاق الفدادين[1] يُطفئ كل شعورٍ قوميٍ في الجماهير، وكان الإيمان الديني غير متين، وكان اضطهاد اليهود وتخييرهم بين العبودية والنصرانية مما يبذر عوامل الحقد القوي بين فريق من السكان فيعدهم للفتنة، فيكثُر بذلك عددُ حلفاء العرب، وكان مما يثير الأشراف والكهنوت الغيارىٰ علىٰ امتيازاتهم سياسةُ الملوك الآخرين في جعل العرش أمرًا وراثيًا مطلقًا مع أنه

(١) الفدادون: الرعيان والجمالون والبقارون والفلاحون وسواهم ممن تعلو أصواتهم في حروثهم ومواشيهم.

انتخابيٌ مُقيدٌ بقيودٍ وثيقة، وكان رذريقُ قد اغتصب العرش من وتيزا وأهان الأمير يوليان فأوغَر صدره، فلم يتردد يوليان في خيانة بلاده، واشترك رئيس أساقفة أشبيلية أوباسُ في المؤامرة فحُقَّ لطارق بن زياد أن يعتمد علىٰ مساعدين أقوياء، فأوجبت ضروبُ المدد تلك نيلَ طارقٍ للنصر المنشود في المعركة القادمة التي يتوقف عليها مصير إسبانية.

وتدور رَحىٰ المعركة في وادي لَكة غير البعيد من مدينة شريش، ويقود القوطَ رذريق الذي خف إلىٰ القتال بجميع فرقه داعيًا خصومه إلىٰ اتباعه ظانًا أنهم لا يضحون بوطنهم شفاء لما في صدورهم من حرصٍ وحقدٍ، ويُبدي رذريق حَزمًا فائقًا مع عدم عُزوفٍ عن الترف والزخرف اللذين كان يبدو بهما قُدوة سيئةً، ويستتر تحت سناء ثيابه المُذهبة وعربته العاجية وسرجه المرصع بالحجارة الكريمة ما لا قيمة لغيره من الحديد في ذلك الحين، ويحف الأشراف من حوله مُجهزين بأفخر جهازٍ معتمدين علىٰ عدد جنودهم أكثرَ من اعتمادهم علىٰ شجاعتهم، غافلين عن أن هؤلاء الجنود من الأرقاء المتوحشين الذين لا يحاربون إلا كرهًا، وينسىٰ البربر، الذين تعودوا الطعان فيقودهم قائدٌ ذكيٌ فأعدوا أنفسهم لاستقبال الموت علىٰ أنه خيرٌ لما يوجبه من الجنة، قلة عددهم، وينادىٰ طارقٌ بجنوده قائلًا: «أيها الناس! أين المفر؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم . . . ما فعلتُ من شيءٍ فافعلوا مثله . . . كونوا كهيئة رجلٍ واحد في القتال، ألا وإني عامدٌ إلىٰ طاغيتهم بحيث لا أتهيبه حتىٰ أخالطه وأُقتل دونه، فإن قُتلت فلا تَهنوا ولا تحزنوا ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم. . .»، وتنهك المناوشات والمبارزات الفردية الجيشين في سبعة أيام، ولا يستطيع العرب أن يكسروا كتائبَ العدوَّ التي تُجمع ويعاد تأليفها بلا انقطاع، ويتقدم طارق فرسانه ويحمل حملة شديدة علىٰ جيش القوط ويخترقه فينضوي أسقف أشبيلية مع كتائبه إلىٰ لواء طارق فورًا، فيُغلب رذريق بعد الآن، فيحاول رذريق جمعَ كتائبه الحائرة الفارة فلا يستطيعُ، فيتعثر بأذيال الخيبة فيغرق في نهر الوادي الكبير (٧١١).

ويعرفُ القائدُ الكبيرُ طارقُ بنُ زياد أن يستفيد من الذعر الذي نشره في ميدان الوغي وفي أنحاء إسبانية، فيزحف إلىٰ العاصمة، ولكنه يخشىٰ أن يجمع

علىٰ بعدٍ جيشٌ جديدٌ، فيوجه إلىٰ مختلف الأنحاء كتائب مُفرزة لتستولي علىٰ أهمَّ المدن، فتفتح أستجة ومالقة والبيرة وغرناطة وقرطبة.

وإن طارقَ بن زياد ليدنو من طُليطلة إذ يبلِّغه رسولُ موسىٰ أمرًا بالبقاء حيث هو ريثما يُدركه موسىٰ، والأمر حازمُ، ويبدي طارقٌ من الجرأة الكريمة ما يُتم به الفتح باستمالة الجنود إلىٰ عدم امتثاله، وذلك لأن طارقًا رأىٰ أن الوقوف يعني منح القوطِ من الوقت ما يتفاهمون فيه فيختارون لهم مَلكًا فيُحصنون العاصمة التي ألقىٰ فُرار موقعة شريس بذور الفوضىٰ والاضطراب فيها، ويلوح الغالبُ، وتستسلم طُليطلة وتُذعنُ بلا تذمر، ويتركُ طارقُ فيها حاميةً صغيرةً لشدِّ أزر اليهود ومراقبة الأهالي، ويداوم طارقٌ علىٰ سيره إلىٰ الشمال، وتصبح جميعُ البلاد الواقعة بين جبل طارق وجيحون، وذلك علىٰ خليج بسقاية، خاضعة لأحكام شرعه.

ويغادر موسىٰ بن نصير من انتصارات عامله طارقُ، فيبحر إلىٰ إسبانية مع كتائب جديدة، فيوغل في الأندلس التي لم تفتح كلها بعد، فيدخل قرمونة وأشبيلية فيحاصر ماردة المدينة المحصنة الزاهرة الزاخرة بالمباني الرومانية التي لا تزال آثارها باقية، ولم يسطع أن يقضي في بدء الأمر علىٰ ما يبديه القوط المعتصمون بها من الدفاع المجيد، فأمدَّهُ ابنه عبد العزيز بسبعة آلاف مقاتل أتىٰ بهم من إفريقية فاضطرت ماردة إلىٰ التسليم بعد جوعٍ.

وفيما كان طارقٌ متمًا لفتح أسترامادورة ولوزيتانية إذ توجه موسىٰ إلىٰ طُليطلة حيث وَجد بقية جيش طارق فأعرب عن عزمه علىٰ عقابه، فلم يجرؤ، إزاء تذمر الجنود، أن يحرمَ الإسلام قائدًا من قواده الماهرين، فضربه بدرته فأمر بحبسه فلم يلبث أن خرج من السجن إلىٰ القيادة بأمر الوليد الذي خَشي مواهب موسىٰ وحرصه وما قد يصبو إليه آله الكثيرون من الاستقلال فأعلن أن مجد فتح إسبانية مشترك بين موسىٰ وطارق.

وحبب عبد العزيز بن موسىٰ نفسه إلىٰ المسلمين بمزاياه الساطعة وحذقه أمور القيادة والسياسة، ففوض إليه، بعد فتح ماردة، أن يُسكِّن أشبيلية الثائرة، فاستمال إليه الأهالي بما اجتمع فيه من الحزم والحلم، فانطلق إلىٰ مُرسية حيث

أقام تدمير القوطيُّ إمارة مستقلة، فاكتفىٰ عبد العزيز بأخذ جزية منه لتكون دليلًا علىٰ إذعانه مُظهرًا، من غير غرور، ما يستحقانه من الاحترام والإعجاب.

ويمتثل موسىٰ وطارق أمر الخليفة الذي وضعهما في مرتبة واحدة تقريبًا فيزحفُ موسىٰ إلىٰ أشتورش (بلاد الصخر) حيث يدحر آخر حماة إسبانية الذين جمعهم بلاي، ويزحف طارقٌ إلىٰ البلاد الواقعة وراء نهر إبرة فيتم بهذا الغزو المضاعف خضوع جميع إسبانية للمسلمين حتىٰ جبال البرانس التي لم يجاوزها بعدُ، وتوجب مقاومة سَرَقسطة تعاون جيشي العرب ووَهن العرب إلىٰ حين، وتدعو الضرورة، مع ذلك، إلىٰ تنظيم إدارة إسبانية وتأجيل موسىٰ لتنفيذ ما رسمه من خطط لغزو بلاد الغول.

بدلت إسبانية سادتها، ولم تلبث أن عادت إليها نضارتها القديمة، ولم تَزِد الجزية التي فرضها العربُ علىٰ إسبانية عن الضريبة السنوية التي كانت تدفعها إلىٰ القوط فخضعت لها علىٰ عجلٍ، وكانت إسبانية تختلف عن صحارىٰ جزيرة العرب وإفريقية مع ذلك، فصعب عليها أن تنتحل ما أتىٰ به العرب من الطبائع والشرائع، ومما حدث أن اضطر خلفاء دمشق إلىٰ تعديل شيء من الشريعة الإسلامية عند فرضها علىٰ بر الشام وبلاد فارس فاقتضىٰ أن يكون ذلك علىٰ مقياس أوسع من ذلك في أوربة، غير أن ما وجب منحه من الرخص لم يكن ليلائم تلك الشريعة الثابتة إلا ملاءمة سيئة[1].

ومما كان يخشىٰ أن يقطع ولاة إسبانية صلاتهم بأم الوطن، فتجد في هذا سر عدم استقرار الحكومة في إسبانية بين سنة ٧١٥ وسنة ٧٤٣، ومما كان يسعىٰ إليه الولاة أو الأمراء الذين ينصبهم بلاط الخلافة أن يقضوا علىٰ كل مقاومة وأن يفرضوا الإسلام الخالص، ثم اعترضهم كثير من المعضلات، وأنارت مصالح إسبانية الحقيقية بصائرهم فسنوا نظمًا مخالفة لنيابتهم فوُشيَ بهم إلىٰ الخلفاء فعزلوا من فورهم، فكان موسىٰ بن نصير أول ضحية لهذه السياسة القاتمة، فقد أمر بأن يحضر هو وطارق بن زياد إلىٰ الخليفة فأطاعا فوصلا علىٰ انفراد، وكان طارقٌ فقيرًا فلم يكن أن يعزىٰ إليه أي اختلاس، فأثنىٰ علىٰ انتصاراته مع

(١) انظر إلىٰ تعليقنا علىٰ ذلك في آخر الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب (المترجم).

الاحتفاظ به في آسية خشية أن يلتف حوله كثير من البربر المتحمسين في المغرب، وكان دخول موسىٰ لدمشق دخول الظافرين، لما ساق خلفه من الأسرىٰ الكثيرين، فأثار ذلك حفيظة سليمان بن عبد الملك الذي خلف أخاه الوليد سنة ٧١٥، فحكم عليه بمئتي ألف دينار غرامةً وشُهِّرَ وجُلدَ في مقابل ما أبداه من الشدة نحو عامله طارق، ثم نُفي إلىٰ مكة حيث مات كَمدًا عندما علم ما أصاب ولديه من خاتمةٍ فاجعةٍ، وبيان الأمر: أن ولديه عبد الله وعبد العزيز كانا سيدي إفريقية وإسبانية حينما كان أبوهما يُهان بما لا يستحقُّ، فخَشي سليمان بن عبد الملك أن يستعينا بسلطانهما علىٰ الانتقام لأبيهما فأمر بقتلهما فقتلا سنة ٧١٦، ومما زاد سليمان خوفًا أن كان عبد العزيز محبوبًا لدىٰ الجميع، فعبد العزيز كان رؤوفًا بالمغلوبين فأصلح حالهم، وكان مرضيًا عنه من قبل العرب والمغاربة الفاتحين بما حباهم به من المناصب اللائقة، فلم يغادر إسبانية إلا وهي في أنضر وضعٍ.

قُسمت إسبانية إلىٰ أربع مناطق كبيرةٍ يقوم بشؤون كل منطقة منها حاكمٌ خاصٌ رقيب علىٰ القواد (مديري المدن)، وكان هؤلاء الحكام تحت إمرة عبد العزيز بن موسىٰ فكانوا يخبرونه في الوقت المناسب بكل سعيٍ إلىٰ الفتنة فأَمتع إسبانية بهناءةٍ لم تكن لتأمُلها.

وكانت المنطقة الأولىٰ تشتمل علىٰ الأندلس الواقعة بين البحر ونهر الوادي الكبير من منبعه إلىٰ مصبه، وعلىٰ الأراضي الممتدة بين هذا النهر ونهر وادي أنة مع المدن قرطبة وأشبيلية ومالقة وأستجة وجَيَّان وأشونة.

وكانت المنطقة الثانية تشتمل علىٰ قسم البلاد الأوسط الواقع بين البحر المتوسط من الشرق إلىٰ حدود لوزيتانية من الغرب ونهر دُويرة من الشمال مع المدن طُليطلة الواقعة علىٰ نهر تاجُه، وكونكة الواقعة علىٰ نهر شقر، وأشقوبية الواقعة علىٰ رافد نهر دُويرة، ووادي الحجارة وبَلنسية وَدانيةَ والقَنْت وقَرطاجنة ومُرسية ولورقة وبَيَّاسة.

وكانت المنطقة الثالثة تشتمل علىٰ جليقية ولوزيتانية مع المدن ماردة ويابُرة وباجة وأشبونة وقُلُمْرِيَة ولوغو وأستُرْقة وسَمُّورة وسلمنقة.

وكانت المنطقة الرابعة تمتد من ضفاف نهر دُويرة إلىٰ جبال البرانس علىٰ شاطئ نهر إبرة فَتحدها جَليقية من الغرب، فتشتمل علىٰ المدن: سرَقُسطة وطَرْطوشة وطَرَّكونة وبرشلونة وجيرونة وأرجيرة وتُطِيلة وبلد الوليد ووَشْقة وبَرْبَشْتر.

وكان يوجد خلف جبال البرانس منطقة خامسة مؤلفة من سبتمانية ومشتملة علىٰ المدن: أرْبونة ونيم وقَرْقشُونة وبِيزِيَر وأغدة ومجلونة ولُدِيفة.

واحترمت جميع الشروط التي وضعت وقت الفتح احترامًا كليًا، فسلمت الأسلحة والخيولُ، ومُنح من يودون الرحيل حقَّ مغادرة البلاد علىٰ أن يتنزلوا عن جميع أموالهم، وَوعد من يبقون في البلاد بالمحافظة علىٰ أملاكهم وقُضاتهم وقوانينهم وكنائسهم علىٰ ألا يبنوا بِيَعًا جديدة، وألزموا بدفع خراج لا يزيد عن عُشر المحصول، واحتفظ الفاتحون لأنفسهم بالأراضي المهجورة فلم تُستغل إلا بعد زمن طويل، وفضل العرب سُكنىٰ المدن حيث يمكنهم أن يتجمعوا قبائل قبائل فلا يستطيع الإسبان أن يهجموا عليهم هجومًا فرديًا، ولكن روحَ التنافس المشؤوم فرقت بينهم، بعد زمن، تفريقًا أساسيًا فأعدت، علىٰ وجه غير محسوس، انتصار إسبانية النصرانية، واستقرت كتيبة دمشق بقرطبة، وكتيبة حِمص بأشبلية ونيبلة، وكتيبة قِنِّسْرِين بجَيَّان، وكتيبةُ فلسطين بشَذونه والجزيرة الخضراء، وكتيبة فارس بِشَرِيش وَبُلاي، وكتيبة اليمن بطليطلة، وكتيبة العراق بغرناطة، وكتيبة مصر بمرسية وأشبونة إلخ، ثم اقتسم عشرةُ آلاف فارس من الحجاز أخصب سهول الداخل، ولم يبدُ عبدُ العزيز بنُ موسىٰ مُسلمًا متعصبًا قط، فألف ديوانًا ليجعل أحكام القرآن ملائمة لإسبانية وَيسهل انصهار الشعبين، وحثَّ عبد العزيز علىٰ تزاوج ذينك الشعبين المختلفين دينًا خلافًا لتعاليم النبي، فتزوج بأرملة رذريق[1]، ويُلقَّب أهلُ طُليطلة بالمستعربين، ولا يتذمرون من رفع أشبيلية ثم قرطبة (٧٢٠) إلىٰ مرتبة العواصم.

جاء الغُزاةُ الفاتحون إلىٰ إسبانية من مصر والشام وفارس التي هي بلادٌ

---

(١) لم تحرم الشريعة الإسلامية علىٰ المسلمين أن يتزوجوا بالكتابيات، فكان زواج عبد العزيز بأرملة رذريق موافقًا لأحكام الإسلام. (المترجم)

زراعية، وكانوا كاليهود، واليهود يتبعونهم حيثما حَلوا، ذوي مواهب تجارية، وكانوا ذوي ميول إلىٰ الصناعة وفق شريعة النبي التي تأمر بالعمل، وأبصروا ضرورة تحويل ما تنتجه أراضي الأندلس الخصيبة من المحاصيل وإشباع شهوة النفائس لدىٰ الشرقيين فأدخلوا إلىٰ إسبانية أساليب زراعية قائمة علىٰ الترصد والتجربة وأحيوا مواتها وعمروا مُدنها الخالية وزينوا جِيدها بأفخم المباني ووصلوا المباني بينها بمختلف العلائق التجارية، فغدت إسبانية التي استثمرت وحرر فدادوها أكثر بقاع أوربة سكانًا وعمرانًا.

ولم تلبث الانقسامات الداخلية أن أقلقت راحة إسبانية الإسلامية وأن أسفرت عن شرٍ سيؤدي إلىٰ سقوطها ذات يوم لا ريب، فقد أفاق ما كان راقدًا حينًا من الزمن بين العرب والمغاربة من الأحقاد بفضل وحدة الدين والمصالح فنجم عما بينهما من التحاسد عدة مصادمات دامية زادها ما أمر به القرآن من مقابلة العدوان بالعدوان وما فُطروا عليه من روح الانتقام، فإذا ما أهين رجلٌ هبت قبيلته للانتقام له، وإذا ما أَرسل الوالي كتائب من آسية لتأديب تلك القبيلة لبىٰ المغاربة نداء تلك القبيلة فنسي العربُ ما بينهم من شقاق فأوشك الصراع أن يكون عامًا، وما أكثر ما كان السوريون، الذين هاجروا إلىٰ إسبانية، يستولون علىٰ مدينة بقوة السلاح عندما لا يعطون مستعمرة تناسب مزاعمهم، ومما وقع سنة ٧٤٢ أن نزلت عصابة من هؤلاء الغرباء إلىٰ إسبانية فخربت الأندلس بعد أن حاربت عُصاة البربر بإفريقية لحساب نائب الخليفة، وقد انتصرت هذه العصابة علىٰ الأمير الذي قاومها، فنشرت في إسبانية فوضىٰ كريهة لم تنته إلا بعد ثلاث سنوات عند وصول نائب الخليفة (٧٤٢-٧٤٦).

ولم يكن هناك سوىٰ وسيلة واحدة لوقف تلك الاضطرابات، وهي إعلان الجهاد وتوجيه نشاط الفاتحين الجدد إلىٰ الخارج، وقد نجح خلفاء عبد العزيز بن موسىٰ الأولون في ذلك، وبذلك نُفسر حالَ السلم التي تمتعت بها إسبانية في السنوات الخمس عشرة الأولىٰ التي حلت بعد قتل هذا الزعيم الشهير.

أشرف موسىٰ بن نصير من ذروة جبال البرانس علىٰ أوروبة، فاستعد لقهر الأمم القاطنة فيما بين بلاد الغول الأربونية والبسفور، فوقفت نكبته تقدم الإسلام

في الغرب وأوهنت سياسة بلاط دمشق الفاسدة العرب فلم يجدوا في أنفسهم من الحمية ما يجعل قهرهم متعذرًا، ورأىٰ العرب في بلاد الغول شعبًا مخلصًا لإيمانه أيضًا، قادرًا علىٰ الانضواء إلىٰ لواء الجندية في عُقر داره واثقًا بقواه لما ناله من الانتصارات الحديثة.

كان الفرنج الأُسْتَرازيون قد أخضعوا الغاليين الرومان الذين يتألف منهم عنصر الأهالي النُّستريين الأساسي، وذلك عقب معركة تيستري في سنة ٦٨٧م، وكان من نتائج استدعاء موسىٰ بن نصير أن صار لدىٰ أولئك الفرنج من الوقت ما يتعارفون فيه وما يقاومون فيه سيل الغزو العربي بسدٍ منيع.

وكان العربُ قد استولوا، بغير مقاومة تقريبًا، علىٰ قسم من جنوب بلاد الغول تابع لمملكة القوط، واستولىٰ الأمير السمحُ بن مالك، منذ سنة ٧١٩، علىٰ سبتمانية وبدا موقعُ أربونة العجيب نقطة ارتكاز هائلة، فاتخذ مستعمرة إسلامية وأضحىٰ مركزًا مهمًا للأعمال الحربية، واستولىٰ خَلَفُ السمحِ عنبسةُ بن سحيم الكلبي، علىٰ قرقشونة ونيمَ، وتقدم حتىٰ بورغونية فانتهب مدينة أوتون (٧٢٥)، بيد أن أكيتانية دافعت دفاعًا مجيدًا.

كان أمير أكيتانية الدوكُ أوديسُ، الذي هو من سلالة كلوفيس، قد جمع عددًا غير قليل من مقاتلي الفرنج فاستعد بذلك للنزال، فلما ظهر العرب أمام عاصمته طَلُّوشة، في سنة ٧٢١، أصابهم بهزيمة شديدة، فاكتفوا، مضطرين، بأخذ جزية من المدن الثانوية، فحولوا مجرة غاراتهم إلىٰ اتجاه آخر فتقدموا بلا عائق علىٰ ضفاف الرون والسون، ففتحوا بونة ونهبوها، وافتدت سنس نفسها بالجزية وأضحت البيجوا ورُويرغ وجِيفُودان وفيلاي عُرضة للغارات أيضًا.

وجب وصفُ تلك الغارات بأسود الأوصاف إذا ما صُدقت الروايات، واليوم لا يزال قومنا يعزون إلىٰ الشرقيين، وهذا ما كان الغربيون يسمون به العرب، جميع التخريبات التي ترىٰ آثارها في الولايات التي جابوها، والعربُ كانوا يظهرون معتدلين عند النصر مع ذلك، فلم يحاربوا بمثل ما كان يحارب به الهونُ والنورمان من الاندفاع والهمجية، أفلم تكن تلك التهم نتيجة ما كان العربُ يؤثرون به في خيال القوم؟ كانت وجوه العرب السمر ونظراتهم الحادةُ وسرعة

انقضاض خيولهم وغرابة أزيائهم وأقاصيص الجنود الهاربين المملوءة بالمبالغات تطير منها النفوس جزعًا، وكان العرب قد أتوا بلسانٍ غير معروف، وكان العربُ قد أتوا حاملين حديدًا ودينًا جديدًا إلىٰ أناس مؤمنين بتعاليم أساقفتهم، فما كان غيرُ الحقد علىٰ أعداء إله النصارىٰ ليصدر عن هؤلاء الأساقفة.

باغتَ العربُ أفينون في سنة ٧٣٠، ولم يقوموا حتىٰ ذلك التاريخ بغير المغازي العابرة، ثم عزم الأمير عبد الرحمن الغافقي علىٰ فتح بلاد الغول بأسرها، وكان عبدُ الرحمن الغافقي مشهورًا بشجاعته فأقام دليلًا ساطعًا عليها حينما أحبط جهود أمير أكيتانية بعد هزيمة طَلوشة، فانضوت إلىٰ لوائه عدة كتائب من المتطوعين، فبدأ عبدُ الرحمن بمهاجمة حاكم تراكونيز مُنوزا الذي كان طامعًا في الاستقلال فتزوج بابنة أمير أكيتانية الأميرة لنباجيه، فحاصره عبد الرحمن في بِويسِرْدا فأكرهه علىٰ قتل نفسه، ثم استولىٰ عبد الرحمن، وهو علىٰ رأس جيش لجب، علىٰ أكيتانية، ولم يقدر الأمير أوديس، الذي هُزم علىٰ ضفاف نهر الغارون، أن يدافع عن مدينة بوردو فدخلها عبد الرحمن عنوة، وكتب الفوز لعبد الرحمن علىٰ نهر دردونية، فتوجه بعد هذا النصر وما تقدمه إلىٰ تورَ قاصدًا الاستيلاء علىٰ دير سان مارتن الذي امتدحت كنوزه، وكان شارلُ بنُ بِيبِن الأريستالي ملك بلاد الغول الحقيقي، فعقد نيته علىٰ إنقاذ النصرانية المهددة فدعا أتباعه إلىٰ حمل السلاح فطلب جميع الفرنج أن يتجندوا للاشتراك في تلك الحرب القومية.

غادر عبد الرحمن الغافقي ضفاف نهر اللوار، وانتظر عَدوه بين تور وبواتية حيث يقرر مصير الغرب، وأمل العرب أن تدور هنالك معركة كالتي دارت في شريش فخاب رجاؤهم، فما كان الفرنج الأسترازيون ليشابهوا القوط المُنحلين، فلم يلبسوا ثيابًا مُذهبة، بل برزوا في الصراع مُدرعين، وما كنت ترىٰ بينهم عبدًا يحارب في سبيل سادته الممقوتين، بل كانوا إخوانًا أبطالًا مُلتفين حول رئيس يعدهم أقرانًا له، ولم يقع في الأيام الستة الأولىٰ غير ملاحم كان النصر فيها للمسلمين، فلما حل اليوم السابع كانت المعركة شاملة دامية عظيمة، ففي هذه المعركة أرهقت قوة الجرمان وقَوْمَتُهم العرب فَمنوا بالهزيمة لما كان من صولة

شارل الذي لقب، إذ ذاك، بمارتل وما كان من قتل عبد الرحمن، ولما حَلَّ الليل أدىٰ اليأس والفوضىٰ إلىٰ فتك بعض القبائل اليمانية والشامية والإفريقية والأندلسية ببعض، فتفرقت بقية الجيش العربي أيدي سبا، وأسرع أمير أكيتانية في قطع شعاب الجبال دون الهاربين، فعلم العربُ ما في ذلك من خطر، فسلكوا طريق سبتمانية بدلًا من أن يتوجهوا إلىٰ أكيتانية، فوجدوا الملجأ الأمين في حصون أربونة وقرقشونة (٧٣٢).

وبعد بضع سنواتٍ (٧٣٥-٧٣٩) قام عمالُ الأمير عبد الملك بن قطن الفهري بعدة غارات علىٰ البروفنس حيث دعاهم الأمراء الساخطون، فاستردَّ شارل مارتل وأخوه شيلدبراندُ أفِينْيُون وهزما المسلمين في بِرة، ولكنهما لم يستطيعا الاستيلاء علىٰ أربونة، وهما، لكي يُحولا دون استقرار العرب بشمال أُودِه هَدما نيم وأَغده وبيزْيَر وحَولا تلك المنطقة إلىٰ صحراء وَسلمَ حاكمُ مرسيلية مورونتُ البروفنسَ في سنة ٧٣٧ إلىٰ العرب الذين حاصروا مدينة آرل ففتحوها، واتفق شارلُ هو وملك اللومبار الذي كان الخطر يحيق به في ساحل ليغورية، فأكرها العدوَّ علىٰ الارتداد سنة ٧٣٩، ثم غَسل العربُ، بحملتهم الموفقة علىٰ صقلية، العار الذي أصابهم في تلك الهزائم المتوالية التي حالف الحظ بها الفرنج الكارولنجيين فَتم لهم السلطان.

أوصد نصر الفرنج في بواتية أبواب أوروبة دون العرب من الغرب، وكان يمكن العرب أن يُوغلوا في أوربة من طريق القسطنطينية مع ذلك، ومما حدث في سنة ٦٧٢ أن حاصروا عاصمة الروم فلم يوفقوا، ومما حدث أن هاجموها مرة أخرىٰ في عهد سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧١٩) فقوضت النارُ اليونانية أسطولهم، وهذا وقع بفضل ليون الثالث الإيزوري الذي أبدىٰ، بعد جلوسه علىٰ العرش في تلك الحال، شجاعة ممتازة فأدار بنفسه الحراقات فقضىٰ علىٰ قسمٍ من سفن العدو فأكره القسم الآخر علىٰ الارتداد، وكانت كتائب العرب التي نزلت إلىٰ البرِّ قد استولت علىٰ هَضبة أبيدوس وفتحت جميع المدن الوقعة علىٰ شواطئ بحر مرمرة حتىٰ القسطنطينية فأسفرت مقاومة ليون الثالث وبردُ الشتاء القارس والمجاعة والطاعون علىٰ حبوط جهودهم.

ولم يكن نجاح العرب في البر أفضل من ذلك، وإن كان جوستينيان الثاني فاسد السياسة فأكره النصارىٰ المردائية علىٰ النزول من جبل لبنان وجبل طورس، وكان عبدُ الملك بنُ مروان قد نال نجاحًا في كليكية، وكانت المعركة التي دارت بالقرب من جزيرة إيلوز وبِيلة علىٰ الروم لما كان من خيانة فرقة إسكلافون المرتزقة، واتصفت الوقائع في عهد أبسيمار تيبر بما لا مثيل له من الهمجية، وملأ هرقل أخو القيصر، سورية بالدماء والدمار، وقتل سكان أرمينية الصغرىٰ حاميات المسلمين المنتشرة في بلادهم فدفعوا ضريبة الدم من فورهم، فقد انقض عليهم جيشٌ عربيٌ فصار يذبح من يجده في طريقه منهم وحرق سُراتهم أحياء، وغَدت كليكية في سنة ٧٠٣ مسرحًا لوقائع جديدةٍ فأنقذ قادةُ الروم قياصرة آل هرقل من الأخطار التي كانت تُهددهم.

وَخلع جوستينيانُ الثاني في سنة ٦٩٥، فلما عاد إلىٰ العرش بعد عشر سنين لم يفكر في غير الانتقام الذي لا يشفىٰ له غليل، واشتهر مسلمةُ، أخو الوليد الأول، بغاراتِه علىٰ آسية الصغرىٰ فاستولىٰ علىٰ تيانةَ عاصمةِ كبدوكية، وبلغ العرب من الاستخفاف بالقيصر ما استطاع ثلاثون منهم أن يُوغِلُوا به حتىٰ كريزوبوليس المقابلة للقسطنطينية وأن يَحْرُقُوا جميع السفن المتجمعةِ في الميناء وأن يعودوا من غير أن يَهْلِكَ أحدٌ منهم، وأغار مسلمةُ بن عبد الملك علىٰ البنطِ وليكاوني في عهد فيليبيك باردان، فاستولىٰ علىٰ أنطاكية البسيدية (أَقْ شَهِر)، وكُتِبَ له الفَخارُ في عِدَّةِ معارك من غير أن ينال نتائجَ ذاتَ بالٍ، وحَصَّنَ العربُ، سادةُ بعض أرمينية مضايقَ دربندَ لِصَدِّ الأتراكِ الخَزَرِ الذين كانت تمتد غاراتُهم إلىٰ الموصل في بعض الأحيان، وحاصر العرب بالتتابع عمورية (سُورِىٰ حِصَار) وبرغام ونيقة (إِزْنِيق) من أعمال بيتينية وتقدموا إلىٰ شواطئ بحر مَرْمَرة والبسفور ثم عَدَلوا عن الحركات التي تتطلب وَحْدَةَ عمل وتَجَمُّعَ قُواتٍ عظيمةٍ، فللروم إذن فخر الدفاع عن أوربة من ناحية الشرق علىٰ الأقل، لِمَا قاموا به من الذبِّ عن أسوار عاصمتهم وعن حصون آسية الصغرىٰ.

وكان تقدمُ الإسلام في آسية الوسطىٰ أعظمَ من ذلك، فقد عَبَرَ العربُ نهرَ السِّنْدِ ونهرَ أكسوس (جيحون)، ولم يَقِفُوا إلا عند حدود الصين، ودنا العرب من

بُخَارَىٰ وسمرقند بعد فتح ترْمِذَ، ولكن من غير أن يستولوا عليهما، ثم سار إلىٰ الترك قُتَيبَةُ بن مسلم، الذي هو من أقدر قوَّادِ العرب والذي كان مرتبطًا رأسًا في قيادة الحجاج الذي عَهِدَ إليه عبد الملك في إدارة جميع الولايات الواقعة شرق الفرات، فهزمهم قُتَيْبَةُ شرَّ هزيمةٍ فاستولىٰ علىٰ خُوارزم وما وراء النهر حيث كان سلمُ بنُ زياد والمُهَلَّبُ بن أبي صفرة قد قاما بغاراتٍ عابرة، فدان للخلفاء معظم البلاد المعروفة في خرائطنا ببلاد التتر المستقلة، ولم يكتف قُتيْبَة بحرق أصنام فرغانةَ ونَخْشَبْ (نَسَف) وبَيْكَنْد وبُخارىٰ وسمرقند (٧١٢) بل استولىٰ علىٰ كشغرَ وأَكسو وجركنَ وخوتنَ أيضًا، ثم أرسل قُتيبة اثني عشر سفيرًا إلىٰ عاهل الصين لِيُهَدِّدُوه، فأبعدَ هذا العاهلُ الشرَّ عنه بذهبٍ أشبع به طمعَ الغُزَاةِ.

واكتفىٰ العربُ بفرض جزيةٍ علىٰ مَلِكِ كابُلَ الواقعة شرق سجستان، وَوَجَّهَ العرب الفاتحون جهودَهم إلىٰ وادي السِّندِ حيث يملكُ أمراء أقوياء، وخَرَجَ أسطولٌ عربيٌّ إلىٰ منبع هذا النهر علىٰ حين كان يجوب مُكْرَانَ جيشٌ عربيٌّ فينتشر في سهول كشميرَ، وكانت تقوم علىٰ ضِفافِ هذا النهر مدنٌ فخمةٌ غنية، فحاول كثيرٌ منها أن يقاوم علىٰ غير جَدْوَىٰ، فاضطُرَّتْ إلىٰ الاعتراف بسلطان الخلفاء وانتحالِ لغةٍ جديدةٍ والسماح للإسلام بالانتشار فَحَلَّ هذا الدين محل البُدَّهِيَّةِ بالتدريج.

بدأ غزوُ العربِ لأممِ الهند منذ مائة سنة فقد خَرَجَ في سنة ٦٣٧ أسطولٌ من عُمَانَ إلىٰ جزيرة طناحَ غيرِ البعيدةِ من مدينة بمبي الحاضرة، وخرجَ أسطولٌ آخرُ من البحرين فهجم علىٰ مدينة بارودَ الواقعةِ علىٰ خليج كَمْبَايَة (كَهَم بَهَات)، وخرج أسطولٌ ثالثٌ إلىٰ مصبِّ نهر السِّند، وغزا عبدُ الله بنُ عُمَير كرمانَ وسجستانَ سنة ٦٤٣ فقهر الحليفين مرزبانَ الفرس ومَلِكَ السِّنْدِ، وهجم عبد الرحمن بنُ سمرة علىٰ ولاية الدَّوَار وحَطَّمَ الصنم زور واستولىٰ علىٰ مدينة بُوسْطَ.

وكانت مملكةُ كَابُلَ ومملكةُ السِّنْدِ تقعان علىٰ حدود دولة العرب، فحمل المُهَلَّبُ بن أبي صفرةَ مَلِكَ كابُلَ علىٰ إعطاء الجزية في سنة ٦٦٤، وخُرِّبَتْ قُصْدَارُ القريبة من خِلاط (كيلات) وقندبيل فاقترب المسلمون من وادي السِّنْدِ

بالتدريج، وكان من نتائج الفتن التي اشتعلت في عهد أوائل الخلفاء من بني أمية أن استردَّ بعضُ أمراء الهند استقلالهم، فدخل عبد الرحمن بن سمرة كابُلَ منصورًا حتىٰ في خلافة معاوية، وأوجب عبدُ الله بنُ عُمَيْر احترامَ رايةِ النبيِّ إلىٰ أبعد حدٍّ (٦٨٣)، ثم حَلَّتْ سنة ٧٠٧ فأمر الحجاجُ محمد بن قاسم بالزحف إلىٰ ضِفافِ السِّنْدِ، فهجم محمدُ بنُ قاسم علىٰ الملك ذَاهِرَ فهزمه فاستولىٰ علىٰ المدن: الدَّيْبُل وبيرون وبهمن آباد وألور وملتان التي أضحت سِياجَ الإسلام، ثم دنا محمدُ بنُ قاسم من جبال هِمَالْيَة واستعدَّ لغزو دولةِ قنوجَ المنحلةِ، فكاد يُغيرُ عليها لو لم يذهب إلىٰ ناحية الفرات بسبب وفاة الحجاجِ، فَكَفَّرَ، من فَوْرِه بأن قُتِلَ في العذاب جزاءَ ما ناله من النفوذ بين الأهالي بسبب حسن سياسته وسموِّ دهائه.

وبلغ المسلمون ضِفَافَ الغَنْجِ ذاتَ حينٍ، بَيْدَ أنهم لم يحافظوا علىٰ تلك البِقَاعِ التي جابوها فقط.

هنا تَقِفُ فتوحُ العرب، فقد فَتَرتْ في خلفاء محمدٍ روحُ الدعوة إلىٰ الإسلام بعد أن اقتحموا بها جميعَ الموانع في ستين سنة، وبدا الخلفاءُ يَخْشَوْن حتىٰ التوسع، ظانين أن الفتوحَ الجديدةَ مع ظهور الفِرَقِ تُثِيرُ طمعَ من ينظرون إليهم بعين الغَيْرَةِ من القادة.

وما أصاب موسىٰ بنَ نُصَيْر من زوال الحُظْوَةِ، وهو علىٰ ضِفَافِ نهر تَاجُه، أصابَ مثلهُ علىٰ بعدٍ ثلاثة آلاف فرسخٍ قُتَيْبَةَ بنَ مسلم الذي ضَمَّ إلىٰ دولة الخلفاء ولايَاتٍ واسعةً، ومحمد بن قاسمٍ الذي حَمَلَ الهندوسَ علىٰ قبول سلطان الإسلام بسياسته الرشيدة، أَجَلْ، إننا لا نستطيع أن نُبْصِرَ ماذا كان يصنعه هؤلاء الرجال الثلاثة علىٰ رأس جيوشٍ ظافرةٍ مملوءةٍ حماسةً لو أن سليمانَ بنَ عبد الملك لم يَصُبَّ جامَ غضبه علىٰ القادة الذين اختارهم الوزيرُ المحَنَّكُ الحجاجُ انتقامًا من عدوه الأزرق الحجاج هذا، ولكننا نرىٰ أن أبناء عبد الملك بن مروان بلغوا أَوْجَ سطوتهم، فلم يَبْقَ لهم سوىٰ السقوط بعد أن عَطِلُوا من اليد القوية الحازمة التي تُصَانُ بها وَحْدَةُ أقطارهم الواسعة، وما كانوا لِيتَحَلوْا بمثل ما كان يشعرُ به أصحابُ النبيِّ من روح القوة، بل ساورتهم الوساوسُ الجائرة حول أنصارهم فأوقدوا بذلك نارَ الثورة.

الباب الرابع

عظمة العرب
وانحطاطهم في الشرق
(٧٤٢-١٢٥٢ و١٥٣٨م) - (١٢٥-٦٥٦ و٩٤٥هـ)

الفصل الأول

بنو العباس

بلغت الدولةُ العربية في سنة ٧٤٣ أقصىٰ حدودها، وَرَسَمَ خلفاء محمد الدائرة علىٰ وجهٍ لن يُشعرَ معه بعملهم في خارجها، وسيبدأ تَصَدُّعُ هذه الدولة بعد هذا الدور.

غَزا العربُ ثلاثَ قارَّاتٍ غزوًا متتابعًا، فملكوا في أوربة جميع شِبْهِ جزيرة إسبانية، خلا بعض فجاجٍ في أشتورش (بلاد الصخر) حيث أبدىٰ أصحابُ بِلايَ مقاومةً عنيفةً، كما ملكوا جُزُرَ البحر المتوسط وقبرسَ وأَقْرِيطِش ورُودُس.

وملك العربُ شمالَ إفريقية فدانت لهم البلاد الواقعة بين جبل طارق وبرزخ السويس، وقَسَّمَ العربُ شمال إفريقية إلىٰ حكومتين: فالأولىٰ هي حكومةُ المغرب المشتملةُ علىٰ ولايات الروم القديمة وهي: بيزاسينُ وإفريقيةُ القنصلية ونوميدية وموريتانية القيصرية وموريتانيةُ الستيفيةُ وموريتانيةُ الطنجيَّةُ، والثانيةُ هي حكومة مصر وبرقَة التي يأخذ واليها ما فَرَضَه عمرو بن العاص علىٰ شعوب النوبة من الجزية.

وَدَانَ مُعظَمُ آسية للخلفاء، فخضعت لهم البلدان الواقعة بين صحارَىٰ سيناء وسهوب التركسان، وبين وادي كشميرَ وسفوحِ جبالِ طورسَ، وإذا كانت آسيةُ الصغرىٰ قد تَفَلَّتَتْ من دساتيرهم فإن الولايات المتاخمة لهم (كليكية وكبدوكية والبُنْط) صارت تُعطيهم الجزية، ولم يتخلص أيُّ قسمٍ من الدولة الفارسية من سلطانهم، وما عَجَز عنه ملوك بني ساسان أَتَمُّوه بسرعة لا مثيل لها، ففتح قُوَّادُهم، خَلْفَ جيحونَ والسِّنْدِ بُخَارَىٰ والصُّغْدَ فجعلوا منها ولايةَ بلاد ما وراء

النهر، وأَقَرَّتْ خُوارِزْمُ بسلطانهم من ناحيةِ بحر قزوين، وأعطاهم ملكُ كَابُل الجزيةَ، ثم طلبوا الجزية ببأسٍ من أعظم أمراء وادي السِّنْد.

وكانت دمشق في سنة ٧٤٣ عاصمةً لتلك الإمبرطورية الواسعة، التي هي أعظم من إمبراطورية الإسكندر والتي تَعْدِلُ إمبراطورية الرومان تقريبًا، فَزُيِّنَتْ بأفخم المباني، فأُقِيم فيها أيام الوليد بن عبد الملك ذلك المسجد الأشهر الذي كان من عجائب الدنيا فهدمه تيمورلنكُ بعد سبعة قرون، وما كانت دمشق لترتقي من مرتبة عاصمة لسورية إلىٰ عاصمة إمبراطورية إلا بفضل الثورة التي اشتعلت في ذلك الحين، والثورة هي التي ستؤدي إلىٰ نزولها عن درجتها وقيامِ مدينةٍ أخرىٰ مقامها عاصمةً للدولة.

وقد رأينا انتصار السوريين لبني أمية منذ البداءة، فقابلهم بنو أمية بالشكر فأقاموا، عن حسن سياسةٍ عاصمتهم بين أهلٍ أوفياء مستعدين للدفاع عنهم بقوة السلاح.

وما كان إشراف سورية ليُقبل من غير تذمر، فأبدت مكة والمدينة معارضتهما العنيفة في غير حال، ورفعت عَقِيرَتَها العراق، التي كانت الأُسر العربية الخارجة من جزيرة العرب قد عَمَرَتْهَا أكثر مما عَمَرَتْ أي قطرٍ آخر، قائلة إن بني أمية اغتصبوا السيادة، وبَدَتْ البصرة والكوفة اللتان أصبحتا مدينتين مهمتين ميدانًا للفتن الدامية عدة مرات، وأبدىٰ سكانُ آسية الشرقية استعدادهم لتبنِّي قضية سلالة عليٍّ، ولكن التَّعَسَ والخيانة أَلَمَّا بالعلويين فأطفئت جهودهم ببحر من الدماء.

ومن الإنصاف أن يقال إن العلويين مسؤولون عما أصابهم من حبوط إلىٰ أبعد حدٍّ، فقد انقسم آلُ علي إلىٰ عدةٍ فروعٍ، فادعىٰ كل فرع منهم بالخلافة أو الإمامة لأحد أبنائه، فكان ادعاءُ كل فرع باطلًا عند الفروع الأخرىٰ، فإذا ما تَقَلَّد علويٌّ سلاحًا عاضده أدنىٰ أقربائه وقومٌ من المسلمين يرون أن كل رجلٍ من ذرية محمدٍ جديرٌ بالعرش، ولكنك ما كنت ترىٰ أن جميع آلِ عليٍّ كانوا يقومون قومة رجلٍ واحدٍ للذَّبِّ عن حقوق المطالب بالعرش مثيرين من أجله الأنصار الكثيرين في أنحاء بلاد المسلمين، فلذلك كان ذلك المطالبُ لا ينال غيرَ نصر جزئي، فيزول أثرهُ الباهرُ تِجاه القوىٰ الفائقة.

ومن النادر أن كان بنو عليٍّ يمثلون الدور العالي الذي يُدْعَوْن إليه، فمع أنك لا تجد بين المطالبين منهم بالخلافة في مختلف الأدوار من لم يَمْتَزْ بمزاياه الخلقية، وبشجاعته الشخصية في بعض المرات لا ترىٰ منهم من اتَّصَفَ بخُلق الحذر والنشاط والعزم الذي يُهيمن به علىٰ الحوادث، وهم لم يصنعوا غير تأجيل النكبة الهائلة التي تقضي علىٰ الجهود التي يُساءُ تدبيرها فتوجه بفسادٍ لا برشادٍ.

وكان بنو العباس أكثر دهاءً وأوفرَ حظًا، فقد أعدُّوا عظمتهم القادمة في أقاصي البلاد، وهم لكي يصبُغُوا مزاعمهم، التي أملاها الحرص بطلاءٍ من الحق، افترضوا أن حفيدَ عليٍّ أبا هاشم عبد الله قد سُمَّ بأمر الخليفة سليمان بن عبد الملك، بعد أن تَنَزَّلَ لهم عن منصب الإمامة، ولم يكن أبو هاشم من ذرية فاطمة بنت النبي، وكان أبوه محمد المُكنَّىٰ بابن الحنفية، لأن أمه من بني حنيفة، قد نال احترام الجميع بفضائله، وهو لم يَسْطِعْ مع ذلك أن ينازع ابن الحسين الذي هو من ذرية محمد مرتبة الإمام فقامت ألقابُ الذين وَدُّوا لذلك علىٰ القوة والمكايد وكان من جُرأَتِهم أن حملوا أكثر ذرية عليٍّ، بني العباس هلاكَ بني أمية قبل كل شيء علىٰ التعصب لهم فاستعدت العراق لامتشاق الحُسام.

وما كان بنو أمية ليجهلوا الخطر المحيط بهم، وحدث أن أبطلوا عادةَ سبِّ علي، حتىٰ إن عمر بن عبد العزيز التَّقِيَّ فكَّرَ في الإيصاء بالخلافة لرجلٍ من آل عليٍّ، فأَدىٰ ذلك إلىٰ هلاكه، وما انفكَّ الانقسامُ يَفُتُّ في عضُدِ بيت الخلافة بعد وفاته (٧٢٠) ولم يُؤدِّ قتلُ زيد بن علي بن الحسين، الذي نازع هشامَ بنَ عبد الملك الصَّوْلَجَان سنة ٧٤٠، إلىٰ غير ظهور حزب بني العباس أكثر من قبل.

وجلس علىٰ كرسي الخلافة بعد هشام الوليد بن يزيد بن عبد الملك فأثبت بطبائعه وعاداته أنه غيرُ أهلٍ لزعامة الدين والدولة، فأنكرت دمشقُ سلطانه منادبةً بيزيد بن عبد الملك خليفةً (٧٤٣) فحاول الوليد أن يدخل دمشق فلم يَسْطِعْ، فغُلِبَ في إحدىٰ المعارك حيث قُتِلَ تاركًا لغيره أمرَ مجازاةِ قريبه ومجازاةِ تلك المدينة العاصية، فذهب أتباعه إلىٰ حِمْصَ حيث جربوا حظهم مرة ثانية فلم يفلحوا، كما أن النجاح لم يُكتب لقريبٍ آخر ليزيدَ أثار فلسطين.

وأبصر والي الجزيرة مروان بن محمد بن مروان المشهود له بالبراعة والفضل أن سلطان يزيدَ غير قائم علىٰ أساس متين في زمن يجب أن يقبض فيه علىٰ زمام الدولة رجلٌ نشيطٌ حازمٌ فتشَوَّف إلىٰ السلطة العليا، فوجد السَّنَد في أهل الجزيرة الذين استطاع أن يُحبِّبَ نفسه إليهم فسار إلىٰ دمشق فأخذ بيعة المدن الواقعة علىٰ طريقه كمدينة حِمْصَ التي خضعت لسلاح يزيد علىٰ كُرهٍ، فلما وصل إلىٰ دمشق لم يجد فيها سوىٰ خصومٍ مرتبكين، فمات يزيدُ سنة ٧٤٤، فذهبت جهود أخٍ له في مواصلة النضال أدراجَ الرياح، فظلَّ مروانُ خليفةً في سنة ٧٤٦.

وما كان بنو العباس لِيَظلُّوا صامتين تجاه تلك الانقسامات التي تُحوِّلُ الولاةَ عن شؤون الإدارة، فقد اغتنموا الفرصة فحاكُوا مؤامرة هائلة فجمعوا حولهم جميع الساخطين من كل حزبٍ، وجاب عيونٌ ماهرون لهم بلاد خُرَاسان، فرفعت هذه الولاية راية العصيان مناديةً بخلافة محمدٍ ثم بابنه إبراهيم من حَفَدَةِ العباس، وكانت هذه الثورة من صنع الطاغية أبي مُسْلِم الخراسانيِّ الذي نهض من أوضع حال إلىٰ أعلىٰ الرُّتب فوُلِّيَ أمر خراسان، فنصب فوق قصره بَمرْوَ الراية السوداء التي هي شعارُ بني العباس (٧٥٠)، مُقصيًا الراية البيضاء التي هي شعارُ بني أمية، فبدأت الحرب الأهلية بذلك.

انتهىٰ خبرُ تلك الحوادث إلىٰ مروان، فلم يَخْشَ إبراهيم بن محمدٍ الذي تظاهر بالعزلة، فأمر بقتل إبراهيم هذا طامعًا في إرهاب أعدائه، فلم يكن هذا القتلُ من الحكمة السياسية، فلم يَكَدْ أبو العباس يَعْلَمُ خبر ذلك القتل الجائر حتىٰ خَفَّ إلىٰ مَرْوَ مناديًا بنفسه خليفةً فبُايَع.

ويذهب أبو العباس من دار الحكومة إلىٰ المسجد في مَوْكِبٍ عظيم وَيَخْطُبُ في الناس، ويتقدم أنصارهَ ويستعدُّ لتتويج غَضْبِه بالنصر، ويقدُمُ مروان إلىٰ خراسان علىٰ رأس جيشٍ كبير، ويفوق خصمه عددًا وفنًّا، ويتقاتل الفريقان علىٰ نهر الزاب.

ويؤدِّي حادثٌ مفاجئٌ إلىٰ هلاك بني أمية، فقد نزل مروان عن جَوادِه حين لاح له النصر، فجَفَلَ هذا الجوادُ فخاض بين المحاربين فظَنَّ هؤلاء أن الخليفة قد قتِلَ، فاختلط حابلُ السوريين بنابلهم فولَّىٰ مروان وجنوده الأدبار، فتعقبه قاهرهُ

الأميرُ عبد الله بن عليٍّ العباسي فجاوز مروان الجزيرة وفلسطين، علىٰ عجلٍ ظانًا أنه يكون في حِرْزٍ علىٰ حدود مصر فأُدرِكَ فقُتِلَ في كنيسةٍ قبطيةٍ فحمل قاتلوه رأسه إلىٰ الكوفة فعُرِضَ رأسُه علىٰ أنظار الناس بحسب عادات الشرق فعُلِمَ بذلك سقوط بني أمية نهائيًا (٧٥٢).

ولم يلبث الذين تَخَلَّوْا عن مروان فلم يعرفوا كيف يناضلون عن قضيته أن كَفَّرُوا عما اقترفوا، فقد عقد أبو العباس نِيَّتَه علىٰ البطش انتقامًا لأخيه وَلِمَا قاساه آلهُ من المصائب في الماضي، فجاوز أقصىٰ ما يُسَوِّغُه الحقد من الحدود، فقُتِلَ بنو أمية وأتباعهم بالألوف.

وذهب في دمشق تسعون من أمراء بني أمية ضحية سذاجتهم، وذلك بأن دُعُوا إلىٰ وليمة صلح، فاصطفَّ جنود خلفهم فطرقوا رؤوسهم بالدبابيس عند أول إشارة فصرعُوهم، ثم وضعت علىٰ هؤلاء القتلة والمحتضرين ألواحٌ فغُطِّيَتْ هذه الألواح بالبُسُطِ الثمينة فدُعِيَ جميع قادة الجيش إلىٰ الطعام عليها.

فالحق أن أبا العباس، الذي استحق لقب السفاح، قد أراد استئصال بني أمية، ولكن أحدهم نجا من القتل الشامل، فذهب إلىٰ المغرب حاملًا إلىٰ العرب هنالك نبأَ تلك الجرائم الكثيرة.

ويمكن عَدُّ الثورة التي أثارها بنو العباس علىٰ الخلافة كَرَدِّ فعلٍ من آسية الشرقية ضد آسية الغربية، وأهل خراسان والعراق الذين قاموا بها، وأهل خراسان وأهل بغدادَهم الذين انتفعوا بها فعاد الخلفاء لا يقيمون بالشام، وعاد الخلفاء يقيمون بأرضِ بابلَ، فاتخذ أبو العباس الذي دام عهده سنتين (٧٥٢-٧٥٤) مدينة الأنبَارِ مقرًّا له، وبحث أخوه وخليفته أبو جعفر المنصور عن مقرٍ أصلح منها وأروع، فاختار الكوفة في بدء الأمر، بَيْدَ أن ما بدا من ميل أهل الكوفة إلىٰ أبناء فاطمة قد غاظه، ففكَّرَ في شَيْدِ مدينة جديدة تكون مخلصةً له إخلاصًا تامًا، فأسس في سنة ٧٦٢ مدينة بغداد التي حَجَبَتْ شهرتها جميع مدن الشرق بسرعة، أسسها علىٰ ضفاف دجلة بالقرب من سلوقية القديمة حول ربْوَةٍ يشرف من فوقها قصر الخليفة، فأحيطت بسورٍ من الآجُرِّ ذي ثلاثة وستين برجًا للمحافظة عليها من كل غزو خارجي فخصصت أموال عظيمة لتزيينها بضروب الزخارف.

ونظرت بلاد المشرق إلىٰ تبديل العاصمة بعين الرضا، وتوجَّعَت بلاد المغرب وبلاد إسبانية من عزلها وعدِّها من ولايات الدولة الخاضعة للجزية منذ البداءة، فكانت تنتظر سُنُوح الفرصة لتستقل.

أجل، لم يكن شيءٌ أشدَّ شؤمًا علىٰ الإسلام منذ ذلك الانفصال، ولكن مما قضىٰ به سير الأمور أن تمَّ بغير سفك دمٍ كما لو كان نتيجة اتفاق ضمني.

لم تكد إسبانية تعلم ارتقاء بني العباس وسقوط بني أمية حتىٰ انفصلت عن أم الوطن، ثم عَلِمَتْ أن رجلًا من بني أمية وصل إلىٰ المغرب فلم تتردد في اختياره خليفةً (؟!) (٧٥٥)، ولم تُغْرِقْ إفريقية في البُعدِ مثل ذلك، بل أقرت كما يظهر واليها عبد الرحمن بن حبيب علىٰ تردده في الاعتراف بسلطان المنصور، فالواقع أن شعوب إفريقية أدركت منذ زمن طويل أن مصالحها غير مصالح شعوب آسية، وذلك مع عدم رغبتها في الانضمام إلىٰ خلافة قرطبة، فانقسمت إلىٰ زُمَرٍ مختلفةٍ يقوم بشؤون كلٍّ واحدةٍ منها زعماء متفردون، فلم تُعَتِّم الصلاتُ الضعيفة التي كانت تصلها ببني العباس أن زالت تمامًا.

فأما وقد انتهينا إلىٰ ذلك المَفْرَقِ نرىٰ أن نُقَسِّمَ تاريخ العرب إلىٰ قسمين، فنبدأ بدراسة انقلابات خلفاء المشرق والحوادث التي تمت بمصر لما بينها وبين تلك الانقلابات من علائق وثيقة، ثم ندرس في فصل خاص أمورَ عرب إسبانية وإفريقية الحقيقية.

الفصل الثاني
سلطان العباسيين
(٧٥٢ - ٨٤٦م) - (١٣٧ - ٢٣١هـ)

كان دور أوائل العباسيين أسْنَىٰ أدوار العرب في الشرق، فقد انقضىٰ زمن الفتوح، وحلَّ عصرُ الحضارة، ودامت خِلافة أبي العباس سنتين، وَبُدِئَ بخلافة أخيه أبي جعفر المنصور عهدُ أولئك الخلفاء الرفيعي الشأن الذائعىٰ الصِّيت في آسية، وفي أوربة بفضل رواية ألف ليلة وليلة الشهيرة.

وجاهد أبو جعفر مع زعماء بني العباس منذ كان يافعًا فاستحقَّ لقبَ المنصور، ولكنّ فَخَارَه هو في إبداعه نظامَ حكمٍ شاهدٍ بنظره الثاقب، وكان الوُلَاةُ في أقطار دولته الواسعة يتصرفون في أمور الحرب والجِبَاية فيُنْفِقُون بعضَ ما يجمعون من المال علىٰ الشؤون المحلية ولا يرسلون إلىٰ الخلفاء غير الزيادة، ولم يَجْرُؤ المنصور علىٰ تعديلِ هذا الأمر الملائم للرَّعِيةِ، فأكثر من التغيير في نائبي السلطة العليا مُقْصِيًا الأسَرَ ذوات الوجاهة عن تصريف الأمور، وكان أخطر حِكَمه أن يُبعثَ بالعهد فيُهلَك كلُّ رجلٍ يصبح محل شبهةٍ بجاهه، من غير نظرٍ إلىٰ ما قَدَّمَ من خِدَم، كَمُبِيرِ بني أمية عبد الله بن علي وكأبي مُسلم الخُراساني، وكالبرامكة الذين ضُحِّيَ بهم في عهد هارون الرشيد وَفْقَ سياسةٍ قاتمةٍ فاقدةِ الرحمة.

وأفنىٰ المنصورُ قسمًا من حياته في زيادة أمواله، فَرَوَىٰ بعض المؤرخين أنه جمع ٧٥٠ مليون فرنك، ولم يمنعه هذا الجَشَعُ من أن يَبْدُوَ سخيًّا نحو العلماء

والأدباء، حتىٰ إنه جعل من نفسه قُدوَةً في محبة العلوم والآداب، وسنرىٰ ذلك حينما نبحث في تاريخ الفلك عند العرب.

وتَعَوَّدَ الناسُ في ذلك العهد عَدَّ الخليفة ظلَّ الله في الأرض، وكان المنصور يطالب رعاياه بالاحترام الشديد فنال ما أراد، وَشَبَّ الجيلُ الذي كان يحيط بالخلفاء علىٰ الطاعة فما كان لأحدٍ أن يعارض سلطانَ الخلفاء المطلق، والإفراطُ في الاستبداد هو الذي كان عليهم أن يَجْتَنِبُوه.

ولم يوطِّدْ خلفاءُ أبي العباس الأولون، الذين أصيب في المقابلة بينهم وبين آل أنطونيوس وآل ميديسيس في غير ناحيةٍ، سلطتهم العليا إلا بما بذلوه من الجهود في تثقيف العرب وتحسين حالهم، وهابهم جيرانُهم، وَغَدَوْا في حرزٍ من الفتن التي أثارها التعصب في الغالب، وَجَدُّوا في نيل احترام الجميع بما قاموا به من الإدارة الكريمة الفَعَّالة ومن المشاريع العظيمة النافعة، وأقيمت بجانب بغدادَ مدنٌ أخرىٰ، وأُنشئت طرقٌ وقنواتٌ وحِياضٌ، وبُنِيَتْ معاهدُ كثيرةٌ للتعليم والإحسان وَحَثَّت الحكومةُ علىٰ دراسة الآداب وعلىٰ التجارة وعلىٰ جميع الفنون السلمية، وأحاطت ذلك كلَّه بعين رعايتها.

وأُغْرِقَ في امتداح أُبَّهَةِ عهدِ المهديِّ وعهد الهادي (٧٥٥–٧٨٦) فجاء عهدُ هارونَ الرشيدِ فَضَفَا عليها، واجتمع في هذا الخليفة الأشهر دهاءُ العرقِ العربيِّ في أَسْمَىٰ نُشُوئه، فكان جديرًا بأن يُذْكَرَ ذكرًا خاصًّا في تاريخ خلفاء محمد، واتَّصَفَ الرشيدُ بأطيب المزايا كالشجاعة والكرم والمُروءة فكان من قوة العزيمة ما يُقاومُ به نَزَوَاتِ الاستبداد غيرَ مُنْصِتٍ لسوىٰ نداء العقل، وهو إذْ عُهِد إليه في إدارة شؤون دولةٍ عظيمةٍ تَعَوَّدَ أهلوها تنفيذَ كلِّ أمرٍ يصدر عنه بلا تذمرٍ ومن غير رقيب، لم يُثْقِلْ كاهلَه بالأمور العامة، بل جعل من رعاياه، منذ البدَاءَةِ، عاملًا مؤثرًا في أفعاله، وهو إذ كان مُحِبًّا مخلصًا للفضيلة مستعدًّا للاعتراف بخطئه باحثًا بنفسه عن أحوال رعاياه ورغباتهم، لم يَأْلُ جُهدًا في صنع المعروف، وهو إذ بَدَا علىٰ غير حقيقته حينما أمر بقتل البرامكة، نعتقد أنه خُدع بالدسائس التي نُسِجَتْ حول هذه الأسْرَةِ التي كان له منها أحسنُ الوزراء كالفضل وجعفر، والبرامكةُ هؤلاء هم من أصلٍ فارسيٍّ فَلَمَعَ نجمُهم في قرنٍ لدىٰ الخلفاء دُعاةً لبني العباس

في البَدَاءَة وقادة للحركة الأدبية والعلمية عند العرب، والبرامكةُ هؤلاء هم الذين حَرَّضُوا هارون الرشيد علىٰ حماية الفنون والتجارة والصناعة فَعَرَفَ، بعد حين براءَتهم فَنَدِمَ علىٰ ظلمه إياهم، وكان الرشيدُ وهو المتدينُ المتصدقُ يقومُ مُدَققًا، بجميع الفروضِ كأشدِّ المسلمين إيمانًا، وكان لصفات الرشيد العالية أبلغُ الأثر في العرب، ولا يزال مَجْدُ الرشيد يَتَأَلَّقُ في سماء المشرق بأسطع نور.

ومن التناقض الغريب أن كان الأمينُ بنُ هارونَ البكرُ عاطلًا من أيةِ فضيلة من فضائل أبيه هذا فغاظ النفوسَ منذ سنواتِ عهدِه الأولىٰ، علىٰ حين كان أخوه المأمون يُبْدِي أعظمَ حُنْكةٍ في إدارة خُرَاسان، فأجمع المسلمون علىٰ خلافة المأمون فاضطُرَّ الأمينُ إلىٰ التنزل عن السلطان في سنة ٨١٣.

حقَّقَ المأمونُ، الملقبُ بأغسطسِ العرب، ما يفوق الآمال التي أُنيطت به، والمأمونُ وإن كان دون هارونَ سُنُوًّا، يَزيدُ عنه علمًا وَسُمُوَّ دهاءٍ، وما مصدرُ الخطأ السياسيِّ الوحيد الذي كان يُلامُ عليه المأمونُ إلا الشُّكرانُ والإحسانُ، فهو قد جعل ولايةَ خُرَاسانَ في آل طاهر بن الحسين مكافأةً له علىٰ ما أسداه إليه من خِدَمٍ، فكان هذا أول تمزيقٍ في كيان خلافه المشرق، لا لأن بنىٰ طاهر أساؤوا التصرفَ في استقلالهم وأنكروا ما حَبَا بنو العباس به رأسَ آلهم من النِّعَم مثلًا، بل لأن ذلك غدَا أشأمَ مثال يحتَذَىٰ، فظهر بعد ذلك وُلاةٌ أخذوا يَجِدُّون في الخروج من دائرة سلطان وليِّ الأمر الشرعي.

كان المأمون يَعُدُّ سلامةَ الأمم في العلم، ولم يُرِد المأمونُ أن يُشِعَّ نورُ العلوم من جُودِ وليِّ الأمر الطارئ، فَجَعَل شَرَفَ الآداب في حِرْزٍ من تقلبات الحوادث بما حَبَسَه عليها من الوقف الدائم، وفُتِحَت المدارسُ في كلِّ ناحيةٍ «فصرت ترىٰ، لأول مرةٍ في تاريخ العالم علىٰ ما يحتمل، حكومةً دينيةً مستبدةً تُحالِفُ الفلسفة وتهيئ فوزَها وتشاطرُها نصرَها»، وارتوىٰ المأمونُ من مبادئ التسامح الحكيم، وأحاط المأمونُ نفسه بعلماء اليونان والفرس والقبط والكلدانيين فكان راغبًا عن أيِّ تمييزٍ في مادةِ الدين، فكان من الأمور التي اصطلح عليها أنه إذا ما اجتمع أربابُ عَشْرِ أُسَرٍ من النصارىٰ أو اليهود أو المجوس أمكنهم أن يُقِيمُوا كنيسةً وأنه يمكن كلَّ رجلٍ أن يمارس المناصبَ العامةَ من أيةِ ديانةٍ كان.

ولاح أن الوساوسَ التي كانت تُقصيٰ المعتزلة عن مجتمع المؤمنين قد زالت إلىٰ حينٍ، علىٰ أن تَعُودَ بأشدَّ مما كانت عليه في عهد المتوكل الذي هو ثالث خلفاء المأمون، وأوجب علماءُ الكلام ببغدادَ مطاردةَ الزندقة التي نشأت في خُرَاسان فلم تكن، بالحقيقة سوىٰ مَزيجٍ من مبادئ المجوسية والإسلام، وكان المنصورُ قد استند إلىٰ ما دَوَّنُوه لِيُشَوِّه ذكرىٰ أبي مسلم الخراسانيِّ، وكان الهادي قد أمر باضطهاد الملاحدة اضطهادًا دمويًا، ثم اتُّهِمَ بالزندقةِ المأمونُ الذي لم يكن في حِمًىٰ من الحملاتِ الجائرة، فاضطُرَّ إلىٰ إسكات خصومه، فَشَدَّدَ عقوباتِ المفارقين من غير أن يُنَفِّذَها بدقةٍ لِمَا كان من إخلاصه لمبادئ التسامح.

وكان كلٌّ من خليفتي المأمون: المعتصمِ (٨٣٣-٨٤٢) والواثقِ (٨٤٢-٨٤٦) أهلًا للعرش، وكان المعتصمُ مُحبًّا للخير كريمًا، وكان ذَنْبه الوحيدُ أنه جعل حَرَسَهُ الخاصَّ من غِلْمَانِ التركِ الذين أَحْيَوْا لدىٰ الخلفاءِ، بعد زمنٍ مثلَ اعتداءات حَرَسِ رومة لدىٰ القياصرة، ولم يُكَدِّرْ صَفْوَ عهد الواثق سوىٰ المنازعاتِ المذهبية، ومما كان يجعل اختلافَ الآراء الدينية عظيمًا بلوغُ عَدَدِ الفِرَقِ الرئيسةِ عند العرب ثلاثًا وستين، ومما كان يبلبل النفوسَ في الغالب بلوغُ عَدَدِ العلوم القرآنية ثلاثمائة وثلاثة عشر، وقَدَّرَ الواثقُ بنور عقله مبدأَ قِدَم القرآن الذي تَمَسَّكَ به أحمدُ بن نصرٍ بحماسةٍ فرأىٰ هذا الخَصْمَ العنيفَ يُعلنُ خَلْعَه ويَنصِبُ نفسه في مكانه، ويموتُ الواثقُ ثابتًا مُنوَّرًا مع تسليمٍ وتَقْوَىٰ، ويقسو المؤرخون المتأخرون علىٰ الواثق في أحكامهم، ونَجِدُه، مع ذلك أميرًا بارعًا حاميًا للآداب ممارسًا لها بنفسه، مُشَجِّعًا علىٰ الصناعة، كافيًا السائلين بما عَطِلَتْ به أقطارهُ منهم، باسلًا محبًا لخير الجميع.

وظاهرةُ عصر أوائل بني العباس هي عَطَلُه من المغازي التي تُشَنُّ بقصد التوسع وهؤلاء الأمراء، وإن حاربوا جيرانَهم غيرَ مرَّةٍ، لم يقوموا بذلك من أجل الفتح، والرومُ علىٰ الخصوص هم أكثر من قاتلهم عربُ المشرق وكانت الثغورُ الفاصلةُ بين العرب والروم مسرحًا للوقائع الدامية المتواترة، وكان الرومُ يأْسَفُون علىٰ ضياع أجمل ولاياتهم من جهة، وكانوا يَفْخَرون بما أَبْدَوْه أمام القسطنطينية وفي آسية الصغرىٰ من مقاومة الإسلام بتوفيقٍ، وكان قُوَّادُهم يبحثون عن المجد

في الغزواتِ الجزئية وإن كانوا يُهزَمُون في الغالب، وكان من نتائج مثل ذلك الفوز أن يَشْمَخَ الرومُ الفاسدون بأنوفهم فَيَثِقَ مَنْ يَتمُّ ذلك الفوزُ علىٰ يده بنيل التاج علىٰ العموم، وحروبُ مناوشاتٍ كتلك دامت في عهد أكثر خلفاء أبي العباس.

خَسِرَ قياصرةُ بيزنطةَ في عهد المنصور مدينة مَلَطْيَة المهمة جدًّا والتي هي من أراضي كبدوكية، ورأىٰ أولئك القياصرة، والألمُ مِلءُ نفوسهم، تخريبَ جميع كليكية وهزيمةَ أحد جيوشهم علىٰ ضِفاف نهر ميلاس في مِنْطَقَةِ بنفيلية، وَمُنِيَ أولئك القياصرةُ بهزائم أخرىٰ في عهد المهدي (٧٧٥-٧٨٥)، ومما اعتقده أولئك القياصرة في البداءَةِ أن الحظَّ حليفُ سلاحهم، وذلك لأن العدوَّ بَرَزَ أمام مدينة دوريلة الأفروجية، فأكرهوه علىٰ الارتداد بعد هجومٍ دام عِدَّةَ أسابيع (٧٧١) وذلك لأن العدو أُجْلِيَ في العام القادم عن جميع الأماكن المحصنةِ التي يَشْغَلها في كليكية، وتُغْضِبُ هذه الهزائمُ المتواليةُ العربَ، ويستعدُّ العرب للانتقام الشديد من الروم، ويُنَظِّمُونَ حملةً واسعة النطاق، ويدخلون آسية الصغرىٰ من ناحية كبدوكية، ويَكسرون جميع الفِرَقِ التي أرسلتها لقتالهم إيرينةُ الوصيةُ علىٰ قسطنطين كُبْرُنِيمَ، ويَبدون أمام أسوار القسطنطينية، ويعتري اليأسُ هذه القيصرةَ فَتُفَضِّلُ الخضوعَ وإعطاءَ الجزية علىٰ تعريض عاصمتها لمصائب الحصار، وتُعِيدُ مُدُنَ كليكية مُعَاهِدَةً علىٰ دفع ستين ألفَ دينارٍ جِزْيةً في كلِّ سنة، وكان هارون الرشيد قائدًا لذلك الجيش الذي أرسله أبوه المهديُّ، وعاد هارون الرشيد إلىٰ سورية مُثْقَلًا بالغنائم مُتَقَدِّمًا أكثرَ من عشرةِ آلاف أسير.

وتَحِلُّ سنة ٧٩٢، وتظنُّ إيرينة أنها أضحتْ من القوة ما تستطيع أن تَنْقُضَ به تلك المعاهدة وأن تتخلص من التزاماتها، ويستعدُّ الفريقان للقتال، ويصبح هارونُ الرشيدُ خليفةً، ويرسل هارونُ الرشيدُ كتائبَ إلىٰ آسية الصغرىٰ ويُجَهِّزُ سفنًا لغزو جزائر البحر المتوسط، وتدفع إيرينة ثمنَ ميولها الحربية غاليًا، فَتُجْتاحُ أفروجيةُ وبيتينيةُ ولوديةُ (ولايةُ إزمير) ويُكْسَرُ أسطول الروم في خليج سَطَالية، ويصبحُ العَربُ سادةَ البحر فَيُخَرِّبُون جُزُرَ الأرخبيل بالنار والدم، وترىٰ إيرينة ما أصيبت به من النَّكَبَات التي جاءت آيةً علىٰ عجزها فترضىٰ بإعطاءِ الجزية من

جديدٍ وأنفُها راغمٌ، وتلتزم مبادلةَ الأَسْرَىٰ فضلًا عن ذلك، وتَتِمُّ هذه المبادلة علىٰ ضِفافِ نهرٍ صغيرٍ بكليكية، وتغدو مبادلةُ الأسرىٰ بعد ذلك عادةً عند كلِّ هُدنةٍ بين الفريقين المتحاربين.

وتنال إيرينة درسًا قاسيًا بذلك فلا تعود إلىٰ القتال مرةً أخرىٰ، ويعتمدُ خَلَفُها نيقفورُ علىٰ بسالته فَيجرِّبُ الحظَّ ثانيةً، فيخاطبُ الخليفةَ بكتابٍ مملوءٍ عُنْجُهِيَّةً، فاسمع جوابَ الخليفةِ الموجزَ الآتي: «بسم الله الرحمن الرحيم، من هارونَ الرشيدِ أميرِ المؤمنين إلىٰ نيقفورَ كلبِ الروم، قد قرأتُ كتابَك يا ابنَ الكافرةِ، والجوابُ ما تراه، لا ما تسمعه»، ويكتب الرشيدُ ذلك بحروف من نارٍ في سهول آسية الصغرىٰ، ولم يَسْتَطِعْ نيقفورُ أن يَنْجُوَ من الجزيةِ المفروضةِ فقط، بل عَرَّضَ وَلاياتِه لمغاز مكررةٍ أَوْدَتْ بآخرِ ما فيها من ثراءٍ أيضًا.

ولا يسعنا إنكارُ صفاتِ نيقفورَ العظيمةِ خلافًا لِمَا صَنَعَ مؤرخو الروم، فَنجِدُ شيئًا من النُّبْلِ والحنُوِّ في سلوك هذا القيصر الذي لم يعترف بِضَعَفِه مع توالي هزائمه، والذي حاقت به الشدائدُ غيرَ مرةٍ فلم يُلقِ سلاحَه مع اتهامه بالبخل والطمع، وما أصابه من جِرَاح في إحدىٰ المعارك مُلقيًا بنفسه إلىٰ التهلكةِ قد حَسَّنَ وضعه ذات يوم، ولكن علىٰ غيرِ جَدْوَىٰ، فقد ظلَّ هارون الرشيد غالبًا علىٰ الدوام، فَخُرِّبَتْ بُنْطُش فَحُوصِرَتْ هِرَقْلَة (إركلي) فَدُخلتْ عنوةً فحُوِّلَتْ إلىٰ رمادٍ فنُهبتْ شواطئ بنفيلية وميزية ولودية، فأصبحت جزيرةُ رودسَ بأسرِها قبضةَ المسلمين، وذلك من غير نظرٍ إلىٰ شِدَّةِ مقاومة العاصمة.

وتُثْبِتُ تلك الحروبُ أن العربَ لم يَنسوْا فَنَّهم الحربيَّ، وتُثْبِتُ تلك الحروب، مع ذلك أن العرب ابتعدوا عن أدوار البطولةِ التي كان أقلُّ انتكاسٍ فيها يُثِيرُ حَميَّةَ القوم كافةً، فما كان قُوَّادُ عمرَ بنِ الخطاب لِيقفُوا إلَّا في القسطنطينية بالحقيقة.

وبدأت الحربُ في سنة ٨٢٩ لسببٍ غريبٍ، فقد عَلِمَ المأمونُ المحبُّ للعلوم الرياضية حُبًّا جمًّا، أن في القسطنطينية عالِمًا منقطع النظير اسمهُ لِيُونُ، فَوَدَّ أن يراه في بغدادَ، فرفض القيصر ذهاب ليونَ، فكفىٰ هذا وحده لامتشاق الخليفة الحُسامَ، وإن لم يسترسل في هذه الحرب بنشاطٍ إلىٰ أبعد حدٍّ.

وَشَمَخَ أنفُ توفيلَ بما ناله الرومُ من قليلِ تفوُّقٍ، فظنَّ أن الوقت الذي يستردُّ فيه كل ما انتزع من القسطنطينية خلف الحدود القديمة قد حلَّ، فأخذ يهاجم (٨٣٣)، وكان المعتصمُ قد جلس علىٰ عرش الخلافة في ذلك الحين، وكان قادرًا علىٰ دَحْرِ العدو بشدةٍ، وكان ميزانُ النصر مذبذبًا بين الفريقين، ثم استولىٰ القيصرُ سنة ٨٣٦ علىٰ زبطرةَ، مسقطِ رأس المعتصم، فعاملها بعنفٍ علىٰ الرغم مما قَدَّمَه هذا الخليفةُ، فَهَدَمَ جميعَ مبانيها وضرب رقابَ سكانها واسترقَّ أولادَها ونساءَها، فحلف المعتصم لا يَدَعُ هذا العمل الوحشيَّ حتىٰ ينتقمَ أشَدَّ الانتقام، فسار علىٰ رأس جيشٍ عظيم إلىٰ عمورية (سدرىٰ حصار)، مسقطِ رأسِ توفيلَ، فدخلها عَنْوَةً فأصابها مثلُ ما أصاب زبطرة (٨٤٠)، فظلَّ المعتصمُ تحت السلاح سنتين أخريين غيرَ مُنْصِتٍ لأي اقتراحٍ للصلح، فكان يغزو أملاك الروم في كلِّ سنةٍ فيلزِمُ المدنَ المفتوحةَ بالإتاوة (٨٤٠-٨٤٢) فيعودُ غانمًا.

ثم آلت الخلافةُ إلىٰ الواثق فَبَدَا أقلّ عنادًا، فأراد الرومُ دوامَ الصِّرَاع، فحالفهم الحظُّ بقيادة القيصر بازيل، فاستردوا جميعَ الأماكن التي كان هارون الرشيد قد انتزعها منهم في كليكية (٨٤٢-٨٤٦).

وكان علىٰ العرب في ذلك الدور أن يَرُدُّوا غاراتِ الترك الخَزَرِ الذين اكتسحوا أرمينية في خلافة هارون الرشيد فَأَسَرُوا نحوَ مائة ألف أسير (٧٨٧)، فاكتفىٰ العربُ بسدِّ مضايقِ القفقاسِ في وجوههم.

ولم يُعْنَ بنو العباس كثيرًا بالولايات الغربية، فلم يكادوا يَسْعَوْنَ في ربط إسبانية بدولتهم، وتركوا إفريقية تدير شؤونَها بنفسها، حتىٰ إنهم ساعدوا بني الأغلب علىٰ الارتقاءِ جاعلين إياهم في حِلٍّ من كلِّ إطاعة، خلا اعترافَ هؤلاء لهم بالسيادة، فكأنهم قد تَعِبُوا من ممارسة سلطتهم الزمنية في تلك البُقْعَة من الدنيا فاكْتَفَوْا بالدعاء لهم في المساجد، ويَقبلُ إبراهيم بنُ الأغلب شروطَ هارون الرشيد هذه وَيَقْبِضُ علىٰ أَعِنَّةِ الحكمِ في جميع المغرب ويكون لآله بتلك التولية ضربٌ من البيعةِ الدينيةِ، ولم يستطع خلفاء إبراهيمَ بنِ الأغلب، مع ذلك أن يمنعوا أحدَ أبناء عليٍّ من أن يَفْصِلُوا من خلافة بغداد موريتانيةَ الغربيةَ التي استقرَّ بها الأدارسة.

ومن المحتمل أن كان بنو العباس يأملون اجتذابَ إسبانية إلىٰ حظيرة خلافتهم بما كان يقع فيها من الانقسامات، وبهذا نُفَسِّر سياسةَ الانتظار التي اتخذوها كما نفَسِّرُ مفاوضاتهم لملوك الفرَنْج، فليست بمجهولةٍ صِلَاتُ هارونَ الرشيدِ بشارلمانَ، ولا خَبَرُ الوفودِ التي كانا يرسلانها، ولا نبأُ الهدايا التي كانا يتبادلانها، ولم يُوَجِّهْ بنو العباس سلاحًا إلىٰ خلفاء قرطبة مع ذلك، وكان خلفاء بني العباس يُعانُونَ أَمَرَّ هَجماتٍ يقوم بها عربُ إسبانية مع ذلك، وذلك كما حدث في سنة ٨٢٠ حين انتهب قرصانٌ من عربِ الأندلسِ سواحلَ مصرَ ودخلوا الإسكندرية وأحرقوها وسفكوا الدماء فيها، ولم يتأثر المأمونُ بذلك، حتىٰ إنه لم يُفَكِّرْ في الاستيلاء علىٰ جزيرة أَقْرِيطِش التي نَزَعَها أولئك القرصان من الروم بعد أن حرقوا سفنهم لِيُنصروا أو يموتوا.

وما بَدَا من عُزُوفِ بني العباس عن الأعمال الحربية كان لروح الزمن، فقد أخذ عربُ المشرق يُدركون نِعَمَ الحضارة، فحقَّقَ خلفاءُ بغداد أمانيَّ شعوبهم بأن حَبَوْهم بأساليب إداريةٍ منظمة، وبأن أقاموا عدلًا صارمًا، وبأن نشروا العلومَ في كلِّ مكان وبأن رَبَطُوا بالتجارةِ ولاياتِ الإمبراطورية الإسلامية ربطًا وثيقًا.

وكان أَوَّلَ ما صنعوه إنشاؤهم ديوانَ المال وديوان الختم، فأما الأولُ فكان يقوم بالخَرْجِ والدَّخْلِ، وأما الثاني فكان يطبعُ أوامر الخليفةِ بطابع الصحة، وكان ذانك الديوانان وحدَهما يقومان بذلك حينًا من الزمن، ثم ظهر أنهما لا يكفيان فأقيمت أربعة دواوينَ مقامَ ديوان المال وهي: ديوانُ نفقاتِ الجُندِ، وديوان الجباية، وديوان الوظائف وديوانُ مراقبة الدَّخلِ والخرجِ.

واكتفىٰ الخلفاء بأن أضافوا إلىٰ ذلك النظام الحِجَابَةَ التي تقوم بتقديم السفراء، ومنصبَ قاضي القضاة للنظر في استئناف أحكامِ القُضاةِ المُهمةِ.

تَسَلَّمَ بنو العباس زِمَامَ السلطة فعزموا علىٰ إمتاع الإدارة بالوحدةِ والقوةِ أكثرَ مما كانت عليه، وهم إذ رأوْا وَزْنَ الأعمال ثقيلًا إلىٰ الغاية علىٰ رأسٍ واحدٍ نَصَبُوا بالقرب منهم وزيرًا، لا لأنهم أرادوا أن يُفوِّضُوا إليه كلَّ سلطان، بل ليُمَهِّدَ أحكامهم، ثم عيَّنُوا بانتظام الضرائبَ التي يجب علىٰ كلِّ ولاية أن تُؤَدِّيَها فكانوا يعلمون، مُقدَّمًا المصادر التي يتصرفون فيها، فبلغ دخلُ هارونَ الرشيد في إحدىٰ

السنوات ٢٧٢٣٠٥٨٠٠ درهم و٤٤٢٠٠٠٠ دينار، وذلك عدا الضرائبَ، العَينيةَ.

وكان الخلفاء يستندون إلىٰ القرآن في أمر الضرائب، ومن أحكام إحدىٰ آيِ سورةِ التوبةِ أن يُعْطِيَ الجزية كلُّ من يسكن بلاد الإسلام من غير المسلمين، ويختلف مقدارُ الجزية باختلاف الثرواتِ والأشخاص، فيدفع الغني ثمانية وأربعين درهمًا، ويدفع المُوسِرُ أربعةً وعشرين درهمًا، ويدفع المُعْسِرُ اثنىٰ عشر درهمًا، وَوُجِدتْ خلا ذلك ضريبة عقارية تختلف في تطبيقها علىٰ اليهود والنصارىٰ أو المسلمين، فأما اليهود والنصارىٰ فيؤَدُّون الخرَاجَ، وأما المسلمون فيُؤَدُّون العُشْرَ، وللِخَراجِ كما للجزية حَدٌّ لا تُمْكِنُ مجاوزتهُ، ويُطبقُ العُشْرُ علىٰ ثلاثة أنواع من الأراضي، وهي: ١- الأرض الموات التي أحياها المسلمون، ٢- أرضُ من اعتنقوا الإسلام من غير أن يُحمَلُوا عليه بقوة السلاح، ٣- الأرضُ التي غُنِمَتْ من الكافرين، ومن ثَمَّ ترىٰ أن الأموال التي كانت قبل الفتح لم تخضع لأية ضريبة، وبجانب تلك الأبواب كنتَ ترىٰ في الدولة العربية طُرُقًا مفتوحةً لِجَوْرِ الحكَّام وضرورةً ماسَّةً لسلطةٍ يَقْظَىٰ كي تمنع المظالم والمخازِيَ، وكانت لدىٰ الخلفاء عدا الجزية والخراج والعُشْرَ، مصادرُ دخلٍ أخرىٰ كالمكوسِ واستثمار المعادن وإيجار البُورِ وميراثِ من يموتون بلا وَرَثَة، إلخ.

وما كانت عليه أمور المال لدىٰ العباسيين من حُسْنِ الحالِ أدَّىٰ إلىٰ القيام بالأعمال العظيمة، ومن ذلك أَنْ أَنشأَ المهديُّ فنادقَ وآبارًا بين بغدادَ ومكةَ ليلجأَ إليها الحُجَّاجُ في أسوأ الأوقات ويستعينوا بها علىٰ العطشِ، وأن شقَّ طريقًا بين مكة والمدينةِ، وأن أسَّسَ مرابطَ للخيل والجِمَال بين الحجاز واليمن تسهيلًا للمواصلات بين ذينك البلدين المهمين، ومما وُجِدَ، منذ عهد معاويةَ، البُرُدُ لِوَصْلِ ما بين عواصم حكومات الإمبراطورية العربية.

وليسَ ذلك كلَّ ما وَقَع، فقد حَبَسَ بنو العباس في مختلف الأمكنة عددًا غيرَ قليلٍ من الأوقاف علىٰ المساجد والمدارس، فدام أمر هذه بفضل تلك أيامَ الفِتنِ، السياسية، وجمع بنو العباس ببغدادَ وثائقَ الخلفاء لِيَطَّلِعَ بها الْخَلَفُ علىٰ أحكام السلفِ، وأوجدوا فيها إدارةً ممتازة للشرطةِ تحمي الناس وتحفظ أموالهم، وأحدثوا عَسَسًا لدرءِ كلِّ اعتداء، وحُملَ التجار أنفسهم علىٰ تأليف نِقاباتٍ مسئولةٍ

لتراقب المعاملات وتمنع الغش في مادة التجارة، والمهديُّ هو الذي أبدع مَنْصِبَ المحتسِب الذي هو ضربٌ من مراقبي الأسواق المفوضة إليهم سياسةُ المدينة، فيجوبُ المحتسبُ بين حينٍ وحينٍ المدينة علىٰ رأس نَفَرٍ من الجندِ ليُرَاقِبَ تنفيذ مراسيم الشرطة ويبحث عن صحة الأوزان والمكاييل التي يستعملها التجار، وتكون أحكام المحتسِب مختصرةً ويُجازي المُحتسِبُ المذنبين بواسطة جنوده في الحال.

وعاد الأعرابُ إلىٰ حياة السلب والنهب في بواديهم منذ انقضاءِ دور المغازي الحربية فصار أمير الحج يقوم بحماية الحجاج والقوافل التي تقصد مكة.

ومن ثم ترىٰ أن خلفاء بني العباس لم يألوا جُهدًا في إمتاع دولتهم بالسعادة والرخاء، مفضلين الأعمال السلمية علىٰ المجدِ الحربي، عاملين بما أُوتُوا من قوةٍ علىٰ تثقيف الأذهان فبَلغَ العرب في عهدهم درجةً رفيعةً من الحضارة بسرعة، فحاول العرب بحماسةٍ كالتي أبدوها في انتصاراتهم الحربية أن يَفُوقُوا الرومَ في التجارة والصناعة والفنون والآداب والعلوم التي كانت أهلُ القسطنطينية يعتقدون أنه لا مثيل لهم فيها مع انحطاطهم.

وعُنِيَ بنو العباس بالزراعة علىٰ الخصوص وكان من نتائج الزراعة البارعة أن زادت مَزِيَّةُ أثمار فارس وأزهارِ مازندجران، وأن انتشر نبيذُ شيرازَ وَيَدَ وأصْبَهَانَ في جميع آسية فأصبح سلعةً تجاريةً مرغوبًا فيها كثيرًا.

واستُثْمِرَتْ مناجم الحديد بخراسان ومناجم الرَّصاصِ بكرمانَ، وشرعت مدنُ العراق وسورية، كالموصل، وحلب، ودمشق، تصنع أفخر النسائج واستُخرج القارُ والنفطُ وطينُ الصيني ورُخامُ تِبْرِيزَ والملحُ الأَنْدَرَانِيُّ والكبريت بمهارةٍ، وتقدمت الفنون الصناعية تقدمًا كبيرًا، فليس بمجهول أمر الساعة الدَّقَّاقةِ التي أرسلها هارون الرشيد إلىٰ شارلمانَ فأُعجبَ بها أمُراءُ بلاطهِ، فلم يكن بينهم من استطاع أن يعرف تركيبها ويوضح آلَتَهَا.

ولم تَسِرِ الصناعة والتجارة إلىٰ الأمام وحدهما، فقد اهتمَّ بنو العباس بالفنون والآداب والعلوم أيضًا، واعتنوا بفن البناء والموسيقىٰ، وكان لفن الرسم وفن النحت لديهم تطبيقاتٌ خاصةٌ وقِفَ بها عند حدِّ حظر الشريعة رسم الوجوه

البشرية وتصوير الآلهة، وشِيدَتْ مبانٍ فخمة غير قليلةٍ في مدن العراق المهمة: بغداد والبصرة والموصل والرَّقَّةِ، وفي مدينة سمرقندَ التي هي من بلاد ما وراء النهر، وكان كَلَفُ العرب بدراسة الآداب يفوق كَلَفَ أوربة بها في عصر النهضة، ولم تلبث المخطوطاتُ اليونانيةُ التي جيء بها من القسطنطينية أن تُرجمتْ بسرعةٍ وفُتِحَ مكتبٌ للترجمة في بغداد تحت إشراف طبيب نَسْطُورِي، وخُصِّصَ دخلٌ مقدارهُ خمسة عشر ألف دينار لإحدىٰ المدارس حتىٰ يَدْرُسَ فيها ستة آلاف طالبٍ مجانًا، وأُنشئت مكتباتٌ عامةٌ، وأبيح لأي إنسان أن يدخلها، ووسع نِطاقُ هذه المعاهد بين قرنٍ وقرنٍ بفضل أمراء، كالمأمون كانوا يحضرون دروس الأساتذة فيها وانتشرت لغة العرب في جميع نواحي آسية فَحَلَّتْ مَحَلَّ اللغات القديمة نهائيًا، وَبَدَت اللغة العربية مَرِنَةً ملائمة للاصطلاحات الجديدة، وَسَطَعَت العلوم الرياضية بنورٍ منقطع النظير، وزاد علمُ الفلك ثروةً بما أضيف إليه من الاكتشافات المهمة، وأُنشئت مراصدُ مجهزةٌ بآلاتٍ تَقْلِبُ الخيالَ بعظمتها، وشيدت مشافٍ لتدريب الأطباء، فكان لا بدَّ من امتحانهم قبل أن يزاولوا مِهنتهم، وأسست مختبراتٌ للصيادلة فاكتشفوا فيها نباتاتٍ طبيةً جديدةً وأدويةً كانت مجهولةً.

ثم أوجد العرب الكيمياء، والعرب وإن اقترفوا أغاليطَ كبيرةً في اعتمادهم علىٰ مبادئ التنجيم ومسائلِ السيمياءِ، ساعدتهم هذه الأغاليطُ علىٰ النهوض بالعلوم التجريبية علىٰ وجهٍ غير مباشر، ونحن لا نذهب الآن إلىٰ ما هو أبعد من ذلك في هذا الموضوع ما دمنا سنرسمُ في مكانٍ آخرَ صورةً مفصلةً لِمَا انتهىٰ إليه العرب من الأعمال، وإنما نذكر هنا أن بني العباس الذين أوجبوا هذه الحركة الذهنية العجيبة شاهدوا التماعَ مدرسةِ بغداد بأسطع نورٍ في قرنين، فكانوا أوفر حظًا من شارلمان الذي أراد إنقاذ شعوبه من التوحش مستندًا إلىٰ أعلم رجال الغرب فزال عمله بزواله.

وإذا كان هنالك تَضَادٌّ ميمونٌ بين عصر العباسيين الأدبي وجهلِ أوربة الوسطىٰ العميق فإن ما كان يبدو من نفائس بني العباس وأُبَّهتهم ليس أقلَّ وقفًا للنظر من ذلك، فهم إذ كانوا وحدهم خزنة ثرواتِ ولاياتٍ كثيرةٍ وكانوا عاطلين من جيوشٍ دائمةٍ، كان لهم أن يتصرفوا تصرفًا مطلقًا بأنواع الدخل العظيم الذي

أشرنا إلىٰ مصدره آنفًا، وكان هذا التصرف يتجلىٰ في الغالب في ضروب الإسراف غير المقيد وفي الهبات التي تُثير العجب وفي نثر الذهب واللآلئِ في القصور والحدائق والمساجد بغير حساب، ومن ذلك أن بلغت نفقات المهديِّ في حَجٍّ قام به ستة ملايين دينار، ومن ذلك أن كانت زوجة الرشيد زبيدةُ لا تستعمل غير آنيةٍ من ذهب يعلوها ثمين الحجارة ونُسُجٌ حِيكَتْ بخيوطٍ من فضَّةٍ، وأن كانت تلبس ثيابًا من إستبرق[1] مُبَطنةً بِسَمُّورٍ أبيض[2]، وخِفَافًا مُرَصَّعَةً بالخَضَلِ[3]، وأن أنشأت قناةً لجلب المياه إلىٰ مكة من الجبال المجاورة فأنفقتْ علىٰ ذلك ١٧٠٠٠٠٠ دينار، ومن ذلك أن وَزَّعَ المأمونُ علىٰ حاشيته أربعمائة ألف دينار في يوم واحد، وأن دعا في الوقت نفسه مائتي شخصٍ إلىٰ وليمةٍ فأحدث أسهمًا علىٰ عددهم اشتمل كلٌّ واحدٍ منها علىٰ أرض واسعة وعلىٰ ما تقتضيه من العبيد، وأن كان قَصرُه يحتوي علىٰ ١٢٥٠٠ زَرْبِيَّةٍ[4] مُطَرَّزَةٍ بالذهب وعلىٰ ٢٢٠٠٠ بساط، وأن أقام في بَهْوِ الاستقبال شجرةً من الإبريز[5] حاملةً جُمَانًا[6] علىٰ شكل الثِّمَارِ، وأن كان بيته يحوي أربعة آلافِ خَصِيٍّ أبيض وثلاثة آلاف خصي أسودَ؛ وأن كان سبعمائة حارسٍ مُوزعين بين أجنحة منزله، وأن كان الجنود يَمنعونَ الدنوَّ من قصره، وأن كان يمكن الأصابلَ التي أنشأها المعتصمُ بسامرَّا (سُرَّ مَنْ رَأَىٰ) القريبةِ من بغداد أن تَسَعَ مائة ألفِ فرسٍ كما روىٰ مؤرخو العرب، وأن رَفَعَ المعتصمُ حينما بنىٰ هذه المدينة الأرض المُعَدَّةَ للأبنية فيها غير ناظرٍ إلىٰ ما يقتضيه هذا العملُ من النفقات الجسيمة.

وسَمِعَ شارلمانُ عن شَوْكَةِ خلفاء بغداد، فأراد أن يتصل بهم فأرسل وفدًا مؤلفًا من يهوديٍّ وفرَنجيَّين حاملين هدايا إلىٰ أمير المؤمنين وذلك بحُجَّةِ طلب

---

(١) الإستبرق: الديباج، وهو ما كان سداه ولحمته حريرًا.

(٢) السمور: حيوان بري يتخذ من جلده فراء ثمينة للينها وخفتها وحسنها، وزعم بعضهم أنه النمس وليس كذلك، وربما أطلق السمور علىٰ جلده.

(٣) الخضل: الدر الصافي.

(٤) الزربية: ما بسط واتكئ عليه جمعها زرابي.

(٥) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) الجمان: اللؤلؤ.

حماية خليفة محمدٍ للنصارىٰ الذين يزورون القدس، فأجاب إلىٰ ذلك بلطفٍ هارونُ الرشيد الذي كان يخشىٰ تحالف ملكِ الفرنجِ وأمَوِيِّي إسبانية، ولم يرَ الرشيد أن يُقصِّرَ في أمر الإهداء، فأرسل إلىٰ شارلمانَ نسائج ثمينة وأطيابًا وأفاويه وفيلًا، وسُرَادِقًا واسعًا علىٰ الطراز العربيِّ، وساعةً دَقَّاقةً كما ذكرنا آنفًا.

وإذا كان ذلك تأثيرَ أُبَّهَةِ بني العباس في نفس سيدِ الغرب فإن تأثير هذه الأبهةِ أعظم من ذلك في الصينيين والهندوس والتتر، فكان الخلفاء يُعدون في كل مكانٍ أكثر أمراء الأرض يُسرًا فيُوهَمُ في أمر قدرتهم الحقيقية، وكان يُظَنُّ أن نظامَ المركزية وَحَّدَ بين ولايات دولتهم الواسعة وأنه سيكون لها مستقبلٌ وطيدٌ مديدٌ، بَيْدَ أنه كان يمكن ذا البصر الحديد أن يرىٰ بذورَ الانحطاطِ القريبِ في أرجائها.

ومن شأن حقِّ وليِّ الأمر المطلق في أملاك رعاياه أن يَقْضِي علىٰ عوامل التنافس والتقدم من الناحية المادية فالشعوبُ لا بدَّ من أن تنطفئ بين اليأس والخنثِ إذا لم تجد ضامنًا لبقاء ثمرة ما عَمِلَتْ، وما كان لهذه الشعوب أن تخشىٰ السلب والغصب في عهد الخلفاء الأولين، ولكن التركَ الذين هم قومٌ فُظٌّنٌ غِلاظٌ أَفْظَاظٌ لم يكادوا يقبضون علىٰ أَعِنَّةِ الأمور حتىٰ أدت إلىٰ أسوأ النتائج شريعةُ القرآن التي وطدتها أحكامُ الفقهاء في منحِ كلِّ سلطةٍ لشخصٍ واحدٍ معدودٍ وكيلَ الله في الأرض(١).

وبَدَتْ مثلُ تلك العلة في الحقل الخلقيِّ أيضًا، فقد استهوت أنوارُ العلوم النفوسَ بعد أن قُيِّدَتْ بكتاب محمد فَشَعَرَت باحتياجها إلىٰ التحرر من رِبْقَةِ المبادئ المطلقة كثيرًا، فوجب تغييرُ النُّظُمِ، التي وَضِعَتْ في بدء الأمر لتلائم

---

(١) من الخطأ ذهاب المؤلف إلىٰ أن الحكم المطلق هو من أصول الإسلام، فقد جاء في القرآن: «ولتكن منكم أمة يدعون إلىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ...»، «وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل علىٰ الله ...»، «وأمرهم شورىٰ بينهم»، إلخ. وقال الرسول الأعظم: «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ... وإن الله يرضىٰ لكم أن تعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئًا وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ... وما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم ... وإن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا علىٰ يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده» إلخ. (المترجم).

أناسًا مخصوصين ولتلائم غاية معينة تغييرًا متساوقًا مع تبدل الزمان والمكان[١]، أي وجبت إقامةُ المجتمع علىٰ أساسٍ جديد، فسعىٰ إلىٰ هذا المأمونُ وخليفتاه المعتصمُ والواثقُ من بعده، غير أن جهودَ هؤلاء حَبِطَتْ بفعل غباوة علماء الكلام.

كان المأمون بن هارون الرشيد يؤازر مذهب المعتزلة الذي يمكن رَدُّه إلىٰ المبادئ الآتية:

١- لا يمكن فصلُ صفاتِ الله من الله.

٢- القرآن مخلوقٌ وليس بقديم.

٣- لا يزول الإيمان أبدًا ولا يمكن أن يُنْعَتَ بالمؤمنين أولئك الذين يأتون الكبيرةَ مع ذلك.

٤- ليس للهِ غيرُ تأثيرٍ عامٍ في أعمال الإنسان، فهو قد ترك لهم حريةً كاملةً، فهم لهذا يستحقون الثواب أو العقاب.

ورأىٰ المأمون والمعتصم والواثقُ صحةَ هذه المبادئ، وأوجب التعصبُ نَبْذَها وكُتِبَ الفوزُ للفقهاء علىٰ هؤلاء الخلفاء، فكان هذا الفوزُ السببَ الأوَل في سقوط الإمبراطورية، فالقرآن إذ اعتُقِدَ أنه قديمٌ وأنه لا يُسمحُ بتبديل شيء في أحكامه أدىٰ إلىٰ مَنحِ السلطة العليا كلَّ ما يقتضيه الاستبدادُ المطلق من الامتيازات، حتىٰ علىٰ الرغم من القابضين علىٰ زمام تلك السلطة فظلَّ المجتمع قبضةَ سيدٍ واحد يجب علىٰ كل شخص أن يُضَحِّي بآرائه وماله وحياته في سبيله.

ولو كان خلفاء بني العباس من ذوي الفضائل الصادقة والمواهب العالية علىٰ الدوام لوَجَّهُوا سلطانهم المطلق إلىٰ ما فيه خيرُ رعاياهم ولأمتعوهم بمثل عصر قياصرة رومة المعروفين بالْأَناطنة، ومن دواعي الأسف أن عُدْتَ لا ترىٰ في النصف الأخير من القرن التاسع سوىٰ عبيد مُتَوَّجين أخذوا يُقَوِّضُون دعائمَ الدولة بما يُوحونَ به من ازدراءِ الملأ وأن ضَربت الفوضىٰ أطنابَها فصارت الأحزاب، التي كُبِتَتْ ذات حين، تمتشق الحُسامَ ناشرةً الذعرَ والفساد في كل مكان.

---

(١) أنظر إلىٰ تعليقنا في آخر الفصل الثالث من الباب الثاني من هذا الكتاب. (المترجم)

وما فَتِئَ أبناءُ عليٍّ يعودون إلىٰ مزاعمهم منذ زمن الهادي (٧٨٥) وهارونَ الرشيدِ (٧٩٢)، والمأمونِ أيضًا، فأراد المأمونُ أن يَضَعَ حَدًّا لِمَا كان يُحْزِنه من الانقسامات، فَفَكَّرَ ذات مرةٍ في وضع التاج بين يَدَىٰ العلويين معترفًا بصحة حقوقهم مُجدِّدًا ما عَزَم عليه عمرُ بن عبد العزيز الأُمَويُّ فيما مضىٰ، فأثار بذلك مِثْلَ ما وُجِّه إلىٰ عمرَ بن عبد العزيز من الاحتجاجات فاشتعلت الفتنة ببغداد في الحال، فأَكْرهَ بنو العباس وأتباعُهم، الذين كانوا ثلاثة وثلاثين ألفًا، المأمونَ علىٰ العدول عما انْتَواهُ من نزع الملك من آله، فمع ما كان من عدم نتيجةٍ لذلك أوحىٰ ذلك إلىٰ العلويين بأملٍ جديدٍ في نصيبهم، فلم يَدَّخِر هؤلاء وُسْعًا في اغتنام الشِّقاقِ الذي أوجبه عطلُ القوم من نظامٍ للوراثة، بدلًا من أن يخضعوا لسلطان العباسيين بلا تَذَمُّر.

وغايةُ القول أن الإمبراطورية العربية بلغت أَوْج عظمتها في الشرق في عصر الرشيد والمأمون فَلْنَدرس الآن أمرَ انحلالها.

الفصل الثالث
أواخر بني العباس - خلافة مصر
(٨٤٦ - ١٠٥٥م)، (٢٣٢ - ٤٤٧هـ)

دَبَّت الفوضىٰ في الخلافة بعد انقضاء عهد الواثق بالله (٨٤٦)، فأخذت بغدادُ تُغَيِّرُ سادتَها في كل حينٍ، فَتَقَعُ في الغالب تحت نِيرِ طُغَاةٍ ظالمين أو عاجزين.

وَبِنِيرُونِ العرب المتوكلِ فُتِحَ ذلك الدورُ الجديدُ وما اقترفه المتوكلُ من أفانين الانتقام والجَوْرِ لا يصل إليه خيالٌ فهو لكي يُجازيَ وزيرًا شتمهُ، لم يرَ غيرَ حَرْقِه حيًّا في موقدٍ مُجهزٍ بدبابيسَ من حديدٍ، وهو كان يدعُ الضَّوَارِيَ والسَّوامَّ تسيرُ طليقةً في قصره فلا يدعُ حاشيتَه تَفِرُّ منها أو تدفعُ عَوَادِيَها، وهو قد خشىٰ أن تُحَاكَ مؤامرة ضِدَّه فدعا جميع ضباطه إلىٰ وليمةٍ في بلاطِه فأحاط بهم قتلةٌ مرتزقةٌ فاشترك معهم في إبادتهم علىٰ بَكْرَة أبيهم، وبلغ ما نشأ عن كبائره من النفور مبلغًا حَفَزَ ابنَه المستنصرَ إلىٰ قتله فلم يتمتع المستنصر هذا طويل زمنٍ بنتيجة ما اقترفه من قتل أبيه، فمات أَلَمًا وَنَدمًا في السنة الأولىٰ من خلافته (٨٦١)، فاختِيرَ خَلَفًا له حفيدُ المعتصم المستعين بالله علىٰ حساب إخوته الأربعة الذين جلس المعتزُّ والمعتمدُ منهم علىٰ عرش الخلافة فيما بعد، ودامت خلافة المستعين مدة تزيد علىٰ ثلاث سنواتٍ (٨٦٢-٨٦٦)، ثم استبدلت عِصابَةٌ المعتزِّ به (٨٦٦) فخلعت المعتزَّ عِصَابَةٌ أخرىٰ في سنة ٨٦٩ فجلس علىٰ كرسي الخلافة المهتدي بنُ الواثقِ (٨٦٩-٨٧٠)، فَفَكَّرَ هذا الخليفة في وضع خِطَطٍ للإصلاح فأدىٰ ذلك إلىٰ قتله في قصره، فَخَلَفَهُ المعتمد، فدام عهده اثنتين وعشرين سنة (٨٧٠-٨٩٢) بفضل

إخلاص أخيه الموفقِ وبراعته التي أَحْبَطَ بها كلَّ نُزُوع إلىٰ الفتنة.

والجنودُ التركُ الذين جعل المعتصمُ منهم حَرَسَه الخاص، هم سبب تلك الانقلابات المستمرة، وهؤلاء الموالي الذين جُنِّدُوا واستقروا ببغداد قريبين من الخليفة قد أَبْدَوْا منذ البداءةِ من الاعتداءات ما اضطُرَّ معه المعتصمُ نفسهُ إلىٰ مغادرة عاصمته والانزواءِ في مدينة سامِرًّا الصغيرةِ، ثم زاد عددُهم ونفوذُهم في خلافة الواثق بالله، فَبَدَوْا قوةً لا يُستهانُ بها في الدولة عند وفاته، فلم يكن عليهم إلا أن يطلبوا ارتقاءَ المتوكلِ إلىٰ عرش الخلافة حتىٰ ينالوا ذلك.

ولم يكن أولئك التركُ في الغالب إلا من أسرىٰ الحروب التي كان يقوم بها وُلَاةُ ما وراء النهر وخراسانَ علىٰ ضفَافِ نهر جيحون، وعشائر التركِ، إذ كان يَضْغَطُهم أهلُ الصين من ناحية الشرق وكانت فِتَنُهم الداخلية تَقرضُهم كانوا ينقضُّون علىٰ حدود الإمبراطورية العربية فيُغلَبُون فيقع منهم عددٌ غيرُ قليلٍ أسرىٰ بين يدي أعدائهم فيرسل القواد هؤلاء الأَسارىٰ إلىٰ بغداد تَزَلُّفًا إلىٰ الخلفاء.

ونعلم درجة خطر هؤلاء الحرس الذين أراد وَليُّ الأمر أن يجعل منهم آلةً لسلطانه فكان أولَ ضحيةٍ لهم، وما كان الترك، الذين يُختارُ قادتُهم من بينهم، لِيَتَلَقَّوْا أمرًا من غير الخلفاء، وهم إذ فَصَلْوا مصالحهم عن مصالح العرب، جعلوا القوة الغاشمة حكمًا في ثبات حقوقهم وهم إذ أرادوا الانتقام من المتوكل لِمَا كان من رفضِه ما طلبوه من عطاء كانوا شركاء في جريمة المستنصر ثم أكرهوا هذا الخليفة علىٰ إقصاء إخوتِه عن العرش وجعلِ المستعين وليًا لعهده، ثم انقسموا بين المستعين والمعتزِّ الذي انحاز إليه العرب فلم يقدرْ علىٰ إبادة أولئك الجُنْدِ المرهوبين حينما لاحت له الفرصة، وكان أيُّ تأخيرٍ في دفع أعْطِيَات الجُنْد يؤدِّي إلىٰ عصيانهم فإلىٰ حمل الخليفة علىٰ الخليفة علىٰ التنزل عن خلافته، وأُصيب المهتدي بالله بأسوأ عاقبةٍ لأنه أراد أن يُلْزِمَ التركَ بنظامٍ مُحكمٍ، ولم يَسْطِع الموفقُ أن يُحَوِّلَ نفوسهم عن دسائس القصر إلا بتوجيه نشاطهم إلىٰ المغازي البعيدة.

وكان للفتن التي جعلت مقامَ الخلافة مضطربًا في نصف قرن، أسوأُ النتائج في بغداد وفي جميع أنحاء الدولة، فكنتَ من جهةٍ ترىٰ الوُلاةَ مَوْئِلَ السلطة في

أثناء فواصل الخلافة طامعين في الاستقلال مساومين بخضوعهم لوليِّ الأمر الجديد، وكنتَ من جهة أخرىٰ، ترىٰ عدولَ الولاياتِ عن احترام السلطة المركزية آسفةً علىٰ الثرواتِ التي تَنْزِعُها الضرائب منها وعلىٰ تغذية هذه الضرائب لضروب الفوضىٰ في العاصمة، فَتَتَشَوَّفُ هذه الولاياتُ إلىٰ استرداد قوميتها السابقة مُحرِّضَةً وُلاتها علىٰ تحقيق مزاعمهم في تحويلها إلىٰ إماراتٍ إقطاعيةٍ غيرِ معترفةٍ للخلفاء بسوىٰ السيادة الاسمية.

ويُذَكِّرُنَا تاريخُ الأُسَرِ المالكة، التي ظهرت في الإمبراطورية العربية بين سنة ٨١٤ وسنة ١٠٥٥، بتاريخ الأُسرِ القويةِ التي استولت في فرنسة علىٰ دوكيات نورماندية وبورغونية وغويانة، مع علمنا أن النظام الإقطاعيَّ في الشرق وَقَفَ علىٰ الذروةِ بعيدًا من الأهالي مُقَيِّدًا لهم جائرًا عليهم مُغْرِيًا بهم دافعًا إياهم إلىٰ عَدِّ الفاتحين من الأجانب منقذين.

وكان انفصالُ إسبانية وإفريقية أولَ طعنةٍ في وَحْدَةِ الإمبراطورية الإسلامية، وأراد خلفاء بني العباس ألا يَخسروا بلاد المغرب تمامًا فَنَصَبُوا بني الأغلبِ أمراء وراثيين عليها غير مدركين أن هذا يَعْني تَنَزُّلًا نهائيًا منهم لتلك الديار، وكان الانحلالُ في آسية أبطأَ مما هنالك، ومن الحِنْثِ[1] أن وَهَبَ المأمون لقائده طاهرِ بنِ الحسين سيادته الكاملة علىٰ خراسانَ في ساعةِ شكرٍ (٨١٤)، فقد استطاع طاهرُ بنُ الحسين أن يتصرف في النفوس لمصلحته فصار اسمه يُذْكَرُ في خُطَبِ الجمعة، ثم خَلَفَهُ أبناؤُه بلا مشقةٍ فتقلدوا منصبَ الإمارة من الخلفاء فحافظوا علىٰ حسن الصلات بهم، حتىٰ إن الخلفاء فَوَّضوا إليهم قيادةَ جيوشهم في بعض المرات (٨١٤-٨٧٣)، وبدا أميرُ هذه الأُسرةِ الرابعُ طاهرُ بنُ عبد الله مُثقَّفًا حاميًا لعلم الفلك، فرُصِدَ الاعتدالُ الخريفيُّ في حضرته بعاصمة خراسانَ: نَيسابورَ سنة ٨٥١، وذلك بِحَلْقةٍ تدلُّ علىٰ الدقائق، ثم خلَفَ هذا الأميرَ في سنة ٨٦٢ ابنُه محمدٌ فكان فاترًا فلم يَقْدِرْ علىٰ مقاومة هَجَمَاتِ الصفارية.

ووجد بنو طاهر من قَلَّدَهم بالحقيقة، وظلت بغدادُ فريسةَ الفوضىٰ فَتفلَّتت آسية الشرقية بأَسرِها من سلطان بني العباس.

---

(١) الحنث. الذنب والإثم.

وفي سنة ٨٦٤ استقلَّ بولايةِ طبرستانَ، المجاورةِ لبحر قزوين فرعٌ من آل عليٍّ ومَلكَ زعيمُ هذه الأُسرةِ الحسنُ بنُ زيدٍ الدَّيلمَ وَجُرْجانَ ذات حين، ثم غَلبَهُ الصفاريةُ الأقوياءُ، الذين نَهَضُوا بسجستانَ سنة ٨٧٠، في الوقت الذي غَلبُوا فيه بني طاهرٍ تقريبًا، وكان يعقوب بنُ اللَّيثِ صفارًا كأبيه، فاحترف مِهنةَ السلاح بنجاحٍ فدخل خراسانَ علىٰ رأس جيش كبير، ففتح سجستانَ فأزال مُلْكَ بني طاهر (٨٧٣)، فانتزع طبرستانَ من آل عليّ فكان له بذلك قطرٌ واسع، فكان يُقيمُ بِمَرْوَ تارةً وبنيسابور في خُراسان تارة أخرىٰ، فمُلىءَ غرورًا بما ناله من نصرٍ فأراد مهاجمة مدينة بغدادَ (٨٧٤)، فخرج لقتاله قائدُ بغدادَ المُوَفَّقُ، فَهَزمهُ الموفقُ بالقرب من واسط فلم يَتعقَّبْه لعدم قدرته، فارتدَّ يعقوبُ إلىٰ ولاياته متلافيًا في السنة القادمة ما خَسِرَه، فأخذ يُهَدِّدُ الخليفةَ بِبوارٍ كاملٍ لو لم يُوَافِه الحِمام في جُندَيْسابورَ سنة ٨٧٦، فصالح أخوه وخليفتهُ عمرُ بنُ الليثِ المعتمدَ فنال منه، ببراءةٍ، مُلْكَ البلاد التي كان مستوليًا عليها (٨٧٧).

وأدىٰ استقرارُ الصفاريةِ بخُرَاسانَ وسجستانَ وطَبرستانَ إلىٰ قطعِ جميع المواصلات بين أواسط الدولة وخُوَارِزْم وبلادِ ما وراء النهر فأعلن والىٰ هاتين الولايتين استقلالَه بلا عِقاب، وهذا الوالي هو إسماعيلُ بنُ حفيد سائق الإبل سامانَ، وكان المأمونُ قد وَلَّىٰ، في سنة ٨١٩، أبناءَ أَسَدِ بن سامانَ سَمَرقندَ وَفرغانةَ وبَلْخَ فنقلَ أحدُهم أحمدُ سلطتَه إلىٰ ولده البكرِ ناصرٍ الذي استولىٰ علىٰ بُخارَىٰ فأصبح بذلك واليًا علىٰ بلاد ما وراء النهر مفوضًا إليه أن يدافع عن هذه الولاية تجاه غارات الترك وغزوات الصفارية، واتهم ناصرٌ هذا أخاه إسماعيل بممالأة أعدائه فجدَّ في أثره سنة ٨٨٨، فأُخذ علىٰ حين غِرَّةٍ فأُسر، فأبدىٰ إسماعيل نُبل نَحِيزَتِه[١] فأعاد إلىٰ ناصر اعتباره بدلًا من أن يستغلَّ ما حالفه من توفيق مُحترمًا سلطان ناصرٍ إلىٰ أن توفي سنة ٨٩٢، فهنالك خَلا له الجو في السير سيدًا فلم يأْلُ جهدًا في توطيد سلطته فدَحَرَ التركَ إلىٰ ما وراء يكزرتَ (سيرداريا، سيحون) مؤسسًا الدولة السامانيةَ علىٰ أُسس متينة.

وفي ذلك الدور قامت إماراتٌ أخرىٰ في آسية الغربية.

(١) النحيزة: الطبيعة.

واستطاع أَفَّاقٌ أن يصبح سيد مدينة البصرة وأن يمتد سلطانه إلىٰ أبواب بغداد، ودعا هذا الأفاقُ إليه سُودَ زنجبار فاستطاع أن يقاوم جميع الهجمات التي وُجهتْ إليه في عهد المعتزِّ والمعتمد، وكاد جميع العراقِ العربي يعترف بسلطة هؤلاء الزنوج الذين أَوْغَلُوا حتىٰ في ولاية الأهواز وولاية خوزستان، والموفقُ، قاهرُ يعقوب بن الليث، هو الذي نال فَخَارَ دحرِ هؤلاء والقضاء علىٰ سلطانهم فاسترد منهم العراق العربي والولايات الفارسية ومدينة البصرة (٨٨٢).

ولم يُكتب التوفيق للموفَّقِ تجاه بني طولون، الذين سَلَخُوا مصر والشام من الإمبراطورية العربية، كما كُتِبَ له تجاه أولئك، وبيان الأمر أن أحمد بن طولون هو من الترك الذين نشأوا في بلاطِ الخلفاء فأُعتِقُوا، وأن أحمد بن طولون هذا امتاز ببراعته وبسالته، فَرُئِي أنه أهلٌ لولاية مصر والشام وأنه لم يكد يستقر بهاتين الولايتين حتىٰ عَزَمَ علىٰ استقلاله بها معتمدًا علىٰ قادة الحرس التركي، وأن الأمراء الذين كانوا تحت إمرتِه مدُّوا إليه يد المساعدة عندما علموا ذلك، وأنه أخذ يجمع الضرائب لحساب نفسه (٨٧٧)، فقَطَعَ ما كان يصلهُ بالخلفاء من الصِّلاتِ، وأن الخلفاء كانوا شاعرين بضعفهم فاكتفوا بتعكير صَفْوِ بني طولون بتحريض أمراءِ سورية عليهم، فأخذ هؤلاء الأمراء يقومون ببعض الفتن الجُزئيةِ، فتغلب أحمد بن طولون علىٰ جميع هذه المصاعب.

ومما أدىٰ إلىٰ ثبات سلطة أحمد بن طولون ما كان من اشتغال المُوَفَّقِ بأمر أولئك الزنوج، ثم مات أحمد بن طولون سنة ٨٨٤ فاعترفت دمشقُ بسلطان ابنه خمارويه الذي اتخذها قاعدةً لملكه، فقضىٰ خمارويه هذا بنجاحٍ علىٰ مقاومة بعض الأحزاب المعادية (٨٨٩).

وكانت حكومة بني طولون خيرًا لمصر والشام، لا شُؤمًا عليهما، فقد كان أحمد بن طولون محبًّا للعلوم كريمًا سخيًا، محسنًا علىٰ الخصوص، فأوجبت هذه الصفات حب رعيته له، وَغَدتْ عاصمة مصر، الفُسطاطُ، مدينة لأحمد بن طولون بما زاده فيها، وفي الفسطاط أنشأ مسجدًا رائعًا لا يزال قائمًا حاملًا لاسم ابن طولون، وفي الفسطاط أنشأ قصورًا وأسواقًا لتجار الأمم الذي يَرِدُونَ مصر من كلِّ ناحية، واشتهر ابنه خمارويه بنفائسه وأُبَّهَتِه، فيروىٰ أنه شاد بمصر حَوْشًا

واسعًا لتربية أنواع الحيوان، فكان لكل حيوانٍ فيه حجرةٌ وحوضٌ من الرخام يُجلَبُ إليه الماء بقُنِيٍّ من البرونز، وكانت فخفخةُ هذا الأمير تبدو في مواكب صيده وأعياده وزينة قصوره، ومن ذلك أن كانت عنده بحيرة زئبق مُمْسِكةٌ بسرير كان يستريح عليه فَتَهُزُّه هزًّا لطيفًا، ثم قُتِلَ خمارويه فزالت عظمةُ بني طولون بزواله.

ومن ثم ترىٰ قيام ثلاث دول في الشرق منذ سنة ٨٩٢، وهي: الدولة الصفارية والدولة السامانية والدولة الطولونية، ومن ثم ترىٰ أنه لم يَبْقَ لخلفاء بغداد سوىٰ جزيرة العرب والجزيرة والعراق العجميِّ وأَذْرَبيجانَ وأرمينية وولاياتِ بحرِ قَزْوينَ وولايات البحر الهندي والعراق العربي، وما كانت هذه المناطق غير إمبراطوريةٍ رائعةٍ لو عَرَفَ بنو العباس كيف يحتفظون بها.

وكان هنالك ما يحمل علىٰ الظن بقدرة بني العباس علىٰ ذلك، فلم يقع أي تمزيق جديد في جسم الدولة في أيام المعتضد بن الموفق (٨٩٢-٩٠٢) والمكتفي (٩٠٢-٩٠٨) وأوائل عهد المقتدر (٩٠٨-٩١٣)، بل حدث فيها ما وَطَّدَ هؤلاء الخلفاءُ به سلطانهم، أي استردَّ هؤلاء الخلفاء بعض الولايات التي نُزِعَتْ من الدولة.

وما كاد المعتضدُ يجلس علىٰ عرش الخلافة حتىٰ أَبْدَىٰ خمارويه بن أحمد بن طولون خضوعهَ بأن طلب منه توليته ولاية مصر وولاية الشام مُلْزِمًا نفسه بدفع مليون دينار في الوقت المعين، ثم دَحَرَ المعتضدُ من الجزيرة الأعرابَ والأكرادَ الذين خَرجوا من صحارىٰ الشام قاصدين الاستيلاء علىٰ الموصل، ثم هَزَم في ولاية الموصل الأمير حمدان الذي أعلن استقلاله، ثم قُتِلَ خمارويه فتنازع ولداه جيشٌ وهارون المُلكَ فألزم المعتضدُ الغالب منهما بزيادة جِزْيَتِه بمقدار ٤٨٠٠٠٠ دينار (٨٩٩)، ثم ظهر المكتفي أوفرَ حظًا من المعتضد، فقد هجم علىٰ هارون بنِ خمارويه فخضع له جميع الأمراء بلا حرب، فتخلىٰ عن أبناء طولون جميع من غمروهم بضروب الغِنَىٰ (٩٠٥).

وحدث زوال الصفارية في ذلك الدور أيضًا، ونجح الخلفاء في الإيقاع بين الصفارية والسامانية، ولم يكد أميرُ بلاد ما وراء النهر يصبح سيد خراسان حتىٰ

أرسل إلىٰ بغدادَ آخرَ أولئك الآل الذين كُسِرُوا إلىٰ الأبد، وما كان هذا الحادث الذي أعدتهُ يدٌ قويةٌ ليفيد غيرَ الغالب مع ذلك، فقد ضَمَّ بنو سامان إلىٰ ولاياتهم الواسعة طبرستان بعد خُراسان، فَوَلَّاهم الخلفاء إياها ببراءةٍ، ثم فتح بنو سامان سجستان حيث تقهقر أحدُ أبناء الصفَّارِ، فولَّاهم المكتفي إياها شاكرًا كأنهم أسْدَوْا إليه بخدمةٍ باهرة، وهكذا صار للمكتفي جارٌ واحدٌ مالكٌ لستِّ ولايات بدلًا من جارين متنافسين، وكان يمكن ذلك الجار أن يظهر ذا خطرٍ لو لم يَخْشَ الترك علىٰ الدوام.

وظلَّ المكتفي محافظًا علىٰ أملاكه سليمةً حتىٰ آخر عهده، وغيرُ ذلك أمرُ المقتدر بالله (٩٠٨–٩٣٢) الذي أرهبته، وهو علىٰ عرشه، عِدَّةُ عصاباتٍ عاتيةٍ فبدا عاجزًا في عاصمته فلم يُحترمْ خارج العراق العربي، فعادت الدولة تتمزق بعد أن وقف سلفُ المقتدر ذلك ذات حين، فلم يقع بعدئذٍ ما يحول دون انحطاط الخلافة وسقوطها، ثم أضاع القاهرُ (٩٣٢–٩٣٤) والراضي (٩٣٤–٩٤٠) والمُتَّقِي (٩٤٠–٩٤٤) والمستكفي (٩٤٤–٩٤٦) آخرَ ولاياتهم، فصارت سلطة الخلفاء الزمنية ببغداد أثرًا بعد عَيْن.

أُعطيت إشارةُ الخطر في الجزيرة، فقد استطاع أحد أبناء الأمير حمدان، الذي رفع راية الاستقلال في أيام المعتضد كما ذكرنا، أن يستولي علىٰ أماكن حصينةٍ في الجزيرة، وأن يَتَغَلَّلَ في البلاد حتىٰ شمال سورية الشرقي (٩٣٧)، وأن يقيم إمارةً قويةً متخذًا الموصل عاصمة لها، ولناصر الدولة وسيف الدولة من بني حمدان شهرةٌ في تاريخ العرب، فكان للأول منهما عملٌ مُكَرَّرٌ في تسكين الفتن ببغداد، وكان للثاني نَصرٌ مُؤَزرٌ علىٰ الروم.

وأدىٰ استقرارُ بني حمدان بالجزيرة إلىٰ رفع مصر راية العصيان بسهولة، ومن خطأ الخلفاء أن تركوا الوحدة المصرية الشامية قائمةً بعد سقوط بني طولونَ معتقدين كفاية تبديل وُلاتهم بين حينٍ وحينٍ، فلما أَحَسَّ الأخشيدُ التركي دُنُوَّ سقوطه أسرع في أثناء ولايته القصيرة الأمدِ أن يجمع حوله عددًا كبيرًا من الأنصار، فشقَّ عصا الطاعة حينما أريد استبدال غيره به، فاحتُمِلَ اغتصابه للمُلْكِ لتعذُّرِ سوق جيشٍ إليه، فخسر بنو العباس مصر والشام نهائيًا (٩٣٦).

وما عَجَزَ عنه بنو العباس أقدم عليه بنو حمدان، فتنازعوا هم والأخشيدُ سهول سورية مع تذبذب ميزان الفوز، فدخلوا دمشق غيرَ مرَّةٍ وظلوا مالكين لحلب.

وأُقيمت إماراتٌ مستقلة في جوار بغداد أيضًا، فقد تنازع الرائقيون والبريديون (٩٤٠-٩٤١) البصرة وواسطَ وولاية الأهواز محاولين تمثيل دورٍ سياسي في العاصمة.

وكَفَّ أمراء أرمينية وجورجية عن دفع الأتاوىٰ للخلفاء، كما أن الخلفاء عادوا لا يطالبونهم بها، وتحالف أولئك الأمراء علىٰ مقاومة جيرانهم، وبدأت تانك المِنْطَقَتانَ بتأليف مملكتين منفصلتين منذ ذلك الحين.

وحدث مثلُ ذلك في مازندرانَ وجِلانَ وشيروانَ وَجُرْجَانَ الواقعاتِ علىٰ سواحل بحر قزوين، فقد ثار في عهد المقتدر بالله زعيمٌ في جِيلانَ اسمهُ مرداويجُ فَفتح هذه الولاية ونَزَعَ طبرستانَ من بني سامانَ، ثم نزل إلىٰ أَذْرَبيجانَ فاستولىٰ علىٰ معظمها، ولم يَسْطِعْ أن يؤسس دولة مع ذلك لِمَا كان من اغتصابِ ثلاثة إخوةٍ، كانوا يعملون في جيشه، لهذا الشرف منه فيزعمون أنهم من سلالة بني ساسانَ مع أن أباهم بُوَيْهَ لم يكن غير صائد سمكٍ فقيرٍ، واستوقف هؤلاء الإخوةُ أنظار الأهالي بشجاعتهم وبراعتهم فانضموا إلىٰ رايتهم فَرِحِين، ولم يُعَتِّمْ هؤلاء الإخوةُ أن ضَمُّوا إلىٰ ولاياتِ مرداويجَ كَرْمَانَ وَمُكْرَانَ والعراقَ العجمي ولارستانَ وسوستانَ وخوزستانَ أيضًا (٩٣٣-٩٤٠).

أُحيطت بغداد منذ ذلك التاريخ بإماراتٍ مستقلة، وانحصرت أملاك الخلفاء في بغداد التي كانوا يقيمون بها، ولم يكن سلطانُهم ببغدادَ، حينئذٍ إلا اسميًا مع ذلك وما انفكت فتن البلاطِ التي بُدِئَ بها في زمن المتوكل تتجدد بفواصل متقاربةٍ جدًا إلىٰ آخر خلافة بني العباس، وغدا تاريخُ بني العباس، لا يكون إلا صورةً ناطقة بقتل القادة والوزراء وطلابِ المُلك وأولياء الأمور، وصِرْتَ تَعُدُّ بين الخلفاء التسعة والخمسين ثمانيةً وثلاثين خليفةً قُتِلُوا أو ماتوا مَوتَةً أشدَّ من القتل، وكان يُخشىٰ سفك دمِ آل النبي المقدسِ فَيُهْلَكُ بعضُ هؤلاء جوعًا، وكان بعضهم

يحاط بسورٍ أو يُقذَفُ به في مثالجَ، وخَرَجَ القاهرُ من السجن مَسْمُولَ العينين لِيستجدِيَ علىٰ أبواب المساجد لابسًا أسمالًا.

وأراد خليفة القاهرِ الراضي أن يَنْجُوَ من سلطة الضباطِ الترك الذين أَنِفُوا من دور التابع فكانوا يتصرفون في جميع فروع الحكومة، فاستفاد من حريةٍ أصابها ذاتَ حينٍ فأبدع منصبَ أمير الأمراء فتولَّىٰ صاحبُ هذا المنصب، الذي هو صاحبُ البلاطِ بالحقيقة، قِيادةَ الكتائبِ العامة وإدارة شؤون المال، فصار يُقرَنُ اسمه باسم الخليفة في خُطبة الجمعة، فأصبح يخاطب الشعب عندما تقضي الأحوال بذلك، فبدا ولي الأمر الحقيقي.

ولم يحتفظ الراضي لنفسه بشيءٍ، حتىٰ إدارة الدخل الضروري لمعاشه فَقَبَعَ في كِسْرِ قصره، فلم يُرِدْ أن يتدخل في أي شأنٍ من شؤون الحكومة، مُوَجهًا إلىٰ أمير الأمراء الأنظار الحريصة التي لم تخش التَّطَلُّعَ إلىٰ الخلافة.

بيد أن الراضي لم يصنع سوىٰ زيادة سلطانِ قُوَّاده بنصبه أميرًا علىٰ حَرَسِه، ومن هؤلاء القُوَّادِ بجكُم الذي غَضِبَ من تولية ابنِ رائقٍ السلطةَ، فحاصر مع جنوده بغداد فَقَبضَ علىٰ الراضي فأكرهه علىٰ نصبه أميرًا للأمراء (٩٤٠)، فَتَمَّ له الحكمُ بلا منازع حتىٰ قُتِلَ في السنة الثانية من خلافة المتقي (٩٤٣)، فكان ذلك نذيرَ فِتَنٍ جديدة، فصار علىٰ الترك أن يناهضوا مزاعمَ الرائقيين والبريديين، وبني حمدانَ بالموصلِ.

وأضحىٰ منصبُ أمير الأمراءِ مدار النضال كما كان منصب الخلافةِ من قَبل، ولم يكن للمتقي غير تأييد انتصار الأقوىٰ، فَفَكَّر، ذات يومٍ في الانضمام إلىٰ الأخشيديين، ثم تغلب رئيس الحرَسِ التركي علىٰ منافسيه فجعل المتقي يدفع ثمن ترَدُّدِه غاليًا فأمر بقتله والمناداةِ بالمستكفي خليفةً بدلًا منه، فأثارت هذه الفتنُ المحزنةُ ساكن أهالي بغداد فدعوا إلىٰ نصرتهم أبناء بويه الذين استقروا بولايات الدولة الفارسية القديمة منذ زمن قريب، فَفُتِحَتْ أبوابُ بغدادَ لهم فطُرِدَ الترك (٩٤٥) فَقَبضَ مُعزُّ الدولة علىٰ زِمام إمارة الأمراء فنصب خليفةً جديدًا مخلصًا لمآربه إخلاصًا تامًا فَبُدِئَتْ بذلك سلسلة أمراء بني بُوَيْه التي طال أمرها أكثر من قرن.

ومن التناقض العجيب أن كنتَ تَرَىٰ مسالك السلطة مُضَرَّجَةً بالدمِ وحَرَسَ بغداد التركيَّ يُملي إرادته علىٰ خلفاء النبيِّ، وأن كنتَ ترىٰ العربَ الذين تَعِبُوا من الحرب ومن الفِتَنِ الداخلية منهمكين في دراسة العلوم والآداب، فلم يَزُلْ عملُ المأمون بموته، بل زاد نموًّا شيئًا فشيئًا، فأخذ بنو العباس، بعد أن انْزَوَوْا في بَلاطِهم، يحاطون بالعلماء، أي بأولئك الذين يبتعدون عن الأمور التي تُغْرِي البهائم، والتركَ والصينيين كما قال أبو الفرج، وَيَجِدون في محادثة ذوي البصائر ما يُسَلِّيهم عن سوء طالعهم.

ومما شوهد بعد موت الراضي، والراضي هو آخرُ الخلفاء الذين جَعَلُوا مجلسَهم الخاص من رجال الأدب، أمراء من آلِ بُوَيْه يَحتذون مثالَ المأمون فينهضون بعلم الفلك والرياضات نهوضًا جديدًا، وآلُ بُوَيْه هؤلاء قد اغترفوا من الولايات الخاضعة لهم خارج بغداد من القُوَىٰ ما كان يكفي لإطفاء كلِّ عصيانٍ منتحلين السلطة العليا لأنفسهم بغير عناءٍ.

وكان المطيعُ (٩٤٥-٩٧٤) والطائعُ (٩٧٤-٩٩١) والقادرُ بالله (٩٩١-١٠٣١) والقائم بأمر الله (١٠٣١-١٠٧٥) عاطلين من كل سلطان، محرومين دخلَهم، مقتصرين علىٰ كاتبٍ بسيطٍ بجانبهم، مُمثلِينَ لمثل دور الملوك الكُسَالىٰ الميروفنجيين الذين وُضِعُوا تحت وصاية نُظَّارِ البلاطِ.

وذلك لم يمنع أكثر الأسر المالكة بآسية من أن تنال من أولئك الخلفاء براءات التولية، فقد كان المسلمون المخلصون يَعُدُّون بني العباس أولياء الأمور الشرعيين، أجل خَسِرَ بنو العباس سلطتهم الزمنية، ولكنهم ظلُّوا أصحاب السلطة الروحية التي ما انفك أهل السُنّة يحترمونها.

ووجدت في جميع الأزمنة فِرَقٌ أزعجت الإمبراطورية الإسلامية، فاضطرَّ بنو أمية إلىٰ مطاردة الخوارج والقدَرِيين والأزارقةِ والصفريين، فلما صارت الخلافة إلىٰ بني العباس وَجدَ المعتزلةُ، ذوو المقصد النبيل، حمايةً عند المأمون، والمعتزلةُ، وإن لم يُكْتَبْ لهم الفوز في نهاية الأمر، كان لهم أثرٌ بالغٌ في ذوي البصائر علىٰ الأقل، ومن الفِرَقِ من اكتفت بالاحتجاج علىٰ فساد الأخلاق ونسيان آداب القرآن، ومن الفِرَقِ مَن طالبت بإصلاحات اجتماعية، ومن الفِرَقِ

مَن نَصرَتْ خِططَ بعض ذوي المطامع من المرؤوسين، ومما كان يشاهدُ أحيانًا وجود متعصبين عن حُسْنِ نيةٍ، ومن هؤلاء الراوندية الذين رَأَوْا وجوبَ عبادةِ الخلفاء كما تُعبدُ الآلهة ووجوب عَدِّ بلاطِهم كعبةً جديدةً فرأىٰ المنصور أن يتخلص من حَمِيَّتِهم المزعجة بمهاجمتهم بكتائبه وتشتيت شملهم، فاستبسلوا في القتال كي يعبدوا الخليفة علىٰ الرغم منه، وهنالك فِرَقٌ أكثر جِدًّا وأعظم خطرًا كالزندية الذين يقولون إن التملك جنايةٌ فلا ينبغي لأحد أن يكون صاحب مال ولا يجوز لإنسان أن يأكلَ لحم حيوان فطوردوا واستؤصِلوا، ومن الأنبياء الكاذبين الخادعين من مَثَّلوا دورًا مهمًا كالمقنع الذي أوقد نار الفتنة في خراسان سنة ٧٨١، ثم أَسسَ بابكُ بأَذْرَبِيجَانَ سنة ٨٣٤ فرقةَ الإسماعيلية التي هي ماديةُ النزعَة من كل وجهٍ فقاومت جميع قُوَىٰ الخليفة المعتصم أربع سنين.

ولا تَجِدُ فِرقةً استطاعت أن تنتشر بنجاح وسرعةٍ كفرقة القرامطة التي اجتاحت جزيرة العرب في القرن العاشر فقضت علىٰ سلطة الخلفاء الروحية والزمنية في قسمها الشرقي، ويقول القرامطةُ بأكثر أحكام القرآن وَيَدَّعُون بأنهم من الشيعةِ، ويعترفون بعليٍّ وبالأئمة السبعة خلفاء لمحمدٍ رأسًا، وعلىٰ ما ترىٰ من انتحالهم لعقائدِ الإسلامِ الأساسية وإيمانهم بوحدانيةِ الله وبيوم الحساب وبفائدةِ الصلاة تجدُهم يُنكرون الوحي ويُذيعون مبادئ مُضادةً للنظام الاجتماعي، ومما تصوروه عِدَّةُ درجاتِ وصولٍ لِمَن يَوَدُّون مثل نصيبهم، والزندقةُ هي آخر درجاتِ هذا الوصول علىٰ رأي النويريِّ والمقريزيِّ، ومن الصعب أن يَتَّفِقَ لمثل هذا المذهب ذلك الانتشارُ لو لم يَقلْ بإلغاء الرِّقِّ أيضًا، وأتباعُ هذا المذهب قاتلوا للتحرر فقوَّضوا جميع الحواجز، ولما اغتنوا من النهب انهمكوا في الدعارة مُعرضين عن المبادئ التي وضعها زعم مذهبهم مستحقين للازدراء.

وكان للقرامطة دورُ ازدهار، فقد ألقوا الرعب في جزيرة العرب بأسرها وفي مصر والشام والعراق العربي، وفي أهل بغداد أيضًا، وفي بوادي سورية وكَلْدَةَ وأقاموا مستعمراتهم في اليمامةِ والبحرين علىٰ الخصوص، ومن هذه المستعمرات كانوا يخرُجُون كتائب لغزو الحجاز والعراق.

وكان بدء مغازي القرامطة في عهد المعتضد (٨٩٨) فهزموا أحد قُوَّادِه فتقدموا حتىٰ الكوفة فانتهبوها، وأغار القرامطة علىٰ فلسطين وسورية في عهد المكتفي فهدَّدُوا دمشق، وكان القرامطةُ يتصدون للقوافل السائرة إلىٰ مكة فيقضون علىٰ تجارة العراق والحجاز في آنٍ واحدٍ.

وكان أبو طاهر أفضل زعماء القرامطة فجعل لهم من عاصمة البحرين، هَجَرَ، مقرًا ثابتًا فاشتركوا معه في عِدَّةِ غاراتٍ فدَكُّوا الكوفة فدَنَوْا من بغداد فدَحَرُوا تحت أسوارها جيشًا مؤلفًا من ثلاثين ألف رجلٍ، وسأل أبو طاهر قائد المسلمين عن وجود جنودٍ أفضل من جنوده لدىٰ مولاه، فأمر أبو طاهر أحد جنوده بأن يُدْخِلَ سيفه إلىٰ صدره ففعل، وأمر جنديًا آخر منهم بأن يُلقي بنفسه إلىٰ دِجْلَة فصنع، وأمر ثالثًا منهم بأن يقذفَ بنفسه في هُوَّةٍ فأطاع (٩٣٥).

وحاصر القرامطةُ مكة فدخلوها عنوة وقتلوا فيها أكثر من ألفي شخص وخربوا الكعبة فانتزعوا منها الحجر الأسود الشهير وردموا بئر زمزم، ثم عادوا مرهوبين فَرَضِيَ القاهرُ والراضي بأن يُعطوْا إتاوةً.

ووجد القرامطة في أمراء الحمدانيين والإخشيديين منافسين مستعدين لدحرهم، فهزِمُوا في غير مصادمةٍ فارتدوا إلىٰ صحارىٰ جزيرة العرب وإلىٰ البحرين واليمامة وزالوا بالتدريج.

وأعاد القرامطة إلىٰ مكة الحجر الأسود الذي انتزعوه، فلما أعيد إلىٰ مكانه طلب خليفةُ بغداد قطعةً منه فوضعها علىٰ باب منزله كما يُرْوَىٰ، فمن هنا جاء اسم باب الخليفة واسم باب سلاطين الآستانة، ومن هنا أَتَىٰ فرضُ الركوع علىٰ المسلمين حين دخولهم مقر أولياء أمورهم (؟!).

وتَجِدُ بجانب هؤلاء المبتدعين الأقوياء الذين هاجموا سلطة الخلفاء الزمنية والروحية فقهاء وَزُهَّادًا وفلاسفة أوجبوا في دار الإسلام عدة انفصالاتٍ، وأهم هؤلاء لا ريب هم الصوفية الذين لم تكن لهم غاية سوىٰ اتصال النفس بالله اتصالًا مستمرًا، وذلك بتعطيل جميع أحاسيس القلب، وغيرُ قليل اضطهاد الخلفاء أو أئمة بغداد لهؤلاء الذين عَجزوا عن مناضلة نفوسهم المُتَّقِدَة ببراهين مستنبطةٍ من القرآن.

وانتشر التصوف بين الفُرْسِ علىٰ الخصوص، وكان الفُرْسُ يحاولون ربطَ الحديث بدين آبائهم تحت ستار الصوفية غير المُعَيَّنِ، وأخذ الإسلام يتأخر في ذلك الزمن بدلًا من أن يتسع، وأضاع الإسلام شيئًا من مكانه في ذلك الزمن مع أنه فاز في الهند علىٰ المذاهب البرهميةِ ذات حين، وأضرَّ انقسام المسلمين إلىٰ سُنِّيَّةٍ وشيعةٍ تقدم الإسلام، ولم يسطع أوائل بني العباس وأمراء الأمراء أن يُوطدوا الوحدة الدينية فزاد الاضطراب والارتباك في كل مكان، ووقف الشيعة أنفسهم علىٰ لَعْنِ معاوية فطلبوا إقامة الشعائر بما يناسب عليًا، والحسينَ، وبدا السُّنيةُ أنفسهم علىٰ لَعْنِ معاوية فطلبوا إقامة الشعائر بما يناسب عليًا، والحسينَ، وبدا السُّنيةُ أنصارًا مخلصين للسُّنةِ فأرادوا اتباع مبادئها، وكان بنو العباس يخشون زيادة نفوذ آل علي فأعلنوا أنهم من أهل السُّنة فاضطهدوا من ليسوا علىٰ مذهبهم، علىٰ ما كان من عداوتهم المتأصلة لبني أمية ونزعِهم المُلك من بني أمية.

وذهبت جهود العلويين في نَيْلِ الخلافة سُدًىٰ، ووجد العلويون بغداد مخلصة لبني العباس ففكروا في إقامة سلطانهم في بعض الولايات التي سُلِخَتْ من الدولة، وحدث أن صار أَخٌ لهم سيدَ طبرستان فلم يسطِعْ حفظ منصبه، وظهر العلويون في إفريقية أحسن حظًّا لاستقرار الأدارسة بموريتانية واجتذابِهم السكان إلىٰ اسم عليٍّ.

ومن الذين انتحلوا اسم الإمام، حقًّا أو عُدوانًا، شخص اسمه عبيد الله الذي أثار بلادَ المغرب فقضىٰ علىٰ دولة بني الأغلب (٩٠٨)، فدان له الساحل بالتدريج فوضع أُسس دولة الفاطميين الأولىٰ في القيروان والمَهْدِيَّةِ، فأخذ يهدد مصر فحضرته الوفاة، فغُلب خليفتاه أبو القاسم (٩٣٦-٩٤٥) والمنصور (٩٤٥-٩٥٣) أمام شجاعة الإخشيد وبراعته، فلم يَقْنَطا فاتَّصَلا بشِيعيِّي العرب في الحجاز واليمن فاكتسب هنالك أصدقاء كثيرين بما وَزَّعَاه من الأموال بحكمةٍ.

ثم مات الإخشيد فوقع خلافٌ في من يخلفه في مصر والشام فأوغل خَلَفُ المنصور، المُعِزُّ لدين الله (٩٥٣)، في البلاد فخضع له الأمراء فصار الخليفة الفاطمي الأول بمصر (٩٦٨).

وسأل زعيم عربيٌ المعزَّ أن يُبينَ له شجرة انتسابه إلىٰ عليٍّ وفاطمة، فأجابه المعزُّ مشيرًا إلىٰ سيفه: «هؤلاء هم أجدادي» ثم قال: «هؤلاء هم أولادي» ناثرًا ذهبًا علىٰ جنوده، وأنشأ الفاطميون القاهرةَ (٩٧٢) ووفقوا في مكافحتهم خلفاء بني العباس، ففتحوا سورية وبعض الجزيرة، فاعترف لهم قسمٌ كبير من جزيرة العرب رجاءَ أن يكونوا سَندًا في مقاتلة من يَظْهَرُ من القرامطة.

وغدا اسمُ عليٍّ واسمُ خلفاء المعزِّ وحدهما يذكران في مساجد الفاطميين، وظل اسمُ خلفاء بني العباس يُنادىٰ به في مسجد آل بُوَيْه وآلِ سامانَ.

تلك الدول الثلاث هي ما كانت تتألَّفُ من إمبراطورية العرب في الشرق في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ونَجِدُ في تاريخها فائدةً حقيقيةً، فقد توارىٰ آلُ بُوَيه رويدًا رويدًا، فبدَّلت الحضارة مكانها، فأخذ العرب يُلقونَ أسطعَ الأنوار من القاهرة، لا من بغداد.

ازدهرت التجارة والصناعة والزراعة والآداب والفنون والعلومُ في العهد الفاطميِّ بمصر كما ازدهرت في عهد خلفاء بني العباس الأولين، ورَبَطَ الفاطميون مدينة الفسطاط الصغيرة بمدينة مصر بما قاموا به من الأشغال العظيمة، وصارت عاصمتهم الجديدة تنافس أجمل مدنِ آسية، وشِيدَتْ مساجد فخمة بجانب المساجد الطولونية، وسَلَك ابنُ يونسَ المصريُّ سبيل فَلَكِيِّي العراق فكان له مرصده، ولم يُقصِّر الفاطميون في صنع ما ينسىٰ الناس به بغداد، وعُنُوا كثيرًا بإدارة أمور المال وجبايةِ الضرائب، ولم يلبثوا أن صار لهم مثل دَخْلِ هارون الرشيد تقريبًا بفضل غنىٰ ذلك البلد العجيب المستعدِّ للقيام بأعظم التضحيات علىٰ الدوام في مقابل ما يُنْعَمُ عليه به من التدابير الحسنة.

وعرَفَ المعزُّ (٩٥٣–٩٧٥) والعزيز بالله (٩٧٥–٩٩٥) كيف يُحسِنانِ السياسة، ثم خلفهما الحاكم (٩٩٦–١٠٢٠) فظهر شيطانًا شريرًا علىٰ العرش، فقد استذلَّ هذا الخليفة، الذي دام عهده أربعًا وعشرين سنة، رعاياه بأرذلِ ذُلٍّ، فكانت فرائصُ الجميع ترتعد فَرَقًا أمامه.

كان يسير خَلْفَ الحاكم عُبْدَانٌ مسلحون فيأمرهم بذبح كل من لم يَرُقهُ، ونظم الحاكم أمور التجسس تنظيمًا مُحكمًا فكان عيونه يخبرونه بأدق الحوادث

فيدَّعي أنه أُعطيَ علمًا لا حدَّ له فيرىٰ كلَّ شيء ويعلم كل شيء، وعُبِدَ الحاكم كإلهٍ، ثم غاب بغتةً عن الأبصار فكملت بذلك الخديعةُ، فأعْلِنَ أنه رفع إلىٰ السماء وأنه سيظهر علىٰ الأرض ذات حينٍ.

وجَهرَ حمزةُ الفارسي بقوله إن من الممكن أن يتَجَسدَ الله في صورة إنسان، وإنه كان قد تجسد عدة مرات، وإنه تجسد في المرة الأخيرة في الخليفة الحاكم، فأبدىٰ أهل القاهرة ذوقًا سليمًا فغضبوا علىٰ حمزةَ الفارسي فطردوه ففرَّ إلىٰ الشام حيث نشر بين الدروز مذهبه المعروف بالتوحيديِّ فلا يزال الدروز يزاولونه.

ويُطَّلع علىٰ ما كان يُبديه الحاكم من الاستبداد الأعمىٰ من عدة أعمال اقترفها، فمن ذلك أن كان يرمي من نافذة قصره، علىٰ غير هُدًىٰ، بطاقاتٍ موجهةً إلىٰ أميرٍ معين فيأمره فيها بأن يُعطي حاملها مبلغًا عظيمًا من المال، وإلا جُوزِيَ بأفظع العقوبات ومنها أنه أمر بحرق القاهرة ليتمتع بمنظر التهام النيران لها، ومنها أنه أباح لجنوده انتهابَ القاهرة ذاتَ مرةٍ، ومنها أنه كان يُعذبُ اليهود والنصارىٰ حتىٰ يكفروا بدينهم، فإذا ما كفروا أَذِنَ لهم في العودة إليهما.

وما كان الهولُ ليفارق الحاكم، فكان الأسد الهائج بين الناس كما قال النويري، وكان الحاكمُ يحترم العلماء ويرغبهم في العلم مع ذلك، فأهدَىٰ إليه ابن يونس الأزياج المعروفة بالزيج الحاكمي، ويفترض أن تكون إحدىٰ أخواته قد قتلته فآلت إليها وصاية ابنه الظاهر الذي كان صبيًا (١٠٢٠-١٠٣٢).

ولما مات الظاهرُ جلس علىٰ العرش أبو تميم المستنصرُ مدة ثمان وخمسين سنة (١٠٣٦-١٠٩٤) فظل زمامُ السلطة قبضةَ وزيرٍ مثَّلَ في القاهرة مِثْلَ دور أمير الأمراء ببغداد إلىٰ أن بلغ المستنصر سِنَّ الرشد، ثم لاح للمستنصر شَيْدُ خلافةٍ عامةٍ عندما بايعته إفريقية وجزيرة العرب وأعلنت سيادته الروحية بغداد التي سخط أهلوها علىٰ القائم بأمر الله لأنه ألقىٰ بنفسه بين ذراعي طغرل بك التركي السلجوقي، بَيْدَ أن هذا لم يكن غير بَرْقٍ خُلَّبٍ، حتىٰ إن المستنصر خسر أفضل أقسام سورية جزاء طمعه الشديد ولم يستطع أن يحتفظ بفلسطين إلا بعد عناءٍ كبير.

طال عهد الفاطميين ولم يُكتبْ مثلُ دوامه لآل بُوَيْه الذين استولوا علىٰ بلاد فارس سنة ٩٣٣ فأصبحوا ذوي السلطان في العراق العربي وفي بغداد بفضل منصب أمير الأمراء، وكان ازدهار دورِ آل بُوَيْه يسعىٰ بين أيديهم، وظلَّ آلُ بُوَيْه بلا منازع في آسية في النصف الأخير من القرن العاشر، وذلك بعد أن قُضي علىٰ الحرس التركي وطُرِدَ بنو حمدانَ من الجزيرة ومن عاصمتهم الموصل، وأدىٰ ما أعيد إلىٰ الولايات من الهدوء والطمأنينة في عهد آلِ بُوَيْه إلىٰ مواصلتهم عملَ المأمون، ومن أمراء آل بُوَيْه نذكر عَضُدَ الدولة وشرف الدولة (٩٤٩-٩٨٩) اللذين أيقظا هِمَّةَ رجال الأدب فأنهضا مدرسة بغداد بعد أن قاست فتن الخلفاء قليلًا فأنجبت في عهدها بابنِ الأعلم وبعبد الرحمن الصوفيِّ وبعالمِ الفلك والهندسة أبي الوفاء.

ولم يكتف عضدُ الدولة بإحسانه العميم إلىٰ الشعراء والعلماء، بل قام بمشاريع عظيمة ذات نفعٍ عام، فعهدِ إلىٰ كبار المهندسين في تقنية نهر بندميرَ بالقرب من شيراز الفارسية فحال دون حدوث الفيضانات التي كانت تخرِّبُ الزرع في حقول ذلك البلد الجميلة علىٰ الدوام، فمنح التجارةَ بذلك طريق مواصلاتٍ جديدة، وأنشأ عضُدُ الدولة مَشفًىٰ فخمًا ببغداد فظل مهرجان افتتاحه مشهورًا في تقاويم الشرق.

ومن دواعي الأسف أن عجَز آل بُوَيْه، كما عجز الخلفاء عن وضع دساتيرَ ثابتةٍ لنقل ولاياتهم إلىٰ أبنائهم، فأعدوا تمزيقَ دولتهم التي شادوها بتقسيم ميراثهم بين هؤلاء الأبناء تقسيمًا مخالفًا لحسن السياسة، فأسفر ذلك عن فتح بابِ الفتن علىٰ مِصراعيه واشتعال ثوراتٍ جديدة.

ووقع انهيار مُلك بني سامانَ، الذي دام أكثر من قرنٍ (٨٧٤-٩٩٩)، حوالي ذلك التاريخ، وحدث ارتقاء مملوكٍ تركي اسمه أَلْب تِكين إلىٰ أعلىٰ المناصب في عهد عبد الملك، فلما مات مولاه أراد أن يستبدَّ بالحكم فحبِط عمله فاضطُرَّ إلىٰ ترك بخارَىٰ والاستقرار بِغَزْنَةَ حيث قاوم ما بذله بنو سامانَ من الجهود لإسقاطه، فخلفه صهرُه وقائده ومشيرُه سبكتكين سنة ٩٩٥، فأحبَّ سبكتكينَ رعاياه واحترمه جيرانهُ لحزْمِه وحسن إدارته، فحَملَ إلىٰ الهند إيمانَه

وسلاحَه فخرَّبَ البنجابَ وأَسَّسَ المدينتين: بوُسْطَ وقصدارَ، وكان سيكتكينُ حليفًا وفيًّا لحفيد عبد الملك، نوحٍ، فدافع عن بني سامانَ ضدَّ غارات الترك الذين غزَوْا بلاد ما وراء النهر، وعَيَّنَ أصغرَ أبنائه، خلفًا له، فامتشق ابنُه الأكبر محمودٌ الحُسامَ بعد وفاته مطالبًا بحقِّ البِكريَّةِ، فأعلن نفسه أميرًا مستقلًا فاغتنىٰ بأسلاب الهند، فقهر بني سامانَ من غير عناءٍ فأضحىٰ سيدَ خراسانَ (١٠٠٠)، فأرسل الخليفةُ، الخاضعُ لأميرِ الأمراء، براءة التوليةِ إليه من غير أن يستطيعَ تحويله عن خِطَطِه في الفتح، فهجمَ محمودٌ علىٰ البُويْهيِّين، فسَلخَ منهم جُرْجانَ والعراق العجميَّ، فصار بحرُ قَزوينَ حدًّا لدولةٍ تبدأ من منابع السِّندِ والغَنج، وتشتملُ، من تلك الناحية، علىٰ ما يُعرْفُ اليومَ بأفغانستانَ ومملكة هَراةَ وبلوخستان.

وكان محمودٌ أولَ من حملَ لقبَ سلطانٍ من بين أمراء الشرق، وكان محمودٌ نصيرًا للسُّنِّية فأعلن في كلِّ مكان أنه ناشرٌ لدين الإسلام، وظهر محمود نصيرًا للعرق العربي علىٰ الدوام، وكانت غَزنة عاصمته، وإليها نسبَه المؤرخون.

والسلطان محمود الغزنوي مَدين بشهرته لمغازيه في الهند علىٰ الخصوص، فأعطته الجِزية قنوجُ ولاهور ودهلي، وخرَّب السلطان محمود مملكة كجرات وهَدَم زُوْن سومنات الذي لا يَرقىٰ إلىٰ رَوعتهِ أخصب خيال، وكانت قُبَّة هذا الزُّوْن مصفَّحة بالذهب ومُرصَّعة بالحجارة الكريمة وقائمة علىٰ سِت وخمسين سارية، وكان هذا الزُّوْن يُضاء بمصباح ينعكس نوره علىٰ ما لا يُحصيه عدٌّ من الألماس، وكان صنعه مصنوعًا من حجرٍ واحد طوله خمسون ذراعًا، وكان يقوم بخدمته ألفا برهميٍّ، وعُرض علىٰ الغازي السلطان محمود أكثر من مائتي مليون ثمنًا لذلك الصنم الذي هو صنم الهندوستان الرئيسُ، فلم يَقبل، فأمر بتحطيمه، فرأىٰ أن ما تداعىٰ علىٰ قدميه من اللؤلؤ والألماس والياقوت وما إلىٰ ذلك يزيد كثيرًا عما عُرض عليه.

وكان السلطان محمود مملوءًا حَميَّةً لدين محمد فشابه بهذه الحمية خلفاءَ النبيِّ السابقين، فنال من خليفة بغداد القادرِ بالله لقبَ «يمين الدولة» عن جَدارة، وكان البيروني من حاشيته.

وفيما كانت كتائب السلطان محمود تكتسح بلاد الهند إذْ أصبحت بلاد ما وراء النهر قبضةَ قبائلٍ من التركستان، ومن خطأ السلطان محمود أن ترَك لها هذه الولاية وأن أدخل إليها، من ناحية نهر أكسوس (جيحون)، الذي هو حدٌّ تَصعُب مجاوزتُه، الأتراكَ السلجوقيين المسلمين حديثًا فطلبوا أراضيَ في خُرَاسان، فقد جَدَّ، علىٰ غير جدْوىٰ، مسعودٌ الذي خلَف أباه محمودًا سنة ١٠٣٠، في التخلص من جوارهم المرهوب، فغُلِب فاضطرَّ إلىٰ التزام خطَّة الدفاع تجاههم، فتُوِّج حفيد سلجوق طغرلُ بك في نَيْسابُور فلم يَنشَب أن كُتِب له علىٰ أصحاب غَزْنة نصرٌ جديد أسطعُ من النصر السابق فردَّهم إلىٰ جهة الهند.

ولم يبق هنالك ما يَشغَل بال طغرل بك فوَجَّه أنظاره إلىٰ الغرب فاكتسح خُوارِزْم وجُرْجان والعراق العجميَّ فوجد نفسه مقابلًا لآلِ بُوَيْه، وكان الخليفةُ القائم بأمر الله يَضغَط، من كل ناحية، من قِبَل وُزراء مَرَدة، من قِبَل فاطميي مصر، من قِبَل أمراء الشام، فشَملت نظرَه تقوىٰ طغرل بك الذي بَنىٰ بيتًا لإله محمدٍ في كل مدينةٍ فتحها، فوَضعَ نفسه تحت حمايته مُفوضًا إليه أمر السلطة الزمنية في جميع بلاد الإسلام.

وكانت تولية طغرل بك في بغداد، فدخل طغرل بك، وضباطُه من ورائه، بهْوَ الاستقبال عاطلًا من السلاح، فقبَّلَ الأرض أمام الخليفة الذي كان لابسًا كِسوة العباسيين السوداء، ثم جلس فوق عرشٍ هُيِئَ له، فأنصت لقراءة البراءَة التي أُعلن فيها سلطانهُ علىٰ جميع المسلمين، فوضع الخليفة، الذي ظلَّ رئيس الدولة الروحي فقط، تاجين علىٰ رأس طغرل بك ليكونا رَمزَين إلىٰ ولايته علىٰ جزيرة العرب وبلاد فارس، وقلَّده حُسامًا فاخرًا، وأُلِبس بالتتابع سبعة ثيابِ شرف، وأُهديَ إليه سبعة أرقاء وُلِدوا في أقطار الإمبراطورية الإسلامية السبعة، وختم الحُجَّاب الحفلةَ بإعلانهم أنه سلطانُ المشرق والمغرب، ومما زاد هذا الاتحاد قوةً زواجُ الخليفة بأختِ السلطان السلجوقيِّ طغرل بك وقَرْنُ اسم هذا السلطان باسم الخليفة في الخُطبة، غير أن التركَ لم يكادوا يَرحَلون عن بغداد حتىٰ عمَّتها الفتنة، فنُودي فيها بأبي تميمٍ المستنصر الفاطمي المصري خليفةً بدلًا من القائم بأمر الله، فوَجب رجوع طغرل بك إلىٰ بغداد لِيُنقِذ القائم وَيُعيده إلىٰ العرش،

فقاد طغرل بك، المُخلِصُ إلىٰ سياسته، البغلةَ الحاملة أمير المؤمنين من السجن إلىٰ القصر مُمْسكًا بِعنانِها.

وإن سلطان العرب ليزول بالتدريج إذ أخذ الروم يَبذِلون بعض الجهود ليستردوا ولاياتهم القديمة، وكان أسطول الروم قد خرَّب مدينة دِمْياط سنة ٨٥٢، ثم حدث بعد قرنٍ أن انتهىٰ الروم إلىٰ مدينة حلب فنهبوا خزائن الأمير الحمدانيِّ سيف الدولة، وعبر اثنان من قياصرة الروم، وهما: نيقفور فوقاس ويوحنا زيميسيس نهرَ الفرات فغمَرَت جيوشُهما الجزيرة، واستولىٰ زيميسيس علىٰ عددٍ غير قليلٍ من الأماكن المحصَّنة في هذه الولاية فضلًا عن أنطاكية من بلاد الشام، وعن كليكية، وعن جزيرة قُبْرُس.

وإذا كان الخلفاء عاجزين عن مقاومة الروم فكيف يَقدِرون علىٰ وقفِ قبائلِ التركستان المحاربة التي جمعها السلجوقيون تحت لوائهم واعدين إياها بحصةٍ من الأسلاب التي يأخذونها؟ لقد سهُل علىٰ بني سامان أن يَرُدُّوا هذه القبائلَ علىٰ أعقابها في سنة ٨٩٣ حينما كانت متفرقةً علىٰ حدودهم، واليوم قد تجمَّعت هذه القبائلُ تحت إمْرَة زعيمٍ واحد فهَبَّت لتحطيمِ جميعِ العوائق وتدويخ آسية الغربية والسيطرة عليها عِدَّةَ قرون.

الفصل الرابع
دولة الترك السلجوقيين
استيلاء المغول والترك الشرقيين

لا يتطرقنَّ الوهمُ إلىٰ الأذهان في عهد السلجوقيين الذين أُطلقَ اسمهم علىٰ أتباع طغرل بك من الترك فاشتركوا في فتوحه، فليس الأمرُ أمرَ قبيلةٍ خاصة، ففي صحارىٰ التركستان، كما في صحارىٰ جزيرة العرب إذا ما سيطرت قبيلةٌ علىٰ قبائلَ أخرىٰ فَرضتْ اسمَ رؤسائها علىٰ هذه القبائل، والتركُ هم من العرق الشِّيثِيِّ، وهم كالهُونِ الذين وصف هَوْلَهم مؤرخو الروم، وكالفرسان البرابرة الذين تقدموا حتىٰ جبل طارق، وكالبلغار والأوار والمَجر والخَزَرِ والبشنغِ والكُومانِ والمغول الذين خرَّبوا أوربة وغربَ آسية غيرَ مرة.

ولا بدَّ من الفَرْزِ والتمييز مع ذلك، فبينما ترىٰ محافظةَ التتر والمغول علىٰ سجيَّتِهم الفطرية في أقاصي آسية وعيشهم كالوحوش من بعض الوجوه، غيرَ معترفين بسوىٰ سيفٍ مجردٍ مغروسٍ في الأرض إلهًا، ترىٰ الآدميين الذين اقتربوا من الغرب فظهروا علىٰ مسرحِ التاريخ منذ القرن الخامس باسم الترك قد تغيَّرُوا بفضل اتصالهم بالعنصر العربيِّ وحضارته، فصِرتَ لا تُبصرُ فيهم صفاتِ قدماء الشِّيثيين الكريهة.

ويمارس الترك الزراعة والتجارة. ويتصفون بالانتفاخ والزهوِ الباطل ويُضَحُّون بكلِّ شيء حُبًّا لصاحب السلطة، ويُسِيغون غَصَصَ العبوديةِ ليروقوا مولاهم بما يُطْفئُ الذكاء من القسرِ الماديِّ.

ويستولي السلجوقيون علىٰ بلاد الفرس ويجدون في كلِّ مكانٍ إخوانًا لهم بين صفوف الأعداءِ، ويطلب السُّنِّيُّون والشيعة، علىٰ السواء، توليتهم سلطانَ ما افتتحوه والسلجوقيون إذ كانوا مفطورين علىٰ الروح الحربية مملوئين حميةً وحماسةً، علىٰ حين كان العرب يبحثون عن الراحة في فنون السلْمِ، لم يلبثوا أن ملكوا البلادَ وهم في مَعْزلٍ عن غيرهم، والسلجوقيون إذ قهروا الرومَ فانتزعوا منهم آسية الصغرىٰ امتدَّ سلطانُهم من نهر السندِ إلىٰ البُسفور، والسلجوقيون إذ لم يعرِفوا كيف ينظِّمون الأمورَ تنظيمًا متينًا كان فُقدانُ السلطةِ العليا يلوح للناظر في أرجاء الدولة، والسلجوقيون إذ تنازعَ السلطةَ زعماؤهم المتنافسون المستقلُّ بعضُهم عن بعض فأدىٰ ذلك إلىٰ الانقسام بَدَوْا عاطلين من مُقوِّماتِ الدفاع حينما انقضَّ جنكيز خان علىٰ الغرب في أوائل القرن الثالث عشر.

وأنضرُ دورٍ في تاريخ السلجوقيين هو دور الاستيلاء الذي كان بين سنة ١٠٥٥ وسنة ١٠٩٢ حين كانوا لا يعرفون غير سيدٍ واحد يوزِّعُ الغنائمَ بينهم، وعرَفَ طغرل بك كيف يقسِّمُ الحكوماتِ بين أقربائه وأخلصِ أُجَرائه، واعترف الخلفاءُ بسلطانه الأعلىٰ فتقدَّمَ حتىٰ الجزيرة وأرمينية فخضعتا لأحكامه، ثم أتاه الموتُ بغتةً وقتما كان يقوم بمفاخره (١٠٦٢) فخلفَه ابن أخيه ألب أرسلان الذي ازدهر عهدهُ أيضًا، فاستولىٰ علىٰ كليكية، فذهبت جهود القيصر ديوجين في الاحتفاظ بفتوح يوحنا زيميسيس أدراج الرياح، فكُسِر وأُسر فعامله الغالب معاملة تليق بمقامه، وصار أهل مكة لا يذكرون اسم الخليفة الفاطمي في الخُطبة مستبدلين به اسم الخليفة العباسي واسم السلطان السلجوقي، وقضىٰ ألب أرسلان علىٰ استقلال الكُرج، وكاد ألب أرسلان يهجمُ علىٰ التركستان لو لم يطعنه خُوارِزْمي بخنجر، وكان أهمُّ قسم بآسية يعترف بسلطانه، ودان له مئتا زعيم بالطاعة، وكان ينضوي إلىٰ لوائه مئتا ألف جندي، وهو علىٰ ما كان أُبَّهته وبسالته ومغازيه الموَفَّقة، لم يكن أعظم أمراء آله، فقد حَفظ هذا المجد لابنه جلال الدين ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢).

كان ملكشاه متصفًا بأجمل الصفات، وساعده علىٰ تنفيذ خِطَطه مساعدةً عجيبة وزيرُه الأكبر نظام المُلك الذي ظلَّ اسمهُ مشهورًا في الشرق لعنايته بالعلوم

والآداب، فأقيمت في بغداد المدرسة الحنفية والمدرسة النظامية، وشِيدَ كثيرٌ من المساجد وأُنشئت طرقٌ وقنواتٌ في أرجاء الدولة، وقام عمر الخيَّام بإصلاح التقويم الفارسي المعروف بالتقويم الجلاليِّ والذي يفوق التقويم الغريغوريَّ ضبطًا ودقة.

وبينما كان نظام الملك يقوم بأعمال الإدارة النافعة كان مولاه ملكشاه يجوب ولاياتِه طولًا وعرضًا موسِّعًا حدود مملكته، فكان اسمه يُدَوِّي في الخُطَب بمكة والمدينة والقدس وبغداد وأصفهان والريِّ وسمرقند وبخارىٰ وكَشْغر، وثبَّت ملكشاه قواعد مُلكه في الجزيرة وسورية، وفي فلسطين أيضًا، وأصبح سيد آسية الصغرىٰ، وأمر ملكشاه قريبًا له اسمهُ سليمان بدخول بلاد الروم ففعل فوصَل إلىٰ البسفور بعد أن فتح جميع البلدان الواقعة بين أرمينية الكبرىٰ والكُرج والبحر الأسود والبحر المتوسط وألبانية[١] وأرمينية الصغرىٰ (١٠٨١)، ومن هنا كان أصل اسم سلطنة الروم، ثم اسم آسية التركية التي مَثَّلت دورًا مهمًا في الحروب الصليبية، وأدت انتصارات سليمان إلىٰ طرد الروم من آسية، ودانت لسلطان الفاتحين الجُدُد أنطاكية ومدن الجزيرة مع أن جميع سكانها من النصارىٰ، وحدث أن أُسر ملكشاه في إحدىٰ تلك الغزوات فاختلط بالأسرىٰ لبساطة ثيابه، فأوجب وزيره نظام الملك إطلاقَه بما أبداه من حذر وحِذقٍ، ثم خُدع السلطان ملكشاه بزائف التقارير فسخِط علىٰ ذلك الوزير الممتاز الذي كان عِماد الدولة فقُتل بسيف الإسماعيلية في الثالثة والتسعين من سِنيه، وأراد ملكشاه أن يسير علىٰ غِرار ألب أرسلان فأوْغل في التركستان ففرض سيادتَه علىٰ كثير من رؤساء ذلك القطر فامتدت حدوده من البسفور إلىٰ نهر السِّند.

ومات ملكشاه سنة ١٠٩٢، فأضاعت الدولة السلجوقية وَحدتَها فتألفت منها عدة إمارات مستقلة، فلم يستطع سلطان العجم أن يُشرف علىٰ أمراء آله الآخرين، فاقتسم أبناءُ ملكشاة الأربعة: محمود وبركياروق وسنجر ومحمد، ولاياتِه بعد حروب طويلة استنزفت قُوىٰ السلجوقية من غير أن يظفر بها العرق

(١) ألبانية: هو اسم الشيروان القديم الواقع شمال أذربيجان، وهو غير ألبانية المعروفة ببلاد الأرناؤود في أوربة. (المترجم).

التركي والإسلام بطائل (١٠٩٢-١١٥٤)، فظلت سَلطنات العجم، وكرمانُ، وحلبُ أو الشام، والروم أو آسية الصغرىٰ مستقلًا بعضُها عن بعض.

وأنكر حكام المدن أو الولايات المعروفون بالأَتابَكِيَّة والأمراء سيادة حَفدة سلجوق، وانتهىٰ عامل ملكشاه الأقسيس الخُورازِمي بجيوش مولاه إلىٰ شواطئ النيل فدحره إلىٰ الشام أهلُ القاهرة الذين التفُّوا حول الخليفة المستنصر فانتهب القدس، فاستقرَّ بها الأمير أُرتُق منذ سنة ١٠٩٦ ساعيًا في جعل سلطتهِ وراثيَّة، ثم أَعد أمير الموصل الأتابَك زنْكي شوكة ابنه نور الدين بعد بضع سنين، واهتبل والي خوَارِزْم ما بين السلجوقية من نزاع فأعلن استقلاله مع ما بذله من الجهود سلطانُ العجم سنجر الذي كان آخر أبطال قومه (١١٢٧)، ثم استأنف خلفاؤه العمل فهبُّوا إلىٰ الفتح فاستولوْا علىٰ بلاد ما وراء النهر وخراسان والعراق العجمي وكرمان فجدَّدوا بذلك دولة أصحاب غَزْنة، وظهر من هذه الأُسرة أمراء حفِظوا الولايات الواقعة علىٰ ضفتي نهر السِّند إلىٰ أن استقر الغورية من ذرية سام غوري بلاهورَ (١١٨٣-١٢٠٥)، ثم بدهلي قاعدةِ الإسلام بالهند، ونهبوا بنارس ودوّخوا البنغال وأنشؤوا أُسرة الأفغان المالكة في باروباميزوس القديمة.

ولم تمد خمسٌ وعشرون سنة تمضي علىٰ تأسيس الغورية سلطانَهم فوق أنقاض أصحاب غَزْنة الآخرين حتىٰ انتزع سلطانُ خُوارِزْم محمد منهم ولاياتهم الغربية، فبدا قويًا قوةَ ملكشاهَ، فاعترفت التركستان بسيادته، ولكنه غُلب في إبَّانِ سلطانه، أمام الغزوِ المغوليِّ (١٢٠٨-١٢١٨).

بينَّا، فيما تقدم نشوءَ ما بين العرق العربي والعرق التركي من تباين، وتقدم قبائل الشمال المتنازعة هي وقبائل الجنوب تقدمًا متصلًا، فكان ذلك صِراعًا بين المادة والذكاء، وتُهَدِّدُ الوحشيةُ ممالك الإسلام بالشمول، كما وقع في أوربة منذ بضعة قرون حين كانت الهمجية ملازمةً لطوفان الفاتحين من الجرمان، وترىٰ الترك الذين فاز بهم حكمُ السيف يخضعون مع ذلك لحكم حضارة العرب فيعتنقون دينَ العرب ولغتهم ويحترمون علماءهم ويحمون آدابهم ويستلهمونهم، ونجد وجهَ شَبهٍ يستوقف النظرَ بين انحطاط الدولة العربية والدولة الرومانية،

فنُبْصِرُ السلاطينَ يجدِّدون في الشرق مثلَ عهدي ثيودوريكَ وشارلمانَ الزاهريْن في الغرب فتستمر مدرسة بغداد علىٰ إلقاء نورها فوق آسية إلىٰ أواخر القرن الخامس عشر.

وبقي خلفاء بني العباس، الذين استردوا استقلالهم بسبب ما طرأ علىٰ السلجوقيين من ضَعف عاطلين من النفوذ ولم يخرجوا من عاصمتهم قط ولم يكن سلطانُهم ليمتدَّ إلىٰ ما هو أبعد منها، ولم يُعتِّم القائمُ بأمر الله، الذي أتىٰ بطغرل بك، أن شَعَر بأنه لم يصنعْ سوىٰ تبديلِ سيدٍ بسيدٍ (١٠٥٥ - ١٠٧٤)، واكتفىٰ خليفتاه المقتدي (١٠٧٥-١٠٩٤) والمستظهرُ (١٠٩٤-١١١٨) بإرسال تاجٍ وقِلادة وأساورَ وكِساءٍ شرفٍ رمزًا إلىٰ التولية، ثم حاول المسترشدُ (١١١٨-١١٣٩) والراشدُ (١١٣٥-١١٣٦) إنهاض الخلافة، فأما الأول فدَحَر سلجوقيًّا أراد إكراهَه علىٰ منحه لقبَ سلطان، وأما الآخرُ فهلك مدافعًا عن بغداد تجاهَ السلطانِ مسعودِ بنِ محمد بن ملكشاهَ دافعًا إياه عن السلطة، وكان مسعودٌ هذا من القوة بحيث يَحمِلُ الخلفاء علىٰ احترامه، ولم يَجرؤْ خليفةُ الراشد المقتفي الثاني (١١٣٦-١١٦٠) أن يقاومَه إلىٰ أن مات، ثم أدَّىٰ تُراثُ السلطان مسعودٍ إلىٰ اضطراب السلجوقية فانتحل الخليفةُ وضْعَ السيد المالك فانتصر في الهَجماتِ التي وُجِّهت إلىٰ بغدادَ فدَانَ له العراقُ العربي، فلم يَأذن في غير ذكر اسم السلطان بعد اسمه في الخُطبة، فسارت الأمور علىٰ هذا المنوال في قرنٍ كاملٍ (١١٥٢-١٢٥٨)، فلم يكن المستنجدُ (١١٦٠-١١٧٠) والمستضيءُ (١١٧٠-١١٧٩) والناصرُ لدين الله (١١٨٠-١٢٢٥) والظاهرُ (١٢٢٥-١٢٢٦) والمستنصرُ (١٢٢٦-١٢٤٣) والمستعصمُ (١٢٤٣-١٢٥٨) ليخجلوا من ترك إدارة دَفَّةِ الحكم لغيرهم، واستطاع هؤلاء بأنفسهم، وعلىٰ حسب سجِيتِهم، أن يَحْمُوا التجارة والصناعة والآداب والعلوم من غير أن يتعرض أحدٌ لهم مع ذلك، ومن هؤلاء نذكر الناصر الذي أنشأ مدارسَ ومشافي ومساجد جديدة، فلم يخلُ دوره من نضارةٍ، وكانت بغدادُ تلوح بين الانقلابات التي تَحدُثُ في أنحاء آسية حِصْنًا يتعذرُ اقتحامُه، فلم تكد المنازعاتُ الداميةُ بين السُّنِّيَّةِ الأحامِسِ والشيعة الشوامسِ، أو مزاعمُ جيوش أقرباء الخلفاء، تكدِّرُ صَفوَها.

إذن، نَقَصتْ سلطةُ السلجوقيين في الولاياتِ الشرقية من الإمبراطورية العربية في القرن الثاني عشر نقصانًا كبيرًا بعد أن كانت عظيمةً في أواخر القرن الحادي عشر، فلمَّا كان أولُ القرن الثالث عشر كان أتابكِيَّةُ أَذْرَبِيجانَ ولارستانَ وفارسيستانَ مستقلين مقتسمين السلطةَ العليا هم وسلاطين خُوارِزْم وخلفاء بغداد.

وماذا حدث في الولايات الغربية إذن؟ كان ملكشاهُ قد أخضع لحُكمِه الجزيرة وآسية الصغرىٰ وسورية فقامت بعد وفاته (١٠٩٢) السلطاتُ الثلاثُ قونية وحلب ودمشق، المستقلُّ بعضها عن بعضٍ وغير المرتبطة في سلطنة العَجَم وسلطنة كَرْمَان، وكانت السلطنة الأولىٰ منها تشتمل علىٰ آسية الصغرىٰ التي لم يستولِ العربُ عليها قط، وكانت السلطنتان الأخريان تتنازعان مُدُن الجزيرة وسورية الكبرىٰ بشدة، فلاحت لخلفاء القاهرة الفاطميين فرصةٌ ملائمة لاسترداد سيادتهم علىٰ تلك الديار، غير أن هؤلاء الخلفاء كانوا قد أضاعوا سابق سطوتهم، فدعوا أهل الحجاز يذكرون في الخُطبة اسم السلاطين السلجوقيين من غير معارضة، وظهر خليفةُ المستنصر المستعلي (١٠٩٤-١١٠١) بعيدًا من تأليب العرب علىٰ الترك فلم يفكر في غير التدخلِ في منازعاتِ الأمراء السلجوقيين لينالَ بالدسيسة بعض المنحِ التافهة.

وإن الأمور لكذلك إذ حدث ما يحوِّلُ النفوسَ عن الحروب الداخلية والمنازع القومية، فقد أوقد وصول جيوش نصرانية كثيرة إلىٰ فلسطين لإنقاذ القدس نارَ الحميَّة الدينية في المسلمين، فلم يفكر بعد ذلك الغزوِ أحدٌ في شَحْذِ السلاح لأمرٍ آخر، فوقف العربُ والتركُ ما بينهم من تنافسٍ واتحدوا ضدَّ العدوِّ المشترك، ولكن الخطر الأول ما كاد يزول حتىٰ عادت الانقساماتُ إلىٰ ما كانت عليه مُمكِّنةً النصارىٰ من التقدم، أجل عُدَّت الحروب الصليبية أحيانًا رد فعلٍ ضدَّ آسية وانتقامًا من العرب لِمَا كان من غزوهم لأوربة، إلا أن الحروب الصليبية نشأت في الحقيقة، عن الحماسة التي أشعلها باباواتُ رومة في نفوس العالم الكاثوليكيِّ، فلم يكن إنقاذُ القسطنطينية التي كان يهدِّدُها الأتراك السلجوقيون إلا أمرًا ثانويًا لدىٰ الصليبيين الأولين، والصليبيون قد ذُكِرَ لهم تدنيسُ أناسٍ من الهمج لقبر يسوعَ المخلِّصِ، وذُكرَ لهم وجوب حفظ مَهْدِ دينهم من التنجيس،

فلبَّت الألوفُ تلك الدعوة التي رُفِعت باسم ربِّ النصارىٰ، وكان الكثيرون من جيوش بطرسَ الناسكِ وغوتيه الفقير قد ماتوا في هنغارية وبلغارية فهلك مَنْ بقي منها في ممالك سلطان قونية، وذلك قبل وصول غودفروا البويونيِّ (١٠٩٧)، فظن المسلمون حينئذ أنه لم يَبْقَ من العدو في الخارج ما يخشونه فعادوا إلىٰ حروبهم الداخلية، فلما عَبَرتْ كتائبُ رؤساء الحملة الصليبية الأولىٰ المنظَّمة مضيق البُسفور لم تجد أمامها مَن تحاربهم سوىٰ الأتراك السلجوقيين المتنازعين فتغلَّبت علىٰ جهودهم الجزئية، وجاوز الصليبيون جبالَ كليكية وفتحوا أنطاكية وفاوضوا أمراء سورية ودخلوا فلسطين، فوجدوا الخليفةَ الفاطميَّ الذي استرد القدس من الترك الأرتقيين منذ زمن قريب (١٠٩٩)، فغلبُوه، واستقرَّ الصليبيون بالقدس وما جاورها فلم يُكْتَبْ لهم غيرُ تقدمٍ قليلٍ، وبودوانُ وحدَه قد استولىٰ علىٰ الرُّهَا (أُورْفَه) التي هي من مُدنِ الجزيرة فحاول الزحفَ من ناحية بغدادَ.

ظلَّ المسلمون مجزَّئين لا رئيس لهم، ولم يفكِّر الخلفاء الفاطميون [المستعلي (١٠٩٤-١١٠١) والآمر (١١٠١-١١٣٠) والحافظ (١١٣٠-١١٤٩) والظافر (١١٤٩-١١٥٤) والفائز بنصر الله (١١٥٤-١١٦٠) والعاضد لدين الله (١١٦٠-١١٨٠)]، وإن شئت فقل أكابر وزرائهم، في الاتحاد مع أمراء الشام المستقلين لِيُلْقوا أعداء دينهم في البحر المتوسط، فالذي يلوح أن سياستهم كانت تقوم علىٰ مقاتلة الترك، فلم تَبْدُ محاربة الفَرنْجِ لهم إلا أمرًا ثانويًّا، ولكن موت بركيا روقَ لم يَكد يقع حتىٰ ظهر في أثناء تمزُّق الدولة السلجوقية مدافعٌ جديد عن الإسلام.

امتاز عماد الدين زَنْكي في بَلاط السلجوقية بالموصل وحلب وتَلَقَّب بأَتَابَك، وأقام دُوْيْلة مستقلة بين الجزيرة والعراق العربي (١١٢٢)، فبلغ من الهيبة لدىٰ الأمر المجاورين ما لم يَجرؤوا معه علىٰ عدم إطاعته، واتخذ عماد الدين الموصل عاصمة له فهاجم سلطان حلب السلجوقيَّ فأصبح سيدها (١١٢٧)، ثم أثار عماد الدين الحقد علىٰ النصارىٰ في قلوب المسلمين فبدأَ يَشُنُّ علىٰ الفرنج حرب مناوشات انتهت باستيلائه علىٰ الرُّها، وحَمَلتْ هذه الحرب ملوك القدس علىٰ الاستغاثة بأوربة، فَجَرَّد لويس السابع والإمبراطور كونرادُ الثالث حملتيهما

الصليبيتين اللتين أسفرتا عن نتائج وبيلة، وقُتِل زنكي عن وَلَدَيْه سيف الدين ونور الدين فأثبت نور الدين أنه سرُّ أبيه، فأضنىٰ الفرنج بهجماته الكثيرة، ونَهكت ذينك العاقلين جهودُهما العقيمة ضد دمشق التي لم تزل قبضة السلجوقيين، فلما رأىٰ نورُ الدين ارتدادَهما هَجَم بنفسه علىٰ سلطان دمشق الذي ضَعُفَتْ قواه بما أبداه من المقاومة الطويلة الباسلة، فاستولىٰ علىٰ عاصمته ودخل فلسطين وجاس خِلالها، وما أسرع ما ساعدته الأحوال علىٰ التدخل في شؤون مصر الداخلية، فَجَهزَ كتائب لوزير بمصر حتىٰ يقهر الخليفة العاضد وَفْقَ بعض الشروط، فلم يُوفَ له بها، فامتشق الحُسام غير مبال باتفاق الفرنج والمصريين عليه، فسارت الأمور كما يرغب، فَهَزَم ملك القدس عدَّةَ مراتٍ، ولا سيما في المعركة الكبرىٰ التي دارت رَحَاها بالقرب من أرطاسَ، علىٰ حين أصبح عامله شيركوه سيدَ مصر، فحمل الخليفة الفاطمي علىٰ نصبه وزيرًا، فكان هذا إيذانًا بانقراض الفاطميين، ثم خلف صلاحُ الدين عمَّه شيركوه في الوزارة فكان مطلعًا علىٰ نيَّاته الخفية فلم يتردد في إتمام الانقلاب، فصار اسمُ خليفة بغداد المستضيء يُذكر في الخطبة قبل انقضاء شهر، وَخَلَعَ آخرَ الخلفاء الفاطميين العاضدَ من غير أن يرتفع صوتٌ انتصارًا له (١١٧١)، فانقلبت مصر إلىٰ بلدٍ سُنِّيٍّ بعد أن كانت بلدًا شيعيًّا، وكان صلاح الدين شافعي المذهب فلم يأذن لغير أتباع هذا المذهب في التدريس في المدارس، ولم يُعتِّمْ أتباع هذا المذهب والجيلُ الذي خَلَفَ الجيل المغلوب أن أُشْبِعوا من المبادئ الدينية التي ودَّ صلاح الدين أن يرىٰ انتشارها حوله.

ولم يَكَدْ صلاحُ الدين يَقْبضُ علىٰ موارد مصر حتىٰ بدأ بسلسلة حروبه ضدَّ الفرنج فذاع بها اسمه في الآفاق، ولم يلبث صلاح الدين أن نَسِيَ ما كان يجب عليه من إطاعة مولاه نور الدين حينما ارتقىٰ إلىٰ السلطة العليا نتيجة لحادثٍ غير منتظر، وتُوفي نور الدين سنة ١١٧٤، وأُعرضَ عن ولده مَلِكا، فقد انحاز المسلمون إلىٰ صلاح الدين، وعاد زعيمُ الحرب المقدسة هذا لا يُقيم بحلب، بل بالقاهرة.

حقًا أن صلاح الدين سَرِيٌّ يستوقف النظر في تاريخ الحروب الصليبية، وأن عهده يبدو للغربيين في أسمىٰ مراتب حضارة العرب، وهو كرديُّ الأصل، وهو

لا يَمُتُّ إلىٰ العرق التركي بصلةِ نَسَب علىٰ التحقيق، وهو مفطورٌ علىٰ حبِّ النِّزال مع ذكاء فائق.

وَرُئيَ اجتماع ما في فرسان النصارىٰ من الإيمان والعزَّة والشجاعة في غودفروا البويونيِّ وقلب الأسد ريكاردسَ، فما أمرُ صلاح الدين غير ذلك بين المسلمين، فصلاحُ الدين جَمَّاعٌ لأجمل الصفات، فهو شجاعٌ عند كلِّ ابتلاء، عظيمُ النفس، صادقٌ في عهوده صدقًا منقطع النظير، خالص التقوىٰ، مُشْبَعٌ من روح العدل، معتدلٌ وقت النصر، بسيط الطبائع، غيرُ عَزُوفٍ عن الأُبَّهَةِ الشرقية في بعض الأحيان.

وقضىٰ صلاح الدين حياتهَ في المعارك فلم يَبْدُ لنا حاميًا للآداب والعلوم والفنون بَيْدَ أن هذه المقومات لم تكن غريبة عليه، فكان جامعًا لمعارف العرب، فلم يُهملْ وسيلةً لنيل احترام الشعوب.

وكان صلاح الدين أولَ قابضٍ علىٰ قوَّات مصر والشام، وفي هذا سرُّ ما أصاب به الصليبيين من قوارعَ، وكان نور الدين قد ترك صلاح الدين سيدًا لمصرًا ولما تُوُفِّي نور الدين غَزَا صلاح الدين سورية فاستولىٰ علىٰ دمشقَ وحمصَ وحلب (١١٧٤-١١٨٢)، ففكَّرَ في تنفيذ أطيبِ خِطَطه بعد أن تَمَّتْ له تلك الفتوح، فَكَّرَ في طرد الفَرَنج من فلسطين، وكانت مملكة القدس فريسة الفِتَنِ المشؤومة فكان زعماء الصليبيين يتنازعون حكومةَ المُدُن والأماكن المُحصَّنة بدلًا من حَصْر جهودهم في توطيد سلطانهم علىٰ الأماكن المقدسة، ومما قَلَّلَ مواردَهم ما كان من تلك الغزوة غيرِ الحكيمةِ، فقد أراد رينو الشاتيونيُّ أن يَزْحَفَ حتىٰ المدينة ومكة علىٰ رغم العهود التي قطعها، فأوغل في البادية فخَسِرَ معظم كتائبه غير ظافرٍ بسوىٰ إحدىٰ القوافل فسَلَبها.

تلك هي الحالُ التي كان عليها النصارىٰ حينما دَخَل صلاحُ الدين فلسطين، وانتصر صلاح الدين في معركةِ طبريةَ فبدا أمام القدس فلم يَنْشَبْ أن فتحها، فجعل المسلمون المعابد مساجد، واغتنم المسلمون فرصة انتصاراتهم السريعة فحاصروا الأماكن الساحلية، وما مُنِيَ به المسلمون أمام صُورَ من الحبوط أعاد الشجاعة إلىٰ قلوب الفرَنج فانتظروا قدومَ ريكاردسَ وفيليبَ أوغوستَ فأحيت

الحملة الصليبية الثالثة (١١٨٧-١١٩٢) القلوبَ الضعيفةَ، وما كانت القدس لترجع إلىٰ النصرانية مع ما أبداه ملكُ إنكلترة من البسالة، فقد ظَلَّت قبضةَ سلطان مصر صلاح الدين، وليس بمجهولٍ خبرُ المروءة التي عامل بها صلاح الدين أعداءه المغلوبين، فقد أعاد إلىٰ الفرسان حريتهم مشترطًا عليهم تسمية أحد الأطفال المولودين أو الذين يولدون، باسمه.

رجعَ ريشاردُ إلىٰ حيث أتىٰ، فتوفي صلاح الدين في دمشق بعد بضعة أشهرٍ مَحطًّا لإعجاب أعدائه محلًا لأسىٰ المسلمين الذين لم يَلْبَثُوا أن أبصروا انقساماتٍ جديدةً، فقد رُئِيَ قيامُ ثلاث ممالك أيوبية في الحقيقة، نسبةً إلىٰ أيوب جدِّ صلاح الدين، فقامت إحدىٰ هذه الممالك في مصر، وقامت الثانية في دمشق والقدس وسورية الدنيا، وقامت الثالثة في حلب وسورية العليا.

وأبناءُ صلاح الدين الثلاثة هم الذين اقتسموا ولايات أبيهم، وعمُّهم الملكُ العادلُ سيف الدين أبو بكر هو الذي اغتصب مصر ودمشق من اثنين منهم، والملك العادل هذا (١٢٠٠-١٢١٨) بَدَا عَدُوَّ الفرنج الأزرق، فاستردَّ منهم مدينةَ طرابلس الشام فأدىٰ بذلك إلىٰ الحملة الصليبية الخامسة، فرأىٰ ملك هنغارية وأمراء بافارية والنمسة وزعماء اللاتين أن يُغار علىٰ دِمياط، فكانت هذه الحملة بقيادة يوحنا البرينيِّ والنائب الرسوليِّ بيلاج فَوَجَدَ النصارىٰ فيها كلَّ خُسرَان.

ونودي بالملك الكامل ابن الملك العادل (١٢١٨) سلطانًا علىٰ مصر، علىٰ حين استيلاء أخٍ له علىٰ دمشق، ولم يعرِف الفرنج أن يستفيدوا من هذه المنازعات الأهليّة وإن وجدوا في الملِك الكامل عدوًا كريمًا، فلما وصل قائد الحملة الصليبية السادسة إمبراطور ألمانية فردريك الثاني إلىٰ فلسطين قَبِل الملكُ الكامل هداياه فتنزَّل له، بسماحة، عن مدينة القدس التي بذل المسلمون في سبيل استردادها من الجهود والدم ما بذلوا (١٢٢٨)، فأبقىٰ فردريك الثاني فيها مسجدًا واحدًا فأدىٰ هذا إلىٰ مجازاة بَلاط رومة إياه بالحِرْم.

وعادت الحملات الصليبية بعد ذلك الحين لا تتَّصِف بوصفها الأول، وما قام به سان لويس منها لم يكن وَفق رأي أوربة العام، بل كانت من قبيل الحركات الخاصة المحصورة الدَّوِيِّ، وَعَدَّ سلاطينُ بني أيوب، بعد الملك

الكامل، الفرنجَ أعداءً حاقدين لا بدَّ من طردهم من آسية، فلم يتركوا لهم سوىٰ المدن الساحلية: يافا وعكا (بتولمايس) وقيسارية وعرسوف وأنطاكية، فاستردوا القدس التي غدت مُلك سلطان مصر أحيانًا وملك سلطان دمشق أحيانًا أخرىٰ.

وهكذا كان آلُ أيوب في أوائل القرن الثالث عشر يقتسمون حُكم الشعوب في القسم الغربي من إمبراطورية العرب، أَجلْ، كان أحد ذرِّية نور الدين يملك قسمًا من الجزيرة، ولكن آل أيوب كانوا يملكون الشام ومصر وبعض فلسطين وكان حُكام بعض أجزاء جزيرة العرب من أمراء آل أيوب، كاليمن التي خضعت لأخٍ لصلاح الدين في سنة ١١٧٣، فظلَّ أبناء هذا الأيوبي يملِكُونها حتىٰ الغزو المغولي (١٢٥٨).

ولم يزل اسم خلفاءِ بني العباس، الذين هم آخر ممثِّلي سلطان العرب، يُذكر في الخُطبة إلىٰ ذلك الحين ما فقَد مذهب العلويين أو الفاطميين الوَحدة وعطِل من النفوذ السياسي، وعادت أرمينية والكرج إلىٰ حظيرة النصرانية، وظل الحزب الكبير الذي عُرف في التاريخ بالإسماعيلية أو الباطنية أو الحَشَّاشين، والذي مثَّل دورًا مهمًا في جميع الحروب الصليبية، محافظًا علىٰ شيء من التأثير.

بدأ حسن الصبَّاح في أواخر القرن الحادي عشر يدعو إلىٰ مذهبٍ جديدٍ قريب في ظاهره، من مذهب القرامطة فأعلن عداوتَه للنصارىٰ والمسلمين علىٰ السواء، وبدا حسن الصباح سيدًا لِعدَّة حُصون فجعل مقره الرئيسَ في حِصْن الموت (عُشِّ النَّسر) القائم علىٰ جبل قريب من قَزْوين، فمن هنا كان اسم شيخ الجبل الذي أُطلق عليه في التواريخ القديمة، وحسن الصباح هذا كان متبحِّرًا في العلوم، وكان قد ساح كثيرًا واطَّلع علىٰ أُسس الفِرق الإسلامية، وكان كآخر رؤساء القرامطة، أبي عبد الله، ذا سلطانٍ مطلقٍ علىٰ نفوس أتباعه، فكان إذا ما أَمر أحدَهم بأن يُلقىٰ بنفسه من فوق برجٍ علىٰ رؤوس الحِراب أو بإدخال خِنجرٍ إلىٰ قلبه فَعَلَ، وما كان عليه إلا أن يَأمرَ أحدهم حتىٰ يَقتُل هذا مَنْ أُمِر بقتله من الوزراء أو الملوك أو السلاطين أو الخلفاء، واشتُق اسم الحشاشِين الذي سمِّي به أتباعه من الحشيش، والحشيشُ شرابٌ مُسكر جَعل حسن الصباح مرِيديه يعتقدون أنهم يتذوَّقون به ملاذَّ الجنةِ، فهم إذا ما شرِبوا منه غدوْا نشاوَىٰ قُساة القلوب

مستعدين لاقتراف أعظم الكبائر حتىٰ يعودوا فيروْا جنات اللذات التي قلبت خيالهم، وجعل حسن الصباح نفسَه، إذن، صاحب قدرةٍ إلهيةٍ ثانيةٍ فُوِّض إليها تقويم المظالم ومجازاة الحانثين، وأذِن حسن الصباحُ لأصحابه في قطع السابِلة مع ذلك، فأرهب آلُه آسية الغربية في قرنين تقريبًا، ومما يُزْعَم أنه كان يساعد الخلفاء الفاطميين سرًّا، لما كان من تنفيذ أكثر أوامره بالقتل في أعداءِ هؤلاء الخلفاء، وليس في أنباء ذلك العهد ما يَدْعَمُ هذا الزعم، فالذي يلوح هو أن الحشاشين بدوْا ذوِي قضيَّة مشتركة بينهم وبين العلويين لما شنُّوه علىٰ أهل السُّنَّة من حربٍ لا هَوَادة فيها، والحشاشون إذا استقروا بالعراق العجمي منذ سنة ١١٦١ تصدَّوْا لقوىٰ ملكشاه، ومما يُروىٰ أن وزير السلطان الأكبر نظام الملك قُتل بيد أحد متعصبي حِصن الموت ذلك، وامتد مدىٰ سلاحِهم في الشام حتىٰ جبل لبنان حيث أصبحت لهم مراكز مُحصَّنة، وكانت جميع القوافل التي تمر قريبة من أماكنهم عُرضةً للنهب، وكانوا كالقرامطة في مقْت الحج إلىٰ مكة، وكانوا يقطعون الطرق فلم يجرُؤ أحد علىٰ تعقبهم في محال اعتزالهم، وكانت لهم في أوائل القرن الثالث عشر عدة محَاطَّ في العراق وسورية، وكانت لهم القدموس ومصياف القريبة من طرابلس الشام، وأماكن كثيرةٌ غيرُ بعيدة من دمشق وحلب.

ذلك هو الوضع الذي كان عليه الشرق حينما انقضَّ المغول الفاتحون علىٰ آسية بأَسرها، والمغول، كالترك قبيلةٌ من الأرومَة الشِّيثِيَّة، والمغول قوم حافظوا في صميم بلاد التتر علىٰ طبائعهم الفطرية، أي علىٰ دينِهم وعاداتِهم وحياتِهم البدويَّة واشتراعهم وحكومتِهم ونظامِهم القبَليِّ وإطاعتهم لرؤسائهم وحبهم للنهب والحرب، والمغولُ أوجبوا عند ظهورهم هوْلًا لا في العرب وحدَهم، بل أيضًا في الترك الذين تركوا بعض عاداتهم الوحشية بفضل اتصالهم بحضارة العرب.

كان جنكيز خان سيد بلاد التتر والصين الشمالية، حينما توجَّه إلىٰ الغرب مهدِّدًا بلاد ما وراء النهر (١٢١٩)، وكانت بلاد ما وراء النهر من أملاك سلطان خُوارِزْم محمدٍ الذي كان في حالة حرب هو وخليفة بغداد الناصرُ لدين الله، وكان لهذه الحرب سببٌ جِدِّيٌّ، فقد خاف الناصر شوْكة السلطان محمد فسلَّطَ عليه الأمراء الغوريين، فأراد السلطان محمد الانتقام لنفسه فعقد في بَلاطه مجلسًا

مؤلفًا من قضاة وفقهاء غير متَّهمين في حكمهم، فأعلن ختام عهد بني العباس الذين اغتصبوا الخلافة من آل الحسين بن عليٍّ، فنُودِيَ بعلاء الدين الذي كان ينتسب إلىٰ عليٍّ فيقيم ببلاد ما وراء النهر خليفةً فأُعِدت حملة كبيرة للزحف إلىٰ بغداد، فأنقذت غارةُ المغول الناصرَ لدين الله.

واضطُرَّ السلطان محمد إلىٰ توجيه جميع قُواه إلىٰ بلاد ما وراء النهر حيث مُزِّقت كل مُمزَّق، وعبَر السلطان محمد نهر جيحون بسرعةٍ معتصمًا بجزيرة في بحر قَزْوِين تاركًا لابنه جلال الدين أمرَ مقاومة العدوِّ (١٢٢٠)، وكان جلالُ الدين هذا قَوَّامًا بما فُوِّض إليه، فهو لو كان علىٰ رأس قومٍ راغبين في الدفاع عن حَوْزتهم خُطْوةً خُطْوةً لاستطاع بشجاعته النادرة أن يَقفِ أمام المغول، ولكنه إذ تُرِك وأُحيط بضروب الخيانة من كلِّ جهةٍ أبصرَ والألمُ ملءُ نفسهِ، عشائرَ جنكيز خان تَغمُرُ بلاد ما وراء النهر وخُوارِزْم وخُراسان وجِيلان وأَذْرَبيجان.

وعاد جنكيز خان إلىٰ عاصمته كاراكورم الواقعةِ في صحراء شامو بعد أن استولىٰ علىٰ ألفٍ وسبعمائة فرسخ، فوَقف جلالُ الدين، الذي التجأ إلىٰ بلاد الهند، علىٰ رجليه فانضَوت الشعوب التي لم يقهرها المغول إلىٰ لواء هذا الشجاع الشهير، فأنشأ من بقايا أملاك أبيه محمدٍ دولةً جديدةً تمتد من منابع الغَنج إلىٰ أبواب الموصل من مدن الجزيرة، فأَبعدت هذه الدولة عن بغداد عادية المغول إلىٰ حينٍ، بَيْد أن أقطاي، الذي أضحىٰ خان المغول الأكبر وفْق إرادة أبيه جنكيز خان وموافقة أكابر قوْمِه، لم يَلْبَث أن استولىٰ علىٰ ولايات جلال الدين الذي هُزِم مرةً أخرىٰ فقُتِل في ديار بكر.

وظهر أقطاي أقلَّ حظًّا في محاربته لسلطان قونيةَ ولبغداد الذي كان يدافع عنها الخليفةُ المستنصر (١٢٣٥-١٢٤١)، ولم يُكتب لخليفته جايقَ كبيرُ تقدمٍ فاكتفىٰ بطرد سفراء الخليفة وشيخ الجبل وسلاطينِ السلجوقية من بَلاطِه، ثم خلَفَه منغوخان فبدا مُحِبًّا للفتح فعَهِد إلىٰ أخوَيْه كوبلاي وهولاكو في توسيع حدود إمبراطوريته، فأخذ كوبلايُ يُتمُّ إخضاع الصين.

وزحفَ هولاكو من كاراكورم إلىٰ الغرب علىٰ رأس جيش عظيمٍ فاستأصل في أقلَّ من سنتين آخرَ جذورِ الحشَّاشين من بلاد فارس، فلمَّا أنجزٍ ذلك خفَّ

إلىٰ حِصار بغداد حيث كانت له عيُونٌ، فلما عَلِم الخليفة المستعصم أمْرَ دُنُوِّه رأىٰ أن يفاوض بدلًا من المقاومة فلم يُصْغَ إليه، فلما كان شهر صفر من سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨) دخل المغول بغداد عَنْوَةً فانتهبوها في سبعة أيام فحرقُوا بعضَ المخطوطات الثمينة التي وجدوها في المكتبات والمدارس وألقَوْا بعضها الآخر في نهر دِجْلة فأصبحت مياهُه سوداء من مِدادِها علىٰ حسب روايةِ مؤرخٍ عربيٍّ مبالغٍ فيها، وبهَرَ المغولَ ما اشتملت عليه مدينةُ المنصور بغدادُ من الكنوز العجيبة مع أنهم سلبوا بُخارىٰ وسمرقندَ ومَرْوَ ونَيْسابُور وأصفهان فيما مضىٰ، وخُنِق المستعصمُ بأمر هولاكو فجُرَّت جُثَّته الدامية تحت أسوار بغداد التي كانت شاهدةً علىٰ عظمة العباسيين وانحطاطِهم وذلِّهم.

ولم يَبق سوىٰ خُطْوةٍ واحدةٍ لاستيلاء المغول علىٰ الشام ومصر، غير أنهم وجدوا المماليكَ هنالك فلم يَقدِروا علىٰ قهرهم، والمماليك هؤلاء من أرِقَّاء الشركس الذين أدخلهم خلفاءُ صلاح الدين إلىٰ قصورهم في الغالب فجَدَّدُوا في القاهرة ما أوجبه حرس الترك ببغداد من الفوضىٰ والمزاعم.

وفيما كان الخُوَارزميةُ يَفِرُّون أمام جنكيزخان فيُغِيرون علىٰ الشام كان سلطان دمشق يطمعُ في نَيْلِ العَوْن من الفَرَنْجِ فيترك لهم طبرية والقدس وعَسقلان، فتحالف سلطان مصر ومماليكه والخُوارزميةُ فقاتلوا سلطان دمشق قتالًا سقطت في أثنائه القدس واستُرِدَّت عِدَّة مرات، ثم انقلب المماليك علىٰ حلفائهم الخوارزمية فشتَّتُوا شملهم (١٢٤٠-١٢٤٥) ثم صدُّوا في المنصورة سان لويس الذي جاء يغزُو مصر، ثم اشتعلت ثورةٌ في البلاد سنة ١٢٥٠ فبدَّلت وجهها.

امتعض المماليك من المعاهدة التي عُقِدت مع أسيرهم ملك فرنسة، فثاروا ونادَوْا بأحد رؤسائهم المعزِّ لدين الله أيبكَ سلطانًا، وكانت جميعُ موارد الدولة في أيديهم فلم يَقدِر أحد علىٰ معارضة اغتصابهم للمُلْك، فلمَّا ذهب سان لويس إلىٰ فلسطينَ بحث عن أعداءٍ لهم ففاوض خان المغول وشيخَ الجبل علىٰ غير جَدْوىٰ، فقد ظلَّت سورية والجزيرة قبضةَ المماليك بعد أن استولىٰ عليها هولاكو ذات حينٍ، فقضىٰ علىٰ سلطنة حلب وسلطنة دمشق (١٢٥٨)، وخَسِر الفَرنْج بالتتابع ما بقي تحت أيديهم، وأُحدِثت بمصر خلافةٌ عباسية جديدة خاليةٌ من

السلطان غيرُ نافعةٍ لغير تولية سلاطين مصر حتىٰ سنة ١٥١٧ حين أباد سلاطين الترك، المالكون للقسطنطينية وآسية الصغرىٰ، المماليك وبسطوا سيادتَهم علىٰ جميع الأقطار المعروفة اليوم بآسية التركية.

وامَّحَىٰ العربُ، بين هذه الثورات المتصلة، أمام برابرة الشمال التركِ والمغولِ، ولم يبق لهم كيانٌ سياسيٌّ خارجَ جزيرة العرب، أي تَوَارَوْا من مسرحِ تاريخ أمم الشرق، بَيْدَ أن الأثرَ العظيمَ الذي طبعوا به الحضارةَ لا يزال ظاهرًا، ولم يُؤَدِّ ما وقع في آسيةَ من الانقلابات إلىٰ غير تأييده بأسطع بيان، فقد رأينا أن ملكشاهَ السلجوقيَّ اقتبس من مدرسة بغداد إصلاحَ التقويم الفارسيِّ وأن محمودًا الغزنويَّ اتخذ مشاورًا له ذا التأثير العظيم في عصره العبقريَّ العالميَّ البيرونيَّ، ولما ظهر هولاكو المغولي، الذي لم يَعْرِفْ كيف يَصونُ من اللَّهَبِ الآثار الرائعة التي جُمِعَتْ بفضل ذوي البصائر، أذعن لنفوذ نصير الدين الطوسيِّ فأَذِنَ لهذا الرياضيِّ الشهير في إقامة مرصدٍ فَخْمٍ بمراغة، ولما أصبح أخوه كوبلاىٰ عاهلَ الصين نقل إلىٰ مملكة ابن السماء معارفَ العرب، ولمَّا مضىٰ قرنان قامت علىٰ أنقاض الدول المغولية دولةُ تيمورلنك الذي اعتقد، وهو علىٰ رأس الترك الشرقيين، أنه مرسلٌ ليملِكَ آسية بأسرِها فخلفه ابنهُ شاهرخُ وحفيدهُ أولوغ بك فعُدَّ هذان الأميران ممثلَيْ المدرسة العربية الأخيرَيْن، ثم كان للهندوستان، التي أنارها علمُ البيرونيِّ منذ عهدِ أصحاب غَزْنة، بابن الأخ الصغير لأولوغ بك والمؤسسِ لدولة المغول في الهند، بابرَ، حافزٌ مثمرٌ إلىٰ ثَقافةِ العرب.

ونُعدُّ في عهد سلاطين آل عثمان الأولين كُتَّابًا مشهورين اتخذوا لغةَ العباسيين أو الفارسيةَ الحديثة المشتقَّة منها نِبْراسًا لهم، ولم يكن هذا غيرَ الأشعة الأخيرة لذلك الدور المجيد الطويل بالحقيقة، فقد عقَبَ ذلك حكمُ السيفِ المطلقُ في أرجاء آسية، فصِرْتَ تَرَىٰ في الشرق استبدادَ التتر المنشوبين، وصرت تَرَىٰ في الشمال استبدادَ الأزبكيين، وصرتَ تَرَىٰ في الهند استبدادًا في الفِتن الداخلية، وصرتَ ترىٰ في بلاد فارس استبدادَ الصوفية، وصرتَ ترىٰ في الغرب استبدادَ الترك العثمانيين، فالحقُّ أن الشرقَ وقع في طورِ الجمود والبربرية من الناحية الثَّقافية إلىٰ أن أخذ الغرب يؤثِّرُ في آسية ويُدخلُ إليها حياةً جديدة، بعد أن تبَنَّىٰ عملَ العربِ فسار قُدُمًا في توسيع أصول العلم والصِّناعة.

البابُ الخامس

عَظمة العرب
وانحطاطُهم في الغرب
(٧٤٣-١٦٠٩م) - (١٢٥-١٠١٨هـ)

الفصل الأول
دول الغرب - خلافة إسبانية
(٨٤٣ - ١٠٠٨م) - (١٢٣ - ٣٩٩هـ)

أَسفر اصطراعُ بني أمية وبني العباس عن فصلِ العرب إلىٰ قسمين عظيمين، عربِ المشرق وعرب المغرب، وبيَّنَّا أمرَ الثورات التي تمت في آسية الإسلامية وفي مصر، والآن نبحث في الحوادث التي كانت إسبانية والمغربُ مسرحًا لها في ذلك الدور أيضًا، ثم نستطيع أن نقدِّرَ بوجهٍ عامٍّ شأنَ العرب في تاريخ العالم وتأثيرَهم في الحضارة.

وإذا نظرت إلىٰ ذينك القطرين الغربيين اللذين فتحهما خلفاءُ محمدٍ وجدت إسبانية أكثر معاناةً من المغرب في البُعد من أُمِّ الوطن، فكان الوُلاة وصِغار المشايخ يعُدُّون أنفسهم فيها زعماء مستقلين، فكانوا يعلمون أن السلطة المركزيةَ لا تَقدر علىٰ مراقبة أعمالهم فيؤيدون أحكامهم بالقوة.

وكانت القبائل الحِمْيَرِيَّةُ والعراقية والسورية في إسبانية ثابتةً علىٰ تنافسها، وكانت هذه القبائل تنظر بعين الغَيْرَة إلىٰ القبائل الإفريقية، وغدا قضاءُ رَغْبة هؤلاء القوم في الحرب وحُبِّهم للنهب متعذرًا في الخارج منذ انتصارات شارل مارتل، فصار يُبحث عن إروائهما في الداخل، وأضحت سلطة الأمراءِ في إسبانية غير محترمةٍ لشدة الفوضىٰ، وبَدَتْ طبائع الإسبان وعاداتُهم غير متساوقةٍ هي ومطاليبُ فريق المستبدين القاسية.

وإن الأمر لكذلك إذْ عزم حزبٌ في إسبانية علىٰ تأليف حكومة لا يُنتظرُ

مثلُها من خلفاء المشرق، فما كاد خبر نَجاة أُموِيٍّ من الذبح، الذي أمر به أبو العباس السفاح، واعتصامِه بإفريقية يَذيعُ حتىٰ جاءه ثلاثة نوابٍ لِيَعرِضوا عليه جيشًا وتاجًا، فلم يتردَّد عبد الرحمن، حفيدُ هشامٍ، ثانيةً في قبول ذلك.

وكان عبد الرحمن آنئذٍ بين قبيلة زَناتة البربرية التي أكرمت مَثواه، فنال من رئيس هذه القبيلة، التي هي أهمُّ قبائل إفريقية كتيبةً مؤلفةً من سبعمائة وخمسين فارسًا، فسار ومعه أولئك النواب الثلاثة الذين هم رُسل شعبٍ مُضطهدٍ، فأبحر إلىٰ إسبانية، فلما وصل إلىٰ مرفأ المنكبِ البعيد خمسة عشر فرسخًا من غرناطة تَقبَّله جميع الأندلس بحماسةٍ فالتفَّ العربُ والمغاربة حول رايته، فدخل أشبِيلِيَّة بين الهُتاف الشامل، فأُعجِب الجميع بوجهه الوسيم وفُتُوَّتِه ذاكرين ما أصابه من بُؤْس.

ولم يكن عبد الرحمن لينال السلطة العليا بالعواطف، فكان عليه أن يَغلِب الزعيميْن يوسف الفهريَّ والصميل بن حاتم اللذين كانا يتنازعان القيادة قبل وصوله فاتَّحدا ضدَّ العدوِّ المشترك، وكانت قرطبة قَبضتهما فأُكرِها علىٰ تَلْبِية رَغْبة الأهالي فسلَّماها إلىٰ عبد الرحمن وما كانا أوفر حظًّا في ميدان القتال، فما تمَّ في المصعرة من نصرٍ لم يُسفِرْ عن انتقال حكومة إسبانية إلىٰ ذلك الأُمَوِيِّ فقط، بل أسفر أيضًا عن عدم اتباع إسبانية للعباسيين الذين اعترف رأسُهم أبو العباس بيوسف الفهريِّ نائبًا عنه، وكُتِب لعبد الرحمن النصر علىٰ خصومه في معركةٍ أخرىٰ فعاملهم بكرمٍ حاقنًا دماءهم تاركًا لهم أموالهم، فغدَت جميع إسبانية تحت حُكمه، فأُمضيت المعاهدة سنة ٧٥٦ فعُدَّت إسبانية مفصولةً عن خلافة المشرق بعد هذا التاريخ.

والوضْعُ غير ذلك في إفريقية حيث كان العرب الذين أتوا من آسية يستندون إلىٰ سلطان الخلفاء لِيَظَلُّوا أرجح من الأهلين المنتشرين في تلك الديار، وحيث كان المغاربة أو البربر يبحثون عن الحرية السياسية مع بقائهم مخلصين لدينهم الجديد.

وعرَف الوالي عبد الرحمن بن حبيب، في أثناء اصطراع بني أمية وبني العباس (٧٤٦-٧٥٢)، أن ينال احترامَ الجميع بما أبداه من حِذْقٍ إداريٍّ، فكان

له أنصارٌ بين العرب والبربر، ولم يتلقَّ عبد الرحمن بن حبيب أمرًا من المشرق الذي كان فريسة الفِتَنِ، فأتىٰ بأحكم التدابير كما لو كان الرئيس الأعلىٰ، ثم تمَّ الفوز لبني العباس فاعترف عبد الرحمن بن حبيب بسيادة أبي العباس (٧٥٣)، ثم أغضبه المنصور بمطاليبه بعد سنتين فأعلن استقلاله مُعلِنًا في مسجد القيروان أنه لن يُذْكَر في الخطبة غير اسمه (٧٥٥).

ولم يَلق عبد الرحمن بن حبيب معارضةً في بدء الأمر، وكان هنالك ما يدعو إلىٰ اعتقاد ثبات ملكه حينما أوقد أخوه إلياس نار الفتنة بين العرب والبربر، فأثار ما لاح زوالُه من الحقد والتنافس.

وطال الصِّراع الدامي واشتهر بكثرة ما تخلَّله من القتل والأثْآر، فانتهىٰ بفوز العرب في سنة ٧٧٠، فأوجب أمير العرب الأغلبُ اعتراف الجميع بخلافة المنصور، ثم قام البربر في عهد المهديِّ وعهد هارون الرشيد بفِتن مستمرة مُنِيَ الخلفاء فيها بخساراتٍ جسيمة، ثم عَنَّ للرشيد أن يتنزل لإبراهيم بن الأغلب عن سلطته الزمنية هنالك (٨٠٠) فكانت لإفريقية حكومةٌ مستقلةٌ كما في إسبانية، وذلك مع احتفاظ بني العباس بالسلطة الروحية في براءة التولية، ولم يكن بنو الأغلب، مع ذلك مثلًا مشؤومًا في أيِّ انفصال جديد عن دولة الخلافة.

ومن أطيب ما أدَّت إليه حكومة الأغالبة، التي دامت أكثر من قرن (٨٠٠–٩٥١) من النتائج مصاهرةُ العرب للبربر، واختلاطُ دم هذين الشعبين نهائيًا وقضاءُ ما بين العرب والبربر من وَحدة الطبائع والدين علىٰ الذِّكريات، وزوالُ ما نشأ عن الفتح من المَضَض، وعدمُ تألُّب قبائل البربر الكبيرة، زَناتة والمصامدةِ وصنهاجةَ وكتامة وهوارة، علىٰ العرب مؤديةً في جميع المغرب الإتاوة الزهيدة التي يأمر بها القرآن، واعتُرِف بسيادة إبراهيم بن الأغلب في البلدان الواقعة بين المحيط الأطلنطيِّ وحدود مصر، وصار اسمه يُذكرُ في المساجد مع اسم الخليفة العباسيِّ.

ثم حدثت انقساماتٌ جزئية في ولايات إفريقية الغربية، فقد أثار أحد أبناء عليٍّ السَّرِيُّ إدريسُ فتنًا دينيةً ببراعةٍ، فكان له بقبائل تلك الناحية حزبٌ قويٌّ، فلم يلبث أن أظهر أمرَه فاستولىٰ علىٰ تِلْمِسان فصار سيدَ المغرب الأقصىٰ جاعلًا وَلِيلَة مقرَّه (٨٠٣).

وحَزَّت مزاعم العلويين نفوس بغداد كما حَزَّت نفوسَ بني الأغلب لِما وجدوه فيها من اعتداءٍ علىٰ سلطتهم الروحية، فحاول الفريقان نقضها علىٰ غير جدوَىٰ، فظلَّ الأدارسة قابضين علىٰ ما مَلَكوه مدةً تزيد علىٰ مدة مُلْك الأغالبة (٨٠٣-٩٤٩)، مقيمين في البلاد التي دانت لهم ما هي مدينةٌ لهم به من جليل الأعمال، فأسَّسوا مدينة فاس، فاكتسبت هذه المدينة التي أضحىٰ مسجدُها مقدسًا لدىٰ جميع الأهالي المجاورين شهرةً عظيمةً في زمنٍ قليلٍ، فاشتملت علىٰ مدارس ومكتباتٍ تساوقت هي والحركة العلمية التي حَمَل لواءَها بنو العباس في المشرق، وغَدت مستودعًا تجاريًا واسعًا بين عرب إسبانية وعرب إفريقية.

وما كان مُلك الأغالبة، الذي انحصر في المغرب الأوسط وإفريقية أقل نضارة وشمل بنو الأغلب بعين عنايتهم جميع فروع الإدارة في الداخل بما يقضي بالعجب، وقاموا في الخارج بمغازٍ موفقة في شواطئ البحر المتوسط ضدَّ الدول النصرانية.

وكان الأغالبة معاصرين لهارون الرشيد والمأمون فساروا علىٰ غِرارهما فأدخلوا إلىٰ إفريقية جميع ما في الشام والعراق من عناصر الحضارة فأسسوا مدينة القَصْر القديم ومدينة رَقَّادة، وشادوا في المدن: تونس والقيروان وطرابلس، التي اتخذوها قواعد لهم بالتتابع، مبانيَ فخمة لا تزال آثارها القريبة من بقايا الفن الروماني باقية فيُعجب بها السُّيَّاح لِما فيها من طراز البناء العربي ذي الأقواس الحادة والأعمدة الصغيرة الغنية ونَصَب لهم مهندسون ماهرون جسورًا فوق السيول السريعة وحفروا لهم مرافئ جديدة، وبُدِئَ بدراسة العلوم التي انكبَّ عليها عرب بغداد بحماسة، ولم يَدَّخر بنو الأغلب وُسعًا في إنعاش ما يستلزمه كل بلد غنىٰ خصيب من التجارة والصناعة والزراعة، فسهَّلوا الصلات بين سكان الصحراء وسكان الساحل بما أوجدوه في المستودعات وأنشأوا الطرق وسهِروا علىٰ سلامة المواصلات، وأحدثوا نظارة عامة للبريد ففوضوا أمرها إلىٰ أقدر رجال البلاد، فكانت تقوم بإدارة نظام السُّعاة والمرَابط القائمة بين حدود المغرب ومصر، ثم أقاموا دورًا للصناعة في أهمِّ المرافئ فكان لهم أسطول قويٌّ أَضحَوْا به سادة البحر.

بُدئت حَملات بني الأغلب البحرية بالنهب وخُتِمت بالفتح، ومما حدث أن كان وُلاة إفريقية يقومون قبل الأغالبة بنظام غزوٍ مرهوب ضد النصارىٰ، فكانت تُبحر من موانئهم، بين حينٍ وحين، أساطيلُ صغيرة بقيادة رجال جُسُر فتُخرِّب شواطئ إيطالية وفرنسة وقورسقة وسردنية وصِقِلِّية، وكانت هذه الغزوات تكرَّر في القرن الثامن علىٰ الخصوص فتُلقي الرُّعب في ولايات البحر المتوسط الساحلية.

ومن يطَّلع علىٰ التواريخ الإيطالية والفرنسية يجدْها حافلة بالأقاصيص المخيفة، المبالغ فيها في الغالب، حول غارات الشرقيين (العرب) الذين كانوا ينْزِلون إلىٰ البرِّ، حيث السكان المسالمون، فيدخلون القُرىٰ المفتوحة وينهبون الكنائس ويقتلون من يقاومون ويعودون بأناسٍ من الأهالي علىٰ أنهم من الأرِقَّاءِ.

ومؤرخو ذلك العصر كانوا قليلي الاطلاع علىٰ سير الحوادث مع ذلك، فلم يكن ما دوَّنوه، ولو بحسن نية، غيرَ حكايات ناقصة إلىٰ الغاية عن غزو العرب لشواطئ البحر المتوسط، فقد جعَلوا ظهور المسلمين الأول قبل الزمن الذي نَشر محمدٌ فيه دينه، ولم يتفقوا قطّ علىٰ تواريخ غارات العرب، فعلىٰ من يرْغب في معرفة الحوادث العامة معرفةً صحيحة أن يرجِع إلىٰ مؤرخي العرب.

وتُعد، حتىٰ ظهور الأغالبة، عِدة حملات علىٰ قورسقة حوالي السنوات: ٧١٠ و٨١٣ و٨٢٢. وعلىٰ سردنية حوالي السنتين: ٧٢٤ و٧٣٩. وعلىٰ صِقلِّية حوالي السنوات: ٧٢٠ و٧٢٤ و٧٢٨ و٧٤٣ و٧٤٧ و٧٧٣. وعلىٰ الجُزر: لُرَنس ومالطة وغُزْوا، وعلىٰ سواحل بوليا وَقِلَّوْرِيةَ، بيد أنه لم يعقب هذه الحملات التي هي ضربٌ من القرصنة أيُّ استقرار دائم ومن المحتمل جدًا أن كان يقوم بها أخلاط من اليهود والنصارىٰ ومَرَدَةُ جميع الأمم الذين يعيشون من النِّخاسة فكانوا علىٰ صِلات بالأماكن التي يُغِيرون عليها فيبيعون من المسلمين بثمنٍ غالٍ خِدمَهم التي تُصيب الهدف علىٰ الدوام.

والأمر مهما يكن فإن تلك المغازي استمرت طِيْلة القرن الثامن عشر في البحر المتوسط، وأُكرِه الروم، الذين كانت سيادة البحر لهم وحدَهم علىٰ ترك جزائر بليار وقورسقة وسردنية طُعْمَة لذلك، فرآها البابا بلا مُعِينٍ فطلب من ملوك الفَرَنج أن يَحموها فجهَّز شارلمان أسطولًا عظيمًا استطاع بإمرة ملك إيطالية بيبن

والأمير بركارد، أن يَقِيَ الشواطئ من أي غزو آخر إلىٰ حين، ولكن شارلمان لم يكد يموت في سنة ٨١٤ حتىٰ اشتعلت الفتن في عهد لويس الحليم فعاد العرب إلىٰ مغامراتهم الموفَّقَة.

وكان عربُ إسبانية يَبذرون الذُّعر في شواطئ فرنسة وقورسقة علىٰ الخصوص، وكان عربُ إفريقية يُلقُون الرعب في سواحل إيطالية وسردنية وصقلِّيَة علىٰ الخصوص ثم عَنَّ لبني الأغلب أن يفتحوا صقلية فلاحت لهم الفرصة فلم يُضّيعوها.

لقد أهان حاكمُ صقلية الضابط الرومي أُفيميوس (فيمي) فرفع هذا الضابط رايةَ العصيان مناديًا بنفسه أميرًا للأهالي، فلم ينشب أحدُ رفقائه في السلاح أن حسده لِمَا تمَّ له من رفعةٍ فناوأه بحزبٍ قويٍّ فنزع منه المدينتين: بَلَرْمَ وسَرَقُوسة، فذهب أُفيميوسُ إلىٰ إفريقية فاستنجد خليفةَ إبراهيم الأغلبيَّ زيادةَ الله، فجهز هذا الأغلبيُّ حملة فسلم قيادتها إلىٰ القاضي أسدِ بن الفرات مؤلفِ كتاب الأسديَّة (علىٰ مذهب مالك)، فغادر الأسطول سوسةَ (وهي مرفأٌ عظيم واقعٌ جَنوب تونس علىٰ مسافة أربعين فرسخًا) فاستولىٰ علىٰ ماذَرَ (٨٢٧)، فبدأ القاضي وأُفيميوسُ بالقتال فانتصروا في العَرَاءِ، ولكن المدنَ امتنعت عن فتح أبوابها للكافرين فأحبطت المدنُ: سَرَقوسةُ وبَلَرْمُ وقَصْرُيانة، كلَّ هجوم قاما به، فرأىٰ أُفيميوسُ أن يرتد العرب عن الجزيرة بعد أن أخفقوا فعمل العربُ الذين مات قائدهم بالوباء بذلك الرأي فما كادوا يُقْلِعون[1] سفنهم حتىٰ أبصروا أسطولًا بيزنطيًّا يسدُّ الطريقَ في وجوههم، فحرقوها كما كان جنودُ طارقٍ وقُرْصَان كندية (الخندق) قد صَنعوا، معاهدين الله علىٰ أن يموتوا فوق أراضي صقلية أو تخضع للإسلام (٨٢٨)، فنشأ عن جهودهم الأولىٰ استيلاؤهم علىٰ جَرجَنْتَ ومَاذَرَ فتحصنوا فيها وأقاموا بهما سنتين، وهَلَك أُفيميوسُ وهو يحارب في صفوفهم، وإنهم لفي أقصىٰ حدود الفاقة إذ أتاهم أسطولٌ مؤلف من ثلاثمائة سفينةٍ فعاد إليهم بأسُهم، فحاصر بَلَرْمَ قائدهم الجديد الوالي محمد بن الأغلبِ، فدخلها عنوةً بعد دفاع مجيد (٨٣١) فحقن دماء سكانها مخيِّرًا إياهم بين البقاء فيها أو مغادرتها مع أموالهم إلىٰ إيطالية،

(١) أقلع الملاح السفينة: رفع قلعها.

فأسفر فتحُ هذه المدينة المُهمةِ عن تقرير مصير صقلية التي أصبح استيلاءُ العرب عليها أمرًا لا ريب فيه، فلم يكن علىٰ العرب لتمام ذلك سوىٰ القيام بمعاركَ جزئيةٍ، ومما حدث أن أرسل قيصرُ القسطنطينية في سنة ٨٣٦ جيشًا إلىٰ صقلية فغلبَه العربُ تحت أسوار قَصْرُيَانة، وكان دفاع مدن داخل الجزيرة خيرًا من ذلك، فاستحقت قَصْرُيَانة لقب المدينة المنيعة فلم تستسلم إلا في سنة ٨٥٩، وسارت المدن: نوطسُ وثِرْمَةُ وقطانية علىٰ غرارها النبيل، ولم تَسْقُط سَرَقوسة إلا في سنة ٨٧٨، ولم يكن رومُ القسطنطينية هم الذين أبدوا هذا العناد، بل أظهره أهل صقلية الذين استماتوا في الدفاع لِمَا كان من حقدهم علىٰ سيادة المسلمين، ولم يكن أسطولُ الروم هو الذي أعانهم، بل إن أميرَ البحر قد قُتِلَ لأنه سمح بسقوط سَرَقوسة من غير أن يقاتل، ثم عاد بَلَاطُ بيزنطة لا يَعبأُ بأمر صقلية.

وحدث بين العرب من الانقسامات الداخلية ما أَخَّرَ فوزهم في صقلية، وتداول صقلية سبعةُ وُلَاةٍ بين سنة ٨٧١ و٨٧٣، ومن هؤلاء الولاةِ من نَصَبَهم بنو الأغلب، ومنهم من انتخبهم الجيشُ، ثم حَضَرُ والٍ من إفريقية اسمه أبو مالك فأعاد إلىٰ الجيش الإسلامي وَحْدَتَه فاستطاع أن يحمل الجميع علىٰ احترام سلطانه حتىٰ سنة ٨٩٩.

ولم يكن سهلًا ثبات أمر المسلمين الغالبين في صقلية بين سكانٍ من النصارىٰ، وكان المسلمون في صقلية من قلةِ العدد بحيث لا يقدرون علىٰ الانتشار، فاكتفوا باحتلال المراكز المحصنة والمدن المهمة.

أجل، حاول المسلمون اجتذاب بعض الأهالي إلىٰ الإسلام، وهدموا بعض الكنائس واستولوا علىٰ خزائن الأديار لا ريب، ولكنهم لم يفكروا قطّ في اضطهاد من يَرفضون الإسلام، وحملُ الناس علىٰ الإسلام بالقوة مخالفٌ لشريعةِ محمدٍ وتقاليدِ العرب الراغبين في السيطرة.

وما فرضه العرب علىٰ أهل صقلية من الضرائب أقل مما كانوا يُعْطُونَه وأكثر منه انتظامًا، وكانت الضريبةُ إذا ما وُضِعَتْ لم تُبَدَّل باستمرارٍ خلافًا لِمَا كان يستفيد منه وزراءُ قياصرة الروم وحدَهم.

وقُل مثل ذلك عن إدارة العرب العادلة الرشيدة، فقد تُرِك لأهل صقلية حق

اختيار نوابٍ منهم لِتَعرُّف مصالحهم وليتفاهموا هم وقوادُ العرب وولاتُهم، وكانت صقلية مقسومةً منذ عهد القرطاجيين إلىٰ الولايتين الكبيرتين: سَرَقُوسة وبنورميتانيا، فلما جاءها العرب قسَّموها إلىٰ ما هو أكثر ملاءمةً لوضعها الجغرافيِّ، أي إلىٰ الولايات الثلاث: مَاذَر ونوطس ومونه، فأصبح علىٰ رأس كلِّ ولاية والٍ مسيطرٌ علىٰ القُوَّاد الذين عُهِدَ إليهم في إدارة المديريات.

وإذا عَدَوْتَ نِعَمَ الإدارة الجيدة التي أمتع العربُ بها سكان صقلية وجدت هؤلاء الأهلين مدينين للعرب أيضًا بإصلاح الزراعة والفنون والصناعة، فكان من نتائج الفتح العربيِّ تحريكٌ للهِمَمِ في حقل النشاط الوطنيِّ.

وأُدخِلَت إلىٰ صقلية نباتاتٌ جديدةٌ: أُدخِلت إليها زراعةُ قطن الشام وقصبِ سكر طرابلس والدَّرْدارِ(١) والفُسْتُقِ والبرتقالِ والليمون.

وما تمَّ في صقلية من تحسين العرب لأساليب الزراعة عظيمٌ جدًا، وما أخذته صقلية عن العرب من نظام الأنابيب المعقوفة المشهورِ لا تزالُ تعملُ به، وما نالته التجارة والصناعة من تقدمٍ كبيرٌ إلىٰ الغاية.

وفي الأنباء الموثوق بها أن حِياكَةَ النُّسج الحريرية انتشرت في أوربة في القرن الثاني عشر بواسطة صقلية، وأن مصادر صقلية الطبيعيةَ استُثْمِرَت فاستُخْرِج منها الحديدُ والفضةُ والنحاسُ والكبريتُ والملحُ المعدنيُّ، واستُعمِل المرمرُ والرخامُ السمَّاقيُّ والغرانيتُ واليَصْبُ في تزيين المباني.

نعم، زال مُعظم المباني التي شِيدَتْ في صقلية علىٰ الطراز العربي، ولكنَّ ما انتهىٰ إلينا منها يكفي لإثارة إعجابنا بِهَيَف ذلك الطراز ودِقَّة جُزْئيَّاته، فلا نزال نرىٰ في جوار مدينة بَلَرْم التي اتخذها العرب عاصمة لهم في صقلية قصورًا صغيرة نتمثل بها براعة مهندسيهم.

فتلك هي حال العرب الذين ينعتهم مورخونا بالبرابرة فَيَصِفونَهم بأسوأ صورة، فبينا هم يُتَّهَمون بأكل لحوم البشر كانوا يَجْلُبُون معهم الثراء والحضارة.

وما كانت تلك الأعمال الداخلية لتمنع العرب من الإيغال في إيطالية التي

---

(١) الدردار: شجر عظيم له زهر أصفر وورق شائك وثمر كقرون الدفلىٰ.

كانوا يسمونها بالأرض الكبرىٰ، والعرب خَرَّبوا جزر بونْزَا وإيشيا ونهبوا سواحل قِلَّوْرِية وشوهدوا حتىٰ مصب نهر التيبر (نهر الصفر)، والعرب بعد أن أصبحوا سادةَ بَلَرْمَ (٨٣٦) اغتنموا فرصةَ تنازعِ خليفةِ شارلمانَ وأبنائه وروم بوليا ولومبارِ بنيفنت، فاستولوا علىٰ برنديزي ثم علىٰ بارىٰ بعد بضع سنين (٨٣٩).

والعربُ، إذ أصبح لهم مرفأٌ علىٰ البحر الأَدِرْياتيِّ صار يمكنهم أن يُخرِّبوا سواحل دَلْمَاسية وإيطالية الشرقية وأن يهددوا البِلِيبُونيزَ (المورة) وجميع الجزائر التي تَخَلَّىٰ عن نصرِها قياصرةُ القسطنطينية.

وأخذت روحُ الاستقلال المحلي تُحَرِّكُ ساكنَ المدن الإيطالية المهمة، ومن هذه المدن نذكر نابولي التي طردت الروم في سنة ٨١٧ إلىٰ خارج أسوارها خاضعةً لسلطان أمير منتخب، واقتفت أثرَ نابولي مدنٌ كثيرةٌ، فَسَهَّلَتْ هذه الانقساماتُ علىٰ العرب أمرَ تقدمهم، فاستولوا علىٰ تارانتَ سنة ٨٤٤، فأوغلوا في دوكية بنيفنت، فَخَرَّبُوا ديرَ جبل كاسِينوا الغنيَّ، وتُرِكَتْ غائتي وأمالفي ولم تنجوا من الدَّمَار إلا بفضل دفاع سكانهما المَجيد، وَغَدَت نابولي وسَالِيرْمُ في خطرٍ، وأنشأ المسلمون حِصْنًا في مصبِّ نهر غاريغليانو، وحاولوا عبورَ نهر التيبر فزاد البابا أسوارَ أوستىٰ ارتفاعًا من غير أن يَقْدِر علىٰ وقف زحف المسلمين، فاستولىٰ المسلمون علىٰ ضواحي رومة فنهبوا كنيسة القديس بطرس وكنيسة القديس بولص، فعادوا مُثْقَلين بالغنائم فَخَرَّبوا حصونَ سيفيتا فيكيا (٨٤٦).

وَمَضتْ سنتان، فعاد العرب إلىٰ مثلِ عملهم السابق، فوجدوا مَعْبَرَ نهر التيبر مُحصّنًا بسلاسل من حديد وبقومٍ مُدجَّجين بالسلاح بقيادة البابا لِيُون الرابع الذي كان يُثِيرُ وجودهُ هنالك أعظمَ حماسةٍ، فاضطُرَّ العربُ إلىٰ العودة إلىٰ غاريغليانو أمام تَفَوُّقِ العدوِّ العَدَدِي (٨٤٨).

وما حاق بالمدينة المقدسة رومة من الأخطار أزعج ملك إيطالية لويسَ الثاني في آخر الأمر، فتبنَّىٰ القضية النصرانية، فنزل إلىٰ بوليا علىٰ رأس جيش فغلب العرب في لوشيرا (٨٦٧) فانتزع منهم بارىٰ بعد مقاومة ثلاثِ سنواتٍ (٨٧١)، ثم استعان بأسطولٍ روميٍّ فأحبط هجوم العرب علىٰ ساليرمَ في سنة ٨٧٣، تاركًا لهم مدينةَ تارنتَ فقط، ثم رجع في سنة ٨٧٥، فاتفق العرب وأهلُ

نابولي وأمالفي وساليرمَ فوَجَّهوا جهودهم إلىٰ ولاياتِ الكنيسة، فلم يَسْطِع البابا يوحنا الثامن بأن يقاومهم، فلما رأىٰ أنه مهدد حتىٰ رومة، حتىٰ رافين، أقصىٰ العرب بأن وعدهم بجزيةٍ سنويةٍ مقدارها خمسة وعشرون ألف ماركٍ فضيٍّ، فذهب إلىٰ فرنسة فإلىٰ ألمانية مستغيثًا (٨٨٠)، بَيْدَ أن العرب لم يظهروا بعد، فكان انتهابُهم لكابو آخرَ مفاخرهم إلىٰ أواخر القرن التاسع من الميلاد.

وفي ذلك الزمن، علىٰ الخصوص، بدأ دورُ الفوضىٰ الذي هَيمن فيه ثيودورا وماروزي علىٰ سير الحوادث، وكان العرب أنفسهم منقسمًا بعضهم علىٰ بعض، وكانت الفتن الداخلية تمزق مركز شَوكتهم إفريقية، فوُفِّقَ ملك إيطالية بِيرَنْجه الأول إلىٰ تخريب مستعمرة المسلمين في غاريغليانو سنة ٩١٦، وما كانت مستعمراتُ العربِ علىٰ شواطئ البحر المتوسط لتشمُلَ النظر من الناحية السياسية وحدها، بل كانت تستوقفه بأهميتها التجارية أيضًا، فكنت ترىٰ مستودعًا بجانب كلِّ حِصنٍ فكانت تُقايضُ فيه السلع اللومباردية التي أخذت صناعتها النشيطة تؤتي ثمراتها منذ زمن، وكانت جمهورية أمالفي قد نالت بمعاهدةٍ حقَّ إقامة ضاحيةٍ حول بَلَرْمَ، فكان لها بذلك امتيازٌ مرموقٌ علىٰ منافساتها.

وألِمَت البندقيةُ من عداوة العرب لها طويل زمن، فاتحد أسطولها وأسطول الروم منذ سنة ٨٧٠، فخسرت بالقرب من كروتون معركة مهمة استطاع المسلمون علىٰ أثرها أن يظهروا أمام غرادو، فتركت البندقية لهم سيادة البحر في النصف الثاني من القرن التاسع، وكان العرب يملكون، خلا صقلية، الجزائر: مالطة وغروزو وكامينو وبنتليارية، ثم استطاعوا بعد استيلائهم علىٰ بَلَرْمَ أن يرسلوا أسطولًا إلىٰ سردنية وأن يَحْمِلوها علىٰ الاعتراف بسلطانهم، وكان قُرْصَانُ الأندلس قد استولوا علىٰ كندية (الخندق) فأبحرت من مرافئ إسبانية حملاتٌ أخرىٰ فاستولت علىٰ بلد قَرَقْسينة بالقرب من سان تروبتز فكانت للعرب بذلك حرية مرورٍ من جبال الألب، وهكذا تم للإسلام في البحر المتوسط من الانتصارات ما ارتفع به مجدُ عربِ إفريقية وعرب إسبانية.

وحافظ الأغالبةُ علىٰ سلطانهم بفضل حبِّ الناس لهم، فَدَحَرُوا غارات بني طولون الذين أرادوا توسيع حدودهم من ناحية الغرب بعد أن استقُّلوا بمصر، غير

أن أبا إسحق الذي هو من متأخري أمرائهم (٨٧٧-٩٠٢) أخذ عهدًا علىٰ نفسه، علىٰ ما يظهر بأن يجعل اسم آله ممقوتًا نتيجةً لمظالمه القاسية، وبأن يؤدي إلىٰ كُرْهِ الناس للرئيس الروحيّ الذي كان عاجزًا عن قمع اعتداءاته فاغتنم حزبُ العلويين، الذي كان الأدارسةُ يعاضدونه، فرصة السُّخْطِ العام فكُتِبَ له كبيرُ تقدمٍ سرًّا، فأخذ الدعاةُ ينتشرون في كل مكان مذيعين قرب الوقت الذي تنتقل فيه السلطةُ إلىٰ إمامٍ حقيقيٍّ، وإخبار محمد بظهور مهديٍّ جديدٍ في سنة ٣٠٠هـ وبوجوب مبايعة الناس إياه، وكان اسم هذا الذي يُزْعَم نَسبُه إلىٰ فاطمة وعليٍّ عُبيد الله، وكان يقيم بجوار سِجِلْمَاسَة بين ظَهْرَانَيْ قبيلة كتامة التي لَبَّتْ دعوته فكان له أنصار كثيرون.

ولم يشك صاحب الملك أبو مضر زيادةُ الله في أمر الثورة التي خامرت النفوس، ولم تكن التدابير التي رأىٰ اتخاذها كافيةً لإطفاء الفتنة فَغَلبَه العُصاةُ وطرده من القيروان أخوه الذي اختار زمن احتضار الدولة الأغلبية لاغتصابِ التاجِ فيه، ففَرَّ أبو مضر إلىٰ مصرَ فإلىٰ العراق.

وانتحل عُبَيْدُ الله المهدي لقب أمير المؤمنين، وعزَمَ الفاطميون علىٰ ترك القيروان وتأسيس عاصمة جديدة لهم تقليدًا لبني العباس الذين شادوا بغداد، فاختاروا لها مكانًا يبعد خمسة وخمسين فرسخًا من تونس وخمسة عشر فرسخًا من مرفأ سوسة فدعوها بالمهْدِيَّة.

ولم تكد المهديَّة تقوم حتىٰ أخذ الفاطميون يقومون بفتوحٍ جديدة، فاعترف عربُ صقلية وسَرْدِنْيَة بسلطان عبيدِ الله، وتقدم عبيدُ الله إلىٰ مصر، ولم يَقْدِرْ علىٰ جَوْبِ صحارىٰ ليبية، ولم تُسْفِرْ حملته عن غير سيادته، علىٰ برقة، وأَلْزَمَ من ناحية الغرب، بدفع الإتاوةِ صاحبَ المغرب الأقصىٰ الأميرَ الإدريسيَّ وكثيرًا من الأُسَرِ التي أظهرت استقلالها كبنىٰ مكناس بمِكناسَة وبنىٰ مدرار بِسِجِلمَاسة وبني رُسْتُمِ بِتَاهَرْتَ وبنىٰ عبد الواد بِتِلِمْسَان (٩٣١).

وما كان أولئك جميعُهم ليطيعوا عبيد الله إلا بفضل جيشه، فلما ابتعد عن تلك الديار أخذ الانقسام يبدو، فسار أميرُ مِكناسة إلىٰ فاس فطرد الأميرَ الإدريسيَّ منها، وكانت زَناتة وفِيَّةً لهذا الأمير فاستنجدت الخليفة الأُمَوِيَّ بإسبانية، فَلَبىٰ

نداءَها، فاستولت كتائب الأندلس في البداءة علىٰ طنجة وسَبْتَة فأصلحت حصونهما لتكونا نقطتي ارتكاز لها، ثم زحفت إلىٰ فاسَ فوجدت الفاطميين متحصنين فيها بعد أن أخرجوا أمير مكناسة منها (٩٣٣) فدخلت فاسَ عَنوةً، فغدا المغرب الأقصىٰ خاضعًا لسلطان الأُمَوِيِّين، فصار يقوم أمير إدريسيٌّ بممارسة السلطة فيه تحت وِصاية والٍ يَنصِبه الخليفة الأُمويُّ.

ولم يبال الفاطميون مدة عشرين سنة (٩٣٤-٩٥٤) بتقدم الأُمويين حتىٰ تِلِمْسان، ومما حدَث أن انتهب بعض السفن الإفريقية مركبًا حاملًا أَرِقَّاء لخليفة قرطبة الأُمويِّ فرأىٰ أحد قُوَّاد هذا الخليفة الأُمويِّ أن يغسل هذه الإهانة بالانتقام فدخل تونس ففرض غرامة كبيرة علىٰ سكانها، فعزم المعز لدين الله أن يضع حدًا لمثل هذه الغارة الجريئة، فسار علىٰ رأس القبيلتين: كتامة وصنهاجة الباسلتين، اللتين وعدَهما بمغانم كثيرةٍ، إلىٰ الوالي الأندلسيِّ المرابط قريبًا من تاهَرْت فمزق جيشه كلَّ مُمَزق (٩٦٠) فَفَتحت فاسُ وسِجِلماسَةُ أبوابهما له، فاقتدت جميع المدن بهما خلا سَبْتَةَ وطنجة وتِلِمْسان حيث ارتدَّت بقايا الجيش المغلوب، غير أن المعز لدين الله اكتفىٰ بإخزاء أعدائه فغادر البلاد فعادت البلاد إلىٰ ذكر اسم خليفة قرطبة في المساجد.

كان حِرْص الفاطميين يدُعُّهم إلىٰ المشرق دعًّا، فعزموا علىٰ محو سلطة بني العباس الروحية، وكان عبيدُ الله قد ذكر تلويحًا أن ذلك هو برنامجه السياسيُّ فسعىٰ خلفاؤه إلىٰ تحقيق هدفه بحميَّةٍ فوَجَّهوا عِدَّة حَملاتٍ إلىٰ مصر فلم يُكتَب لها النجاح إلىٰ أن جاء قائد المعز جوهر الصقليُّ فأصبح سيد هذه الولاية المرغوب فيها كثيرًا (٩٦٩).

هنالك أقام الفاطميون خلافةً ثالثةً، وإن شئت فقُل خلافة القاهرة، فدخلوا في حَوْزَة تاريخ المشرق، فلم يعبؤوا بعدئذٍ بأملاكهم في المغرب، ففَوَّضُوا إلىٰ أمير قبيلة صنهاجة يوسف بن بلكين بن زيرىٰ ممارسة كل سلطان فيها علىٰ أن يعترف بسيادتهم (٩٧١)، فقَبِل هذا الأمير ما عُرِض عليه شاكرًا فأضحىٰ مؤسسَ أُسرةٍ مالكة جديدة متصرفةٍ في ميراث الأغالبة، فدام ملكها قرنًا ونصف قرن.

كان يمكن إفريقية أن تكون بأجمعها قبضة الفاطميين، وكان ارتقاء الزيرية

قاضيًا علىٰ وَحدتِها المنشودة التي كادت تتحقق ذات حين، وفُصلَت مصر من الولايات الغربية إلىٰ الأبد، واستمرَّ المغرب الأقصىٰ علىٰ حُكم نفسه بنفسه تحت حماية الأمويين مع ما بذله بلكينُ من الجهود، ولم يصنع بلكينُ كما صنع المُعزُّ فيهجمَ علىٰ المغرب بقوة السلاح، بل اقتصر علىٰ مفاوضة الأدارسة وزَناتة سِرًّا مثيرًا فيهم روح الاستقلال، فتمكن من إثارتهما علىٰ خلفاء قرطبة، فأدىٰ ذلك إلىٰ سقوط دولة الأدارسة التي هزمَها الأمويون (٩٧٦-٩٨٥)، ثم جرب بلكين حظَّه فامتشق الُحسام فارتدَّ هو وابنهُ المنصور من بعده خاسرين، فاضطُرَّ الزيرية إلىٰ العدول عن برامجهم في التوسع (١٠٠٥).

ولم يكن الزيريون أوفر حظًّا في علاقاتهم بالنصارىٰ، فلم يستطيعوا أن يحافظوا علىٰ فتوح الأغالبة في البحر المتوسط، وأصبح ملوك جرمانية سادة مُعظم إيطالية، فرأىٰ العرب أن يقاوموهم، فكانوا من الحِذْق ما ائتلفوا به هم والروم، فدَحرت جيوشُهم المختلطة أوتونَ الكبير (٩٧٢)، وانتصروا علىٰ أوتونَ الثاني في معركة بازنتلّو (٩٨٢)، بيد أن أوتونَ الثالث (١٠٠٠) لم يترك لهم سوىٰ مدينة تارنت.

وفَزِع وُلاة سَرْدينة من قيام جمهورية جِنَوَة وجمهورية بِيزَة اللتين نَمت بَحْرِيَّتُهما بسرعة، فحاولوا انتهاب هاتين المدينتين غير مرة ووقف تقدُّمهما في أول مرحلة، فأما جِنَوَة فقد احتملت في سنة ٩٣٦ غارةً عنيفةً شنُّوها عليها فعرفت بعد ذلك كيف تصون نفسها تجاه أيِّ غزوٍ آخر، وأما بيزة فلم تنتفع بتلك التجربة فكادت تُدكُّ في سنة ١٠٠٥، وذلك لأن شبابها كانوا غائبين عنها فأوشك العرب أن يقتحموا أسوارها ويدخلوا قلعتها لو لم تَنجُ بفضل بسالة امرأةٍ، وأضحىٰ المسلمون عاطلين من التفوق البحريِّ الذي كان فيه سر نجاحهم في حَمَلاتِهم، فاقترب الوقت الذي تُهاجم فيه أملاكُهم.

لم يتفق للزيرية في الداخل ما اتفق للأغالبة من القوة والازدهار، ولم تَعْدُ سلطتهم بالحقيقة ولاية تونس والساحل والجزائر وبِجاية إلخ، ولم تَرَ غير فتورِ علاقات فيما وراء ذلك، وأبت قبيلة كتامة التي نصرت الفاطميين أن تعترف بسيادة أمير صنهاجة، ونصرت تلك القبيلة المقيمة بالقرب من سِجِلْماسة وتاهَرْت

وُلاةَ الأندلس علىٰ قبائل زَناتة، وأعلن أحد أمراء الزيرية حمادٌ استقلاله في جنوب سهول بِجاية قريبًا من المَسِيلَة بعيدًا من قبيلة كتامة، وساس حَمّاد مدينة أَشِيرَ التي شادها زيرىٰ في أوائل ارتقائه، واستقرَّ أمراء آخرون بمدنٍ كثيرةٍ أو استقلوا بقبائل الصحارىٰ وانحصر أمر الزيرية في عاصمتهم تقريبًا، وانهمك أصحاب الأموال الكثيرة الزيريةُ في ملاذِّ القصور مُضحِّين بكل شيء في سبيل شَهَوَاتِهم البهيمية.

فمن أجل ذلك كان الأمل قليًلا في ثبات الحضارة بإفريقِية علىٰ الحال التي كانت عليها أيام الأغالبة، وذلك في عهد أمراء تلك هي حالهُم، بَيْدَ أن دوام ازدهار العلوم والفنون في مصر والأندلس بفضل الفاطميين والأمويين وصِلَةِ تلك الديار بهذين القطرين مما كان يؤدي إلىٰ تلافي هذه المناحي المشؤومة.

ذلك هو الوضع الذي كان عليه عرب إفريقِيَة في أوائل القرن الحادي عشر، وسيتجزؤون بالتدريج حتىٰ يبلغوا دورَ الانحطاط، وأصيب عرب الأندلس بمثل ذلك بعد دور عجيبٍ من المجد والَجلال.

أسفر تاريخُ الأندلس عن حضارة ثلاثمئة سنة تباين جهلَ شعوب الغرب وهمجيتَها، وبينما كان ظلم القوة مطبقًا علىٰ أوربة النصرانية كان عرب إسبانية يدركون أعمال السَّلْم ويحترمون آثار الذكاء مع المحافظة علىٰ نشاطهم الخُلقيِّ الذي نجم عن تَعوُّدِ المعارك، وإذا كان العرب قد زاولوا العلوم والفنون لم يكونوا في ذلك كالفَرنْج الذين أطاعوا شارلمان المسيطرَ، بل مارسوها وفْق سجيتهم، فلم يفعل الخلفاء غير مداراةِ اتجاه الرأي العام، وما أتاه الخلفاء من حَثٍ علىٰ الآداب والتجارة والصناعة قوبل بالشكر من قوم كانوا مُقدِّرين لهذه الُمقوِّمات.

بدت بذور الحضارة العربية بين سنة ٧١١ وسنة ٧٥٥ بفعل النُّظُم التي نشأت عن الفتح أو أقرَّها الفتح، وإذا كانت الحرب الأهلية قد وقفت تنظيم البلاد السياسيَّ ذات حين فإن جلوس عبد الرحمن الأول علىٰ العرش وإعلانَ خلافةِ الغرب(١) قضيا علىٰ هذه المنازعات المحزنة وأحلَّت مبادئ الحقوق محلَّ أهواء

(١) لم يكن عبد الرحمن الأول هو الذي أعلن خلافة الغرب، بل ظلت الأندلس إمارة مستقلة إلىٰ عهد =

الطُّغاةِ الطامعين، فأخذت منابع الرَّخاء تتَّسِع بسرعةٍ تحت ظِلال حكومةٍ رشيدةٍ مُحِبَّةٍ للخير.

وأدىٰ استقرارُ السلطة، التي لم تَخْرُج من بني أُمية، إلىٰ تلك الحال الطيبة، وما كنتَ تَرَىٰ في إسبانية، كما في إفرِيقيَة، شيئًا من المنافسات الدامية التي كانت تنتهي باستبدال أُسْرَةٍ مالكةٍ بأُسْرَةٍ مالكة، وما كنتَ تَرَىٰ في إسبانية شيئًا من الانقسامات اللاهوتية، ولم يَكَدْ عبدُ الرحمن يَقْبِضُ علىٰ زِمام الحكم حتىٰ أراد أن يُنْسِي المسلمين حجَّ مكة، فأنشأ في قرطبة التي اتخذها عاصمةً له مسجدًا كان المؤمنون يزورونه مرةً في السنة حبًّا للاطلاع في البَدَاءة ثم بسائق التقديس في النهاية[1]، وعبدُ الرحمن إذْ كان محافظًا علىٰ تعاليم محمدٍ وشعائرِه محافظةً تامةً، شأنَ أجدادِه في دمشقَ، أظَهَرَ لرعاياه تمسُّكَ آله بالعبادات الدينية، ولم يَقْدِر العباسيون والعلويون في إسبانية علىٰ إيقاد واحدةٍ من تلك الفتن التي كان يُمْلِيها التعصب فتُخَضِّب آسية بالدماء، ولم يكن لدىٰ الأمويين ما يَرْبُكُهم من هذه الناحية، فما بدا في الأندلس من المذاهب خاصٌّ بالأخلاق والفلسفة، وظهر في الأندلس، كما في كلِّ مكانٍ، أناس ذوو آراء جديدة ومتطرفة، فلم تَخْرُج مباحثهم عن حدود الحَذَرِ الرشيد، وكان سادة إسبانية من أهل السُّنَّةِ، فلم تَعْدُ المناقشاتُ حدودَ مشاكلِ التفسير، وكان الفقهاء علىٰ مذهبين متنافسين: مذهبِ مالكٍ ومذهبِ الأوزاعيِّ فكنت ترىٰ بينهما اختلافًا شديدًا في بعض الأحيان، ولا سيما حَوَالَيْ سنة ٨٥٢، ولكن من غير أن ينقلب الخلافُ إلىٰ انفصال.

= عبد الرحمن الثالث، فلما شعر عبد الرحمن الثالث هذا بوهن خلافة بنىٰ العباس في المشرق نادىٰ بنفسه خليفة (المترجم).

(١) نرىٰ المؤلف يناقض نفسه بذكره أن عبد الرحمن الداخل أراد أن ينسي المسلمين حج مكة فأنشأ جامع قرطبة وبذكره أن عبد الرحمن الداخل كان محافظا علىٰ تعاليم الإسلام وشعائره محافظة تامة، فلا تستقيم هذه المحافظة الدينية مع العزم علىٰ صرف المسلمين عن الحج إلىٰ مكة، وقد وجهت تهمة مثل هذه إلىٰ عبد الملك بن مروان فدحضناها بتعليقنا عليها في الفصل الرابع من الباب الثالث من هذا الكتاب، فالذي نراه أن عبد الرحمن الداخل أراد بإقامته مسجد قرطبة الرائع أن يحمل أتباعه علىٰ سلو المسجد الكبير بدمشق وعلىٰ الاعتزاز بقدرتهم علىٰ شيد ما يفوق كنائس النصارىٰ بإسبانية عظمة (المترجم).

وتجِدُ سببًا آخر أوجب ثبات سلطان المسلمين في إسبانية، وهو ما أنجب به الأمويون من ذوي المواهب، فخُذْ عبدَ الرحمن الأول (٧٥٥–٧٨٧) مثلًا تَرَهُ جامعًا للعدل والحلم، وكان عبدُ الرحمن الأولُ هذا نشيطًا شجاعًا حتىٰ إنه لُقِّبَ بالعادل من قِبَلِ قوم يَعُدُّون الإنصافَ أفضلَ الفضائل، وعلىٰ ما كان من كَلفِ عبد الرحمن الأول بالنفائس والأبَّهةِ تُبْصرُه أشدَّ حُبًّا للآثار التي تخاطب المشاعرَ ولمبتكراتِ الذكاء التي تَسْمُو بها الروحُ مما للزخارف المُثقَلةِ بالذهب والحجارة الكريمة.

ومما يُرْوَىٰ عن عبد الرحمن أنه أتىٰ عملًا بسيطًا مؤثرًا يدلُّ علىٰ أنه، وهو صاحبُ تاجٍ، كان وَفِيًّا لذِكْرَياتِ صِباه ولمسقط رأسه، فقد غَرَسَ في حدائقه بقرطبة نخلةً أُحْضِرَتْ من البادية، فكان يُرَدِّدُ، وهو جالس تحت ظِلِّها، أبياتَ الشعرِ الآتيةَ المشهورةَ:

تَبَدَّتْ لنا بين الرُّصافَةِ نخلَةٌ ... تَنَاءَتْ بأرضِ الغرب عن بلدِ النخل

فقلتُ شبيهي في التغَرُّبِ والنَّوَىٰ ... وطولِ ابتعادي عن بَنِيَّ وعن أهلي

نَشَأْتِ بأرضٍ أنت فيها غريبةٌ ... فمثْلُكِ في الإقصاء والمُنْتَأَىٰ مِثْلي

سَقَتْكِ غَوَادِي المُزْنِ من صَوْبِها الذي ... يَسُحُّ وَيَسْتَمْرِي السِّماكَيْنِ بالْوَبْلِ

وَخَلَفَ عبدَ الرحمن الأول ابنُه هشامٌ الأولُ (٧٨٧–٧٩٥)، والحِلْمُ والتقوىٰ أظهرُ صفاتِ هشامٍ، فأحبته رعيته لهذه الخلال، ولم يبالِ أميرٌ بسعادة شعبه المادية مبالاة هشام، فكان يُوَزِّعُ الصدقاتِ بِسَخَاء، وكان يُعْنَىٰ كلَّ العناية بإنشاء معاهدَ كثيرةٍ حيث يَجِدُ البائسون وسائلَ للعمل وأقْوَاتًا للعيش، وكانت آخرُ كلماتٍ خاطب بها ابنَه الحكَمَ، وذلك عند وفاته، هي قولُه الآتي الذي يدلُّ علىٰ رشده العظيم: «يا بني! إن الممالك مُلْكُ الله يؤتيها من يشاء وَيَنْزِعُها ممن يشاء، وهو الذي أعطانا مُلْكَ الأندلسِ فلْنَشكُرْه علىٰ ما أعطىٰ، وَلْنَصْنَع المعروفَ بخَلْقِه كما أمر، فهو لم يُنْعِمْ علينا بالملك إلا من أجل فعل الخير، وليكنْ العدلُ رائدَك، ولتكن رعايتُك شاملةً للغَنيِّ والفقير علىٰ السواء، وعامل الجندَ بالُحسنىٰ، وأْمرهم بالمحافظة علىٰ العِبادِ ولا تجعلهم طُغَاةً في البلاد، وكُفَّ الأذىٰ عن الزُّرَّاعِ فمن عَمَلِهم تأتينا الأقْوَاتُ، ولا تَدَع السهرَ علىٰ ما لَهُمْ من الحقول

والغَلَّاتِ، ولْيَعُمَّ الرَّخَاء الرَّعيةَ في عهدك وَلْتَنَل الرعيةُ أطايبَ النِّعَمِ تحت ظلِّك*».

تَذَرَّعَ الحَكمُ الأول (٧٩٥-٨٢١) بالغرور الباطل والعُنْفِ الشديد فحَجَبَ بذلك ما كان يوجبه علمُه وإقدامُه من تقدير الجميع، وتراه قد فُطِرَ علىٰ الحياة الطليقة، وترىٰ جَلَفَه الممزوجَ بالسَّوْدَاء أحيانًا قد زاد مع العُمْرِ فدفعه إلىٰ اقتراف آثام أوجبها حبُّ الانتقام الأعمىٰ، وإن ساوره وَخْزُ الضمير في أيامه الأخيرة، ثم خَلَفَه عبدُ الرحمن الثاني (٨٢١-٨٥٢) المعاصرُ للمأمون فأنسىٰ الناسَ سُوءَ ما ارتكب الحَكَم، وكان عبدُ الرحمن الثاني شبيهًا بجدِّه هشامٍ في مشاعره وميوله، وكان يَزيدُ عليه حُبًّا للآداب والفنون، فكان الشعراء والموسيقيون يَحُفُون من حولِه، وساعد، أكثرَ من أيِّ إنسان، علىٰ تطعيم شمائل العرب بتلك الرِّقَّةِ وتلك الظَّرَافَةِ اللتين أصبحتا رمزًا إلىٰ الفروسية، ومن يجهلُ قصةَ تلك الجارية المُفَضَّلَةِ التي سُدَّ بابُها بِقِطَعٍ من فِضَّةٍ جزاء خِفَّتِها تاركًا لها أمرَ هدم هذا الحاجز الطريف؟

وكان الأمراء الثلاثة الذين خَلَفُوا عبدَ الرحمن الثاني، وهم: محمدٌ الأول (٨٥٢-٨٨٦) والمنذرُ (٨٨٦-٨٨٨) وعبدُ الله (٨٨٨-٩١٢)، قَوَّامِينَ بالمُلْكِ، غيرَ مسيئين ممارسةَ السلطة التي أتتهم، بَيْدَ أن ما وقع في زمنهم من الفِتن لم يَسْمَحْ لهم بإقامة مبانٍ جديدةٍ تزدهي بها الخلافة.

وغيرُ ذلك عهد عبد الرحمن الثالث الذي دام نحو نصف قرن (٩١٢-٩٦١)، فكان أنضر دورٍ لسلطان العرب في إسبانية، فبينما كان قريبُه الأمير المظفر يُطفئ الفِتن الداخلية ويحافظ علىٰ سلامة البلاد تِجاه النصارىٰ، وبينما كان أحد قُوادِه يُخضِع المغرب الأقصىٰ بإفريقية، كان يجدد جهود أجداده في عاصمته قرطبة فيزخرفها هي وأهم مدن الأندلس بضروب الزينة، ويُدْخل إلىٰ إسبانية علوم مدرسة بغداد ويحفِز الآداب والفنون إلىٰ الأمام، وعبد الرحمن الثالث هو الذي أنشأ من أجل إحدىٰ جواريه المُفضَّلة مدينة الزهراء الشهيرة بالقرب من قرطبة، وما وُصِفت به هذه المدينة يفوق كل ما يَرْقىٰ إليه الخيال.

ومن ثَمَّ ترىٰ أنه اتَّفق لعبد الرحمن الثالث المجد الحربي والمعارف العالية والثَّراء والتَّرَف والأبَّهة وضروبُ الجلال، وتراه، مع ذلك، سيئَ الحظ، فقد

اضطُرَّ إلىٰ قتل ابنه جزاءَ ما حاكه من المؤامرات وما أثاره من الفِتن وصولًا إلىٰ العرش، فضاق صدره فزالت منه عناصر السعادة التي أنعم الحظ عليه بها، وإليك ما جاء في إحدىٰ الوثائق التي وُجدت بين أوراقه حين وفاته: «مضت خمسون سنة منذ تولَّيْت الخلافة فتمتَّعت بما لا يزيد عليه شيء من الثراء والمجد والنِّعم، فاحترمني الملوك وخافوني وحسدوني، وحباني الله بأقصىٰ ما يرغب فيه إنسان، فأحصيتُ أيام السرور التي صفَتْ لي دون تكديرٍ في هذه المدة الطويلة، فكانت أربعةَ عشر يومًا، فاعْجَب أيها العاقل لهذه الدنيا وعدم صفائها وبُخلِها بكمال الأحوال لأوليائها*».

وكان الحكَم الثاني (٩٦١-٩٧٦) أهلًا لخلافة عبد الرحمن الثالث، فهو وإن كان دونه رغبةً في المجد، لم يفكر في سوىٰ سعادة رعاياه، وهو قد اكتفىٰ بنفقةٍ معتدلةٍ فوجد في الاقتصاد الحكيم ما يخفف به الضرائب وما يزيد به الأعمال ذات النفع العام، ويمكن تقدير إنصافه بالأمر الآتي الذي حدث علىٰ شكلٍ آخر في تاريخ بطلٍ من أبطال الأزمنة الحديثة[١]، وهو: أن امرأةً فقيرةً كانت تملِك حقلًا متصلًا بحدائق الخليفة، فأراد الحَكَم أن يَبنيَ قبة فيه ففوَّض إلىٰ وكيله أن يشتريه له مُعرِبًا له عما ينتويه، فلما أبت المرأة ما عَرَضه عليها وكيل الخليفة نزع ملكيَّة الحقل منها وشاد القبةَ عليه، فرفعت هذه المسكينة أمرها إلىٰ قاضىٰ قرطبة: بشير، فوعدها القاضي بالعدل، وإن الخليفة لجالس تحت قُبته الجديدة إذ رأىٰ القاضي راكبًا أتانًا وحاملًا كيسًا فارغًا، فرجا القاضي منه أن يملأه من التراب الذي يطؤه في ذلك الحين، فلما ملأه التمس منه أن يساعده علىٰ وضعه فوق الأتان فرَضيَ الحَكَم بذلك طامعًا في معرفة السِّرِّ، ولكنه لم يقدِر علىٰ زحزحة الكيس، فقال له القاضي باتِّزان: «يا أمير المؤمنين! إن ما يشتمل عليه هذا الكيس الثقيل ليس إلا جزءا زهيدًا جدًا من الحقل الذي اغتصبتَه من إحدىٰ رعيتك، فإذا كنت لا تستطيع أن ترفعه في هذا اليوم فكيف تقدر علىٰ حمل الحقل بأجمعه يوم الحساب؟*» هنالك بُهِتَ الحكم، فاعترف بخطئه فأعاد الحقل

(١) هو ملك بروسية فردريك الكبير، وقد اشتهرت قصة اغتصابه المطحنة الملاصقة لقصره «سانسوسىٰ» وانتصاف القضاء منه لصاحبتها وقولها: «إن في برلين قضاة» (المترجم).

إلىٰ المرأة الفقيرة مُهدِيًا إليها القبة التي أقامها عليه.

دام عهد الحَكَم الثاني الذي امتاز بفضائله خمس عشرة سنة، وكان خليفتُه هشامٌ الثاني صغيرًا، وأخذت إسبانية الإسلامية تكون مسرحًا للفتن، فنهض بأعباء الحكم مساعدًا للتاج الرجلُ العبقريُّ المشهور الحاجبُ المنصور الذي كان يشابه الحَجاج في براعته واقتداره، فظلَّ الحاجبُ المنصور الخليفةَ الحقيقي حتىٰ سنة ١٠٠١م، فلما مات المنصور عُهِد إلىٰ ابنه عبد الملك في إدارة شؤون الخلافة كما كان أبوه، فقام بذلك حتىٰ سنة ١٠٠٨ حين قَبض علىٰ أعِنَّة الدولة هشام الثاني الذي لم يقدر علىٰ مقاومة أعدائه فكان لبني أمية، الذين بَدَوْا أقوياء حتىٰ ذلك التاريخ، سببُ انحطاطٍ وسقوطٍ في عجزِ هذا الخليفة وضعفِه.

ونحن إذا ما رَجعنا البصر، بوجهٍ عامٍ، إلىٰ سياسة خلفاء قرطبة في القرون الثلاثة التي انقضت وجدنا في درسها معارفَ ذات قيمة، فقد أظهر بنو أمية من سداد الرأي ما لم يُنفقوا معه دخل إسبانية علىٰ الحمَلَات البعيدة، فكانوا يُطفِئون في قلوبهم ما يغلي من الحقد علىٰ جلَّاديهم بني العباس، فهم بعد أن غلَبوا الأمير يوسف الفهريَّ الذي أراد الحُكم باسم خلفاء العراق اكتفوْا بِدحرِ حليفه والىٰ القَيْرَوَان العلاء بن مغيث حواليْ سنة ٧٦١، فلم يتخذوا خِطَّة الهجوم قطّ، وحاول قياصرة القسطنطينية غير مرة في السنوات: ٨٢٣ و٨٤١ و٩٤٩ أن يتحالفوا هم وبنو أمية تحالفًا وثيقًا ضدَّ عرب المشرق، فتلقَّىٰ خلفاء قرطبة هذه العُرُوض بفتورٍ مكتفين بوعود لم ينجزوها قط.

وإفريقِيَة هي البلد الوحيد الذي رأىٰ بنو أمية أن يكون لهم فيه بعض المستعمرات، واقتصر بنو أمية، مع ذلك، علىٰ المغرب الأقصىٰ لسهولة سوق الجيوش إليه، وكان لهذا الفتح (٩٣١) فائدةُ إظهار ما لديهم من قُوىٰ ووقْفِ الفاطميين الذين قد يفكرون، في أثناء حَمِيتِهم الحربية، في غزو إسبانية وطرح خِططِهم حول مصر جانبًا، ولكن ضرورة إخضاع قبيلة زَناتَة العاتية كان يجعل ذلك الفتح عبئًا ثقيلًا لِمَا يتطلبه من تضحيات مستمرة في الرجال والمال.

وأوجب بنو أمية احترام سلطانِهم في الداخل، وقضوْا علىٰ كل سعىٰ إلىٰ الفتنة، وما كان الهدوء المطلق ليلائم سجِية العرب مع ذلك، وليس من الرأي أن

يُبالَغ في أمر الفتن التي حدثت في ذلك الدور الطويل مع ذلك، فقد ظل السلطان قبضةَ رجل واحد، ولم يبد مركز الحكومة قرطبة مُهددًا طرفة عين، ولم يكن لأية مدينة عربية أن تُنازِع قرطبةَ مرْتبةَ العاصمة.

علىٰ أن فِتْنةً حدثت في القرن الثامن حول وراثةِ التاج فكادت تُودِي بمستقبل الأسرة المالكة الجديدة وتؤدىٰ إلىٰ انقسامات لا يَنْضُبُ لها مَعين، فقد اختار عبد الرحمن الأول لولاية عهده، وذلك عند وفاته، ابنَه الثالثَ، هشامًا الأول ذا الفضائل التي تُسَوِّغُ مثل ذلك الاختيار، فاحتمل ولداه الأكبران، سليمان وعبد الله، ذلك الحِرْمان الجارح علىٰ مَضَض، فلم يُعَتِّمَا أن امتشقا الحُسامَ لخلع أخيهما أو ليستقلَّا، علىٰ الأقل، بالولايتين: مَارِدَة وطُلَيْطِلة (٧٨٩)، مع ما في ذلك من نقضٍ لحقوقٍ العرب القومية وتقاليد بنىٰ أمية، فدام جهادُهما سنتين علىٰ غير جَدْوَىٰ، فهزَمَهُما الخليفة في بُلْشَ، وغلبهما ابن الخليفة الحَكَم في لورقة، فاستسلما ونالا عفوًا كريمًا.

فلما مات هشامٌ في سنة ٧٩٦ عادا إلىٰ مزاعمهما، فطلبا قسمة إسبانية الإسلامية جهرًا فرفَعَ وُلاةٌ وقُوَّادٌ كثيرون راية العصيان معهم، فكُتِب النصر للحَكَم في مُرْسِيَة، وهَلَك سليمانُ وهو يقاتل، وَظَفِرَ عبد الله بعفو آخر (٨٠٠)، ثم علم عبد الله، هذا الأميرُ الذي لا يُصْلَحُ، نبأَ وفاةِ الحَكَمِ (٨٢١) وهو في طنجة حيث اعتزل، فَخَفَّ إلىٰ إسبانية علىٰ رأس أناس غير قليلين من مُرْتَزِقَةِ إفريقِيَة فاستطاع أن يتحصنَ في بَلَنْسِيَة، فلم يترك الخليفةُ الجديد عبد الرحمن الثاني له من الوقت ما يَقْدرُ به علىٰ توسيع نِطَاقِ صِلاتِه، فأُهرِع إلىٰ تحت أسوار بَلَنْسِيَةَ العاصيةِ فطلب عَمَّهُ الأكبر للمبارزة إذا كان لا يعترف بحقوقه، فاستخار عبدُ الله إلهَهُ قبل البدء، فظهر له ما تشاءم منه، فسلَّمَ أمره إلىٰ عبد الرحمن، فاحترم عبد الرحمن هذا له شَيَخَه فأحسن قبوله تاركًا له أمواله (٨٢١)، وحرب ورَاثَةِ التاج تلك هي كلُّ ما حَدَثَ من الزَّعْج لبنىٰ أمية حتىٰ القرن الحادي عشر، أَجَلْ إن عبد الله (٨٩٥) وعبد الرحمن الثالث (٩٤٩) تداركا شَعْبَيْن قام بهما أولادُهما بَيْدَ أن رَفْعَ التروس هذه ليست بالأمر الجِدِّ.

وأبدىٰ الوُلاةُ معارضةً أدعىٰ إلىٰ إزعاج حكومة الخلفاء من ذلك، فقد كان

أكثرُ الوُلاة يُنفذون ما يَتَلَقَّوْنه من الأوامر من قرطبة خَشية العَزْل، لا شعورًا بالواجب، فكانوا إذا ما آنسوا في أنفسهم قدرةً علىٰ رفعِ القِناع طَمِعُوا في الاستقلال، فكان لا بدَّ من سرعة القمع، فكانت كل قارعة تحلُّ بالخليفة تؤدىٰ إلىٰ امتناع عشرة وُلاةٍ عن مساعدته وإلىٰ الاستقلال بما وضعه تحت أيديهم من ولاياته، فإذا أنعمتَ النظرَ، بعد تشتيت شمل أنصار يوسف الفهريِّ، وَجَدْتَ الوُلاة الذين أوْقعوا الإسلام في أعظم ارتباك وُلاةَ قرمونة وَبَيَّاسَة الذين أوجبوا حملةَ العَلاء بن مُغيث (٧٦١)، ووالىٰ طَرْطُوشَة الذي اشترك في فِتَن سليمان وعبد الله، وَولاةَ سَرَقُسْطَةَ ومارِدَةَ وطُلَيْطِلة وشقة الذين أشعلوا في أربعين سنةً شمالَ إسبانية ووسطها، وذلك بتأثير رجلين لا يُعْرَفُ أصلهما كثيرًا.

ذانك الرجلان هما عمر بن حفصونَ وابنه غالبٌ Caleb (؟)، اللذان مَثَّلا دورًا مهمًا في تاريخ الأندلس مدةَ نصفِ قرن تقريبًا، فهما إذْ كانا بين النصارىٰ والمسلمين، وكانا غير مُنْضَمَّيْن، نهائيًّا، إلىٰ هؤلاء أو هؤلاء أرادا أن يُحدِثا بين الأمَّتَيْن مِنْطَقَةً محايدةً حيث تتمتع الدِّيانَتَان بمساواة مطلقة.

ووجد عمرُ السَّنَدَ في وُلاةٍ وقُوادِ كثيرين، فتمكن بعد حياة قضاها في قطع السَّابِلَةِ من السيطرة علىٰ مُعْظم أرغونة (٨٦٣-٨٦٦)، فَغَلبَه محمد فتقهقر إلىٰ جبال البرانس ليجمع جيشًا أشدَّ بأسًا وأكثر تنظيمًا، فلما تمَّ له ذلك استردَّ، بمساعدة ملك نَبَرَّة، مِنطَقَة أرغونة الواقعةَ بين جبال البرانس ونهر إبْرَة، ثم غُلِبَ وَقُتِلَ في معركة أيبار، فوجد المنتقمَ في ابنه الذي تَصَدَّىٰ لغارات المنذر فنال سلطةً واسعةً بما اتفق له من أحوال ملائمة.

وأسفرت إحدىٰ الفتن عن فتح أبواب طُلَيْطِلة لغالب كما أوجبت فتنة أخرىٰ فتح كونكة أبوابَها له أيضًا (٨٨٦)، ثم اقترب من نهر وادي أَنه ونهرِ الوادي الكبير مثيرًا أعداء الخليفة في كل مكان (٨٨٨-٨٩٠).

واضطُر عبد الله إلىٰ مقاتلة ابنه فلم يستطع أن يرسل إلىٰ منازلة غالبٍ من الكتائب ما فيه الكفاية، تاركًا له سيادة حوض نهر تاجُه من مصبِّه إلىٰ طلبيرة وقسم من قطالونية والشاطئ الممتد بين طُرْطوشة ومُرْسِية.

وغالب إذ صار لا يجد من المسلمين ما يُكدر صفوه عاد لا يدارىٰ

النصارىٰ كما في الماضي، فلم يتردَّد في مهاجمتهم، ولكنه قدَّرَ قُوته بأعظم مما هي فأصيب بهزيمة هائلة في معركة سَمُّورة (٩٠١)، فكانت هذه النازلة نذير انهياره، فقد تحالف ملكُ ليون (لاون) والخلفاء ضده، فنال عبد الرحمن الثالث نصرًا حاسمًا (٩١٣) في كونكة فاستردَّ جميع القسم الشرقي من إسبانية فخضعت له في شهرٍ واحدٍ مئتا مدينة محصنة بغير مقاومة، فلم يبق لغالب غير طُلَيْطِلة وبعض الأماكن في أرغونة، بيد أن اسمه بلغ من الإرهاب درجةً استطاع بها أن يتماسك عَشْر سنوات أخَرَ بتلك المواضع المختلفة، والموتُ وحده هو الذي فضَّ حزبه (٩٢٢)، واستمرت طُلَيْطِلة علىٰ المقاومة بعض الزمن مع ذلك، وهي لم تخضع لسلطان الخليفة إلا بعد أن قامت مجاعة مخيفة مع ذلك (٩٢٧).

وهنا نقول إن طُلَيْطِلة امتازت من جميع مدن إسبانية بمعارضتها لسلطان الإسلام، وكان سكانُها الكثيرون من اليهود والنصارىٰ المعادين للحكومة سرًّا، فما كانت عاصمة القوط السابقة هذه لِتُطِيق تفضيل قرطبة عليها، فأخذ أولئك السكان، الذين خضعوا لحكم الأجنبي في البداءَة غيرَ أسَفاء فسُمُّوا بالمستعربين، يغضَبون لفقدهم كل نفوذٍ سياسي، فصاروا يبحثون عن نفوذ جديد لهم يجعل أنفسهم قطبًا للحزب المقهور ومما حدث قبل حرب غالبٍ أن اضطُرَّ الحَكَمُ (٨٠٠) وعبد الرحمن الثاني (٨٢٨-٨٣٨) ومحمدٌ الأول (٨٥٣-٨٥٩) إلىٰ إخضاعهم بالقوة وحصارهم باطّراد، وكان يمكن هؤلاء الخلفاءَ أن يخرِّبوا حصونَهم، ولكنهم لم يصنعوا ذلك مخافة أن يُضعِفوا خط دفاعهم بأيديهم غير مفُكِّرين في أنه لا يفيدهم وجود هذه الحصون قبضةَ سكان من الأعداء.

وليس من نوع فِتن طُلَيْطِلة العنيفة ما أطفأه الخلفاء من الفتن الأخرىٰ، كالفتنة التي اشتعلت بِمارِدة سنة ٨٢٧، وكالفتنة التي أوقدها سكان جبال البيرة، فهذه الفِتن نشأت عن استعمال الشدة في تحصيل الضرائب، فلم تكن ذات هولٍ بعيد المدَىٰ مع ما أوجبته من وقائع في البشرات وعلىٰ ضفاف نهر تاجه.

وقُلْ مثل هذا عن فتنة قرطبة أيام الحَكَم (٨١٧)، فقد أراد هذا الأمير أن يسدد نفقات حرسِه الخاص الكبير بفرض مكوسٍ علىٰ السّلع الواردة، فثارت النفوس فرفض الناس إطاعة ما أمروا فأراد الحكم أن يُجازي العُنُد منهم فانقض

الأهالي علىٰ الحرس فقتلوا عددًا غير قليل منه، فأكرهوا بقيته علىٰ الارتداد إلىٰ القصر فاشتاط الخليفة غيظًا فسار علىٰ رأس فرسانه، إلىٰ العُصاة، ففر أهل قرطبة من أمامه أو حاولوا الدفاع عن أنفسهم علىٰ غير جدوىٰ، فنُهبت منازلهم في الأرباض[1]، فحُملوا علىٰ الَجلاء مع أسَرِهم، فذهب بعض هؤلاء المبعَدين إلىٰ رَبَض فاس حيث أكرم إدريس بن إدريس مَثْوَاهم، وأضحىٰ فريق منهم قرْصانًا فانتهب في سنة ٨٢٠ مدينة الإسكندرية، ثم استولىٰ علىٰ جزيرة أقْرِيطِش حيث أنشأ مدينة كندية (الخندق) سنة ٨٤٦.

وكان من سياسة الخلفاء أن يحاطوا بحرسٍ من الأجانب، وكان حرسُ خلفاء عبد الرحمن الأولين من زَنانة، وَجَلَبَ الخلفاء، بعد عبد الله (٩٠٠)، جنودَ حرسهم من مماليك الصقالبة بالقسطنطينية، فكانوا يُدَرِّبُونهم علىٰ استعمال السلاح، فكان لهم منهم أعوانٌ مخلصون، فكانوا يَحُولون بهم دون اصطدام العرب والبربر، فلم يصطرع ذانك الفريقان بين سنة ٧٥٥ وسنة ١٠٠٨ مع ما كان يَحْمِله كلٌّ منهما من غِلٍ علىٰ الآخر، ولْنَعْلَمْ، مع ذلك، أنه كان يوجد في جيش غالبٍ أكثرُ من ستين ألفَ بربريٍ، وما لصاحب السلطة من قوةٍ كان يمنع الحرسَ الصقلبيَّ من أن يصبح ذا نفوذٍ ضارٍّ كما في المشرق، ولم يَبْدُ شأن هذا الحرسِ السياسيُّ إلا بعد القرن الحادي عشر حين أوشك بنو أمية أن يَسْقُطُوا.

وإذا عَدَوْت هذه الاضطرابات الداخلية وَجَدْتَ اضطرار عرب إسبانية إلىٰ مكافحة ما هو أشدُّ خطرًا، أي إلىٰ مقاتلة نصارىٰ أشتورش (بلاد الصخرة) والغول، وكان عليهم أن يقاوموا الفَرَنج الذين ألِمُوا من استقرارهم بسبتمانية فيما وراء جبال البرانس، وكان عليهم أن يقاتلوا في هذه الجبال، كما في جبال مملكة أوفيدو، أناسًا أولىٰ بأسٍ شديد فيتحطم أمامهم كلُّ جهاد.

ومما وقع أن الأمراء الذين جاؤوا قبل عبد الرحمن الأول أكْرِهُوا علىٰ ترك بلايَ القوطيِّ يؤلف في جَلِّيقِيَّةَ إمارةً نصرانيةً صغيرةً، فاستفاد خلفاء بلايَ من جميع الفِتَن التي اشتعلت في إسبانية فاجتذبوا إليهم من لم يُطِقْ حكم الإسلام من النصارىٰ، فلما قامت خلافة عبد الرحمن وَجَدَ هذه الدُّوَيْلَةَ ثابتة الأساسِ في

(١) الأرباض: جمع ربض، وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن.

شمال نهر مينو، ومع ما كان من عَطَل الَجلالِقَةِ من أيِّ نظام سياسيّ قاوموا بعنادٍ كلَّ محاولةٍ لمرور المسلمين من قطالونية إلىٰ سبتمانية، علىٰ حين كان الفَرَنجُ وببينُ القصيرُ يحاصرون أرْبُونَة التي حُرِمَتْ كلَّ مَدَدٍ (٧٥٦).

وَقَصَدَ عبدُ الرحمن إلىٰ ملوك أوفيدوا في البَدَاءةِ فأخافهم بما أعَدَّه فرَضُوا بأن يُعْطُوا جزيةً قَدْرُها عشرةُ آلافِ أوقِيةِ ذهبٍ، وعشرة آلافِ رطلِ فِضَّةٍ وعشرةُ آلافِ فرسٍ وعشرةُ آلافِ بَغْلٍ وألفُ درعٍ وألفُ رمحٍ وألفُ سيفٍ (٧٥٩)، غير أنه لم يكد ينال ذلك حتىٰ عَلِمَ خبرَ سقوطِ أَرْبُونَة وضياعَ سبتمانية بأجمعها (٧٦٠)، وما كان من خَوْفِه ألَّا يَشُقّ طريقًا في جبال البرانس حَمَلَة علىٰ السكوت عن انتصار الفَرَنج مُكرَهًا.

وتبَنَّىٰ شارلمان القضية النصرانية فسعىٰ في إدغام الرومان في الجرمان بِسَوقِهم جميعهم إلىٰ قتال الكافرين، فانقضَّ علىٰ قطالونية وأرغونة، فتقدم الفَرَنج في الحملة الأولىٰ إلىٰ ضِفاف نهر إبرة مُخرِّبين كلَّ ما وَصَلوا إليه، غير أن ما كان من خيانة زعماء نَبَرَّة والبَشْكُنْس الذين اتفقوا هم والعرب أدَّىٰ إلىٰ هزيمة الفرَنج علىٰ حين كانوا يجاوزون جبالَ البرانس، وظلت ذكرىٰ هذه الهزيمة الدامية التي هلَك فيها رولانُ فَخَسِرَ الفرنج غنائمهم فيها مشهورةً في روايات الفروسية باسم رُونْسِيفُو، واستردَّ عبد الرحمن جميعَ مُدُنِ قطالونية وأرغونة، خلا مدينة جيرونة التي لم يدخلها ابنُه هشام إلا سنة ٧٩٣.

وأراد هشام أن يستردَّ سبتمانية فأرسل إليها جيشًا فاستولىٰ هذا الجيش علىٰ أرْبُونة، فكان هذا فوزًا عابرًا، فلمَّا عَلِمَ شارلمان خبر هذه الحملة فوَّض إلىٰ ملك أ كيتانية ابنِه لويس، علىٰ الخصوص، أن يَقِفَها، فاشتعلت علىٰ حدود جبال البرانس حربٌ طويلةٌ دامت ستَّ عشرةَ سنة (٧٩٦-٨١٢)، فأسفرت عن جعل نَبَرّة وقسم قطالونية الممتدِّ من نهر شقر إلىٰ البحر تخومًا فرنسية يدير شؤونها أمراء من أكيتانية.

وكان نصارىٰ أشتورش قد انْضَمُوا إلىٰ الفَرَنج في مُعظم حَمَلاتِهم مطمئنين إلىٰ حمايتهم رافضين الجزية حاملين السلاح ببسالة، فالتزم المسلمون خِطة الدفاع لاضطرارهم إلىٰ توزيع قُوَّاتِهم ولِما أصابهم من ضعفٍ بسبب خضوعهم للقادة

والوُلَاة، ووسَّع الطاهرُ الأذفونشُ الثاني الذي دام عهده في أوفيدو من سنة ٧٩٣ إلىٰ سنة ٨٤٢، رُقَعة مُلْك أجداده، فعَبَر نهر مينو الذي كان مدحورًا خلفه فتقدم إلىٰ ضفاف نهر دُوَيْره فحَصَر قتاله للمسلمين حول مدينة سَمورة.

ولم يُؤَدِّ موت شارلمان وتقسيم دولته إلىٰ نهوض القضية الإسلامية، واستقلَّ أمراء ثغور إسبانية فَغَدَوْا أعِزَّةً علىٰ أهل البلاد الذين ساروا شجعانًا تحت قيادتهم إلىٰ قتال أعداء دينهم، وانتحل أميرُ نَبَرّة لقب مَلِكٍ فأخذ يقتطع قشتالة وأرغونة اللتين كان أمير برشلونة يَهجُم عليهما من الناحية الأخرىٰ.

بدأت، منذ ذلك الحين تلك الحرب الصليبيةُ الُمسْتَحِرة التي لم يَتَخلَّ فيها أحدٌ من الشعبيْن عن ذراعٍ مما تحت يديه قبل أن يرْوِيَه بدمائه، ومع ما كان يقع من وقف الخليفة وأمراء النصارىٰ للقتال لم يتهادن أهلُ الحدود قطّ، فكأنَّ أحسنَ مقاتلي الفريقين كانوا علىٰ موعدٍ عند تلك الحدود التي كانت تختلف باختلاف نتائج المعارك.

وحدثت معركتان داميتان في سنة ٨٧٢ وسنة ٨٧٨، فدارت إحداهما علىٰ رافد نهر الدُّوَيرة صهاغون، ودارت الأخرىٰ في سهول سَمُّورَة، فأما المعركة الأولىٰ فكانت بقيادة ملك نَبَرِّة وملك لِيُون (لَاوُن) المتحديْن تحت لواء واحدٍ فلم يَفُرْ أحدٌ من الفريقين فيها، وأما المعركة الثانية فكَسَبَها الأذفونشُ الثالث المشهور بالكبير، فمَلَك بها سَمُّورة وفُتِح له بها حوض نهر تاجُه، فهنالك نُظِّمّت غاراتُ الجلالقة علىٰ لاميغو وفيزي وقلُمْرِية وشلمنقة وطلبيرة أيضًا، وهنالك ظهر، للمرة الأولىٰ، أمراء قشتالة الذين استفادوا من فِتَنِ عمر بن حفصون وغالبٍ فزادوا سلطانًا بسرعة (٨٨٢–٩٠٠).

وأَلْهت الفِتنُ خلفاء قرطبة فلم يَقْدِروا علىٰ وقف ذلك التقدم، ومن حسن حظهم أن انقسم بعضُ النصارىٰ علىٰ بعضٍ، فقد تنازع أمراء قشتالة وملوك نَبَرَّة وليون (لَاوُن) أمرَ بعض البِقاع من غير أن يَعْرِفوا كيف يتَحّدون ضدَّ عدوِّهم المشترك عند سنوح الفرصة الملائمة.

ولم يَكَدْ عبد الرحمن الثالث يُلْزِمُ المسلمين العُصاة بالطاعة حتىٰ أخَذَ يفُكِّر في رفع شأن سلاحه، وكان أبناء غالبٍ قد حَرَّضوا رامير الثاني علىٰ المسلمين

فأوغل راميرُ هذا في البلاد حتىٰ طلبيرة فَفتَكَ بها ضربًا بالسيف وإحراقًا بالنار، فعزم الخليفة علىٰ الانتقام، فأرسل جيشًا عظيمًا إلىٰ جلِّيقِيَّة وليون موصيًا قُوَّاده بتخريب المدن المفتوحة مع عدم حصار أيِّ حِصْن، فنَفَّذَ هؤلاء القادة ما أمِرُوا به تنفيذًا تامًا، فأراد ملك ليون أن يمنع ذلك الجيش من الرجوع فهُزِم شرَّ هزيمةٍ علىٰ ضِفاف نهر الدّوَيْرة (٩٢٩)، ولم يُعَتِّم النصارىٰ أن حملوا علىٰ لوزيتانية حتىٰ بَطَلْيُوس وأشبونة فأكرِهوا علىٰ التقهقر أمام قوة المسلمين (٩٣٤)، ثم أعلن عبد الرحمن الجهاد في سنة ٩٣٨، فعَبَر نهر الدُّويْرة علىٰ رأس جيشٍ كبير، فبدأ بحصار مدينة سمُّورَة التي حصَّنها العدو فأحاطها بسبعة أسوار مَحْمِيَّة بخندق مضاعف مملوء ماءً، فاعتمد رامير الثاني علىٰ شجاعة جنوده فاعتقد إمكان مباغتة المسلمين فاجترأ علىٰ منازلتهم في العَرَاء فمُنِيَ علىٰ سيمنكاس بهزيمة أدمىٰ من هزيمة الدُّوَيْرة، علىٰ الرغم من الجهود التي بذلها أميرُ قشتالة فرديناند غونزاليز، وعلىٰ الرغم من العَوْن الذىٰ بذله مساعدوهما من العرب الخائنين لإخوانهم ووطنهم، فتُركت سَمُّورة وشأنها بعد هذه الهزيمة فدخلها العرب عَنْوة، ومما وقع أن المسلمين أحدثوا ثُغرة في أحد الأسوار فانقضُّوا منها ظانِّين أنه لا يفصِلهم عن العدو حاجز فأبصروا خندقًا واسعًا فحفزتهم حَمِيتهم إلىٰ اقتحامه فهلكت ألوف منهم تحت ضَرَبات الإسبان، فاتخذ المسلمون من جُثث إخوانهم جسرًا فوصَلوا إلىٰ الطرف الآخر فدخلوا المدينة.

ودام الخصام سنتين أخريين كان المسلمون فيهما قابضين علىٰ زمام الأمر، وكان رامير الثاني أول طالب للهُدْنة لمدة خمس سنين (٩٤١)، وأطيلت هذه الهدنة إلىٰ حين وفاة الحكم الثاني سنة ٩٧٦، وكانت الفِتن تشتعل في مملكة ليون فلم يَقدر أمير قشتالة وملك نَبَرَّة علىٰ مبادرة العُدوان، وكان عبد الرحمن يُفَضِّل التمتع بنعَم السلم مع استعداده لمقاتلة جميع أعدائه ببسالة فارتبط، بعد حين، في أمير قشتالة سانكو بروابط الصداقة المتينة، فلم يرغب هذا الأمير في محاربة المسلمين مدةَ حياته.

استُؤنف الخصام في عهد هشام، وكان هذا الخليفة في الحادية عشرة من سِنيه، وكان تحت وصاية امرأةٍ، وكان للمسلمين أن يخشَوْا بوائق الدهر لو لم

تُفوَّض زمام الدولة إلىٰ الأمير محمد بن عبد الله بن عليّ الذي كان الناس في الأندلس يُقدرون شجاعته ومواهبه، واستقبل الشعب بغبطةٍ هذه التولية التي أملتها الجدارة وحدها كما يظهر، فلما أعلن الحاجب الجهاد انضوىٰ الناس إلىٰ لوائه زَرافاتٍ ووُحدانًا.

وجَهَر الحاجب بعزمه علىٰ فتح إسبانية بأسرِها، وأعرب، مقسمًا كهنيبال، عن حقده الأبديِّ علىٰ أعداء دينه، وهو إذا لم يُوفَّق لتنفيذ خِطتَّهِ بحذافيرها فإنه لم ينقض عهده قط، ففي كل سنة كان يغزُو، وهو علىٰ رأس جيشه، ليون وجِلِّيقيَّة وقشتالة ونَبَرَّة وقطالونية، وكان إذا ما أمعن في نِهابه إلىٰ أبعد حدٍ ردَّ جيشه إلىٰ معسكراته ليتمتع بنتيجة نصره ويوزعَ الغنائم.

وخرَّب الحاجب جِلِّيقية في سنة ٩٧٨، فنال في ميادين القتال لقب المنصور الذي اشتهر به فكرَّ علىٰ قطالونية فنشر الهَوْل حتىٰ أسوار برشلونة، فكان النصارىٰ يُضطرُّون إلىٰ الانزواء في الأماكن المحَصَّنة أو الاعتصام بالجبال غير مُقْدِمين علىٰ سُكْنىٰ المدن المفتوحة أو الإقامة بالأرياف، فما كان النصارىٰ ليبوءوا بغير الخُسران بين سنة ٩٧٨ وسنة ٩٨٣، فأضاعوا بالتتابع مدن ليون وأَسْترُقَه بعد أن دُكَّت أسوارُها.

وتَوَجَّه المنصور في سنة ٩٨٤ إلىٰ قطالونية حيث كان أمير برشلونة بوريلُ، الذي ولَّاه ملوك فرنسة، قد امتدَّ سلطانُه علىٰ أمراء أمبورية وجيرونة وأورغيل وروسيون، فحاول بوريل أن يقاوم غَزْوَ العرب، فلم يستطع، فهو، بعد أن أصيب بأول هزيمةٍ، أراد الدفاع وراء أسوار برشلونة فأكره علىٰ الفرار، فأجبر الأهالي علىٰ إعطاء الفِدَىٰ بدلًا من السلب.

وأوغل المنصور في جلِّيقِيَّة عدة مرات بين سنة ٩٨٦ وسنة ٩٩٤، وتقدم في إحدىٰ هذه المغازي حتىٰ كومبستلة حيث حَرَق كنيسة مار يعقوب المشهورة المقدسة لدىٰ النصارىٰ، وأُخِذت نواقيس هذه الكنيسة ووُضِعت في صحْن مسجد قرطبة الكبير، وكسر المنصورُ الأميرَ غارسي فرناندز في قشتالة سنة ٩٩٥، وكان المنصور يفكر بعد هذه المفاخر، في توسيع فتوحه علىٰ ما يحتمل لو لم يَرَ إخضاع زَنانة بإفريقية، وما كاد المنصور يرجع حتىٰ عاد النصارىٰ إلىٰ الهجوم،

فاسترد بوريلُ، الذي كان قد طُرد من برشلونة، ولاياته بفضل نصارىٰ فرنسة، فلما ظهر المنصور ثانية كُتب له النصر في معركة سيرفيرا (١٠٠٠) فهاج أمراء النصارىٰ من توالي انكساراتهم، فعزموا علىٰ مقاومة هذا العدوِّ الذىٰ لا يُقهَر، فتحالف أمير قشتالة وسانكو الكبير وملك ليون الشابُّ الأذفونش الخامس، فدارت بينهما وبين الحاجب المنصور رَحَىٰ قتال حاسم بالقرب من قلعة النسور Calat-Annosor (؟) فدام القتال يومًا كاملًا فلم يخرج أحد من الفريقين ظافرًا، ثم حمل فرسان النصارىٰ المُدرَّعون، الذين يَقتلون فلا يُقتلون، علىٰ العرب فاخترقوا صفوفَهم. فأمعنوا في قتل المسلمين الذين لم يريدوا الارتداد عن ميدان الوغىٰ، فلم يأمر المنصور بالتقهقر إلا عند اقتراب النهار من اليوم التالي، فلم يقدر النصارىٰ علىٰ تعقُّبه لما كان من ضَناهم ونَهْك قُواهم (١٠٠١).

تلك هي أول هزيمة أصيب بها المنصور، وهو لم يصبِر علىٰ ما انطوت عليه من ذلٍ فلم يَرْضَ بِضَمْد ما أصابه من جِراح في أثناء المعركة فمات قانطًا باكيًا انتصاراتهِ التي ذهبت هدرًا واسمَه الذي شِين عارًا.

وأظهر الجيش أشدَّ الحزن عند نَعْيِ قائده الحاجب المنصور، ولاح أن العرب خسِروا قضيتهم بوفاته، وانتقم العرب لتلك الهزيمة بقيادة ابنه عبد الملك مع ذلك، فغدت سهول قطالونية وليون مسرحًا لحروب طاحنةٍ مدة سبع سنين: (١٠٠١-١٠٠٨).

وكان ذلك آخر قصة لتلك المعارك الطويلة، فلم تنشَب الفِتن أن أنشبت أظفارَها في المسلمين فأهلكت أشجع شجعانهم فأوجبت فوز النصارىٰ.

وكان للنصارىٰ تفوق حربي لا ريب فيه، وما كانت انتصارات المنصور لتتم إلا بفضل براعته وما أوحىٰ به من الحَمِية إلىٰ كتائبه، وكان سرُّ قوة المنصور في فرسانه الذين كانوا ذوي صوْلة لا تُقاوم، ثم أخذ الإسبان يستعملون الدروع والزُّرود[١] فأصبح لهم بذلك سلاحٌ خاصٌّ أشد خطرًا، وكان زعماء الإسبان يَقضون شبابهم في التدرب علىٰ استعمال الرماح والسيوف، فيوجهونها إلىٰ المسلمين فيما بعد، علىٰ حين كان المسلمون غير مستعدين للتضحية بأعمالهم الزراعية وبِنِعم حضارتهم الراقية في سبيل الحرب.

---

(١) الزرود: جمع الزرد، وهو الدرع المزرودة يتداخل بعضها في بعض.

وكانت الجندية فرضًا علىٰ كل رجل في الدول النصرانية، وكان علىٰ الأمراء الإقطاعيين أن يَتَّبعوا ملوكهم في مغازيهم، وكان علىٰ الرعايا أن تتَّبع أولئك الأمراء في تلك المغازي، وغيرُ ذلك حال العرب الذين ظلوا أحرارًا في السير إلىٰ الغزو أو عدم السير إليه، فكان الخلفاء ذوو الموارد يجمعون ما يحتاجون إليه من الكتائب، فما كان الناس لِينْضَوُوا إلىٰ رايات الخلفاء إلا عند إعلان الجهاد ولأجل محدود.

ومن ثَمَّ ترىٰ أن نُظم الإسبان عسكرية من أولها إلىٰ آخرها، ومن ثم ترىٰ أن الفوز يُكتَب لمن تكون هذه هي حالهم.

وكان النصارىٰ غيرَ مساوين للعرب في البحر، وكان للعرب قوًىٰ بحرية هائلة، وكان الخلفاء يتصرفون في سفن كثيرة في موانئ قادس والجزيرة الخضراء والمنكّب والمَرِيَّة وطَرْطوشة وطرَّكونه، وكان للعرب في المدن الثلاث الأخيرة من هذه المرافئ دور صناعة كاملة العِدة، وكانت تعوم في كل سنة سفن جديدة كثيرة في معامل قَرْطاجَنَّة وأشْبِيلِيَّة، وكان كثير من الناس يجهِّزون مراكب للتجارة فيجلِبون سلع المشرق إلىٰ إسبانية، ومن تلك المراكب ما كان يُتخذ لِلقرْصنة فيغِير علىٰ الفَرَنج والطلاينة فضلًا عن نصارىٰ شواطئ إسبانية فيُزْعَج جميع أولئك علىٰ الدوام.

واستقر العرب بجزائر بليار (٨٢٠)، واستولىٰ العرب علىٰ قورسقة التي ظلت مستقلةً من سنة ٨٤٠ إلىٰ سنة ٨٥٠، وخرَّب العرب جِوار أرل ومرسيلية غير مرة، ووجد العرب في أواخر القرن التاسع، أي في سنة ٨٨٩، وذلك بالقرب من سان تروبيز، مكانًا ملائمًا يَصولون منه علىٰ جميع أنحاء البروفنس، فاستوطنوا فَرَقْسِينة، فأقاموا هنالك طِيلَة القرن العاشر، فكان فريق منهم يتزوج نساء من أهل تلك البلاد ويزاول الزراعة علىٰ حين كان الفريق الآخر يحاول نشر الإسلام بمغامرات يقوم بها داخل القارَّة، ثم أوغل العرب، سنة ٩٣٥، في تارِنْتيز وفاله، وسويسرة التي كان ينتهبها الهنغاريون، وأكرهوا أهل فريجوس وطولون علىٰ الجلاء سنة ٩٤٢، وذلك كلُّه بعد أن حالوا دون المرور من فرنسة إلىٰ إيطالية.

هجم برابرة إسكندينافية علىٰ الأندلس، فأنزلت أربعة وخمسون مركبًا جيشًا من النورمان إلىٰ لوزيتانية (البرتغال) ليأخذ أشبونة علىٰ حين غِرة (٨٤٣)، فاستنجد الوالي بجيرانه لطردهم، وكان هؤلاء القرصان، الذين أكرهوا علىٰ العودة إلىٰ البحر، قد هجموا في الغرب علىٰ مدينة شَذونة، ثم ساروا في السنة التي بعدها والوادي الكبير حتىٰ وَصَلوا إلىٰ أشْبيليَّة فخربوا أرباضها، ففكروا في الإقامة هنالك لو لم يَجْلُهم شيوخ القبائل، ثم دَنَوْا من مكان غير بعيد من مالَقَة وقرطاجنة فلم يغادروه إلا بعد أن نهبوا مسجد الجزيرة الخضراء المشهور، وتخريباتٌ كثيرة كتلك أثارت ساكن الخلفاء فأمروا بأن تَرْسُوَ سفن في جميع مراكز الساحل لتحول دون مباغتتها، وعهِد الخلفاء إلىٰ أسطول في مطاردة النورمان فبلغ في تقدمه مدًىٰ بعيدًا حتىٰ شوهدت سفينة عربية كبيرة منه عند مصبِّ نهر اللوار علىٰ حسب رواية مؤرخي بريتانية.

وكان العرب أرقي من النصارىٰ أخلاقًا وعلمًا وصِناعةً بمراحل، وكان من العبث أن يُبحث لدىٰ غيرهم من مِثل ما في سجيتهم وطبائعهم من الكرم والوفاءِ وحبِّ الخير، وكان العرب يحافظون علىٰ الكرامة التي هي من أظهر خِلالِهم فكان مسُّها يؤدىٰ إلىٰ أشأم المبارزات، ومما حدث أن الخليفة عبد الله سخِر، ذات يوم، من لْحِيَة أحد قُوَّاده الطويلة فآلىٰ هذا القائد ألا يمْثُل بين يدي الخليفة فأبرَّ يمينَه.

وبلغ ملوك قشتالة ونبرَّة من الثقة بوفاءِ العرب وقِراهم ما كان الكثيرون منهم يَقصِدون به قرطبة لاستشارة أطبائها المشهورين، وكان أفقر المسلمين يحافظ علىٰ شرف أسرته محافظة أكثر الأمراء صَلَفًا، وما كان خُمُول الأصل ليحول دون الوصول إلىٰ أعلىٰ الرُّتب، وما كان نُبْل المَحْتِد ليؤدي، وحدَه، إلىٰ الوجاهة، فكان لا بدَّ لنيلها من اقترانه بالفضل، وصُفىٰ الإسلام فغدت الفضائل والأعمال الطيبة تُقدَّر وعاد الإيمان لا يضغط حرية الشخص كما في زمن الفتح، وصار يُحَض علىٰ العمل ويُحترم حق التملك، وأصبح يُشاهَد احترام رب الأُسرة وتوقير الشيخ وحبُّ العدل في كل مكان، وأضحىٰ القاضي يَعُد شخصَه حَكمًا أكثر من أن يَعُده حاكمًا فلا يسيء استعمال سلطانة إلا نادرًا جدًا.

ومما أدىٰ إلىٰ عظمة العرب في إسبانية ما بلغته الآداب والعلوم والفنون من التقدم العظيم في إبَّان دولتهم، وكنت ترىٰ حب الثقافة عامًا في جميع الطبقات، وكنت ترىٰ الشِّعر يسمو بالنفوس، وكنت ترىٰ اتصاف القضاة بغزارة العلم اتصافًا جالبًا لاحترام الناس أحكامَهم، وكنت ترىٰ تنافسًا كريمًا حافزًا، وكان يُؤذَنُ لمن يَشيدون المباني في كتابة أسمائهم عليها، وكان الشعب يمتدح المتفنن البارع امتداحَه للحامي اللامع.

وبلغ العرب درجةً رفيعة من الكمال في فن البناء والموسيقَا والرقص، ولا يزال الناس يَدرُسون طراز مبانيهم الخاص فيُعْجبون بزخارفها، وأسَّس عليّ زرياب مدرسةً للموسيقا بقرطبة فذاع صيتها وبحث عليّ زرياب في طبيعة الأنغام وموارد الصوت البشريّ بحثًا جديًا فجعل أوتار العود خمسة بعد أن كانت أربعة.

وكان العرب يميلون في الشعر إلىٰ القصيدة والقصةِ علىٰ الخصوص، واشتهرت عِدَّةُ نِسوةٍ من العرب في القريض، وهؤلاء النِّسْوَةُ عُرِفْنَ بحسن التصوير ورقةِ العواطف مع حرارةِ الخيال وحماسةِ الشمائل.

وَشَمَلت العلومُ أنظارَ العرب أيضًا، فكانُ يعلمُ في المدارس علمُ الفلك والجِغرافيةُ والمنطقُ والطبُّ والنحوُ والفيزياءُ والكيمياء والتاريخُ الطبيعيُّ، وكانت مكتباتُ العرب حافلةً بنسخٍ من مؤلفات علماء اليونان وفلاسفة الإسكندرية، وزاول العربُ العلومَ الرياضيةَ والجبرَ والهندسةَ بنجاحٍ، وكان جربرتُ الشهيرُ، الذي أصبح بابا في أواخر القرن العاشر باسم سلفستر الثاني، قد تلقىٰ في الأندلس من المعارف ما بَهَرَ به معاصريه فاتهموه بالسحر.

وما أبداه العرب من النشاط في حقل الصناعة أعظمُ من ذلك، فالعربُ، بعد أن وَجدوا المناجمَ التي كان الرومان والفنيقيون يستخرجون منها معادنهم، بادروا إلىٰ استثمارها، ثم فتحوا مناجمَ أخرىٰ فامتُدِح ما لهم من مناجم الزئبق بالقرب من المعدن، وما كان لهم من مناجم الياقوت بالقرب من مالَقَة وباجة، وكان المرجانُ يُسْتَخْرَجُ من شواطئ الأندلس، وكان اللؤلؤ يُسْتَخرَج من شواطئ طرَّكُونة، وأتقنت دباغةُ الجلود وإعدادُها وحياكة القطن والكَتان والقِنَّب، وأَوْفىٰ صنعُ النسجِ الحريرية والصوفية علىٰ الغاية، وصار الناس لا يتحدثون في الشرق

وفي شواطئ إفريقِيَة عن غير نِصالِ طُلَيْطِلة وحريرِ غرناطةَ وسروجِ قرطبةَ وجلودِها، وكانت أوربة بأسرِها تبحث عن أجواخ كونكة الزُّرْقِ والخضْرِ وأبازيرِ بَلَنسيةَ وسُكَّرِها، ولم تشتمل التجارة علىٰ هذه السلَع فقط، بل كان تجار العربِ واليهودِ يُصدرُون إلىٰ مختلف البلدان، أيضًا، الزيوتَ والسكرَ والقِرمزَ والعنبرَ والبلوْرَ والكبريتَ والزعفرانَ والزنجبيلَ، ومن المحتمل أن كانوا يستعملون السُّفْتَجَةَ(١) التي عُزِيَ اختراعها إلىٰ اللومبار، وهم إذا كانوا لا يَعْرِفون هذه الوسيلةَ فإنهم كانوا يتخذون ما يماثلها، وهم الذين كان لهم في المشرق عملاء كثيرون يُرْسِلون إليهم، مبادلةً، النِّدَّ والكافورَ وفِراءَ السَّمُّورِ الخراسانيةِ والبُسُطَ العجِمية.

ولا مِرَاءَ في الخِدَمِ الزراعية التي أسدىٰ بها العرب إلىٰ إسبانية، فما قاموا به من أعمال الرِّيِّ في سهل بَلَنسِيَة المعروف بوشتة وفي سهل غَرْناطة المعروف بالبقعة أدىٰ إلىٰ أقصىٰ درجات الخِصْبِ، ولا شيءَ أدقّ من نظام الرِّيِّ في وشتة، فهذا السهلُ العجيبُ بخِصْبِه الطبيعيّ يَقْسِمُه من وَسطِه نهرُ تونة الذي تَصُبُّ مياهه في البحر بالقرب من بَلَنْسيَة، فوَقف العربُ هذه المياه في بدءِ الأمر بسدٍ بعيدٍ من مَصَبِّه فرسخين، ثم اقتطعوا ثلاثةَ جداولَ من إحدىٰ ضِفَّتَيه وأربعةَ جداولَ من ضِفتِه الأخرىٰ، فأحيط سهلُ وشتة بتلك الجداول التي بدَتْ علىٰ شكلِ المِرْوَحَة، ولم يكن هذا كلَّ ما عمِلَ، فقد اقتُطعَ من كل تلك الشرايين سبعةُ عروقٍ ثانوية فصار الماء يجري إلىٰ كل أرض مهما كانت صغيرة، بَيْدَ أن الوصول إلىٰ ذلك كان يتطلب أن تكون الأراضي منحدرةً انحدارًا هندسيًا، وأراضي السهل هذه كلها إذ لم تكن جامعةً لهذا الشرط، رُجِع إلىٰ نظام السواقي الصغيرة والجسور ذات القناطر التي يَسهُلُ بها توزيع المياه، وكان كلُّ واحد من الجداول السبعة يُفتَحُ مرةً واحدة في الأسبوع حتىٰ ترتفع المياه إلىٰ المستوىٰ الضروري، كما كان لكلِّ واحد من العروق الثانوية نَوْباتُها المعينة، فاستحق سهل وشتة، بذلك، اسمَ جَنة إسبانية، وعُنِيَ العرب، أيضًا، بالأراضي التي لا تحتمل مثلَ ذلك النظام فحَفروا

---

(١) السفتجة: هي أن تعطي مالا لرجل فيعطيك خطا يمكنك من استرداد ذلك المال من عميل له في مكان آخر.

فيها آبارًا كثيرة فكانوا يستخرجون مياهَها بواسطة الدواب فيحفظونها في حِياض أو قَنوات لتُستعمَل عند الاحتياج إليها.

أخذت أراضي الأندلس الخصيبةُ التي طُبقت عليها تلك الأساليب تُعطي ثلاثَ حصائد في السنة، فصار يُبْذَر في الحال بعد كل حَصاد.

والعربُ قد نَقَلُوا زراعتَهم العلميةَ إلىٰ إسبانية من آسية ومن سهول كَلْدة وأودية سورية، ولم يَقِف فضلُهم عند ذلك الحد، بل أدخلوا إلىٰ إسبانية زراعة الأَرُزِّ والقطن والتوت وقصبِ السكر والنخل والفُسْتُق والَموْز والأزهار، والخضَر التي انتشرت من هنالك في جميع أوربة الغربية بعد زمن، والوردِ اليابانيِّ والكاميليا الحمراء والكاميليا البيضاء والهِلْيون[1]، إلخ.

ويجب ألا يُحكمَ علىٰ حالة الأندلس أيام سلطان العرب بحالتها الحاضرة، فقد كان عددُ سكانها يزيد كثيرًا علىٰ عددهم في أيامنا، وكان في القسم الإسبانيِّ الذي مَلَكه العربُ ستُّ مدن عظيمة وثمانون مدينة ثانوية وثلاثمئة مدينة من الدرجة الثالثة، وما لا يُحصىٰ من الضِّياع والقُرىٰ والكفور، وكان يُعَدُّ في قرطبة وحدها مئتا ألف بيت وستمئة مسجد وخمسون مَشفىٰ وثمانون مدرسة عامة وتسعمئة حَمَّام شعبية، وكان عددُ سكان قرطبة مليونَ شخص، ولا نعجب، إذن مما رواه مؤرخو العرب من أنباء ضروب النعمة والترف التي كان يُظهرُها خلفاؤُها، والخلفاء هؤلاء كان لهم نصيب من جميع ثَرَوات البلد بما كانوا يَجبونه من العُشْرِ والخرَاج والمكوس والضريبة المفروضة علىٰ تجار المُفرَّق، ولا يَعسُرُ علينا أن ندرك، إذن، بلوغَ الدخل ١٢٠٨٥٠٠٠ دينار، ومما علمناه أن الدولة كانت تحتجز خُمسَ الغنائم لنفسها فضلًا عن ذلك، ومما علمناه أن اليهود والنصارىٰ كانوا يُعطون الجزية فضلًا عن ذلك.

ويظل الإنسان دَهشًا تجاه الثَّرَوات التي بذلها العرب في شيْد مبانيهم وفي أعيادهم العامة، فانظر إلىٰ جامع قرطبة الذي لا يزال قائمًا تَجدْهُ يَعدل مسجد دمشق فخامةً، وَيعَدل المسجد الأقصىٰ بالقدس تقديسًا، ويبلغ ٦٠٠ قدم طولًا و٢٥٠ قدمًا عرضًا، وتجد له في هذه الجهة ٣٨ صحنًا، وتجد له في الجهة

---

(١) الهليون: نبات له أوراق رخصة تؤكل.

المقابلة ١٩ صحنًا، وُيمْسكُ الصحون ١٠٨٣ عمودًا مِنْ رُخام، وتجد له من ناحية الجنوب ١٩ بابًا مُصفحًا بالبرونز الرائع الصنع، وتجد الباب الأوسط مُرصَّعًا بصفائح من ذهب، وتجد بأعلاه ثلاث كراتٍ مُذهبة تعلوها رمانةٌ من الذهب، وكان هذا المسجد العظيم يُضاء في الليل بـ ٤٧٠٠ مصباح يستنفد في كل سنة ٢٤٠٠٠ رطل من الزيت و١٢٠ رطلا من العنبر والنِّدِّ، وكان مصباح المحراب مصنوعًا من الذهب الخالص.

ولا يكفي الوصف لبيان النفائس والنشْوة الشاملة التي كانت تسود قرطبة في أعيادها، فقد كانت تُنارُ بأسرها، وكانت الأزهار تُنثر فوق طرقها، وكنت تسمع ألحان الموسيقا تملأ الفضاء في مُتنزَّهاتها وأماكنها العامة، وكنت ترىٰ أهلها يرقصون فَرحين.

وقد تكلمنا عن مدينة الزهراء التي شادها عبد الرحمن الثالث علىٰ ضفاف نهر الوادي الكبير، مع قَصْرها، علىٰ بعد بضعة فراسخ من قرطبة، ولم يبق لتلك المدينة أثرٌ، فاسمع ما قاله مؤرخو العرب عن قصرها: كانت قِبَابُ القصر تقوم علىٰ ٤٣٠٠ عمود من أنواع الرُّخام المنقوش نقشًا متساويًا، وكانت أرضه مبلّطة بقطَع من الرُّخام ذي الألوان المختلفة علىٰ شكل جميل، وكانت جُدرُه مصفحة بألواح لازَوَرْدِيةٍ ذهبية، وكانت في رِدَاهِه عيون ماءٍ عذبٍ ينْصبُّ ويغيب في أحواضٍ من الرُّخام الأبيض واليَصْبِ مختلفةِ الأشكال في رَدْهَة الخليفة، وكانت تُرَىٰ في وَسَط البركة إوَزةٌ من ذهب معلقةٌ في رأسها لؤلؤة كبيرة، وهذه الإوَزَّة صُنعت في القسطنطينية، وهذه اللؤلؤةُ هدية من القيصر ليونَ إلىٰ الخليفة، وكانت تحيط بالقصر حدائق واسعة، وكانت في وَسَط هذه الحدائق قبةٌ للخليفة مُعدّةٌ لاستراحته بعد القنْص، وكانت هذه القبة قائمة علىٰ أعمدةٍ رُخامية ذات تيجانٍ مُذْهبة، وكانت تتدفق وَسَط هذه القبة، جُرْزَةُ زِئْبَقٍ في حوْضٍ مخروطِ الشكل مصنوع من الرُّخامِ السُّمَّاقيِّ.

ولم تُنفقْ جميع الأموال علىٰ شيْد المباني الكمالية فقط، بل كانت تُنْفقُ، أيضًا، علىٰ إقامة الأبنية المفيدة إلىٰ الغاية، ولا سيما في زمن الحَكَم، وفي زمن المنصور الذي كان إداريًّا كبيرًا كما كان محاربًا عظيمًا، والحَكَمُ ذلك قد أنشأ

الجسورَ وفَتَحَ الطُّرق فجعل علىٰ جوانبها فنادق للمسافرين، والمنصور ذلك قد أتمَّ صنعَ قَنَاةٍ تجلبُ بها مياه نهر الوادي الكبير إلىٰ أستجة، وَرَفعَ في قرطبة مسجدًا آخر سُمِّيَ باسمه، وذلك بإشراف صاحب الشرطة الذي كان يقود القوَىٰ المسلحة للسهر علىٰ الأمن العام فتختلف سلطتُه عن سلطة الوالي الذي كان يعالج جميعَ المسائل الإدارية متفقًا مع مساعديه من الوزراء.

إذَنْ، كان عرب الأندلس علىٰ رأس الأمم المتمدنة في القرن الحادي عشر، إذنْ، كان عرب الأندلس أفضلَ من جميع أمم أوربة في ذلك الدور، ولكن روح الشقاق اشتعلت بينهم حين كانوا شديدي الاحتياج إلىٰ الاتحاد ليقاوموا النصارىٰ فَعَجَّلَتْ هلا كهم.

الفصل الثاني
انحلال خلافة قرطبة

أدىٰ قَصَرُ هشامٍ الثاني، وما أوجبه هذا القصر من إبداء الحاجب المنصور وابنه عبد الملك لعبقريتهما الفيَّاضة حتىٰ سنة ١٠٠٨، إلىٰ أطيب النتائج، فلما انقضىٰ هذا الدور فُتِحَ باب الحرص علىٰ مصْراعيْه، فكان هذا أولَ سبب لسقوط بنىٰ أمية وتعجيل انحطاط عرب الأندلس.

وكان من انتصارات المنصور أن بُهِرَ المسلمون فوَدوا دوام السلطان في ذريته، ولم يكن لهشامٍ الثاني ولَدٌ فحضَّ علىٰ جعل عبد الرحمن أخي عبد الملك وليًّا لعهده، ولم يكن بنو أمية لِيرْضوْا ذلك الحِرْمان بغير احتجاج، فأصروا علىٰ مناصبتهم العداوة لأنصار آل منصور، فوجدوا السندَ في الحرس الصقلبيِّ الحاسدِ لرجال زَنانة الذين كان المنصور قد جاء بهم، فَبَدوْا أتباعًا لعبد الرحمن، فنَجَمَ عن هذه الأحقاد والمنافسات اشتعال حرب أهلية مدة ست سنين تداول العرش في أثنائها محمدٌ المهديُّ الأموي (١٠٠٨–١٠١٠)، وأميرُ الإفريقيين سليمانُ، وهشامٌ الثاني الذي أعيد إلىٰ الخلافة لوقت قصير (١٠١٠–١٠١٢)، والأميرُ سليمانُ ذلك، ودارت أشد المعارك بالقرب من قرطبة فنهب المسلمون الُمجَزَّأُون هذه المدينة وخربوها غير مرة.

وما كان ارتقاء سليمانَ، الذي ليس لديه مُسوغ شرعيٌّ لولاية الأمر، ليضعَ حدًا لتلك الانقسامات، ولم يلبث الشقاق أن بدا بعد سنتين فتعقدَ بظهور أسرة بنىٰ حمود الجديدة التي كان هشامٌ الثاني قد اختار رئيسها عليَّ بنَ حمود لولاية المغرب.

وبنو حمود هؤلاء من فرع الأدارسة المنتسبين إلىٰ زوج فاطمة فَرَأَوْا أن يحلوا محلَّ بنىٰ أمية بسبب نسبهم، واستفاد عليُّ بن حمود من دخل ولايته الذي لم يحاسب عليه فأنفقه في جمع الكتائب، فوجد جنودًا مخلصين بين القبائل العربية والقبائل المغربية أو البربرية، ثم جلب من داخل إفريقِيَة زنوجًا كثيرين فجعل منهم كَوكبة فرسانٍ هائلة، فلما أتم استعداده توجَّه إلىٰ إسبانية فيسّر والىٰ مالَقَة والجزيرةِ الخضراء، أخوه القاسمُ، نزوله إلىٰ البرِّ فأوجب سقوط سليمانَ الذي كان الناس يكرهونه فوجد في بقية بنىٰ أمية أعداءً أشداء.

وكانت بلاد الأندلس وفية لبنىٰ أمية، ولو اجتمعت تحت لواء واحد لكُتب لها بعض الفوز، ومن دواعي الأسف أن أوقد عبد الرحمن الرابع (١٠١٧-١٠٢٣) وعبدُ الرحمن الخامس (١٠٢٣) ومحمدٌ الثاني (١٠٢٣-١٠٢٥) وهشامُ بنُ محمد (١٠٢٦-١٠٢٩) في بلاد الأندلس نارَ الفِتَنِ بين الأهالي فاستنفدت آخر مواردهم، ثم جاء بنو حمود فاقتَدَوْا بهؤلاء فأضاعوا فرصة توطيد سلطانهم، فقد انقسم، عند وفاة عليِّ بنِ حمودٍ، أخوه القاسمُ وابنُه يحيىٰ إلىٰ معسكرين مختلفين فأغرقا إسبانية الإسلامية في بحرٍ من شرور الفوضىٰ (١٠٢٩).

ولم تكن الفتن التي نشأت عن ضَعْفَ هشامٍ الثاني لِتُسْفرَ عن إقامة سلطة مركزية فقد نجم عنها انفصال بعض الولايات الخاضعة للعرب عن بعض انفصالًا تامًا، فألفتْ هذه الولايات دولًا مستقلةً مُعْرِضةً عن الاتحاد تحت سلطان واحد.

وإذا رجعنا البصر إلىٰ سلوك الولاة نحو أقوىٰ الخلفاء سَّهُل علينا أن ندرك درجة فائدتهم من مقاتلة بنىٰ أميةَ لأنصار بنىٰ المنصور وبنىٰ حمود، فكان كل واحد منهم يمْلىٰ شروطه حين انحيازه إلىٰ هذا الخصم أو ذلك الخصم، باحثًا عن دوام سلطانه الخاصِّ ما دام حيًّا أو محاولًا جعل هذا السلطانِ وراثيًّا، حتىٰ إنهم كانوا يُكرِهون بنىٰ حمود وبنىٰ أمية علىٰ توليتهم سيادةَ الولايات التي يتنازعونها في مقابل بَيْعة وهمية، فظهر بذلك النظامُ الإقطاعيُّ في الأندلس.

ولم تكن روح الاستقلال سائدة للوُلاة فقط، فقد كان الوزراء يَعُدون أنفسهم سادةً للأراضي التي يمارسون فيها حُكمهم، وكان القواد ينتحلون السيادة داخل المدن، فظهر أن هؤلاء الطامعين نَسوا أن النصارىٰ وحدَهم هم الذين

يستفيدون من تناجزهم، وهكذا كانت المصلحة العامة تَغيب بين ذلك الاصطراع الذي نجم عن الأَثرة العمياء.

علىٰ أنه كان يمكن العربَ الذين قَضوْا علىٰ السلطة المركزية أن يُؤلفوا، علىٰ الأقل، محالفاتٍ يقدرون بها علىٰ المقاومة الجدية تجاه النصارىٰ الذين أقاموا ممالكَ منفصلةً أيضًا، فلو حافظت علىٰ حدودها حكوماتُ قرطبة وطُلَيْطِلة ومارِدَةَ وسَرَقسطَة الأربعُ التي أقامها الخلفاء فضُمَّتْ إليها مُرسيَة وبلنسية ما انحطت بسرعةٍ وما عمَّها الانحلال.

شوهد في الأندلس وحدَها في سنة ١٠٢٩ ستُّ دول يحمل رئيس كل واحدة منها لقب ملك، وهذه الدول هي دولة قرطبة ودولة أشبيلية ودولة قرمونة وأستجة ودولة مَالَقَة ودولة الجزيرة الخضراء ودولة غرناطة، وهذه الدول هي غير الإمارات الصغيرة الثانوية الكثيرة جدًا، وهذه الدول هي غير المملكة المنفصلة التي اتخذت طُلَيْطِلة عاصمة لها، ويقيم ملك الجرف (الغرب) ولوزيتانية بأشبونة وبطليوسَ، وتقوم في الساحل الشرقي الواقع بين المريّة ومرباطر ثلاثُ ممالك، وهي: ممكلة مرسية الواقعة بين المرية ونهر شقورة، ومملكة دانية الواقعة بين شقورة وشقر، ومملكة بلنسية الواقعة بين شقر ومرباطر، ويقتسم الولايات الشمالية ملوك سرقسطة وطرطوشة ووشقة.

وكان يجب علىٰ الولاة، حين عصوا الخلفاء، أن يتحالفوا فيحفظوا بتحالفهم استقلالهم فيتألف منهم سد منيع في وجه النصارىٰ، غير أن كل واحدٍ منهم كان يزعم أنه سيدُ الآخرين فيهاجمهم موجهًا آخرَ طعنة إلىٰ الشعب العربي نازعًا منه أحسن حُماته في وقتٍ لم يَبْق له فيه كبير قوة لمقاومة السيل الذي يُهدده.

وكان ملوك أشبيلية وطُلَيْطِلة أكثر الناس ثباتًا علىٰ مبدأ إنهاض الخلافة[(١)] لا ريب، واكتفىٰ أقوىٰ جيرانهم، ملوكُ سرقسطة وبطليوس، بفرض سلطانهم علىٰ جيرتهم القريبين، من أرغونة والجرف (الغرب)، ودنا ملوك أشبيليَّة من الهدف الذي وضعوه نُصْب أعينهم، وهؤلاء الملوك إذ كانوا بين أشد البلاد انقسامًا، قدَروا علىٰ التوسع بسهولة، وهؤلاء الملوك ذوو الحنكة السياسية إذ كانوا

(١) وذلك وصولا إلىٰ تحقيق مآربهم الشخصية وغاياتهم الذاتية دون مصالح العرب.

أصحاب مدينة واقعة في مكان ملائم إلىٰ الغاية، لما تحمله من عناصر العظَمة والثَّراء ما لا تحمِل مثله المدن الأخرىٰ، استطاعوا أن يسيروا ببراعةٍ وفق الخطة التي رسمها مؤسس مُلكهم ابن عبادٍ المعروفُ بالمعتضد.

وكان ابن عباد ذلك قد أذاع في الأندلس أن هشامًا الثاني اعترف في أشبيلية جهرًا بأن ابن عباد وارث خلفاء قرطبة الشرعي، وترك خلفاء ابن عبَّاد ذلك أمراءَ الأندلس الصغار يضعفون بالفِتن حينًا من الزمن، فلما حلَّ الوقت المناسب برزوا فأخضعوا أمراء جبل طارق ولبلة (أونبة) واستولوْا علىٰ قرمونة وتدَخلوا في خصومات ملوك طُلَيْطِلة وقرطبة.

وهُزم ملك قرطبة في القصور فحوصر في عاصمته (١٠٦٠)، فخفَّ ملك أشبيليَّة المعتضد الأول، أو ابن عباد الثاني كما جاء في التواريخ، إلىٰ مساعدته فطرد أعداءه فاعتقله فأضحىٰ سيد مملكته، وما كان المعتضد الأول ليقنع بهذا الفوز، بل أراد أن يملِك مَالَقَة وغرناطة، ومدينة أستجة علىٰ الخصوص.

وكان أمير مَالَقَة من بنىٰ حمود، وكان ذا صلات بقريبه أمير المغرب، فقاوم المعتضد الأول بكتائب كثيرة مدربة فأحبط ما سعىٰ إليه.

ولم يبدُ المعتضد الثاني، أو ابن عبادٍ الثالث، أوفر حظًا في البَداءة، فأبصر ملك طُلَيْطِلة يستولىٰ، بمساعدة ملك قشتالة الأذفونش السادس، علىٰ قرطبة وأشبيلية اللتين كانتا أهم مدنه، ولكنه لم يعتم أن استردهما بفضل محبة الناس له، فزاد حبه للانتقام، فساعد بمهارةٍ علىٰ انحلال مملكة طُلَيْطِلة التي اتسعت باستيلائها علىٰ كونكة وكثيرٍ من المدن الساحلية كمرسية وبلنسية والقنت، ثم هجم علىٰ المتحكمين الجدد في هذه المناطق فغلبهم علىٰ انفرادٍ فدخل مرسية، ثم استولىٰ ابن عباد، بعد قليل زمنٍ، علىٰ مَالَقَة والجزيرة الخضراء فحمل الأمراء الأدارسة علىٰ الارتداد إلىٰ طنجة أو سَبْتة (١٠٧٩).

وهاج ملك سرقسطة وملك بطليوس من نبأ انتصار ابن عباد فألفا حلفًا مخيفًا ضده، فهنالك بحث ابن عباد عن العون لدىٰ النصارىٰ فعقد مع ملك قشتالة الأذفونش السادس معاهدة يكون له بها، بعد الفتوح الجديدة المشتركة، بطليوس وغرناطة والمرية، علىٰ أن تكون طُلَيْطِلة للأذفونش (١٠٨٠).

وتسقط طُلَيْطِلة وحدها بأيدي الحليفين (١٠٨٥)، ويرفع الأذفونش أعلامَه فوقها، وتثور الأندلس بأسرِها في وجه ابن عباد وتحمِله علىٰ العدول عن سياسة مؤدية إلىٰ تسليم إسبانية الإسلامية إلىٰ أعدائها الطبيعيين.

كشف سقوط طُلَيْطِلة القِناع عن النتائج المحزنة التي كانت تجرُّ إليها تلك الحروب الداخلية، وهذه الحروب لم تؤد، فقط، إلىٰ قطع ما اتصل من أعمال الحضارة ومن التقدم العظيم الذي تم في جميع فروع الصناعة البشرية، وهذه الحروب لم تؤدِّ، فقط، إلىٰ تخريب الأرياف وتعريض المدن إلىٰ أفظع الغارات، وهذه الحروب لم تؤدِّ، فقط، إلىٰ تحطيم عظمة قرطبة التي لن تقوم أشبيلية مقامها، بل أدَّت، أيضًا، إلىٰ نيل النصارىٰ نصرًا مُؤزَّرًا يتلافَوْن به سابق نَكَباتهم ويتدرجون به إلىٰ قلب الأندلس النابض.

ومما حدث بين سنة ١٠٠٨ وسنة ١٠١٤ أن تدخَّل أمير قشتالة وأمير برشلونة في خصومات محمدٍ المهدي وسليمان فاقتطعا أماكن مهمةً، ومما شوهد في معركة كِنْتُوش وأقباطة بهر أن التزم ذانك الأميران مناحيَ معاكسةً علىٰ حين انضمَّ ثلاثة أساقفةٍ إلىٰ صفوف المسلمين، فخسرَ العرب حصونهم القائمة علىٰ الحدود، ومما وقع أن ملك ليون الأذفونشَ الخامس أراد، في أثناء تنافس بنىٰ أمية وبنىٰ حمود، أن يفتح قِسْم البرتغال الواقعَ جنوب نهر دويرة فهلك عند حصار فيزي (١٠٢٦)، فترك ذلك الفتح لابنه برمودا الثالث، فوجَّه هذا الملك سلاحه إلىٰ ملك نَبَرَّة الذي جمع بين مملكته وبين إمارة قشتالة فأثار غيرته، فلما حلت سنة ١٠٣٥ أضحت إسبانية النصرانيةُ عُرضةً لانقسام جديد، فأسفر هذا الانقسام عن حمل مملكة أرغونة ومملكة قشتالة عبءَ محاربة العرب، وعن عدِّ نبرة التي حُشرت ضمْنَ حدود ضيقة حرسًا احتياطيًا، ثم اتحدت ليون وقشتالة سنة ١٠٣٧، فكان منهما راصدٌ سبَّاقٌ للنصرانية، فاستولىٰ سيدُ أشتورشَ وجليقية وبسقاية وليون وقشتالة فردينانْدُ الأول علىٰ فيزي ولامنغو وقُلُمْرِيَة من أعمال البرتغال، فهال ذلك المسلمين (١٠٣٥-١٠٤٤).

واتفقَ، حوالَيْ ذلك الحين، ملك أرغونة مع أمير برشلونة فشددا علىٰ مَلك سَرقُسْطَة وملك شقة فحملوهما علىٰ إعطاء الجزية (١٠٦٣-١٠٦٦).

تلك هي نتيجة الفِتن التي اشتعلت بين العرب، والعربُ مدينون في سلامتهم للحرب الأهلية التي خَربت قشتالة مدة سبع سنوات (١٠٦٦-١٠٧٣)، فقد تنازع أولاد فرديناندَ الثلاثة تُراثَ أبيهم فطردَ الابنُ الأكبر سانكو أخويه غارسي والأذفونشَ من جليقية وليون، فاعتصم أحدهما بملك أشبيليةَ المعتضدِ، واعتصم الآخر بملك طُلَيْطِلة المعروف في التواريخ بالمأمون، فهلَك ذلك في أثناء حصار سمورة التي كانت قبضة أخته الدونا أوراقه فدُعي الأذفونشُ بالإجماع فجمَع في يديه جميعَ سلطة أبيه (١٠٧٣).

عَدَّ هذا الأميرُ نفسَه مرتبطًا برابطة الشكر في ملك طُلَيْطِلة الذي حَبَاه بالقِرَىٰ الجميل، فأرسل إليه جيشًا ليساعده علىٰ انتزاع قرطبة وأشبيلية من المعتضد الثاني، فلما مات حليفه لم يتردد ثانيةً في شنِّ حرب صليبية علىٰ المسلمين، وكان في خدمته رجالٌ ذوو شجاعة عظيمة، وكان علىٰ رأس هؤلاء السيِّدُ رُوذْريغُ البيفاريُّ الذي أصاب العرب بأشد الضربات: فلم ينفكَّ بين سنة ١٠٨١ وسنة ١٠٨٥ عن تخريب السهل الواقع بين قشتالة القديمة وضفاف نهر تاجُه، وكان للأذفونش أن يعتمد علىٰ مثل هؤلاء الجنود لنيل النصر، فلم يخشَ حصارَ طليطلة، فلم تلبث هذه المدينة أن ألقت إليه مقاليدها بفضل معونة ابن عبَّاد كما رأينا، وبفضلِ عطف سكانها الذين كان أكثرُهم من اليهود والنصارىٰ فساعدوه سرًّا بعد عهده بأن يحترمَ المساجدَ وبأنْ يحكمَ في شؤون المسلمين قضاةٌ منهم وأما الملكُ الذي نُزعتْ منه طُلَيطلةُ فقد استطاع أن يأخذَ معه أموالَه فذهب مع حاشيته ليقيم ببلنسية.

وكان فتحُ طليطلة علىٰ جانب عظيم من الأهمية لدىٰ الإسبان، فقد أوجب استسلام جميع القلاع القائمة أمام نهر تاجُه، وهي مقدة ومجريط (مدريد) ووادي الحجارة وقورية، وأوجبَ الاستيلاءَ علىٰ وادي أَنَه، ففزِعت الأندلس مما أدىٰ إليه تمزيقها من تقدُّمِ أمراء النصارىٰ.

ولم يخسر الإسلام أماكن في إسبانية وحدها بل خسرَ، أيضًا، جُزُرَ البحر المتوسط، فقد أخذ النصارىٰ يسيطرون علىٰ هذا البحر أيضًا، فصاروا يظهرون بالتدريج في البلدان التي أُخِذت منهم فيما مضىٰ.

ومن ذلك أن نزل رجالٌ من أهل جنوة وبيزة إلىٰ سَرْدِنْيَة في سنة ١٠١٧، فطردوا منها وادي الزيرية، ثم حاول الزيرية استرداد تلك الجزيرة، فأحبط رجال بيزة ذلك مبيدين جيشًا جاء من إفريقية.

ولم يكفَّ العربُ عن غاراتهم علىٰ إيطالية، ثم وجد العرب أعداءً جُددًا من أفّاقي النورمان في ساليرم بعد سنة ١٠٠٠م، فظاهر هؤلاء النورمانُ الرومَ علىٰ العرب فسلخَ الروم منهم تارانت في سنة ١٠٣٥، وفي ذلك الحين هجمَ علىٰ العرب في صِقليَّة فكادوا يُغلَبون، لما كان من تفرُّق كلمتهم، لو لم يتخاصم الروم والنورمان ويُقطَع ما بينهما من الصلات قطعًا تامًّا (١٠٤٣).

ولم تقدر الجمهوريات الإيطالية علىٰ فتح جُزُر بليار، وحدث أن انتزعَها أحدُ ولاة الأندلس المستقلين من القرصان الذين جعلوها مركزًا لحركاتهم فرسخَ سلطانه فيها.

وكان الزيرية فريسة الشقاق الدامي بإفريقية فلم يستطيعوا أن يحولوا دون انتكاس الإسلام، فقد كانت تظهر في مدنهم المهمة كلَّ سنة فتنٌ لم تؤدِّ إلىٰ غير استبدال طاغية بطاغية، وكان بنو حمَّاد المستقرون بأشير وبجاية يعتدون، في الغالب، علىٰ حدود جيرانهم ليوسعوا رقعة ملكهم، وكان الفاطميون يرسلون من القاهرة، أحيانًا، جيوشًا لتهديد طرابلس العرب، وكانت قبائل الصحراء تمتنع عن دفع الأتاوىٰ فتزيد دائرة غزواتها البدوية وتخريباتها الدورية كلما دانت من شواطئ البحر.

وظل عربُ الشرق غيرَ مكترثين لمصير إفريقية والأندلس، وظهر أن حماةَ دين محمد هم، في صحارىٰ المغرب، بين القبائل الإفريقية الكارهة للنيل الأجنبي الشديدة البأس السهلة الاندفاع، ومن هذه القبائل نذكر قبيلة لمتونة وقبيلة جزولة اللتين هما من بطون قبيلة صنهاجة الكبرىٰ فأوقدَ نارَ الحميَّة فيهما أحد فقهاء السوس، عبد الله بن تاشفين فاعتقدتا أن العناية الإلهية أعدَّتهما لرفع شأن الإسلام، فانتحلتا اسمَ المرابطين، فلبَّتا دعوةَ عبدِ الله بن تاشفين الذي لم يفكر، حينما ألهب فيهما الروح الدينيَّ، في غير قيادتهما إلىٰ الفتح فاستولتا علىٰ سِجلْماسة ثم علىٰ بلد درعة، فسيطرتا علىٰ قبيلة المصامدة التي هي إحدىٰ قبائل

إفريقية الشمالية الخمس الكبرىٰ، ثم جاوزتا جبال درن (الأطلس) لتقيمَ بجوار مدينة أغماد بين الجبال والبحر (١٠٦٨)، فاكتفىٰ أبو بكر الذي وضعه عبد الله بن تاشفين علىٰ رأسهما بمدينة أغماد ذاتَ حين، ثم قدَّرَ أبو بكر أن اتساع هذه المدينة لا يُناسب سلطانه الحقيقي، فرأىٰ أن يسير علىٰ غرار جميع الأسر المالكة التي استقرّت بإفريقية فأسس مدينة مرَّاكُش التي لا تزال عاصمةً لدولة كبيرة حتىٰ الوقت الحاضر، ثم استولىٰ ابن عمه يوسف بن تاشفين علىٰ السلطة كلِّها فبدا جسورًا كريمًا تقيًا إداريًا بارعًا وقورًا متصفًا بالصفات التي تُعِدُّ صاحبها لقيادة الأمم، فلم يَلبث أن نادىٰ المرابطون به زعيمًا يقودهم إلىٰ النصر.

ونظَّمَ يوسف بن تاشفين حرسًا كبيرًا مؤلفًا من الزنوج العبيد الذين اشتراهم من سواحل كينية ومن النصارىٰ العبيد الذين أحضرهم من الأندلس، فزحف إلىٰ فاس ومِكناسة اللتين كانت تملكهما أسر من العرب والبربر، فاستولىٰ عليهما، وما كان لأحد أن يقف أمام صوْلةِ فرسانه المرهوبين، وَوُجد من جنوده فريقٌ ترك راياته ليتعاطىٰ الزراعة، وبقيَ الآخرون، وهم أكثر عددًا، شركاءَ مصيره فاستولوا بالتتابع علىٰ سبْتَة وطنجة وسلا حيث كان بنو حمود قد انزووا بعد أن طردوا من مَالَقَة وفاس، وهكذا دان جميع المغرب ليوسف بن تاشفين (١٠٨٤).

وحاق الضيق بعرب الأندلس فولَّوْا وجوهَهم شطر المرابطين، فكان ملوك أشبيلية وبطليوس وغرناطة مترجمين ليوسفَ بن تاشفين عن الشعور العام، مستنجدين به علىٰ أمراء النصارىٰ.

ولم يرفض يوسف بن تاشفين عرضًا يكون لحرصه مجال واسع به، فأعَدَّ حملةً، فأنزل إلىٰ الأندلس جيشًا كبيرًا بعد أن سلَّم المعتضد إليه مدينة الجزيرة الخضراء (١٠٨٦)، فقوبل وصوله بحماسةٍ عظيمةٍ في أرجاء الأندلس.

ولم يُتمَّ المرابطون ما كان القوم ينتظرونه من تعصبهم وبسالتهم، فهم بعد أن انتصروا في معركة زلاقة المهمة لم ينتفعوا بما كتِب لهم من فوزٍ، فلم ينشب الأذفونش السادس وسانكو الأرغونىٰ أن برزا في الميدان فنزل السيد حتىٰ ولاية مرسية فاستولىٰ علىٰ مدية اليد Alid (؟) الحصينة (١٠٨٧)، ودخل سانكو مدينة وشقة عَنْوَةً (١٠٨٨)، ولم يحافظ الأذفونشُ السادسُ علىٰ حدوده سالمةً فقط،

بلا نَظَّمَ من طُلَيْطِلة عِدَّة غاراتٍ مخربة بلغ بها ضفاف نهر وادىٰ أنه (١٠٩٠).

وكان أولَ شرطٍ لنجاح المسلمين أن يظلَّ الأندلسيون والإفريقيُّون متفقين متفاهمين في حركاتهم، وما كان الانسجام ليدوم بينهم طويل زمن مع ذلك، فلم يَكَد يوسف بن تاشفين ينظر إلىٰ سهول الأندلس الجميلة حتىٰ شعَر بشوقٍ كبيرٍ إلىٰ امتلاكها، وأبصر أهل الأندلس نياته الخفية ففكروا في إحباط ما ترمىٰ إليه علىٰ غير جدوىٰ، فلم يلبث يوسف بن تاشفين أن كشف القِناعَ عن نيَّاتِه فلم يبق في جميع إسبانية الإسلامية، في مدة أربع سنوات (١٠٩٠-١٠٩٤)، سلطة غير سلطة المرابطين، فأخذت قرطبة وقرمونة وبيَّاسة، واستسلمت مملكة المرية ومَالَقَة وغرناطة، ولم تنج أشبيليةُ، التي كانت مقرَّ المعتضد الثاني، من النهب إلا بفضل نجابة هذا الأمير الذي ضحىٰ بنفسه وبآله فاستسلم لمنافسه القويِّ بلا دفاع، ثم أخضع عمالُ يوسف بن تاشفين شاطبةَ ودانيةَ وبلنسية وملوك الجرفِ (الغرب) ولوزيتانية (البرتغال)، وسرقسطَةُ وحدَها هي التي حافظت علىٰ استقلالها (١٠٩٤).

ويُثبت هذا الاستيلاء السريع انحلالَ ما كان لدىٰ الأندلسيين من بأس عريق، ومن المحتمل أن كان أهلُ الأندلس يأملون أن يتصرف يوسف بن تاشفين في موارد إفريقِيَة والولايات الإسبانية فيحسنَ وقايتهم من النصارىٰ، ولكن هؤلاء القوم لم يُعتِّمُوا أن عرفوا أن الشعور الديني وحده لم يكن حافزًا لهذا الأمير المقدام إلىٰ الجهاد، فقد أغضىٰ هذا الأمير عن استقرار السيد ببلنسية (١٠٩٥)، وظل عِدَّةَ سنوات باهلًا[1] بين الأعياد واللذات، منتقلًا من قرطبةَ إلىٰ مراكش، ومن إفريقِيَة إلىٰ الأندلس غير مبالٍ بما يحيق بالإسلام من الأخطار.

ولم يرَ عربُ الأندلس أن يُقروا بغلَبهم بعد أن رأوْا وجوب خدمة مصالح الدين، بل أخذوا يبحثون عن الوسائل التي يخلعون بها نير المرابطين الذي فرض عليهم، فاتفق كثير من الولاة المجاورين لبلنسية مع شِيمِنَة، زوجةِ السيد، للدفاع عن بلنسية التي فتحها زوجها فكان يهددها المرابطون فلم يوفقوا لإبقاء هذه المدينة قبضةَ النصارىٰ (١٠٩٩).

وشعورٌ مثلُ هذا قد ظهر في بقيةٍ إسبانية الإسلامية، فأصبح المسلمون

---

(١) الباهل: المتردد بلا عمل.

لا يخشوْن النصارىٰ، بل أولئك الأجانب الذين يروْن وجوب طردهم، ويموت يوسف بن تاشفين، (١١٠٧)، ويقود ابنهُ عليٌّ حزْبَه إلىٰ النصر ذات حين، فيكتب له الفوز علىٰ الأذفونش السادس في معركة أقليش، ويهجُمُ علىٰ ملك سَرَقسطَةَ وعلىٰ الأندلسيين، فتتحد مقاصدُه ومقاصدُ النصارىٰ بذلك، فيتغلب النصارىٰ حتىٰ علىٰ العاصمة في سنة ١١١٨، ويستولون في سنة ١١٢٠ علىٰ قلعة أيوب ودروقة، ويُكسر ملك سرقسطة بين كتائب المرابطين وكتائب ملك أرغونة، فيظل عليٌّ بنُ يوسف الممَثلَ الوحيد للقضية العربية.

وكان سلطان علىٰ بن يوسف (١١٠٧-١١٤٤) وسلطانُ ابنه تاشفين بن علىٰ (١١٤٤) مضطربين إلىٰ الغاية، وأصبحت قرطبة عاصمة لهما، وصار المرابطون يعاملون أهلها معاملة الشعب المقهور، فاشتعلت الفتنة فيها سنة ١١٢١، فما كادت كتائب علىٰ بن يوسفَ تكفي لإعادة الأمور فيها إلىٰ نصابها.

وكان يوسف بن تاشفين قد أراد أن يجعل اغتصابه للمُلك شرعيًا فنال من خليفة بغداد براءة التوليةِ علىٰ حكومة الأندلس، وأدخل ابنه عليٌّ إلىٰ الأندلس عدَّةَ قبائل إفريقِيَة لتغتني من نهب الأسر العربية القديمة فأحيا الأحقاد السابقة التي فرقت بين القبائل الآسيوية والقبائل البربرية فيما مضىٰ، ففصَل إسبانية الإسلامية إلىٰ معسكرين متعاديين.

ومعنىٰ ذلك دعوةُ النصارىٰ إلىٰ ميدان القتال بعد أن التزموا خِطة الدفاع، تقريبًا، منذ استيلاءٍ المرابطين علىٰ البلاد، ومعنىٰ ذلك إحداثُ الفرصِ للنصارىٰ كي يعودوا إلىٰ سابق تعدياتهم، وكانت حركة الحروب الصليبية تقيم أوربة وتقعدها في ذلك الزمن، وخَف إلىٰ إسبانية فريقٌ غير قليل من فرسان النصارىٰ الذين أرادوا قتال المسلمين، وبلغ رَيْمُونُ البورغونيُّ وهنري البِيزَنْسُونيُّ من خدمة القضية النصرانية مبلغًا أوجب شكران الملك الأذفونش فزوجهما بابنتيه أوراقَه وتيريزَة، فأما ريمون فصار يأمل، هو وزوجتهُ أوراقة، نيلَ عرش قشتاله، وأما هنري فقد جعل لنفسه من صَداق تيريزة مملكةً، فنال إمارة البرتغال، أي جميع قسم لوزيتانية الذي كان قد افتتحه.

وكان الإسبان، في سنة ١١٢٠، سادة لجميع البلاد الممتدةِ من طُلَيْطِلة إلىٰ

نهر إبْرَةَ، وفكر الأذفونش الأرغونيُّ في نيل انتصارات جديدة فهددَ بلنسية، وهزم بالقرب من الغرا الوُلاةَ الإفْريقيين المتفقين عليه، ففتحت له بهذا النصر سهول الأندلس، فانضمَّ إلىٰ لوائه مستعربو جوارِ غرناطة الذين كان عددهم اثني عشر ألفًا، فاستولىٰ علىٰ مملكة مرسية (١١٢٥)، وما كانت النتيجة التي انتهىٰ إليها لتُناسب آمالَه فسار إلىٰ الأمام فانتهب ريف غرناطة، فجلب معه مستعربين كثيرين فأسكنهم في سرقسطة، فكان هذا كل ما ناله من غزوه.

وأمر أمير المرابطين عماله بالقبض علىٰ جميع نصارىٰ الحدود وتفريقهم في داخل البلاد، وذهب إلىٰ ما هو أبعد من هذا، فأكره النصارىٰ الذين اشتُبه في اتصالهم بالعدو علىٰ بَيْع أموالهم وانتقالهم إلىٰ إفريقية.

ولم تكن تلك التدابير الشديدة لتمنع الأذفونش ريمون، الذي أضحىٰ مَلك قشتالة وليون، من النزول مرةً أخرىٰ إلىٰ الأندلس علىٰ رأس جيش قوىٰ (١١٣٣) فخرب أرباض أشبيلية وأرباض قادِسَ فاستحقَّ لقب إمبراطور بما قام به من غَزَوات ومن توسط بين ملك نَبَرَّة وملك أرْغُونة، ووَجه أمير البرتغال، أيضًا، حَمْلة إلىٰ الجرفِ (الغرب) راجيًا أن يستولي علىٰ جميع هذه الولاية، فبرز لقتاله وُلاة بطليوسَ وباجة ويابُرةَ وإلشَ، فنال بالقرب من هِضاب أُرِقةَ نصرًا مؤزرًا وَطّد به سلطانه وأعْطىٰ به مُلكَه (١١٤٣).

ولم يفعل المرابطون سوىٰ تأخيرِ خراب الإسلام في الأندلس، ولم يخرج المرابطون من الأندلس قط، ولم يرسلوا حملة بحريةً إلىٰ ما وراء جُزر بليارَ التي اقتطعوها من والٍ أندلسيٍ (١٠٩٦) ولم يحاولوا استرداد كندية (الخندق) التي انتزعها أهلُ البندقية من المسلمين.

وسقطت صقلِّيةُ نفسُها بأيدي فرسان النورمان الذين أقاموا، علىٰ الرغم من أساقفة رومة والروم والألمان، دولةً مستقلة في جنوب إيطالية، بعد أن استقروا بإمارة أفيرسة وإمارة كابو.

بدأ الوضع ملائمًا، فعزم روبرْت ويسكارد وأخوه رُوجرُ علىٰ عبور المضيق سنة ١٠٦٤، فقد كان أمراء بَلَرمَ وبيرانيزَ ومَسِّينةَ وأطرابُنشَ وباتي يتنازعون السلطة التي غدا بنو زيري عاجزين عن ممارستها، فتظاهر رُوجِرُ بالتداخل في هذه الفِتن،

ثم كَشف رُوجرُ الغِطاء عن مقاصده حينما رأىٰ حلول الفرصة، فترك صفوف المسلمين جامعًا حولَه نصارىٰ صقلية (١٠٦٨).

ودامت الحرب في صقلية كثيرًا، وحُرم الزعيم النورمانىٰ روجرُ مدَدَ أخيه فاضطرَّ إلىٰ التزام خطة الدفاع في مدينة مَسِّينَة، وكادت الكتائب التي أرسلها الزيرية تسحقه لو لم تتغير الأحوال بعودة أخيه، فاستولىٰ علىٰ قطانية وبلرْمَ فدحر جيش المسلمين (١٠٧١)، فعُدَّت صقلية قبضة النورمان.

ونال من أراد البقاء في صقلية من العرب والمغاربة عدَّة ضمانات فقد خشي الغالب أن يأخذ العرب من أموالهم سرَّ علمهم الزراعي الصناعي الذي أدىٰ إلىٰ رَخاء صقلية فوعدهم الغالب بالمحافظة علىٰ حريتهم الدينية واحترام عاداتهم، بيدَ أن المسلمين تواروا، تمامًا، عن صقلية في القرنين القادمين.

ويجعل رُوجرُ من صقلية دولةً بحرية، ويرغب رُوجرُ في انتزاع سيطرة العرب علىٰ البحر المتوسط، ويتعقبهم، في بدءِ الأمر، فوق صخر مالطة فيرفع فوقها رايته سنة ١٠٩٨، ويُهدد ابنُه رُوجر الثاني إفريقِيَة بعد زمن، ويستولىٰ علىٰ الجزُرِ القريبة من سواحلها (١١٢٥-١١٤٣).

ويهتبل روجر فرصة اشتعال الفتن بين الزيرية، فيظهر أمام طرابلس الغربِ فلم تقْدر هذه المدينة علىٰ مقاومة أمير البحر جورجي، ولم تلبث صفاقس وسوسة والمهدية والقَيْرَوَان وتونس أن ألقت إليه مقاليدها (١١٤٨)، فارتدَّ الزيرية إلىٰ داخل البلاد تاركين هذه المدن بأيدي النصارىٰ مدة ١٧٦ سنة (٩٧١-١١٤٨).

إذَنْ، كان الإسلام، في أواسط القرن الثاني عشر، منحطًا في الغرب انحطاطًا شاملًا، فقد أضاع سلطانه علىٰ البحر المتوسط، وتقهقر في إسبانية، ثم ظهر للإسلام حُماةٌ جُدُد، فكان له بهم نور عابرٌ، وخرج هؤلاء الحماة، كالمرابطين، من صحَارىٰ المغرب، فانتشروا كالسيل في إفريقِيَة وإسبانية.

نظر بعض القبائل التي خضعت للمرابطين بعين الغَيْرَة إلىٰ ارتقاء قبيلة لمتونة وجزولة، فتاقَ إلىٰ نَيل الغِنَىٰ الذي ظَفِر به يوسف بن تاشفين وابنه علىٰ منافسيهما، فاستغلَّ هذا الشعور بمهارةٍ رجلٌ ذو علمٍ عميق أَتىٰ إلىٰ المغرب لينشر مبادئ أستاذه الفيلسوف الشهير الغزالي.

وكان اسم ذلك التلميذ محمدًا، وكان أبوه عبد الله خادمًا في مسجد قرطبة، وكان لمحمد بن عبد الله هذا من الأحوال الملائمة، ما ساعده منذ نشأته علىٰ معرفة مبادئ العلوم، فأرسل، بعد حين، إلىٰ المشرق فتَخرج في بغداد علىٰ الغزاليِّ، فأدرك ما يكون للتعاليم الدينية من التأثير في حكومة المجتمعات، فاستطاع بقوة ذكائه أن يَقلبَ مُلك المرابطين رأسًا علىٰ عَقب.

ويبدأ محمد بن عبد الله هذا بانتقاد ما يَجده في سلوك زعماء المرابطين من مخالفة أحكام القرآن، ويُطرد من مراكش لشتمه بناتِ عليِّ بن يوسف لسفورهنِّ، ويسعىٰ إلىٰ إقناع الناس بحلول الزمن الذي يُتحلىٰ فيه بآداب النبي وأخلاقه مُخبرًا بأنه هو المهدي المنتظر الذي يملأ الأرض فضلًا وعدلًا.

ولم تقتصر دسائس محمد بن عبد الله هذا علىٰ مواعظه العامة، بل التفَّ حوله رجال نِشاط قادرون علىٰ تأييده في رسالته الصعبة، ولم يلبث هؤلاء الرجال أن جَهَروا بالأمر فلبَّىٰ نداءهم جمهورٌ كبير في مراكش وأغمات هاتفًا لخططهم في الإصلاح.

وشعَر المرابطون، بعد الأوان، بالخطر الذي يهددهم، فلما أرادوا الائتمار بمحمد بن عبد الله هذا وَجَدوه صاحب حزبٍ عظيم، وأبصر محمد بن عبد الله هذا ما يُثيره من غيرَة أولياء الأمور وما كان من تَوَجُّه الأنظار إليه فانطلق إلىٰ تينملل، من بلاد السوس، حيث سمَّىٰ مُريديه بالموحدين، فأقام في هذا المكان، الذي حصَّنته الطبيعة، قصرًا منيعًا، فمارس سلطانًا مطلقًا حاملًا لقب المهديِّ.

وفَوض محمد بن عبد الله أمورَ الإدارة إلىٰ مجلس كبير مُؤلف من عشرة رجال من أخلص مُريديه فكان عبد المؤمن أبرزَهم، كما فوضها إلىٰ جمعية مؤلفة من سبعين مسلمًا.

وما لبث أعداء المرابطين أن اجتمعوا حول محمد بن عبد الله هذا، ولا سيما قبائل هنتانة وهرغة وجدميوة التي هي من بطون قبيلة المصامدة، فلما آنس كفاية قواه برز للقتال، فخاض غِمار ثلاث معاركَ انتصر فيها ببسالة جنوده وما نفخ فيهم من روح التعصب، فاعتقد هذا الفوز (١١٢٣)، قدرته علىٰ حصار مراكش التي هي مركز سلطة المرابطين الحقيقيُّ بإفريقية، فبدا أمامها، فكتب له

النصر في البداءة، ثم خانه الحظ فهزمت كتائبه شر هزيمة (١١٢٥)، وإن محمد بن عبد الله هذا ليقنَطُ من قضيته تجاه تلك الكارثة، وإنه ليودع ما علل نفسه به من أماني العظمة إذ يبتدع له عبد المؤمن بعبقريته ونشاطه وسائلَ جديدة، فيُلهب بالتدريج حماسة مُريديه الموْهورين، فيتدارك في سنة ١١٣٠ ما خَسره، فيعزم علىٰ تجربة حظ سلاحه مرة أخرىٰ، فيبدو بخيتًا بفضل دهاء عبد المؤمن، فيُوصِي له بخلافته قبل موته بأربعة أيام.

كان عبد المؤمن أهلًا للقيام بالعمل الصعب الذي وطَّن المهديُّ نفسه عليه، وعبد المؤمن، وإن كان دون مُعلمه مضاء، كان يفوقه قدرةً علىٰ الحرب والقيادة، فعبدُ المؤمن كان ثابت الجنان قويَّ الإرادة فيهيمن علىٰ الجميع بوَقاره، وكان قادرًا علىٰ تمثل أجرأ الخطط فيبدي من النشاط ما يكفي لتنفيذها، ويرْضىٰ الموَحدون بارتقائه هاتفين، فيصنع ما يُحقق به الآمال التي أوحت إليهم بها مزاياه النادرة، فيهب إليهم، في زمنٍ قصيرٍ، دولةً أوسعَ من دولة المرابطين.

حَلتْ سنة ١١٣٢، فبدأ عبد المؤمن يخضع من عاصمته تينملل الواقعة في صميم جبال درن جميع القبائل المجاورة المنتشرة حتىٰ سلا، وهو، إذ دخل هذه المدينة، استولىٰ علىٰ فاس وتازة اللتين لم تبديا غير مقاومة ضعيفة (١١٣٧).

وكان تاشفين بن عليَ علي رأس جيش مدرب حين وفاة أبيه عليٍّ بن يوسف (١١٤٤)، ولكنه لم يكن ليملك سوىٰ بضع ولاياتٍ مجاورةٍ لمرَّاكُش وموقعي وهران وتِلِمْسان المهمين، وتحت أسوار تلمسان هذه تقرَّرَ مصير إفريقية.

ترىٰ عبد المؤمن مدينًا في انتصاره لبراعته في التعبئة، فقد رتب كتائبه علىٰ شكل جمع مربع يتألف صفه الأولُ من جنود بُسل مسلحين بحراب طويلة مستندة إلىٰ الأرض مع انحراف علىٰ أن تَقِيَهم تروس من نبال الأعداء، ثم يلىٰ الصف الأول صف الرماة فصف حملة المقاليع فكوْكبة الفرسان في وَسط المربع حيث يصولون من منافذ لم تلبث أن تلتئم، فعلىٰ ما كان من تفوقِ المرابطين عددًا لم يقدروا علىٰ ثلم هذه الجبهة فهزموا شر هزيمة في نهاية الأمر، فيئس تاشفين ففر إلىٰ تلمسان فإلىٰ وهران حيث هَلك بحادثٍ مشؤوم فحرم المرابطون بذلك القائدَ الذي لا غنية لهم عنه (١١٤٥).

ولم يَمْض وقت قصير حتىٰ أكرهت المدن التي رفَضت سلطان عبد المؤمن علىٰ الاعتراف به، وحلت سنة ١١٤٦ فلم يبْق للمرابطين سوىٰ مدينة مراكش، فأخذت عنوةً فتم تملك الموحدين لجميع المغرب.

ومما يروىٰ أن هذا الفاتح الحازم غضب من مقاومة إحدىٰ المدن له فأقام سدا منيعا ليرفع به مستوىٰ مياه النهر الذي يقطعها، فرفع هذا السد مسلطًا تلك المياه علىٰ المتاريس، فلم تنشب هذه المتاريس أن انهارت داويةً.

ولم يَكَد عبد المؤمن يرِث يوسف بن تاشفين حتىٰ أخذ يبحث عن وسيلة يتدخل بها في شؤون الأندلس، ولم يقتصر عبد المؤمن علىٰ ذلك، فقد وَدَّ أن يُجدد في إفريقِيَة عهدَ الأغالبة القديم، فوَلىٰ وجهه شطر برقَة ما أوصاه المهديُّ بأن يُوَحد جميع مسلمي المغرب تحت مبدأ واحد ولواء زعيم واحد، فلم تكن لعهده الطويل ظاهرة سوىٰ الانتصارات، فأخضع، بين سنة ١١٤٦ وسنة ١١٥٨، سجلماسة والقبائل القاطنة بين وهران وَتلمسان، فقضي علىٰ مُلك بنىٰ حماد فانضم آخر بنىٰ حماد إلىٰ الزيرية الذين دُحروا إلىٰ قبائل الصحراء، فَوَجَد عبد المؤمن نفسَه تِجاه النورمان النصارىٰ الذين استقروا بإفريقِيَة فحبط ما سعَوْا إليه من مساعدة أصحاب بجاية علىٰ مقاومة استيلائه.

وكان عبد المؤمن قد بَلَغَه خبر شجاعة النورمان، فأَعَدَّ حملة هائلة لقتالهم، ووصف مؤرخو العرب وصفًا رائعًا زحف عبد المؤمن من سلا إلىٰ تونس مارا من سهول ساحل إفريقية، فذكروا أن أمر الرحيل في الصباح كان يبلغُ بطبل كبير يبلغ عمقُه خمس عشرة ذراعًا فيُسمع ردابهُ[1] من مسافة نصف يوم، وأن الجيش كان مُقسمًا إلىٰ أربعة فيالقَ، وأنه كان لكل قبيلة رايتُها وأمتعتُها وقطاعُها، وأنه كان يوقف وقت الظهر ليُسْتراح بقية اليوم، وأن الملك كان يحفُّ من حوله قواده وأوجهُ شيوخه راكبين عتاقَ الخيل ذات السروج المنسوجة من الذهب والفضة حاملين رِماحًا ذات مقابض عاجيةٍ وذات حديدٍ مُزينٍ بالأعلام المختلفة الألوان، وأن جمهورًا لا يحصىٰ من الموسيقيين كان يجيء بعد أولئك مجهزًا بالأبواق

(١) الدرداب: صوت الطبل.

والصنوج[1]، وأن الجيش إذا ما بلغ المعسكر وجدت الأماكن موزعة توزيعًا منظمًا رشيقًا ووجدَ كل واحد بجانبه ما يحتاج إليه من الزاد.

ولم يسطع الفرنج أن يقاوموا عبد المؤمن فخسروا بالتتابع تونس وطرابلس الغرب وصفاقس والمهدية وقابس والقيروان والمدن الأخرىٰ التي ملكوها منذ سنة ١١٤٨.

وكان علىٰ الموحدين أن يبذلوا جهودًا مستمرةً للاحتفاظ بإفريقِيَة بعد أن أصبحوا سادتها، وكان للموحدين أعداء كثيرون ينازعون تملكهم لإفريقية، وإذا عدوْتَ قبائل الصحراء التي كانت تثور، علىٰ الدوام، لتتخلص من الأتاوَىٰ، وإذا عدوْت ملك صقلية الذي حاول، حتىٰ سنة ١١٨٠، أن يستردَّ ما أخذ منه فلم يعدل عن مزاعمه إلا بعد معاهدة سلم عقدها مع خليفة عبد المؤمن، وجدت أنه كان علىٰ الموحدين أن يردوا غارات أمير من المرابطين نَزَلَ في سنة ١١٨٤ من جزائر بليار المستقر بها إلىٰ مكان قريب من بجاية، فاستولىٰ علىٰ هذه المدينة وعلىٰ قابس وصفاقس داعيًا في الخطْبة لخليفة بغداد.

وهجم سلطان مصر صلاح الدين الأيوبي علىٰ الموحدين ففتح في سنة ١١٧٢ مدينة طرابلس الغرب فلم يستطيعوا الانتقام من الأيوبيين ذوي الجاه العريض في القاهرة، ولم ينشب الموحدون أن استردوا الأماكن التي استولىٰ عليها ذلك المرابط فطاردوه حتىٰ جزائر بليار فضموها إلىٰ أملاكهم سنة ١٢٠٥.

وكان انتصار الأذفونش هنريكز في أُرقة نذير انحلال دولة المرابطين في الأندلس (١١٤٣)، وشدد الموحدون الخِناق علىٰ المرابطين في المغرب فلم يستطع المرابطون أن يساعدوا وُلاة بطليُوسَ وإلشَ، ولم تعتم الأندلس أن ثارت علىٰ قادة علىٰ بن يوسف، فأسفر هذا التمزيق الجديد عن تقدم أمراء النصارىٰ.

فخَرب ملك قشتالة وليونَ الأذفونشُ الثالث، فيما وراء نهر وادي أنه وجبال مورنية، مدينةَ أندوجر ومدينة بيَّاسة سنة ١١٤٦، واستولىٰ علىٰ قلعة رباح سنة ١١٤٧ واقترب من أسوار المَرية التي أكرهت علىٰ التسليم بعد حصار دام ثلاثة أشهر فاشتركت فيه سفن قطالونية.

---

(١) الصنوج: جمع الصنج وهو صفيحة مدورة من النحاس الأصفر تضرب علىٰ أخرىٰ مثلها للطرب.

وخف ملك البرتغال، من ناحيته، إلىٰ حصار مدينة أشبونة، فهو إذا ما فتح هذه المدينة المهمة كانت له ملاحة نهر تاجُه وفتحت له طريق الجرف (الغرب)، فتم له هذا الفتح المبين بمعونة أسطول لصليبيين من الإنكليز والفلامان ألقىٰ مَراسيَه في مصب ذلك النهر (١١٤٧)، وحاول الأذفونش الثالثُ اقتحام قرطبة فلم يوفق فانتقم بتخريب البلاد (١١٥٢).

ومن المحتمل أن كان العرب يقدرون علىٰ مقاومة النصارىٰ لو أقاموا، عند خلع نير المرابطين عنهم، حكومة مركزية ووحدوا مواردهم، ولكنهم، وقد أجمعوا علىٰ الثورة، لم يتفقوا علىٰ اختيار زعيمٍ واحد، فجددوا عهد الشقاق الذي ضاع به ملكُ بنىٰ أمية، فزادت الحال سوءًا.

حقًا لقد اغتصب الطامعون منصب الملك في كلٍ من المدن المهمة: مرْسيةَ وبلنسية وغرناطة وأشبيلية وقرطبة فاستقلَّ كل واحد منهم عن الآخرين (١١٤٤)، وغادر المرابطون إسبانية (١١٤٦)، فانزووْا في إفريقِيَة وجزائر بليارَ، غير تاركين في الأندلس سوىٰ جيش ضعيف بقيادة عبد الله بن غانية الذي حاول إقامةَ إمارة صغيرة محالفًا النصارىٰ، وأرسل عبد الله هذا كتائب قليلة إلىٰ القصبة فتملك غرناطة لأجل قصير، وبدا، ذات حين، سيد قرطبة وأشبيلية، فلم يعدل عن مزاعمه إلا بوصول الموحدين، وكان عاجزًا عن مقاومة جيرانه وجنود الموحدين في آن واحد، فهَلَكَ ممتشقًا لحسامه، فذهب ضحية إقدامه، فخلت الأندلس بقتله من المرابطين.

وكان والىٰ الجرف من القائلين بتعاليم الغزالي والمهدي الدينية، فدعا الموحدين إلىٰ الأندلس، فأخضع أولُ جيش أرسله عبد المؤمن معظمَ الجرف فوقفَ زحفَ ملك البرتغال (١١٤٧)، واسترد جيش ثان مدينةَ المريَّة بعد حصارٍ دام خمس سنين (١١٥٢-١١٥٦)، ونال جيشٌ ثالث فوزًا باهرًا علىٰ حليف النصارىٰ أميرِ بلنسية وسيد ساحل الأندلس الغربي فتم للموحدين بذلك مُلك غَرناطة وجميع البلاد الممتدة حتىٰ نهر وادي أنه (١١٥٦-١١٦٠).

وتفلتت بلنسية من السلطان الإفريقي في سنة ١١٦٠، فقاومت عبد المؤمن، ثم خلفَه ابنُه يوسف فعَزم علىٰ إخضاعها قبل أن يخوض غِمار حربٍ جدية ضد

النصارىٰ، وكان القتالُ قتال بطولة، وأبدىٰ عرب الأندلس، المنتصرون لبلنسية، شجاعةً عظيمة في الدفاع عنها فامتازوا يوم الجلب[1]، ثم غلبوا فدخل الموحدون بلنسية، فكان نصيب مرسية مثل ذلك، فأسرع ولاة دانية والقنت وغيرهما من المدن إلىٰ عرْض إطاعتهم علىٰ أمير الموحدين (١١٦٥-١١٧٢).

فهنالك أعلن أولئك الفاتحون الحرب علىٰ أمراءِ النصارىٰ، فالتزموا خِطة الهجوم، وذلك بعد أن كان همهم مصروفًا إلىٰ مساعدة الأماكن المهددة ومنعِ الغارات عنها.

وكانت أرغونة وقطالونية متحدتين، وكانت قشتالة منفصلة عن ليونَ بموت الأذفونش، وكان ملك البرتغال، الذي لم يرد أن يضع سلاحه قط، أشد الأمراء خطرًا علىٰ المسلمين، فلم ينفك يوسع حدوده، فإلىٰ هذا الملك وجه يوسف جميع قواه.

واكتفىٰ يوسف باسترداد مدينة طركونة من الأرغونيين تاركًا لهم لاردة وأفراغة، معرضًا، إلىٰ حين، عن القشتاليين الذين أصبحوا سادة مدينة كونكةَ المُهمة، موجهًا حملته إلىٰ مدينة شنترين التي استولىٰ عليها البرتغاليون (١١٨٤)، فحوصرت حصارًا شديدًا مُبشرًا بأطيب النتائج لو لم يباغت الموحدون بحركة خروج أعِدت بمهارة فأوْدت بحياة يوسف، فانتقم ابنه يعقوب له فصال علىٰ تلك المدينة صوْلة هائلةَ فدخلها عنْوة.

ولم يكن أمير الموحدين الجديد أقلَّ جدارة من سلفيه يوسف وعبد المؤمن، وكان هذا الأمير مالكًا لدولةٍ واسعة ممتدة من طرابلس إلىٰ ضِفاف نهر إبرة ونهر تاجه فأراد أن يتوج عهده بعمل مجيد يقوم به ضد أعداء دينه، فشن علىٰ النصارىٰ حرب استئصال بين سنة ١١٨٤ وسنة ١١٩٥، فأخذ كلٌّ من الشعبين يتلهىٰ بالقتل والنهب، فأعلن الجهادُ في براري إفريقِيَة وفي الأندلس، فانضوىٰ إلىٰ لواء يعقوب جيشٌ عظيم، فانقض علىٰ الأذفونش الثامن قرب مدينة الأرك، فلم ينتظر هذا الأمير وصول ملك ليونَ وملك نبرة إليه فخاض غمار المعركة وحده فمُنىٰ بهزيمة أشدَّ من هزيمة زلاقة، فأسر يعقوبُ عشرين ألفًا فأعاد

(١) جلب القوم جلبًا: ضجوا واختلطت أصواتهم.

إليهم حريتهم بنبل (١١٩٥)، فأدىٰ هذا النصر إلىٰ سقوط قلعة رباح ووادي الحجارة وعسقلان ومجريط (مدريد)، فحاول الموحدون دخول طُلَيْطِلة علىٰ غير جدوىٰ، فوجدوا العزاء ببلوغ شلمنقة فأعملوا السيف في أهلها، فجابوا مملكة قشتالة ومملكة ليون ومملكة البرتغال حاملين الحديد والنار بأيديهم (١١٩٧).

كان لسلطان الموحدين بهذه الانتصارات دويٌّ عظيمٌ في الأندلس، وحالت هذه الانتصارات دون دوام النصارىٰ علىٰ الاستيلاء، وأحيت هذه الانتصارات في الأندلس عهدَ خلفاء بنىٰ أمية السعيد.

وكان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب حُماةً للعلوم والفنون والصناعة مع المحافظة علىٰ الشريعة الإسلامية، فبعثوا نفائس العبادرَة[١] وأعيادَهم الرائعة من مرقدها، وأنشؤوا مجامعَ علمية وعدة مدارسَ وغمروا علماء العرب بضروب النعم، وفي أيامهم سطع نجم ابن رشْد وابن زهر اللذين كان كلٌّ منهما طبيبًا وفيلسوفًا وشاعرًا.

وكان حب شيد المباني أظهر صفات أمراء الموحدين، فأقام يوسف بأشبيليَّةَ عِدةَ أبنية فخمة ومسجدًا رائعًا وجسرًا من سفُنُ علىٰ نهرها وأصلح أسوارها وجلب إليها بقنوات ماء غزيزًا، وزين رصفتي ضفاف نهر الوادي الكبير، وود يعقوب أن يخلد ذكرىٰ معركة الأرك فأسس في أشبيلية مسجدًا كبيرًا لا تزال مئذنته قائمة فتعرف في أيامنا باسم لاجيرالدة (برج لعبة الهواء)، فجعل المهندس الجابر ارتفاع هذا البرج ١٧٢ قدمًا فتوجه بِكُرةٍ من حديد مذهب قدرت قيمتها بمائة ألف دينار، فجعلت هذه الكرة فوق قطب بلغ وزنه وحده عشرة قناطير، ثم رفعت تلك الكرة بعد زمن وزيد ارتفاع البرج ٨٦ قدمًا ووضع فوقه تمثال ضخمٌ يمثلُ الإيمانَ (النصرانيَّ).

وما كان شيْد برج لعبة الهواء ليُنسيَ يعقوب تأسيس المباني ذاتِ النفع العام، فقد أنشأ في أرجاء دولته مشافي للمرضىٰ وملاجئ للمساكين والكسحانِ، وحفر آبارًا في جميع الأرياف وبنىٰ فنادق علىٰ السبُل.

---

(١) العبادرة: جمع عبد الرحمن.

ومما يُروىٰ أن يعقوب زاد رواتب القضاة والفقهاء ليبعدهم من إغواء الأغنياء، وليحث الناس علىٰ تعلم الفقه.

تمتع العرب بفضل انتصار الموحدين بما لم يعرفوا أن ينالوه بأنفسهم من الطمأنينة والسكون، بيد أنهم لم يرضوا بنير الموحدين إلا لتظاهر الموحدين ببذل نفوسهم في سبيل مصالح الإسلام فوجب علىٰ أمراء الموحدين، إذَنْ، أن يملؤوا زهو العرب بإذلال ملوك النصارىٰ، فوفق يعقوب لذلك، فلم يألُ ابنه محمد الناصر، الذي جلس علىٰ العرش سنة ١١٩٩، جهدًا في نيل انتصارات جديدة.

أتم محمد الناصر استعداده الطويل الذي لم يقطع إلا سنة ١٢٠٥، حين أرسل حملةً ضد جزائر بليارَ، فتم بعد خمس سنوات من هذه السنة (١٢١٠) فغادر مقرَّه العاديَّ مراكش فنزل إلىٰ الأندلس مع جيش بولغ في عدد جنوده فقيل: إنهم ستمائة ألف، فكان هذا الجيش مؤلفًا من خمسة فيالق، فأما الفيلق الأول فمن البربر، وأما الثاني فمن جنود المغرب، وأما الثالث فمن متُطوعي مختلف البلدان، وأما الرابع فمن الموحدين وأما الخامس فمن عرب الأندلس.

وليس من الصعب أن يُبصر المرء ما كان لنبأ هذا الجيش من التأثير في العالم النصراني، وما كان النصارىٰ لينسَوْا هزيمة الأرك وما حدث بعدها من تخريب، فتعاهد جميع أمراء النصارىٰ، الذين كان الخطر يحيق بهم علىٰ السواء، علىٰ التعاون مستغيثين بأوربة الشرقية، فأعلن البابا إينوسانُ الثالث حربًا صليبية، فدعا رئيسُ أساقفة طُلَيْطِلة رودريغُ في طريقه بإيطالية وفرنسة إلىٰ محاربة المسلمين فعاد معه مقاتلون كثيرون، فجاوز ستون ألف نصراني جبال البرانس.

ولا بدَّ من وقوع اصطدام دامٍ بين الجيشين المتعاديين المؤلفين، كلاهما، من عناصرَ متخالفة وشعوب متحالفة، ووقع هذا الاصطراع فعلًا في سَفْح جبل مورنية الواقع في سهول نافاس طولوزة (العقاب)، وبدا الوضعُ المكانيُّ ملائمًا لمحمد بن يعقوب الذي كان قابضًا علىٰ منحدرات الجبل علىٰ حين كان النصارىٰ يتقدمون إليه من مضايقَ ضيقةٍ، ولكن هؤلاء النصارىٰ ساروا بإرشاد راعٍ من شِعاب غير مطروقة إلىٰ أعالي الجبل المنيعةِ فتلافوا بهذا الوضع الناجعِ قلة عددهم.

وما كان المسلمون ليقنطوا، فنصب محمدُ بنُ يعقوبَ قبته الحمراء علىٰ مرأىٰ من كتائبه بعد أن عبأها، وأحيط محمد بن يعقوب بسلسلة من حديد قويَّة مفوضًا حِراستها إلىٰ صَفوةِ جنوده، وظهر محمد بن يعقوب لجميع جنوده من تحت قبته ممسكًا سيف المعارك بإحدىٰ يديه ومُمْسكًا كتابَ ثواب الآخرة، القرآن، بيده الأخرىٰ، فأثار منظره كبيرَ حماسةٍ في جميع الصفوف.

وتغلبت حمية النصارىٰ ونظامهم وبراعة رؤسائهم في القيادة علىٰ ذلك، فاقتحموا جميع العوائق فقطع سانكو النَّبَرِّيّ سلسلة الحديد التي كانت تقِي قبَّة محمد بن يعقوب، فهزم حرَسَه فحمله علىٰ طلب النجاة بالفِرار (١٢١٢).

كانت نكبة نافاس طولوزة، التي يسميها المسلمون بيوم العقاب، ضربةً قاصمة لم ينهض المسلمون من أثرها، وأوجبت نكبة نافاس طولوزة انحلال دولة الموحدين، وأنعمت علىٰ النصارىٰ بتفوق مرموق، فالتزم المسلمون بعدَها خِطة الدفاع إلىٰ النهاية بعد أن كانوا يهاجمون، فعاد محمد بن يعقوب إلىٰ مراكش فتنزل عن الملك لابنه أبي يعقوب، فلم يكن لهذا العمل السياسي أي تأثير في مصير الدولة بسبب عجز وليها الجديد، فلم يمتثل الولاة، الذين نصبهم أبوه في مختلف ولايات الأندلس وإفريقية، أوامره فعَجَّل موته في سنة ١٢٢٣ وما حدث في البلاد من شِقاقٍ انهيار الموحدين.

وانقسم بعض النصارىٰ علىٰ بعض، فلم يعرفوا كيف ينتفون بهزيمة المسلمين في نافاس طولوزة، فاقتصر نجاحُهم علىٰ دخولهم طولوزة وبلشَ وبياسة وأُبَّدَة (١٢١٣) والقنطرة (١٢١٦) وبعض أماكن في الجرف، وزال اختلاف النصارىٰ في سنة ١٢٢٣ فقام صاحبا عرش أرغونة وقشتالة الطيبان، الأمير جاك الأول والأمير فرديناند الثالث، بحربٍ صليبية ثالثة ضدَّ ممالك المسلمين التي غَدَتْ فريسة الفوضىٰ الكريهة، وكان وُلاة بلنسية وطُلَيْطِلة وأشبيلية ومرسية قد أعلنوا استقلالهم، فأخذوا يتقاتلون علىٰ حين جاء آل عبد المؤمن يتنازعون في ميادين الأندلس سلطانًا متداعيًا.

وأراد المجلسان اللذان أنشأهما المهدي أن يتصرفا في شؤون السلطة، فهددهما المأمون بعد أن رفعه حزبٌ قوي إلىٰ السلطة في سنة ١٢٢٧ فعارضاه

بمنافسٍ مرهوب: عارضاه بيحيىٰ بن ناصر، فهَلَك يحيىٰ هذا في سهول شَذونَة فدفع ذانك المجلسان ثمنَ معارضتهما غاليًا، فقُتل جميع المشايخ الذين ناهضوا المأمون فعلِّقت رؤوسهُم علىٰ أسوار مراكشَ، فتذمر الأهالي من الرائحة الوبائية التي كانت تنبعث منها فقال المأمون: «رائحة هذه الرؤوس طيبةٌ عند أصحابي مزعجةٌ لأعدائي*».

ولم يكتف المأمون بما أمر به من التعذيب، وعَدَّل المأمون عمل المهدي السياسي، فصار اسم المهدي لا يُذكر في الخطبة، وألغىٰ المأمون المجلسين فأضحىٰ من بَقيَ حيًا من المشايخ من فصيلة مساعدي القُضاة في الشؤون الخاصة.

قضت قسوة المأمون علىٰ روح التمرد في المغرب (١٢٢٨)، لا في الأندلس، فقد أثار محمد بن هود، الذي هو سليل ملوك سَرَقسطةَ السابقين، أحقادَ مغاربة الأندلس ضد أبناء إفريقِيَة فجمع جيشًا كبيرًا فهزم بالقرب من طريفَ كتائبَ المأمون، فارتدّ المأمون إلىٰ مراكش نهائيًا (١٢٢٩)، فلم تلبث المدنُ: مرسية ودانية وشاطبة أن اعترفت بسلطان محمد بن هود (١٢٣٠-١٢٣٢) فأكرهت غرناطة وقرطبة وأشبيلية وماردة علىٰ التسليم.

وكانت بلنسية خاضعة لأمير قويّ اسمه كميلُ بنُ زياد، وكانت يَقِظُ والأماكن المجاورة لها خاضعةً لأمير آخر اسمه محمد بن الأحمر، وكانت الجرف قد استردت استقلالها، فلم يبْق للموحدين بإسبانية في سنة ١٢٣٢ سوىٰ جُزُرِ بليارَ فنزعها النصارىٰ منهم.

والنصارىٰ هؤلاء لم يبقَوْا مكتوفي الأيدي منذ خمس سنين، فاستولىٰ ملك البرتغال، في سنة ١٢٢٧، علىٰ مدينة والشَ القريبة من نهر وادي أنه، وتقدم ملك ليونَ حتىٰ نهر الوادي الكبير بعد أن خرب بطليوسَ، وأوغل فرديناند الثالث في قلب الأندلس فافتتح لوشة والحمراء القريبتين من غرناطة ففر أهل الحمراء أمام جيوشه الظافرة فآوتهم غرناطة فسكنوا أحد أحيائها، فسُمِّيَ هذا الحي باسم مدينتهم القديمة، وتعب جاك الأول من انتهاب الموحدينَ لشواطئ قطالونية، فقاتلهم ظافرًا فغزا جزائر بليار فدخل ميورقةَ عَنوَةً، فدانت ميورقة ويابسةُ للغالب، فاكتفىٰ هذا الغالب بخضوعهما.

وهكذا زال سلطانُ الموحدين كله عن إسبانية (١٢٣٢)، أجلْ، دام هذا السلطان في إفريقِيَة حينًا آخر، ولكن وُلاة تونسَ وتلمْسان الذين كانت حكومتهما وراثية عدّوا أنفسهم مستقلين، ومن السهل أن نبصر اقتسام تينك الدولتين لمعظم إفريقِيَة عندما يصبح الموحدون في المغرب نفسه عرْضةً لخِصامِ مَن يظهر من المنافسين.

الفصل الثالث
انحطاط العرق العربي في الغرب
أشراف مراكش
(١٢٣٢-١٦٠٩م) - (٦٢٩-١٠١٨هـ)

انحلت دولة الموحدين، ولم تنفصم عرا الصلات بين أهل الأندلس وأهل إفريقية، ولكن من غير أن يدينوا لدولةٍ واحدةٍ إلىٰ الأبد، وما كان هذا الانفصال ليبدو شؤمًا علىٰ الإسلام لو وَطَّنت قبائل المغرب نفسَها علىٰ التدخل في شؤون الأندلس حليفةً بيدَ أنه كان من ديدنِ هذه القبائل أن تعدَّ بسطَ سلطانها ثمنًا لمساعدتها، فلم يكن عرب الأندلس لينظروا إليها إلا بحذرٍ، وهذه القبائل قد عبرت جبل طارقٍ غيرَ مرة، لا ريب، منذ سنة ١٢٣٢، إلا أن هذه المغازي لم تؤدِّ إلىٰ غير انتصار النصارىٰ الذين أخذوا يتدرجون إلىٰ الاتحاد يومًا بعد يوم.

وكان من نتائج هزيمة نافاس طولوزة (العقاب) رفعُ راية العصيان في الأندلس فضلًا عن إثباتها عَجْزَ محمد الناصر، وأخذ نجم الدولة التي شادها عبد المؤمن يميل إلىٰ الأفول في إفريقِيَة بسرعة، فكان يجب علىٰ أمراء الموحدين أن يُبدوا كبير حزم وعظيمَ حِذقٍ، وهذا مالم يُبْدِه المأمون الذي نقضَ دستور المهديِّ فطعن دولته طعنةً نجلاء، فلما جاء دور خلفائه بدَوْا عاطلين من كل نفوذ، فلم يَقْدِروا علىٰ منع أسَرٍ جديدة من أن تنازعهم السلطةَ العليا بتوفيق فلم يجدوا في غير القبائل ما كانوا ينتظرونه من الاحترام والإخلاص.

وحَلَّت سنة ١٢٤٢، فرفض والىٰ تونس أن يجدد عهد الولاء الذي ارتبط

فيه أميرًا تابعًا، فنُودي به أميرًا مستقلًا في عاصمته، فبنىٰ مستقبل آله في البلاد علىٰ أسُس متينة، واسمُ أسْرَته آلُ أبىٰ حفص، وكُتب البقاءُ لهؤلاء الآل عِدَّةَ قرون.

وانظر إلىٰ المغرب تَرىٰ بني زيان قد أقاموا سلطانَهم في تلمْسانَ والجزائر حتىٰ جوار فاس سنة ١٢٤٨.

وانظرْ إلىٰ المغرب ترىٰ قبيلة بني مرين قد رفعت راية العصيان فهَدَّدت فاس وتازة ومراكش، فقاوم الموحدون هذا العدوَّ الداخلي عشرين سنة (١٢٥٠-١٢٧٠)، فما كانت شجاعتُهم لِتنفعهم مع انقساماتهم الأهلية، فاستطاع أبو يوسف المريني أن يأخذ بَيْعَةَ عرب المغرب وبربره.

ومن المتعذر أن نُبين اليوم حدود كلّ من ممالك أبىٰ حفص وبني زيان وبني مرين، وإنما يمكننا أن نقول إن مملكة أبي حفص كانت تمتدُّ حتىٰ بجاية، وإن مملكة بني زيان كانت تشتمل علىٰ تلمْسان والجزائر، وإن مملكة بني مرين كانت بين تلِمْسانَ والمحيط الأطلنطيِّ، وكانت حدود هذه الممالك تختلف بين حين وحينٍ بسبب ما كان يشتعل بينها من الحروب بلا انقطاع وبسبب ما كان ينشأ عن ارتحال القبائل من أراضي إحداها إلىٰ أراضي الأخرىٰ من تغيير في الوَضع الجغرافيّ، ولو كان تقويم الأمراء يقوم مقام تاريخ إحدىٰ الأمم لاستطعنا أن نَسْرُد أسماء الأمراء الذين تَوَلوْا أمر تونس وتِلمْسانَ وَمَرَّاكش من القرن الثالث عشر إلىٰ القرن السادس عشر، ما ظلَّت التيجان قبضة أسرٍ واحدة طِيلةَ هذا الزمن الطويل، بَيْدَ أننا لا نظفَر بكبيرِ معرفةٍ لهذا الدور الطويل من سَرْد تلك الأسماء وتلك التقاويم ما عَطِلنا من وثائقَ عن ذلك الدور الطويل وما عَطِل هذا الدور من ظاهرة تستوقف النظر، والذىٰ يستدعي الاهتمام بالموضوع هو أن نبيِّن ما انتاب العرق العربي من التقلبات حتىٰ الوقت الحاضر، فالواقعُ أنك لا تجد أمرًا أقل إمدادًا من حياة أهل البدو لأقاصيص التاريخ، وترىٰ المدن التي نالت بفضل العرب درجة رفيعة من الرقىٰ قد حافظت علىٰ نضارتها ومقامها مع ذلك، وترىٰ تونس وبجايةَ والجزائر وتلِمْسانَ وفاس وَمَرَّاكشَ في عهد آل أبىٰ حفص وبني زيان وبني مرين، كما في عهد الزيرية وبنىٰ أمية، تفاخر بأسماء علمائها ورجال فنونها

مع ذلك، وإذا كانت سطوة الأغالبة البحريةُ القديمة لم تَقدر علىٰ النهوض ثانية فإنها نَظمت جحافل من القُرْصانِ فأصابت النصارىٰ بأعظم الأضرار، وخرجت سفن من مرافئ البحر الأطلنطي فأخذت تنزل محاذيةً لشواطئ إفريقِيَة دانية من دوائر الانقلاب متعاطيةً تجارة الرقيق والذهب والصمغ والعنبر.

ومن الطبيعي أن يشترك العرب في جميع المعارك التي دارت بين أمراء إفريقِيَة من القرن الثالث عشر حتىٰ القرن السادس عشر، فلم تسفر عن أية نتيجة جدِّية، أَجل، استطاع أمراء بني مرين أن يفتحوا تِلمسْانَ وتونس مرتين في سنة ١٣٤٧ وسنة ١٣٥٩، ولكن الأمراء الذين نُزِعَ ملكهم لم يلبثوا أن استردوا عرشهم وعادوا إلىٰ السيطرة علىٰ قبائل كانوا قد عَودوها علىٰ إطاعتهم.

وكانت أسرة أبىٰ حفص أقلَّ الأسر الثلاث المالكة عرضة للفتن والاضطرابات، ووجد في المغرب، في الغالب، متنافسان متساويان قوةً يتنازعان السلطان في العاصمتين فاسَ ومراكش، وكان علىٰ بني زيان أن يقاتلوا أصحاب الجزائر وملحقاتها الطامعين المرهوبين، فتونس وحدها قد حافظت علىٰ تفوقها الثابت علىٰ جيرانها، فبلغ ملوكها من القوة ما انتزعوا به طرابلس الغرب من مماليك مصرَ الذين خلفَوا سلاطين آل أيوب.

ويظهر أن العرب أتموا رسالتهم، فعادوا لا يفكرون في نصر قضية الإسلام، والعربُ إذا كانوا قد مَدُّوا يدهم إلىٰ إخوانهم بالأندلس فِلكي يجمعوا شمل قبائلهم المتفرقة، لا لكي يُثيرُوا شجاعتهم ويقودوهم إلىٰ معارك جديدة، والعرب قد رجعوا بالتدريج إلىٰ حياة الصحراء النمطية الخاملة، والعربُ لم يُبدوا، في سنة ١٢٧٠، حين قام سان لويس بالحملة الصليبية الأخيرة، من البأس كالذي أبْدَوْه في أحوال أخرىٰ، والعربُ، بدلًا من أن يغتنموا، بمهارةٍ، فرصةَ أمراض الفَرَنج وآلامهم تحت أسوار تونس فيبيدوهم علىٰ بكرة أبيهم، والعربُ، بدلًا من أن يهجموا علىٰ جيش الفَرَنج الذي دَبَّ اليأس فيه بسبب موت الملك النصراني، أمضَوْا هم وملك الصِّقليَّتَيْن شارل الأنجويُّ معاهدةً ضارةً عاهدوا فيها، بلا مقابل، علىٰ تقبل السلع الإيطالية والفرنسية غير خاضعة للمكوس وعلىٰ أن يَدَعُوا الكثلكةَ تقوم بطقوسها حرة في بلادهم.

ثم فتح الإسبان والبرتغال المدن المسيطرة علىٰ مضيق جبل طارق والشاطئ الإفريقي ووجهوا إلىٰ إفريقِيَة من الكتائب ما يَعْدِل عدد التي أرسلها أهل إفريقِيَة إلىٰ إسبانية حينما كانوا سادة الجزيرة الخضراء وظريفَ، وكان أهل البرتغال أولَ من صنعوا ذلك، ورأىٰ البرتغاليون أن يحولوا روح مغامرتهم إلىٰ بقاعٍ أخرىٰ بعد أن استوْلوْا علىٰ أنتيجو والجرف، وكانت قشتالةُ تضغطهم فبحثوا في البحار عما تضِنُّ به الأرض عليهم من الغِنىٰ والسلطان، فاستوْلوْا في أوائل القرن الخامس عشر (١٤١٥) علىٰ سبَتْةَ، فصعب عليهم أن يحافظوا عليها في عهد إدوارد، الملكِ الثاني من آل براغانس، فذللوا ذلك بإعطائهم صبيًا من آل الملك رهينًا، ثم ظهر الأذفونش الخامس (١٤٣٨-١٤٨١) أوفرَ حظًّا فملك المدينتين المهمتين: طنجة وأصيلة، ثم رأىٰ البرتغاليون الذين وَجهوا جهودهم إلىٰ التجارة والملاحة ألا يُوسعوا مدىٰ فتوحهم في هذه الناحية، فبدؤوا يقومون بسلسلة اكتشافاتهم البحرية التي سترفعهم عاليًا، فأبصرتْ جزائرُ مادرةَ وآسورة والرأسِ الأخضر سُفُنَهم، فدنوْا من رأس الرجاء الصالح.

ولم يلاحظ مقدار ما كان لتملك البرتغاليين طنجة وسَبْتَةَ وأصيلةَ من شؤم علىٰ عرب الأندلس، وعلىٰ ما كان من عدم عد مسلمي المغرب طرفًا ذا علاقة في قتال عرب الأندلس للأسبان كان يمكن أولئك المسلمين، في أي وقت، أن يهبُّوا إلىٰ نصْرَة إخوانهم عربِ الأندلس فضلًا عما في هذا الاحتمال وحده من قوة لهؤلاء العرب، فلما هيمَنَ البرتغاليون علىٰ مضيق جبل طارق فحالوا بذلك دون اتصال القارتين أنزل أمراء النصارىٰ آخرَ ضرباتهم بعرب الأندلس.

ووقعت معركة ريوصَلَدَا سنة ١٣٤٠، فحاول أحد ملوك بني مرين أن يَدْعَم بها قضية الإسلام المترجحة لآخر مرة، ولم يفكر الأمراء الكاثوليك، بعد، في اتخاذ خِطة الهجوم ضد أهل إفريقية، فلما أصبح هؤلاء الأمراء سادةً للمرافئ الأندلسية الكبرىٰ الواقعة علىٰ شاطئ البحر المتوسط بدؤوا بتوسيع نطاق بحريتهم فحالوا دون اعتداء الأساطيل الإسلامية، ولما سقطت مملكة غرناطة أوغلوا في إفريقية، ولما حلت سنة ١٥٠٤ أبحر دياغو القرطبيُّ من ميناء مَالَقَة فاستولىٰ علىٰ عدة أماكن بين سَبْتَةَ ووهرانَ، واستولىٰ علىٰ بنيونَ والمَرْسَىٰ الكبير، إلخ، ولما

حَلت سنة ١٥٠٩ نَظَّم وزير فرديناندَ الأرغونيِّ الكردينالُ إكْزيمِينسُ حملةً أهم من تلك علىٰ نفقته الخاصة فلم يهاجم أمراء مراكش الوطاسيين الذين هم فرعٌ ثان لبني مرين، بل تقدم إلىٰ مناطق بني زيان التي كانت تتألف منها مملكة تِلِمْسانَ ومملكة الجزائر فاستولىٰ علىٰ مدينة وهران فأقام فيها حاميةً قوية، ولما كانت سنة ١٥١٠ أرْسل بطرسُ النَّبَرِّيُّ من جزائر بليارَ إلىٰ بِجَايَةَ ففرض جِزيةً علىٰ صاحب تونس.

وكان لا بدَّ من وقف تلك الزُّحوف، ولم يجد صاحب الجزائر ابن تومي في العرب والمغاربة غير الخنث وعدم الاكتراث فطلب العوْن من اللص البحريِّ الشهير أوروجَ (عروج) المدلليِّ الذي كان قائدًا لأسطول كبير، فرضي أوروج بذلك مسرعًا فألف كتيبة من خمسة آلاف رجل، فذهب إلىٰ الجزائر (١٥١٦)، فلم يفكر في غير الاستقرار بها سيدًا، فاغتال ابن تومي، فقبض علىٰ زمام الحكم، فأراد أن يغتنم فرصة الهوْل الذي ألقاه في النفوس، فهجم علىٰ مملكة تلمْسانَ فطرد منها بني زيان فدحر الإسبان، ثم حلت سنة ١٥١٨، فورد المدَد إلىٰ الإسبان، فدارت بين الفريقين رحىٰ معركةٍ قُتل فيها أوروج فاستولىٰ الإسبان علىٰ تِلِمْسانَ.

ولم تزلزل تلك الهزيمة بأس أولئك القُرصان وثقتهم، فقد وَلَّىٰ أهل الجزائر عليهم أخا أوروجَ خير الدين المعروف باسم بارباروس، فوطد خير الدين سلطانه في البلاد فحشر الإسبان في مدينة وهرانَ التي كانت أول بلد فتحوه، وخشي خير الدين تفوقَ قُوَىٰ النصارىٰ وتقلب العرب فعزم علىٰ جعل مملكته تحت حماية السلطان الأعظم وعلىٰ إدخال جنود من الجيش التركيِّ بالآستانة إلىٰ إفريقية، فأجابه السلطان إلىٰ طلبه، فأمَده بما يحتاج إليه من الكتائب، فأصبحت الجزائرُ إيَالَةً وأضحىٰ باربارسُ يمارس السلطة فيها باسم السلطان العثمانيِّ.

ورأينا أن الترك بآسية حلوا محل العرب حماةً للإسلام، وأوشك أن يقع مثل هذا في إفريقية، فالحق أن ذلك الدور كان أعظم أدوار سلاطين الآستانة، فقد كان السلطان سليمانُ سيدَ مصرَ وآسية الصغرَىٰ وبلغارية وبلاد اليونان فيهدِّد بلاد الفرس وبلاد المجَر في آن واحد، والحقُّ أن السلطان سليمانَ وحدَه كان

قادرًا علىٰ حماية إفريقِيَة من سلطان شارلكن المرهوب، فلم يكن وصولُ أولئك السادة إلىٰ المغرب أمرًا ضارًا إذن.

وكان العرق العربي، مع ذلك، في دور الانحلال التامِّ منذ دان للترك، فصرتَ لا ترىٰ فيه نُبْل المشاعر ولا تلك الحماسةَ الكريمة، بل أخذت تُبْصر فيه ما لا محيص عنه من العبودية والانحطاط، والعرقُ العربيُّ إذ حنَاه نِيْر جنودٍ وُقحٍ يفرِضون علىٰ الناس سيادتهم بقوة السيف خَسِر كرامته الفطرية التي امتاز بها، ووقع بالتدريج في جَلَفه الراهن، فصرنا نتهمُه، علىٰ غير حقٍ، بِكرْهِه لكل تمدن.

ولم يمْلِك الترك إيالة الجزائر وحدَها، بل دانت لسلطانهم تونس وطرابلس الغرب بفضل بارباروسَ أيضًا، ونَصَب السلطان سليمانُ بارباروسَ أميرًا علىٰ الأسطول العثماني فشعَر بارباروس بوجوب مقابلته لهذا الفضل بأروع الخدَم، فاستقبل في الجزائر أميرًا من آل أبىٰ حفص كان قد خُلِع من عرشه فبدا أمام تونس لِيُعِيدَ المَلِك الشرعي إلىٰ ملكه في الظاهر وليضم تونس إلىٰ أملاك الدولة العثمانية في الحقيقة، وعَلِمَ السلطان سليمانُ ما انتواه بارباروس، فلم يخش عده شريكًا في تلك الخدعةِ الشائنة بأن يُولي دخيل بارباروسَ مملكة تونس جهرًا وأن يُهْلِكه سرًّا، فلما استولىٰ بارباروسُ علىٰ قلعة غوليطة (حَلْق الوادي) وعلىٰ تلك المدينة انتحل أوضاع الآمر الناهي فثار الأهالي فَغلبوا فخضعوا لآل عثمان.

ونظر النصارىٰ بعين القلق إلىٰ ما آلت إليه إفريقِيَة الشمالية، وأيقن قرْصان البحر المتوسط بأن يجدوا في البلاد المغربية أسواقًا لِما ينتهبونه من السلع والأرِقاء فلم يألوا جهدًا في توسيع غاراتهم البحرية وإرعاد شواطئ إسبانية وإيطالية.

وعزم ملك إسبانية والصِّقِلِّيَتيْن وإمبرطورُ ألمانية علىٰ وقف تقدم العثمانيين، فتحزب لآل أبىٰ حفصٍ فأعَدَّ في سنة ١٥٢٥ حملةً لغزو تونس، فخفت كتائب كثيرة من هولندة ونابولي وصِقِلِّيَةَ إلىٰ كاغلياري التي اتخذت ملتقىٰ لها، فأبحر علىٰ رأسها فنزل غير بعيد من أطلال قرطاجة، ومَوَّنَ بارباروسُ حصن غوليطة بعد أن استبسل اليهوديُّ المهتدي سنان في الدفاع عنها، واضطرت تونس، بعد هزيمة بارباروس تحت أسوارها، إلىٰ فتح أبوابها للغالب مع عشرة آلاف رقيق نصرانيٍ

كسروا قيودهم، ولم تقدر تونس علىٰ اجتناب النهب، وغدت أموالها طُمْعةً لجنود شارلكن.

وأعيد إلىٰ العرش أمير آل أبىٰ حفص، الذي تبنىٰ شارلكن مصالحه، علىٰ حسب الشروط الآتية:

١- أن تكون تونس إقطاعة تابعة لتاج إسبانية. ٢- أن تُفك رِقاب الأَرِقاء النصارىٰ بغير فِدًىٰ. ٣- أن يتمتع رعايا الإمبراطور بحرية التجارة وبحرية ممارسة شعائرهم النصرانية. ٤- أن يُرابط في قلعة غوليطة حرَسٌ إسباني وأن يُدفع اثنا عشر ألف دينار نفقةً لهم. ٥- أن تُسَلَّمَ جميع موانئ تونس إلىٰ الإمبراطور (١٥٣٥).

وأقلع شارلكن، من فوره، بعد أن وهَب، في ذلك الحين، طرابلس الغرب فرسان مار يوحنا الأُورَشَلِيميِّ الذين طردهم العثمانيون من جزيرة رودس، وما كانت هذه الغزوة الساطعة لتقف القرصنةَ الإفريقِيَة ما ظلت إيالة الجزائر قائمة، فانتعشت القرصَنة في عهد حسن أغا خَلَفَ باربروسَ، فقطعت تجارة البحر المتوسط، فأكرهت إيطالية وصقلية وإسبانية علىٰ دحر الغارات البحرية بإقامة حرس علىٰ السواحل بين مسافةٍ ومسافة.

وزُعم أن العرب يساعدون القُرصان سرًّا لما كان من مداراة القرصان لِقُراهم، فجهز شارلكن أسطولًا جديدًا لإخضاع الجزائر (١٥٤١)، فَجرت الرياحُ بما لا يشتهىٰ في هذه المرة، فعاكسته زوبعةٌ هائلةٌ في إنزال حمولته، فهجمت في الوقت المناسب قبائل العرب التي أُثِير تعصبها الدينيُّ وأتراكُ الجزائر علىٰ الجيش الإمبراطوري فكسر هذا الجيش، وكأن النازلة لم تنفك إلا بعد بلوغ حدها، فلم تَقْدر السفن الحاملة مِيرَةَ الكتائب أن تُمْسك البحر فتكسَّرَ بعضُها علىٰ بعض أو علىٰ الصخور، ولم يجدْ غير قسم منها ملجأ له تحت رأس مِطافُل، المعروفِ اليوم برأس ماطفو علىٰ مسيرة أربعة أيام، فلم يصل إليه النصارىٰ إلا بعد هزيمة قاصمة.

وكان للترك بهذه البليَّة عَوْدٌ إلىٰ سابق تفوُّقهم، فأرسلوا، عند ملائمة الأحوال، أسطولًا إلىٰ سادة طرابلس الغرب فرسانِ مار يوحنا، فاستردت هذه

الولاية سنة ١٥٥١، ففُوض أمر حكومتها إلىٰ طورغود الشهيرِ الذي اتَّفق هو وبيالة باشا بعد عشر سنين (١٥٦٠) فنالا نصرًا بحريًا جديدًا.

انتهت معركة ليبانطو، فتوجه الدون جوان النمسويُّ إلىٰ غوليطة (حَلْق الوادي) فسار منها إلىٰ تونس فلم تقاومه قطّ، فلم يَكَدْ يبتعد عنها حتىٰ خَفَّ سنان باشا إلىٰ طرابلس الغرب فَوَطَّد سيادة السلطان في كل مكان، فظلَّ الترك بعد ذلك أصحاب تونس والجزائر، فلم يكن للمغازي التي وُجهت إليهم بعدئذ غايةٌ غير نيلِ تعويضات أوزجرٍ لقرصنات، ومن ذلك أن رَدَعَ دوبوفرت الجزائريين سنة ١٦٦٥، وأن قهرهم ماركيز دومارتل سنة ١٦٧٩، وأن ضربهم بالقنابل دوكين (١٦٨٢-١٦٨٤)، ومريشال ديسترىٰ (١٦٨٨-١٦٨٩)، وأن كان لطرابلس الغرب مثلُ هذا النصيب في عهد لويس الخامس عشر سنة ١٧٢٨.

وأما مراكش فظلت مستقلة عن السلطان العثماني، وكان بنو وطاس قد حلُّوا فيها محلَّ بني مرين في القرن الخامس عشر، فحلت أُسرة الأشراف الجديدة محل بنىٰ وطاس سنة ١٥٥٩، ولا تزال هذه الأسرة مالكة لمراكش حتىٰ الزمن الحاضر، ويُعدُّ الأسرياء الماهرون الذين أوجدوا عظمة مراكش من سلالة محمد، وإخوة سلطان مراكش، لا أبناؤه، هم الذين يخلفونه، وأسفر هذا الدستور عن عِدة فتن في الدولة.

واتخذ ملك البرتغال الدونُ سباستيانَ ذلك الدستورَ ذريعةً لحملته الشهيرة علىٰ مراكش، فقد تنازع خلافةَ الشريفِ عبد الله بعد وفاته ابنُه مولاي محمد وأخوه مولاي عبد الملك، فنالها مولاي محمد في بدء الأمر لما كان يتصرف فيه من ثَروات عظيمة فَغَلَب مولاي عبدُ الملك مولاي محمدًا في ثلاث معارك فأكره مولاي محمد علىٰ الاغتراب فالتجأ إلىٰ ملك البرتغال طامعًا في استمالته وعودته إلىٰ العرش بمساعدته، فاستهوت أحاديثهُ ووعوده سباستيانَ، فأبحر سباستيان علىٰ رأس بضع كتائبَ إلىٰ أصيلة حيث لم يجدْ أحدًا من الأنصار الذين ذكرهم مولاي محمد، وسباستيانُ، إذ أخذَ من فليب الثاني خُوْذَة شارلكن ودِرْعَه اللتين كان لابسًا لهما عند دخوله تونس ظَنَّ، بما فيهما من حماسةِ الفرسان، أنه يحجب مجد الإمبراطور فعزم علىٰ رفع الصليب فوق مساجد فاس ومراكش فجدَّ، غافلًا، في

اقتفاء أثر الكتائب التي أرسلها مولاي عبد الملك ليستدرجه إلىٰ داخل البلاد واثقًا مطمئنًا معتقدًا أن انتصاره أمرٌ لا ريب فيه، فلما اقترب من القصر الكبير كرَّ عليه العرب من فورهم فحملوه علىٰ القتال، فأحاط بجيشه الصغير فرسانٌ كثيرون فوَجَبَ عليه أن يَغلبَ أو يموت، وما كانت الشجاعة والبطولة لتخوناه في ذلك الوضع الحرج، وما كانتا لتنفعاه في غير إجلال غَلَبِه وتشريف موته، وقد مات الخصمان في ذلك اليوم، فأما أحدهما فَهَلَك بإغراق نفسه في وادي المخازن، وأما الآخر فَهَلَك بالحمَّىٰ الشديدة التي نشأت عن جهوده العظيمة في إعداد قوَاه فقضت عليه في وسط الصراع.

واعتبر البرتغاليون بتلك المحنَة الهائلة فلم يعودوا إلىٰ مثل تلك التجربة ضدّ إفريقِيَة فلم يبق علىٰ الأشراف غيرُ إطفاء الفِتن الداخلية التي كانت تقاسيها بلادُهم في الغالب.

تلك هي حال العرب بإفريقِيَة في القرن السابع عشر، والعربُ قد حافظوا في مراكش علىٰ شيء من الشوْكة، والعربُ قد عانَوْا سلطانَ الترك الشديد مع قِلَّة عدد الترك في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب وإقامتهم بالمدن الساحلية، وعلىٰ ما تراه من اقتتال القبائل العربية وَفقَ سياسة قاهريها الماكرة تخشىٰ هذه القبائل سرعة الفتك بها وسفك دمائها فتراها تُعْطىٰ الأتاوَىٰ غيرَ متذمرة وغيرَ مفكرة في رفع النير الثقيل عنها ولا تزال ترىٰ عددًا قليلًا من القبائل العربية محافظًا علىٰ استقلاله بقيادة شيوخ منتخَبين.

الفصل الرابع
وقائع عرب الأندلس الأخيرة
(١٢٣٤-١٦٠٩)

نعود إلىٰ تاريخ عرب الأندلس الذين أنزلوا بدولة الموحدين أقسىٰ ضربةٍ، أجل، إن عرب الأندلس ثاروا في كلِّ ناحيةٍ علىٰ الحاميات الإفريقِيَة ورفعوا عنهم نيرًا كريهًا، بيد أن أولئك ليسوا العدوَّ الوحيد الذي وَجَبَ عليهم أن يحاربوه، فقد كان عليهم أن يدحروا النصارىٰ أيضًا، وما كانوا ليصلوا إلىٰ هذه النتيجة إلا بتنظيمهم شؤون الدفاع تنظيمًا وثيقًا وذلك بأن يضحوا بجميع مصالحهم الخاصة في سبيل قضيتهم القومية، ولم يحدث هذا كما رأينا فكنت ترىٰ في الأندلس عِدة دوَيلات بدلًا من حكومة مركزية متينة الأساس، ومن هذه الدويلات نذكر ممالك الجرف (الغرب) وبَلَنْسِيَةَ وابن هود ومحمد الأحمر التي نالت شيئًا من القوة فاستفاد أمراء الكاثوليك من اختلافها فأرهقوا كلّ واحدةٍ منها علىٰ حِدَة.

لم يكتف جاك الأول بفتح جزائر بليار فأراد فتح بَلَنْسِيَةَ، فأخلص لهذه الخطة فرفض في سنة ١٢٣٤ أن ينتفع، ضد تيبوتَ الشنبانيِّ، بالحقوق التي يرِث بها تاج نبرةَ، فأبدىٰ من نُبل السلوك ما بدا به حليفًا لأمير يمدُّه بأنفع عون، ولم يأل ملك بَلَنْسِيَةَ جُهدًا في الاحتفاظ بالأماكن التابعة لمملكته، ولكن تنازع المسلمين وسوء نية الوُلاة الذين كفروا بكل مبدأٍ وطنيٍ فكانوا يبحثون أمام النصارىٰ عن الاستقلال بما هو تحت أيديهم مشترين بضع إقطاعات بالبلد الذىٰ فُوض إليهم أمر الدفاع عنه، أوجبا تسلمَ الأرغونيين في بضع سنوات (١٢٣٢-١٢٣٨) للمدن الواقعة حول بَلَنْسِيَةَ فلما تركت بَلَنْسِيَةَ وقوتها علىٰ هذا الوجه حوصِرت برًا

وبحرًا، فشعر الملك المسلم بعجزه عن المقاومة وحده فاستغاث بابن هود وبمحمد الأحمر وبأمراء إفريقية، فلم يلبِّ نداءه أحد، فكان لكل واحد من هؤلاء شأن يغنيه، فشددَ جاكُ الحصار فاستسلم الأهلون بعهد جاء فيه ضمان كامل لأموالهم وأرواحهم وتخييرٌ لهم بين الجلاء مع أسرهم وعبيدهم وأموالهم، والبقاء مع صيانة دينهم ومالهم وخضوعهم لمثل الضرائب المفروضة علىٰ رعايا ملك أرغونة (١٢٣٨).

أصبح جاك سيد بَلَنْسِيَةَ، فصار يُفكر في الاستيلاء علىٰ بليانة وَدَانيةَ وشاطبةَ ليحمل بعد ذلك علىٰ مملكة مرسية، فسبقه إليها ملك قشتالة (١٢٤١) الذي جعل نفسه بين الأرغونيين والمسلمين قاضيًا علىٰ كل أمل له في التوسع، وكانت مملكة مُرسيةَ مجزأةً بين وُلاة مرسيةَ والقنت وأوريولةَ وجنجالة والحامة، فلم تكن قوية قوةَ مملكةِ بَلَنْسِيَةَ، فلم تُبدِ أقل مقاومة تجاه فرديناند الثالث، فأولئك الولاة إذ كانوا متحاسدين متعادين تهافتوا علىٰ الخضوع غير مفكرين في غير نيل أصلح الشروط، فلم يشذ عنهم غير والىٰ لورقة الذي كان يدير شؤون مولة وَقَرْطاجنَّةَ فأصرَّ علىٰ مزاعمه ممتشقًا الحسام فدخلت المدن التي يملكها عنوة بعد سنتين (١٢٤٣)، فضمت مملكة مُرْسِيَةَ بأسرِها إلىٰ تاج قشتالة.

ونال هذا التاجُ ما هو أهمّ من ذلك منذ سنة ١٢٣٢، وأبدىٰ القائد القشتالىٰ الفابيريز في إحدىٰ المعارك الهائلة التي دارت علىٰ ضفاف نهر وادي أَنه سنة ١٢٣٣ بطولة كبيرة وعظمة نفس عجيبةً فبسط ذلك التاجُ سلطانَه حتىٰ نهر الوادي الكبير، وكان محمدٌ الأحمر من ناحيةٍ وملكُ الجرف من ناحيةٍ أخرىٰ يأخذان بخناق ابن هود الذي يحيط به جيش كبير من الموحدين، وكان ابن هود هذا من القوة بحيث يقدر علىٰ محاربة فرديناندَ الثالث وحده، وكان ابن هود هذا عاطلًا من الموارد الضرورية فلم يَسْطِع أن يمنع فرديناند الثالث من الاستيلاء علىٰ أُبَّدَةَ وأندوجَر ومن حصار قرطبة، وكان ابن هود يأملُ، علىٰ ما يحتمل، أن تقدر هذه المدينة علىٰ مقاومة فرديناندَ بسكانها وعالي أسوارها وميرَتها فيتمكن من مناوشة الأرغونيين بالجيش (١٢٣٨).

وكانت مهاجمة تينك المدينتين المهمتين في آنٍ واحدٍ مما يثير بسالة

المسلمين وحميتهم، ولم يحدث شيء من هذا، فقد قتل والىٰ المَرِيَّة ابن هود في أثناء تأهبه، فسلم أهل قرطبة مدينتهم إلىٰ ملك قشتالة فدخلها بعد أن عاهدهم علىٰ حقن دمائهم، وقرطبة هذه هي عاصمة الإسلام في الغرب ودارٌ لفنون المسلمين ونفائسهم وعظمتهم، ونصَبَ فريديناند الصليبَ فوق مآذن المسجد الكبير وأعاد إلىٰ كومبستلة نواقيس كنيسةِ مار يعقوب التي أخذها الحاجبُ المنصور.

وكان سقوط قرطبةَ نذيرَ استعباد العرب القريب، وكان سقوط قرطبة وَدَاعًا لجميع ذكريات مجد العرب الغابر، ووداعًا لكلِّ ما يُذكر الإنسان بسابق سلطانهم وانتصاراتهم ومفاخرهم الحربية، والعربُ قد أبصروا تدنيس محاريب دينهم فلم يفكروا في بذل أي جهد عالٍ لمنعه.

وصار فردينانُد يسير من نصرٍ إلىٰ نصرٍ فاستولىٰ علىٰ بَيَّاسة وأستبة وأستجة والمدور فحاصر جيَّان (١٢٤٥).

ونُودي بمحمد الأحمر أميرًا علىٰ ولايات ابن هود التي نجت من النصارىٰ، فجمع كتائب فنازل القشتاليين فغلب أمام القلعة بعد أن أظهر المسلمون شجاعةً كبيرةً، فأبدىٰ فرديناند الثالث كرمًا وحذقًا سياسيًّا فرضِيَ بما عرضه عليه محمد الأحمر من ولاء آلي بالنيابة عن بلاده الممتدة من الجزيرة الخضراء إلىٰ المريةِ بامتداد الجبال بين جبل طارقٍ وشقة، معاهدًا إياه علىٰ عدم التعرض له ملزمًا إياه بإعطاءِ جزيةٍ سنوية وبإمداده بالفرسان عند الحرب وبحضور مجالس الكورتس بقشتالة شخصيًا.

واحتفظ ذلك الملك النصراني لنفسه بحق السير إلىٰ عرب الجرف (الغرب) والوادي الكبير الذين ما فتئُوا يُؤلفون دويلات، وكان سقوط عاصمة المرابطين والموحدين أشْبِيليَّةَ يؤدىٰ إلىٰ عدم اتحاد مسلمي الجرف وجبال نفادة (الثلج) فحوصرت فأبصرت في معسكر العدوِّ محمدًا الأحمر وفرسانه الخمسمئة فقاومت طويل زمنٍ آخذة من نهر الوادي الكبير مَدَدًا من كل نوع متصلةً بجسر من السفن بمدينة تريانة الصغيرة التي كان مسلمو الجرف يعنون بتموينها، وكان يمكن أَشْبِيليَّةَ أن تدفع عادية فرديناند الثالث ببسالة لو لم يجهز في بسقاية ومرافئ جليقيَّةَ

أسطولًا صغيرًا فيستوليَ به علىٰ مصب نهر الوادي الكبير، ولو لم يجهزْ سفنًا ثقيلة فيصل بها، وهي مقلعة، علىٰ جسر السفن ذلك فتكسره من وسطه، فرضيَ أهل أشْبِيليَّة الذين أنشبت المجاعة أظفارها فيهم بأن يسلموها، فنالوا من الشروط الملائمة مثل ما ناله عرب بَلَنْسيَةَ مع مدةٍ أطولَ مما ناله هؤلاء لتحويل أموالهم إلىٰ نقود (١٢٤٨).

أدَّىٰ سقوط أشْبِيليَّة إلىٰ خضوع جميع البلاد الواقعة علىٰ شاطئ نهر الوادي الكبير الأيمن، وبينما كان سادة الأنتيجو البرتغاليون يوغلون في الجرف فيستولون علىٰ لولة وأيامونتة (١٢٤٩) كان القشتاليون يجوبون ظافرين من تلك الناحية ساحل البحر الواقع بين الوادي الكبير ووادي أنَه حيث لا يزال المسلمون يملكون بعض المدن المحصنة الزاهرة.

ولم يبدُ يوم هلاك عرب الأندلس بعيدًا. وأخره محمدٌ الأحمر ذو المواهب والفضائل التي كانت تُذكِّر العرب بالحاجب المنصور المشهور، فعَرف بثباته العجيب كيف يقيم دولةً قوية قادرة علىٰ مقاومة النصارىٰ بدفاعٍ هائلٍ، فاستطاع أن ينزع من الولاة الذين أجاد اختيارهم حب الانفراد الذي كان كثير الشؤم علىٰ المسلمين، ثم عَلَّم رعاياه ضرورة الاتحاد فاستمالهم إلىٰ سياسته بحسن إدارته، واتخذ غرناطة عاصمةً له فغدَت مركزًا جديدًا للمسلمين المشتتين، وما كان من رَخاء ذلك البلد أعان ذلك الأميرَ الممتاز علىٰ تنفيذ خِططه بما يقضي بالعجب، وما كان من رَشاد حكومته أدىٰ إلىٰ اجتذاب ذلك البلد للراغبين عن سلطان الإسبان، ووَجد مهاجرو قرطبة وأَشبِيليَّةَ لدىٰ ذلك الأمير قِرًىٰ جميلًا، وزاد عدد هؤلاء المهاجرين عند ما أمر الملك جاك بطرد جميع السكان المسلمين من سهول بَلَنْسيَةَ (١٢٤٩).

وليس من العسير أن نتصوَّرَ مدىٰ القوىٰ العظيمة التي اتفقت لمملكة غرناطة بالألوف من أولئك المهاجرين ذوي النشاط والبراعة، وإلىٰ هذه المملكة أتوْا بعناصر الثرَاء التي كانت منتشرة في أرجاء الأندلس، فبلغ الإسلام من النهوض ما سطع معه نجمه بما لم ينتظره الإسبان المدهوشون، فعاشت تلك الدولة أكثر من قرنين بين النصارىٰ (١٢٣٨-١٤٩٢).

وظلت ظرافة أهل غرناطة مشهورة، وأقيمت في غرناطة مباريات للألعاب وسباقات للخيل ومبارزات للثيران والعدوِ وأخذ الخاتم، وكان الملك يدعو الشعب، في الغالب، إلىٰ الأعياد الرسمية وإلىٰ الولائم الكبيرة، ولم يكن هذا الترف نتيجة جوْرٍ، بل نشأ عن الرَّخاء الذي عَمَّ جميع الطبقات بفضل ما أسبغته الإدارة الرشيدة من العناية علىٰ الزراعة والصناعة، فصار سهل البقعة الخصيب العجيب الذي يحيط بغرناطة يعطي من الغلات ثلاثة أضعاف ما يؤديه في الوقت الحاضر فيطعم أهلًا كثيرين، وبلغت صناعة النسائج الحريرية وغيرها في غرناطة درجةً رفيعةً من الكمال، وأراد ملوك غرناطة، كما أراد لويس الرابع عشر وكولبرُ من بعدهم، أن يُثيروا روح الغيرة وحب الاختراع فأحدثوا جوائز وجعلوا بعض استثناءاتٍ من الضرائب، وعنيت غرناطة بالفنون الجميلة كما عنيت بها قرطبة فيما مضىٰ، فأسفر فن البناء عن رفع قبابٍ وأعمدة بذوق منقطع النظير، فما كان اسم الحمراء واسم جنة العريف ليثيرا في النفس غير أروع معانىٰ الترفِ والهيفِ.

وكانت الحمراء قصرًا وحصنًا لملوك العرب في آن واحد، وكانت جنة العريف قصرًا فخمًا للنزهة قائمًا بالقرب من الحمراء علىٰ رَبوَة صالحًا لاصطياف الملك وحاشيته.

ونشطت دراسة الفلك والطب والكيمياء والرياضيات بين العلوم، وإلىٰ ذلك الزمن يعود اختراع بارود المدفع، وكانت تعلم في الجامعات، التي وضع لها برنامجٌ واحد، علومُ النحو والجغرافية والمنطق مع إضافة علم الكلام المبهم إليها لسوء الحظ، وكان للقصائد والروايات، التي يتألف منها أهم قسم من آداب عرب الأندلس، أكبرُ نصيب من البحث فلا يزال يوجد بيننا معجبين بها متحمسين لها مع تكلفها. ولا ينبغي لنا أن نلتزم جانب الصمت تجاه ما أوجبه ملوك غرناطة من إصلاح في النظم السياسية، فقد ألف هؤلاء الملوك في كل مدينة ضربا من الحرس الوطني، وتسلح جميع أبناء الوطن، وعلىٰ ما كان يجب من استعمال هذا السلاح عند هجوم الأجنبي كان يُوجهه أولئك الأبناء، في غير مرةٍ، إلىٰ الأمراء الذين يهملون واجباتهم غير مكترثين للرأي العام، ورئي أن يتم الدفاع عن الثغور بأحسن مما في الماضي فأقطع الجنودُ من الأراضي ما يكفي لمعايشهم ومعايش أسَرهم حفظا للثغور من غارات الأعداء.

ووجَد ملوك غرناطة، كأمراء إفريقية، أنه يجب عليهم أن يتداركوا أقْوَات الطبقات الفقيرة بأثمان منخفضة، فكانوا حراصًا علىٰ جعل السوق مملوءة بالميرة علىٰ الدوام، وأنشأ أولئك الملوك في عاصمتهم التي كانت استدارتها تزيد علىٰ ثلاثة فراسخَ شرطةً مثالية، فكان لكل حي من أحيائها وزير أو وكيل، وكان يجوب أقل شوارعها عمرانًا عسسٌ كثيرونٌ، ووضع من النظم ما يُعَيِّن ساعة إغلاق الأماكن العامة، وألف صناع كل حرفة نقابة، وشملت حماية أولياء الأمور جميع الأصول، ومن الأمراء من حظروا تعاطي الخمر وفق أحكام القرآن الحازمة، مع فرض عقوبات شديدة علىٰ المفرطين فقط، ومن الأمراء من أرادوا، من غير أذىٰ، أن يميزوا اليهودَ من المسلمين بعلامة خاصة، ومن الأمراء من عَرفوا كيف يمنعون الربا خلافًا لما في البلاد الأخرىٰ، وأبدعَ ملوكُ غَرناطة صِيَغًا صريحة محكَمةً للصكوك منعًا لكلِّ جدال كما حملوا العلماء علىٰ وضع عقود خاصة لجميع المِهَن الميكانيكية والصناعية، وكان الأئمة والفقهاء طلقاء في دائرة قضائهم فالزموا باتباع نُظُمٍ دُوِّنَت بِدِراية، وسُنَّت مراسيم أملاها الحذَر حول دخول المؤمنين في المساجدً فدَلَّت علىٰ روح دينية عميقة وعقل رفيع وخلُق عال، فعزل النساء عن الرجال في المساجد وأمرْنَ بالخروج منها قبلهم، وجُعلت من أعياد رمضان وسيلةٌ لصالح الأعمال وَجديِّ الشعائر بدلًا من الشعوذات، وكانت تُوزَّع الصدقات علىٰ الفقراء واليتامىٰ أو تُخصَّص لشَيْد المباني العامة، وحُظِر تأليف المواكب التي تُنظَّم للاستسقاء كما حظرت اجتماعات الناس ليلًا[1]، ومنعت النائحات المحترفات من مزاولة حرفتهن في المآتم، وعاد لا يسمح بغير الدعاء فوق قبور الموْتىٰ الذين صاروا يدْفنون عاطلي من التمائم وأكاليل الزهور خلافًا للعادة القديمة.

وفي قوانين العقوبات استبدل السجن بالجلد أو النفي أو التشهير، وألغيَ الرجم وصار المحكوم عليهم بالقتل يكفنون ويدفنون كبقية المسلمين.

---

(١) أجمع الفقهاء علىٰ أن الخروج علىٰ الاستسقاء والبروز عن المصر والدعاء إلىٰ الله تعالىٰ بنزول المطر سنة سنها الرسول (ص)، فيكون قول المؤلف محمولا علىٰ حظر مواكب الشعوذة والشغب التي تؤلف بحجة الاستسقاء، لا علىٰ الخروج إلىٰ الاستسقاء (المترجم).

ومن ثم ترىٰ المقام المجيد الذي تستحقه مملكة غرناطة في التاريخ، ومن دواعي الأسف أن كان نظام وراثة العرش غير قائم علىٰ أسسٍ متينة، فكنت ترىٰ بجانب الأمراء الذين هم أهلٌ لإعجاب الحفدَة أمراء مستبدين ظالمين عاجزين سعَوْا في خراب بيوت المسلمين، وإننا نذكر لك سلسلة ملوك غرناطة علىٰ عجلٍ فنقول: إن محمدًا الأحمر الأول (١٢٣٨-١٢٧٣) ومحمدًا الثاني (١٢٧٣-١٣٠٢) استطاعا أن يَقضِيَا علىٰ كل فوضىٰ، وإن محمدًا الثالث كان أقلَّ حظًا منهما، فأثار أخوه أبو الجيوش نصرٌ عليه أهل غرناطة فنُصب في مكانه، فلم يَمْض علىٰ عهده أربعُ سنوات (١٣٠٩-١٣١٣) حتىٰ أكره علىٰ التنزل عن التاج لابن أخيه إسماعيلَ بن فرج الذي هو سليل محمد الأحمر من ناحية أمِّه، وإن إسماعيل هذا دام عهده اثنتي عشرة سنة (١٣١٣-١٣٢٥) فخَلفَه بالتتابع ولداه: محمدٌ الرابع (١٣٢٥-١٣٣٣) ويوسفُ الأول (١٣٣٣-١٣٥٤)، وإن يوسف هذا كان أهَمَّ عامل في الإصلاحات التي ذكرناها آنفًا، وإنه، لا ريب، أجدر ملوك غرناطة بالذكر علىٰ الرغم من الهزيمة التي أصابه النصارىٰ بها في معركة ريوصَلَدُو، وإن ابنه محمدًا الخامسَ خلفَهَ فخلَعَه أخوه إسماعيل وأحدُ أقربائه الأباعد أبو سعيد، وإنه عاد إلىٰ العرش سنة ١٣٦٣ فبقِيَ قابضًا علىٰ زمام الملك حتىٰ سنة ١٣٩٠، وإنه جاء بعده يوسف الثاني (١٣٩٠-١٣٩٦) فمحمدٌ السادس الذي حكم علىٰ أخيه الأكبر يوسف بالسجن المؤبد، فأمر بقتله، حالًا، عندما شعَر بدنُوِّ أجله، وإن يوسف هذا كان يلعب الشطرنج حينما أتاه الجلاد للتنفيذ فاستمهله حتىٰ يتم لعبه فرضي الجلاد بذلك، وإنه لكذلك إذ أخبره أمراء من البلاط بوفاة محمد السادس وبنصبه ملكًا، وإن عهد يوسف الثالث هذا (١٤٠٩) دام حتىٰ سنة ١٤٢٣، وإن الفتن الداخلية بدأت، إذ ذاك، فأوْدت بغرناطة في أواخر القرن الخامس عشر، وإنه كان لأسر بنىٰ الزغري وبني سراج وبني بنغاس القوية اشتراكٌ في تلك الفتن، إلخ.

وكره محمدًا السابعَ الملقب بالمُعْسر رعاياه بعد عهد دام خمس سنين (١٤٢٣-١٤٢٨)، فنودي بأحد أقارب محمدٍ الصغير ملكًا بدلًا منه فلم يعتم أهل غرناطة أن خلعوا هذا الملك عائدين إلىٰ مولاهم السابق، ثم حلت سنة ١٤٣٢، فنادىٰ حزبٌ متعصب لقشتالة بيوسف الأحمر الرابع ملكًا، فاسترد محمد الصغير

عرشه في هذه السنة، ثم حلت سنة ١٤٤٥ فاتحد محمد التاسع الملقب بالسمين وإسماعيل الثالث فخلعا محمدً الصغير السيء الحظ فتنازعا المُلْكَ بعده، ثم انتصر عليهما محمدٌ الصغير في سنة ١٤٥٤، ثم غلبه إسماعيل الثالث فخلَفه ابنُه مولاي حسنٌ بعد موته (١٤٦٥).

وحدث منذ قرن مثالٌ مشؤوم، فما كان أبو سعيد ومحمدٌ الخامسِ ليَخشيا طلب العَوْن من ملك قشتالة بطرسَ الظالم، فقَتَل ملك قشتالة هذا في ميدان طبلابة الملتجئ إليه أبا سعيد ليستوليَ علىٰ نفائسه، ثم آزر محمدًا الخامس، فلما حَلَّت سنة ١٤٣٢ انضم يوسف الأحمر الرابع إلىٰ القشتاليين فغزَوْا أراضي غرناطة، فنال من النصارىٰ تاجًا مُهِينًا.

ولنعُدْ إلىٰ قصتنا فنذكر أن القشتاليين وحدَهم أصبحوا أخطر من يخشاهم ملوك غرناطة بعد سقوط مُرْسِيَةَ وأَشْبِيلِيَّة، وملوكُ غرناطة كانوا لا يألون جُهدًا في المحافظة علىٰ السلام بينهم وبين جيرانهم فكانوا يستميلون وزراء ملك قشتالة وبطانته بضروب العطايا وبما يبدونه من أساليب الفروسية، وكان أمراء قشتالة يستقبلون في بلاط غرناطة بكل ترحاب، فإذا ما اختلفوا في أمر تدخَّل ملك غرناطة بينهم حكمًا، فإذا لم يَسْطِع أن يوفق بين الخصمين دعاهما إلىٰ إظهار قدرهما في مبارزة.

بيدَ أن اختلاف العرق والدين كان يجعل كلَّ توفيق بين الفريقين أمرًا غير مجدٍ، فظل الشعبان متعاديين، فإذا كان القشتاليون لم يحاولوا في القرنين اللذين دام فيهما مُلك غرناطة تنفيذَ خِطط فرديناندَ الثالث فلأنهم كانوا فريسة الفتن أيضًا، وكان الأذفونشُ العاشر بن فرديناند الثالث قد ساعد، أكثر من أي إنسان، علىٰ إذاعة علوم العرب في أوربة فاشتهر بنشر الأزياج الأذفونشية بعد أن قضىٰ النصف الأول من عُمُره في المطالبة بمنصب إمبراطور ألمانية وقضىٰ النصف الثاني في مقاتلة ابنه الثاني سانكو الباسل الذي نادت به البلاد ملكًا لقشتالة في حياة أبيه، ثم طالب أبناء لاسردا، الوارثون الشرعيون للعرش والذين كانوا سان لويس من ناحية أمِّهم بلانشَ، بحقوقهم مستمدين العَوْن من فرنسة وأرغونة، ولم تَكَد حروب وِرَاثة العرش هذه تنتهىٰ حتىٰ أدىٰ جبروت بطرس الظالم (١٣٥٤-١٣٧٠)

إلىٰ ظهور حزب ترانستامار فأضحت إسبانية طعمة لعصابات دوغيكلان والأمير نوار، ثم حلَّ القرن الخامس عشر فأوجب طولُ مدة قَصَر جان الثاني وضعفُ هنري الرابع القاصر علىٰ قشتالة ألا تمُد عينيها إلىٰ الخارج.

ولو عَرَف أهل غرناطة أن يستفيدوا من فتن قشتالة لاستطاعوا أن يرفعوا، مرةً ثانيةً، راية النبي في إسبانية، ولكن روح الفتح كانت قد زالت منهم، فاقتصرت الحرب في تلك الفترة الطويلة علىٰ مهاجمة بعض الأماكن الواقعة في أقصىٰ أطراف الجبال الحافظة لغرناطة، وإن شئت فقل كانت مقتصرة علىٰ الهجوم من جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف من جهةٍ وشقةَ وبيَّاسةَ ووادي آشَ والمَرِيةِ من الجهة الأخرىٰ.

واتفق العرب وبنو مرين بإفريقِيَة مع ذلك، فبذلوا آخرَ جهد في أواخر القرن الثالث عشر، فَسلم محمدٌ الثاني المدينتين طريفَ والجزيرة الخضراء إلىٰ الأمير أبي يوسف فأغار علىٰ بلاد الجرف.

وما كان سانكو الباسلُ ليقنَطَ مع تحطيم المسلمين لأسطول قشتالة بالقرب من الجزيرة الخضراء، فغشِي داخل البلاد ظافرًا (١٢٨٠)، ثم نال التاجَ الأذفونشُ العاشر بعد زمن (١٢٨٣)، فطلب العَوْن من الأمير المريني ضدَّ ابنه العاصي، فلو أجابه ملك غرناطة إلىٰ طلبه، كما صنع أبو يوسف، لكان العرب في أحسن وضع للإيغال في قلب قشتالة.

وفضل محمدٌ الثاني أن يكونَ حليفَ سانكو طمعًا في صداقة هذا الشجاع، ودارت الدائرة علىٰ ملك مراكش فحرق أسطوله، فدخل القشتاليون عَنوةً طريف: إحدىٰ المدينتين اللتين كان يتصرف فيهما، واستولىٰ محمدٌ علىٰ المدينة الأخرىٰ: الجزيرةِ الخضراء (١٢٩٦).

وآيةُ النصف الأول من القرن الرابع عشر وقوعُ غزوات جزئيةٍ فيه، واستولىٰ القشتاليون علىٰ جبل طارق سنة ١٣٠٩ وحاصروا الجزيرة الخضراء، وما تم إقصاؤهم إلا بِتَنَزُّل العرب لهم عن عدة مدن أقل أهمية من تلك، وأراد إسماعيل بن فرج أن يستفيد من الخلافات التي نجمت بين الأمراء المتنافسين علىٰ وصاية العرش في أثناء قَصَر الأذفونش الحادي عشر، فكشف عدْوان العرب الغِشاوةَ عن

أبصار اثنين من هؤلاء الأمراء فأقلعا عن تنافسهما فشهرا الحرب علىٰ غرناطة نفسها، فأعمت حميتها الطائشة روح الحذر فيهما فأحاطت بهما كتيبة مسلمة كبيرة في الجبال، فهزمَت كتائبهما شرَّ هزيمة مع ما أبدته من البسالة، فماتا نَصبًا في ميدان القتال علىٰ حسب رواية الإسبان، وقتلا في المعركة محاربين كالأسود علىٰ حسب رواية العرب، ولا يزال المكان الذي كان شاهدًا علىٰ هذه الكارثة يُعرف بجبل الأولاد (١٣١٩).

وأحيا هذا النصر شجاعة أهل غَرْناطة، فأخذوا يأمُلون استرداد المدن التي أضاعوها فدخلوا بَيَّاسَةَ ومرطوسَ وَأُبَّدَةَ وجبل طارقٍ، ومن المحتمل أن كان محمدٌ الخامس يوغِلُ في البلاد أكثر من ذلك لو مَدَّ الإفريقيون إليه يد المعونة، والإفريقيون هؤلاء نَزَعُوا منه الجزيرة الخضراء ومربلةَ وَرُنْدَةَ بدلًا من أن يساعدوه.

ولم يقع انضواء المسلمين إلىٰ لواءٍ واحدٍ إلا في عهد يوسف الثاني حين ارتبط بعضهم في بعضٍ بميثاق وثيق، فنزَل الأمير المريني أبو الحسن إلىٰ إسبانية علىٰ رأس جيش كبير، ودحر أسطوله من المضِيق سفن البرتغاليين والقشتاليين فخف يوسف الثاني إلىٰ لقائه فهجما علىٰ طريف، وكان لديهما مدفعية، وطال أمر الحصار، وحاول القشتاليون والبرتغاليون أن ينقذوا ذلك المكان فدارت رَحَىٰ معركة كبيرة علىٰ شواطئ ريوصَلَدُو فكانت يومًا ثانيًا لطولوزة، فغُلب أبو الحسن تاركًا لأهل غرناطة جميع ما يملك في إسبانية راجعًا إلىٰ فاس ليخفي غلبه وخجله (١٣٤٠).

ولم تلبث سفن جنوة وأرغونة وقشتالة والبرتغال أن حطَّمت أسطول أبي الحسن بعد أن اتفقت علىٰ جعل سيادة البحر للنصارىٰ، فكان لها بالاستيلاء علىٰ الجزيرة الخضراء مرفأ صالح لمراقبة جميع الشاطئ الإفريقي، فلم يبق لعرب الأندلس سوىٰ الاعتماد علىٰ قُواهم الخاصة.

وعربُ الأندلس أولئك إذ حُشروا في أسفل شبه جزيرة الأندلس صاروا لا يفكرون في غير جعل النصارىٰ يُغفلونهم وينسَوْنهم، والقشتاليون أولئك إذ عَمَّهم الشقاق صاروا لا يفكرون في الاستيلاء علىٰ جبل طارق والمَرِيَّة

ليسيطروا علىٰ المَضيِق سيطرةً تامة، غير أن افتتاح البرتغاليين لعدَّة أماكن محصنة في إفريقِيَة أدَّىٰ إلىٰ مساعدة القشتاليين من حيث النتيجة لمنعه كلَّ اتصال بين القارتين.

وما كانت الحرب لتِشتدَّ إلا في سنة ١٤٣٢، فقد تنازع يوسف الأحمر الرابع ومحمدٌ السابع التاجَ، فطلب أحد هذين المتنافسين العَوْن من القشتاليين فنصره هؤلاء في مروج غرناطة.

وإذا ما أريد سرد جميع الحوادث الخاصة المرتبطة في اصطراع ذينك الشعبين وجب ذكر سلسلة المنازعات المتصلة التي كانت تقع علىٰ حدود الدولتين، فما انفكَّ أشراف قشتالة ومشايخ العرب، الذين كانوا يبحثون عن الشهرة بما يصنعونه من المفاخر، يتبادلون الغارات، ولكن هذه المنازعات لم تؤد إلىٰ حرب عامة، بل كانت مبارزات ومسايفاتٍ[(١)] تُعد النفوس لقتال شامل لا مفر منه.

جلس أبو الحسن علىٰ العرش (١٤٦٥) فما كان أهل غرناطة من القوة بحيث يقاومون القشتاليين، ولم يكن هذا الملك الجديد محبوبًا لدىٰ أهل غرناطة مع بسالته وفضائله ووطنيته وإيمانه الديني، فكان أهل غرناطة يؤاخذونه علىٰ صلفه وقسوته وعلىٰ ما كان لجارية نصرانية علىٰ نفسه من السلطان، وشاع أنه أراد اختيار ابنه من هذه الجارية لولاية عهده معرضًا عن ابنه أبىٰ عبد الله من زوجته السلطانةِ عائشة فأدىٰ هذا إلىٰ ظهور حزبين مختلفين عاملين علىٰ إضعاف المملكة (١٤٧٦).

وحدث عكسُ ذلك في قشتالة، فقد التفَّ أكابر القوم حول إيزابيلّا (١٤٧٤) بعد موت هنري الرابع القاصر الذي أحاطوه بضروب الذلِّ والهَوان، فهذه الأميرة كانت زوجة لملك نَبَرَّةَ فرديناند ووارثة شرعية لملك أرغونة، فلما كانت سنة ١٤٧٩ أمكن الزوجين أن يتصرفا في موارد هذه الممالك الثلاث، فعلىٰ أيديهما أخذت تتمُّ عظمة إسبانية ووَحدتها بالقضاء علىٰ سلطان العرب في الأندلس إلىٰ الأبد.

---

(١) سايفوا: تضاربوا بالسيوف.

جاء سفراء فرديناند وإيزابيلّا أبا الحسن ليطلبوا منه الجزية التي عاهد أبوه علىٰ إعطائها فرفض ما طلبوه قائلا بكبرياء: «أَنْبِئُوا سادتكم بأن غرناطة لا تجمع مالًا بل تصنع لقتال أعدائها نصالًا *» مثيرًا بذلك غَضَبهما، ولم يَخْشَ أبو الحسن أن يبادر إلىٰ الحرب، فهجم علىٰ مدينة الزهراء فدخلها عَنَوةً (١٤٨٠)، فدارت في غرناطة نشوة الحماسة عندما علمت ذلك.

غير أنه لا بدَّ من وقوع أنقاض الزهراء علىٰ رؤوس الغالبين كما جاء في نُبُوءةٍ مشؤومةٍ، فاستولىٰ القشتاليون علىٰ مدينة الحامة المهمة التي كانت من أركان غرناطة، فلم يُعَتِّموا أن ظهروا تحت أسوار هذه العاصمة.

وكان أنصار أبىٰ عبد الله قد خَلَعوا أبا الحسن فاشتعلت الفتنة في غرناطة، وحاول أبو الحسن أن يُثْبِتَ أهليته للتاج بانتصاره علىٰ القشتاليين أمام لوشة فذهب ما سعىٰ إليه سُدَىٰ، فاضطُرَّ إلىٰ الانزواء خارج العاصمة فَتخلي عنه أكثر عُمَّاله.

وزاد القشتاليون سعير الفِتنة بين المسلمين ببراعةٍ، وساروا إلىٰ الحرب بفتور ذات حين، ومن طوالع الوقائع أن أَسَرَ القشتاليون النَّذْل أبا عبد الله فأطلقوه معتقدين أن لهم نفعًا في طعمه الأثيم أكثر مما ينالونه بنصر عظيم (١٤٨٤).

وكان أبو الحسن قد أعيد إلىٰ العرش ذات يوم، فأكره علىٰ التنزل عنه لعمه الزَّغَل، فاستغاث أبو عبد الله، الذي أضحىٰ محلَّ ازدراء بنىٰ وطنه، بالملك فردينانَدَ، فلم يَنْشَب فرديناند هذا أن غزا مملكة غرناطة فاستولىٰ علىٰ مدن البقعة، ويُهزم، أمام لورقة، أنصارُ الزغل الذين كانوا محتفظين بالحمراء حتىٰ ذلك الحين، ويتنزل الزَّغَلُ عن غرناطة لمنافسة أبىٰ عبد الله (١٤٨٦)، ويصل فرديناند إلىٰ الغاية التي قصدها من حملته بذلك، ولا يرىٰ فردينانَدُ أن يرتدَّ بعد ذلك، ويتفق فرديناند وأبو عبد الله علىٰ أن يُطارِد فردينانَدُ الزغلَ في جميع الأماكن المحصنَة التي ظلَّ قابضًا علىٰ زمامها، ويتذرع فردينانَدُ بهذه الذريعة فيحاصر مالَقَة فيدخلُها فيوجه كتائبه إلىٰ المَرِيةَّ وبسطةَ والبيرةِ.

وحاول الزغلُ دوام القتال، ثم اعتقد أن الله القاهر حكم بزوال مملكة غرناطة فعرض أن يسلم جميع ما لديه إلىٰ الإسبان فلم يرفض فرديناند ذلك لما

فيه من تنفيذ مقاصده بغير عائق، فبدأ سخيًّا فسلم الملك المسلم إليه المَرِيَّةَ ووادي آش وغيرهما من المدن الكثيرة آخذًا إقطاعات واسعة في كل مكان بدلًا منها، ويصبح سكان تلك البلاد من رعايا تاج قشتالة ويُوعَدون بالحرية وحفظ الأموال وممارسة شعائر الدين علىٰ أن يدفعوا ضريبةً كالتي كانوا يدفعونها إلىٰ ملكهم (١٤٩٠).

كان لذلك الاتفاق كبيرُ أثرٍ في مصير مملكة غرناطة، وأبصر أكثر العرب الذين كانوا يخشون قسوة نظم الحرب فعقدوا اليمين علىٰ الدفاع إلىٰ آخر حدّ، في سلوك فرديناند بشرىٰ السلم الدائم، ففضلوا الحياة الهادئة علىٰ ضوضاء المعارك فخضعوا للنصارىٰ، ومن المسلمين من كانوا قويي الإيمان فنددوا بالخيانة فتسلحوا فأكرهوا الزغل علىٰ الذهاب إلىٰ إفريقِيَة فحصنوا غرناطة عازمين علىٰ الموت تحت أنقاضها، ويظهر فردينانْدُ في ٩ مايو سنة ١٤٩١ أمام أسوار غرناطة علىٰ رأس ثمانين ألفَ مقاتل، ويفوض أبو عبد الله تنظيم أمور الدفاع إلىٰ قوَّاد ماهرين، ويقاسي كل واحد من السكان، كلٌّ واحدٍ من الشيوخ والأولاد والنساء، نصيبَه من الهول ونصب الحصار، ويتنافس الجميع في الغيرة والحَمِيَّة، ولكنه كان لدىٰ فردينانْدَ وإيزابيلّا العزمُ والقوةُ.

وتقوم غرناطة علىٰ هضبتين غير بعيدتين من سِيَّرا نفاده (جبالِ الثلج) وجبال البشرات ويخترقها نهر حَدَرُّو ونهر شنيل ويحيطان بها، وتحميها حصون منيعة تعلوها ٤٣٠ برجًا، وتشتمل علىٰ قلعة الحمراء وقلعة البيازين اللتين تستوعب كلٌّ واحدة منهما أربعين ألف رجل، فتدفعان أيَّ عُدوان علىٰ غرناطة، ويمكن اتصال غرناطة بالخارج من جبال البشرات فيصل إليها ما تحتاج إليه من المَدَد والمِيرَة.

وأرادت إيزابيلّا أن تُظْهر عزمها الثابت علىٰ فتح غرناطة قبل أن ترجِع فأمرت بإنشاء مدينة لا تزال قائمةً باسم سَنتْافَة (الإيمان المقدس) فحفرت خنادقَ ومتاريسَ قويةً حول معسكر الإسبان درءًا لكل مباغتة، ثم عُنيَ فردينانْدُ بقطع مواصلات غرناطة ومنع كل خروج منها، وتم حصار غرناطة من كلِّ جهة بما قام به الإسبان من الأعمال العظيمة، فجازف المسلمون بإبداء آخر حَظٍ لهم في السلامة فخاضوا غِمار معركة شاملة تحت أسوار غرناطة فخرج النصارىٰ ظافرين

منها، فأيقن أبو عبد الله زوالَ كل أمل في النصر فأخذ يفاوض ملك أرغونة علىٰ الرغم من رأي شيوخ كثيرين وطّنوا أنفسهم علىٰ نَيْل الشهادة في سبيل الوطن، فطلب فردينانْدُ أن تُسلَّم غرناطة إليه في شهرين بعد تاريخ إمضاء المعاهدة ما لم يأت المدَد إلىٰ غرناطة برًّا أو بحرًا، فاستغاث العربُ لآخر مرة بأمراء إفريقِيَة وسلاطين الآستانة، فلم يَرَ أي واحد من هؤلاء أو أولئك أن يبْذل نفسًا أو نفيسًا في إنقاذ آخرِ معْقِل للإسلام في الغرب، والعثمانيون وحدَهم كانوا قد جهزوا أسطولًا في سنة ١٤٨٦، فاقتصر هذا الأسطول علىٰ تخريب بسواحل إسبانية.

إذَن، لا بد من سقوط غرناطة، ويخاف أبو عبد الله الثورة، فيسلِّم غرناطة قبل حلول الأجل ويقطع الإقطاعات في جبال البشرات، ويرغب عن الإقامة بأرض الأندلس لشهادتها علىٰ خزيه، ويغادرها ليقضي بقية عمرة في صحارىٰ إفريقية، وينزوىٰ أهل غرناطة في منازلهم تاركين النصارىٰ يملكون مدينتهم التي ظهر لهم تخلِّي أولياء الأمور عنها، وترفع فوق الحمراء والبيازين أعلام قشتالة ومار يعقوب ويزين المسجد الكبير بزخارف المذهب الكاثوليكي، ويحفز تعصب إكزِيمِنِيس الوحشي إلىٰ حرق مخطوطات العرب التي حفظت منذ قرون كثيرة بكل عناية، ويبدي المغلوبون عدم اكتراث لشروط التسليم التي تحفظ لهم حريتهم وأموالهم وسلاحهم ودينهم ومساجدهم وتقاليدهم وحقَّ تقاضيهم إلىٰ قضاة لفصل خصوماتهم وفق الشريعة الإسلامية، ويبدي المغلوبون عدم اكتراث لشروط التسليم التي لا تلزمهم بدفع ضرائب غير التي كانوا يدفعونها إلىٰ ملوكهم السابقين، لما رأوْا في سقوط غرناطة من حكمٍ بموتهم فالحق أن سقوط غرناطة هو آية زوال سلطان العرب في إسبانية بعد أن دام ٧٨٢ سنة (٧١٠-١٤٩٢).

ولم يقصد فرديناند، قط، أن ينفذ شروط التسليم بأمانة، بعد أن ملك غرناطة، وتملُّك غرناطة كان ضالته المنشودة، وما كان فرديناند ليبالي بمصير المسلمين إلا قليلًا، ولم يلبث فرديناند الماكر، الذي تعود أن يضحي بكل شيء في سبيل مآربه، أن أبصر أن مما يقلقُ حكومته وجود سكان أغنياء كثيرين مفطورين علىٰ حبِّ الاستقلال، فأراد إدغام العرب ببقية السكان علىٰ الرغم منهم، وذلك بحملهم علىٰ الكفر بدينهم وعاداتهم، ومما رآه أن الجهر بخططه

مما يحبطها، ففوض إلىٰ محاكم التفتيش أمر تنصير المسلمين بالتدريج، فبدِئ بإلقاء بذور الثقة والطمأنينة في نفوسهم، وذلك بإطراء الإخلاص القشتاليِّ، ويتظاهر الغالبون باحترام العهود، ولا يهاجمون غير اليهود القابضين علىٰ قسم كبير من ثروات البلاد مُكرِهين إياهم علىٰ الجلاء أو علىٰ الكفر بدين آبائهم، وينَكِّل باليهود ويفزع العرب، الذين يراد تنصيرهم من تعذيب اليهود وحرقهم بالنار، ويخشون أن يصيبهم مثل ما أصاب هؤلاء من قسوة المصير (١٤٩٢).

ويمضىٰ قليل زمن فيمنع المسلمون من الجهر بعباداتهم، فيوزع الذهب علىٰ من يكفرون منهم بالإسلام، وتحل سنة ١٤٩٩، فيرفع فرديناند النقاب عن وجهه فيأمر بإجلاء من يرفض التعميد من المسلمين، فلا يجدي ذلك نفعًا، فأهل المدن المسلمون، وإن خضعوا لهذا الحكم فصاروا يذهبون إلىٰ الكنائس ليعبدوا يسوع المسيح، كانوا يجدفون[1] إذا ما عادوا إلىٰ منازلهم طالبين العفوَ من النبيِّ عما فَرَطَ منهم.

وكان عربُ جبال البشرات ذوي بأسٍ فلم يمتثلوا ما أمروا به من عبادة يسوعَ المسيح فرفعوا راية العصيان، فسار فرديناند إليهم علىٰ رأس جيش لا قبل لهم به فخرب حقولهم فغلبهم فأمر بإجلائهم عن بلادهم مع مصادرة أموالهم.

وأغضِي عن مسلمي بَلَنْسِيَةَ الذين كانت صناعاتهم من أهم أسباب الرخاء في إسبانية، ودام هذا التسامح حتىٰ عهد شارلكن (١٥٢٤)، حين أكرههم أمراء البلاد الإقطاعيون علىٰ العِماد، ولم يستمع الملك إلىٰ شكاواهم، وأمر الملك بسوقهم إلىٰ محاكم التفتيش التي كانت تقر الظالمين علىٰ ظلمهم.

وحَلت سنة ١٥٢٥ فسُنَّ، وفق رغبة رئيس أساقفة أشْبِيليَّةَ القاضي التفتيشيِّ الكبير، مرسومٌ أكره عرب غرناطة به علىٰ العدول، في يوم واحدٍ، عن عاداتهم وأزيائهم ولغتهم، ومنح جميع النصارىٰ به حق مراقبتهم وأنشئت محكمة خاصة لتقبل وشاياتهم بهم.

وحلت سنة ١٥٦٢ فدفع المسلمون إلىٰ فيليب الثاني ٨٠٠٠٠٠ دينار ليُخففَ عنهم العذاب، وكانت الحكومة ومحاكم التفتيش إذا ما أغضت عن اضطهاد

---

(١) جدفوا: كفروا.

المسلمين لمثل ذلك السبب اشتعلت روح عدم التسامح في الشعب الإسباني إلىٰ أقصىٰ حدٍ فحمل هذا الشعب السيف بيد والصليب بيد أخرىٰ فتعقب، حتىٰ الجبال، العرب المنكودي الحظ الممتنعين عن الكفر بدينهم.

وحلت سنة ١٥٦٨، فرأىٰ رئيس أساقفة غرناطة أن يقترن اسمه بأقصىٰ درجات الظلم فنال من فيليب الثاني مرسومًا يحظر به علىٰ المسلمين أن يستحموا وأن يرقصوا علىٰ الطريقة المغربية وأن يتكلموا باللغة العربية وأن تخرج نساؤهم مبرقعاتٍ، ومعنىٰ هذا حمل العرب علىٰ العصيان، وهذا ما وقع، فقد تسلح العرب وحاولوا أخذ غرناطة علىٰ حين غرة، وأخذوا يتصلون بأهل إفريقية، فطاردهم مركيز مونديجار فلم يستطيعوا أن يستقروا بمكان مهمٍ فالتجأوا إلىٰ الجبال بقيادة محمد بن أمية الذي كان يزعم أنه من سلالة خلفاء قرطبة السابقين، فدام الصراع عدة سنوات فدب الشقاق في معسكر العصاة في آخر الأمر، فقتل محمد بن أمية، فخلفه مولاي عبد الله، فلم يكن أوفرَ حظًا منه فاستطاع الدون جوان النمسوي (١٥٧٠) أن ينتزع منه معظم جنوده بما قام به من مفاوضات بارعة، فخضع بعض هؤلاء الجنود للإسبان ونقل الباقون إلىٰ إفريقية، واضطر مولاي عبد الله إلىٰ معاهدة العدو الغالب، وفرق عرب جبال البشرات بين ولايات أشتورش (بلاد الصخرة) وجِلِّيقِيَّةَ وقشتالة، ووضعوا تحت رقابةٍ وثيقةٍ.

وحلت سنة ١٦٠٩، فأنزلت بالعرب آخر ضربة، فأمر فيليب الثالث بتكديس عرب بَلَنْسِيَةَ ومُرْسِيَةَ في سفن ونقلهم إلىٰ شواطئ إفريقِيَة مع احتجاج بعض ذوي الأَريحية من الأمراء الإقطاعيين، ومن العرب أناسٌ كثيرون جاوزوا جبال البرانس فأحسن هنري الرابع قبولهم، فعرض هذا الملك الكبير علىٰ بعضهم ملجأ وأراضي، وعرض علىٰ الآخرين وسائل الإبحار في مرافئ غويانة ولنغدوكة.

ويُقدر العارفون عدد من طرد من بلاد الأندلس منذ سقوط غرناطة حتىٰ سنة ١٦٠٩ بثلاثة ملايين عربيٍ، ومن هؤلاء العرب كانت تتألف صَفوة السكان في أمور الصناعة والزراعة، ومما أدَّىٰ إليه إخراجهم حدوث فراغ في إسبانية لم تقدر القرون علىٰ ملئه، فلم يسطع الإسبان قط، أن يعيدوا إلىٰ سهول بَلَنسِيةَ ومُرْسِيَةَ وغرناطة ما عرفته من الازدهار أيام سلطان العرب، فكان مرسوم سنة ١٦٠٩ شؤمًا علىٰ إسبانية كشؤم إلغاء مرسوم نانت علىٰ فرنسة بعد ثمانين سنة.

الباب السادس

وصف الحضارة العربية

الفصل الأول

مدرسة بغداد - تقدم العلوم الرياضية

كان العرب وحدَهم حاملين لواء الحضارة في القرون الوسطىٰ، فدحروا بَرْبَرِيَّة أوربة التي زلزلتها غارات قبائل الشمال، وسار العرب إلىٰ «منابع فلسفة اليونان الخالدة»، فلم يقفوا عند حد ما اكتسبوه من كنوز المعرفة، بل وسعوه وفتحوا أبوابًا جديدة لدرس الطبيعة.

كانت ظاهرة القرن الأول من الهجرة قيام العرب بالمغازي التي كادت الفتن الداخلية تفصم عراها وبالحملات البعيدة وما تَمَّ لهم من الانتصارات الباهرة، وحلت سنة ٧٥٠ وسقط بنو أمية، ولم يحدُث ما يبشِّر بحلول عصر الذكاء في دولة الخلفاء عقب صليل السلاح، وبذل خلفاء محمد جهودهم في الفتح ونشرِ نظامهم الديني أكثرَ مما في حقل الآداب والعلوم فاجترفوا الشام وفارس حتىٰ السند وبحر قَزْوين واكتسحوا شمال إفريقِيَة ومعظم إسبانية وهددوا بلاد الغول بالغارات لو لم يقفْ شارل مارتل طوفانهم المخربَ بكسره كتائب عبد الرحمن الغافقي في سهول اللوار، ولكن عهد بنىٰ العباس لم يكد يذُرُّ قرنه[1] حتىٰ صرت تبصر تبديدًا لما يلام عليه المسلمون من الجهل والغلظة بفضل ما حدث من التنافس النبيل ومن حماية وليّ الأمر وجعله من نفسه قدوة حسنة فاطلع الناس علىٰ أفكار جديدة فدُونت مؤلفات لا تُحصىٰ في كل موضوع، وذلك باللغة العربية التي هي لغة العلم في الشرق وفي جميع البلدان الإسلامية.

---

(١) ذر القرن: طلع أدنىٰ شيء منه.

ولا تزال هذه المؤلفات موجودة تقريبًا، وتُعدُّ في مجموعها من أوسع ما عُرف من دوائر الأدب.

وكان أبو جعفر المنصورُ أولَ من حثوا علىٰ دراسة العلوم الصحيحة، وأثبتت أخبار قدماء العرب الناقصة المبهمة اطلاعهم علىٰ معارف قليلةٍ من علم الفلك العملي فقد استوقف منظر السماء نظرهم كما استوقف نظر جميع الأمم التي يحفزها اعتدال الإقليم وصفاء الجوِّ إلىٰ رصد الكواكب من غير أن تعين سنن حركات الأفلاك، ولم يعد ما اخترعوه أو جمعوه بفضل صلاتهم بالأمم المجاورة لهم حد أسماء السيارات وأسماء ما عبدوه من النجوم وتقدير منازل القمر وبعض المعتقدات الخاصة بالتنجيم، وقال العرب بالسنة القمرية، ولم يحاول العرب، علىٰ ما يظهر، تعيين الحوادث بتواريخ أو بأدوار مصطلح عليها، ومن المتعذر أن نجد تسلسلًا منتظمًا بين الحوادث التي تتألف منها تقاويم جزيرة العرب حتىٰ الزمن الذي حطم فيه ذلك الانقلاب الرائع عباداتِ الأعراب وجَمَعهم تحت شريعة القرآن وأنمىٰ فيهم مناحيَ جديدةً.

قال دُو هُومْبُلْدُ في كتابه عن الكَوْن: «كان العرب مستعدين، بما يقضي بالعجب، ليمثلوا دور الوسيط ويؤثروا في الأمم القاطنة فيما بين نهر الفرات ونهر الوادي الكبير وفي القسم الجنوبي من إفريقِيَة الوسطىٰ، والعرب كانوا ذوي نشاط منقطع النظير، وهذا النشاط هو آية دورٍ ممتاز في تاريخ الدنيا، والعربُ علىٰ عكس بنىٰ إسرائيل ذوىٰ التعصب وعدم التسامح، كانوا راغبين في مصاهرة الأمم المغلوبة من غير جحود بخلقهم القومي وذكريات وطنهم الأصلي مع تقلبهم في مختلف الأقطار، وعلىٰ ما تراه من بدء عروق جرمانية بالتمدن بعد هجرتها بزمن طويل، تجد العرب، حين خرجوا من جزيرتهم، غير حاملين معهم دينهم فقط، بل تجدهم حاملين، أيضًا، لسانًا كاملًا وأزاهيرَ شعرٍ رائع لم يَفُتْ أمره شعراءَ البروفنس الطوَّافين وشعراء ألمانية الجوّالين.

«وإذا ما بحث في الوجه الذي أيقظ استيلاء العرب علىٰ سورية وفلسطين ومصر في العربِ حبَّهم للعلم وشوقَهم إلىٰ تعجيل رُقيه بأنفسهم وجب ذكر استعدادهم الفطري لمَلاذ الروح وصور البر والصلات التجارية القديمة التي كانت

تربط شواطئ جزيرة العرب بالأقطار المجاورة الوافرة الحضارة، ويجب عند بيان انسجام العالم العجيب أن يشار، لا ريب، إلىٰ مذهب النساطرة النصراني الذي أعان علىٰ نشر المعارف المكتسبة في الأقاصىٰ فكانت للعرب تبصرةٌ فيه قبل اطلاعهم علىٰ علوم الإسكندرية وَسُوفِسَطائِيَّتِها، والذي أوغل في بقاع آسية الشرقية تحت حماية جيش الإسلام، ولا مراء في أن العرب اطلعوا علىٰ الأدب اليوناني من طريق السريان الذين هم ساميون مثلهم وأن السريان هؤلاء أخذوا ذلك الأدب من النساطرة الذين طوردوا لما أسْند إليهم من جرم الإلحاد، ومما حدث أن محمدًا وأبا بكر كانا، في مكة، صديقين لأطباء تخرجوا في المدرسة الشهيرة التي أنشأها النساطرة في الرُّها (أورْفَة) من أعمال الجزيرة فكانت تعتمد علىٰ كتب اليونان».

ويظهر أن دراسة الموادِّ الطبية المستخرجة من المعادن والنباتات نشأت في مدرسة الرُّها التي اتخذت، علىٰ ما يبدو، نموذجا لمدارس البنْدِكِيين في ساليرمَ وجبل كاسينو، ويسيرُ زينون الإيزوريّ وراء تعصبه الأعمىٰ فيخرب ذلك المعهد فينتشر النساطرة في بلاد فارس فينالون فيها نفوذًا سياسيًا كبيرًا فيؤسسون في جُنْدَيْسابُور، من أعمال خوزستانَ، كلية طبية جديدةً فيقصدها الطلاب من كل ناحية، والنساطرة هؤلاء نشَروا في الهند والصين أفكارهم ومعتقدهم حوالي منتصف القرن السابع من الميلاد.

وتنال بذور الحضارة الغربية، التي نشرها في بلاد الفرس رهبانٌ مثقفون وفلاسفة مطرودون من مدرسة أثينة الأفلاطونية نتيجة لاضطهاد جوستينيان، الحظوة لدىٰ العرب فينتحلونها في أثناء مغازيهم الأولىٰ بآسية، ويصبح بنو أمية سادة الدنيا فيشملون العلماء بعين رعايتهم، ولا يعني هذا عدَّ دمشقَ، لا بغدادَ، مبدأ أعمال المدرسة الجديدة، فإلىٰ الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور يعود شرف ذلك، وأبو جعفر المنصور أخذ معارفه الفلكية الأولىٰ من هنديٍ كما يظهر ولكنه لم يكن لمعارف الهند كبيرُ قيمةٍ، فلم يلبث العرب أن أعرضوا عنها منذ قبضوا علىٰ كتب اليونان.

وسار خلفاء أبىٰ جعفر المنصور علىٰ غراره، فلم يألوا جهدًا في إنماء

جميع فروع المعارف البشرية في زمن أهملت أوربة فيه العلوم والآداب علىٰ العموم، وفيما كان شارلمانُ يحاول إحياء الذوق العلمي والأدبي علىٰ غير جدوىٰ كان الخلفاء يدنون منهم أعلم علماء الأقطار التي جمعوها تحت سلطانهم آمرين بترجمة أهم الكتب من اليونانية مقيمين أوسع المباني لتكون مكتبات غنيةً ومدارسَ عامةً، فأكبَّ الناس، فضلًا عن دراسة القرآن وتفاسيره، علىٰ دراسة كتب أرسطو وبقراطَ وجالينوس وذيسقوريدسَ وأقليدسَ وأرشميدسَ وأبلونيوسَ وبطليموسَ وغيرهم التي نقل العرب كثيرًا منها إلينا رأسًا قبل أن نجد أصولها اليونانية، وأقام أولئك الخلفاء مجامعَ للموضوعات التي لا يقدر علىٰ معالجتها سوىٰ الأساتذة الماهرين وشادوا تلك المدرسة المشهورة التي تمَّ علىٰ يدها أجمل آثار علم الفلك في القرون الوسطىٰ.

وسابعُ خلفاء بنىٰ العباس، المأمونُ، كان، بعد المنصور، قدْوة في ثقافته وثبات جهوده إنهاضًا للعلوم، غير أن هذا الأمير إذا طبع اسمه علىٰ العصر الذي يتيه فخرًا في حقل الأدب وجب ألا ننسىٰ سَلَفَيْه محمدًا المهدي وهارون الرشيد اللذين ازدهرت خلافة الشرق بفضائلهما وأبَّهتهما أيَّما ازدهار.

وزاد ما أنتجه العلماء والشعراء، الذين حباهم الخلفاء بما حبوْا، عهد هؤلاء الخلفاء نورًا علىٰ نور، وترجمت عدَّة كتب من اليونانية والفارسية إلىٰ السريانية فإلىٰ العربية، وأثار النصارىٰ المنتشرون في آسية غيرة الخلفاء بآثارهم فسطع نجم الفلكي ما شاء الله الذي أثنىٰ عليه أبو الفرج كثيرًا، وسطع نجم أحمدَ بنِ محمد النهاوندىٰ الذي هو أقدم راصدي العرب، وسطع نجم الرياضي الحجاج بن يوسف بن مطر الذي كان أولَ مترجم لكتاب أقليدس.

ولا نرىٰ أن نسهِب في بيان درجة الكمال التي انتهت إليها الفنون الميكانيكية في ذلك الدور، فيكفي لتمثلها أن نرجع البصر إلىٰ الساعة المائية التي أرسلها هارون الرشيد إلىٰ شارلمان فوصل إلينا وصفها والهدايا التي قدمت إلىٰ عاهل الصين، فهي تغنينا عما جاء في كتب المؤرخين من تفاصيل جميع العجائب المماثلة التي اشتمل عليها قصر الخلفاء ببغداد.

وإلىٰ أغسطس العرب المأمون، علىٰ الخصوص، يَرجع مجد إتمام ما بدأ

به جده المنصور، وما كان من إحاطته بصفوة العلماء ورجال الفن ومن جَمعِه مخطوطات مدرسة الإسكندرية بثمن غال ومن صِلاته بقياصرة القسطنطينية سَهَّل عليه أمرَ البحث عن مؤلفات اليونان حتىٰ أثينة، وكان أولَ ما صنعه أمرُه بإصلاح كتاب بطليموس المعروف بالمجسطي والذي تُرْجم في عهد هارون الرشيدِ بإشراف يحيىٰ بن خالدٍ البرمكي.

وقام بصنع آلات الفلك متفننون بارعون، واشتملت الأزياج المصححة، التي يعد يحيىٰ بن أبىٰ منصور واضعًا لها، علىٰ نتائج الأرْصاد التي تمت بدمشق وبغداد في آن واحد.

وقد قام سند بن علي، الذي كان مساعدًا ليحي، هو وخالد بن عبد الملك المروذي بأرصاد أخرىٰ في سنة ٨٣٢ وسنة ٨٣٣، وإلىٰ هذين الفلكيين، اللذين كان يساعدهما علىٰ بن عيسىٰ وعلىٰ بن البحتري، يرجع الفضل في قياس درجةٍ من خط نصف النهار، فلما أصبح هؤلاء في صحراء سنجار تَوجَّهوا إلىٰ الجنوب فإلىٰ الشمال إلىٰ أن اختلف ارتفاع القطب مقدار ستين دقيقة، فَوَجد بعضهم مقدار الدرجة الأرضية سبعةً وخمسين ميلًا ووجده الآخرون ستة وخمسين ميلًا وربعَ ميل، علىٰ أن يَعْدِل كل ميل أربعة آلاف ذراع سوداء، وينطوي هذا القياس علىٰ تقلب كالذي انطوىٰ عليه قياسُ إراتوستين بالنسبة إلىٰ طول القطر الذي استعمل، ويرتضىٰ لابلاس برقم ٢٠٠٥٠٠ ذراعٍ سوداء، ويجب إرجاع هذا الرقم إلىٰ ٢٢٥٠٠٠ إلىٰ ٢٢٨٠٠٠، ويتناول مونتوكلا رقم ٥٦ ميلًا ورقم ٥٦ ميلًا وثلثي ميل كنتيجة فيبحث ببراعة في درجة الوثوق بذلك التقدير.

وأتَمَّ سند بن علىٰ وخالد بن عبد الملك رَصَدهما بين الرَّقَّة وتدْمرَ علىٰ حسب رواية المسعودي علىٰ حين يقول كوسان، نقلًا عن ابن يونس، إنهما أتماه بين تدْمر وفامية ظانًّا أن فامية هذه هي أبامة، ولم ينتبه كوسان إلىٰ ضرورة وقوع المدينة التي هي موضوع البحث علىٰ دائرة نصف النهار المارة من تدْمر بعيدة منها درجة واحدة نحو الشمال أو نحو الجنوب، ولم ينتبه إلىٰ أن مدينة أبامة السورية بعيدة درجتين من تَدْمُرَ واقعةٌ غربها، والذي يظهر أن كوسان نظر إلىٰ المسألة من حيث الرسم لا من حيث الوضع الجغرافي، وإذا نظرنا إلىٰ الشكل الذي كتب به

الاسم أمكننا قراءته بواسط، وواسط هذه مدينة قريبة من الرَّقَّة جامعة لجميع الشروط.

وفي ذلك الدور ألف أحمد بن عبد الله حبش الحاسب المروزي ثلاثة أزياج حول حركات الكواكب بعد أن صحح تصميمات سلفه، وفي ذلك الدور ظهر العباس بن سعيد الجوهري فساعد بيصانيفه علىٰ رفع منار عصر المأمون، ونذكر بجانب أولئك الفلكيين المشهورين أحمد بن يوسف وعبد الله بن سهل بن نَوْبَخْتَ والفرغانيَّ الذين جَدوا في إصلاح الأزياج اليونانية، فلم يقتصروا علىٰ تصحيح أغاليط بطليموس في غير موضع مهم بل عينوا أقصىٰ بعدٍ للشمس، وقُدِّر انحراف سمت الشمس بـ ٢٣ درجة و٣٣ دقيقة و٥٢ ثانية، وعُني بأرصاد الاعتدال الشمسي فأدت هذه الأرصاد إلىٰ تعيين دقيق لطول السنة، وكان للخسوف والكسوف وظهور النجوم المذنبَة والحوادث السماوية نصيبٌ كبير من البحث الدقيق، ولم تغب عن أولئك أكلاف[1] الشمس.

وإذا كان مؤلفو الزيج المصحح قد أسدوْا إلىٰ العلم خدمًا حقيقية فإن من الرأي ألا يظن أنهم أول من أدخلوا إلىٰ العرب ذلك المنهاج الإيجابي الذي يجعل كل شيء خاضعًا لسنن التجربة، فقد ظهر محمد بن إبراهيم الفزاري قبلهم فشبه علم الفلك لدىٰ الهنود بعلم الفلك لدىٰ الإغريق، وقام أحمد بن محمد النهاونديّ برصد في جُنْدَيْسابُور سنة ٨٠٣م فألف أزياجًا باسم المستعمل، وألف ما شاء الله، الذي اشتهر منذ عهد أبىٰ جعفر المنصور فسماه أبو الفرج بأبي هول عصره، رسائله في الاسْطُرْلاب وفي الحلقة الاعتدالية فأبدىٰ آراء صائبة في طبيعة الأجرام السماوية.

وأمر المأمون محمد بن موسىٰ الخُوَارِزْميّ بأن يؤلف كتابًا مختصرًا في السندهند أو الأزياج الهندية ففعل، وعرف محمد بن موسىٰ هذا بأنه رياضيًا أكثر منه فلكيًا، وسنتكلم عن رسالته في الجبر بعد قليل، وكان الكندي معاصرًا لمحمد بن موسىٰ فلا نرىٰ وضعه في مصافِّ الرُّصَّدِ، بيد أن الكندي من أجل علماء عصره، والكندي مؤلف من الطراز الأول في شتىٰ العلوم، والكندي صَنَّف أكثر

(١) أكلاف: جمع كلف، وهو السواد في الصفرة.

من مائتي كتاب لم ينته إلينا غير أسمائها، وهي خاصة بالحساب والهندسة والفلسفة والتنجيم والجوِّيَّات والبَصَرِيَّات والطب، إلخ. والكندي، إذ كان عالمًا باللغة اليونانية، استطاع أن يغترف، بحِذق، شيئًا كثيرًا من مؤلفات مدرسة أثينة ومدرسة الإسكندرية وأن يضيف إلىٰ ما اقتبسه تفاسيرَ دالة علىٰ علو كعبه، وكتبُ الكندي مملوءة بالموضوعات المهمة التي تستوقف النظر، وكتب الكندي كانت خير معين في القرون الوسطىٰ.

وكان أبو معشر تلميذًا للكندي، وتبحر أبو معشر في دراسة الحوادث السماوية علىٰ الخصوص، وقام أبو معشر بأرصاد مفيدة دوَّنها في زِيج أبي معشر، ومع اقتصار أوربة في علمها بأبي معشر علىٰ رسائله الكثيرة في التنجيم لا ننكر مقامه الممتاز بين الفلكيين الرُّصَّد الذين يحق للشرق أن يفاخر بهم.

ولم تنصرم سلسلة الأعمال الذهنية بوفاة المأمون، ووجد واضعوا الزيج المصحح في أبناء موسىٰ بن شاكر: محمدٍ وأحمدَ وحسن، خيرَ خَلَف، وعلىٰ أرصاد أبناء موسىٰ يعتمد ابن يونس كثيرًا فيعدها صحيحة إلىٰ الغاية، فيرىٰ في الزِّيْج الحاكمي أنهم جعلوا معدَّل حركة الشمس المتوسطَ في السنة الفارسية ١١(س) ٢٩(د) ٣٩، ٨٨،، ٢،،، في درجات ٢٥٩(د)، ٤٥، ٣٩،، ٥٨،،، ٢،،،، وجعلوا معدّل حركة الشمس الأعظمَ فيها ٢٠(د)، ٥٠،، وجعلوا مكان بُعدها الأقصىٰ في زمن يزدجردَ (١٦ يونيه سنة ٦٣٢م) ٢٠(د) ٤٤، ١٩،، من بُرْج الجوزاء، وجعلوا حركتها ١د في سبعين سنة فارسية.

ووضع ثاني الإخوة الثلاثة أحمدُ، الذي عُني بالميكانيكا علىٰ الخصوص، زيجًا خاصًا في سنة ٨٥١ فدوَّن فيه أن معدل حركة الشمس المتوسطَ في السنة الفارسية هو ١١(د) ٢٩(س) ٤٥(د) ٤٠،، في درجات ٣٥٩(د) ٤٥، ٤٠،، وأن معدَّل حركة الشمس الأعظمَ هو ٢٠(د) ٠، ٨،، وأن مكان بُعدها الأقصىٰ هو ٢٤(د) ٣٣، من برج الجوزاء، فلا تختلف هذه التقاويم عن التقاويم الحديثة إلا قليلًا.

وترىٰ، مع ذلك، أن مبادرة الاعتدالين التي افتُرِضَ أنها درجة واحدة في سبعين سنة لم تُرَدَّ إلىٰ حسابها الصحيح، ووجد أحمد المروزيَّ لمكان قلب

الأسد في سنة ٦٣٠م نحو ١٣ درجةً من برج الأسد، ورَصَد الإخوة الثلاثة هذا الكوكب في سنة ٨٤٠ وسنة ٨٤٧ فعَرفوا أنه تقدَّم في هذه السنوات السبع ٦، ١٥، أي ما يَعْدِل ٥٣، ، ٢٤، ، ، في السنة الواحدة، ثم مضىٰ قَرْن فصُحِّح هذا الحساب القريب من الحقيقة.

وكان مرصد أبناء موسىٰ قائمًا علىٰ قنطرة بغداد المؤدية إلىٰ باب الطّاق، ووَجدوا بهذا المرصد أن انحرافَ سَمْت الشمس ٢٣(د) ٢٥، وحققوا للمرة الأولىٰ اختلافات أعظم عرض للقمر، ووضع أكبر الإخوة الثلاثة محمدٌ (أبو جعفر موسىٰ بنُ شاكر) تقاويمَ لمنازل السيَّارات، وانتفع القوم بعناصر أزياجه في الحسابات إلىٰ ما بعد وفاته بطويلِ زمنٍ، وعُدَّ ثابت بن قُرَّة من تلاميذه في علم الفلك.

وظاهرةُ مدرسة بغدادَ في بدء أمرها هي الروح العلمية التي كانت سائدة لأعمالها، فكانت مبادئ أساتذتها تقوم علىٰ الانتقال من المعلوم إلىٰ المجهول، وعلىٰ ملاحظة الحوادث ملاحظة وثيقة لمجاوزة المعلولات إلىٰ العلل، وعلىٰ عدم التسليم بما لا يستند إلىٰ التجربة، وكان العرب في القرن التاسع أصحابًا لهذا المنهاج الخصيب فأضحىٰ، بعد زمن طويل، أداةً بيد علماء الزمن الحديث للوصول إلىٰ أجمل اكتشافاتهم.

وكان ثابت بن قُرَّة المتوفَّي سنة ٩٠٠م. يتصرف بمراصدَ فلكية صُنعت منذ عهد المأمون فأسف علىٰ أنه لم يجمع منها عدد كبير قائلًا بأعلىٰ صوته إنها الوسيلةُ الوحيدة لتقدم العلم، ويظهر أن الرياضي البارع ثابتَ بنَ قُرَّة هو أول من طبق علمَ الجبر علىٰ علم الهندسة، وأعاد ثابت بن قُرَّة ترجمة المجسطي فأظهر بعناية جميع التصحيحات التي قام بها أصحاب الزيج المصحح حول تصميمات بطليموسَ مضيفًا إليها ملاحظات جيدة جدًا، ولا يذهب عن البال أن ثابت بن قُرَّة إذا قال بمبدأ ارتجاج الثوابت الذي تُرك في الوقت الحاضر فإن ذلك جاءه من الإغريق، فلا يسعنا سوىٰ ردِّ حُكم دولانبرَ المطلق في هذا العالِم الفلكي الذي هو أحد المحَرِّكين المقاديم في علم الفلك.

وتجدُ الفَترة التي تَفْصل بين أبناء موسىٰ بن شاكر والبتاني مملوءة بأرصاد

أبي العباس الفضل بن حاتم النيريزيّ وأرصاد محمد عيسىٰ أبىٰ عبد الله الماهانىٰ.

وأخص ما عُنىٰ به النيريزىٰ هو تصحيح الأغاليط التي تسربت في مخطوطات فلكي عصر المأمون فانتهت إليه بعد نسخها بلا تمحيص، والنيريزيّ هذا كان غيورًا ومهندسًا بارعًا فألَّف شرحًا للمجسطي ووضع أزياجًا ظل القوم ينتفعون بها مدة قرنٍ بعده، وعلىٰ ما كان يراه ابن يونس له من عدم الضبط هنا وهنالك أكثر من الاستشهاد وأشاد بذكره غير مرة.

وإذا نظرتَ إلىٰ كتاب الحكماء للزوزني وجدته يَعُدُّ الماهاني رياضيًا، وإذا نظرت إلىٰ الزيْج الحاكمي وَجدته يعد الماهانىٰ سائرا علىٰ غِرار واضعي الزيْج المصحح معينًا بكلِّ دقة لجميع الحوادث السماوية التي ظهرت في زمنه، بين سنة ٨٥٤ وسنة ٨٦٨، كالكسوف والخسوف واقتران السيارات إلخ، ويمكن تقديرُ أهمية هذه المعارف المتفرقة، عند حساب الحركات المتوسطة فنأسف غاية الأسف علىٰ فقدان الكتب الأصلية المشتملة عليها، ولا نُدْرك السبب في أن كثيرًا من السيَّاح، الذين يطوفون في الشرق فينفقون كثيرًا من المال، لا يبحثون عن كثير من المخطوطات التي ترانا عاطلين منها فيُلقوا نورًا جديدًا علىٰ دور من أهم الأدوار في تاريخ العلوم.

ومن دَأب العلماء أن يعُدوا البتانىٰ، الذي خَلَف الماهانىٰ من فَوْره تقريبًا، ممثلًا للمدرسة العربية في القرن التاسع لِما كان من معرفتنا لرسالته وحدَها، فعُزيَ إليه كثيرٌ من الاكتشافات التي يعود شرفها إلىٰ من ظهروا قبله في الحقيقة.

قال بيلي: «انتهت إلينا من البتانىٰ ثلاثة أرصاد للكسوف والخسوف تُفيد، مع أرْصاد ثيوذَ، لمَلْءِ الفراغ الذي يفصِل فلكيي الإسكندرية عن فكليي الوقت الحاضر، وفي الأرْصاد فراغُ اثنىٰ عشر قرنًا أو ثلاثةَ عشرَ قرنًا»، وندحض هذا الرأي كله برسمنا صورة عن التقدم الفلكي لدىٰ العرب في مراحله الأولىٰ، ولبيلي ما يعتذر به، فهو لم يفعل غير تكرارِ خطأ سار عليه جميع علماء القرن السادس عشر والقرن السابع عشر تقريبًا، ولم يكن مونتوكلا أوفر حظًا منه حينما عَزَا إلىٰ البتانىٰ في كتابه «تاريخ الرياضيات» تصحيحَ حركة مبادرة الاعتدالين التي

افترضها القدماء درجةً واحدة في مئة سنة، فهذا التصحيح تمَّ قبل البتانىٰ بزمن طويل، فقد شوهدت منذ عهد المأمون حركة بُعْد الشمس الأقصىٰ التي كان يجهلها إبَّرْخُس وبطليموسُ كما رصد شذوذ سير هذا الكوكب، ومن القِحَة أن يزعم أن البتانىٰ هو أول من أقام الجيوب مقامَ الأوتار قبل الاطِّلاع علىٰ كتب أسلافه.

ومثل البتانىٰ، الذي امتدحه الأوربيون كثيرًا، لدىٰ العرب مثلَ دور بطليموس لدىٰ الإغريق، فكلاهما عرض معارف زمانه، وكتبهما إذ عامت وحدها تقريبًا في ثورات الدول لم يتردد العلماء في عدهما الممثلين الأخيرين لعلم اليونان وعلم العرب، ولكن البتانىٰ إذ كان، كبطليموس، قد سبقه خلفه، ولكن البتانىٰ إذ كان، كبطليموس، يحمل لقب المكتشف الذي يصر بعض المؤرخين علىٰ وصفه به، مع أنه موضعُ جدل، فإن من المحتمل أن يكون الوقت الذي يعُطىٰ فيه كل ذي حق حقه قد حان.

وقام البتاني بأرصاده في الرقة سنة ٨٨٠، وتوفي البتانىٰ في سنة ٩٢٩، ويحمد البتانىٰ كثيرًا، لا ريب، علىٰ ما أبداه من النشاط الكبير في أعمال مدرسة بغداد العظيمة، وما أعظم أسفَنا، عند تقرير مجده، علىٰ عدم فوزنا بأزياجه الفلكية المشهورة في الشرق كثيرًا، ونجد ترجمة كتابه «زِيْج الصابي»، التي تُعْزىٰ إلىٰ بلاتوتيبورتينوس فشرحها رجيومونتانوس، محشوة بالأغاليط، ومن المؤسف أن ظلَّ أصلها العربي مفقودًا، ولدينا ما يحمل علىٰ اعتقاد وجود هذا الأصل في مكتبة الفاتيكان ومكتبة الإسكوريال، وكان هاللي قد رأىٰ، في كتابه «العقود الفلسفية»، ضرورة تصحيح الترجمة اللاتينية وفق الأصل العربي، وأتيح لنا أن نفحص نسخة من الترجمة التي يشتمل علها المخطوط اللاتيني في المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم ٧٢٦٦ فوجدنا ما يسوغ، من بعض الوجوه، رأىٰ ذلك العالم الإنكليزي، لما فيها من الأغاليط كالتي في طبعة سنة ١٥٩٧ وسنة ١٦٤٥.

ونذكر ممن اشتهر من فلكيي العرب في ذلك الزمن سهلَ بن بشر ومحمدَ بن محمد بن يوسف السمرقنديَ اللذين أعانا بأرصادهما علىٰ إتمام الزِّيج المصحح، كما نذكر عليّ بن إسماعيل الجوهريّ، وأبا جعفر بن أحمد بن

عبد الله بن حبش، وقسطا بن لوقا المنافس للكندي، ومحمد بن الحسين بن حميد المعروف بابن الآدمي الذي يظهر أنه اعتمد الذي يظهر أنه اعتمد علىٰ الأزياج الهندية، إلخ. غير أنه يجب تخصيص المقام الممتاز لابْنَيْ أماجور.

ويُقصد بكلمة ابْنَيْ أماجور عليَ بن أماجور وابنُه أبو الحسن عليّ بن أماجور، وهما قد رَصدا في نحو نصف قرن (٨٨٥ -٩٣٣) وألفا الزِّيج البديع ففتحا بذلك طريقًا جديدةً مؤديةً إلىٰ اكتشافات مهمة، وأعانهما علىٰ عملهما رقيقٌ عتيقٌ اسمه مفلح، وألَّف مفلحٌ هذا أزياجًا فلكية، ولاحظ ابنا أماجور عدَّة اختلافات جديرة بالذكر في منازل القمر خلافًا لما حَسبَه اليونان والعرب قبلهما، ومما شاهده أبو الحسن عليّ بن أماجور حدودُ أكبر عرض للقمر فوجدها ليست إياها علىٰ الدوام خلافًا لما افترضه بطليموس والبتانىٰ، وهنا نرىٰ إصلاحَ حُكم مسيو بِيوت في العرب في جريدة العلماء (١٨٤٣ ص ٦١٠)، فإذا كان ابنا أماجور لم يَصلا في مباحثهما إلىٰ اكتشاف الاختلاف القمري الثالث فإنهما مهدَا السبيل لخلفهما علىٰ الأقل، فمن المستحيل ألا يقف الشذوذ الذي انتبه إليه ابنا أماجور نظر العلماء الذين زاولوا علمَ الفلك للعِلم نفسه فلم يحاول هؤلاء العلماء شَرْحَه بافتراضات جديدة.

وهذا ما وقع بعد خمسين سنة.

بَيْد أنه حدث من الفتن المتتابعة ما هزَّ خلافة المشرق، وجلس علىٰ العرش بعد وفاة المأمون (٨٣٣) اثنا عشر أميرًا، وبدا جميع هؤلاء الأمراء محبين للعلوم والآداب حبًّا جمًّا، وبينما كان هؤلاء الأمراء يحاولون نسيان الأخطار المحدقة بهم بحمايتهم حملة الثقافةِ كانت الفتنة تزمجر في أبواب قصرهم، وكان تمزيق إمبراطورية الإسلام يتِمُّ بسرعة، ورأينا قيام دولة مستقلة في كل ناحية، وتفلتت إسبانية من سلطان العباسيين منذ طويل زمن، وملك الأدارسة والمكناسيون والمدراريون فاس ومِكناسة وسجلْماسة وملك بنو رستم وبنو عبد الواد تَاهرتَ وتلمسانَ، وقام ملك الأغالبة في القيروان، وزحف الفاطميون إلىٰ مصر التي كان بنو طولون قد مَلَكوها بين سنة ٨٦٧ وسنة ٩٠٥، وظهر المشرق مسرحًا لمثل ذلك، وكان المأمون أسوأ مثال بإقطاعه طاهرًا مُلك خُراسان المطلق مكافأة له

علىٰ خدمه العظيمة لما أدىٰ إليه من طمع ولاة آخرين في مثل ذلك واستقلالهم عن دولة الخلافة، وأضف إلىٰ هؤلاء المرَدَة ما كان من تَذرُّع آخرين بحجة وضع التاج علىٰ رأس العلويين ورفضهم إطاعة بنىٰ العباس واستقلالهم ببعض الولايات مع عدم نجاحهم فيما سعوا إليه، وخلف الصفاريون (٨٧٢-٩٠٥) والسامانيون (٨٧٤) بنىٰ طاهر، واستقر الدَّيْلَم بطَبَرِسْتان سنة ٩٢٧، وتم السلطان لآل بُوَيْه في بلاد الفرس وتسلم آل بُوَيْه زمام الحكم في بغداد حاملين لقب أمير الأمراء، ولم يدع آل بُوَيْه لبنىٰ العباس سوىٰ سيادة اسمية.

ولم يقف سير الدراسات السريع بين تلك الانقلابات العظيمة، فكنت ترىٰ في أكثر مدن الإمبراطورية من حملوا لواء العلم، فلم تنقطع مزاولة علم الفلك في دمشق وشيراز وسمرقند، فقام علماء الفلك في عهد طاهر بن عبد الله، الذي هو رابع أمير من آل طاهر، بأرصاد في نَيْسابور بالحلقة التي حكىٰ عنها ابن يونس.

وهنالك ما يحمل علىٰ الاعتقاد، مع ذلك، بأن الفتن الكثيرة التي اشتعلت بسرعة في ممالك الإسلام كادت تطفئ في النصف الأخير من القرن العاشر آخر أنوار المدرسة العربية، لو لم يثر الأميران البُوَيْهيَّان عضد الدولة وشرف الدولة همِةَ العلماء باشتراكهما في أعمالهم ويشجعاهم بما أحسنا إليهم من النعم.

وخلف ابني أماجور في علم الفلك الشريفُ أبو القاسم علىٰ بن الحسن بن محمد بن عيسىٰ المعروف بابن الأعلم الذي قام بعدة أرصاد فوضع زِيْجًا فلكيًا لم ينته إلينا غير اسمه مع الأسف فإذا ما قدرنا ابن الأعلم هذا بشعور العرب نحوَه وجدناه رجلًا كثيرَ البراعة قَوامًا بعمل أسلافه، فابنُ الأعلم عين بالضبط مبادرة الاعتداليين وصنع آلات رَصده بيده.

وظهر في ذلك الدور عبد الرحمن الصوفي، فألف كتاب «الكواكب الثابتة» المصور، وظن في البداءة أن هذا الكتاب مبتكرٌ من أوله إلىٰ آخره، فلم يتردد هِيْدُ في وضع مؤلفه في المرتبة الأولىٰ بين فلكيي الشرق، واليوم نعلم أن عبد الرحمن الصوفي لاحظ، فقط، جسامة النجوم التي اشتمل عليها تقويمُ بطليموس، وأنه حفظ الأعراض وأنه أضاف إلىٰ الأطوال ١٢(د) ٤٢، لتوافق ١ أكتوبر سنة ٩٦٤، ولا يمكن الشك مع ذلك، في أنه لم يكن راصدًا، فمن

البحث الدقيق في مؤلفاته يظهر ما يؤيد مزاعم معاصريه من هذه الجهة.

وأخذ عضد الدولة علم الفلك عن ابن الأعلم، وبحث في السماء ذات الكواكب مع عبد الرحمن الصوفي، فكان يفتخر بأنه تخرج علىٰ هذين العالميْن وأمثالهما، وكان هذا الأمير المحب للآداب يجتذب إلىٰ بلاطه جميع العلماء، وهو، مع أنه لم ينل كالمأمون لقب أغسطس العرب، كان يطبع مدرسة بغداد بطابع الجد والنشاط، وذاع في عهده صيت أبىٰ القاسم عبد الله بن الحسن وأبىٰ نصر الكلوازي، وألف جعفر بن الخليفة المكتفي بالله رسالة في النجوم المذنبة، وأثنىٰ الزوزني علىٰ الموْصلي والمجتبي، ووجد أبو القاسم الرَّقيّ في سيف الدولة بالشام حاميًا، واشتهر الحسن بن أحمد الهمداني اليماني الأصل بمؤلفاته اشتهار أبي نصر الكلوازىٰ.

وسطع فوق أولئك العلماء، الذين لا نكاد نحوز غير شذور من رسائلهم، نجم الفلكيين أبي سهل الكوهىٰ وأبي الوفاء البوزجانىٰ في عهد عضد الدولة وعهد شرف الدولة، لا بأقاصيص مترجمي الأحوال وحدَها، بل، أيضًا، بالرسائل التي انتهت إلينا من ثانيهما فعلمنا منهما قيامهما بعدة أرصاد كبيرة قابلا بينها وبين أرصاد أسلافهما متممين نظريات مدرسة الإسكندرية في كثير من المسائل المهمة.

وكان أبو سهل الكوهىٰ (ويجنُ بن رستم) فلكيًا ومهندسًا فعهد إليه في تعيين حركات السيّارات السبع تعيينًا جديدًا وفي مناقشة افتراضات الإغريق حول ذلك، فأعْجب معاصروه بكتبه التي اشتملت علىٰ اكتشافات جالبة للنظر لا ريب، ولم ينته إلينا من هذا الفلكي سوىٰ رصدين نقلهما الزوزنىٰ، وهما رصد الانقلاب الصيفي لسنة ٣٧٨هـ ورصد الاعتدال الخريفي لهذه السنة أيضًا، ولا نقدر درجة الاعتماد علىٰ أرصادٍ تائهة في معجم أحوال، ولكن لدينا أمرًا بإنعام النظر، وهو أن شرف الدولة سار علىٰ غرار المأمون، فأراد أن يتضافر علماء الفلك علىٰ نجاح العمل المشترك، فكان يحف من حول الكوهىٰ أفضل علماء عصره لا ريب، ومن هؤلاء أبو بكر بن صابر، وأبو حسين الخوزىٰ، وأبو إسحق إبراهيم بن هلال، وأبو سعد الفضل بن بولصَ الشيرازيَ، وأبو الوفاء محمد بن

محمد الحاسب، وأبو حامد بن محمد الصاغاني، وأبو الحسن محمد السامري، وأبو الحسن المغربي، إلخ.

وكان أبو إسحقَ إبراهيم والصاغاني وأبو الوفاء علىٰ جانب كبير من الفضل، فأما الأول فأوجد مراسلة رياضية بينه وبين زملائه فيجدر اتخاذها نموذجًا للنشرات التي من نوعها والقريبة من نشراتنا، وأما الثاني فكان متبحرًا في الميكانيكا فيحتمل أن يكون مدينًا له بعض الآلات الكبيرة الرائعة التي ورد ذكرها في كتب العرب.

وصار رَصَد انحراف سَمْت الشمس، في سنة ٩٩٥م، بربع دائرة يبلغ نصف قطرها خمس عشرة ذراعًا، أي ما لا يقلُّ عن إحدىٰ وعشرين قدمًا ونصف قدم، فلا يعرف علم الفلك الحديث آلة كبيرةً من نوعها كما قال بيلي، وأعجبُ من ذلك سُدُس دائرة قياس الزوايا الخاص بأبي محمد الخوقندىٰ فاستعمله سنة ٩٩٢ فكان ربع قطره أربعين ذراعًا أي ما يعْدل سبعًا وخمسين ذراعًا ونحو تسع أصابع، ووصفنا هذا السدُس الذي كان مقسمًا إلىٰ ثوان وأثبتنا أن ذات السمت والارتفاع كانت موجودة لدىٰ العرب في القرن العاشر من الميلاد علىٰ الرغم ممن جادل في أنها من مخترعاتهم.

ووُلد أبو الوفاء، الذي دَوَّىٰ اسمه كثيرًا في أثناء مناقشاتنا المَحفِلية العلمية، سنة ٩٣٩ بمدينة بوزجان الصغيرة التي هي من أعمال خراسان، فاستوطن العراق سنة ٩٥٩، فصار يصحِّح أغاليط من ظهر قبله من الفلكيين، فاشتمل الزيج المسمىٰ «الزيجَ الشامل» علىٰ خلاصة أرصاده فشرحه السيد علىٰ قوشجىٰ (القومنانىٰ)، وابنه السيد حسن.

وكان أبو الوفاء أولَ مترجم لكتاب ذيوفنطس فأكثر من الكتابة في شَتَّىٰ العلوم الصحيحة، وأهمُّ كتبه كتاب المجسطىٰ الذي عُثرَ فيه علىٰ اكتشافات نافعة إلىٰ الغاية، وفي هذا الكتاب تجِدُ رسومًا للمماسِّ والقاطع كان يستعملها مهندسو العرب كما تُستعمل اليومَ في المثلثات، وكان البتانيّ قد أقام الجيوبَ مقام الأوتار، فلما ظهر أبو الوفاء بعد قرن جعل النِّسَبَ الدائرية المُطوَّلة المُعقدة أسهلَ من قبل بإدخاله المماسَّ.

وليس هذا كلَّ ما في الأمر، فقد استوقف نقص نظرية بطليموس القمرية نظرَ أبىٰ الوفاء فَصحَّح الأرصاد القديمة فوجد، عدا معادلة المركز ومعادلة الاختلاف، اختلافًا قَمَريًا ثالثًا لم يكن بالحقيقة سوىٰ الاختلاف الذي عينه تيخو براهة بعد ستمئة سنة، ووُجد من العلماء من حاولوا، علىٰ غير جدوىٰ، حجبَ وَجْه الحق مستشهدين بعبارة مبهمة للعالِم العربي أبي الوفاء، ولكن التعابير التي تؤيد اكتشافه لذلك الاختلاف الثالث قاطعة واضحة دالةٌ علىٰ حيازة العلم له منذ ذلك الزمن، وهو يدل علىٰ أن مدرسة بغداد انتهت إلىٰ أقصىٰ حدود المعارف التي تبْلغ بغير نظارة وبغير مِرقَب (تِلِسكوب)، وتداعت مزاعم مُنكَ الفظيعة كلها أمام البحث الدقيق، وعَدَّ مسيو بيوت ومسيو برتران هذا الربانيَّ المحترمَ مُطَّلِعًا علىٰ العربيةٍ فاتخذاه حُجة فَضَلًا في أمر تلك المسألة الفلكية التي بدا هؤلاء الثلاثة غرباء عنها مع ما أتوْه من الدراسات مَدَىٰ حياتهم.

وختمت بأبي الوفاء سلسلة الأرصاد المتصلةُ التي بُدئ بها في عهد خلفاء بنىٰ العباس الأولين فدامت قرنين، فلا نرىٰ أن نذكر بعدَه غيرَ هارون بن عليٍ الذي امتاز بأزياجه الجديدة وببراعته في صنع الآلات.

أخذ نجم مدرسة بغداد يأفُل بعد ذلك الدور بالتدريج، فقد غَدَتْ آسية مسرحًا للفتن السياسية بلا انقطاع، وانتحل محمود الغزنوي لقبَ سلطان فأسَّس إمبراطورية جديدة، ثم حَلَّ السلجوقيون محله بعد زمن قليل، ثم انقسم هؤلاء فقامت في سنة ١٠٩٥ سلْطنات كرمانَ وحلبَ والروم ودمشقَ الملْزَمَة بدفع الأتاوىٰ إلىٰ فارس، ثم ذرَّ قرن الحروب الصليبية فابتلعت هذه الحروب جميع المصالح مدةً تزيد علىٰ قرنين، وما كانت شعلة العلوم لتنطفئ كلها في ذلك الدور الذي زاده الغزو المغوليّ هوْلًا، فمن إفريقِيَة والأندلس وحدَهما صارت تُلقي نورها الوَهَّاج.

وكانت مصر قد انفصلت عن خلافة بغدادَ في أواخر القرن العاشر، فأخذت عاصمة الفاطميين تتحول إلىٰ مركز جديد للعلوم، فامتاز العتقيّ وابنُ يونس بِسَعَة معارفهما في عهد العزيز والحاكم، واخترع ابن يونس الرَّقَّاصَ وميلَ الساعة الشمسية ذا الثَّقْب، وتَبَتَّلَ إلىٰ دراسة الفلك فأثبت أنه أهل للسير علىٰ أثر أبىٰ

الوفاء فألف في مرصده علىٰ جبل المقطم «الزِّيْجَ الحاكميَّ» الذي قام مقام مجسطىٰ بطليموس ورسائل مدرسة بغداد في الشرق بأسْره، واستنسخ عمر الخيام هذا الزيج في بلاد فارس، (١٠٧٩) كما استُنسِخ ببلاد الروم في مؤلَّف خريزوكوكا، وعند المغول في الزِّيْج الإيلخانيّ لنصير الدين الطوسيّ حوالىٰ سنة ١٢٦٠، ولدىٰ الصينيين في فلكيَّات كوشو كينغ سنة ١٢٨٠.

وتوُفِّي ابن يونس سنة ١٠٠٧، ووُجد له مقلدون، فذكر ابن السنبديَ، الذي كان يقيم بالقاهرة في سنة ١٠٤٠، أن مكتبة هذه المدينة كانت تشتمل في تلك السنة علىٰ ستة آلاف مخطوط في الرياضيات وعلم الفلك، وعلىٰ كُرتَيْن سماويتيْن صَنع إحداهما بطليموس وصَنع الأخرىٰ عبد الرحمن الصوفي، ولا ريب في أن الحسن بن الحسن بن الهيثَم، الذي ألف أكثر من ثمانين كتابًا، هو أشهر من خَلفَ ابن يونس، ولابن الهيثم مجموعةٌ للأرصاد فنَأسف علىٰ ضياعها، ولابن الهيثم تفسيرٌ للمجسطىٰ وتفسيرٌ آخر للتعاريف في أول مبادئ أقليدس، وله رسالةٌ في البَصَريَّات ترجمها ريسنرُ، وله رسالةٌ في مسائل الهندسة تمْكن مقابلتُها بمعطيات أقليدس فأقنَطت العلماء طويل زمن فنأسف علىٰ ما يبدونه من قِلَّة إقدام علىٰ البحث عن كنوز من المعارف خاصةٍ بجيل آخر.

ويجب أن نعترف بأننا لم نبحث في مُعظم كتب العرب الموجودة في مكتباتنا فضلًا عن عدم حيازتنا لجميع مؤلفات مشاهير العلماء الذين ذكرناهم آنفًا، فقد اقتصرنا علىٰ الفلكيين الذين قاموا بأرصاد، فإذا ما أردنا تنظيم جدول كامل لعلماء مدرسة بغداد وَجَبَ علينا أن نسجل أسماء علماء كثيرين غير من ذكرنا، ويكفي أن نُلْقىٰ نظرة علىٰ مؤلفات مونتوكلا ودير بيلو وإدوارد برنارد لنُدْركَ أننا لم نُبين سوىٰ جزء زهيد إلىٰ الغاية من أعمال العرب باستنادنا إلىٰ الوثائق الثابتة، ومن يَنْظر إلىٰ قائمة الزوزنيّ التي عُنيَ بها الغزيريّ في القرن الأخير يجدْها ناقصة جدًا.

وقد استُند إلىٰ جهلنا ما في الشرق من المخطوطات المهمة في الادعاء بأن العرب لم يكادوا يرتقون إلىٰ مستوىٰ النظريات اليونانية وإلىٰ أنهم ضَحَّوا بكل شيء في سبيل خيالاتهم في التنجيم، فزَعمٌ مثلُ هذا يمكن قبوله في أمر الصينيين

الذين نقلوا إلىٰ السماء تشريفات بَلاطهم الإمبراطوري وأكابرَ رجالهِ فسَيروا الأجرام السماوية علىٰ حسب أهوائهم، فلم يكن لديهم علمُ فلك بالمعنىٰ الصحيح، وَزعْمٌ مثلُ هذا لا يقفُ أمام سلطان النقد إذا ما أريد تطبيقه علىٰ العرب، وقد قيل إن الناس زاولوا العلم في خلافة بنىٰ العباس سعيًا وراء التنجيم، لا شعورًا بجمال العلم، ونقول إنه لا منافاة بين هذين الأمرين، ونحن إذ نَرَىٰ شوق العرب إلىٰ العلم قد حَفَزهم إلىٰ النهوض بمختلف فروع المعارف البشرية طلبًا للحقيقة وحدَها لا يسعنا سوىٰ الإعجاب المطلق بجهود الشعب العربي الذي أدىٰ بمثاله النبيل إلىٰ بعث الآداب والفنون في أوربة.

حقًا لقد سار التنجيم بجانب العلم الحقيقي، ولكن التنجيم كان في ذلك الدور مساعدًا نافعًا للعلم، فقد شاع أمر الأسْطُرلابات السهلة الاستعمال إلىٰ ما لا حدَّ له، وتعود القوم أن ينظروا من خلالها إلىٰ قُبَّة السماء لِيُدققوا في حركة السيارات فكان ذلك يؤدىٰ إلىٰ بحث ذوي البصائر، المطلعين علىٰ كتب اليونان، عن سُنن الكَّوْن.

ولا نزال مفتقرين إلىٰ معارف عن مدارس الأندلس وإفريقِيَة الغربية التي بلغت شأوًا بعيدًا في عالم الشهرة، وأبدىٰ المؤرخون الذين عُنُوا في الأيام الأخيرة بتقاويم بيننسولَ خَوَرًا قاطعًا للرجاء، وما قام به الغزيريُّ وميد لدورف وغاياغوس من التحقيق لا يَعدُو حَدَّ ما حثَّ عليه خلفاء قرطبة من الحركة الأدبية في أرجاء دولتهم فدَوَّىٰ صداه عدَّةَ قرون بعدهم، وليس بمجهول أنه كان في أشْبِيليةَ وقرطبة وغرناطة ومُرْسيةَ وطُلَيْطِلة وغيرها مكتبات غنية وكليات كانت تدرس فيها الرياضيات، ومن المؤسف أن نجهل أساتذة العلم هنالك جهلنا لآثارهم، وبلغ ولد الزرقيال من الشهرة، مع ذلك، ما يستحق به أن نَشِيد بذكره، ولا ينبغي لنا أن نسكت عن أسماء مسلمة المرحيطِ وعمرَ بن خلدون ويعقوب بن طارق وابن أبىٰ طلحة Thalta (؟) وابن السمح وجابر بن الأفلح وابن رشد، وكان مسلمة المرحيط معاصرًا للمُنجِّم بن راجل Ragel (؟) فلخص أزياج البتانىٰ تلخيصًا انتفع به واضعو «الأزياج الأذفونشية» انتفاعًا كبيرًا علىٰ ما يظهر، وقام ابن أبي طلحة في ثلاثين سنة متتابعات بأرصاد اشتهرت بأنها صحيحة جدًا، وسار

ولد الزرقيال علىٰ هذا النحو فقام بـ ٤٠٢ رَصد لتعيين أوْج الشمس وبأرصادٍ أخرىٰ لم يؤبهْ لها مع توصله بها إلىٰ حسابه بدقة فائقة حركة مبادرة الاعتدالين فرآها تترجح بين ½ ٢/١ ٤٩ و٥٠،، كما هو معلوم، وقد أثبتنا أنهم لم يكتفوا بتصميمات إبَّرْخس لوصول هذه التصميمات إلىٰ ٨ و،، ٤٨ وانتحل مسيو بيوت هذه الملاحظة بعد أن تداولت الأيدي كتابنا، ثم اعترف بسبقنا في جريدة العلماء (١٨٤٣ ص ٧١٩)، ولكنه لم يقل إن العرب وصلوا إلىٰ أقصىٰ حدود الصحة في نظرية مبادرة الاعتدالين، واستعمل ولد الزرقيال في أرصاده آلات اخترعها بنفسه، وصنع الآلة المعروفة بـ (صفيحة الزرقيال)، وأثارت ساعاته الدقَّاقة إعجاب الناس في طُلَيْطِلة علىٰ رواية المَقَّرِي، وتجد بين المخطوطات اللاتينية في المكتبة الوطنية بباريس ترجمة لبعض رسائل ولد الزرقيال فنأسف كثيرًا علىٰ ضياع رسائله المهمة بعد أن اطلعنا علىٰ تلك الترجمة.

ووجد دولانبرُ أن ولد الزرقيال واضعٌ للأزياج الطليطلية وأن هذه الأزياج غير جديرة بالثقة كثيرًا مفضلًا عليها أزياج البتانىٰ، ونشأ هذا الخطأ عن فلكيي الأذفونش الذين اقتبسوا أزياج البتانيّ، وأبدىٰ ابن عزراء إعجابه الكبير بولد الزرقيال فاطلعنا علىٰ نظرية ولد الزرقيال في شذوذ الشمس، اطلعنا علىٰ نظريته القائلة بدوران المدارِ البعيد من المركز ضمن دائرة صغيرة كما صنع بطليموس ذلك بشأن القمر، وأكثر أبو الحسن المرَّاكشي من ذكر ولد الزرقيال فقال إن ابن الحماد اقتبس من أرصاده ثلاثة أزياج ذات قيمة كبيرة.

وألف جابر بن الأفلح الأشبيلىٰ رسالة صغيرة فترجمها جيراردُ الكريمونيّ إلىٰ اللاتينية فتَجد تحليلا خاطفًا لها في تاريخ الفلك لدولانبر، ويصعُب تعيين الزمن الذي ألف فيه جابر بن الأفلح، ويرَىٰ ويدلرُ ظهوره بعد ولد الزرقيال، ونشاطره رأيه.

وذاع صيت الطبيب ابن رشد، الذي سنتكلم عنه في مكان آخر، حوالىٰ سنة ١٣٥٠، واشتغل ابن رشد بعلم الفلك لا ريبَ، ويُسند إليه شرحٌ للمجسطىٰ، وكان ابن رشد محُبًّا للرَّصد فاعتقد مشاهدته كلفًا علىٰ الشمس يوم عرف عن حسابه الفلكي مرورَ كوكب عطارد، وأذعنا أمر رسالة في المثلثات الكُرِيَّة

لأبي الوليد الذي ليس، بالحقيقة، سوىٰ أبيٰ الوليد محمد بن رشد.

ويمكن أن نَسْرُد في هذا السِّفْر أسماء كثير من العلماء الذين زاولوا الرياضيات بنجاح حتىٰ القرن الخامس عشر فحكىٰ الغزيريّ عنهم، ولكننا لم نجد بينهم راصدًا واحدًا بالمعنىٰ المقصود، ولم يُشَرْ إلىٰ أسماء تآليفهم، فنعدُّ هذا فراغًا يجب ملؤه، ومما لا ريب فيه أن كان لمدرسة بغدادَ ممثلون مشهورون في الأندلس فنعلم اليوم أنهم سبقوا كوبرنيك وكيبلر في نظرية الحركة الإهليلجية للسيَّارات.

ولم تبقَ إفريقِيَة الغربية كَسْلَىٰ في ذلك الدور الذي انتهىٰ بانتهاء القرون الوسطىٰ، فقد نافست سَبْتَةَ وطنجة وفاس ومَرَّاكُش فيه قرطبة وأشبِيليةَ وغرناطة، فمن مدارسها ظهر أساتذة بارعون تشهد مؤلفاتهم الكثيرة في مختلف فروع العلوم بعلو كعبهم، ونعرف البطروجيَ وأبا الحسن وحدهما بمؤلفاتهما، فأما البطروجي فظهر حوالي سنة ١١٥٠ فرصد في ذلك الحين مَيْل سَمْت الشمس، وقرأ البطروجيّ كتاب بطليموس فثار علىٰ التعقيد الذي في نظرية دوران المدار البعيد من المركز والدائرةِ، التي وسطها علىٰ محيط دائرة أكبر منها، حول مراكز صفرةٍ متحركة بذاتها، فعرض طريقة جديدة سُدل عليها ستار من النسيان العميق مع أنها تنطوي علىٰ ميلٍ مباركٍ إلىٰ التحرر من نظريات الأقدمين المختلة، وأما أبو الحسن فكان راصدًا بصيرًا جاب في أوائل القرن الثالث عشر جنوب إسبانية وقسمًا كبيرًا من إفريقِيَة الشمالية فأبان ارتفاع القطب في إحدىٰ وأربعين مدينةً واقعة بين إفران علىٰ المحيط الأطلنطي، وعاصمة مصرَ، أي ما تعدل مسافته تسعمائة فرسخ من الشرق إلىٰ الغرب، وألف أبو الحسن كتاب «المبادئ والغايات» فنشرتُ ترجمة والدي إمانويل في سنة ١٨٣٤ وسنة ١٨٣٦ بعد أن نال والدي بسببها إحدىٰ الجوائز الكبرىٰ التي تمنح في كل عشر سنين، موجهًا أنظار العلماء إلىٰ عدة مسائل غامضة في الفلك والجغرافية الرياضية، سائرًا بالعلم خُطوةً مهمة إلىٰ الأمام، مُثْبتًا أن البحث الجدِّي في آثار ذلك الزمن يؤدي، لا ريب، إلىٰ الاطلاع علىٰ كثير من الجزئيات المفيدة الجالبة للنظر، فالعرب قد تحرروا بالتدريج من الأصول المقررة في الحقيقة، فصرتَ ترىٰ زوال الاحترام

الخرافيَّ لكل ما يأتي من الأوائل شيئًا فشيئًا فآخذ هِلّي البتانىٰ عليه، فأصبحتَ تبصر مهاجمه نظريات بطليموسَ بشدة، فأضحيتَ تشاهد نِقاشًا حول سكون الأرض، فغدوتَ تتوقع ظهور عالم مثل كوبرنيك.

ولنعد إلىٰ المشرق الذي ما انفك يحترق منذ أوائل القرن الحادي عشر من الميلاد فأسفرت فتوح محمود الغزنوي وغارةُ الأتراك السلجوقيين والحروبُ الصليبية وهدمُ السلطان الأيوبي الأول صلاح الدين لخلافة القاهرة (١١٧١) وهدمُ الخان المغولي هولاكو لخلافة بغدادَ (١٢٥٨) عن تغيير عميق في الوضع السياسي بآسية.

ما فتِئ العلم يكون ثابت الحُظوة مع ذلك، وما فَتِئَ حملته محافظين علىٰ أمانته مع ذلك، وليس لدينا أيُّ عرضٍ محكمٍ لآثار ذلك الدور خلا بعضَ الأسماء، كالقصري Casari (؟) المتوفَّىٰ ببغداد سنة ١٠٢٢، والطبيب الفلكي ابن سينا المتوفىٰ سنة ١٠٣٦، وصانع الأسْطُرلابات الفتحِ بن نجبة المتوفىٰ سنة ١٠٥٨، وأبي الفتح عبد الرحمن المتوفَّىٰ حوالي سنة ١٠٦٤، ومن لم يعرف تاريخُهم بالضبط كالتنوخيّ والحسن بن الصباح والخازنِ ومحمد بن كثير الفرغاني، إلخ.

ورَصَد المُعِين مَيْل سَمْت الشمس في سنة ١١٤٠، واشتهر التوفيقيُّ بدمشق حوالي سنة ١١٢٠، واشتهر في أصفهانَ عبد الله بن شاكر المدنيّ حوالي سنة ١١٧٠، وصاحبُ الأزياج المعتبرة أبو حنيفة حوالي سنة ١٢٢٠، واشتهر في مَرَاغَةَ السموءلُ بن يحيىٰ حوالي سنة ١١٦٠، واشتهر في بغداد أبو أحمد الغازل في سنة ١٠٩٠، وهبة الله في سنة ١١٢٠، والخاقانيّ المتوفىٰ حوالي سنة ١١٣٥، ومبشر بن أحمد المتوفَّىٰ سنة ١١٩٣، ومحمدُ بن مبشر المتوفَّىٰ سنة ١٢٢١، ونصيرُ الدين الطوسيُّ الذي سنتكلم عنه بعد قليل.

وحدث من الأحوال المباركة ما حفَز النفوس إلىٰ النشاط العلمي، فبينما كانت خِلافةُ المشرق تفَقْدِ أجملَ ولاياتها بالتتابع كان الغالبون يَدِينون بالطاعة لتفوُّق المغلوبين الثقافي فيدرسون كتبهم ويستضيئون بنورهم، ومن أولئك الغالبين نذكر محمودًا الغزنويَ (٩٩٧-١٠٣٠) الذي استدعىٰ إلىٰ بَلاطه البيرونيَ فلم يلبث

صيت البيرونيَ أن عمَّ أرجاء المشرق، فانتهت إلينا منه معارفُ ذات قيمة عن الهند، وجمع السلطان السلجوقي جلال الدين ملكشاه حَوْلَه صفْوة فلكيي زمانه فأطلق اسمه علىٰ التقويم الجلاليّ، ثم مضت مئتا عام علىٰ ذلك ففوَّض حفيد جنكيزخان هولاكو، الذي أضحىٰ سيد بغدادَ، إدارة مَرصَد مراغة إلىٰ نصير الدين الطوسيّ، علىٰ حين كان جمال الدين ينقل علوم العرب إلىٰ الصين مع الخان الأكبر كوبلاىٰ، وشَمَل السلطان المملوك قلاوون (١٣١٠-١٣٤١) الآدابَ بعينِ عنايته، فصرْت تبصر من خلال الفتن التي اشتعلت بعد وفاته ابن الشاطر يرْصُد في دمشق ويؤلف أزياجًا أصح من أزياج أسلافه، ولم يبدُ سلاطين آل عثمان الأولون أقل ميْلًا إلىٰ أعمال الذكاء، وأسَّس حفيد تيمورلنك، أولوغُ بك التتريّ، مَرْصدًا بسمرقند في القرن الخامس عشر فأشرف بنفسه علىٰ الأرصاد الفلكية فتَجِد في أزياجه أثرًا مجيدًا لجهوده ولوْذعِيَّته كما نذكر ذلك عما قليل.

حقًا أنه لمنظرٌ رائع أن نرىٰ انتصار سلطان حضارة العرب علىٰ همجية فاتحي الشمال أولئك الذين انقضوا علىٰ آسية الغربية والجنوبية.

واغتنم البيرونيّ (محمدُ بن أحمد أبو الريحان)، الذي كان مُشيرًا وصديقًا لمحمود الغزنويّ (١٠٣٠)، فرصةَ إقامته الطويلة بين الهندوس فتبادل هو وإياهم معارفَ مدرسة بغدادَ وتقاليدَ الهند القديمة والحديثة، والبيرونيّ إذا كان قد وَجَد بين تلك التقاليد أثرًا للعلم اليوناني الذي أدخل إلىٰ الشرق حوالىٰ القرون الأولىٰ من الميلاد أو بعد ذلك بفضل النساطرة فإنه أطلع أهل الهند علىٰ اكتشافات بنىٰ وطنه ونشر في طريقه كثيرًا من الآراء الجديدة.

والهنودُ، كالصينيين، قد اقتبسوا معظم معارفهم العلمية من الخارج كما يظهر، أجل، إن «السندهند» نقل إلىٰ العربية في عهد المنصور فنَمَّ علىٰ أنه ذو مسحة مبتكرة من بعض الوجوه، غير أنه لو وُجد في الهند، أيام الإسكندر، علمٌ فلكي راق لعرفه أرسطو وحدث عنه، ومن المرجح أن يكون الإغريق المبعدون، الذين حملوا إلىٰ آسية أفكار اليونان في قرون الميلاد الأولىٰ، أدخلوا إلىٰ الهند أساليبهم الخاصة التي قد تكون مختلفة عن المجسطىٰ لبطليموس، وفي هذا تجد السبب في أن العرب الذين استنبطوا معلوماتهم الفلكية الرياضية الأولىٰ

من رسالة هندوسية سموا علم الهندسة بعلم الهند، وسموا الآلة التي وصفها برقلس لتعيين خطِّ نصف النهار بالحلقة الهندية، وسمَّوا الأعداد العُشْرية، التي تدل جميع الظواهر علىٰ أصلها الغربي، بالأرقام الهندية، وعزوْا ارتجاج الثوابت، الذي ذكره ثاؤن، إلىٰ أصل هنديّ، وأما البروج القمرية التي ذكرت في كتب قدماء الهندوس فحاول مسيو بيوت حديثًا أن يعزو شرف اكتشافها إلىٰ الصينيين علىٰ غير حق وذلك بخلطه بين الألفاظ خلطًا هزيلًا، فلم يكن بدء التفكير فيها خاصًّا بأمة دون أخرىٰ، فذلك مشتركٌ بين جميع أمم الرُّعاة التي اتخذت القمر أساسًا لتقويمها.

وأعلن البيرونيُّ أنه حبَا الهندوس بمختارات من مخطوطات الإغريق والعرب، وكان للبيروني الأثر البالغ في المشرق زمنًا طويلًا، وبالبيرونىٰ استشهد في أرجاء الشرق، فاقتبس العالم الجغرافي أبو الفداء منه أزياجَه في تعيين طول أماكن الأرض وعرضها، واستند أبو الحسن المراكشي إلىٰ آرائه في علم الفلك، وأجمع الرياضيون علىٰ امتداح البيروني، وإذا كانت كتب البيروني المهمة لم تصل إلينا فإن ما لدينا من منتخباته يكفي للاعتراف بفضله الراسخ في شتىٰ العلوم.

وما أمر به السلطان السلجوقي ملكشاه من الأرصاد الفلكية بعد خمسين سنة أدَّىٰ، في سنة ١٠٧٩، إلىٰ إصلاح التقويم قبل الإصلاح الغريغوريّ بستمئة سنة فكان أصح منه، فانظر إلىٰ حولية مكتب العروض لسنة ١٨٥١ تجدها تنص علىٰ أن معدل السنة المتوسط منذ ٢٤٢٢ سنة هو ٣٦٥ يومًا، وتفترض أن التقويم الفارسي الجديد لا ينطوي علىٰ غير خطأ يومين في كل عشرة آلاف سنة، علىٰ حين يؤدىٰ التقويم الغريغوريّ إلىٰ خطأ ثلاثة أيام في كل عشرة آلاف سنة، وظهر فلكيو العرب الذين كان علىٰ رأسهم عمرُ الخيام وعبد الرحمن الخازني أدنىٰ إلىٰ الصواب، فهم، بدلًا من أن يقولوا بثماني سنوات كبيسة في كل ثلاث وثلاثين سنة علىٰ نمط واحد، قدروا تسعًا وثلاثين سنة كبيسة في كل ١٦١ سنة، أي ما يجعل عدد أيام السنة ٣٦٥ يومًا في ٢٤٢٢ سنة، أي ما يطابق تقاويمنا الحديثة مطابقةً تامة.

واختلط تاريخ سلاطين آل سلجوق بأخبار الحروب الصليبية منذ القرن الثاني عشر، فظلت العلوم في المشرق مغطاة، طيلة هذه الحروب، بغطاء لم يرفعه أحد بعد، وهذا لا يعنىٰ أن الدراسات الجدية هجرت ما أبصرنا خان المغول هولاكو يجمع في بلاطه (١٢٥٩) علماء اشتهروا بمعارفهم الرياضية والفلكية.

وأشهرُ هؤلاء العلماء هو واضع الزيج الإيلخانىٰ نصيرُ الدين الطوسي، ووَجد هذا العالم في نِعم مولاه الجديد ما يشجعه، فأقام مرصَد مراغة، وجَمع بعناية ما هو منثور في خراسان وسورية وبغداد والموْصل من المخطوطات، ولم يأل جهدًا في إكمال الآلات التي يستعملها في أرصاده، ومما صنعه إحداث ثقب في قبة المرصد تنفذ منه أشعة الشمس علىٰ وجه تعرف به درجات حركتها اليومية ودقائقها وارتفاعها في مختلف فصول السنة وتعاقب الساعات، وهذا يعنىٰ تطبيقًا جديدًا للميل ذي الثقب الذي أستعان به العرب منذ القرن العاشر، ومن هذا الميل وذات الحلق الكبرىٰ التي تشابه آلة تيخوبراهه وأرباع الدائرة المتحركة والكرات السماوية والأرضية وأنواع الاسطُرْلاب تتألف مجموعة آلات مهمة استعان بها نصير الدين الطوسي، وساعد نصير الدين في أعماله مؤيد الدين العرضي الدمشقي وفخر الدين الخلاطىٰ التفليسىٰ ونجمُ الدين بن دبيران القزوينيُّ وفخر الدين المراغي الموصلي ومحيي الدين المغربي وغيرهم فأنجز في اثنتي عشرة سنة من الأعمال ما يتطلب ثلاثين سنة علىٰ حسب الحسابات الأولىٰ، وعلمنا أنه اقتبس الزيج الحاكمي لابن يونسَ مع إدخال تعديلات مفيدة قليلة إليه، ففتح دور إقبال كبير علىٰ الرصد، ولخص علي شاه البخاري والندام Alnoddam (؟) ونجم الدين بن اللبودي الزيج الإيلخاني، وصحح هذا الزيج غياث الدين جمشيد بن مسعود الكاشي فكان معول جميع المدارس الفلكية حتىٰ ظهور ابن الشاطر الذي عدل في سنة ١٣٦٠ شيئًا مما ارتضاه أسلافه من النتائج.

إذن، أعاد مغول بلاد فارس إلىٰ المدرسة العربية بعضَ روْنقها، وترىٰ، من ناحية أخرىٰ، كوبلاي خان، أخا هولاكو خان، فقد أتم فتح الصين فنقل إلىٰ مملكة ابن السماء رسائل علماء بغدادَ والقاهرة، وتلقي كوشو كينغ في سنة ١٢٨٠

أزياج ابن يونس من جمال الدين الفارسي فدرسها دراسة دقيقة، وما كان من عرْضِ غوبيل لآثار كوشو كينغ يكشف القناع عن أصلها.

وابنُ الشاطر، الذي يعدُّ وارثًا لشهرة نصير الدين الطوسي في منتصف القرن الخامس عشر هو دمشقي الأصل، وذكر إدوارد برنارد بعض أرصاده في كتاب أرسله إلىٰ فلامستيد فعَيَّن بالضبط تاريخ آثاره، ونعلم من ديو بلوت أن شمس الدين الحلبي وشهابَ الدين أحمد ومحمدَ بن إبراهيم المكنَّىٰ بابن زرين الخيري اقتدوْا بابن الشاطر في وضع أزياجهم الفلكية، بيد أنه لم يبحث في هذه الآثار قطُّ، وإذا كانت قوائم مكتبات أوربة المهمة قد ذكرتُ بعضها ذكرًا مفرقًا فإن بقايا هذه الآثار المهمة تزيد في عدد المخطوطات التي ظلَّ مؤلفوها مجهولين فلم يكلف أحدٌ نفسه مشقَّة تصفحها.

وفيما كان ابن الشاطر ينشر أزياجه بدمشق تحت رعاية سلاطين المماليك إذ ظهر فاتح جديد في شمال آسية اسمه تيمورلنك، وكان تيمورلنكُ أميرًا عاديًا في كش فأعمل سلاحه الأول في خيوة فاغتنم فرصة ضعف المغول فأقام في سمرقند دولةً لم تَنشَب أن اتسعت اتساعًا عظيمًا.

وأضحىٰ تيمورلنك سيد بلاد ما وراء النهر في سنة ١٣٧٠، وأخضع تيمورلنك بالتتابع قفجاق وَخُوَارِزْم وَخُرَاسان وأذْرَبيجانَ وجورجية، ثم هاجر المماليك علىٰ غير جدوَىٰ، فعطف علىٰ الشرق ففتح التركستان وفارس، ثم استولىٰ علىٰ دِهْلىٰ بعد بضع سنين فاعترفت الهند بسلطانه، فَعَنَّ له، إذ ذاك، أن ينفذ خططه ضد المماليك فانقض علىٰ سورية وخرب دمشق وهدم مسجدها الشهير ودَمر بغداد في سنة ١٤٠١.

ولم تقف انتصارات ذلك الفاتح عند هذا الحد، فقد استدعاه ميخائيل بَليولُوغ والأمراء المستقلون الذين كان يهددهم الترك العثمانيون، فسار إلىٰ منازلة السلطان بايزيدَ فغلبَه في معركة أنقرة فتصرف في ولاياته تصرفًا ملائمًا لموسىٰ جلبي بن بايزيدَ.

جاءت تلك الفتوح السريعة الواسعة مجدِّدة لعهد جنكيزخان، وظلت الصين بعيدة من دائرة مطامع سيد آسية الجديد تيمورلنك، وخف تيمورلنك إلىٰ دخول

قطایٰ والانتقام من مملكة ابن السماء التي طردت أبناء كوبلایٰ في سنة ١٣٦٨ فهلك وهو في التاسع والسبعين من عمره في مدينة أنذار قبل أن يصل إلىٰ غايته (١٤٠٥)، فأسفر موته عن تمزيق دولته، فاستردت البلاد الواقعة غرب دجلة وشمال الرسِّ وجنوب سيحون وشرقه استقلالها، وظلت بلاد فارس وما وراء النهر وقسم الهندوستان الشمالي خاضعةً لابن تيمورلنك الرابع شاهرخَ لما أبداه من الحكمة والحزم فدام سلطانه الهادئ حتىٰ منتصف القرن الخامس عشر.

صارت سمرقند أغنىٰ مدن الشرق وأنضرهَا، وحشر تيمورلنك فيها أشهر العلماء والأدباء ورجال الفنِّ، وكان تيمورلنك ذا وقوف علىٰ الرياضيات والفلسفة فأقام في عاصمته مجمعًا للعلوم، وسَلَك شاهرخُ سبيل أبيه فأفاد من صلاته بأهم ملوك زمانه فنال أندر المخطوطات وأكثرها قيمة فجمع مكتبة فخمةً.

ونقل شاهرخ عاصمته إلىٰ هراة، ولم تخسر سمرقند شيئًا من عظمتها، وعهد إلىٰ أولوغ بك بن شاهرخ في حكومة بلاد ما وراء النهر فأكبَّ، بميله الغريزيّ، علىٰ علم الفلك تحت رعاية أبيه، فكان يشرف بنفسه علىٰ الرَّصد فأوجب وضع زيج جديد عُدَّ تكملة لأعمال مدرسة بغداد، فخلد به اسمه، ووَدَّ أولوغ بك أن تكون تصميمات هذا الزيج صحيحة فلم يدخرْ وسعًا في الحصول علىٰ أصلح الآلات فكان علو ربع الدائرة الذي استعمله في حساب ارتفاع القطب بسمرقند يعدل علُو كنيسة أيا صوفية في القسطنطينية، أي ما يعدل مائةً وثمانين قدمًا، أجلْ، إن شرف التصميم الأول لتلك الآلات لا يعود إلىٰ أولوغ بك كما أشرنا إلىٰ ذلك آنفًا، ولكن من الفضل أن تدرك أهميتها وأن يحسن تطبيقها، ونذكر من العلماء، الذين جمعهم هذا الأمير الشهير حوله، حسن جلبي المعروف بقاضي زاده، وغياثَ الملَّة والدين جمشيد، وعلىٰ بن محمد قوشجي الذي عاش إلىٰ ما بعد مولاه، ونضيف إلىٰ هؤلاء ميرم جلبي بن قاضىٰ بن زاده الذي ألف شرحًا حسنًا لأزياج أولوغ بك، ومحمود شاه قولجي الذي أظهر غريفس رسالةً مهمة له.

ومن الحق أن عُدَّ أولوغ بك الممثل الأخير لمدرسة بغداد، ويفصل قرن ونصف قرن أولوغ بك عن كيبلرَ الخالدِ الذي قلب فرضيات الإغريق ومناهجهم

رأسًا علىٰ عقب فغدا، بمبادئه الجديدة العظيمة، أحدَ مبدِعي علم الفلك الحديث.

والعربُ، حين زاولوا علم الهيأة، عُنُوا عنايةً خاصة بالعلوم الرياضية كلها، فكان لهم فيها القدح المعلَّىٰ، فكانوا أساتذة لنا في هذا المضمار بالحقيقة، والعرب لم يضربوا بسهم وافر في الهندسة والحساب والجبر فقط، بل تم للبصريات والميكانيكا علىٰ يدهم تقدمٌ كبير، فترجم إلىٰ العربية ما كتبه أقتيزيبيوس وإيرُن الإسكندراني في تفريغ الهواء ورفع الماء، وترجم إليها كتاب إيرُن الشابِّ في آلات الحرب، وليس بمجهول أمر ترجمة الرسالة المسماة باروقْلُنْ فأتىٰ بها غوليوس من الشرق، وإذا كانت كتب العرب في تلك الناحية من العلم لم تنته إلينا، وإذا كنا نأسف علىٰ ضياع كتاب ابن الهيثم في الالتفاتات وكتابه «المَرَايا المُحْرقة»، فإننا نذكر، علىٰ الأقل، كتاب الحسنِ (بن الهيثم) في البصريات المشتمل علىٰ آراء صائبة في الانكسار، وفي مكان الخيال الظاهر في المرايا المحدبة، وفي محترق المرايا المحرقة، وفي جسامة الأشياء الظاهرة، وفي تضخم الشمس والقمر عند الأُفُق.

وكانت لعلم الجبر، عند العرب، تطبيقاتٌ مفيدة، والعرب هم الذين أطلقوا عليه هذا الاسم فقالوا: «الجبر والمقابلة»، ولم يثبت، حتىٰ الآن، أن أصل هذا العلم هندي، وإذا كانت رسالة محمد بن موسىٰ، التي وضعت بحسب مبادئ الهندوس، تختلف اختلافًا كبيرًا عن الشذور التي انتهت إلينا من ذيوفَنطِس، فإن كل شيء يحمل علىٰ الظن بأن مصدر المنهاج المستعمل في الهند يونانيٌّ، وعرضنا في مكان آخر الأسباب التي تسوغ هذا الرأي، ونضيف إلىٰ ذلك أن علم الجبر لم يظل راقدًا في أيدىٰ العرب، والعربُ هم أول من عالج المعادلات المكعبة، ومن المؤسف حقًا أن كان ما لدينا من الوثائق التاريخية في علم الجبر لا يؤدىٰ إلىٰ كبير طائل، ونأسف، عند تأييد مباحثنا الخاصة لافتراضات مونتوكلا، علىٰ تقصيرنا في درس رسائل الجبر التي جادت بها مدرسة بغداد، وقل مثل ذلك عن علم الحساب الذي نقله العرب إلينا مع طريقتنا في التعداد، ولم نظفر إلىٰ اليوم بترجمة موثوق بها عن كتاب للعرب في الأنساب العددية

(اللوغارتمة)، وكل ما يعرف في الوقت الحاضر هو أن الهندوس لم ينتحلوا الأرقام إلا في وقت حديث وأن جميع الظواهر تدلُّ علىٰ اقتباسهم لها من الغرب، ومن الهندوس استعار العرب الأرقام، فلما نقلوها إلينا كان ذلك علىٰ شكل آخر، ومن المفيد أن نقف علىٰ التغييرات الكثيرة التي اتفقت للأرقام بإفريقِيَة والأندلس في القرون الوسطىٰ قبل أن تصل إلينا علىٰ الوجه الذي نستعملها به، وترانا مدينين للعرب، فضلًا عن ذلك، بالأرقام الصغيرة التي تستخدم في تقاويمنا لتعيين السيارات السبع لدىٰ الأقدمين.

وأحسنُ من ذلك قليلًا وقوفنا علىٰ آثار أسلافنا في علم الهندسة، فنرىٰ مؤلفات أقليدس وثاذوسيوس وأبلُّونيوس وإبذقليس ومنالاؤس قد ترجمت منذ عهد المأمون، وشرح كتاب الكرة والأسطوانة لأرشميدس، وكتب أرشميدس الأخرىٰ علىٰ الأرجح، وما أنتجه مهندسو العرب من الكتب الكثيرة في عدة قرون يثبت أنهم عُنُوا بأشد مسائل العلم عوصًا، ويبدو نشاطهم في وضع هذه المسائل علىٰ محك النقاش من مراسلاتهم الرياضية التي جمعنا قطعًا منها.

وزعم، في زمن غير قصير، أن العرب لم يصنعوا غير استنساخ مؤلفات اليونان، ولا يؤيد مثل هذا الزعم في الوقت الحاضر غير جاهل ضال، ونشكر لمدرسة بغداد الشكل الذي خلعته علىٰ علم المثلثات الكُرِيَّة فضلًا عن حفظها لأهم مؤلفات علماء الإسكندرية، والعربُ قد أدخلوا المماسَّ إلىٰ الحساب واستبدلوا بالطرق القديمة حلولًا أكثر بساطة حين وضعوا بضع قضايا تعد أساسًا لعلم المثلثات في الوقت الحاضر.

وأظهرنا رسالة ابن الهيثم الصغيرة في الهندسة النظرية فوجدناها غير خالية من آراء فيما بعد الطبيعة علىٰ حسب عادة العرب في مؤلفاتهم، وبهذه الرسالة ألحقنا ثلاث رسائل للسنجاري، الذي ذكره مونتوكلا مؤلفًا لرسالة في الصور الناشئة عن قطع المخروط، وفصلًا من كتاب الإمام المظفر الإسفرليدىٰ في ظاهرات أقليدس، وقطعة من ابن رشد في علم المثلثات الكُرِيِّ، ويمكن ملء مجلدات من المختارات المفيدة في مؤلفات رياضي العرب، ولا نسرد هنا أسماء كتبهم، فتاريخ العلم عند إحدىٰ الأمم يقوم علىٰ بيان مبتكرات هذه الأمة فيه أكثر

مما علىٰ ترتيب جداول لعناوين ما ألفت، فنحيل القارئ إلىٰ قوائم مكتبات أوربة الزاخرة بالكنوز الدفينة التي لم يقع ريادها بعد، مكتفين بالنبذة الآتية التي اقتطفناها من مذكرة مسيو شاسل النفيسة في مناهج الهندسة، قال شاسلُ:

«كان تلميذ محمد بن موسىٰ، ثابت بن قرة، مهندسًا مشهورًا حافظًا لجميع الرياضيات، ونذكر من مؤلفاته الكثيرة، التي تجد أسماءها في قائمة الغزيرىٰ، رسالةً في الجبر والهندسة وقف بها أنظار المهندسين لتطبيقه الجبر علىٰ الهندسة فيها، وهذا الكتاب، لا ريب، هو الذي حمل مونتوكلا علىٰ قوله: «إن لثابت كتابًا في تطبيقات الحساب الجبري يعلم منه أن العرب طبقوا الجبر علىٰ الهندسة»، وهذا الافتراض قد تحول إلىٰ يقين بنشر كتاب محمد بن موسىٰ وبنشر قطعة في الجبر (وُجدت في المخطوط العربي رقم ١١٠٤ من المكتبة الإمبراطورية) حيث حلت معادلات الدرجة الثالثة حلا هندسيًا.

«بيد أنه لم يصنع حتىٰ الآن سوىٰ معادلات عددية، فالعلمُ مدين لفيات في خطوته الواسعة للوصول إلىٰ مبدأ المعادلات القائمة علىٰ الحروف.

«وعلىٰ ما في تأملات العرب الجبرية تلك من تقييد نرىٰ العرب عرفوا الجبر وعرفوا التعبير عن الدساتير بخطوطٍ وعرضَ معناها علىٰ الأعين، أي قاموا بفن جميل ثمين أسِف كيبلرُ علىٰ جهله له، وكان من الأمور العظيمة التي وضعها فيات نصب عينيه.

«ظُنَّ، علىٰ الدوام أن العرب لم يجاوزوا حدود معادلة الدرجة الثانية، وقام هذا الرأي علىٰ وقوف فيبوناكىٰ ولوقا البورغويِّ عند نقطة العلم هذه، ومونتوكلا هو أول مَن شكوا في ذلك فظهر له أن من المحتمل أن يكون العرب أتَوْا بمعادلات من الدرجة الثالثة مستندًا إلىٰ عنوان كتابٍ في الجبر المكَعَّب جاء به غوليوس الشهير من الشرق فحفظ في مكتبة ليدن، وجاءت القطعة الجبرية في المخطوط (رقم ١١٠٤) مصدقة لما ذهب إليه مونتوكلا، فكشف بها عن وجه الحق في مسألة من أهم مسائل تاريخ العلوم عند العرب.

وعلمُ المثلثات من العلوم الرياضية التي عنىٰ العرب بها كثيرًا لما كان من تطبيقاتها علىٰ علم الفلك، وعلم المثلثات مدين للعرب بما أدخلوه إليه من

التحسينات الكثيرة فاكتسب بذلك شكلًا جديدًا، فجعلوه صالحًا لبعض التطبيقات صلاحًا لم يقدر اليونان عليه إلا بشق الأنفس.

«ويرجع أول تقدم في علم المثلثات إلىٰ البتانىٰ، فقد بدَا لهذا الفلكي العظيم، الملقب ببطليموس العرب (أو من ظهر قبله من علماء مدرسة بغداد علىٰ الأقل)، فكرٌ خصيب مبارك، بَدَا له أن يستبدل الأقواس بالأوتار التي كان الإغريق يستخدمونها في حساباتهم المثلثية، أي أنصاف الأوتار للأقواس المضاعفة، أي جيوب الأقواس المقترحة، ومن أقوال: البتانىٰ: «لم يستعمل بطليموس الأوتار الكاملة إلا لتسهيل التطبيقات، وأما نحن فقد اتخذنا أنصاف الأقواس المضاعفة*»، وانتهىٰ البتانىٰ إلىٰ الدستور الأساسي للمثلثات الكُرِيَّة فطبقه غير مرة، وتجد في كتب البتانىٰ، لأول مرة، مبدأ مماس القوس وتعبير (جيب/ تمام الجيب) الذي لم يستعمله الإغريق قط، وأدخل البتانىٰ هذا المبدأ إلىٰ حسابات الساعة الشمسية فسماه بالظل الممدود، وليس هذا سوىٰ المماس المثلثىٰ عند علماء الزمن الحاضر، ويرىٰ أن البتانىٰ وضع أزياجًا مضاعفة توجب من الظلال ما يطابق سموت الشمس، ومن السموت ما يطابق الظلال، أي مماسات الأقواس والأقواس المطابقة للمماسّات، غير أن أزياج البتانىٰ حسبت لنصف القطر المساوي لـ ١٢ علىٰ حين كانت جداول خطوط الجيب من أجل نصف القطر المساوي لـ ٦٠، وهذا يدل علىٰ أن البتانىٰ لم يفكر في إدخال خطوط المماس إلىٰ الحسابات المثلثية.

«وظهر أبو الوفاء وابن يونس بعد البتانىٰ بقرن فقاما بهذه الخطوة الجديدة.

وبعد أن عرض أبو الوفاء (٩٣٧-٩٩٨) نظرية الجيب عَرف خطوطًا مثلثيًة أخرىٰ واستعملها في كتابه ليستخدمها في حل مسائل علم الفلك الكري الكثيرة.

«وتلك الخطوط هي المماسَّات وخطوط تمام المماس، التي سماها أبو الوفاء بظل التفاضل والظل المستقيم، كما سمىٰ الخط القاطع بقطر الظل، وحسب أبو الوفاء خطوط المماس لنصف قطر مساوٍ لـ ٦٠ ولم يحسب الخطوط القاطعة.

«ولم يكن هناك جدول لتلك الخطوط المماسة، والذي نَوَد معرفته هو تاريخ إدخالها إلىٰ المثلثات.

«لم يقع هذا الانقلاب المبارك الذي تحرر العلم به من تلك التعابير المركبة المزعجة المشتملة علىٰ جيب المجهول وتمام جيبه إلا بعد خمسمائة سنة بفضل ريجيو مونتانوس، مع أن كوبرنيك جهله بعد قرن.

واستخدام ابن يونس (٩٧٩-١٠٠٨) الظلالَ أو خطوط المماس وتمام المماس فكانت له تقاويم سِتِّينِيَّة.

«وابن يونس هو أول من فكر في حساب الأقواس الثانوية التي تصبح الدساتير بها بسيطة فتغنىٰ عن الجذور المربعة التي تجعل المناهج صعبة، وظلت هذه الحيل الحسابية التي أضحت أمرًا عاديًا في أيامنا، مجهولةً في أوربة، ولم يعثر علىٰ أمثلة منها إلا في كتب سيمبسون بعد سبعمائة سنة.

«وعلمُ المثلثات الكُرية مدين للعالم الفلكي جابر، الذي يفترض وجوده حوالىٰ ١٠٥٩، في دستوره الخامس من دساتيره الستة التي تنفع في حلِّ المثلثات القائمة الزوايا، وأما الدستور السادس فظلَّ مجهولًا حتىٰ القرن الخامس عشر حين اكتشفه فيات.

وهذان الدستوران هما اللذان يشتملان علىٰ زاويتي المثلث الحادتين، وما كان لدىٰ الإغريق سوىٰ الدساتير الأربعة الأولىٰ التي كانوا يكتفون بها، وذلك لأن أمرَ الزوايا الثلاث المعروفة لم تبد لهم في تطبيقاتهم المثلثات علىٰ علم الفلك.

«تلك هي الإصلاحات الأساسية التي أدخلها العرب إلىٰ علم المثلثات.

«والعرب قد استطاعوا بفضلها أن يزاولوا علم الفلك بنجاح، ويمكننا أن نعُدَّ علماء كثيرين من العرب أولعوا بعلم المثلثات، ولا نرىٰ أن نبين هنا ما تم لهذا العلم من تقدم علىٰ يدهم، وإنما نقول بضع كلمات حول أحد تطبيقاته، وهو صناعة الساعات الشمسية التي ليست سوىٰ مسألة هندسية بحتةٍ.

كان العرب يعنون كثيرًا بصناعة المزَاول التي كانت الوسيلة الوحيدة لمعرفة الوقت، فصرت ترىٰ منذ القرن التاسع مهندسين مشهورين منهم يعملون في حقلها.

«وإلىٰ هذه الصناعة يشير، لا ريب، كتاب للكنديّ اسمه: «عمل الساعات

علىٰ صفيحة تنصب علىٰ السطح الموازي للأفق»، وكتاب آخر له اسمه: «استخراج الساعات علىٰ نصف كرة بالهندسة»، وكتاب لثابت بن قرة اسمه: «آلات الساعات التي تسمىٰ رخامات»، وكتابٌ ثانٍ له اسمه: «قطع المخروط المكافئ»، ومن هذا الاسم نستدلُ علىٰ أن ثابت بن قرة كان ينتفع من قطوع المخروط في صنع المزاول، وسنرىٰ أن مهندسًا عربيًا طبق هذا المنهاج بمهارة في القرن الثالث عشر، وموليكوس هو أول من انتبهوا إليه بين علماء الوقت الحاضر فخلع علىٰ عمله شكلًا مبتكرًا يفاخر به.

«وأبو الحسن علىٰ هو العالم العربي الذي نرىٰ الساعة الشمسية مدينة له أكثر مما لغيره، فهو واضع رسالة كاملة مفصلة في مِزولة العرب.

«وترىٰ في هذه الرسالة للمرة الأولىٰ خطوط الساعات المتساوية التي لا عهد لليونان بها، ويلوح لنا أن هذا الاختراع الذي حفظ لدىٰ المعاصرين مدينٌ لأبي الحسن نفسه (الفصل الرابع عشر من الباب الثالث) ويفصِّل أبو الحسن في ذلك الكتاب صنع خطوط الساعات الزمانية (المسماة أيضًا بالساعات القديمة والساعات المتفاضلة والساعات اليهودية) وينتفع بالقطوع المخروطية لوصف أقواس البروج، ويحسب الخطوط العدسية ومحاور هذه المنحنيات لتعيين عرض المكان وبعد الشمس من خط الاستواء وارتفاع ميل الساعة الشمسية.

«ويثبت هذا القسم من ذلك الكتاب أن المهندس الفلكي أبا الحسن كان لوذعيا، لم يثبت أبو الحسن قواعده هنالك، وتجد إثباتًا لها في رسالته «القطوع المخروطة» وينعم دولانبر نظره كثيرًا في ذلك الجزء الهندسي من كتاب أبىٰ الحسن فيراه أفضل من الطرق التي بينها كومانْدَنُ وكلافيوس اللذان رسما أقواس بروجهم بوسائل مستنبطة من نظرية المخروطات أيضًا.

وتعزىٰ إلىٰ أحد مهندسي القرن العاشر محمدٍ البغدادىٰ رسالة رائعة في تقسيم الأشكال فترجمها جان دىٰ وكُومانْدَن فكان موضوعها تقسيم أي شكل إلىٰ أجزاء متناسبة ذات أعداد مفروضة بخط مستقيم يرسم علىٰ حسب بعض الشروط، وفي هذه الرسالة اثنتان وعشرون قضية، ومن هذه القضايا سبع في المثلث وتسع في المربع وست في المخمس، ومؤلف الرسالة يعرض هذه القضايا علىٰ شكل مسائل فيعرض حلها مع الإثبات.

«وتعد تلك الرسالة متمة لرسالة في علم المساحةِ، وقلد مهندسو العصر الأخير تلك الرسالة فيما ألفوه من رسائل علم الهندسة العلمية.

«ورأىٰ دِي وَكومانْدَن أن مصدر تلك الرسالة هو أقليدس مستندين في ذلك إلىٰ أن بُرْقلس ذكر في شرحه للجزء الأول من كتاب الأركان أن أقليدس نصَّ علىٰ تقسيم الأشكال، ولم يشاطرهما سافيلُ هذا الرأيَ فظلت المسألة غير مقطوع فيها.

«وظهر من العرب علماء كثيرون بحثوا في البصريات، والحسن (بن الهيثم) هو أشهرهم، وانتهىٰ إلينا كتابه فنراه جديرًا بالاعتبار لما فيه من آراء هندسية صائبة واسعةِ المدَىٰ، ومما يسترعىٰ الانتباه فيه، علىٰ الخصوص، حله لمسألة خاصة بمعادلة من الدرجة الرابعة، وهي: «إذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين عليها، فكيف تجد علىٰ المرايا الكريَّة والأسطوانيةِ النقطة التي تتجمع فيها الأشعة بعد انعكاسها؟»، وشغلت هذه المسألة أذهان كثيرين من مهندسي الزمن الحاضر مثل سلوز وهويجنَ وبارو، وأمير المشفىٰ و. ر. سيمسونَ فحلها هذا الأخير حلا هندسيًا فقط.

«ورأىٰ مونتوكلا أن كتاب الحسن هذا تقليدٌ لكتاب في البصريات لبطليموس، ولم يشاطره دولانبرُ رأيه مع تحيزه للإغريق علىٰ العموم، وأغرق دولانبر في بيان رأيه فذهب إلىٰ أن الحسن لم يطلع علىٰ رسالة بطليموس مستندًا في ذلك إلىٰ أن كتاب الحسن أسْمَىٰ من رسالة بطليموس بمراحل، والأمر مهما يكن فإن كتاب الحسن مما يُشَرِّف العرب، ويجب علينا أن نعده مصدر معارفنا في البصريات، وبهذا الكتاب استعان المهندس البولوني فيتيليون، الذي هو من أعلم علماء القرن الثالث عشر، فأفاد منه في تأليف رسالته في البصريات فكانت أول رسالة أتىٰ بها مهندس أوربي في هذا الموضوع.

«ثم ألف الحسن بن الحسن بن الهيثم، المتوفَّىٰ بالقاهرة سنة ١٠٣٨، كتابًا أساسيًا في المسائل الهندسية نسَج فيه علىٰ منوال أقليدس في كتابه «المعطيات»، فعد متمًّا له مع الفرق القائل بأن مسائل كتاب ابن الهيثم «مبتكرةٌ غيرُ معروفة لدىٰ القدماء» قائمة علىٰ قضايا مكانية علىٰ حين نرىٰ قضايا كتاب أقليدس عادية معينة.

«وكثير من تلك المسائل من نوع مفروضات ذلك المهندس اليوناني كما يراها ر. سيمسون، وذلك هو الكتاب الوحيد الذي يُرَىٰ بينه وبين رسالة أقليدس الشهيرة شبَهٌ ظاهرٌ حتىٰ اليوم، ولذلك الكتاب، بهذه الحال، رفع قيمةٍ كما نرىٰ، فلنا باكتشافه، الذي جاء مصدقًا من بعض الوجوه لرأي المهندس العالم كاستيلون القائلِ في القرن الثالث عشر بوجود رسالة أقليدسَ في الشرق، ما يجعلنا نأمل العثور علىٰ أثر لمنهاج تلك المسائل بين مخطوطات العرب الكثيرة الدفينة في أعماق مكتباتنا، ولا نعرف هل أشار ثابت بن قرة إلىٰ هذه المسألة في كتابه الذي نجد عنوانه بين المخطوطات الشرقية بمكتبة ليدن: «استخراج المسائل الهندسية» فأوجِّه نظر المهندسين العالمين باللغة العربية إلىٰ هذا الكتاب الذي يدعو إلىٰ الانتباه بعنوانه واسم مؤلفه.

«وقضايا الجزء الثاني المعروفة من ذلك الكتاب، وإن كانت من ذلك النوع، تختلف عن قضايا أقليدس، وهي وإن كانت مثلها من القضايا الهندسية الأولية (في الخط المستقيم والدائرة) يبدُو غير واحدة منها أكثر صعوبة، وهي من قبيل القضايا التي تفرض علىٰ شبان التلاميذ كتمرينات في مبادئ الهندسة.

«ويستحق كتاب ابن الهيثم ذلك أن يوضع بين معطيات أقليدس ومفروضاته وكتاب المحال المستوية السطوح لأبلُّونيوس من ناحية، وكتب ر. سيمسون وستيورات من ناحية أخرىٰ، ويعد مثل هذه الكتب متمًّا للهندسة الأولية المعدة لتسهيل حل القضايا النظرية».

وليس ما تم للجغرافية الرياضية من الرُّقي علىٰ يد العرب بأقل من ذلك، وأخذ سانسونُ وإيلُ في أواخر القرن السادس عشر ينبهون إلىٰ أغاليط تقاويم بطليموس، ولم يشك أحد في أن العرب أصلحوا أثر هذا العلم الجغرافي الإسكندري وفي أن اللاتين أنفسهم ابتعدوا عن الطريق التي رسمها هذا الدليل القليل الوفاء حتىٰ عصر النهضة، ومما يعلم أن إراتوستين كان أول يوناني حول تخطيط الأرض إلىٰ مذهب، وكانت معارفه ومعارف معاصريه الجغرافية محدودة إلىٰ الغاية، ويلوح، مع ذلك، أن آثارًا علىٰ شيء من الصحة كانت لديه، فلم يغلط في غير ٢٦ درجةً، تقريبًا، من البلاد المعمورة الواقعة بين المحيط

الأطلنطي ومصب نهر الغنج الذي افترض انصبابه في البحر الشرقي حيث أقصىٰ حدود اليابسة عنده.

بيد أن آثارًا مهمةً وجدت للتصميمات الجغرافية، وهي الرحلات التي كان القدماء ينتفعون بها، وإذا عدوْنا بوزيد ونيوسَ وجدنا أن الصورِي حاول أن يؤلف من تلك الرحلات جغرافية عامةً، وحصر مارين هذا طول الأرضين بين خطىٰ نصف النهار البعيد أحدهما عن الآخر ٢٢٥ درجةً، وكان الخط الأول يمر من الجزائر الخالدات وكان الخط الآخر يمر من سَرَا وتينة، وأغرق مارين في تقديرات إيراتوستين المختلة لجعله عددَ الدرجات بين الجزائر الخالدات ومصب الغنج ١٤٥ درجةً بدلًا من ١٢٦(د) ٧، ٣٤، ومن ٨٠ درجةً بين الغنج وتينة.

ثم جاء بطليموس فخفض درجات مارين الصوريَّ الـ ٢٢٥، فجعلها ١٨٠ درجة ولم يضع بطليموس آثار أسلافه علىٰ محك النقد فيظهر ما فيها من خطأٍ فيؤلف كتابًا علميًّا جديدًا، بل اقتصر، من غير تدقيق، علىٰ استنساخ أكثر المبادئ محلًّا للشك غير معدل شيئًا في خطوط الطول، التي ارتضاها مارين الصوري، بين الخالدات ورأس كوري بالهند فقرَّرها ١٢٥(د) ٣٠، من أول خطٍ لنصف النهار، جاعلًا مئة الدرجة التي بين رأس كوري وتينة ٥٤(د) ٤٠، ليصل إلىٰ الرقم ١٨٠ عن جميع امتداد اليابسة.

والحق أنه لا أحد مثلنا يعجب بأثر بطليموس الواسع الذي اقترن باسمه، وأهمية جغرافية بطليموس في تاريخ العلوم كأهمية المجسطىٰ فيه، وأما وقد اتخذ بطليموس مارين الصوري دليلًا له فإنه كان يجب عليه، علىٰ الأقل، أن يطرح جانبًا خرائطه التي تصور الأرض مبسوطة منتحلا مناهج إبَّرْخُس التي رسمت بها خطوط الطول وخطوط العرض علىٰ شكل دوائر متقاطعةٍ تتألف عند نقاط التقائها زوايا قائمة لا تزال معول الجغرافيين في وصف ما بين القطب وخط الاستواء، ومن الهُراء قول بعضهم «ما كانت نفس بطليموس العريقةُ في التنظيم لترضىٰ الانتفاع بالعناصر التي بين يديه قبل التدقيق فيها علىٰ ضوء ما لديه من المعارف الرياضية والفلكية»، فكتاب بطليموس جمَّاع، بالعكس، لجميع الأغاليط القديمة بعيد من الإتقان كل البعد عن تنقيص خطوط الطول، فضلًا عن تأثيره المشؤوم

في وقف سير المباحث الجغرافية ومنع تقدمها، وتحرر اللاتين والعرب في القرون الوسطىٰ من ربقته كما نرىٰ ذلك بعد قليل، ثم ظهر نجم بطليموس ثانية مع نهضة الآداب، فاتُّخذت تقاويمه أساسًا للعلم ونموذجًا لرسم الخرائط، ثم بدأ علماء العصر الحاضر جاهلين لآثار من ظهروا قبله، فلم يعلموا أنهم ضلوا إلا بعد تحسس في الظلام وإيقان باستحالة تطبيق طرقه.

وهنالك ظاهرة مهمة يسهل بيانها وهي: أن أغاتو دايمون بينما كان يرسم خرائط في الإسكندرية، معتمدًا علىٰ خطوط الطول وخطوط العرض لبطليموس ومارين الصوري كادحًا في الانتفاع بمنهاجهما الذي يثقل الكرة الأرضية بالقارات المجهولة، أبصر فريق من جغرافيي مختلف المدارس عيوب ما شاده هؤلاء مفضلًا عليها رسم الأرضين المسكونة علىٰ شكل مدور أو بيضي أو مربع، وأن النصارىٰ وجدو في هذا ما يلائم جغرافية التوراة أكثر من ملاءمة تلك، فكان ما نعلم من ابتعاد تخطيطات سان جيروم (٣٦٧) وإتيخوس (٤٠٠) وأوروز (٤١٦) ويوليوس أونوريوس (٥٠٠) عن المنهاج الإسكندري، وأوصىٰ كاسيودور الرهبان باعتماد كتاب يوليوس أونوريوس علىٰ الخصوص، وافترض إنديكو بلوستس (٥٥٠) أن الأرض المعمورة مربعة، ثم انتصرت فكرة كُرِيَّة الأرض فجعلت أورَشَليمَ (القدس) مركزًا لها كما قال إيزيدور الأشْبيليّ (٦٠٠).

وأمر قيصر القسطنطينية ثيودوز الثاني بإصلاح خريطة إمبراطوريته في سنة ٤٣٥ وحث هذا القيصر علىٰ مزاولة الجغرافية، واتخذت رافينو مركزًا للمباحث الجغرافية، وكانت مكتبة هذه المدينة تحتوي علىٰ رحلات ذات شروح وجداولَ ملونة للطرق، وبدأ كتاب غوي مؤلفًا من مقتطفات اقتطفها من مؤلفات علماء الهيئة الذين ظهروا قبله، وولد غوي في رافينو فذاع صيته بين سنة ٦٦٨ وسنة ٦٩٨، وسير علىٰ غرار كتابه، ولدينا مختارات لرافينيٍّ آخر عُلق عليها في الزمن الأخير.

وعمت همجية القرون الوسطىٰ جميع بلاد الغرب، ووجد، مع ذلك، من زاولوا المعارف الدنيوية والجغرافية في الأديار حيث كانت توضع رسائل في وصف البلاد، وحيث كان يكتب ويرسم وتهيَأ الصور التي أسفر عنها اصطلاح

مدرسة رافينو الجاف علىٰ ما يظهر، وكانت لدىٰ مؤسس ديرسان غول، في القرن السابع، خريطة أنيقة الرسم، وكان بعض الرهبان، فيديليس وسوينبوس، يقص في إيرلندة، ولدىٰ الأنغلو سكسون، بعض مغامرات حجهم محدثين عن أنباء البقاع البعيدة، فيزيدون بكتب الجغرافية الغنية بعض الغنىٰ في ذلك الزمن.

وكان شارلمان يجمع العلماء حوله في فرنسة، مفكرًا في صنع خريطة عامة للعالم، وأكملت هذه الخريطة، بالحقيقة، علىٰ ثلاثة ألواح من فضة، واشتملت هذه الخريطة علىٰ الأرض وعلىٰ رومة وعلىٰ القسطنطينية، وأعدت الأديار المواد الضرورية لهذا العمل كما يثبت ذلك لوح الراهب إيرمينون المعاصر لذلك الملك الفرنجي، ولكن اللوح الأول إذ كان أكبر الألواح الثلاثة وزع علىٰ الجنود، بعد تجزئته، في الحرب التي شهرها لوثير بن لويس الحليم علىٰ إخوته (٨٤١)، ويظهر أن نصيب اللوحَيْن الآخرَيْن لم يكن غير هذا.

وألف الراهب الإيرلندي ديكويل (٨٢٥) كتابًا في الجغرافية التخطيطية يذكرنا بخريطة ثيودوز، فنجد به إثباتًا لميل الناس إلىٰ مثل هذه الدراسات.

وكان ألفريد الكبير أهلًا لمنافسة شارلمان فوَجَّه جهوده إلىٰ تقدم الملاحة الأنغلوسكسونية فعزم علىٰ ارتياد البقاع البحرية التي كان يأتي القرصان الدانيماركيون منها، فعهد إلىٰ ولفستان وأوثر في القيام بذلك، فسارا بالقرب من السواحل والجزائر وشبه الجزائر واليابسة فعرفا البحر البلطي حتىٰ نهر الفستولا وشواطئ النروج فدونا في كتاب رحلة كل شيء عرفاه في سياحتهما، ووضع ذلك الكتاب باللغة الأنغلوسكسونية، وأمر ألفريد الكبير، في الوقت نفسه، بترجمة كتاب بول أوروز في تخطيط العالم إلىٰ اللغة العامية متمًّا له بالمعارف التي حصلت في عهده، وعرف هذا الكتاب باسم هورمستا، ونرجح أنه كان عاطلًا من أية خريطة جغرافية، مع قدرة الأنغلوسكسون علىٰ رسم الخرائط إذ ذاك، كما تدل عليه الخريطة الملحقة بمخطوط بريشن والمحفوظة بالمتحف البريطاني والمرسومةُ في عهد ألفريد، وتعدُّ هذه الخريطة آخر أثر موثوق به صنع علىٰ حسب منهاج مدرسة رافينو.

ومن ثم ترىٰ أن بطليموس كان مجهول الأمر، أو منبوذًا، لدىٰ اللاتين حتىٰ القرن العاشر من الميلاد.

ويعنىٰ العرب في عهد خلفاء بني العباس الأولين بدراسة العلوم الصحيحة، ويعَوِّلون علىٰ كتب اليونان في معارفهم الرياضية والجغرافية، ويبدو بطليموس دليلًا لهم، ولا يرتضون مبادئه من غير تمحيص مع ذلك، ويأمر المأمون في سنة ٨٢٠م بالقيام بأرصاد جديدة في بغداد، وتؤدِّي الأزياج المصحّحة إلىٰ إصلاح المجسطىٰ، ويرغب المأمون في قياس دائرة نصف النهار قياسًا دقيقًا، ويعتمد في رسم الأرض علىٰ المنهاج اليوناني مع تعديلات كبيرة، ويظن أن قسمًا من هذه التعديلات تم بفضل علماء من النساطرة الذين حفظوا معارف الدور الأخير لمدرسة الإسكندرية سليمةً، فاجتذبهم الخلفاء إليهم بما حبوهم به من النِّعَم، ومن المحتمل أن يكون رسم الأرض قد ألف بالعربية واليونانية معًا، ومما يجب الاعتراف به أن فلكيي المأمون الذين قاسُوا درجة من دائرة نصف النهار في صحارىٰ سنجار أعانوا علىٰ تصحيح أزياج بطليموس تصحيحًا جزئيًا، ومما يوجب هذا الافتراض هو أن هذا الإصلاح كان خاصًا بالبلدان المجاورة لبغداد، أيْ لمركز الإمبراطورية الإسلامية، وكانت جزيرة العرب والخليج الفارسي والبقاع التي يُرويها الفرات ودجْلَة فأحسن البحث في مجاريهما، وفارسُ وشواطئ بحر قزوين الجنوبية وقسم البحر المتوسط الشرقي الذي نُزِّل امتداده عشر درجات من سورية إلىٰ قابسَ فإلىٰ سردنية، البلادَ التي كان لها نصيب من التحديد الصحيح أكثر مما لغيرها في رَسْم الأرض.

ولم يَحْدث أيُّ تقدم محسوس في الجِغرافية الرياضية حتىٰ القرن الحادي عشر من الميلاد، وذلك بخلاف الجِغرافية التخطيطية.

والعربُ، بعد أن امتدت إمبراطوريتهم من المحيط الأطلنطي إلىٰ حدود الصين، أصبحت لهم بالتدريج طُرُق تجارية عظيمة يمكن إرجاعها إلىٰ أربع طُرُق أساسية من قادس وطنجة إلىٰ أقاصي آسية، فأما الطريق الأولىٰ فتقطع إسبانية فالقَارَّة الأوربية فبلادَ الصَّقَالِبَة حتىٰ بحر قَزْوِين فبلخَ فبلادَ التَّغَزْغَزِ، وأما الطريقُ الثانية فتمرُّ من إفريقية الشمالية فمصرَ فدمشقَ فالكوفةِ فبغدادَ فالبصرةِ فالأهوازِ

ففارسَ فكرمانَ فالسندِ فالهندِ، وأما الطريقان الأخريان فتجوبان البحر المتوسط فتَتَّجه إحداهما من سورية فالخليجِ الفارسي وَتَتَّجه الأخرىٰ من الإسكندريةِ والبحر الأحمرِ لتَنْتَهي إلىٰ البحر الهندي.

وتَكْثُر الرحلات الخاصة فيَتِمُّ بها نقل مبادئِ العرب وحضارتهم إلىٰ الأقطار البعيدة، وتُؤَدي كتب الرحلاتِ المهمة إلىٰ اطِّلَاع المَلَّاحِين علىٰ المخاطر التي يلْقَوْنها في البقاع الرديئة الارتياد، ويرسُم ابن حَوْقَل والإصْطَخْري والمسعودي، الذين اشتهروا في القرن العاشر من الميلاد، في مؤلفاتهم صورًا للاكتشافات الجديدة فيُتْحفون العلمَ بوثائق ذات قيمة.

وإذا ما نظرنا إلىٰ الأزياج التي أَلَّفها البتاني في الرَّقَّة حوالَيْ سنة ٩٠٠م وإلىٰ الأزياج التي أَلَّفها ابن يونس حوالَيْ سنة ١٠٠٠م لم نَجِد، بعدُ، سوىٰ استنساخ لرسم الأرض من غير تغيير ذي بال، ويَحْسُب الكوهي خطوط الطول من الطرف الشرقي من القارَّة في سنة ١٠٦٧.

وفي هذا الدور الأول ترتبط المعارف الهندية التي يُفترض أن العرب عَوَّلوا عليها، ولكنه إذا جيءَ بمبادئ الفلك المعروفة بالسندهند إلىٰ الخليفة أبي جعفر المنصورِ حوالَيْ سنة ٧٧٥م وَجَب الاعتراف، كما قلنا آنفًا، بأنه لم يكن لهذا الأثر كبيرُ قيمة، فلم ينشَب العرب أن أهملوه تمامًا وصاروا لا يذكرونه إلا لبيان أغاليطه، وفي كتب الهند لا تجدُ أي مصدرٍ جِغرافي صالح، وفي كتب الهند تجد الهند مرسومة في وسط الدنيا، وتجد خطَّ نصف النهار الذي يدلُّ علىٰ النقطة المركزية يَقْطَع أُوجِّينَ وجزيرة لَنْكا (سيلان) أو كنكا، وفي كتب العرب ترىٰ بحثًا عن خطِّ نصف نهار القُبَّة الأرضية أو العرين للتعبير عن خطوط الطول، وتُرَىٰ مطابقة العرين لأُوجِّين، ويُرَىٰ أن قبة العرين من أصل هنديّ، إلخ، ونَرَىٰ أن قبة العرين هي نقطة التقاطع لدرجة بطليموس التسعينية مع خطِّ الاعتدال علىٰ بعدٍ متساو من الجهات الأربع الأصلية، والعرينُ ليس مدينةَ أُوجِّين التي كان العرب يَعْرِفون موقعها الجِغرافي جيدًا، والعرينُ اسمٌ اصطلاحيٌّ لجزيرة وهمية واقعة بين الهند والحبشة كان ديودرسُ الصِّقِلِّي قد سماها بأورانوس لأول مرة، ولم يُفكر الهندوس، قطّ، في وضع جدول لخطوط الطول الأرضية بعد أُوجِّين، واستبدل

العرب خطَّ العرين أو خط القُبَّة الأرضية بخط الجزائر الخالدات وَفْقَ ابتكار دقيق عمِل به من القرن الحادي عشر إلىٰ القرن الثالث عشر فلا نُجَوِّز تحريف التاريخ بما لا يلائم ذلك.

وبالعلامة البيروني يُبْدأ (حوالَيْ سنة ١٠٢٥م) الدورُ الثاني للإصلاح الذي أدخله العرب إلىٰ أزياج بطليموس، ولم تَزَلْ بغداد تبْهر الأبصار بنورها الوَهَّاج في ذلك الزمن، وكان نجم أبي الوفاء يَتَألق بأعماله هي من الطراز الأول فينشأ له تلاميذ قَوَّامون بإتمام هذه الأعمال، وأخذ البيروني، الذي دُعي إلىٰ بلاط محمود الغزنوي الفاتحِ لقسم من آسية، يُصَحح الأغاليط التي كانت في خطوط طول بلاد الروم وبلاد ما وراء النهر والسند، فيصنع للشرق مثل ما في «رسم الأرض» لمركز الإمبراطورية الإسلامية، وصارت رسالته الجغرافية التي سَمَّاها بالقانون أساسًا لمُعْظَم رسوم العالم في المشرق، وصَحَّح كوشيار الفارسي قليلًا من أقسامها علىٰ حين صَحَّح عمر الخيام التقويمَ بأمر السلطان ملكشاه (١٠٧٦) فَعيَّن مَدَىٰ السنة المَدَارِيَّة بأوسع معاني الدقة، ثم ظهر نصير الدين الطوسيُّ وظهر صاحب القياس وزِيْج الحرائر Harair (؟) الفارسيُّ المجهول الاسم حوالَيْ سنة ١٢٦٠ فكانا عنوان آخر ما وَصَل إليه العرب في القارَّة الآسيوية، فصِرْنا لانذكر في هذا الدور سوىٰ أخبار الرحلات أو المختارات.

وفي هذا الدور (١٠٠٠-١٣٠٠) ظهر البكري (١٠٦٧) الذي أظهر مسيو كاترمير أمره، والإدريسيُّ الذي تَرْجم پ. أم. جوبرت كتابه، وصاحبُ كتاب «مُعْجَم البلدان» المهمِّ ياقوتُ (١٢٢٥)، ويُعَدُّ الإدريسي أولَ نقطة اتصالٍ بين الجِغرافية اللاتينية وجِغرافية المدارس الإسلامية، ويوُلَد الإدريسي في سَبْتَة سنة ١٠٩٩، ويتلقَّىٰ علومه في قرطبة، ثم يغدو في بلاط صاحب صِقِلِّية روجرَ، فيضع لهذا الملك مائدة مستديرة من الفِضة تبلغ زِنَتُها مئتي أُقَّة تقريبًا، فيَحْفِر فيها باللغة العربية جميعَ ما كان يعرفه عن مختلف أقطار الأرض المعلومة في ذلك الزمن، ويؤلِّف رسالةً في الجِغرافية لم يَنْتَه إلينا منه غيرها، فلم يصنع رَسَّامو الخرائط بأوربة غيرَ استنساخها، مع تعديلات قليلة الأهمية، مدةَ ثلاثة قرون ونصفِ قرن.

وترىٰ مما تقدم أن مركز العالم والمشرق تَحَوَّلا بفعل «رسم الأرض»

وقانون البيروني، ولم يَزَل القسم الغربي مشتملًا علىٰ قياسات غير صحيحة، وما انفكت شواطئُ إسبانية وإفريقية الشمالية تحتوي علىٰ امتداد مُبالغ فيه، وكان لدىٰ الفلكي الأندلسي ولدِ الزرقيال في سنة ١٠٨٠ رَصَد صالح لخطِّ طولُ طلَيْطِلَةَ فجَعَل هذا الخط أربعَ ساعات وعُشْر ساعةٍ، أو ٦١[د] ٣٠، من العرين، وكان بطليموس قد جعل طول البحر المتوسط ٦٢ درجة، ثم خُفِض في «رسم الأرض» ٥٤ درجةً أي إلىٰ ما يَقْرُب من مقداره الحقيقي الذي هو ٤٢ درجةً، ولم يُسْتَفَد من هذا الرَّصَد، وتُرِك أمر هذا الإصلاح المهمِّ الأخير لأبي الحسن عليّ المراكشي الذي ذاع صيته سنة ١٢٣٠، فالحقُّ أن كتاب أبي الحسن من أحسن الآثار في الجِغرافية العربية.

والعربُ، إذ نَقَّصوا عشرَ درجات في المرة الأولي، يكونون قد فَرَّقوا بين الغرب المسكون والغرب الحقيقي القريب من جزائر آسورة، والعربُ، إذ كانوا جاهلين لأمر هذه الجزائر حتىٰ ذلك الحين انتحلوا خطَّ نصف نهار العرين المطابق لدرجات بطليموسَ التسعينيةِ فكانت لهم بذلك الخطِّ وسيلةٌ دقيقة تَصِل بها أزياجهم الجديدة إلىٰ الكمال المطلوب، وهنالك ما يدعو إلىٰ الظنِّ بأن أبا الحسن اعتمد علىٰ خريطة كثيرة الخَلَل رُسِمْتْ قبل ظهوره كما حَدَثَ لعالمٍ مغربيّ آخرَ اسمه ابن سعيد، غير أن أبا الحسن صَحَّح قسمًا من هذه الخريطة، علىٰ حين نَقَلَ ابن سعيد، ومن حَذَا حَذْوَه، الخريطة الأصلية مع أغاليطها، وبهذا نُفَسِّر السبب في أن أبا الفداء، الذي ظلَّ غريبًا عما تَمَّ في إفريقية والأندلس من الأعمال، تَرَكَ نقائص مؤسفة في فصل مهمّ من كتابه العظيم.

انقضىٰ دور أبي الحسن وجِغرافيي فارس، وبدأ، لدىٰ العرب، دورُ انحطاط لم يَقِف عند حّدٍ، ولم يصنع القزويني الملقبُ بِبِلِين المشرق والمتوفَّىٰ سنة ١٢٨٣ غيرَ استنساخ أقاصيص أسلافه موجهًا جميع انتباهه إلىٰ التاريخ الطبيعي، ولم تحتو دائرة معارف النويري المصري (حوالَيْ سنة ١٣٢٠) أيَّ رَصَد جديد في قسمها الجِغرافي، وغادر ابن بطوطة بلدَه طنجة في سنة ١٣٢٥ فساح في مصرَ وفارسَ وبلاد ما وراء النهر والهند والصين، فعاد إلىٰ وطنه بعد عشرين سنة فجاب إسبانية وإفريقية حتىٰ تمبكتو فدوَّن سياحاته في كتابِ رحلة مفيدة إلىٰ

الغاية، بيد أنه أملاها عن ظهر القلب فكانت ذاكرته تَخُونه في الغالب، ولو كان ابن بطوطة أكثر علمًا مما عليه لأَسْدَىٰ إلىٰ العلم خِدَمًا عظيمة، وابن بطوطة هذا كان مستعدًا لتلقِّي أبعد الأقاصيص عن الصواب فلم يُبْدِ دِقَّةً كافيةً في اختيار مُدَوَّنَاته فغدا غيرَ حُجَّة.

واشتهر ابن الوردي حواليْ ذلك الدور (١٢٩٢-١٣٤٩)، ولابن الوردي كتابُ «خريدة العجائب»، وتَجِد نُسَخًا من هذا الكتاب المشهور في مُعظم مكتبات أوربة، وكان ابن الوردي علىٰ جانب كبير من الجهل، فيجب الا يُعْتمد علىٰ كتابه إلا مع الاحتراس.

ولم يكن أمير حماةَ أبو الفداء (١٢٧١-١٣٣١) غير مُلَخِّص، ويستحقُّ أبو الفداء، مع ذلك، مرتبةً أعلىٰ من مرتبةِ ذلك، واعتمد أبو الوفاء، قبل كل شيء، علىٰ المسائل الرياضية، فلام من اتَّبعوا منهاجًا آخر في مؤلفاتهم عن خطوط الطول وخطوط العرض، فألَّف جداوله ناقلًا كتب الجغرافيين الأربعة معًا فحَفِظ لنا بذلك كنزًا حقيقيًا، وأبو الفداء، إذ استنسخ جميع ما وَجَدَه في المخطوطات التي وُضعت أمامه لم يَنْتَبه إلىٰ ما في بعض الأرقام التي دَوَّنها بلا تمحيص من الأغاليط والتحريف، وأبو الفداء عَدَّ صحيحًا بعض المباحث البادية الخطأ، مُتَّهِمًا واضعيها بِهَفَوَات يأباها الذوق السليم فتستحيل علىٰ مثلهم، ونذكر بعده الذهبيَّ المتوفَّىٰ سنة ١٣٤٧، والبلويَّ Bakoui (؟) الذي اشتهر في القرن الرابع عشر فَحَلَّلَ ديغوينس مجموعته، والمقريزي (١٣٦٧-١٤٤٢) وابن إياس، والحسنَ (ج. ليون الإفريقيّ) المشتهرَ حواليْ سنة ١٥١٦.

وخَرَّب التيمورلنكيون آسية، وفُتِح في أوائل القرن الخامس عشر دور جديد للشؤون العلمية، وأراد سيد بلاد فارس وبعضِ الهند شاهرخُ أن يَتَوَدَّد إلىٰ رؤساء الممالك الأخرىٰ، فأرسل وفدًا رسميًا إلىٰ عاهل الصين في سنة ١٤٢٠، ثم حلت سنة ١٤٤٢ فأرسل عبد الرازق السمرقندي سفيرًا إلىٰ ملك كلكتة في الهندوستان.

وشَرَع ابن شاهرخَ أولوغُ بك الشهيرُ بأزياجه الفلكية يَرْسُم، في سنة ١٤٣٧، خريطة عامة للعالم، فعَوَّل علىٰ كتب نصير الدين الطوسي وعليّ قوشجي

الذي طاف في الصين بأمره، فحقَّق، علىٰ ما يُرْوىٰ، قياسَ درجةٍ من خطِّ نصف النهار وجسامةِ الكُرَة الأرضية.

وللجغرافية الإسلامية خرائطُها البحرية أيضًا، ووَجَد ڤاسكودي غاما إحداها لدىٰ المُعَلِّمَ العربي قنا المقيمَ بالكجرات فاتخذ هذا المعلم دليلًا له في رحلته إلىٰ ميلندة، وانتفع البُوكِرْك الكبير، في سَفَره البحري من بحر عُمَان والخليج الفارسي، بالخريطة التي رسمها عمرُ العربي.

وبكتاب «جِهَان نمَا» لكاتب چلبي، أو حاجي خليفة، (١٦٤٨) خُتِمت سلسلة الرسائل الجغرافية التي ألَّفها الشرقيون، وكاتب چلبي هذا قد استعان، مع ذلك، بالكتب الأوربية المشتملة علىٰ اكتشافات الإسبان والبرتغاليين المهمة.

احتوىٰ ذلك الجدول الذي رسمناه علىٰ ذكر علماء من العرب والفرس، لانتسابهم جميعهم إلىٰ مدرسة واحدة ولأن اصطلاحات الشرقيين العلميةَ عربيةٌ بأسْرها، وكان اللسان الفارسيّ قد تَغَيَّر، منذ طويلِ زمنٍ، بفضل القرآن وبفضل الحركة الثَّقافية التي لاح نجمها بظهور بني العباس في القرن الثامن عشر، وكان اللسان الفارسي قد اغتنىٰ بالتعبيرات الجديدة التي أُدخلت إليه بفضل مترجمي كتب اليونان إلىٰ العربية، فأضحىٰ صالحًا لملاءمة أرقىٰ المعارف الرياضية، ومن فوائد نشرنا لأثر أولوغ بك إثباتُنا أن هذا اللسان، الجميلَ ببساطته، نَما وارتقىٰ تحت ظل حضارة العرب فغدا قادرًا علىٰ أن يَهْضِم، إلىٰ حدٍّ، التعبيراتِ الفنية، التي يُعْرَب بها عن أسرار علم جديد.

ونحن، حين نُلَخِّص ما تَمَّ علىٰ يد العرب من تَقَدُّم في العلوم الصحيحة، نرىٰ ظهور كثير من الاكتشافات التي يُعْزَىٰ فخر أكثرها إلىٰ علماء أوربة في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر:

١- استبدالُ الجيوب بالأوتار، إدخالُ المماسَّات إلىٰ حساب المثلثات، تطبيقُ الجبر علىٰ الهندسة، حلُّ المعادلات المُكَعَّبَة، أدقُّ النظريات الرياضية، كلُّها أمورٌ أسفرت عنها المخطوطات العربية حتىٰ الآن.

٢- حركة أوج الشمس، شذوذُ سَيْر الشمس، مقدارُ السنة، كلُّها أمورٌ عَيَّنَها بالضبط فلكيو بغداد.

٣- لم تَظَلَّ الجِغرافية الرياضية راقدة بين أيدي العرب، فقد صُحِّحت أزياج بطليموس تصحيحًا اقترحه دوليلُ حواليْ سنة ١٧٠٥ فقط.

٤- لم نَكَدْ نَعُدُّ بضعة أرصاد فلكية أُتِي بها بين القرن السادس والقرن السادس عشر في أوربة، علىٰ حين ملأ راصدو العرب الكثيرون المذكورون آنفًا النقصَ الكبير في تقاويم العلم.

٥- أسس تيخو براهة مرصدَ أُورَا ينْبُرْغ في سنة ١٥٧٦ مع أن مرصد سمرقند كان محلَّ إعجاب فلكيي المشرق قبل ذلك بقرن.

٦- عُدَّت الحقة بين الآلات الكثيرة التي استعملها تيخو براهة علىٰ أنها من مخترعاته، مع أن المِيلَ ذا الثَّقْب وذات الحلَق مما استُعمل في مَرْصَد مَرَاغَة، والعربُ قد عَرَفوا الرَّقَّاص أيضًا.

٧- لاحظ العربُ قبل علماء العصر الحاضر بزمنٍ طويلٍ النقصان التدريجي لمِيل سَمْت الشمس.

٨- قَدَّر العرب بالضبط مقدار مبادرة الاعتدالين منذ القرن الحادي عشر.

٩- لم يكن تيخو براهة أولَ من اكتشفوا شذوذ أعظم عرضٍ للقمر، فقد رَصَد العربُ هذا الشذوذ قبلَه بستمئة سنة.

١٠- عُدَّ تعيين الاختلاف الثالث للقمر أهمَّ ما يفتخر به تيخو براهة، ومن حقِّ أبي الوفاء أن ينْتَزِع منه هذا الشرف.

ونتائجُ كتلك من شأنها أن تَخْلَع علىٰ علم الفلكِ الشرقي لِباس الإبداع، ولن نَقْدر علىٰ إنكار ذلك بعد الآن، ونحن نفترض أننا كلما أوغلنا في رِياد مخطوطات العرب جَمَعْنا براهين جديدة علىٰ ارتقاء العلوم الرياضية لدىٰ العرب.

وإذا ما بحثنا فيما اقتبسه اللاتين من العرب في بدء الأمر وجدنا:

أن جربرت، الذي أضحىٰ بابا باسم سلڤستر الثاني، أدخل إلينا بين سنة ٩٧٠ وسنة ٩٨٠ ما تَعَلَّمه في الأندلس من المعارف الرياضية.

وأن أدهيلارد الإنكليزيَّ طاف بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٢٨ في الأندلس ومصر فترجم من العربية كتاب «الأركان» لأقليدسَ الذي كان الغرب يَجْهَله.

وأن أفلاطون التيڤوليَّ تَرْجَم من العربية كتاب «الأُكَرِ» لثاذوسيوس، وأن رودولف البروجيَّ تَرْجَم من العربية كتاب «الجِغرافية في المعمور من الأرض» لبطليموس.

وأن ليونارد الپيزيَّ ألَّف، حوالَيْ سنة ١٢٠٠، رسالة في الجبر الذي تَعَلَّمه من العرب.

وأن كنپانوسَ النَّبَرِّيَّ تَرْجَم من العربية في القرن الثالث عشر كتاب أقليدس ترجمةً جيدةً شارحًا له، وأن فيتليون البولونيَّ تَرْجم كتاب البَصَرِيَّات للحسن (بن الهيثم) في ذلك القرن، وأن جيرارد الكريمونيَّ أذاع، في ذلك القرن أيضًا، علمَ الفلك الحقيقي المتينَ بترجمته المجسطي لبطليموس والشرحَ لجابر، إلخ.

وفي سنة ١٢٥٠ أمَر الأذفونش القشتالي بنشر الأزياج الفلكية التي تَحْمِل اسَمه، وإذا كان صاحب الصِّقِلِّيَّتَيْن روجرُ الأول قد شَجَّع علىٰ تحصيل علوم العرب في صِقِلِّيَةَ، ولا سيما كتب الإدريسيِّ، فإن الإمبراطور فردريك الثاني لم يَبْدُ أقلَّ حَضًّا علىٰ دراسة علوم العرب وآدابهم، وكان أبناء ابن رشد يقيمون ببَلاط هذا الإمبراطور فيُعَلِّمُونه تاريخ النباتات والحيوانات الطبيعيَّ.

الفصل الثاني
العلوم الطبيعية عند العرب

اتَّفق للعلوم الطبيعية عند العرب مثل ما اتفق للعلوم الرياضية من الرقي، ويرىٰ همبولدُ وجوبَ عَدِّ العرب مؤسسين حقيقيين للعلوم الطبيعية بالمعنىٰ الحديث.

قال همبولد: «يجعل تسلسل الآراء الوثيقُ في حَقْل الذكاء تعيين زمن ظهورها أمرًا صعبًا لا ريب، ورُئي في وقت باكر بِضْعُ لُمَع في تاريخ العلم، وبضعُ شِرَعٍ[1] مؤدية إلىٰ تلك اللمَع، فما أطولَ الزمنَ الذي انقضي بين ذيسقوريذس، الذي استخرج الزِّئْبَق من الزُّنْجُفْر[2]، والعالمِ الكيماوي جابر! وما أطول الزمنَ الذي انقضىٰ بين اكتشافات بطليموس في البَصَرِيات واكتشافاتِ الحسن (بن الهيثم) فيها أيضًا! بيد أن الفيزياء أو العلومَ الطبيعية علىٰ العموم، لا تُعَدُّ قائمة إلا بعد الوقت الذي يتضافر فيه رجال كثيرون علىٰ سلوك الطُّرُق الجديدة مع تفاوتهم في النجاح، وبُدِئ بتأمل الطبيعة وملاحظة الحوادث التي تقع عرضًا في فضاء الأرض والسماء فبُلِغت مرحلة البحث في تلك الحوادث وتحليلها وقياس حركتها ومَدَىٰ الفضاء الذي فيه تَمَّ أمرها، وطرازُ البحث هذا وقَع في زمن أرسطو لأولِ مرة مع بقائه مقتصرًا، في الغالب، علىٰ الطبيعة العضوية، وللوقوف التدريجي علىٰ الحوادث الفيزفاوية درجةٌ ثالثة أعلىٰ من تينك الدرجتين، وتقوم

(١) الشرع: جمع الشرعة، وهي الطريقة.

(٢) الزنجفر: معدن متفتت بصاص أحمر يصبغ به ويدهن به الحديد ليسلم من الصدأ.

هذه الدرجة علىٰ البحث العميق في قُوَىٰ الطبيعة وفي تَحَوُّل هذه القُوَىٰ وفي الموادِّ الأوَّلِيَّة التي يُفَرِّقها العلم إلىٰ أجزائها لتَدْخُل في مُرَكَّبات جديدة، ويكون هذا التحليل بتوليد الحوادث طَوْعًا، وإن شئتَ فَقُلْ بالتجربة.

«ارتقىٰ العرب إلىٰ هذه الدرجة الثالثة التي كان القدماء يجهلونها، وذلك بتمسكهم بالعموميات علىٰ الخصوص، والعرب كانوا يقيمون ببلد ذي جَوّ صالح لغرس النخيل تابع معظمُه لدائرتَي الانقلاب، ودائرةُ السَّرَطان تقطعُ جزيرةَ العرب من مسقط إلىٰ مكة بالحقيقة، وفي تلك المِنطقة، حيث تَنْبُت الأشجار الحمضية بقوة عجيبة، تُبْصِر النباتَ يُخْرِج الأفاويهَ والرُّبَّ البلسمي والموادَّ التي تَنْفع الإنسان وتَضُرُّه، فنجم عن ذلك، منذ وقت باكر، أن استوقف أنظارَ أولئك القوم ما تُنْبِته أراضيهم وما تُصْدره شواطئ ملبارَ وسيلانَ وإفريقية الشرقية التي كانت لهم صِلات تجارية بها، في هذه البقاع من المناطق الحارَّة يكون للصُّوَر العُضْوية أطوارٌ غريبة مختلفة في كلِّ خُطوة، وكلٌّ قطعة من هذه البقاع ذات محاصيل خاصة تثِير حْبَّ الاطلاع علىٰ الدوام فتجعل مساومة الإنسان للطبيعة منوعة شَمَّرِيَّةَ[1]، فكان يجب أن يُميَّز من المحاصيل ما هو نافعٌ للطب وللصناعة ولتزيين المعابد والقصور، وكان يجب أن يُبْحث عن البلاد التي تُصدرها فتنطوي في الغالب علىٰ رجال طُمَعاء خُبثاء، فكانت القوافل الكثيرة تسير من مستودع جَرَّةَ (القطيف) علىٰ الخليج الفارسي ومن مِنْطَقة اليمن التي تُنْتج الأطياب فتجوب داخلَ جزيرة العرب حتي فنيقية وسورية ناشرة في كل مكان أسماء أولئك الوكلاء النِّشَاط مغاليةً بتلك المنتجات مقدارًا فمقدارًا.

«حقًّا أن درس الموادِّ الطبية الذي عَنَّ لذيسقوريذسَ في مدرسة الإسكندرية هو من مبتكرات العرب بشكله العلمي، والعربُ هم الذين أوجدوا الصيدلية الكيماوية ومن العرب أتت الوَصايا المُحْكَمَةُ الأولىٰ التي انتحلتها مدرسة ساليرمَ فانتشرت في جَنوب أوربة بعد زمن، وأدت الصيدلة ومادة الطب، اللتان يقوم عليهما فَنُّ الشفاء، إلىٰ دراسة علم النبات والكيمياء في وقت واحد ومن طريقين مختلفتين.

---

(١) الشمري: المجد.

وبالعرب فُتح عهد جديد لذلك العلم، أجَلْ، كانت السيمياء والأهواء الأفلاطونية الجديدة تُفْسِد صِبْغَة المباحث، ولكن أعمال جابر (أبي موسي بن جعفر الكوفيّ) الذي افْتُرِضَ اشتهارُه في القرن الثامن من الميلاد وأعمالَ الرازي (أبي بكر) المتوفَّىٰ حوالَيْ سنة ٩٢٣، كانت ذات نتائج مهمةٍ، كما ساعد فَنُّ التنجيم علىٰ رُقِي علم الفلك وكما أدت الأعمال الهرمسية علىٰ المعادن إلىٰ أكثر الاكتشافات وَقفًا للنظر، وتجد في مؤلفات جابر والكوفِّي تركيب الحامض الكبريتي والحامضِ النتري وماءِ الذهب واستخراجَ الزئبق وأكسيد المعادن والاختمارِ الكحولي، إلخ.

وأوجبت خِبْرَة العرب بالعالَم النباتي إضافتهم إلىٰ أعشاب ذيسقوريذس ألفي نبات واشتمالَ صيدليتهم علىٰ عِدَّةِ أعشاب كان يجهلها الإغريق جهلًا تامًّا، ونصَّ ابن سينا في قانونه علىٰ أرْز ديودوارا الذي يَنْبُتُ علىٰ جبال هِمالْيَة فَعَدَّه من نوع العَرْعَر[1] ووَجَده صالحًا لاستخراج زيت الصمغ، وعَلَّم أولاد ابن رشد فريدريك الثاني مبادئ التاريخ الطبيعي، وأُتيح لنا أن نذكر أن عبد الرحمن الأول أسَّس حديقةً للنبات بالقرب من قرطبة قبل ذلك بعِدَّة قرون فأرسل إلىٰ سورية وبقية أقطار آسية من أحضر أعزَّ البذور، وعبدُ الرحمن هذا غَرَس بالقرب من قَصْر الرُّصافة أول نَخْلَة فخاطبها بأبيات محزنة من الشعر أشار فيها إلىٰ مسقط رأسه دمشق.

وإلىٰ العرب يعود فضل استعمال الراوند، ولبَّ التمر الهندي وخيار الشَّنْبَر، والمَنِّ وورق السَّنَا المَكِّي، والإهْلِيلَج والكافور، واستعمل العرب السكر ففَضّلوه علىٰ العسل خلافًا للقدماء فأدَّىٰ ذلك إلىٰ كثير من المستحضرات الصحية النافعة، وبالسكر رَكَّب العرب الأشْرِبَة والجُلاب ومُرَبَّبات الأعشاب والفواكه واللَّعُوقَ.

وكانت الحكومة تراقب تلك الصناعة الضرورية لرَفاهِيَة أبناء البلاد، وكان الصَّيادِلة مسؤولين عن صلاح الأدوية واعتدال أثمانها.

ووصف التاريخ القائد الأفشينَ وهو يزور صيدليات الأرياف بنفسه ليستوثق من اشتمالها علىٰ جميع الموادِّ الطبية.

(١) العرعر: شجر يشبه السرو، لا ساق له وينبت في الجبال.

ومن العرب عَرَفْنا الأفاوِيهَ كجوز الطِّيب والقَرَنْفُل، ولاحظ القاضي الثَّبَتُ قُرَّةُ السِّيرِيُّ أن العرب غَرَسُوا أشجارًا ثُنَائِيَّة المسكن فكانت لديهم أفكارٌ واضحة حَوْل تكثير النسل، وأوضح في تلخيصه النفيس لكتاب أبي زكريا معرفةَ العرب الواسعةَ للاقتصاد الزراعي، وعلىٰ ما في هذا الكتاب من أمور سخيفة نَجِد فيه من النصوص ما يستحق انتباه الزراع، ونَجِد إسبانية مدينةً للعرب باستعمال الناعورة التي هي آلة لرفع الماء قَوامُها دولابٌ كبير وقواديسُ مركبة علىٰ دائرة، والعرب أوصلوا الزراعة إلىٰ أقصىٰ درجات الكمال، والعربُ عُنُوا بالتسلسل النباتي، فترىٰ في كتاب ليلَ الحديثِ إنصافًا لهم في هذا المِضْمَار، ونشر مسيو دوساسىٰ أجزاء مفيدةً كثيرة لكتاب القزويني الذي أُصيب في تسميته ببلينِ المشارقة، ومن الواجب أن نذكر اسم بوفون العرب الدميري الذي اشتهر اسم كتابه في الحيوان، وحُقَّ لنا، أن نذكر أن العرب بحثوا في مختلف فروع العلوم الطبيعية بصدقٍ وإخلاص.

وكان أطباء العرب من الرجال الممتازين علىٰ الدوام، وأطباءُ العرب، وإن وَصَلوا البحثَ الرياضي بالبحث الفلسفي، سَلَكوا سبيل الثَّرْثَرة إرضاءً لمَيْل أبناء وطنهم إلىٰ كل ما هو غريب، وأطباءُ العرب كانوا تلاميذ لأرسطو، فلم يُهْملوا وسيلة من وسائل السحر والتنجيم للتأثير في نفوس زُبُنهم، ومن هنا تَعْرِف سِرَّ استعمالهم للتمائم التي هي ضرب من تعاويذ اليونان ورُقي علماء دولة رومة الشرقية، ومن هنا تَعْرف سِرَّ علم تفسير الأحلام الذي بَرَع العرب فيه.

لم ينفكَّ أكاسرة الفرس يستدعون، منذ القرن الثالث من الميلاد، أطباء من اليونان نَشَروا في الشرق مبادئ بقراطَ، ولم تَلْبث مدرسة جُنْدَيْسابُور أن نافست مدرسة الإسكندرية، فلما تَمَّت فتوح العرب صارت أنطاكية وَحَرَّان مركزيْن للدرس فتَخَرَّج فيهما أولئك العلماء الذين جمعوا بين ممارسة الطب ومعرفة اللغتين: اليونانية والعربية، فترجموا كتب أرسطو وأقليدس وبطليموس، وكان حنين بن إسحق يأخذ من المأمون ذهبًا بِوَزْن كل كتاب يُنْجِزُ ترجمته، وحنين هذا هو من تلاميذ يحيىٰ بن ماسويه الذي ظل نحو قرن مُعَوَّلَ بني العباس، وابنُ ماسويه هذا كان طبيبًا خاصًّا لهارون الرشيد، فألّف في الطب عِدَّة رسائلَ معتبرةٍ

لدىٰ الشرقيين، فنذكر منها «البرهان» المشتمل علىٰ ثلاثين كتابًا، وكتابَ الحُمَّيَات، وكتابَ الأغذية، وكتابَ المَشْجَر كُنَّاشٌ له قَدَرٌ، وكتاب الحَمَّام، وكتاب علاج الصُّداع، إلخ. . وتُرْجم كثير من هذه الكتب إلىٰ العبرية، وتَجِد في مكتبات أوربة المهمة الأصل العربي لبعض هذه الكتب والترجمةَ العبرية لبعض آخرَ منها، ومات ابن ماسويه في سنة ٨٥٥م، وكان عمره حين وفاته ثمانين سنة، ولم يكن حنين دون ابن ماسويه شُهْرَةً، وإلىٰ حنين فُوِّضت عِدَّة بعثاثٍ علمية، فبلغ في البحث حتىٰ بلاد اليونان فجَمَع كتبًا في جميع فروع الفلسفة، فإليه يَرْجع الفضل في ترجمة كتب جالينوس وبقراط، إلخ. . ولحنين رسائلُ غير قليلة في الطب والمنطق، وحامت شُبُهَات الخليفة المتوكل حَوْل حنين فأحضره فطلب منه، مُخْتبِرًا، سُمًّا دقيقًا شديدًا قاتلًا للعدو حالًا فأجاب حنين أنه لا يَعْرِف غيرَ الأدوية النافعة ولا يُرَكِّب سواها أبدًا، فلم تَلِن له قَناةٌ مع ما بُذِل له من أروع الوعود، فأعاد الخليفة إليه سابق ثِقَته به مفيضًا عليه أطيب النِّعم، وكانت وفاة حنين سنة ٨٧٤م.

وذاع في ذلك العصر صِيتُ عِدَّة أطباء باسم بختيشوع، ومن هؤلاء نذكر بختيشوع بن جبرائل الذي اشتهر بمداواته العجيبة، غير أنه لا أحدَ يَعْدِل الرازي وابن سينا اللذين سيطرا بكتبهما علىٰ مدارسنا زمنًا طويلًا.

وجمع محمد أبو بكر بنُ زكريا الملقبُ بالرازي، نسبةً إلىٰ بلده الرّي، بين مهنته العملية وبحثِ أسلافه العميق، سائرًا علىٰ غِرار أكابر قدماء الأطباء، ومن رأيه أن الإنسان لو عَمَّر ألف سنة ما استطاع أن يُبْصِر بعينيه جميع ما شُوهد بتعاقب الأزمنة في مختلف بقاع الأرض، فلا بُدّ له من أن ينير بصيرته بعلم الآخرين، والرازي بحث في مؤلفات من لم يُحْصهم عَدٌّ من الأطباء فذكرهم هاللر، والرازي أدار بالتتابع مشافيَ بغداد والرّي وجُنْدَيْسَابُور فألَّف في الطبِّ كتابَ «الحاوي» المهمَّ إلىٰ الغاية، وعلىٰ كتابه «الجُدَرِي والحَصْبَة» اعتمد أطباء جميع الأمم، وكان للرازي كبيرُ شَرَفٍ بكتبه العشرة التي أهداها إلىٰ سيد خُراسان في القرن العاشر الأميرُ الساماني المنصورُ فطُبِعت هذه الكتب في قِيَنَّة سنة ١٥١٠، وذاعت شهرة هذه الكتب العشرة (المعروفة بالمنصوري) لما انطوت عليه

من روح النظام علىٰ الخصوص، وكتابُ المنصوري هذا هو أول كتاب اشتمل علىٰ بحثٍ في العَرَق (المُسْكرِ المُقَطَّر)، وللرازي أكثر من مئتي مؤلف، والرازي أدخل إلىٰ الصيدلة استعمال المُلَينَات وتطبيقَ المُرَكَّبَات الكيماوية علىٰ الطب، والرازي هو مخترع الفتائل، فكان يُكثر من استعمالها، وكان الرازي يُعْنَي بالتشريح فكان أول من مَيَّز العصب الحَنجَرِيَّ من الأصل الذي هو مضاعف في الجهة اليُمنىٰ، ومما يُرْوىٰ أنه حينما فَقَدَ بَصَره في شَيْبته لم يَرْض بأن يقوم له بعملية القَدْح غيرُ جِراحيٍّ يَذْكُرُ له عَدَد أغْشية العَيْن، وطاف في سورية ومصر وبلغ الأندلس، ثم توفِّي سنة ٩٣٢.

وبعد الرازي بأربعين سنة اشتهر عليّ بن العباس الفارسيُّ الأصل والمجوسيُّ الدين فألَّف كتابًا كاملًا في الطب سَمَّاه «الملكي» فأهداه إلىٰ السلطان البُوَيهي عضدِ الدولة، ويحتوي هذا الكتاب علىٰ عشر مقالات في الطب النظري وعشرِ مقالات في الطب العملي وترجم إتيان الأنطاكي هذا الكتاب إلىٰ اللاتينية في سنة ١١٢٧، وطبعه ميشيل كابيلا في ليون سنة ١٥٢٣، وأشار عليّ بن العباس إلىٰ ما اعتقد وجودَه من الأغاليط في كتب بقراط وجالينوس وأريباسيوس وبولس الإجيني، وذكر بين أسلافه سرابيونَ الذي ترجم جيراردُ الكريمونيّ كتابه فَطُبع غيرَ مرةٍ.

وحوالَىٰ ذلك الدور، أيْ في سنة ٩٨٠، وُلد أبو علي الحسينُ بن سينا بقرية أفْشَنَة التابعة لشيراز حيث كان أبوه وليَّ عملها، وتلقىٰ ابن سينا معارفه الطبية في بُخارىٰ، ولم يَكَد ابن سينا يبلغ الثامنَ عشرَ من عمره حتىٰ شَفَىٰ الأمير نوح بن منصور من مرض شديد، وكان هذا الشفاء أساس شهرته فنال به حُظوة لدىٰ الأمراء السامانيين، ورفض ابن سينا العَرْض السخيَّ الذي أبداه له محمود الغزنوي الحامي للبيروني والجامعُ بين الفُتُوح الساطعة ومحبة العلم فكُتِب عليه بذلك أن يَقضِي حياة اغتراب حافلةً بالنوائب، فبعد أن أقام، حينًا من الزمن، قريبًا من أمير جُرْجان قابوسَ وصحّح في بلاطه رسالة إرازسطراطس، وجَدَ في الرّي ملجأً لدىٰ مجد الدولة، ثم في همذان حيث اختاره أميرها شمس الدولة وزيرًا وطبيبًا له، ثم دعاه عضد الدولة إلىٰ أصفهان ليقوم فيها بمثل ذينك

المنصبين، فوَجد في أثناء قيامه بأعمال الدولة وشؤونها السياسية من الوقت ما ألَّف فيه كتبًا من أثمن الكتب، وتوفي ابن سينا سنة ١٠٣٧، وابنُ سينا هو من أدعىٰ رجال عصره إلىٰ العجب، فقد كان ذا ذاكرة قوية وصفاءِ ذهن نادر فصَنَّف في جميع العلوم، وعُرف ابن سينا في أوربة طبيبًا فكان له علىٰ مدارسها سلطان مطلق مدة ستة قرون تقريبًا، فتُرْجم كتابه «القانون»، المشتمل علىٰ خمسة أجزاء فطُبع عِدّة مرات، لعَدِّه أساسًا للدراسات في جامعات فرنسة وإيطالية، واليوم تُرِك كتابُ «القانون» ليُرْجع إلىٰ أوابد الطب اليوناني، ولكن مع الاعتراف بانتقالنا من إفراط إلىٰ إفراط بإهمالنا ابنَ سينا، وتَجِد في تاريخ الطب لسپرنجلَ تفصيلًا واسعًا لحياة الطبيب العلامة ابن سينا.

وكان لإسبانية الإسلامية أطباؤُها العِظام: أبو القاسم المتوفَّىٰ سنة ١١٠٧، وابن زُهْر المتوفىٰ سنة ١١٦١، وابنُ رُشْد المتوفىٰ سنة ١١٩٨، وابنُ البيطار المتوفَّىٰ سنة ١٢٤٨.

واسمُ أبي القاسم التامُّ هو: أبو القاسم خلف بن عباس، ويُعَدُّ أبو القاسم مصلحًا لعلم الجِراحة الذي أخذ ينحطُّ منذ زمن ابن سينا، وله وصفٌ تامٌّ للآلات الجراحية وكيفية استعمالها وبيانٌ للأحوال الاستثنائية ولما في هذه أو تلك العملية من الخطر، وهو حين أوضح عملية استخراج الحَصاة أشار إلىٰ محل البضع الذي اصطلح عليه جراحِيُّونا فيما بعد، ولم تُعْرف كتبه في أوربة إلا في القرن الخامس عشر، ولا تَجد أحدًا أنصفه كمسيو پورتال في تاريخه عن التشريح والجراحة.

واسمُ ابن زُهْر التامُّ هو: أبو مروان بن عبد الملك بن زُهْر، ووُلد ابن زُهْر في ينافلورَ، ودَخَل في خدمة أمير مرَّاكُش فأسْبَغ عليه شرفًا وغَمَره بِغِنًىٰ، وجَدَّ في إقامته الطب علىٰ قواعد التجربة، وأقدم علىٰ وَصْل مباحث هذا الفن بمباحث الجِراحة والصيدلة خلافًا لسخافات عصره، وترىٰ المادة الطبية مدينةً له بكثير من الأدوية النافعة، وترىٰ الجِراحة مدينةً له بعمليات فتح القَصَبة والكسر والانخلاع، وترىٰ الطب مدينًا له بوصف بعض الأمراض الجديدة كالالتهاب المِحْزَمي التَّأْمُورِي، إلخ.، وتُرْجمت كتبه المهمة إلىٰ اللغة اللاتينية ترجمةً ناقصة إلىٰ الغاية، ومما قَصّه ليون الإفريقيُّ عن ابنٍ لابنِ زُهْر النبأُ العجيب الآتي: وهو أن

ابن زُهْر هذا كان طبيبًا كوالده فرافق الملك يوسف بن تاشفين في سَفَره إلىٰ مَرّاكُش، فأنشأ بضعة أبيات من الشعر أعرب فيها عن أسَفه علىٰ فِراقه لآله، فاطَّلَع المَلِك عليها اتفاقًا فأمر واليَ أشْبِيلِّية سِرًّا بأن يُرْسل أُسرة طبيبه إلىٰ إفريقية بسرعة، فلما حضرت أسكنها في بيت فاخرِ الرياش أهداه إليها، فأمر ابن زُهْر الشابَّ بأن يذهب إلىٰ ذلك البيت ليداويَ فيه بعض المَرْضىٰ، فَدُهش من المفاجأة السَّارة التي عُرِّضَ لها، فقلما يصدر مثل هذه المشاعر اللطيفة عن أي أميرٍ، ومما يثير العَجَب أن تُبْصِر في الشرقيين، كيوسف بن تاشفين، أمثلةَ كَرَمٍ وعظمةً جديرةً بالإعجاب في كل زمن مع ما يكون لديهم من جَلَف كبير.

واسمُ ابنُ رشد التامُّ هو أبو الوليد محمد بن رشد، وكان ابن رشد تلميذًا لابن زُهْر أيضًا، فكان يذكره باحترام، ومن أقوال ابن رشد: «علىٰ من يرغب في معرفة علم الطب بعُمْق أن يقرأ، بدقةٍ، كتب معلمنا العالم التي هي كَنْز كامل، وعَلِم معلمُنا كل ما ينبغي لإنسان أن يَعْرِفه من ذلك، وعلمُ الطب الحقيقي مَدِين لآله*»، وهذا الحُكم مما يُشَرِّف ابنَ رشد الذي عُنِي بالناحية النظرية من علم الطب أكثرَ من عنايته بالناحية العملية، وظهر ابن رشد مُشْبَعًا من فلسفة أرسطو أكثرَ من أي إنسان، وأبدىٰ ابن رشد تقديرًا كبيرًا لجالينوس، وإذا عَدَوْت شروح ابن رشد لفلسفة أرسطو وجدتَ له رسالةً في التِرْياق وكتابًا في السموم والحُمَّيات، ونُشِرَ كتابه المهم المعروفُ باسم الكليات وطُبع عِدَّةَ مرات بالبندقية وليون، إلخ.

واسمُ ابن البيطار التامُّ هو: عبدُ الله بن أحمد بن علىٰ البيطار، ووُلِد ابن البيطار في قرية بنانةَ القريبة من مالَقَة فطاف كثيرًا في الشرق فأكرمه صلاح الدين بمصر والملك الكامل بدمشق، وتُقَسَّم مجموعته المعروفة بكتاب «الجامع في الأدوية المفردة» إلىٰ أربعة أجزاء مشتملة علىٰ وَصْف لجميع النباتات والحجارة والمعادن والحيوانات ذات النفع في الطب، وفي هذا الكتاب تصحيحٌ غالب لما ألَّفه ذيسقوريذس وجالينون وأريباسيوس، وفي هذا الكتاب أحوالٌ وتفصيلات لا تَجِدها في كتب هؤلاء.

ونقتصر علىٰ ذكر أشهر أطباء العرب، ولا نستطيع أن نُبْدي غير بيان موجز عما أَلَّفة العرب في العلوم الطبيعية في أثناء ذلك الدور الذي دام عِدَّة قرون، ونحن إذا ما فَكرنا في أن أمراء الشرق كانوا يُسْبغون نِعَمَهم علىٰ من يَدْعونه من العلماء إلىٰ بَلاطهم لم نَعْجَب من كثرة عدد هؤلاء الرجال الممتازين الذين حَفِظ التاريخ أسماءهم؛ ونضيف إلىٰ أولئك ثابتَ بن قُرَّة (٨٥٠) الذي كان فلكيًا ماهرًا أيضًا، ومؤلفَ المالحي أبا الحسن بن التلميذ (٩٩٤)، وأبا جعفر أحمد بنَ محمد بن أبي الأشعث الذي أَلَّف «السِّرْسام[١] والبِرْسام[٢] ومداوتهما»، إلخ (٩٧٠)، وعليَ بن رضوان (١٠٦٠)، وابنَ جَزْلَة (١١٠٠)، وعبدَ الرزاق (١١٥٠)، وهبةَ الله (١١٥٥) وأبا الفرج (١٢٨٦)، وإسحقَ بن إبراهيم (١٣٠٠)، إلخ. وأَلَّف الجلدكيُّ في سنة ١٢٥٢ كتابًا في السيمياء فَسَمَّاه الإكسيرَ فاستعرنا هذه الكلمة في لغتنا، وأَلَّف ابن العطَّار رسالة في الصيدلة فنصَّ فيه علىٰ استحضار المُسهلات والكؤوس والمعاجين والأشْرِبة والحبوب المُحلاة، إلخ. ويتألف من تراجم أطباء العرب في كتاب طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة مجلد فنحيل الراغبين في التفصيل عليه.

---

(١) السرسام: ورم في حجاب الدماغ يحدث عنه حمىٰ واختلاط في الذهن.

(٢) البرسام: هو التهاب في الحجاب الذي بين الكبد والقلب.

الفصل الثالث

الفلسفة - الفقه - الآداب والفنون

الاخـتـراعـات

قيل إنك لا تَجِد فلسفةً عربية بالمعنىٰ الصحيح، وإن هنالك مذاهبَ كثيرةً مخالفةً للدين القائم علىٰ نصوص القرآن لم تَسْطِع أن تتقدمَ طليقةً، ومصدرُ هذا الرأي هو جهلنا السابق لأعمال العرب، واليومَ يُعْترف بأن مدارس اللاهوت اعتمدت علىٰ مؤلفاتهم في القرون الوسطىٰ.

بدأ حنين بن إسحاق ويحيىٰ النحويُّ بترجمة كتب أرسطو، وكان هذا بدءَ العرب لدرس الفلسفة بلا منازع، وعُدَّ الكندي ومحمدُ بن مسعود وأبو تمام النيسابوري وابن سهل البلخي والنسفي والإسرافيني والعمري، إلخ. فلاسفةً عِظامًا حتىٰ ظهور الفارابي وابن سينا اللذيْن أصبحا رئيسين ممتازيْن للمدرسة الجديدة لِما أسبغا به علىٰ الفلسفة من المنهاج المنظَّم الذي تمسَّك به مَن جاء بعدهما فسار علىٰ غِرارهما ابنُ باجة وأثيرُ الدين الأبهريُّ وعليّ الخلنجيُّ وابن رشد، ونصير الدين الطوسي علىٰ الخصوص، فكان لهم أبلغ الأثر في مدارس الغرب، وعَرَف هؤلاء كتاب فاذن وكتاب قراطولس لأفلاطون، وكتابَ النواميس العظيم لأفلاطون أيضًا، وكان لدىٰ هؤلاء عدّةُ كتب مَعْزُوَّة إلىٰ فيثاغورث فَبَدت محلَّ تقديرهم الكبير، وذكر هؤلاء بين القدماء الشاعريْن إبَّرْخُس وأوميرس اللذيْن كان شِعْرُهما مُشْبَعًا من الفلسفة الإلهية، والحكماءِ السبعة وأبيذقليس وأنكساغورس ودياقرطيس وديمقراطيس واللا أدريين وسقراطَ وتلاميذَه وأقليدس وأنتسطن وذيوجانس الكلبيَّ وأرسطيفن وإبيقور وتلاميذَ زِنون، ولأولئك

آراءٌ صائبة فيما يُسَمُّونه الجزء الثاني من تاريخ الفلسفة، أي في خلفاء أرسطو ومدرسة الإسكندرية، ولأولئك مَيْلٌ إلىٰ ثامسطيوس والإسكندر الأفروديسي وفرفوريوس وأومونيوس، ولفلوطين وبرقليس كبيرُ حُظْوَة عندهم، وكان لمقالات أبلونيوس النجار وفلوطرخسَ والفلنطيني زُلْفىٰ لديهم، ويُرىٰ أنهم ينظرون إلىٰ القدماء من خِلال الأفلاطونية الجديدة والفيثاغورية الحديثة وأنهم يؤَلِّفون سلسلة الوصل بين الفلسفة القديمة والفلسفة الجديدة، وهكذا فَرَّق النضال، الذي دام عدَّة قرون، بين أهل الظاهر وأهل الباطن، بين المذاهب الشرقية.

ومن العرب ظاهريون ومنهم باطنيون ومنهم عقليون، أو معتزلة بصريون ومعتزلة بغداديون كما يسمونهم، ومن العرب فلاسفةٌ، ويَحِقُّ للعرب أن يطالبوا بمبادئ ألبرت الكبير الذي كان، كالقديس بوناڤانتور، ذا أثر بالغ في لاهوتيات القرون الوسطىٰ.

ويجب ألَّا يُفْترض، من ناحية أخرىٰ أن الفلاسفة الذين أغضَوْا عن الدين فعُدُّوا مُبَشِّرين بلوكَ وبولفَ، أصحاب مدرسة مستقلة مُجْمَع عليها، فلهؤلاء خصومٌ أشداء، ويَضَع المعتزلة مناحيَ العقل فوق مناحي الإيمان مع محاولتهم التوفيق بينهما ويرىٰ المتكلمون، بالعكس، أن العقائد الدينية أساس البراهين العقلية، ويَرْفض المتصوفة كل برهان عقليّ لِما يؤدي إليه من الضلال مسترشدين بفُيُوض الإيمان وحدَه.

وإلىٰ هذه المدرسة ينتسب الغزاليّ (أبو حامد محمدُ بن محمد)، والغزاليُّ وُلِد في طُوس حيث كان أبوه غَزَّالًا، فأتم دراسته في جُرْجان ونَيْسَابُور فَدُعِي إلىٰ تدريس علم الكلام ببغداد حيث كُتب له نجاحٌ عظيم، ثم أقام بدمشق حيث قَضَىٰ حياةَ تأمل ونظر، ثم عاد إلىٰ نَيسابُور حيث رَجَع إلىٰ التدريس فتوفِّيَ فيها سنة ١١١١، ويمكن مقابلةُ مَنْطقه، الذي نشره پرْتُوس لِيكْتِنْشتَايْن في سنة ١٥٠٦، بمنطق ابن سينا مع قليل اختلافٍ، فَتَرْجمه ڤاتيه في سنة ١٦٥٨، وكان الغزاليُّ متدينًا إلىٰ الغاية، وكان هدفه الأعلىٰ في كتبه القريبة من مائة رفعَ شأن الإسلام، وأهمُّ هذه الكتب هو كتاب «إحياء علوم الدين» الذي نال به لقب «حُجَّة الإسلام»، فبلغ من الشهرة ما قال به المسلمون: إن كتب الإسلام لو ذهبت وبقي

هذا الكتاب لأغنىٰ عما ذهب. وعند الغزالي أن الوحي أمرٌ لا ريب فيه، ويعترف الغزالي بحقوق العقل المقدسة فيقول: ليست الحقائقُ التي يُؤيدها العقل كلَّ ما في الأمر، فهنالك من الحقائق ما يَعْجزُ إدراكنا عن الوصول إليها، ونحن نقول بها وإن كنا لا نقدر علىٰ استخراجها بقواعد المنطق وبالأصول المعروفة، فليس مما يخالف الصواب وجودُ افتراض قائل «بوجود دائرة أخرىٰ فوق دائرة العقل وإن شئت فقُلْ دائرةَ التَّجَلي الرَّبَّانِي، ونحن إذا كنا نجهل سُنَن تلك الدائرة ونواميسَها جهلًا تامًا نَجِد الكفاية في قدرة العقل علىٰ الاعتراف بإمكانها*»، ويضاف إلىٰ مناحي الغزالي الدينية تلك حُبُّه الشديد لعلم الأخلاق الذي أهملته المدرسة العربية في الغالب، فتجد في كتبه كبيرَ حَثٍّ علىٰ عمل الخير واجتناب الشرِّ وعلىٰ الزهد وضبط النفس، ولم يُلْتَفَت إلىٰ كتابه «تهافت الفلاسفة» مع أنه قال في فصل لم يُنْتَبَه إليه أنه لم يُرِد معارضة الفلاسفة ببراهين مستنبطةٍ من فلسفته الخاصَّة بل رَتَّب آراء الفلاسفة القديمة ترتيبًا أصوليًا لِيُبَين أنهم متهادمون مختلفون علىٰ الدوام.

ونحن إذا ما أَلْقيْنَا نظرة علىٰ المذاهب الثانوية التي يمكن إرجاعها إلىٰ التقسيمات التي ذكرناها قبل قليل ذكرًا خاطفًا رأينا أن العرب يَقْصِدون باللا أدرية السفسطائيةَ والسمنيةَ والرياضية، ثم تجيء الدهرية أو القَدَريَّة التي يكون بآرائها المطلقة مجالٌ للْجِدال فَتُنْكِر خلود الروح وتنكر البعث.

ومن المذاهب الماديَّة نذكر الصفاتيةَ والمشبهة والكرامية والحايطية والمعطلة، إلخ.

والهرنانيةُ فرعٌ من الصابئية، وهي منسوبة إلىٰ هرنان علىٰ حسب رواية الكاشي، وهي تقول بالتناسخ، وهي تَخْلِط الصابئية بالأفلاطونية الجديدة، وتجد آرائها في كتاب ريمول لول وفي كتب المنجمين والسِّيمَاوِيين بأوربة.

وتُعَدُّ التعليمية، المعروفةُ بالمُلْحِدِيَّة في خراسان وبالباطنية في العراق، والكراميةُ والمَزْدَكِيّة من الإسماعيلية، وترتبط في الفلسفة الفيثاغورية علىٰ الخصوص.

وما قام به بروكر وغراهام ومَلْكُلْم وهامر وثولُك ودوساسي من الأبحاث يكفي لمعرفة مذهب الصوفية الذي وُجِدَ في بلاد فارس قبل الفتح الإسلامي لا ريب.

ولْنَقُلْ بضع كلمات عن المتكلمين فنذكر أنهم من السُّنِيَّة ومن المعتزلة الذين هم بروتستان الإسلام، وأهمُّ علماء السُّنِيَّة هم: فخرُ الدين محمد بن عمر الرازيّ المتوفَّىٰ سنة ١٢٠٩، وعليُّ بن عمرَ الكاشي المتوفَّىٰ سنة ١٢٧٦، والبيضاويُّ (أبو سعيد عبدُ الله بن محمد بن عليّ) المتوفَّىٰ سنة ١٢٨٦ علىٰ روايةٍ، أو سنة ١٣١٦ علىٰ روايةٍ أخرىٰ، والنسفيُّ (أبو البركات عبد الله أحمد بن محمود) المتوفَّىٰ سنة ١٣١٠، وشارحُ تفسير البيضاوي شمسُ الدين الأصفهانيُّ المتوفَّىٰ سنة ١٣٤٨، والحسينُ الشيرازي، ويَرَىٰ موسىٰ بن ميمون، الذين ترجمهم مُفَصَّلًا، أنهم اقتبسوا أحسن أدلتهم من فلاسفة النصارىٰ الأقدمين، وهو يعارضهم، كمفسرين للقرآن، بالفقهاء الذين يستنبطون من القرآن المعاملات أو القانونَ المدني.

ووجَد المعتزلة السَّنَدَ القوي في بني العباس كما رأينا، ويمكن إرجاع أصل مذهبهم إلىٰ ثلاثة متكلمين ألقوا الشكَّ، بعد وفاة النبي، في المبدأ القائل بالقضاء والقدر، وهؤلاء الثلاثةُ هم: معبد الجهنيُّ وغيلانُ الدمشقيُّ وأبو علي الأسواريُّ، ثم انتحل مذهبَهم تلميذ الإمام المشهور الحسن البصري: أبو حذيفة واصلُ بن عطاءٍ، فصار رئيس المعتزلة، ثم انقسم المعتزلة إلىٰ عِدَّة فِرَقٍ اختلفت في المسائل الثانوية، ومن هذه الفرق ارتبطت الهذيليةُ والبِشْرية والمزدارية والجاحظية والنظامية، إلخ.

في مدرسة بغداد ومدرسةِ البصرة الكبيرتين، وفي البصرة اشتهر واصلُ بن عطاء وأبو علي الجبائيُّ وأبو هاشم عبدُ السلام وأبو القاسم البلخي، إلخ. وهنالك لم تُعَالَج المسائل الشائكة الدقيقة فقط، بل كان يُجَدُّ في تَوْطِئَة مبادئ المعتزلة الفلسفية أيضًا، كما تدل علىٰ ذلك رسائل «إخوان الصفا» التي نشر نويركُ بيانًا عنها سنة ١٨٣٧، ونذكر من مشاهير المعتزلة ابنَ عياش وأبا يعقوب السَّهَّام وإبراهيمَ بن سَيَّارِ بن هانئ النَّظَّام.

ومما تقدم ترىٰ أن اللاهوت والفقه الإسلاميين ليسا سوىٰ علم واحد قائم علىٰ تفسير القرآن، ومن المتعذر أن يكون القرآن جامعًا لجميع التعاليم الدينية وجميع المسائل الفقهية، فكان يُرْجع إلىٰ حُكْم النبي وأصحابه في بعض الأحوال، فلما تُوُفِّي النبي وأصحابه جُمِعت أحاديثهم وأحكامهم فتألفت السُّنَّة منها منذ القرن الهجري الأول.

ولم يكن القرآن والسُّنَّة مِنْهاجًا مُنَظَّمًا، ولم يلبث المسلمون أن شَعَروا بضرورة وجود مِنْهاج لعلم الكلام ومِنْهاج آخرَ للفقه، وهذا ما قام به أربعة أئمة، فكان ما تعلم من تدوين باب العبادات الناظمة لحياة المسلمين الدينية، ثم بابِ المعاملات الناظمة لحياة المسلمين الاجتماعية، ويَقْصِد المسلمون بالشريعة الدستورَ الأعلىٰ الأساسيَّ المُوحَىٰ به من الله والأحكامَ التي يمكن تغييرها بتَغَيُّر الأحوال والرجال، وهي ما تُعْرَف بالقانون والأوامر وأمور السياسة، وعلىٰ ما في مذاهب الأئمة الأربعة من اختلاف اعْترف بأنها تُمَثِّل السُّنَّة، وتُسَمَّىٰ هذه المذاهب بأسماء أصحابها فيقال: المذهب الحنفيُّ والمذهب الشافعيُّ والمذهب المالكيُّ والمذهب الحنبليُّ.

وأولُ هؤلاء الأئمة هو أبو حنيفة النعمانُ بن ثابت المولود في الكوفة سنة ٦٩٩ والمتوفَّىٰ ببغداد في السبعين من عمره، وتَجِد تلخيصًا لمذهبه فيما أَلَّفه إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحلبيّ.

ووُلِد الإمام الثاني الشافعيُّ في غَزَّة سنة ٧٦٩ وتوفِّي بمصر حوالَيْ سنة ٨١٩، ووُلد الإمام الثالث مالك بن أنس في المدينة سنة ٧١٢ وتوفي فيها سنة ٧٩٥، وتوفِّي الإمام الرابع أحمد بن حنبل في الثمانين من عمره ببغداد سنة ٨٥٥.

وهنالك فقهاء آخرون نَضَعُ في المرتبة الأولىٰ منهم محمدَ بن شهاب الزهريَّ، وهؤلاء الفقهاء عُنُوا بتدوين ما استطاعوا جمعه من الأحكام الشرعية، فانتشرت دراسة الشريعة شيئًا فشيئًا، والخليفةُ هارون الرشيد هو الذي وُفِّق لتوطيد القضاء توطيدًا مناسبًا، فَعَهِد فيه إلىٰ تلميذ أبي حنيفة أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، فصار، بعد ذلك، لا يُعَين لمناصب القضاء في إمبراطوريته الواسعة غيرَ من يُوصي بهم أبو يوسف من الفقهاء.

وكان يحيىٰ بن يحيىٰ بن كثير قد تَلَقَّىٰ الفقه من مالك وابن القاسم المتوفَّىٰ سنة ٨٠٦ وابن وهب المتوفَّىٰ سنة ٨١٢ فاتَّفق له من النفوذ في عهد الحكم بإسبانية مثلُ ما اتَّفق لأبي يوسف في المشرق، فأقام في إسبانية مذهب مالك مقام مذهب الأوزاعي المتوفَّىٰ سنة ٧٧٣، وحدث مثل هذا بإفريقية حيث سار علىٰ غِراره سحنون الذي عاش بين سنة ٧٧٦ وسنة ٨٥٤، وما فَتِئ مسلمو المغربِ وإفريقية حتىٰ السودان يعملون بالمذهب المالكي منذ ذلك الحين، وذلك ما عدا مصرَ حيث الناسُ من الشافعية وحيث المحاكم تقضي بالمذهب الحنفي الذي هو مذهب تركية وبلاد التتر وقسم مُهمّ من الهند، وذلك لأن القاضي الأكبرَ الذي يقيم بالقاهرة يُرْسَل إليها من الآستانة في كل سنة.

والمذهبُ المالكي هو الذي يستوقف نظرنا علىٰ الخصوص لِما لنا من الصِّلات بعرب إفريقية، وعَهِدت الحكومة الفرنسيةُ إلىٰ الدكتور پيرون في أن يترجم إلىٰ الفرنسية كتاب المختصر في الفقه للخليل بن إسحاق بن يعقوبَ المتوفَّىٰ سنة ١٤٢٢، وهذا الكتاب هو أحسن ما أُلِّف في الفقه المالكي لا ريب، فقد انتفع مؤلفه الخليل بشَتَّىٰ الرسائل التي اشتمل عليها مذهب مالك، فكان أهمُّها المُدوَّنَةَ والمختلطةَ لسحنون والمعزِّيَّةَ لمحمد بن المعزِّ المتوفَّىٰ سنة ٨٩٤، والعتبيةَ لمحمد بن أحمد بن عبد العزيز العتبي القرطبي المتوفَّىٰ سنة ٨٦٧، والواضحةَ لأبي مروان عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي المتوفَّىٰ سنة ٨٥٢، والمبسوطَ لقاضي بغدادَ أبي إسحاق بن إسحاق بن إسماعيل المتوفَّىٰ سنة ٨٩٥، والمجموعةَ لفقيه القَيْرَوان أبي عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفَّىٰ سنة ٨٧٣.

وهنالك فقهاء من المالكية نالوا شهرة واسعة حتىٰ زمن الخليل، ومنهم ابن الحاجب المتوفَّىٰ بالقاهرة سنة ١٢٤٨، وأبو محمد عبدُ الله بن أبي زيد القَيرَوَانِيُّ المتوفَّىٰ سنة ٩٧٠، وابنُ فرحون المدني المتوفَّىٰ سنة ١٣٧٧، بَيْدَ أن الفقهاء الذين يستشهد بهم الخليل علي الخصوص هم: اللخميُّ (أبو الحسنِ علي بن محمد الربيعي) المتوفَّىٰ سنة ١٠٨٥، وابنُ يونس (أبو بكر محمد بن عبد الله الصِّقِلِّي) المتوفىٰ سنة ١٠٥٩، وابن رشد (محمد بن أحمد أبو الوليد) المتوفَّىٰ سنة ١١٢٦، والماذريُّ (أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر التميمي) المولودُ في ماذرة بِصِقِلِّية والمتوفَّىٰ سنة ١١٤١.

والمذهبُ الحنبلي مهجور تمامًا (!)، وأدَّت تعاليم أبي حنيفةَ إلىٰ اختلاطات مهمةٍ، وتُرْجِمَ كتاب الهداية (في الفروع) الذي ألفَه برهان الدين حوالَىٰ سنة ١١٨٠، ومِشْكاة المصابيح الذي ألّفه أبو عبد الله محمود في سنة ١٣٣٦ مستندًا إلىٰ الإمام الحسين الذي اشتهر ببغداد حوالَيْ سنة ١٢٢٠، إلىٰ الإنكليزيةِ فدَرَسهما ميلز في كتاب «تاريخ الإسلام» ومن الصعب أن نتصور درجة اهتمام العرب بمجموعات الفقه هذه التي ما انفكَّ الشُّرَّاح الماهرون يزيدونها غِنًي، واختار أبو عبد الله محمد البخاري، بعد وفاة محمد، ٧٢٧٥ حديثًا من مئة ألف حديث مشكوكٍ فيه ومئتي ألف حديث موضوع، ونال كتاب «صحيح البخاري» استحسانَ أهل السُّنَّة، وتُعَدُّ الأمور التي يَتّفِق عليها الأئمة الأربعة مبادئَ أساسيةً، وتُعْرَف هذه المبادئ بـ «الإجماع»، والإجماع هو المصدر الثالث بعد القرآن والسُّنَّة، والقياسُ هو المصدر الرابع لتلك العلوم، ولا يُصَار إلىٰ القياس إلا عند العَطَل من القواعد المُقَرَّرة، ويُصَارُ إلىٰ الفَتَاوىٰ في الأحوال الشَّاذّة، وللفَتَاوىٰ عِدَّةُ مجموعات، والإفتاء فرعٌ خاص من فروع الفقه.

ونعود إلىٰ القرآن الذي هو الأساس الأول لأدب العرب بعد أن عَرَضْنا فلسفة العرب وفقههم عَرْضًا خاطفًا فنقول: كان علىٰ محمد أن يثبِّت لغة وطنه التي كَمُلت بفضل الشعراء والتي تهافتت الأمم الخاضعة لحكم الإسلام علىٰ انتحالها، فصَلُح القرآنُ ليكون نَمُوذجًا للأسلوب وقواعد النحو، والقرآنُ، إذا جُمِع من غير حروف عِلة، أمكن تفسيره وتلاوتُه علىٰ أوجه مختلفة، فوَضَع أبو الأسود الدؤليُّ (المتوفَّىٰ سنة ٦٨٧م) مبادئ للنطق بالكتاب الحكيم ففتح بذلك بابًا لقواعد النحو فأوجب ذلك نشوء علم اللغة، فظهورَ علم البيان الذي دُرِس فيه تركيب الكلام ومقتضىٰ الحال والبديع وأوجه البلاغة، وأضحىٰ لصناعة قراءة القرآن وتفسيره أكثر من مئة فرع فأدىٰ هذا إلىٰ ما لا حصر له من التآليف في كلّ منها، واغتنت اللغة العربية بتعابير جديدة كثيرة بعيدة من الفساد بمخالطة اللغات الأخرىٰ، واتسع نطاق اللغة العربية بدراسة كتب اليونان فصارت لغةَ الشرق العلمية، وغدا الأدب الفارسيُّ من فروع الأدب العربي، وكما أن الكتب العلمية في ألمانية أُلِّفت باللغة اللاتينية في القرون الوسطىٰ، علىٰ حين كان الشعراءُ الطّوّافون يَضَعون قصائدهم باللغة الألمانية، كان الفُرْس والترك يُؤلِّفون كتبهم

مستعينين بالاصطلاحات العربية فصار، اليوم، يَتَعذّر درسها قبل الوقوف علىٰ لغة محمد مُقَدَّمًا.

ومما يَجْدُر ذكرُه أن يكون القرآن، بين مختلف اللغات التي يتكلم بها مختلف الشعوب الإسلامية في آسية حتىٰ الهند وفي إفريقية حتىٰ السودان، كتابًا يفهمه الجميع وأن يَرْبِط القرآن هذه الشعوب المتباينة الطبائع والعادات برابطة اللغة والمشاعر، وفي المدارس الإسلامية تقوم التمارين التي تُفْرَض علىٰ الطُّلّاب الصِّغار علىٰ الكلمات: إن شاء الله وما شاء الله والله أكبر والله كريم، وعلىٰ سورة الفاتحة التي هي أولىٰ سُوَر القرآن، وفي المدارس الإسلامية يتعلَّم الطلاب آجروميةَ محمد بن داود الصنهاجي، وتصريفَ شيخ الإيمان، وألفيةَ جمال الدين محمد بن مالك، والمصباحَ في النحو للمطرزي، وشذورَ الذهب في النحو لابن هشام، ولدينا كتابُ دروس في النحو العربي وغيره جامعٌ لكتاب مراح الأرواح لأحمد بن علىٰ بن مسعود، ولكتاب العِزِّي للشيخ عز الدين أبي الفضل عبد الوهاب الزنجاني، وكتابِ المقصود المشتمل علىٰ تصريف الأسماء والأفعال للإمام يوسف الحنفي، وكِتابِ البِنَاء المشتمل علىٰ أجزاء الكلام الممنوعة من الصرف، وكتابِ الأمثلة المشتمل علىٰ جدول تصريف الأفعال.

وكان يمكننا أن نأتي بتفصيل أكبرَ مما تقدم عن نَحَوِيي العرب وشُرَّاحهم لو لم يَجْمَع مسيو دوساسي في كتابه الخالد كل ما يُعْرف في هذا الموضوع، وألقىٰ هذا العالم الشهير نورًا قويًا علىٰ قواعد النحو العربي نافذًا في أصول اللغة مقابلًا عبارةً عبارة بين طريقة الشرقيين وطريقة الأوربيين في هذا المضمار.

ومما أصيب في ملاحظته أن دَرَسَت الشعوب التي خَضَعت لفاتحي العرب لغةَ العرب بهمَّة، فكان من الفرس سيبويه والفارسيُّ والزَّجَّاج الذين هم من أقدم علماء النحو، ومن أشهر فطاحل علماء اللغة نذكر إسماعيل بن حماد الجوهريَّ المولود بفاراب من بلاد ما وراء النهر حوالَيْ منتصف القرن السادس من الهجرة، والفَيْرُوزآبادِيَّ المولودَ سنة ١٣٢٨م بكارزين الواقعة في جوار شيراز، وجاب الجوهريُّ بلاد فارس والعراق والشام ومصر، ثم عاد إلىٰ خراسان وأقام بنَيْسَابُور، فوَضَع هنالك كتاب «الصحاح» الذي هو أكمل مُعْجَم عَرَفَه العرب حتىٰ

ذلك الحين، فَلُقِّب الجوهري بإمام اللغة، وشُرح هذا المُعْجَم كثيرًا وعليه اعتمد غوليوس ومنينسكي وأشادا بذكره، وظهر الفَيْرُوزآبادي (مجدُ الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب) في عصر الانحطاط، ولكنه كان لديه من الآثار المُهمَّة ما عَزَم به علىٰ تأليف كتابٍ جامع لجميع كنوز اللغة العربية، وكان يوجد، إذْ ذاك، كتاب «المحكم» لأبي الحسن علي بن إسماعيل المُكَنَّي بابن سِيدَه (المتوفَّىٰ سنة ١٠٦٥)، وكتابُ «العباب» في عشرين جزءًا للإمام الحسن بن محمد الصغاني (المتوفَّىٰ سنة ١٢٥٢)، فصَهَر الفَيْرُوزآبادي جميع تلك المعاجم في مُعْجَم مؤلف من ستين جزءًا فجاء مُهِمًّا أهميةَ صحاح الجوهري، فكان مُعْجَمه (القاموسُ المحيط)، الذي انتهىٰ إلينا، خلاصةً لذلك الأثر الجليل لا تكاد تَعْدِل جزءًا واحدا من ثلاثين منه، وساح الفَيْرُوزآبادي زمنًا طويلًا وتَخَرّج في مدارس أفضل العلماء فيما طاف فيه من البلدان، ثم أقام بزبيد حيث توفي في الثمانين من عمره (١٤١٥م)، ولم يُقَصِّر صاحب اليمن إسماعيل بن عباس المُلَقَّب بالأشرف في إكرامه، ويُروَىٰ أن السلطان بايزيد العثماني وتيمورلنك قَدَّرا فضله فبعثا بهدايا إليه، وألف الفَيْرُوزآبادي أربعين كتابًا لم يَنْتَه إلينا شيء منها مع الأسف.

ولا نرىٰ أن نترك هذا الفرعَ المُهم من آداب اللغة العربية قبل أن نقول كلمة عن أبي القاسم محمود الزمخشري النحويّ اللغوي المفسر للقرآن (المتوفَّىٰ سنة ١١٤٣) والمشتهر بمؤلفاته أيضًا، فالزمخشريُّ كان يقاسم المعتزلة آراءَهم مُباهيًا، وللزمخشري تفسيرٌ للقرآن معروف بالكَشَّاف، وله كتاب المُفَصَّل في النحو، وله مقدمة الأدب، وله مُعْجَم عربي فارسيٌّ نُشرَ في زماننا.

وللفصاحة والبلاغة، أيضًا، مكانُ عليٌّ في الأدب الشرقي. ومن يرغب في الوقوف علىٰ ذلك فليطالع الجرجانيَّ وشرحَ سعد الدين التفتازاني لكتاب «تلخيص المِفْتاح» للإمام جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، وليطالِعْ كتابَ «حدائق البلاغة» في البلاغة الفارسية والنثر الفارسي للأمير شمس الدين، وكتابَ «أدب الكاتب» في صِناعة الكتابة وضروب البلاغة لابن قُتَيْبَة المتوفَّىٰ سنة ٨٩٠م، والخليلُ بن أحمد هو أول من استنبط قواعد العَروض من قصائد العرب فانتحلت الشعوب الإسلامية هذا الفن، وكان ابن السكاكي، الفارسيُّ الأصل، مشهورًا

بفصاحته فشُبِّه بكانتيليان لصواب أحكامه وصفاء ذهنه، وبسيسرونَ لجمال أسلوبه وَغِنَىٰ بيانه، وعَرَض الجزريُّ في مِنْهاجه العامِّ فروع المعارف الضرورية للخطيب، وألَّف السيوطيُّ في هذا الموضوع فبحث في دِقَّةِ لغة العرب وبلاغتِها وتأثيرها، وقَرَنَ القواعد بالأمثلة، واستشهد في تأييد آرائه بنصوص اقتبسها من كتب مشاهير الكُتَّاب.

ونضع الحريريَّ بجانب علماء البلاغة المذكورين آنفًا وفي طليعة علماء اللغة، ولمقامات الحريري الخمسين التي أجاد مسيو دوساسي طَبْعها صِيتٌ ذائع في أرجاء الشرق، وتتألف هذه المقامات من أحاديثَ علىٰ لسان شخص موهوم مُزِج النثرُ فيها بالنَّظم، وحاول الحريري أن تكون تعابيرها خيالية ذات ألغاز قليلةِ الاستعمال، وهي ذات رموز وأمثال تجعل قراءتها صعبة، وليست كثيرة الكتبُ التي كان لها من الشُّرَّاح كتلك المقامات.

ومن كتاب «وفَيَات الأعيان» لابن خلكان نعلم أن الحريريَّ وُلد سنة ١٠٥٤م وتوفي سنة ١١٢١ بالبصرة، وفي ذلك الكتاب قولٌ بأن الحريريَّ من أئمة عصره، وتشتمل مقاماته علىٰ ثروة عظيمة للسان العرب ولَهَجَاتهم، ومن يتعَمَّق فيها بما تستحقُّ تتمَثّل له براعة صاحبها وغزارةُ لغته وينابيعُ أدبه، ووقعت المقامة الحرامية في يد وزير المسترشد بالله: شرفِ الدين أبي نصر أنوشروان بن خالد بن محمد القاشاني، فأعجبته فأشار علىٰ الحريري بأن يَضُمَّ إليها غيرها، وكان عميد الدولة جلالُ الدين أبو الحسن عليّ وزيرًا للمسترشد أيضًا، فكان، كذلك، مُكرمًا للحريري الذي وَقَفَ حياته علىٰ دراسة الأدب، وللحريري أُرْجُوزَةٌ في النحو العربي اسمُها «مُلْحَةُ الإعراب» وشرحٌ منثور لها.

وظهر قبل الحريري بديع الزمان الهمذاني (أبو الفضل أحمد بن الحسين) المتوفَّىٰ في الأربعين من عمره (١٠٠٧) فكان سالكًا مِثْلَ تلك الطريق فكان يفاخر بأنه واضع لأربعمئة مقامة، وكان الهمذاني ذا ذاكرة عجيبة فَيَحْفَظُ القصيدةَ علىٰ ظهر القلب بعد أن يسمعها مرة واحدة، وكان يرتجل الكلام بذلاقة كبيرة، واشتهر كل ما قاله بحسن الاختيار وصفاءِ اللغة وطلاوة التعبير.

ويجب أن نُلْحِق بذلك الفراغ الأدبي أمثالَ لقمان الذي ينعته الشرقيون

بالحكيم فلم يَجِده بعضُ الباحثين غيرَ إيزوب، ومفاكهةَ الظرفاء لابن عربشاه الدمشقي وكتابَ كليلة ودِمْنَة الذي ترجمه عبد الله بن المُقَفَّع من أقاصيص بيدبا، وكتابَ ألف ليلة وليلة المجهولَ مؤلفُه والمنقطعَ النظير والذي يَرْبِط بالحوادث التاريخية كلَّ ما يستطيع الخيال الساطع أن يبذره من الروايات الرائعة والأفكار الراقية والخواطر الرائقة.

وما تقدم يَحْفِزنا إلىٰ البحث في مجموعات الأمثال والأغاني لدىٰ العرب، لما نَجدُها مصدرًا خصيبًا للمعارف التاريخية، ومنها كتاب الأمثال للميداني الذي استوقف نظر أشهر مستشرقينا في الغالب، وكتابُ الأغاني لأبي الفَرَج علىٰ بن حسين الأصفهاني، علىٰ الخصوص، هو الذي ألقىٰ نورًا ساطعًا علىٰ تقاويم جزيرة العرب، والأصفهانيُّ هذا كان مُتَبحرًا في معرفة أيام العرب الشهيرة ومفاخر الأجداد والأنساب والمُصَنفات، وما فَتِئ الأصفهاني يؤلف حتىٰ وفاته في سنة ٣٥٦، وأهمُّ كتبه وأضخمها، بلا خلاف، هو «كتاب الأغاني» الذي تشتمل مكتبتنا الوطنية علىٰ نسخة منه في أربعة مجلدات من القَطْع الأكبر، ويَخْدع نفسه من يُقَدر هذا الكتاب بعنوانه التافه، فهذا الكتابُ هو، بالحقيقة، قِطَعٌ من الشعر لمختلف الشعراء المسلمين والجاهليين الذين جادت قرائحهم بعدَّة موادَّ ذات نفع كبير في التاريخ المدني والأدب العربي، وما في هذا الكتاب من غزارة وتنوع وقَصَص لاذع في كل باب يُجاز به في الحال إلىٰ التبذُّل الخالي من الغَرَض مع مَيْلِ الأصفهاني إليه قليلًا علىٰ ما يحتمل، ولم تَعْرِف أوربة هذا الكتاب إلا بعد غزو نابليونَ لمصر، ويقوم هذا الكتاب علىٰ مئة أُغْنِيَة طَرَّزها للخليفة الرشيد إبراهيمُ المَوْصِلي وإسماعيلُ بن جامع وفُلَيْح بن أبي العَوْراء، وعلىٰ ما أضافه إسحاق بن إبراهيم، بأمر الخليفة الواثق، إلىٰ هذه المجموعة من أغاني معبد وابن سُرَيْج وابن يونس وكثير من الخلفاء وأبناء الخلفاء وبعض القصائد ذات النفع التاريخي، وأضاف الأصفهاني إلىٰ تلك الأغاني التي اختارها ما تُفَسَّر به من الحوادث كما أضاف إليها تراجم واضعيها من الشعراء، وأراد الأصفهاني أن يثير حبَّ الاطلاع في القارئِ فلم يَتَّبع في كتاب الأغاني تسلسلًا منظمًا، وما ورد في الأغاني، مثلًا، عن نَسَب الشاعر أبي قطيفة، حفيد عُقْبَة بن أبي مُعَيْط الذي أمر بقتله محمدٌ بعد معركة بدر صَبْرًا، هو من الاستطرادات التاريخية الكثيرة

الفائدة التي جاء بها الأصفهاني، وكان للنَّضْر بن الحارث مِثْلُ نصيب عُقْبَة بن أبي مُعَيْط، والنضرُ هذا كان ذا معرفة، والنضرُ هذا طاف في خارج بلاده ودَرَسَ اللغات الأجنبية وقرأ أوابد الأدب الفارسي والأدب اليوناني، والنضرُ هذا أتىٰ بهذه الآثار إلىٰ مكة حيث أدخل الذوق الموسيقيَّ، وبلغ النضر من الإعجاب بنفسه ما بَدَا به عدوًا للنبي الذي لم يُصَدِّقه مُبْديًا خلافاته متهمًا إياه بالجهل، فدفع ثمن هذه الخصومة غاليًا، فلما وقَع أسيرًا بيد عدوِّه النبي لم يَرَ النبي غير التخلص من هذا الثقيل، وأسف محمدٌ، مع ذلك، علىٰ ما كان من انتقامه، الذي يُلام عليه، حينما بلغته الأبيات الآتية التي بَكَتْ قُتَيْلَة أخاها النضرَ بها:

يـا راكـبًـا إن الأُثَـيْـلَ مَـظِـنَّـةٌ   من صُبْحِ خامسةٍ وأنْتَ مُوَفَّقُ[1]

أبْـلِـغ بـهـا مَـيْـتًـا بـأن تـحـيـةً   ما إن تَزَالُ بها النجائبُ تَخْفِقُ[2]

مِـنِّـي إلـيـك وعَـبْـرَةً مَـسْـفُـوحَـةً   جَادَتْ بِوَاكِفِها وأُخْرَىٰ تخنُقُ[3]

هـل يَـسْـمَـعَـنَّ الـنَّـضْـرُ إن نَـادَيْـتُـه   أم كـيـف يـسـمـعُ مَـيـتٌ لا يَـنْـطِـقُ

أمـحـمـدٌ يـا خـيـرَ ضِـنْءٍ كـريـمـةٍ   في قَوْمها والفَحْلُ فَحْلٌ مُعْرِقُ[4]

مـا كـان ضَـرَّكَ لـو مَـنَـنْـتَ ورُبـمـا   مَنَّ الفَتَىٰ وهو المَغِيظُ المُحْنَقُ[5]

أو كُـنْـتَ قـابِـل فِـدْيَـةٍ فَـلْـيُـنْـفَـقَـنْ   بـأعـزِّ مـا يَـغْـلُـو بـه مـا يُـنْـفَـقُ

فـالـنـضـرُ أقـربُ مـن أسَـرْتَ قـرابـةً   وأحَـقُّـهـم إن كـان عِـتْـقٌ يُـعْـتَـقُ

ظَـلَّـت سـيـوفُ بـنـي أبـيـه تَـنُـوشـه   لـلّـهِ أرْحَـامٌ هـنـاك تُـشَـقَّـقُ[6]

صَـبْـرًا يـقـاد إلـىٰ الـمَـنِـيَّـةِ مُـتْـعَـبًـا   رَسْفَ المُقَيَّد وهو عَانٍ مُوثَقُ[7]

وأورد الميداني في «مَجْمع الأمثال» من القِصص ما يستوقف النظر، ومن ذلك ما ذكره سببًا للمثل «إن من البيان لَسِحْرًا» الذي قاله محمد حينما وفدَ عليه، في سنة ٦٣٠، عمرو بن الأهتَم والزِّبْرِقان بن بدر وقبسُ بن عاصم الذين اعتنقوا

---

(١) الأثيل: موضع قرب المدينة، ومظنة: موضع لحصول الظن.

(٢) النجائب: كرام الإبل، وتخفق: تسرع.

(٣) العبرة: الدمعة، ومسفوحة: جارية، والواكف: السائل.

(٤) الضنء: النسل والولد، ومعرق: الكريم الذي يأتي بنسل كرام.

(٥) المحنق: الشديد الغيظ.

(٦) تنوشه: تتناوله.

(٧) الرسف: المشي الثقيل، العاني الأسير، الموثق: المكتوف المشدود وثاقه.

الإسلام، وذُكر قيسُ بن عاصم هذا كثيرًا في تاريخ الجاهلية وفي الحوادث التي وقعت بعد وفاة محمد، وجمع قيسُ بن عاصم هذا أولاده لما دنا أجَله فأراهم حُزْمة من السِّهام فأمرهم بأن يكسروها قاصدًا بذلك أن يُثْبت لهم فوائد الاتحاد، وفي مجمع الأمثال للميداني أن العَصا من العُصَيَّة، وذلك للدلالة علىٰ أن الأمر الصغير هو مصدر الأمر الكبير في بعض الأحيان، والميداني إذ فَصَّل ذلك أعدَّ لأحد الأدباء المشهورين موضوع القصة المعروفة الآتية وهي: أن أبناء نِزارٍ الأربعة، مُضَرَ وإيادًا وربيعةَ وأنمارًا، لم يتفقوا علىٰ تقسيم ميراث أبيهم فذهبوا إلىٰ حَكَمَ العرب الأفْعَىٰ الجُرْهُمي، وإنهم لَفي الطريق إذ رأوْا رجلًا أضلَّ بعيره فسألوه: أهذا البعيرُ أعور؟ أهو أزور[1]؟ أهو أبتر[2]؟ أهو شَرُود[3]؟ فأجاب الرجل: نَعَم، ظانًّا أن البعير قَبْضة الإخوة الأربعة، فأنبأوه بأنه لم يَرَوْه، فلما سألهم الأفْعَىٰ الجُرْهُمىٰ: أجاب مُضَر أنه رأىٰ عشب الحقل مأكولًا من ناحية فذهب إلىٰ أن الحيوان الذي رعاه من هذه الناحية أعور، وأجاب ربيعة أنه أبصر أثرًا لأحَدِ الخُفَّيْن الأماميين أوضحَ من أثر الخفِّ الآخر فذهب إلىٰ أنه أزور، وأجاب إيادٌ أنه شاهد بَعرْه غيرَ منثور فذهب إلىٰ أنه أبتر، وأجاب أنمارٌ أن البعير وُجِدَ في مكان ذي نبت مُلْتفّ فجاز عنه إلىٰ مكانٍ أقلَّ كَلَأً فذهب إلىٰ أنه شرود، وكان العرب شديدي الحبِّ لإظهار براعتهم في مثل ذلك فتجد أثرًا لذلك الطِّراز في مؤلفاتهم.

ومن الحقِّ أن قيل: إن الشعر ديوان العرب، وكنتَ في كل سنة تسمع في سوق عكاظ تمجيدًا لأعمال الأبطال وافتخارَ كل واحد بكرم قبيلته وإشادتَه بذكرها، فإذا ما نالت قصيدة إعجاب الجميع كُتِبت بحروف من ذهب وعُلِّقت في جُدُر الكعبة، ومن هنا جاء اسم المُعَلَّقات التي ذكرناها آنفًا، وانظرْ إلىٰ معلقة الحارث بن حِلِّزة تجدْه يُذَكِّرنا بما كان بين بني بكر وبني تغلبَ من نزاع وبما كان من قهرٍ لخصومه وبما أصابهم من عار مع تجاوز عنهم، وانظرْ إلىٰ ارتياح زهير

(١) الأزور: الناظر بمؤخر عينيه.

(٢) الأبتر: المقطوع الذنب.

(٣) الشرود: النفور.

بن أبي سلمىٰ في معلقته لِما تَمَّ من صلح بين عَبْسٍ وذبيان، وانظر إلىٰ امتداح عمرو بن كلثوم في معلقته لقبيلة بني تغلب علىٰ العموم ولجرهمَ علىٰ الخصوص، وسَلَكَ امرؤُ القيس وطَرَفة بن العَبْد وعَنْتَرَة بن شَدَّاد ولبيد بن ربيعة مسلكًا آخر فكانت معلقاتهم وصفًا متتابعًا لما قام في خواطرهم، وما في هذه المعلقات من دقائقَ وتشبيهات وتصويرات جريئة اتُّخِذ نماذجَ لكُتَّاب القرون القادمة، ووُلِد امرؤُ القيس حوالَيْ سنة ٥٠٠، فقضىٰ حياة ضلال، وكأن أبوه رئيسًا لبني أسد فقُتِل فأراد امرؤ القيس أن يثأر بأبيه فاستنجد، علىٰ غير جَدْوَىٰ، بالأعراب وبأقيال اليمن وبالقيصر جوستينيان فمات بالقرب من أنقرة مسمومًا علىٰ ما يحتمل، وكان لطَرَفَة بن العبد مصيرٌ أسوأ من ذلك، فقد غَضِب عليه ملك الحيرة عمرُو بن هند والمنذر الثالث بعد أن أحسن هذا الأخير قبوله فدُفن حَيًّا قبل أن يبلغ العشرين من عمره، وما كان عنترة الذي اشتهر بمفاخره وعبقريته الشعرية أقلَّ مغامراتٍ منهما، وعنترةُ إذ كان ابنًا لشدَّاد ولأمةٍ حبشية كان له نصيبُ أُمِّه، ثم أُعتق في وَسَط معركة دامية فأثبت أنه ابن بَجْدتها غيرَ مرة فغدا بطلًا حقيقيًّا، وما قام به من جليل الأعمال أدىٰ إلىٰ وضع رواية حديثة مشهورة في الشرق مشتملةٍ علىٰ أربعة وثلاثين جزءًا من القَطْع الأكبر، ووَصَف مؤلف هذه الرواية الشيخ يوسف بن إسماعيل حياةَ عرب البادية وصفًا حقيقيًا مُبَينًا محاسنهم ونقائصهم مُدْخِلًا إلىٰ قصته أهمَّ الحوادث وأشهر الرجال في عصر محمد، وقُتِل عنترة بن شَدَّادٍ في أيام شَيْبَته من قِبَل عربيٍ من قبيلة نبهان اسمُه وَزر كان في وفد بني طيئ إلىٰ النبي في سنة ١٢٩.

ووُجِد بجانب شعراء المعلقات السبع شعراء ممتازون نذكر منهم المُرَقِّشَيْن اللذين اشتركا في حرب البَسُوس، والشنفرىٰ من قبيلة أزد، وتأَبَّطَ شَرًّا، والنابغةَ الذبياني الذي كَان ذا حُظوة لدىٰ ملوك الحيرة فلدىٰ ملوك الغساسنة فعاش حتىٰ أوائل القرن السابع من الميلاد، ودريدَ بن الصِّمَّة الذي قُتِل في معركة حُنَيْن بعد أن بلغ من الكِبَر عتِيًّا.

وكان شعراء مكة أولَ البادئين بمهاجمة محمد ودينه الجديد منذ ذَرَّ قرن الإسلام، وكان محمد عُرْضَةً لَهِجْو عبد الله بن الزبعرىٰ وأبي سفيان بن الحارس

بن عبد المطلب وعمرو بن العاص بن أمية فعَهِد في الدفاع عنه إلىٰ ثلاثة من شعراء الحجاز وهم: حَسَّان بن ثابت وعبدُ الله بن رَواحَة وكعبُ بن مالك، وكان كعب ابن صاحب إحدىٰ المعلقات زهير قد طَعَن في الإسلام ونَبِيه فَأُحِلَّ دَمُه، ثم أسلم لِيُنْقِذ حياته فوَضع قصيدته المشهورة بقصيدة البُرْدة، فلما سَمِع محمد منه هذا البيت:

إن الرسولَ لسيفٌ يُستْضَاءُ به ... مُهَنَّدٌ من سيوف اللهِ مسَلولُ

خلع عليه بُرْدَته عَلامةً لِلْقَبُول، ثم اشترىٰ بنو العباس هذه البُردَة فيُرْوىٰ أنها محفوظة الآن في قصر سلاطين آل عثمان بالآستانة.

وتُسمىٰ مجموعة الشعر العربي للشاعر الواحد أو للقبيلة الواحدة بالديوان، ويتألف من معرفة الدواوين فرعٌ للمباحث التاريخية، ويشتمل بعض الدواوين، كديوان الحماسة مثلًا، علىٰ مختارات من أفانين شعراء كثيرين، ولم يحتفظ الشعر بقُوَّته الأولىٰ في غير جزيرة العرب، وأما في خارجها فأضاع نفوذه ومنزلَته لما حدث من تطبيقه علىٰ مختلف العلوم، فتجد أراجيز في علم الكلام والفلسفة والجبر والنحو.

ونظم المُتَنَبّي في القرن التاسع من الميلاد عِدَّة قصائد في مدح الأمير سيف الدولة أبي الحسن علي بن حمدان، وألَّف أبو تَمَّام حبيبُ بن أوس المُلَقَّب بالطائي ديوان الحماسة، وأُعْجب بأبي نُواس المتوفَّىٰ سنة ٨١٠. وبابن دريد المتوفَّىٰ سنة ٩٣٣، وبأبي العَلاء المتوفَّىٰ سنة ١٠٥٩، وبابن الفارض المتوفَّىٰ سنة ١٢٣٥، إلخ. ونَظَم الطنطراني (المولود سنة ١١٨٠ والمتوفَّىٰ سنة ١٢٣٤) رسالة الإمام الغزالي في الفقه، ونَظَم قصيدةً في التصوف ومُنَظَّمَةِ الدراويش، وأقبل الشرقيون علىٰ كُتُبه التي جمعها تلميذه عليّ في ديوان.

ويُلام الشعر العربي، علىٰ العموم، علىٰ عدم الاتساع والتنوع والخِطَّة، وإذا استثنيت بعض القِصص في رواية ألف ليلةٍ وليلة التي تَجِد بعضها منظومًا وبعضَها منثورًا وقصائدَ أبي تَمَّام وجميل أو غيرهما وبعض الآثار التي هي من نوع «الصادح والباغم» لأبي يعلىٰ بن الهبارية، والتي هي من نوع المحاورات لمحمد بن محمد الذي أدخل إلىٰ المسرح خمسين مهنة ذات خمسين لغة، لم

تَجد كُتُبًا أدبية ذات نَفَس طويل، وأكثر القِطَع الرائعة بجزئياتها محصورٌ في دائرة نَمَطِية غير متماسكة أحيانًا، ولْيُعْتَرَف، مع ذلك، بأن شعراء عصر الخلافة الأعظم بعيدون من التكلف وفرط الخيال اللذين يشينان آثار الشرق الأدبية في الغالب، ويمكن أن يُعْزَىٰ إلىٰ هذه الآثار نقصٌ معاكس إذا ما نُظر إليها من خلال حِكَم عليّ، وتتصف قصيدة ميسونَ بالعَفَافَ والنَّقاء، ولم يستحوذ فساد الذوق علىٰ الآداب في غير دور الانحطاط.

وتتجلّىٰ عبقرية العرب في الشعر الغنائي علىٰ الخصوص، ومراثي العرب مزيجٌ من الرِّقّة والحنان، وأهاجيهم قَوِيةٌ لاذعة، وأمثالهم رفيعة في بعض الأحيان، وغَزَلُهم أنيق صادق، وكانوا يصفون ما يبصرونه من المناظر من غير تغييرٍ في لَهْجة أبطالهم وبَرَعوا في الشعر الرَّعَوِي أيضًا.

وكان خيال شعراء العرب بالأندلس يبدو في الروايات والأقاصيص، فالحقُّ أن أتباع محمد كانوا من أكابر المحَدِّثين علىٰ الدوام، فكانوا يجتمعون مساءً تحت خيامهم ليسمعوا بعض الأقاصيص العجيبة التي تتخللها الموسيقا والغناء كما في غَرْناطَة، ويُخْبر ما في إسبانية من القصص المؤلفة من قطَع مترجمة، أو التي قُلِّد بها العرب، إخبارًا صحيحًا عن الأعياد وألعاب الخواتم وصِراع الثيران وحروب النصارىٰ والمسلمين والتفاخرِ ورقص الفرسان والتشبيب والغَزَل وما إلىٰ ذلك من الأمور التي اشتهر بها عرب الأندلس في أوربة، ومما يملأُ المجلدات أسماءُ شعراء هؤلاء العرب وعناوينُ دواوينهم التي لم تَصِل إلينا، ومن دواوين أولئك الشعراء اقْتَبَس البروڤنسيون ما كان لدىٰ العرب من الأوزان التي بلغت من القِدَم ما لا يُعْرَف أولُه، ويُعد أحمد بن محمد (أبو عمرو) المتوفَّىٰ سنة ٩٧٠ أحسنَ شعراء الأندلس، ولأحمدَ هذا كتابٌ في أيام العرب، ومَجَّد أحمدُ هذا مفاخر بني أمية.

ولا يظن القارئ أن ما ذكرناه هو جميع ما لدينا من المصادر عن أخبار العرب، فللعرب مؤرخوهم أيضًا، وتعوّدنا أن نَضَع أبا الفِداء وأبا الفرج وبهاءَ الدين في المرتبة الأولىٰ لما كان من انتفاع علماء الغرب بمؤلفاتهم، مع أن ابن خلدون والمقريزي وشمس الدين والسيوطي والنويري ومن أتيح لنا أن

نذكرهم لا يقلُّون عن هؤلاء قيمةً في الحقيقة، وعَدَّ حاجِّي خليفة ١٣٠٠ كتابٍ معتبر في التاريخ كما عَدَّ يحيىٰ أفندي أسماء ١٥٠٠ كتاب من ذلك الطِّراز، وهذه الكتب بعيدةٌ من الطلاوة علىٰ العموم، ولا تبصر فيما تنصُّ عليه من الحوادث تلك الرابطةَ الأدبية التي يقوم عليها فنُّ كتابة التاريخ، وترىٰ فيها، مع ذلك بيانًا دقيقًا للأمكنة والأزمنة يجعلها جديرة بالتقدير خليقةً بأن يَسْتَند إليها ذوو القرائح العالية فيقيموا آراءَهم وأحكامَهم علىٰ أساس حقيقيّ متين.

وتكلمنا عن أبي الفداء حينما بحثنا في جِغْرافيِّي العرب، وتدخل أبو الفداء في شؤون زمانه المهمة فكان صاحب السلطان الأعلىٰ بحماة في أوائل القرن الرابع عشر، واتَّصَف أبو الفداء بأسمىٰ الصفات فاشتهر بشجاعته في الحرب وحَذَرِه في آرائه، وأولع أبو الفداء بالآداب فألف كتابَه «المختصر في أحوال البشر» في خمسة فصول فجاء مشتملًا علىٰ حوادثَ جالبةٍ للنظر، فأما الفصل الأول فيحتوي أخبارَ الرُّعاة والأنبياء وحُكَّام بني إسرائيل وملوكِهم، وأما الفصل الثاني فيحتوي أخبارَ أُسَرِ أكاسرة الفُرْس الأربع القديمة، وأما الفصل الثالث فيحتوي أخبارَ فراعنة مصر وملوكِ اليونان وقياصرة الرومان، وأما الفصل الرابع فيحتوي أخبار ملوك العرب قبل ظهور محمد، وأما الفصل الخامس فيحتوي أخبار السريان والصابئين والأقباط والفرس، إلخ، والحوادثِ التي وقعت منذ ولادة محمد حتىٰ سنة ١٣٢٨م، وتوفي أبو الفداء بعد هذا التاريخ بثلاث سنين، وليس لأخبار الأزمنة القديمة في كتابه كبيرُ قيمة، وتبدو أهمية كتابه عند النظر إلىٰ ما فيه من تاريخ الإسلام السياسي والأدبي وتاريخ قياصرة الروم في القرن الثامن والقرن التاسع والقرن العاشر.

وانتهىٰ إلينا من أبي الفرج المَلَطيّ كتابُ «تاريخ مختصر الدول» منذ بدء العالم، وفي هذا التاريخ أخبارٌ ذات قيمة عن العرب والمغول وفتوح جنكيزخان، ووُلد أبو الفرج هذا في مَلَطْيَة، ومات سنة ١٢٨٦، ويُعرف أبو الفرج بابن العبري أيضًا، وكان من طائفة السريان اليعاقبة فصار أُسقُفًا علىٰ جوباس ثم أُسقُفًا علىٰ لاقبين ثم مفريانًا[١] علىٰ يعاقبة المشرق، ولأبي الفرج عِدَّة رسائل في اللاهوت

(١) المفريان: كلمة سريانية معناها المثمر، والمفريان هنا بمعنىٰ نائب البطرك كما اصطلح عليه السريان اليعاقبة. (المترجم).

والفلسفة، وألف أبو الفرج تاريخه ذلك بالسريانية فطلب إليه بعض الأصحاب أن ينقله إلىٰ العربية ففعل.

وعُرف بهاء الدين لدينا بتاريخه عن صلاح الدين، ووُلد في المَوْصِل سنة ١١٤٥، وعُني كثيرًا بدرس الحديث والفقه، ودَرَّس في مدرسة نظام الملك ببغداد ذات حين، ثم في المدرسة التي أنشأها في الموصل كمال الدين محمد الشهرزوريُّ، ونال حُظْوَة لدىٰ صلاح الدين فَنُصِب قاضيًا للعسكر وقاضيًا لبيت القدس، ومات السلطانُ فحضَر جنازته فحافظ في عهد خلفائه علىٰ سابق منزلته فنُصِّب قاضيًا لحلب حيث أنشأ كلية وأسَّس مدرسة، ثم اعتزل الخدمة العامة حوالَيْ سنة ١٢٣١، فلم ينفكَّ عن التدريس بجِدٍ ونشاط حتىٰ وفاته في سنة ١٢٣٥م.

ومن السهل أن ندرك أنه لم يكن لدىٰ المؤرخين في عصر الاستبداد الشرقي من الاستقلال ما يبدون به أفكارهم أحرارًا، وإذا ما حَظَر أحد الأمراء تدوينَ تاريخ عهده مُهَدِّدًا بقتل من يفعل ذلك أُخْبر المؤرخون بوجوب تحرُّزهم في أحكامهم وضرورة اقتصارهم علىٰ ذكر الحوادث التي ترْفَع شأن ذلك الأمير، ويظهر أن ابن خلدون خَرَج من مثل هذا النَّطاق، ووُلِد ابن خلدون في تونس سنة ١٣٣٢م، وانغمر في الثَّوْرات التي كانت إفريقية مسرحًا لها في القرن الرابع عشر من الميلاد، وكان ابن خلدون في خدمة ملوك فاس بعض الزمن، ثم ذهب إلىٰ القاهرة حيث عُني بالتدريس، ونُصب ابن خلدون قاضيًا لقضاة المالكية فكان يُعْزَل من هذا المنصب باستمرار علىٰ أن يعود إليه من فَوْرِه لِمَا كان من تقدير السلاطين لخِدَمه، وتوفِّي ابن خلدون في سنة ١٤٠٦ ابنًا للسادسة والسبعين من سنيه، ويُرىٰ بين الكتب التي ألَّفها كتابٌ يَنمُّ علىٰ عبقرية حقيقية، وستكون لدينا ترجمةٌ رائعة لهذا الكتاب الفذِّ عما قليل، ويُعْرَف هذا الكتاب بتاريخ ابن خلدون، ويشتمل علىٰ تاريخ العرب والبربر حتىٰ أواخر القرن الرابع عشر، وذلك عدا مقدمته الطويلة.

بدأ ابن خلدون كتابه بالنقد التاريخي، ثم بَحَث في أساس المجتمع وأتىٰ بوصف مُوجَز للأرض، ودَرَس تأثير البيئات في الإنسان، ثم تصَدَّىٰ لأسباب

نشوء الدول وانقراضها لدىٰ الشعوب البدوية والجماعات البشرية، ثم عالج مسائل العمل وعَدَّد مختلف المِهَن والصِّناعات اليدوية خاتمًا مقدمتَه بتقسيم العلوم مُشِعًّا الحياة فيها بالأمثلة العجيبة المفيدة المستنبطة من تواريخ مختلف الأمم، ولمقدمة ابن خلدون ترجمة تركية قام بها بيري زاده في عهد السلطان أحمد الثالث، وتُبْصِر هذه الترجمة أطولَ من الأصل بمقدار الثلث.

وكان المقريزي (تقي الدين أحمد) معاصرًا لابن خلدون، ولم يكن دونه شهرةً في حقل التاريخ، وتوفِّي المقريزي سنة ١٤٤٢ تاركًا خلفه كتابين متساويين قيمةً وهما: «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» المشتمل علىٰ أخبار سلاطين المماليك فترجمه كاترمير إلىٰ الفرنسية و«كتابُ المواعظ والاعتبار بذكر الخِطط والآثار» الذي هو كَنْز لا يَفْنَىٰ في أخبار تاريخ مصر الديني والسياسي والإداري والتجاري.

وأصلُ آل المقريزي من بعلبكَّ، ووُلِد المقريزي في القاهرة سنة ١٣٦٤، وفي القاهرة تَرَعْرع المقريزي وتَعَلَّم، ولم تلبث نجابة المقريزي أن بَدَت فَعُين في دواوين القضاء تحت إشراف القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله العمري، ووُلِّي الحِسْبَةَ غيرَ مرة وقام بعِدَّة مناصب دينية، وكان حنفيًّا في بدء الأمر فتَحَوَّل إلىٰ شافعيّ فأبدىٰ من التَّحَيُّز ضد أتباع أبي حنيفة ما لامه عليه معاصروه، وما ناله المقريزي من المعارف الواسعة وما كان من حُبِّه الشديد للعُزْلَة ساعداه علىٰ التَّبَتُّل إلىٰ تأليف عِدَّة كتب استحقَّ بها في زماننا لقب ڤورون مصر الإسلامية، ومن المحزن أن فُقِد كثير من مؤلفات المقريزي، ويمكننا أن نتمثل ما كان لدىٰ المقريزي من نشاط أدبيّ من محاولته تأليفَ تاريخ عامّ في ثمانين مجلدًا وكانت هذه الموسوعة، التي لم تَتِمَّ قَطّ، تشتملُ، بحسب حروف الأبجدية، علىٰ تاريخ جميع ملوك مصر وجميع من اشتهروا فيها وجميع من أقاموا بها أو زاروها موقتًا من مشاهير الرجال، ويوجد في المكتبة الوطنية بباريس مجلدٌ واحد من هذا المُعْجَم بخطِّ المقريزي نفسهِ، ومن هذا نُبْصِر ما رَسَمه المقريزيُّ لوضع هذا الكتاب من الخِطط إجمالًا وتفصيلًا.

وظهر في مصر مؤرخون كثيرون، وإذا عَدَوْتَ جمال الدين بنَ واصل،

الذي كان حَيًّا في سنة ١٢٥٠ فاستعان المقريزيَّ بكتبه كثيرًا، وجدتَ أبا المحاسن بنَ تغري بردي الذي ألف كتاب «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» فدَوَّنَ فيه تاريخ مصر منذ الفتح العربيَّ حتىٰ سنة ١٤٥٣ حين كان نجمه ساطعًا، ووجدت ابن إياس (محمد بن أحمد) الذي أتمَّ تاريخ أبي المحاسن فأوصله إلىٰ سنة ١٥٢٢م، ووجدت شمس الدين بن أبي السرور البكريّ الذي انتهىٰ بذلك التاريخ إلىٰ سنة ١٦٥٢، ولا أحد يجهل مقدار الخدمة العظيمة التي أسداها مسيو دوساسي إلىٰ الأدب الشرقي بترجمته إلىٰ الفرنسية كتابَ «الإفادة والاعتبار بما في مصر من الآثار» لعبد اللطيف البغدادي المعاصر للسلطان صلاح الدين والمولود سنة ١١٦١م والمتوفَّىٰ سنة ١٢٣١.

وليس السيوطيُّ (أبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين) أقلَّ صيتًا من عبد اللطيف البغدادي في تاريخه عن مصر منذ بدء العالم حتىٰ عهد الملك الأشرف قايتباي، ووُلد السيوطيُّ، الذي ألَّف من الكُتب ما لا يستطيع أناسٌ كثيرون أن يقرؤوه في حياتهم، بمدينة سيوط المصرية حوالَىٰ سنة ١٤٤٥م، وتوفِّي السيوطي سنة ١٥٠٥، وقد يُقْتصر في ترجمة حاله علىٰ سَرْد جدول مؤلفاته إذا كان هذا ممكنًا، ولا تَقِلُّ كتب السيوطي التي عَدَّها مسيو أُدِيفْرِه في بيانه عن السيوطيّ عن ستة وستين كتابًا.

وترىٰ صدور مثل هذا الخِصب العجيب عن أكثر مؤرخي العرب في عصر ازدهار الإسلام، واشتهر المسعوديُّ، الذي عاش في القرن العاشر من الميلاد، باتساع معارفه علىٰ الخصوص، وكان المسعوديُّ مُولَعًا بالدرس منذ صباه فَتَبَحَّر في العلوم والفلسفة والآداب والجغرافية والتاريخ، والمرء حينما يتصفح كتبه يَقِف دَهِشًا، كما قال مسيو كاترمير، من تَنَوُّع الموادِّ التي ألَّف فيها، ومن حَلِّه لكثيرٍ من المُعْضِلات العويصة، وكان فضل المسعودي واسعًا في الزمن الذي ذاع صيته فيه، لا لأنه قرأ جميع الكتب الباحثة في شؤون العرب فتَدبَّرها فقط، بل لأنه أحاط في مباحثه العظيمة بتاريخ اليونان والرومان وجميع الأمم القديمة والحديثة أيضًا، وكان المسعوديُّ عالمًا بمعتقدات اليهود والنصارىٰ والزنادقة والمسلمين والمجوس والوثنيين علىٰ السواء، ولا نَخْشىٰ التكذيب إذا قلنا: إنه لم يظهر بين

العرب مؤرخٌ بَلَغ من الفضل الشامل ما بَلَغه المسعودي، وإذا كان المسعودي محتاجًا إلىٰ روح النقد أحيانا فلنذكر أن حُبَّ الاطلاع الشديدَ فيه حَفَزه إلىٰ زيارة الأماكن التي أراد الوقوف علىٰ تاريخها فكان يُساق إلىٰ نقل قِصص ذات أصل مشكوكٍ فيه، ويُظَنُّ أن المسعودي توفِّي في عاصمة مصر سنة ٩٥٦ قبل أن يَرَىٰ وطنه العراق مرة أخرىٰ، ولا يُعرف أنه داوم علىٰ عمله حتىٰ أيام شَيْبته، ولا تَعْرف أوربة شيئًا عن كتابَيْه المهميْن: أخبار الزمانِ والأوسطِ الواقعيْن في أكثر من عشرين مجلدًا من القَطْع الأكبر ولكن كتابه «مروج الذهب ومعادن الجوهر» انتهىٰ إلينا فاطلعنا فيه علىٰ حوادث عجيبة نافعة، ويُقَسَّم هذا الكتاب إلىٰ ١٢٦ فصلًا خُصَّ تاريخ قدماء العرب والأمم الأجنبية ب ٦٥ فصلًا منها وخُصَّ محمد وخلفاؤه ب ٦١ فصلًا منها، وتحتوي هذه الفصول علىٰ وثائق مبعثرة لم تَجِدْ لها مكانًا في مجموعات المسعودي التاريخية أكثر من احتوائها علىٰ تاريخ متسلسل.

وظهر قبل ذلك بنحو قرنٍ أبو جعفرٍ محمد بن جرير الطبريُّ فألَّف كتابه «تاريخ الأمم والملوك» المشتمل علىٰ أخبار العالم منذ البَدَاءَة حتىٰ السنة ٣٠٢ من الهجرة (٩١٤م)، ووُلد الطبريُّ في آملَ بطبرستان وتوفي سنة ٩٢٢ ببغداد ابنًا لثلاث وثمانين سنة، وكان الطبريُّ متبحرًا في الحديث والفقه فَعُدَّ من المجتهدين الذين يعملون برأيهم في المسائل المختلف فيها غير مُقَيَّدين بمذهب، ويُعتقد أن ذلك التاريخ الذي وصَل إلينا هو خلاصةٌ أتَىٰ بها الطبريُّ لكتاب عظيم له، والأمرُ مهما يكن فإن هذا الكتاب ذا الحظْوَة الكبيرة لدىٰ الشرقيين والمترجَم إلىٰ اللغة التركية واللغة الفارسية هو من الكتب الموثوق بها كثيرًا، وهذا الكتاب قد لَخَّصه وذَيَّله جرجيسُ النصراني المصري المولودُ سنة ١٢٢٣م المتوفىٰ بدمشق سنة ١٢٧٣م والمعروف بالمكين ابن العميد، وتُرْجم قسمٌ من كتاب المكين هذا إلىٰ اللاتينية من قِبَل إربينيوس، وإلىٰ الفرنسية من قِبَل ڤَاتِيه، وعلىٰ ما في كلتا الترجمتين من أغاليطَ كثيرةٍ تَجِدهما حافلتيْن بالحوادث المفيدة والتواريخ الصحيحة، ويمكن الانتفاع بكتاب المكين ووضعُه علىٰ مَحَكِّ النقد واستخراجُ موادَّ ذات نفع منه لمحبي الآداب الشرقية ما دمنا عاطلين من أوابد التاريخ التي خَلَّفها العرب.

ونرىٰ لزامًا علينا أن نذكر بين مؤرخي العرب ابنَ الأثير والنويريَ وابن الفرات، إلخ. ويُعرف ابن الأثير بالجَزَرِيّ أيضًا نسبة إلىٰ مسقطِ رأسه: الجزيرة، ويُلَقَّبُ ابنُ الأثير بعزِّ الدين، وقَضَىٰ ابن الأثير سنواته الأولىٰ في جزيرة ابن عمرَ من مُدُن الجزيرة، ثم استقرَّ بالمَوْصِل حيث أصبح بيته مجمعَ الفُضَلاء، فهنالك ألَّف كتاب «الكامل في التاريخ» الذي بدأه بخلق العالم وختمه بتاريخ سنة ١٢٣١م، ثم أوصله أبو طالب عليّ إلىٰ سنة ١٢٥٨، ثم نقله إلىٰ الفارسية مولانا نجم الدين في عهد ميرزا ميران شاه بن تيمورلنك، ولابن الأثير كتابُ أُسْدِ الغابة في معرفة الصحابة، وتاريخ الأتابكية في المَوْصِل، وكتابُ اللُّباب في مختصر الأنساب للسِّمعاني، وكتابُ عبد الكريم السمعاني هذا قد ضاع فَبَقي تلخيص ابن الأثير له.

ويَعَدُّ النويريُّ من أبرز مؤرخي مصر، وهو شافعي المذهب، وللنويري موسوعة تاريخية في عشرة مجلدات ذات قيمة في تاريخ قدماء العرب، وللنويري شهرة في حُسْن الخط كشهرة ابن البَوَّاب ببغداد في أواخر القرن العاشر من الميلاد، ويُرْوىٰ أن النويري نَسَخ صحيح البخاري ثمانيَ مرات فباع كل نسخة بألف درهم، وكان عمْرُ النويري نحوَ خمسين سنة حينما توفِّي حوالَىٰ سنة ١٣٣١م، ووُلِد الفرات سنة ١٣٣٥، وتوفّي سنة ١٤٠٥، وخَلَّف لنا «تاريخ الدول والملوك» من سنة ٦٢٢م، ثم ألَّف أحمد بن عربشاه كتاب «عجائب المقدور في نوائب تيمور» في سنة ١٤٣٠م.

واشتهر في القرن الثالث عشر من الميلاد محمد بن سالم بن واصل المعزوُّ إليه تاريخُ الطبري المزَوَّر، وابن الجوزي الحفيد المؤَلِّف لكتاب «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان» واشتهر جَدُّه أبو الفرج ابن الجوزي (١١١٧-١٢٠١) بالفقه والتاريخ والوعظ البليغ، وولد أبو النصر العتبيُّ حوالَي سنة ١٠٥٠ في بلاد ما وراء النهر علىٰ ما يحتمل فألَّف كتاب «اليمينىٰ» الذي بسط فيه حياةَ السلطان محمود الغزنوي، وجَمَع ابن قُتَيْبَة البغداديُّ (المتوفىٰ سنة ٨٩٠) قبل ذلك بزمن عِدَّة موادَّ مهمة في أنساب العرب وألف كتاب «طبقات الشعراء».

ولا نذهب إلىٰ ما هو أبعد من ذلك في هذا الموضوع المقيد، وتتوارد

الأسماء علىٰ قلمنا بكثرة فلا نرىٰ أن نتعدىٰ الحدودَ التي رسمناها لهذا الكتاب، ونقول، مع ذلك إن الأندلس أنجبت بمؤرخين موهوبين ومن هؤلاء ابن القوطية المتوفىٰ سنة ٩٧٨ بقرطبة والمُؤَلِّف لكتاب «تاريخ الأندلس» ومن هؤلاء الشاعرُ أحمد بن محمد الذي ألف حوالَيْ ذلك الزمن، كما رأينا، تاريخًا للأندلس ولمفاخر بني أمية، ومنهم ابن الفرضي المتوفىٰ سنة ١٠١٢، حين استيلاء البربر علىٰ قرطبة، والمُؤلف لكتاب «تاريخ علماء الأندلس»، ومنهم لسان الدين بن الخطيب المولود سنة ١٣١٣ بغَرْناطة والمتوفىٰ سنة ١٣٧٤ والجامع لأطراف الوثائق عن تقاويم الخلفاء وملوك إفريقية والأندلس، والمَقَّرِيُّ الذي أفاد من كتاب ابن الخطيب فترجم مسيو ب. غايَنْغُوس كتابَه ونَشَره في السنوات الأخيرة.

ووُلِد أحمد بن محمد المَقَّرِيُّ في تِلِمسان من أسرة عريقة كانت تقطن بجوار هذه المدينة، وذهب حوالَىٰ سنة ١٦٠٠ إلىٰ فاس حيث اجتمع بعلماء ذلك الحين، وسافر إلىٰ مكة للحجِّ في سنة ١٦١٨، فعاد منها ليقيم بالقاهرة، وأتمَّ في دمشق، بعد عشر سنوات تاريخه عن ملوك الأندلس وأملىٰ تفسيرًا لمقدمة ابن خلدون وأعَدَّ سيرةً لمحمد، وعرَّف مسيو غاينغوس لنا هذا المؤرخ المِفْضَال مُنَظِّمًا جدولًا كبيرًا لمؤرخي العرب الذين بحثوا في تاريخ أقسام الأندلس، وألَّف القيسيُّ في سنة ١١٢٥ موسوعة ترْجم فيها كثيرًا من شعراء القرن الحادي عشر وعلمائه، وألف ابن حيان تاريخًا عامًّا عن مسلمي الأندلس فلَخَّصه الحميديّ الميورقيُّ سنة ١٠٩٥، وألف ابن صبيح، في القرن الثالث عشر من الميلاد، تاريخًا للأندلس في أيام المرابطين والموحدين، وألف ابن حبيب السُّلَامِي تاريخًا لعصر خلفاء بني أمية السبعة الأولين، ولَخَّص ابن الحارث الخُشنيُّ تاريخ قُضَاة قرطبةَ حتىٰ القرن العاشر من الميلاد، وصَنَّف شهابُ الدين أحمد الفاسيّ تاريخا عامًّا، واختصر سيدىٰ الحاج الشاذليُّ هذا التاريخ، إلخ.

ونحن، حين نرسُم صورة لأهمِّ مؤرخي العرب، لا نرىٰ التزامَ جانب الصمت تِجاه أشهر مؤرخي الفُرْس، ونَجِد وجه شَبَهٍ بين هؤلاء المؤرخين والفلكيين والرياضيين الذين ألَّفوا كتبهم بالعربية أو الفارسية، ولمِيرخُونْد ودَوْلَت شاه وخُونْدمِير وشهرستاني، إلخ. مباحثُ في تاريخ الشرق العام لا نستطيع أن

ندرس تواريخ الخلفاء من غير تدقيق فيها، ووُلِد مِيرخُونْدُ (همام الدين خاوَنْد محمد) سنة ١٤٣٣، وتوفي سنة ١٤٩٨، وألف تحت رعاية علي شير وزيرِ السلطانِ التيمورلنكي أبي الغازي حسين بهَادَر تاريخًا عامًا ينتهي إلىٰ عهد شاهرخ، وألف ابنه ومُلَخِّصُ كتُبِه كتابَ «خلاصة الأخبار» الذي ينتهي إلىٰ سنة ١٤٩٩، وكتاب «حبيب السِّير» المشتمل علىٰ حوادث سنة ١٥٢٥، والذي نستدلُّ به علىٰ استعمال الورق النقدي منذ أواخر القرن الثالث عشر فأثبَت هذا الابن أنه سِرُّ أبيه، وحَدِّثْ ولا حَرَج، عن تاريخ الشعراء لدوْلَتْ شاه وتاريخ المغول لرشيد الدين الذي ترجمه مسيو كاتِرْمير، وعن تاريخ فِرِشْتَه، وعن تاريخ تيمورلنك لشرف الدين علي، إلخ. واعْلم أن البحث في مؤلفات هؤلاء ذيل ضروريٌّ لمدرسة العرب في التاريخ، ولكننا نرىٰ ألا نبتعد عن حدود موضوعنا، وأن نقتصر علىٰ هذه الإشارات المُوجَزة وسنأتي، مع ذلك، بتفصيل فرعٍ من الأدب العربي لم نَلْمسه غيرَ لَمْس خفيف حتىٰ الآن.

يذكر هنا وهنالك بعض معاجم لتراجم الأحوال، ومن الصعب أن نتمثل العدد الكبير لمِثل هذه المُؤَلَّفات لدىٰ العرب، واقتطف الغزيريّ من «مصادر الحُكماء» للزوزني عِدَّة مختارات، وعُدَّ كتاب «طبقات الأطباء» لابن أبي أصيبعة مُنْقطِع النظير، ولخَّص ابن خلكان وحاجِّي خليفة كُتُب أسلافهما فرسما صورةً كاملة مفيدة لآداب العرب بوضعهما مُعْجَمَين مشتمليْن علىٰ تراجم لما لا يُحصِيه عَدٌّ من المؤلفين مع ذكر مؤلفاتهم، ووُلِد ابن خلكان (شمسُ الدين أبو العباس أحمد) في سنة ١٢١١م بأربل، وينتسب ابن خلكان إلىٰ أُسرة البرامكة المشهورة، وقام ابن خلكان بمنصب القضاء في القاهرة ففي دمشق حيث توفي سنة ١٢٨١، ويحتوي مُعْجمه «وَفَياتُ الأعيان» علىٰ ٨٤٦ ترجمةً، غير أن ما لدينا من نُسخ هذا المعجم الخطية ناقصٌ، ويحتوي كتاب «كَشف الظُّنُون» العظيم لحاجِّي خليفة علىٰ ما لا يَقِلُّ عن ١٨٥٥٠ اسم كتاب شرقيّ مع أسماء المؤلفين وترجمةٍ لهم، ويُدعىٰ حاجِّي خليفة (مصطفىٰ بنُ عبد الله) بكاتب چلبي أحيانًا، وكان حاجِّي خليفة، ذات حين، الكاتب الأول للسلطان مراد الرابع ووكيل ماليته، وتوفي حاجِّي خليفة في مسقط رأسه الآستانة سنة ١٦٥٨م، وله رسالةٌ تركية في الجِغْرَافيَّة اسمُها «جِهان نُمَا» أيْ «مرآةُ الدنيا» وله كتابٌ مفقود اسمه «تاريخِ كَبِيرْ»

عن أخبار العالم منذ بدء الخلق حتىٰ سنة ١٦٥٤.

ولا نرىٰ أفضل من أن نَختم بياننا عن تَقَدُّم العلوم والآداب عند العرب باسم المؤلف المفْضال حاجِّي خليفة، وقُدِّر تأثير مدرسة بغداد البالغُ في المشرق والمغرب، وكان عند العرب مُعظم الأفكار والمبادئ التي تُباهي بها أوربةُ الحديثةُ، والعرب، فضلًا عن ذلك رَبَطوا دوريْن كبيريْن أحدَهما بالآخر: ورَبَطوا عصر اليونان بعصر النهضة محافظين علىٰ تُراث الدور الأول مُعِدِّين ظهور الدور الثاني، ووُجد من حاولوا خفض مَنْزلة العرب، بَيْدَ أن الحقيقة تبدو يومًا بعد يوم، ولا بدَّ من حلول الزمن العاجل أو الآجل الذي يُنصَفون فيه فيستردون حقَّهم.

وزُعم أن الصِّناعة لم تتقدم علىٰ يد العرب، ومصدرُ هذا الزعم، مع الأسف، ما كان من الخطأ الشائع في عدم التمييز بينهم وبين الترك ولكي نُثبِت بلوغهم حدَّ الكمال في الفنون الثانوية أو الميكانيكية نُورد قول ڤياردو: «يكفي أن نذكر ما اتفق لهم من صيتٍ بعيد عند جميع الشعوب في الدِّباغة والسَّبْك والتكفيت والصقل والحِياكة، وما تلك السيوف المُسَقَّاة الباترة، والدروعُ الخفيفة التي لا تُخرق، والزَّرابيُّ الوثيرة، ونُسج الصوف والحرير والكَتَّان الهِيفُ الزاهرة التي ليس الشَّال الكَشْمِيريُّ العصري إلا مقتبسًا منها، سوىٰ شهود عُدولٍ علىٰ تَفَوُّق العرب في الفنون الصناعية».

ولم تلبَث بساطة الخلفاء الأولين أن انقلبت إلىٰ ما لا نظير له من التَّرف والأُبَّهَةَ في زمن الأُمويين والعباسيين كما وصَفه مسيو إلسِنر، ويمكن استجلاء هذه العظمة من خلال الملايين الثمانمئة التي تركها المنصورُ للمهدي وهارون الرشيد والمأمون بعد قيامه بنفقات دولته، ولا شيء يحْجُب مطر اللُّؤلؤ الذي غَمَر بورانَ بنت الحسن يوم زفافها إلىٰ المأمون علىٰ رواية أبي الفداء وعرسَ المعتضد الذي لم يكن أقل إثارةً للدَّهش وفخامةَ المقتدر غيرُ بَذْخ عرب الأندلس، ولا شيءَ يَدُلُّ علىٰ يُسْر عرب الأندلس أكثر من زينة نساء غَرْنَاطَة وَنُطُقِهِنَّ ووَشَائحهنَّ وقَلانِسِهنَّ الذهبية وقَلانيسِهنَّ الفضية وثيابهنَّ الأنيقة ومن إنفاق خلفاء قرطبة ما في خزائنهم من الأموال العظيمة علىٰ شَيْد الآثار التي لا تزال بقاياها تثير إعجابنا.

ودَرَس جيرول دوبرانجه الفنَّ العربي بدقةٍ بين طِراز البناء الأندلسيّ وطراز البناء المشرقيّ فأبصر أن الأندلس جاوزت ثلاثة أدوار، ويَنمُّ الدور الأول الذي دام من القرن الثامن إلىٰ القرن العاشر علىٰ تقليدٍ لمباني النصارىٰ والرومان لا يكاد يَخْفىٰ، ولا مِراء في أن مسجد قرطبة أُقيمَ علىٰ مِثْل طِراز مسجد دمشق مع تَفَوُّقه عليه فخامة، ولا مِراء في أن الكنائس، التي وصفها أوزيب القَيْسَرَانيُّ في كتابه «حياة قسطنطين» فكانت ذوات باحات وأرْوِقَة وحِياض ومساكنَ للِكُهَّان، اتُّخِذت نَمُوذَجًا في سورية وفلسطين ومصر، وفي هذه المساجد فسيفساء من صنع البزنطيين، وما كادت سنة ٩٦٥ تحِلُّ حتىٰ رُئي عدم كفاية زينة الروم الزاهية، فبُحث عن أروع الزخارف وعُنيَ بالجُزْئيَّات، وحُوِّلت الأقواس بما أضيف إليها من النقوش ذات الأزهار والحنايا المختلفة الأطوار كما يُشاهد ذلك في بِيْعَة وِيلَا وِسْيُوزا التي أُقيمت بقرطبة في عهد الخليفة الحكم.

ودام الدور الثاني من القرن العاشر إلىٰ القرن الثاني عشر فكان آية رُقيّ الطِّرَاز العربي الأول الذي حثَّ عليه الأمراء المرابطون والموحدون، وحاد العرب عن الطريقة التي اتُّبعت حتىٰ الآن فصِرْت ترىٰ الأقواس المصنوعة علىٰ رسم البيكاريْن والفسيفساء المصنوعة من الميناء والوشاءِ التي هي نسيج الخيال والزخارفَ الرُّخامية الكلسية المصبوبة، وجُعلت الكتابات من أدوات الزينة فأكثر من استعمالها، ويبدو هذا التحول، علىٰ الخصوص، في أشْبِيلِيَّة حيث أقيم برج لُعْبَة الهواء (لا جيرالدا) والقصرُ والمسجد الذي قامت الكاتدرائية الحاضرة مقامه.

وأوْفَىٰ الطِّراز العربي علىٰ الغاية في الدور الثالث الذي أزهر فيه مُلْك غَرْناطَة، وقصرُ الحمراء هو آية فنِّ العمارة العربي في هذا الدور، ووافق المظهر البسيط الجليل لهذا القصر تقاليدَ العرب الكارهين للأنظار الخارجية، وليس مدخل الحمراء سوىٰ قَوْسٍ عظيمة مزخرفة ببعض الرموز وبكتابة مشتملة علىٰ اسم مُؤسِّس القصر، وبُنِيت الجُدُر من مِلاط ممزوج بِحُصِيّ تُبْديها الشمس ذاتَ ألوان مختلفة، فإذا كنتَ في داخل القصر أبصرت تَفَتُّق عبقرية الإنسان عن جميع مواردها: أبصرتَ أروقة واسعة منقوشة ومُوَشَّاةً بالذهب ومزينة بأقواس منوعة

ذات أزاهيرَ متشبكةٍ وذات متدليات (مُقَرْنَصات) وتخاريم كثيرة مصنوعة من مِلاط كِلْسي رُخامي، وأبصرتَ مساكن ذات نوافذَ ورَدْهة السفراءِ ورَدْهة الأختين وقاعةَ الأولاد وبرج القُماري وقاعةَ الضَّراغم وقاعة البركة التي صُنعت تحتها حَمَّاماتٌ علىٰ الطراز القديم، وأبصرتَ مناظر ذات أثر بليغ في النفوس، وأبصرتَ هنا ماءً يتدفَّق من خِلال ما لا يُحْصيه عَدٌّ من الأعمدة الصغيرة الِهيْف المنفردة أو المتجمعة علىٰ أبدع شكل، وأبصرتَ الماء يصبُّ هنالك في قَنَوات رُخامية فتتألف منه شَلالات تارةً وسِهامٌ صائلةٌ تارةً أخرىٰ، فيجري إلىٰ بُرَك في قاعات محاطة بأشجار صغيرة ورياحينَ كثيرة، وأبصرتَ في كلِّ موضع كتاباتٍ ممزوجةٍ مزجًا دقيقًا بنقوش فعُبِّر بها عن أنبل المشاعر وأسمىٰ العواطف فزادت بها روعة عجائب ذلك القصر الذي هدم ملوك النصارىٰ قسمًا منه، وصُنعت من الجصِّ زخارف أهمَّ رِدَاه هذا القصر الذي كان منزلًا لملوك العرب، ورُسِمت نقوشه البارزة ذات الانسجام علىٰ أشكال هندسية ذات جمال وهَيَف مع تكرارها بلا انقطاع، ولا تزال زخارف قصر الحمراء التي وُزِّعت توزيعًا فنيًّا فكانت لها الوقايةُ بجوِّ الأندلس، كما كانت في أيام بني سراج، فيُرىٰ التماعُ الألوان التي اختارها العرب في الرِّداه القائمة حول قاعة الأسود، وهذه الألوان بسيطةٌ إلىٰ الغاية، وهي لا تَعْدُو الأحمرَ والأزرق والأصفر والأخضر، وحُلِّلَت هذه الألوان حديثًا فَوُجد أن مادة الأزرق والأحمر السائديْن هما من اللازوَرْد والزُّنْجُفر[1] أو كبريت الزِّئْبَق.

ومن الصعب أن نُقَدِّر، بعد مقابلة، قصر العزيزة وقصر القُبَّة القائميْن في بَلَرم وآثارَ تونس والقَيْرَوَان والجزائر التي لا يُرَىٰ فيها سوىٰ مبانٍ قليلةٍ من دور الفنِّ العربي الزاهرِ وتُنبِئُ مساجد القاهرة بعلمٍ وثيقٍ في صنعها واختيار موادِّها ولكنك لا ترىٰ فيها من الزخارفِ ما يَقْرُبُ من نقوش الحمراء التي بلغت درجة الكمال، وهنا نُبدي أسفنا علىٰ أننا لم نَدْرس حتىٰ الآن درسًا عامًا ما شاده العرب من المباني في سورية والعراق وفارس والهند في مختلف أدوار سلطانهم، ففي هذه الآثار من المزايا الخاصة ما يفيد تعيينه بالضبط، فنأْمُل والحالة هذه أن

(١) الزنجفر: معدن متفتت بصاص أحمر يصبغ به ويدهن به الحديد ليسلم من الصدأ.

يقوم فريق من رجال الفنِّ الماهرين بملءِ هذا الفراغ في أقرب وقت[١].

ومن شأن اتساع دولة الخلفاء وغِنَىٰ أراضيها واختلافِ أقاليمها وسكانها وتمدنِ ولاياتها أن تسير التجارة قُدُمًا بحكم الضرورة، فصارت منتجات إسبانية والمغرب ومصر والحَبَشة وجزيرة العرب وفارس وروسية والبلاد الواقعة علىٰ شواطئ بحر قَزْوِين وسلعُ الهند والصين تتقاطر علىٰ مكة والمدينة والكوفة والبصرة ودمشق وبغداد والمَوْصِل والمدائن، ونشأ عن إنشاء المستعمرات ظهورُ مراكز جديدة للمبادلات وفَتْحُ طُرُق مُهِمَّة لتسهيل الصِّلات، ووَجَد العرب الحافزَ إلىٰ الصِّناعة في أمر النبي بالعمل وإيصائه بالتجارة والزراعة علىٰ أنهما مما يُرْضي الرب، والعربُ قد احترموا مِهْنَة التجارة وحافظوا علىٰ حقوق من يتعاطاها، ولم يَأْنَف وُلاة العرب وقادتهم وعلماؤهم من أن يُلَقَّب الواحد منهم بالحَجَّار والعَطَّار والجوهري، إلخ. وعُمِل كلُّ ما في الطاقة لتمرَّ السلعُ طليقةً بين الجيوش وفي جميع الطُّرُق بأمان، وحُفِرت آبارٌ في الصَّحَارىٰ وأُنشئت فنادقُ بين مسافةٍ ومسافة فكان المسافرون يَجِدون فيها ما يحتاجون إليه من المَدَد بنفقات قليلة.

وقامت صِلات فيما بين الأندلس وأقاصي المشرق، وجاوز أسطول عربيٌّ جبلَ طارق فطرحته عاصفة علىٰ الشاطئ فانتزعت منه شرف اكتشاف جزائر آسورة وأمريكة علىٰ ما يحتمل، بَيْد أن انحصار المسلمين في العالم القديم أسفر عن طبع جميع الأنحاء بطابع الجِدِّ والنشاط في حقْل الصِّناعة البشرية.

واغتنت إسبانية بمحاصيل زراعتها ومنتجات مصانعها، وكانت إسبانية تستبدل السلعَ الأجنبية بما تنتجه من قصب السكر والأَرُزِّ والقطن والزعفران والزنجبيل والمُرِّ والعنبر الرَّمادي والفُسْتقُ والموْز والتوت والحنَّاءِ وحَبِّ المَحْلَب، وكانت فُرُش قرطبة الجلديةُ ونِصالُ طُلَيْطِلة وأجواخُ مُرْسِية المصنوعة من صوف الغنم ونُسُج غَرْناطَة والمريَّة وأشْبِيلِيَّة الحريريةُ وورقُ صالحةَ سِلَعًا مطلوبة في أرجاء العالم، وكان الكبريت والزِّئْبَق والنحاس والحديد من المعادن

---

(١) قام بهذا العمل العظيم الفيلسوف العلامة غوستاف لوبون في أربع سنوات، فأتم تأليف كتابه المصور الجليل الخالد «حضارة العرب» في سنة ١٨٨٤، فنقلناه إلىٰ اللغة العربية فطبعت ترجمتنا له للمرة الثانية بمصر. (المترجم).

التي تستغلُّ في الأندلس بنجاح، وكانت تَسْقِيَة الفولاذ بالأندلس تُؤَدِّي إلىٰ إقبال البلدان علىٰ ابتياع ما تُخرْجه من مصانعها من الدروع والخُوَذ وكانت أطراف أشْبيلِيَّة مُغطَّاة بأشجار الزيتون مشتملةً علىٰ مئة ألف معصرة، وكانت ولاية بَلَنْسِيَة تُصَدِّر إلىٰ أوربة أثمار البلاد الجنوبية، وكانت تَخْرج من مرافئ مالَقَةَ وقَرْطاجَنّةَ وبرشلونةَ وقادسَ سِلَع عظيمة، وكانت الأمم النصرانية تقتبس من العرب مبادئ الحقوق البحرية.

ويرىٰ مسيو دُورْوِي أن عدد سكان طُلَيْطلَة كان أيام العرب مئتي ألف، وأن عدد سكان أشْبيلِيَّة كان ثلاثمئة ألف، فأضحىٰ عدد سكان طُلَيْطِلَة اليوم، خمسةً وعشرين ألفًا وأضحىٰ عدد سكان أشْبِيلِيَّة اليوم ستة وتسعين ألفًا، وكانت استدارة قرطبة ثمانية فراسخَ فتشمل علىٰ ستين ألف قصرٍ و٢٨٣٠٠٠ بيتٍ فلا تكاد اليوم تحتوي ٥٦٠٠٠ ساكن، وكانت أُسْقُفِيَّة شلمنقة تشتمل علىٰ ١٢٥ مدينة فلا تحتوي اليوم سوىٰ ١٣ مدينة، وكان في أشْبِيلِيَّة ستة آلاف نَوْل للحرير وحدَه فصارت بلاد إسبانية بأسْرِها لا تحوي، في سنة ١٧٤٢، غير عشرة آلاف نَوْل للحرير والصوف، وزار الجغْرافُّي الإدريسي إسبانية في منتصف القرن الحادي عشر فَرَوىٰ، بصيغة التوكيد أنه كان في مملكة جَيَّان وحدَها أكثرُ من ستمئة مدينة وقرية تزاول صِناعة الحرير، فأدَّىٰ طرد العرب من هذه المِنطقة إلىٰ نتيجة مشؤومة كالتي أوجبها إلغاء مرسوم نانْت في الصِّناعة الفرنسية، وأراد الكردينال إكْزِيمنِيس أن يَمْحُو كل ما يُذَكر بالخدَم التي أسداها العرب إلىٰ البلاد فأوجب إصدار مرسوم جدير بأزمنة التوحش قاضٍ بحرق ثمانين ألف مخطوط عربيّ في الأماكن العامة بِغَرْناطَة.

واتفَّق مثل ذلك التقدم التجاري لإفريقية الشمالية أيضًا، وأُنشئت في إفريقية الشمالية عِدَّة مصانع فنافست موريتانيةُ الطنجية بلادَ الأندلس بنشاطها الصناعي والزراعي وأخذت بلاد السُّوس تُذَكِّر الناس بالأندلس خِصْبًا وذكاء سكانٍ، وتساوق المشرق وتلك الصولة الصِّناعية أيضًا، فكانت تُبادل سِلَعُ الصين والهند وفارس وأثيوبية ومصر في سيراف وعدن، وكان الأحباش يأتون بعبيد النوبة والحَبشة وجلودِ النمر والحرير والقطن والعاج وتِبْر الزنجبار، وكانت الهند

والصين ترسلان نُسُجًا ووِشاءً وميناء وسلاحًا ولُبَّادًا وصَنْدَلًا وعُطُورًا وأبْنُوسًا ورَصاصًا وقَصْديرًا ولؤلؤًا وحجارةً كريمةً، وكانت هذه السلع تُنقَل من عدن إلىٰ جُدَّة فإلىٰ السويس فتُوَزَّع بين موانئِ سورية، وكانت القوافل التي تسير من سمرقند إلىٰ حلب تُوزِّع نُسُج الصين الحريريَة والشالات الكشميريةَ والمِسْك والعقاقير الطُّخَارستانية.

وترك مسلمو المشرق تجارة البحر المتوسط لعرب المغرب مُفَضِّلين عليه المحيط الهندي فكانوا يدركون مرادهم سائرين مع شواطئ إفريقية بالغين مضيقَ باب المَنْدَب فالزنجبارَ فالكاب، فيؤسسون برافا وممباسة وكيلوة حيث يعتزل أخٌ لأمير شيراز وموزامبيقَ وسوفالا وميلندة ومغادكسو، ويستولون علىٰ الجُزُر القريبة من الشواطئ وعلىٰ مراكز كثيرة في مدغشقر، ويدخلون الهند والصين فيزيد عددهم بمن يشترونه من العبيد وبمن يُعْرَض عليهم من الأولاد للابتياع وبإسلام هؤلاء، وقُدِّر عدد العرب في كُورُمِينْدلَ منذ سنة ٨٥٠م بثمانمائة ألف شخص، ورُوِي خبر ذهاب ملكٍ لملَبَار إلىٰ مكة كي يَقْضي بقية عمره فيها، ولم تقتصر السفن التجارية العربية علىٰ ميناءِ كلكتة وحدَه، بل كانت تَصِل، أيضًا، إلىٰ سومطرة وإلىٰ كُبْرَيات الجزائر من الأرخبيل الهندي فتجاوز خليج سيامَ وتنتهي إلىٰ كَنْتُون، ودخل أتباع محمد، منذ سنة ٦٥١م، مملكة ابن السماء من ناحية الشمال ذاهبين من سمرقند، وتطلبت هذه الرحلة سَيْرَ شهرين فرُئي أن الطريق البحرية أصلح لنقل السِّلع فاختيرت هذه الطريق في الحال، وكان للعرب قاض في كَنْتُون أذن لهم عاهل الصين في انتخابه، وبلغ العرب، منذ سنة ٧٥٨، من القوة في هذه المدينة ما استطاعوا معه أن ينتهبوا مخازنها بلا عقاب، واعتنق مُعْظم جزُر الملايو الإسلامَ، فصرْت تسمع اللغة العربية والتكلم بها من الخليج الفارسي حتىٰ أقصىٰ حدّ في شرق آسية.

ولم يكن أقلَّ من ذلك تأثير القرآن في آسية الوسطىٰ التي لا تزال غير معلومة لدينا. وكان ما أقامه العرب من الممتلكات في الساحل الشرقي يُسَهِّل عليهم ولوجَ داخل إفريقية من هذه الناحية، وكان المسلمون يزورون بلاد الصومال الوديعة المقراة فتُؤَلِّف مع سوقطرة مستودعًا تجاريًا مُهمًّا، وكانوا يزورون بلاد

الحَبشة وسنارَ وكردفان التي لها علاقاتٌ دائمة بمصر فتُعَدُّ المِفْتَاح الحقيقي لدارفور والوادي، وكانوا يذهبون من طرابلس الغرب إلىٰ فزانَ، وكانت قوافلهم تذهب من بلاد المغرب مُوغِلَةً في الصحراء الكبرىٰ غير خائفة من المغامرة في رمالها التي تمتد من ضفاف النيل إلىٰ المحيط الأطلنطي فتبلغ مِساحتها نحو مائتي ألف فرسخ مربع، ومن الانتشار في بلاد السودان أو نيجيرية، فالحقُّ أن العرق العربي خطَّ طريقه بين سكان إفريقية بحروف لا تُمْحىٰ، فأجمع السياح المعاصرون علىٰ الإشادة بما نجم عن ذلك من الإصلاح في تكوين أولئك السكان وأخلاقهم ومداركهم.

لقد انتهينا من بيان الأسباب والنتائج المهمة لسير الحضارة التي نشرها العرب من عَمَد هِرْكُول (مَضيق جبل طارق) إلىٰ أقاصي آسية في القرون الوسطىٰ، فنرىٰ أن نُتِمَّ عَرْضنا الواسع بكلمة عن بعض اكتشافاتهم التي قلبت وجهَ الدنيا من الناحية الأدبية والسياسية والحربية كالورق والبوصلة وبارود المدافع.

رأينا كثرة الاختراعات النافعة المهمة التي نقلها العرب إلينا، والعربُ، عندما يكونون غير أصحاب حقيقيين لاكتشاف، لا نستطيع أن نجحد فضلهم في إظهار هذا الاكتشاف ونشره في أنحاء الدنيا، وهذا ما نقوله عما صنعوه في أمر الورق والبوصلة وبارود المدافع.

اطلَّع أناس منا علىٰ بعض العبارات المبهمة فخُيل إليهم أن الصينيين عَرَفوا استعمال تلك المخترعات في زمن قديم فظنوا إمكانَ انتزاع شرف تجهيز أوربة بها من العرب مقترفين ظلمًا عظيمًا، وقيل، أيضًا، إن الطباعة كانت موجودة في الصين منذ القرن الثامن، ولم يَخْسَر غوتنبرغ وفوست وشيفر شيئًا من شهرتهم مع ذلك، أما كان العرب يقتبسون الطباعة من أهل الصين، وقد أخذوا عنهم صناعة ورق الحرير، لو كانوا يَعْرِفونها؟ وهل استطاعت شعوب مملكة ابن السماء أن تنتفع باكتشافات اطَّلعَت عليها اتفاقًا؟ وما هي استفادة هذه الشعوب من البوصلة، وقد كانت تعتقد حتىٰ سنة ١٨٥٠م أن القطب الجنوبي سعير حارٌّ؟ وهل طَبَّق أهل الصين البارود تطبيقًا منوَّعًا كما طَبَّقه العرب؟

يجب أن يُعْتَرف باستعمال أنواع من القنابل في حِصار مكة سنة ٦٩٠، ويجب أن يُعْترف باستخدام بارود النترات بمصر في القرن الثامن لقذف قنابلَ ذات صوت كقصف الرعد، ورُوِي مثلُ ذلك عما حَدَث في حملة بحرية شَنَّها ملك تونس علىٰ أمير أشْبِيلِيَّة في القرن الحادي عشر، ورَوَىٰ فيريرا خبر قذف القنابل بقوة البارود في حِصار جبل طارقٍ سنة ١٣٠٨، وفي حِصار مَلِك غَرْنَاطَة إسماعيلَ لمدينةِ بَيَّاسَةَ سنة ١٣٢٤، وفي حصار طريفَ سنة ١٣٤٠، وفي حِصَارِ الجزيرةِ الخضراءِ سنة ١٣٤٢، فبعد ذلك أخذ الإسبان يستخدمون البارود، ثم جُهِّزت الجيوش الأوربية بالمدافع مقدارًا فمقدارًا من غير ذكر لتلك التجاريب والاختبارات التي تَقَدَّمت تنظيم المِدْفَعِيَّة كما لو كان البارود من اختراع الشعوب النصرانية فذهب إليه بعض المؤرخين.

وليس لدينا دليل علىٰ أن الصينيين استخدموا البوصلة في المِلاحة، علىٰ حين نرىٰ العرب قد استعملوها في أسفار القوافل وسَط الصَّحارىٰ لتعيين سَمْت القبلة، أي اتجاه محاريب المسلمين إلىٰ مكة، وذلك فضلًا عن استخدامهم لها في أسفارهم البحرية.

وحَدِّثْ مثلَ ذلك عن الورق، فقد كان الورق يُصنع، حوالَيْ سنة ٦٥٠، من الحرير في سمرقند وبخارىٰ، ورأىٰ يوسف بن عَمْرو بمكة أن يستبدل القطن بالحرير فكان ما تعلم من الورق الدمشقي الذي حَكىٰ عنه مؤرخو الروم، وكان الكَتَّان والقِنَّب كثيرَيْن في الأندلس فأُنشئت مصانع لصنع الورق من النسائج، فأخبر الإدريسي بأن ورق شاطِبة جيدٌ لا مثيل له، ولم تلبث بَلَنْسِيَة وقطالونية أن نافستا شاطِبة منافسةً شديدة في صنع الورق، واستعملت قشتالة ورق العرب في القرن الثالث عشر فتَسَرَّب منها في فرنسة وإيطالية وإنكلترة وألمانية، ولكن ورق المخطوطات العربية كان يفوق الورق الفَرَنْجي رونقًا وبهاءً وصلاحًا للزخارف اللامعة الساطعة الألوان.

وهكذا تَجَلَّىٰ تأثير العرب في جميع فروع الحضارة الأوربية الحديثة، وظهرت، بين القرن التاسع والقرن الخامس عشر، آدابٌ تُعَدُّ من أعظم ما عُرِف، وتشهد الإنتاجات المتنوعة والاختراعات المهمة علىٰ ما كان يَتَّصِف به عرب ذلك

الزمن من النشاط العجيب، وبما كان لهم من الأثر البالغ في أوربة النصرانية فجاء هذا مُسَوِّغًا للرأي القائل: إن العرب كانوا أساتذة لنا، وما أتَىٰ العرب به من الموادِّ التي لا تُقدَّر بثمن عن تاريخ القرون الوسطىٰ ومن كتب الرحلات ومعاجم تراجم الأحوال من ناحيةٍ، وما جاء به العرب من صِناعةٍ منقطعة النظير ومن مبانٍ دالة علىٰ تفكير عظيم وتنفيذ جسيم ومن اكتشافات مهمة في الفنون من ناحية أخرىٰ، كلُّها أمورٌ يجب أن تَرْفَع في أعيننا شأن الأمة العربية التي ازدريناها زمنًا طويلًا.

الباب السابع

حَال العِرْق العَرَبيّ الحاضِرَة

الفصل الأول

عرب المشرق

رسمنا صورةً لحضارة العرب العجيبة التي كان من حسن الحظِّ ظهورُها بين حضارة اليونان والحضارة الأوربية الحديثة، بيد أنه لا يكفي أن يُبْحث في العرب أيام ارتقائهم في بيان ما تَمَّ لهم من التأثير في الشرق والغرب، بل يجب أن يُدْرس أمرهم في زمن انحطاطهم وأن يُبْحث عن وجود تَحَوُّل غير محسوس وتجدد سياسيّ فيهم، والعربُ إذا غابوا عن مَسْرح العالم فإن ما أبدعوه من عمل جَلَل لا يزال باقيًا، وأضحىٰ برابرة الشمال الذين قَضَوْا علىٰ سلطانهم مَدِينين لهم ثَقافَةً، ولا يزال الإسلام قويًا في آسية وإفريقية، والإسلامُ تلافىٰ إفلاتَ إسبانية منه بما اتَّفق له من الفتوح في أوربة علىٰ يد الترك، ومن المحزن أن خُلِعت جَبَرِيّةُ العثمانيين كرداءٍ من جليد علىٰ الشعوب التي دانت لدولتهم.

وغدا العرب لا يبالون بثَوْرات الشرق، وتَجَمَّعت حياتهم في الفَلَوات وفي مدن جزيرتهم المتفرقة، وعاد أعراب حدود الشام ونجد إلىٰ عاداتهم في العِتْق القَفْرِي غافلين عن مفاخر أجدادهم كما يظهر، وأهل الحجاز أقلُّ عُزُوفًا عن الحوادث الخارجية لِما هم عليه من سَدَانَة المدينتين المقدستين، مكة والمدينة، اللتين هما محلُّ احترام جميع المسلمين علىٰ اختلاف شعوبهم، وكان لأهل الحجاز حماية الملوك المماليك بعد استيلاء هولاكو خان المغولي علىٰ بغداد، ومن اليمن طُرد الأمراء الأيُّوبِيون (١٢٥٨) بعد أن ضَمَّها السلطان صلاح الدين إلىٰ دولته، فأقام رؤساء محليون إماراتٍ جديدة فيها، وحُصِّنت عَدَن فظَلَّت من أغنىٰ مستودعات الشرق، وتتمتع حَضْرَمَوْتُ وعُمَانُ والبحرين بِسِلْم أساسيةٍ

فتقتطف ثمرَة صِلاتها التجارية بأمم الهند وصيدها للمرجان علىٰ شواطئ الخليج الفارسي، ويبلغ تجار العرب وسُيَّاحهم شرق إفريقية وجزائرَ البحر الهندي وشواطئ مَلَبَار والبقاع الممتدةَ حتىٰ مالَقَة، حتىٰ الصين، فينشرون مبادئهم وعاداتهم وديانتهم.

وفيما كانت بغدادُ تُحْتَضَر كانت مملكة غَرْنَاطة تُلْقي شُعاعًا وَهَّاجًا فتعيشُ حتىٰ سنة ١٤٩٢، ولم يغادر العرب بلاد الأندلس نهائيًّا قاصدين المغربَ إلا سنة ١٦٠٩، ولم يُكْرِم أهل المغرب هؤلاء الأندلسيين فلم يأذنوا لهم في الإقامة بينهم إلا بثمنٍ غالٍ، فقد أخذوا ما لديهم من أموال عادِّين إياهم من الأعداء، فما أبعد هذا اليومَ من زمن طارق بين زياد وموسىٰ بن نصير حين سار البربر والعرب متحدين مشتركي المصالح تحت لواءٍ واحد! وكانت حرارة الإيمان كلما انطفأت في القلوب عادت الأسَر التي جَمَع بينها الإخاء الإسلامي إلىٰ سِيرتها الأولىٰ، وفي سنة ١٦٠٩ ظَلَّ بعض قبائل داخل المغرب منقسمًا علىٰ بعض تحت سلطان الترك الذين أصبحوا سادة طرابلس الغرب وتونس والجزائر وتِلِمسان منذ مغازي باربارُوس خير الدين الباهرة. واستقرَّ مُرْتَدُّو كل بلد، من يهود ونصارىٰ ومُوَلَّدين من آباءٍ تُرْكٍ وأُمَّهَاتٍ عرب وبربر، بجميع النواحي من غير أن يرتبط بعض هؤلاء في بعض بروابط الإخاء، وتألف ربع سكان المغرب أو ثلثهم من العرب، ورأىٰ القليلون منهم أن يقيموا بالمُدُن، ولا سيما بمَرَّاكُش، تحت رعاية الأشراف، محافظين علىٰ عاداتِهم في البحث والدرس كَصَدًىٰ لعصر الخلافة الزاهر، وتمسَّك الكثيرون منهم بالبداوة، مع ذلك، مُفَضِّلين حريةَ القفار وحياتها الغامضة.

وندرك، عند هذا الوَضْع، أن العرق العربيَّ لا يقَدِّم، الآن، إلىٰ التاريخ سوىٰ حقلٍ جديب، وسنشير، مع ذلك، إلىٰ الحوادث التي تَنِمُّ هنا وهنالك علىٰ كِيانه فَتُلْقي بعض النور علىٰ مستقبله.

وَجَدَ المغول، حينما أغاروا علىٰ سورية في النصف الأخير من القرن الثالث عشر، في مقاومة المماليك وشجاعتهم، حاجزًا يتعذَّر اقتحامه، وانضمَّت عِدَّة قبائل عربيةٍ إلىٰ الجيوش المصرية فساعدتها علىٰ نَيْل النصر، ولم يتردد

بيبرسُ الذي هو أشهر ملوك المماليك البحرية في الظهور بمظهر المدافع عن الإسلام علىٰ حين لم يفكِّر أميرٌ بآسية في النهوض بهذا العِبْءِ، وكان الظاهر بيبرس سياسيًّا مُحَنَّكًا كما كان قائدًا ممتازًا فدَعَا إليه أميرًا من بني العباس كان قد نَجَا من ملحمة بغداد فنادىٰ به خليفةً في احتفال رائع، أجَلْ، ظَلَّ حامل لقب الخلافة هذا عاطلًا عن السلطان، واقتصر أمرُه علىٰ تولية بيبرس سلطةً مطلقةً علىٰ مصر والشام، وعلىٰ إلزام نفسه هو وأولادِه بتولية كلِّ غاصب من المماليك، غير أنه كان لبعث الخلافة هذا أبلغُ أثر في النفوس واجتذابٌ لسكان جزيرة العرب إلىٰ حزب الظاهر بيبرس لا ريب، وكان هذا الملك يستميل هؤلاء بما يَبْذِله من العطايا في الحجاز أيام الحجِّ وبما يَشِيدهُ في الحجاز من المباني الشاهدة علىٰ تقواه، وسار الملوك الآخرون علىٰ الخطة التي رَسمها لهم، فدارَوا قبائل العرب التي كانوا يعتمدون عليها في توطيد شَوْكتهم الحقيقية، فأمَدَّتهم بسبعين ألف مقاتل عند أول نداء، وما أكثر ما اضطُرَّ أولئك الملوك إلىٰ حمل قبائل العرب علىٰ الطاعة مع ذلك! فمن ذلك أن عرب براري السويس حاولوا، في سنة ١٣٠١، أن يقطعوا اتصال مصر بسورية فلم يَسطِع وليُّ الأمر أن يقهرهم إلا بعد جهود عنيفة ومذابِحَ فظيعة.

وكانت اليمن فريسة الفِتن علىٰ الدوام، وكاد المماليك يتغلبون عليها سنة ١٣٢٥، ودُعِي المماليك هؤلاء إلىٰ اليمن من قِبَل أحد مشايخها النافذين فحاولوا أن يصبحوا سادة لها بفعل ما كان يُمَزِّقها من الأحقاد والمنافسات، وأبصر أبناء حِمْيَر ما يُبَيِّتُه المماليك لهم فأصبحوا إلْبًا علىٰ عَدُوِّهم المشترك فلم تُسْفِر حَمْلَة المماليك هذه عن غير انتهاب زبيدَ وعانَة والحديثة، وعاد المماليك إلىٰ مثل ذلك في سنة ١٣٥٠ فلم يُوَفَّقوا، وما كادوا يَنْصرون الأميرَ الذي استغاث بهم.

واكتوىٰ العرب بالحروب التي اشتعلت قبلَ، وبعدَ، حلول المماليك البُرْجِيَّة أو الشراكسة محلَّ المماليك البَحْرِيَّة (١٣٧٥-١٣٨٤) وابْتُلي العرب في سورية بما هو أنكىٰ من ذلك عند بلوغ تيمورلنك العراق العربي والجزيرة في سنة ١٤٠٠، ولم يُفكِّر هذا الفاتح في هدم دولة المماليك، بل اقتحم سورية لينتقم من أجل ما أهان به سلطانُ القاهرة سفراءَه، فأقام من رؤوس العرب، بعد استيلائه علىٰ بغداد

وحَمَاة وحِمْص وبَعْلَبَكَّ ودمشق، عِدَّةَ أهرامٍ بشريَّةٍ لتكون آيةَ نَصْره بما فُطِر عليه من الوحشية، وسُرَّ المماليك من غَمْر هذا السيل المخرب لآسية الصغرىٰ وكَسْره شوكة العثمانيين الذين أخذوا يخشَوْن امتداد سلطانهم، وكان من نتائج معركة أنقرة، التي هَلَك فيها ألوفٌ من الناس علىٰ غير جدوىٰ فأُسِر فيها السلطانُ بايزيد، ومن نتائج موت تيمورلنك بعد حين، أن رَسَخ سلطان المماليك، فقد ظَلَّت قُواهم سليمةً بين ما عَمَّ العالَمَ من الخراب، فلما حضر رُسُل شاهرخَ بن تيمورلنك ليطالبوا بذكر مولاهم في الخُطبة بالقاهرةِ ومكة والمدينة طَرَدهم الملكُ المملوكُ من عاصمته مع الاحتقار (١٤٢٥).

وأفْرط ملوك مصر في تقدير قُدْرتهم، وأخذ نفوذهم يتقلَّص في جزيرة العرب منذ القرن الخامس عشر، واستطاع السلطان محمد الأول (الفاتحُ) أن يُنْسي الناس سوء ما أصيب به أبوه بايزيد، وصار له أنصار كثيرون في الحجاز بسبب ما أرسله إلىٰ الحرمين من الهدايا، وذاع صيت سلاطين بروسة (آلِ عثمان) في جزيرة العرب، وأضحىٰ أهلها يتتبَّعون أخبار ما يَتِمُّ لهم من النصر علىٰ النصارىٰ، وحَمِد المسلمون الله كثيرًا علىٰ فتح العثمانيين للقسطنطينية (١٤٥٣)، وما كان من سياحة الأميرِ جَمَّ في سنة ١٤٨١، وما كان من مساعدة السلطان بايزيد الثاني علىٰ إصلاح القِلاع والصهاريج في طريق القوافل، وما كان من علاقته بآل قَتَادَة الذين ينتسب إليهم أشرافُ مكة أعَدَّ النفوس لقبول تدخل العثمانيين في شؤون جزيرة العرب الداخلية.

وحَدَث، بعد زمن، ما نَزَع تجارة الشرق من أيدي المماليك، وغَدَت مصر مستودعًا لسِلَع الهند وجزيرة العرب بعد خراب بغداد، وذلك لتُوَزَّع في أوربة من طريق البحر المتوسط، وكان المسلمون سادةً للمِلاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر، فيَجْلُبون إلىٰ السويس قُطْنِيَّات الهندوستان وحَرِيريَّاتها وبهاراتها وقِرْفَتها وصَدَفها وعاجها وصمغها وألمَاسَها وجُمَانَها[1] ولُبان جزيرة العرب ومُرَّها وبلسمها، فيأخذون في مقابلها أجواخَ بلاد الغرب وزجاجها وحديدها ورَصاصها ونحاسها، وكانت السَّلع تُنْقَل من السويس إلىٰ دمشق والإسكندريةِ حيث كان

---

(١) الجمان: اللؤلؤ.

لتجار من أهل بيزة وفلورنسة وقطالونية وجنوة، والبندقية علىٰ الخصوص، مخازن ناضرة، وكانت هذه التجارة من الأسباب المُهِمَّة في ثَرَاء ملوك القاهرة، وما كان ليروقَ هؤلاء الملوك أن يرَوْا سُفُن فاسكودوغاما تَمْخَر عُبَاب البحر الهندي بعد أن تمُرَّ من رأس الرجاء الصالح، وشَعَر ملوك القاهرة بما يُسْفر عنه اكتشاف تلك الطريق من كبير ضررٍ لهم فتحالفوا هم وأهلُ البندقية الذين أحَسُّوا فَدْحَ ما يَحيقُ بهم من الخَطْب أيضًا، فعزم الفريقان علىٰ سدِّ المنافذ دون فَوْز البرتغاليين بأية وسيلة، ويفاوضُ أمراء الهندوستان، ويُرَىٰ في تجَّار مكة واليمن خيرُ واسطةٍ لتمام ذلك، لِما كان من اضطراب هؤلاء مِنْ ظهورِ مَنْ يقاسمهم تجارةً احتكروها زمنًا طويلًا، فأدَّت الدسائس الصُّمُّ إلىٰ سُخْط أهل كلكتة المسلمين علىٰ الأوربيين، فضَرَب البرتغاليون كلكتة بالمدافع وحرقوا جميع سفن العرب الراسية في مينائها وقهروا أعداءهم بما ألْقَوْه من الرُّعْب في قلوبهم، وبذلك أصبحت السُّفن العربية التي كانت تَنْقُل السِّلع عاجزةً عن معارضة سُفُن البرتغاليين، ونالت البندقية من ملك مصر خشبًا وموادَّ أخرىٰ فأنشأت أسطولًا، فأبحرت في سنة ١٥٠٨ اثنتا عشرةَ سفينة عظيمة من السويس فانضمت إلىٰ قُوَّات ملك كَمْبَايَة (كَهَمْ بهات) فنالت بعض الفوز في تصاولها الأول هي وسُفن البرتغال، بيد أن وجه الأمور تغير بوصول ألْبُوكَرْك، فقد حَطَّم هذا الرجل الكبير أسطولَ المسلمين وأنشأ في جزيرة سوقطرة حِصْنًا للإشراف علىٰ مضيق باب المَنْدَب ومراقبةِ المِلاحة في البحر الأحمر مُبَدِّدًا إلىٰ الأبد كلَّ أمل لملوك المماليك في أية نهضة بَحْريَّة (١٥١٠-١٥١٥).

ومَلَكَ ألْبُوكِرْك قِلاعًا علىٰ شواطئ اليمن وحَضْرموْتَ، فمنع ما كان بين هذين البلدين من تجارة بحرية، مُكْرهًا أهاليهما علىٰ اتصال بعضهم ببعض بَرًّا، ثم استولىٰ في عُمَان علىٰ مدينة مسقط التي كانت مستودعًا لِسِلَع فارس وجزيرة العرب والهند، ولم يَرَ أن يَقِف عند حدِّ هذه الانتصارات فَعَنَّ له أن يكون صاحب السلطان المطلق علىٰ الخليج الفارسي بفتح جزيرة هرمزَ وإقامة عِدَّة قِلَاعٍ علىٰ الشاطئِ الشرقي من هذا الخليج حيث كان يَسكُن بعض القبائل العربية المستقلة عن فارس، ومن هذه القلاع قلعةٌ لوِقاية ميناء لنجا، وقلعةٌ لوقاية بندر شهر، وقلعةٌ لوقاية جزيرة قاس (علىٰ رأي نيبوهر) وَكِش (علىٰ رأي أنڤيل)، ثم

ضَمِن خَلْفُه الصَّيْد في جزائر البحرين للبرتغاليين بشَيْدهم حصونًا صغيرة لا تزال أطلالها ماثلة في أهمِّ هذه الْجُزُر الواقعة علىٰ ساحل الأحساء وغير البعيدة من القطيف، ولكن هؤلاء جميعَهم لم يستطيعوا الاستيلاء علىٰ عَدَن التي تُعَدُّ مِفتاح البحر الأحمر، فذهبت جهودهم في هذا السبيل أدراجَ الرياح، وأبصر العربُ، مع ذلك، سَدَّ النصارىٰ لهذا البحر في وجوههم بعد أن كانوا يسيرون فيه طُلقاء في كلِّ زمن، والعربُ، إذ أدركوا عجزهم عن مقاتلة ذلك العدوِّ الذي كان يفوقهم عددًا تَحَصَّنوا في السواحل علىٰ حين لم تُبال القبائل، المنقسم بعضها علىٰ بعض، بغير المحافظة علىٰ استقلالها بقيادة من تختارهم من المشايخ.

وبينما كان جنوب جزيرة العرب وشرقُها يتواريان شيئًا فشيئًا كان يقع في شمالها وغربها من الحوادث ما سيكون لها سادةٌ جُدُدٌ به، فقد نَزَع العثمانيون بلاد مصر وسورية من أيدي المماليك (١٥١٦-١٥١٨)، وأعان السلطان سليم الأول أنه لن يُبَدِّل شيئًا من سياسة ملوك المماليك البَحْريَّة والبُرْجِيَّة تجاه العرب، وانتحل السلطان سليم لقبَ حامي الحرمين: مكة والمدينةِ، بعد نصره الأول، ثم استقبل، مُكْرِمًا، رسولَ شريف مكة الذي تَخَلَّىٰ عن خلفاء بني العباس وملوك المماليك فأرسل إليه ذلك الرسولَ لِيُسَلِّم إليه مفاتيح الكعبة ويبايعه علىٰ الطاعة، وعالَ السلطان سليم فقراء الحجاز وأنعم علىٰ الشيوخ بأثمن العطايا، وأقرَّ في القاهرة عادة الاحتفال السنوي الرائع بسَفَر قافلة المحمل إلىٰ مكة، وتَنَزَّل له آخر خلفاء بني العباس المتوكلُ علىٰ الله عن حقوقه في الإمامة مُسَلِّمًا إليه عَلَمَ النبي، فَغَدا سلاطين آل عثمان بذلك علىٰ رأس جميع المسلمين (١٥١٧)، ووُجِد من عرب مصر والشامِ أناسٌ كانوا قبل الصِّرَاع غضابًا من عدم إشراكهم في حكم البلاد فانحازوا إلىٰ العثمانيين، ولم يَكَدْ طومان باي ينال عونًا من بني حرام، ورفضت القبائلُ الأخرىٰ ولا سيما قبيلة غزالة، أن تساعده مع وَعْدها بأن تُعفىٰ من الضرائب مدةَ ثلاث سنين، وما كان ينبغي للسلطان سليم أن يَقْسُوَ عليها بعد سلوكها هذا، وهو، وإن لم يكافئها، لم يُشَدِّد الوَطءَ عليها، وسَهُلَ علىٰ الباب العالي العثماني أن يستميل الفلاحين، الذين هم من العرب في الغالب، ببعض الأنظمة الإدارية الرشيدة، وبيانُ الأمرِ هو أن المُلَّاك في الولايات العثمانية هم الذين كانوا يؤدون خَرَاج أراضيهم إلىٰ بيت المال علىٰ حين كان نظام الأطيان

والضرائب السيّئُ في مصرَ يَفْرِضُ علىٰ الفَلَّاح ذلك الخَرَاج، فكان يجب علىٰ الفَلَّاح، والحالةُ هذه، أن يقوم باحتياجاته وأن يُرْضي صاحب الأطيان وأن يُؤَدِّيَ الخَرَاج إلىٰ بيت المال في آنٍ واحد، فلما وقع الفتح العثماني رُئِي أن من حسن السياسة إصلاحَ ذلك، بَيْدَ أن هذا الإصلاح لم يَتِمَّ لما كان من خَشْيَة الوُلاة العثمانيين نفوذَ المماليك المرهوبَ الذي ظَلَّ باقيًا ومن اشتراء هؤلاء الولاة بالبراطيل.

ثم جلس السلطان سليمان القانونيُّ علىٰ العرش (١٥٢٠) وحاولت قبائل من العرب أن تُغَذِّيَ عصيانًا رُفِعت رايته في مصر وسورية طمعًا في استرداد شيءٍ من الاستقلال في أثناء الفِتن التي أضحىٰ ذانك القطران مسرحًا لها، ولكن أمَلها لم يُعَتِّم أن خاب بقهر العُصاة.

وكان قَانْصُوهُ الغوريُّ، الذي هو من أواخر ملوك المماليك، قد أرسل في سنة ١٥١٧ كتائب إلىٰ اليمن ليناهض نفوذ البرتغاليين قبل أن يستولي علىٰ هذه الولاية، ومن الطبيعي أن يسير العثمانيون علىٰ هذه الخِطة بعد فتحهم مصر، غير أن السلطان سليمًا الذي أخذ بيعة تلك الكتائب المرابطة في زبيدَ لم يلبث أن استدعاها إلىٰ مصر، وغيرُ هذا ما سَلَكه السلطان سليمان، فقد أوعز إلىٰ أمير البحر سَلْمَان بالإبحار إلىٰ اليمن حيث أساء معاملةَ بعض الرؤساء الذين لم يُبْدوا استعدادًا لقبول سيادة مولاه، ثم أرسل سليمان باشا في بعثة إلىٰ سلطان الكجرات في الهندوستان سنة ١٥٢٣، فنَزَل إلىٰ بَرِّ اليمن فَغلَب أمراء عَدَن وزبيدَ فَحَوَّل بلدَهم إلىٰ مُدِيرِيَّة، ثم تَوَجَّه سليمان باشا إلىٰ الخليج الفارسي فعرض أسطوله فخورًا أمام ممتلكات البرتغاليين لائِمًا إيَّاهم علىٰ تعليمهم الفُرْسَ استعمالَ الأسلحة النارية وصناعة صبِّ المدافع، ثم عاد إلىٰ جُدَّة بعد هذا الصلَف الخالص وبعضِ الغارات المُوَفَقة فأرسل إلىٰ مكة قسمًا من غنائمه الوافرة، ثم استقرَّ أحد أمراء البحر العثمانيين لمرفأ السويس ليشرف علىٰ النفوذ العثماني في البحر الهندي ويحمل البرتغاليين فيه علىٰ احترام عَلَم السلطان ويَفْرِض سيادتَه علىٰ جميع عرب الساحل، ثم هَدَم أمير البحر ببري، في سنة ١٥٥١، مدينة مسقط التي كان البرتغاليون قد مَلَكوها للسيطرة علىٰ عُمَان، ثم حاصر أمير البحر

بيري هرمزَ، فلم ينشَب أن ارتدَّ عنها في مقابلِ مبالغَ كبيرةٍ بدلًا من أن يُشَدِّد حِصارها كما يقتضيه الواجب، ثم مُني أميرُ البحر مُرَادُ (١٥٥٢) بهزيمة أمام هرمز، ومما زاد هذه الهزيمة إيلامًا أن كان أميرُ البحر هذا سيدَ المِلاحة في الخليج الفارسي حيث رابط زمنًا طويلًا، وأن كان قد أعان العرب بنجاح علىٰ هدم حصون البرتغاليين في الأحساء والبحرين، وأن تَمَّ علىٰ يده كبيرُ سلطانٍ للترك علىٰ القسم الشرقي من جزيرة العرب، ثم حاول سيدي عليّ بعد سنتين أن يتدارك انكسار مُراد فنال في البَداءة فوزًا ملحوظًا، ثم عصفت بأسطوله عاصفةٌ فأُكْرِه علىٰ النزول إلىٰ مرفإٍ بالهندوستان فعاد منه إلىٰ الآستانة بَرًّا.

وفي تلك الأثناء وَجَّه باشاوات القاهرة عِدَّة حَمَلات إلىٰ اليمن التي كانت تغتني بزراعة القهوة، وأخذ استعمال القهوة يَعُمُّ جميعَ الشاطئِ الإفريقي وآسيةَ الغربية، وأوربةَ أيضًا، وليس بمجهولٍ أن المَقْهَىٰ الأولَ فُتِح بالآستانة في عهد السلطان سليمان، ولم يَلْبَث عدد المقاهي أن زاد كثيرًا في بضع سنين، ولم يُرْسِل أولئك الباشاوات كتائبهم إلىٰ اليمن بحرًا فقط، بل كانوا يرسلونها من طريق البرِّ أيضًا، فتسير من السبيل التي تسلكها القوافل فتَجِد فيها من الفنادق والآبار والأحواض ما فيه الكفاية، وأبدىٰ العرب من المقاومة فوق ما كان يُنْتظر منهم، وذلك لحُبِّهم للحرية وتعصبهم الديني، وبينما كان جنود السلطان من أهل السُّنَّة كان أبناء حِمْيَر من الزيدية تقريبًا، ويقترب مذهب الزيدية من مذهب الشيعة، ويقول كلا المذهبين: إن أبا بكر وعمر وعثمان حَرَمُوا عليًا حقَّه في الخلافة، والفرق بينهما هو أن الزيدية يقولون بأربعة أئمةٍ بدلًا من اثني عشر إمامًا، وآخرُ أولئك الأئمة الأربعة هو مؤسس مذهبهم زيدُ بن محمد الباقر بن الحسين بن عليّ ووَجد العثمانيون سكانَ مكة من أهل السُّنَّة، وإن كانوا مقسومين بين أتباع الشافعي وابن حنبل ومالك وأبي حنيفة، ووَجَد العثمانيون حقدًا صَبَّه شيعة الفُرْس في أهل اليمن، واستمرت الحرب طويلًا بين العثمانيين واليمنيين (١٥٣٩ -١٥٦٨)، وكانت هذه الحرب داميةً، فسقطتْ واسْتُردت غيرَ مَرَّةٍ المدنُ المهمةُ: صنعاء وعدن ومخا وتعز وزبيد، ومن خطأ باشوات مصر أن قسَّموا اليمن إلىٰ ولايتين لِما نشأ عن فُقْدان الوَحْدة هذا من شَلَلِ حركات الكتائب العثمانية وإفادةِ العرب من ذلك، وفيما كَانت مدنُ اليمن، خلا زبيد، قبضةَ

الزَّيْدِيَّة فنادَوْا هؤلاء بالإمام مُطهَّر خليفةً إذ عَهِدَ السلطان سليم الثاني سنة ١٥٦٨ إلىٰ سنان باشا في إنزال ضربة قاصمة لظهر الزيدية، فوُفِّق سنان باشا لنَشْر بذور الفساد بين الزيدية والإسماعيلية، ثم أخذ يطارد مُطَهَّرًا فحمله علىٰ الصلح وَفْقَ الشروط الآتية: أن يمارسَ السلطانُ أحكام الشريعة الإسلامية في جميع اليمن، وأن تكون للباب العالي سيادةُ جَنوب جزيرة العرب الغربي وحِفْظ المواصلات بين الحجاز واليمن، وأن يَكْتَفِي مُطهَّرٌ بإمارة كوكبان الصغيرة (١٥٦٨).

بَلَغت دولة الترك أوْج سلطانها، وبَلَغَ العرب أدنىٰ دَرَكات الانحطاط، والعربُ لم يخضعوا للأجنبي بمثل ذلك الخضوع الوثيق في أي زمن، والعربُ قَهَرهم سادةُ اليمن العثمانيون وسادةُ عُمان البرتغاليون، وأصحابُ النفوذ في خليج البصرة الفارسيُّون، فعادوا لا يَرْجُون الخلاصَ إلا إذا ضَعُف الغالبون، وما كَان انتظارهم حلولَ هذا عَبَثًا، فلم يكن لدىٰ البرتغاليين والعثمانيين من القوة ما يَثْبُتُون به علىٰ ما هم عليه من المبادرة، فهوجم هذان الشعبان من كلِّ ناحية ودَبَّ فيهما الفساد فصار لديهما من الأشاغيل الداخلية ما لا يباليان معه بشئون جزيرة العرب، فتركا جنودَها يَضْنَوْن لِينًا وبَطَالةً، بدلًا من زيادتهما ممتلكاتهما البحرية بإرسالهما حاميات جديدة، فَتَشَجَّع العرب فَفُتِح لهم دورٌ ملائمٌ في القرن السابع عشر، فهجمت عِدَّة قبائل منهم هجومًا متتابعًا علىٰ المستودعات التجارية القريبة فخَرَّبتها فصرتَ لا ترىٰ للأجنبي في جَنوب جزيرة العرب من بَاقِية.

وما كادت سِنُون سِتُّون (١٥٦٨-١٦٢٨) تَمُرُّ منذ فَتْح سنان باشا لليمن حتىٰ رَفَع قريبٌ للخليفة السابق مُطهَّرٍ، اسمه قاسمٌ، رايةَ العصيان فضَرَب نقودًا باسمه في كوكبان والتركُ كانوا قد اعتقدوا أنهم قَضَوْا علىٰ تلك الأسرة، التي كانت تجمع كلمة اليمنيين، بقبضهم بالحيلة والدسيسة علىٰ ولَدَي مُطهَّرٍ وإرسالهما إلىٰ الآستانة وحجزِهما في القصر، فخيَّب جميعَ ما فَكَّروا فيه قاسمٌ هذا الذي استحقَّ صفة «كبير» لما فُطِر عليه من البسالة والبراعة، فخلع أبناء حِمْيَر علىٰ قاسمٍ هذا لَقَب «أمير المؤمنين»، فانضوىٰ الزيدية إلىٰ لوائه، فدخلوا صنعاء، ففَوَّض السلطان مراد الرابع إلىٰ والي إثيوبية السابق آيدين باشا أن يَحْمِل العُصاة علىٰ الطاقة فلم يَسْطِع غيرَ التحصن في مخا.

وكان لقاسم الكبير صِلات سِرِّيَّة بأشرافِ مكة فمنعوا وصول أيَّ مَدَدٍ عُثماني من القاهرة، وخَلَف حسن باشا آيدينَ باشا فخَفَّ إلىٰ اليمن علىٰ رأس كتائب جديدة فاعتمد علىٰ هذه الكتائب فَحَمَل العدوَّ علىٰ منازلته في وادي الجِنِّ فَهُزِمَ شَرَّ هزيمة، وما كان سوء الطالع لِيَحِيق به علىٰ الدوام، فاستردَّ تعز وزبيد، ولكن العرب قطعوا ما بين الحجاز واليمن من المواصلات بردمهم الآبار ووضعهِم ضروبَ العوائق في الطرُق فَقَنِط الباشا من قَمَع العصيان فَترك اليمن للإمام الزيديّ.

وطُرِد البرتغاليون من عُمَان في ذلك الزمن، ودخل العرب، في سنة ١٦٥٨، مدينةَ مسقط التي أُعيد بناؤها بعد ذهاب أمير البحر بيري (١٥٥١) واستولَوْا علىٰ جميع البلد، وانتحل السلطةَ آلُ اليعربي الذين كانوا يزعمون انتسابَهم إلىٰ قريش مكة فَوَسَّعوا رقعة مملكتهم حتىٰ هرمز والبحرين والأحساء ومَلَكوا كيلوة وزنجبارَ علىٰ الساحل الإفريقي.

وَتَغَيَّر الوَضْع في الشمال أيضًا، وكان بَلاط الآستانة قد اتَّفق هو وأعرابُ باديةِ الشام علىٰ أن يُوَزَّع أميرُ الحجِّ في كل سنة ثلاثةً وعشرين ألفَ قرش علىٰ قبائل بني محمود وبني وهيدان وبني غازة إلخ. في مقابل مرور القوافل، فلم يُوفِ السلطان بعَهْدِه غيرَ مرة، فَسُلِبَت القوافل فانضمَّ هؤلاء الأعراب الساخطون إلىٰ فخر الدين المشهور فساعدوه علىٰ عصيانه مدةَ عشرين سنة (١٦٢٣-١٦٤٣).

وصارت السيادة العُثمانية غيرَ محترمة في مكة، وآزرَ الشريف أبناءَ حِمْيَر في خروجهم عن طاعة التَرْك، ولم يألُ البابُ العالي جُهدًا في استمالة أهل الحجاز مع ذلك، فزاد، في سنة ١٦٢٤، عطاياه السنويةَ بألفي القرش اللذين كانا يؤديهما داي الجزائر إلىٰ باي تونس، وهَدَم الفيضان بناء الكعبة في سنة ١٦٣٠ فأمر السلطان مراد الرابع بتجديده من أوله إلىٰ آخره بالجِزْية المفروضة علىٰ أقباط مصر، وأسفر سيل سنة ١٦٥١ عن خَرَابٍ كبير فأنفق السلطان علىٰ إصلاح ذلك، وكان يُنْظَر شَزْرًا إلىٰ وكلاء السلطان علىٰ الرغم من ذلك، وما كان الشريف الذي يُعَينُه سلطان الآستانة ليروقَ عربَ الحجاز إلا نادرًا فلا يطيعوه مختارين لهم زعيمًا آخرَ فَيُضْطَرَّ السلطان إلىٰ الموافقة علىٰ من اختاروه، وكان الأشراف

يتمتعون بشيء من الاستقلال فيخاصمون أمير الحجِّ الشاميَّ وأميرَ الحجِّ المصريَّ ووُلاة جُدة علىٰ الدوام فيَرْبُكون الباب العالي في الغالب، وكان العُثمانيون يُعْنَوْن بامتلاك جُدّة علىٰ الخصوص، لأنها مستودع لتجارة واسعة، وكان يَصْدُر أربعون ألفَ كيس من قهوة اليمن في كل سنة فيُنْقَل منها خمسةَ عشر ألفًا إلىٰ مصر وجزيرة العرب ويُنْقَلُ منها خمسةٌ وعشرون ألفًا إلىٰ بَقِيَّة ولايات الدولة العُثمانية، ولم يكن في المدينة غيرُ كتيبةٍ تركية مؤلفة من خمسين جنديّا لِحراسة قبر الرسول، وما كانت كتائبُ جُدة والمدينة لتوازن نفوذ الشريف الذي كان يسْهُل عليه أن يُجَنِّد عشرة آلاف رجل ويرتد بهم إلىٰ البادية عندما يَحيقُ الخطر به، فلا بدَّ من الاتفاق إذنْ، ولا بُدَّ للسلطان مصطفىٰ الرابع من أن يوافق سنة ١٦٩٥ علىٰ نصب شريف لا يُقْهَر إذنْ.

ولم يكن العرب، من ناحية العراق، أقل خطرًا علىٰ الترك من أولئك، وثار هؤلاء العرب عِدة مراتٍ منتقمين لأنفسهم من اعتداء وُلاة البصرة وبغداد، وهؤلاء العرب إذ كانوا مجاورين للفُرْس كان يمكنهم أن يحالفوهم للإغارة علىٰ الترك، واشتهرت السنوات: ١٦٥٠ و١٦٦٧ و١٦٩٥ بالفتن التي أوجبت سَوْق جيوش عظيمة، وكان الشيخ مانع زعيمَ عرب الفرات فَسلَّم مدينة البصرة إلىٰ شاه أصفهان في سنة ١٦٩٥، وما انفك هؤلاء العرب، بعد إمضاء معاهدة الصلح بين هذا الشاه وسلطان الآستانة، يحاربون الدولة العُثمانية حتىٰ سنة ١٧٠١، وكان عصيان قبيلة المنتفق، في سنة ١٧٠٦، أقلَّ دوامًا وأكثر إدْماءً، ووَضَع عربي قبيلةِ بني لام أنفسهم تحت حماية والي الحويزة الفارسيّ في سنة ١٧١٦، فرفعت قبائل عرب نجد والبصرة الرايةَ السوداء فدَحَرت ثلاثين ألف فارسيّ استولَوْا علىٰ أراضيها، فغدت الصحراء بأسْرها مُلْك العرب منذ ذلك الحين.

ومن ثَمَّ ترىٰ أن جزيرة العرب استردت استقلالها التامَّ، تقريبًا، منذ أوائل القرن الثامن عشر بفضل جِدِّها وضعفِ أعدائها، ولم يبق لها إلا أن يؤيد نصرها بمركز يلتفُّ حوله جميعُ النفوس، وهذا ما حاولت صنعَه قبيلةٌ ظهرت من نجد حواليْ سنة ١٧٤٩، وهذا ما حاوله الوهابيون النافذون حتىٰ الآن والذين سيكون لهم تأثيرٌ دائمٌ في مصير جزيرة العرب لا رَيْب.

واسمُ واضع أساس هذه السيطرة هو عبد الوهاب اليمنيُّ الذي أكبَّ علىٰ دِراسة آداب العرب وعلومهم منذ صِباه، والفقهُ أكثرُ ما عُنِيَ به، واطَّلع علىٰ آراء رجال المذهب، وقَصَد بغداد والبصرةَ وفارس سائحًا فَنَمَت مداركُه فأنعمَ النظر في حال بني قومه وميولهم وغرائزهم وطبيعة قُوَاهم فرأىٰ أنه إذا ما حَمَل المسلمين علىٰ مراعاة أحكام القرآن بإحكام رَجَعَت إليهم تلك الحماسة التي تعود بها عظمة الماضي، ولم يكن للإصلاح، الذي بَدا زعيمًا له، هدفٌ سوىٰ إعادة شريعة الرسول الخالصة إلىٰ سابق عهدها.

وحارب عبد الوهاب مغالاة المسلمين في إحاطة محمد بتعظيم حَرَّمه ابن عبد الله في كثير من آي القرآن، وحارب عبد الوهاب تقديسَ قبور الأولياء فحَمل أنصاره علىٰ هدمها، وحارب ما كان يَعِيبه علىٰ التُرْك من فساد الأخلاق، وحارب تعاطيَ المسكرات، ومما ذَكَّر الناسَ به هو أن الشريعة تأمر المسلم بأن يُؤْتِيَ الزكاة وتُحَرِّم عليه الزينة وتُلْزِم القضاة بالنزاهة التامة، ومما عُنِي به، علىٰ الخصوص، إيقاظُ روح الجهاد في قومه لِما أدىٰ إليه الجهاد من نصر عجيب منذ قرون، ولا يمكن أن تُنْعَت أقواله بالإلحاد علىٰ العموم لِمَا بَدَت تكرارًا لسُوَر القرآن، وهو، لموافقته تعاليم الإسلام الصحيحة، كان بالغَ الأثر بمبادئه، فصار صناديد قبائل نجد ينضمُّون إلىٰ لوائه أفرادًا وأرْسالًا، فيؤلفون جيشًا صغيرًا بقيادة محمد بن سعود من عشيرة المساليخ، وكان سعود قد اعتنق المذهب الجديد في الدرعية فأبصر عبد الوهاب فيه من المواهب الحربية ما لم يَجِده في نفسه فزَوَّجه بابنته مُفَوِّضًا إليه أمر حكومة الوهابيين السياسية.

ثم نشر سعود بمكة رسالةً صغيرة في العقائد لإيضاح آراء مُعَلِّمه، وإليك خلاصةً لتلك الآراء كما جاء في تلك الرسالة:

يقوم العلم الديني علىٰ ثلاثة أمور: ١- معرفةِ الله، ٢- معرفةِ أركان الدين، ٣- معرفةِ النبي.

فأما معرفة الله فتقوم علىٰ كلمة الشهادة: لا إله إلَّا الله، محمدٌ رسول الله.

وأما معرفة أركان الدين فتقوم علىٰ الإسلام والإيمان وعمل الصالحات، وأركانُ الإسلام خمسةٌ: شهادةُ أن لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله، وإقامُ الصلواتِ الخمس، وإيتاء الزكاةِ، وصومُ شهر رمضان، وحِجُّ البيتِ مرةً في العُمُر علىٰ الأقل، وللإيمانِ ستةُ أحكام: الإيمانُ بالله، وملائكته، وكُتُبِه، ورسله، وصفاته، واليوم الآخر، ويتجلىٰ عملُ الصالحات في تنفيذ أمر الله هذا: «اعبدِ اللهَ كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

وأما معرفة النبي فتتلخص في أن محمدًا نبيٌّ أرسله الله إلىٰ الناس كافةً وأن دينه وحدَه هو الدين الصحيح وأنه خاتم النبيين.

واستطاع عبد الوهاب أن يُخرِج العرب من عدم اكتراثهم بدعوتِهِ النَّارِيَّةِ، فخَلع علىٰ دين محمدٍ رونقًا جديدًا، فبَدَّد الخرافات التي زادت مع الزمن، فأظهر القرآن خاليًا من جميع ما عُزِيَ إليه من الشوائب.

وما لَبثت النفوس التي أرهقتها شروح أئمة المسلمين المطولةُ الغامضة أن رَجعَتَ إلىٰ بضعة مبادئ عامة بسيطة واضحةٍ مُتَقَبِّلَةً خِطَطَ عبد الوهاب الإصلاحية بقبول حسن، ودعا الوهابيون إلىٰ الفضيلة خلافًا للقرامطة الذين تذَرَّعُوا بسيئ المناحي فلم يبالوا بغير قضاء المآرب، وكاد الوهابيون يجدِّدون عملَ محمد، علىٰ ما يحتمل، لو لم يقاتلهم والي مصر بين سنة ١٨١١ وسنة ١٨١٥.

وبينما كان عبد الوهاب يقوم بمواعظه كان شرق جزيرة العرب مُعَرَّضًا لأشد الغارات.

حاول قاهر الترك نادر شاه أن يَبْسُط سلطانه علىٰ الخليج الفارسي مستعينًا بالقبائل المجاورة للبصرة وبغداد، وهاجم نادر شاه هذا عُمَان منذ سنة ١٧٣٠ فلم يَسْطِعْ أن يَتغَلَّب علىٰ مقاومة أهلها، وجَمَع نادر شاه أسطولًا مؤلفًا من خمسةٍ وعشرين سفينة عظيمة أنْشَأ بعضها في بندر ريغ وأبي شهر وبمبي واشترىٰ بعضها الآخر من تجار غربيين بثمنٍ غال، فلم يَقْدِر علىٰ جمع مَلَّاحين لها بِقَدْر الكفاية لِما كان من رفض مَلَّاحي السُّنِّيَّة أن يحاربوا أبناء مذهبهم، فأقلع عن تنفيذ خِططه مضطرًّا، فعزم علىٰ نقل سكان الخليج الفارسي إلىٰ شواطئ بحر قَزْوين مقيمًا في مكانهم مستعمرات جديدة، فكاد يفعل ذلك لو لم يَمُت.

وأدخل رئيسٌ عربيّ الفُرْسَ إلىٰ مسقطَ في سنة ١٧٤٠، فانتشروا من هنالك في جميع أرجاء تلك البُقْعَة، وتُرِك هؤلاء الفُرْس وشأنهم فلم يَقدِرُوا علىٰ رَدِّ هَجَمات العرب المتتابعة زمنًا طويلًا فأُكرِهوا علىٰ إخلائها نهائيًّا.

ولاح بَعْدَهم أعداءٌ جُدُدٌ: لاحَ الهولنديون والفرنسيون والإنكليز الذين حَفَزَهم حُبُّ التجارة إلىٰ تلك السواحل، وما كان الأوربيون ليبحثوا عن غير الفُرصَة الملائمة ليغتنموها فيستقروا بشواطئ جزيرة العرب، ومسقطُ، علىٰ الخصوص، هي التي كانت تَجْتَذب أنظارهم بسبب موقعها الصالح، واستولَىٰ الهولنديون علىٰ جزيرة خارَك في سنة ١٧٥٥ فاحتفظوا بها نحوَ إحدىٰ عشرة سنة، ثم استولَىٰ عليها أحد أساطين قُرْصان العرب مير مهنا الذي ظلَّ سيدَ الملاحة في الخليج الفارسي زمنًا طويلًا.

وتمتعت بقية جزيرة العرب بهُدُوءٍ كبير في ذلك الدور كما لاح، ورجعت قبائل الشمال إلىٰ بواديها بعد أن مَثَّلت دورًا ثانويًا في الصراع الفارسي التركي، وظَلَّت الحجاز خاضعة لسلطة الأشراف، وإذا عدوتَ جُدَّة لم تجد للعُثمانيين نفوذًا أكبر من نفوذ رئيس قافلةٍ تَحْميه كتائب قليلة، واستمرت اليمن علىٰ الاغتناء بمحاصيل أراضيها ومنتجات صِناعتها، ولم تُعان اليمن سوىٰ ضرب الفرنسين بالقنابل من البحر لمرفأ مخا سنة ١٧٣٨، وأخذت السياسة الإنكليزية تتجلَّىٰ في تدخلها البارع بين مشايخ العرب المتقاتلين بعد أن أصبحت مُدُن السواحل مطمعَ أنظارها، وعَطِل عرب مصر والشام من هدفٍ عالٍ فغدَوْا لا يفكرون في التخلص من السيادة العُثمانية.

ويفاجَأ الناس بخبر اجتماع نجد، المنقسم بعضها علىٰ بعض، تحت قيادة واحدة واعتناقها لمذهب يدعو إلىٰ الزهد أكثر من دعوة المذهب السُنِّيَّ إليه، وتطبيقِ مشترعٍ لذلك الإصلاح بنفسه، علىٰ حين يَفْرِض المقاتلُ الباسل محمد بن سعود ذلك الإصلاحَ بالقوة علىٰ كلِّ من ينكر صحته، ويعتنق قسمٌ من نجد ذلك المذهبَ الجديد بحماسة ويقضىٰ علىٰ مقاومة شيوخ العروض والأحساء، ويَصِل فرسان الوهابية إلىٰ جوار الحجاز ويُوغِلون في صَحارىٰ الشام مخبرين الأعرابَ بيقظة جزيرة العرب، ويأمر سلاطينُ الآستانة، من فورهم، ولاةَ البصرة وبغداد

وَجُدَّة ومصر والشام وشريفَ مكة بألا يألوا جُهدًا في استئصال ما دَعَوْه بالإلحاد الخَطِرِ وفي المحافظة علىٰ الحرمين الشريفين لِما سيكون من امتلاك الوهابية لهما من النفوذ البعيد المَدَىٰ، ويرسل السلطان محمود الأول والسلطان مصطفىٰ الثالث فَخْم الهدايا إلىٰ شريف مكة، ويداوم محمد بن سعود علىٰ الزحف مع تلك الاحترازات، وتنضمُّ إليه القُرَىٰ: العُيَيْنة والحريملة والعمارية والمنفوحة، وتخضع البقاع المجاورة له، ويتوفَّىٰ سنة ١٧٦٥ تاركًا لابنه عبد العزيز سلطانًا وطيدًا، وعبد العزيز هذا كان قد اشتهر في عِدَّة غَزَوَاتٍ فدانت له نَجْد بأسْرها (بين سنة ١٧٦٣ وسنة ١٨٠٣)، ويقود ابنه سعود الكتائب إلىٰ أماكن بعيدة، ويوطِّد سلطانه في الحجاز، ثم يسير إلىٰ عسير فيأخذها فيخضع له بنو شهر وبيشة وشهران وبنو غامد وزهران، وحَدَث مثل هذا في الطائف ومكة والمدينة وجُدَّة، وفيما كانت بغداد نفسها مُهَدَّدَةً كانت مدينة أبي عريش باليمن تستسلم للوهابية بعد حرب طويلة مُهْلكة، ونذكر من البلدان التي انتحلت الوهابية ففَرَض سعود سيادته عليها: الأحساء والبصرة ورأس الخيمة والبحرين وعنيزة والرسَّ وبريدة والرياض وجبل شمر وعنزة، وامتدت سيطرة زعماء الوهابية الحربيون حتىٰ داخل حورانَ الواقعةِ بين الحجاز ودمشق، حتىٰ داخل نجدَ واليمن إلىٰ صنعاء.

وليست لدينا تفاصيلُ مضبوطة عن مغازي الوهابيين التي هي ذات طابع واحد، ويمكن تفسير انتصاراتهم بضَعْف الترك الذين كان عليهم في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أن يناهضوا استيلاء نابليون علىٰ مصر وأن ينتزعوا من يديه سورية التي أُنْقذت بأُعْجُوبة، بفضل مقاومة عكا غير المنتظرة، وظلَّ الباب العالي غيرَ مكترث لمصير جزيرة العرب منهمكًا في إثبات سلطانه علىٰ تَيْنك الولايتين اللتين كان يمكن العربَ أن ينازعوه إياه مراقبًا عن كَثَبٍ وقائع أولئك الغيلان الذين كانت أوربة مسرحًا لهم، ونعلم من بعض الوثائق، مع ذلك، أن السياسة البريطانية تَسَرَّبَت في العاصمة السعودية: الدرعيةِ، والإنكليزُ، إذْ أصبحوا سادةَ جزيرة خارَكَ الواقعة علىٰ الخليج الفارسي وصار لهم وكلاء كثيرون في مخا والسويس وجُدَّة والبحرين وأضحَوْا طامعين في مسقط وعدن، أخذوا يَتَتَبَّعون بعناية عظيمة حوادثَ جزيرة العرب.

ومما هو أدعىٰ للعجب أن يكون نابليون قد اتصل بزعيم الوهابيين، ونَجِدُ في مذكرات نابليون أثرًا للخطط التي لاحت لعبقريته بعد فتح مصر، ونَعْرِف أنه أراد السير إلىٰ الهند ليُقَوِّض فيها دعائم سلطان بريطانية العظمىٰ الهائل، ويصبح نابليون إمبراطورًا فيرسل إلىٰ جزيرة العرب رسولًا خاصًّا اسمه دولاسكاري مفوضًا إليه أن يجمعَ في حلفٍ قبائلَ بوادي الشام والعراق وفارس ليعاهدوه علىٰ تسهيل زحف جيشه حتىٰ نهر السند وأن يفتحوا له الطريق التي كان الإسكندر قد سلكها، ويقوم دولاسكاري بما عُهِد إليه بإخلاص عجيب فيذهب من حلب غير مُتّخذ لنفسه رفيقًا سوىٰ كاتم سرٍّ ترانا مَدِينِين له في سَرْد حدث تلك المغامرة، فيُوغِل، غيرَ هَيَّابٍ، في فَيَافِي جزيرة العرب مارًّا من تَدْمُر، فيعلم من أول قبيلة يلاقيها أن الأعراب مقسومون إلىٰ أربعة أحزاب، فالحزب الأول هو حزب أصدقاء الترك الذين تتألف منهم أفخاذُ قبيلة عنزة فيرابطون علىٰ حدود سورية، والحزب الثاني هو أعظم من الأول فيتألف من ممثلي العنصر العربي الحاقدين بشدة علىٰ كلِّ من يَجْري في عروقه غيرُ دَمِ العرب فيقيم في صَحارىٰ العراق علىٰ الخصوص، والحزبُ الثالث هو حزب بَدَوِيِّي فارس، والحزب الرابع هو حزب الوهابيين، وَيَرَىٰ دولاسكاري أن يَتَوَجَّه إلىٰ الحزب الثاني، وكان يجب أن يَرْبِط الوهابيين به، ولكن ذلك لم يَعِنَّ له إذ ذاك، وكانت ضرورة مقاومة الترك تقضي علىٰ حلفاء فرنسة الجُدُد بأن يجعلوا السلطةَ قبضةَ زعيم واحد، فكان دريعيٌّ Drayhy (؟)، الرجل الرفيعُ الذكاء والمحاربُ الماهر، ذلك الزعيمَ، ويصبح دريعي معتمدَ نابليون في فَلَوات جزيرة العرب، ويُمْضي عِدَّة شيوخ، في سنة ١٨١١، معاهدة علىٰ الأمور الآتية:

١- أن يخاصموا العثمانين خصامًا أبديًّا. ٢- أن يقاتلوا الوهابيين قتالًا لا هَوادة فيه. ٣- ألا يَخْلِطوا بين الدين وشئون السياسة. ٤- أن يحاربوا القبائل التي لا تَنْضم إليهم. ٥- أن يقتلوا كل من يخون القضية المشتركة. ٦- أن يطيعوا دريعيًّا، ويلتقط الإنكليز ذلك النبأ، ويستعينون بالليدي سِتَنْهُوب علىٰ جَمْع أعراب سورية بالعثمانيين، ويدفعون أموالًا إلىٰ الوهابيين ليَحُلوا ذلك الحِلْف الشامل لنحو ٧٦٠٠ خيمة، وتدور رَحَىٰ المعركة بالقرب من حَماة بين ثمانين ألف عربيٍّ من رجال ذلك الحِلْف ومائةِ ألف وهَّابي، فيَتمُّ النصر لدريعي فيَهْزم أعدائه،

فيتعَقبهم ظافرًا حتىٰ حدود نَجْد، ويُنَبِّه هذا الغَلَبُ غافلًا في سعود فيَوَدُّ أن يَعْرف أصل ذلك الحلف وهدفَه، فيذهب دولا سكاري ودريعي إلىٰ عاصمته الدرعية ليُوضِحا له ذلك، ويَجْمَع بين الزعيمين العربيين، في الحال، ما كان يَغْلي في صدورهما من حقد علىٰ العثمانيين، ويبدو سعودٌ صعبًا بسبب ارتباطه في الإنكليز، ثم تَلِين قناتُه عند علمه أن أبا النار (كما كان العرب يُكَنُّون نابليون في أثناء حملته المصرية) هو الذي يستعين به علىٰ إزالة سيادة الإنكليز من الهند فتغْمُر حماستُه مصلحتَه السياسية.

إذَنْ وُفِّق دولاسكاري في بعثته، سنة ١٨١٢، إلىٰ أبعدَ مما كان يأمُله، بَيْدَ أنه وَجد حظَّ نابليون قد تَغَيَّر عند عودته، فقد كان الزمنُ زمنَ ارتداد جيشه، الظافر علىٰ الدوام، من موسكو، محاولًا الرجوع إلىٰ أرض الوطن أو يَهْلِكَ، وأبصر دولاسكاري تَبَدُّد أحلامه الجميلة التي نَسَجها فمات غَمًّا، ووقعت وثائقه في يد الأعداء فزادت في التَّعَس، ولا تكاد قصةُ Jetella Sayeghir التي رواها لامارتين تُجْزِئُ عن تلك الخسارة التي لا تُعَوَّض.

وأدت النكبة التي سَقَط بها نابليون إلىٰ سير الجيوش العُثمانية طليقةً بعد أن قَيَّدها الخوفُ من صروف الدهر، ولا بدَّ من أن يكون والي مصر محمد علي باشا قد أفاد من عناصر الحضارة التي نشرها علىٰ ضِفاف النيل أصحابُ بونابارت: كليبر وديزه ومنو، وأراد محمد علي أن يُعيد إلىٰ مصر بعض ما كان لها من جَلال فأقدم علىٰ محاربة الوهابيين فكَسر شَوْكتهم.

كانت أول حملة أرسلها محمد علي باشا بقيادة ابنه الثاني طوسون باشا سنة ١٨١١، واستولىٰ طوسون باشا علىٰ ينبعَ وانتصر ببدرٍ، وتَقَدَّم إلىٰ الصفراء، وكان الوهابيون قابضين علىٰ المضايق وأعالي الجبال فأفادوا من وَضْعهم الملائم ببراعة فقَضَوْا علىٰ الجيش المصريّ قضاء تامًّا، ويرتُد طوسون باشا إلىٰ ينبعَ ويَتَلَقَّىٰ المدَد من أبيه بسرعةٍ ويهاجم ويدخل، في سنة ١٨١٢، المدينة وَجُدَّة والطائف ومكةَ التي غادرها الوهابيون آخذين منه نفائسَ لا يُحْصِيها عَدٌّ، وكان سعود ملتزمًا خِطة الدفاع حتىٰ ذلك الحين، فلما دخلت سنة ١٨١٣ أظهر من النشاط والجِدِّ ما غَيَّر به وجهَ الأمور، فقد هَزَم الجيشَ المصريَّ في تُرْبة،

وحاصر سعود المدينة بنفسه وضربَ رِقاب حامية الحِنَاكِيَّة وأثار الوهابيون عربَ اليمن سِرًّا فانتشر هؤلاء العرب في أطراف مكة وجُدَّة فقطعوا جميع المواصلات فأضحىٰ المصريون في وَضْع موجب لأشدِّ قنوط، فخَفَّ محمد علي باشا بنفسه إلىٰ نَجْدتهم في جزيرة العرب.

وما كان محمد علي باشا لينالَ غير نصر قليل حتىٰ وفاة سعود، وغُلِب محمد علي بالقرب من ترْبة، وطُرِد من القنفذة التي استولىٰ عليها، وترك محمد علي الوهابيين يحاصرون موقع الطائف المهمَّ.

ولكن سعودًا مات، ولم يكن بين أولاده الاثني عشر من هو جدير بأن يقوم مقامه، وكان لمحمد علي بذلك فوز كبير، فأنقذ محمد علي الطائف فَغَلب الوهابيين بالقرب من كلاخَ في ١٠ يناير سنة ١٨١٥، فاستردَّ القنفذة فأكره قبائل عسير علىٰ الطاعة علىٰ حين كان طوسون باشا يُمْلي علىٰ الرِّعْدِيد عبدِ الله بن سعود معاهدَة صلح مُخْزِية.

ولم يُنَفِّذْ عبد الله شروطَ المعاهدة بإخلاص في سنة ١٨١٦، فأعدَّ محمد علي باشا حملةً ثالثة بقيادة إبراهيم باشا، فاستطاع هذا الأمير أن يُدَوِّخ مُعْظم نَجْد في أقلَّ من ثمانيةَ عشرَ شهرًا، فاستولَىٰ في بدء الأمر علىٰ الحِنَاكِيَّة والنُّوَيْح، فحاصر الرأس علىٰ غير جَدْوَىٰ، فاستولَىٰ بالتتابع علىٰ الخَبْرَاء وَعُنَيْزَة وبُرَيْدَة وشقراء وَضُرْمَة فرابطَ في ٢٢ مارس سنة ١٨١٨ تحت أسوار الدرعية فاستسلم عبدُ الله في شهر أكتوبر فأحسن الغالبُ إبراهيم باشا قبولَه، فأرسله إلىٰ الآستانة حالًا شافعًا فيه، فَبَدَا الديوان السلطاني حاقدًا عليه فضَرَب عنقَه في ميدان أياصوفية بعد أن تنزَّه في أرجاء الآستانة ثلاثة أيام.

وهكذا كُسِرَت تلك الشَّوْكة التي لاح أن القَدَرَ أعَدَّها لإعادة عظمة الإسلام الأولىٰ، وضُغِط ذلك النفوذُ في الفَلَوَات التي كان قد خَرَج منها ظافرًا، ولم يُقْض عليه مع ذلك، وكان للمصريين معه حساب، واضطُرَّ المصريون إلىٰ قمع عصيان قبيلة حرب حوالَيْ سنة ١٨٢٧، ولما كانت سنة ١٨٣٢، وكانت العلائق بالباب العالي مقطوعةً، حاول تركيٌّ اسمه «تُورْكچَه بِيْلمَازْ[١]» أن يُثِير قبائل

(١) أي: «لا يعرف التركية».

العرب، فَطُرِد من الحجاز ففَرَّ إلىٰ صميم اليمن باحثًا عن ملجأ له في مخا.

ثم اشتغلت الحرب في سنة ١٨٣٦ وسنة ١٨٣٧ فعَمَّت جزيرة العرب، فكان يجب علىٰ محمد علي باشا أن يحارب في عسير واليمن والحجاز ونجد في آنٍ واحد، فغَزَا جزيرة العرب بأربعة جيوش، فأما الجيش الأول فكان بقيادة خورشيد باشا فانقضَّ علىٰ نَجْد فجَدَّ في أثر فيصل السعودي بعد أن أخذ أمره يستفحل فأدركه في مروج الدَّلَم فهزمه فأوْغل في البلاد حتىٰ شواطئ الخليج الفارسي بجوار الأحساء والقطيف، وأما الجيش الثاني فكان بقيادة كوجوك إبراهيم فأكْرَه إمام صنعاء علىٰ التنزل عن سلطانه لمولاه، وأما الجيشان الآخران فكانا بقيادة أحمد باشا وسليم باشا فألزما بالطاعة أهلَ عسير والحجاز الساخطين.

ولاح محمد علي باشا سيدًا لجزيرة العرب بعد ذلك الحين، وما كان هذا أمرًا واقعًا، فقد أبصر الإنكليز أن مصالحهم تقضي بألا يكون محمد علي باشا قابضًا علىٰ طُرُقهم التجارية إلىٰ الهند وبألا يكون محتكرًا للتجارة معها، فلما أراد القائد المصري خورشيد باشا، بعد انتصاره في الدَّلَم، أن يستوليَ علىٰ جُزُر البحرين احتجَّ الإنكليز علىٰ ذلك مُهدِّدِين بإنزال جنود إلىٰ البصرة والزحف إلىٰ سورية، فأُجِّل ذلك الاستيلاء، ولما أراد محمد علي باشا أن تكون له صِلات بإمام مسقطَ وَجَدَ ما يعارض جميع خططه في سياسة الإنكليز الذين أيقظوا بسلوكهم في اليمن وقبضِهم علىٰ عَدَن غافلًا من حكومات أوربة في الزمن الحاليّ.

ويئس محمد علي باشا من تحقيق خياله في مَزْج عرب مصر بأهل جزيرة العرب، فأعاد إلىٰ الباب العالي حكومة الحجاز التي كان يُنْفق عليها ثمانية عشر مليون فرنك مُسانَهَةً، ونشأ عن موته وموت إبراهيم باشا (١٨٤٨) نَقْصٌ في شَوْكة المصريين فأصبح من المحتمل أن يرفع الوهابيون راية القومية العربية ذاتَ يوم.

الفصل الثاني
عرب إفريقية

أجَلْ، استطاع الأتراك العثمانيون أن يَبسُطوا سلطانهم علىٰ إيالات مصر وطرابلس الغرب وتونس والجزائر، ولكنهم إذا ما وُفِّقوا لكَبْح جِماح الأهالي لم يَقْدِروا، قطّ، علىٰ إفساد خُلُق القبائل العربية التي ظَلَّت فيما بين ضِفاف النيل وشواطئِ البحر الأطلنطي محافظةً علىٰ محاسنها ومساوئها، كما كانت في دور الفتح، مستعدةً علىٰ الدوام، لتأدية الإتاوة عند تركها طليقةً حُرَّة، ومما يلاحظ لدىٰ المصريين المعاصرين، في الغالب، تلك الروح المُسَلِّمة مع جِدٍّ وتأمل امتاز بهما العرب إلىٰ أقصىٰ حدّ، ومما يُلاحَظ لدىٰ محمد عليّ، بعد انتصاره علىٰ الوهابيين، إدراكُه وجوبَ معارضة السيطرة التركية بدولةٍ حديثة ناهضة ذاتِ اتصال بالحضارة الأوربية، وما كان من أمره بترجمة كتبنا العلمية وبطبع عِدَّة مؤلفاتٍ في مطبعة بولاقَ نشرًا لمعارف المدرسة العصرية شاهدٌ علىٰ نَظَره العالي وشَوْقه المُتَوَقَّد إلىٰ إصلاح الشعوب الخاضعة لسلطانه، ومن دواعي الأسف أن ناهضت السياسة الإنكليزية خِططه سِرًّا فماتت بموته، وحُفِر الخطُّ الفاصل بين العرب والعثمانيين عميقًا مع ذلك، وعادت مصر ودول المغرب لا تعترف بسيادة سلطان الآستانة إلَّا اسمًا مع ذلك.

ولم يَبْدُ نفوذ العرب في شمال إفريقية وحدَها، فما فَتِئَت السواحل الشرقية تخضع لأمراء المسلمين أيضًا، وأخذ الإسلام يُوغِل في قسم السودان الشرقي منذ القرن السابع عشر، وفي هذا الزمن أضحىٰ أحد بني العبَّاس، صالحٌ، زعيمًا سياسيًّا ودينيًّا للوادي الذي دان أهله بالإسلام، واستولىٰ السلطان صابون، الذي

يمارس سلطانه الآن، علىٰ بحيرمة مناديًا باسم محمد بالغًا بحيرة شاد، وأبصر السُّيَّاح الأوربيون، الذين يتغلغلون في أواسط إفريقية مسترشدين بالعرب مارِّين من كردفان ودارفور أو مُتَسَرِّبين في جَوْف الصحراء من طرابلس الغرب، حركةً جديدةً في النفوس، فبينما ترىٰ الوهابيين يُجَدِّدون شباب الإيمان في جزيرة العرب تَجِد الفُلَّاح Foulahs (؟) رُسُلًا مُبَشِّرين مُسَلَّحين إلىٰ السودان.

وتلقت إفريقية الغربية بذور حضارةٍ من مَرَّاكُش أيضًا، وظلَّت مرَّاكش خالصةً من شائبة أي سلطان أجنبيّ، وكان يمكنها أن تنال شرف رفعِ الراية القومية العربية لو لم يُؤدِّ انقسام أُسْرتها المالكة إلىٰ انحطاطها علىٰ عَجَل، وسلطانُ مَرَّاكُش اليوم هو مولاي عبد الرحمن الجالس علىٰ العرش منذ سنة ١٨٢٢، ولا تزال عواصم السلطان الثلاث: مِكْناسَة وفاس ومَرَّاكُش محافظاتٍ علىٰ بعض سَنَائها، وأجدرُ هذه المدن الثلاث بالذكر مدينةُ فاس التي تُعد الملجأ الأخير لآداب العرب والتي تشتمل علىٰ عِدَّة مدارس وعلىٰ مكتبة حافلة بالمخطوطات الثمينة.

ويُقَدَّر سكان مَرَّاكُشَ بستة ملايين مقسومين إلىٰ بربر وعرب ويهودَ وزنوج إلخ، وينتشر البربر في سلسلة الجبال الممتدة من الجَنوب الغربي إلىٰ الشمال الشرقي، وتَجِد في القرب من الساحل جبال الرِّيف التي تدافع عنها قبائل مستقلةٌ لا نكاد نَعْرِف أسماءها.

وتُقَسَّمُ أراضي مَرَّاكُش إلىٰ تَلٍّ وصحراء، ويبلغ طول التلِّ خمسةً وسبعين مِيرْيَا مِتْرًا، ويبلغ عَرْضه ثلاثين أو أربعين مِيرْيا مِترًا، أي ما يَعْدِل ضِعْفَي تلِّ الجزائر تقريبًا، وتبلغ مِساحته ٣٢٢٥ مِيْرِيا مِترًا مربعًا، وتَعْدِل صحراء مَرَّاكُش صحراءَ الجزائر، وتُرَىٰ في الجَنوب والشرق دُوَيْلَةُ سيدي هشام التي أقيمت سنة ١٨١٠ فتألفت من العرب والشلوق، وتلانت هي عاصمة هذه الدُّوَيْلَة، وتُعَدُّ هذه المدينة مستودعًا بين تمبكتو ومَرَّاكُش.

وجبالُ تلك الناحية من إفْريقية عاليةٌ جدًا، وانحدارُ هذه الجبال هو علىٰ نَمَط واحد، وأنهارها أعظم من أنهار الناحية الشرقية، وتَتَّجِه أنهار مُلْوِية ولكوس ووَرْغَة وسَبو وأم الربيع والرقراق إلىٰ الشمال، وتَتَّجه أنهار الغِير وزيز ووادي

درعة إلىٰ الجنوب، والخلاصةُ أن بلاد مَرَّاكُش رائعة، ولا تُعْرَف جميع مواردها.

وكانت صِلات الشُّرفاء وأمراء الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بالدول النصرانية، التي أرادت أن تستولىٰ علىٰ أهم المراكز الساحلية أو أن تُؤَسِّس علىٰ الشواطئِ ممتلكات تجارية أو أن تَحْمِل علىٰ احترام أعلامها، غيرَ ذات نفع ثانويّ حتىٰ أوائل القرن التاسع عشر، ولما ظهرت طلائع الْجيوش الفرنسية سنة ١٨٣٠، تغير الوضع في شمال إفريقية تَغَيُّرًا تامًّا، وبدأ العَداء ضدَّ دَاي الجزائر سنة ١٨٢٧، وانتهىٰ هذا العَداء بدخول عاصمته بعد ثلاث سنين، وكان هنالك ما يدعو فرنسة إلىٰ اغتنام تَقَطُّع وشائج التُّرك في الجزائر دفعةً واحدة والاستفادة من الفِتن التي تشتعل في أرجاء الجزائر وبَسْط سلطانها إلىٰ أبعد حدٍّ، بَيْدَ أن الثورة التي اشتعلت في فرنسة في شهر يوليه سنة ١٨٣٠ أجَّلَت حَلَّ المسألة الإفريقية حاصرةً لها ضِمن نِطاق ضَيق، وعلىٰ ما كان بين الترك والعرب والقبائل (البربر) من خِصام، وعلىٰ ما كان من تنافس زعماء مقاديمَ، كالحاجِّ أحمد وابن عيسىٰ وابن زمُّون في الشرق ومباركٍ والبركاني وأبي مزراغ إلخ. في الغرب، غير مُفكِّرين في سوىٰ إشباع مطامعهم الخاصة في أثناء الفوضىٰ العامة، كنت ترىٰ شعورًا شاملًا يَجْمع كلمة القوم، كنتَ ترىٰ حقدًا علىٰ النصارىٰ وأملًا في طردهم عاجلًا.

وكانت إيالة الجزائر مؤلفة من الولايات الأربع: وهران وقسنطينة وتيطرىٰ والجزائر، وكان ثلاثٌ من هذه الولايات خاضعًا لسلطة الباي أو وكيل الداي، وكان يُدير ولاية الجزائر أغا العرب ذو السلطان الشامل للبليدة وسهل حمزة حتىٰ أبواب الحديد وفي الغرب كانت ولاية وهران المحصورة بين الأطلس الأصغر (دَرَن الأصغر) تنتهي إلىٰ حدود مَرَّاكُش، وفي الشرق كانت ولاية قسنطينة تشتمل علىٰ وادي الرمل، وفي الجنوب كانت ولاية تيطرىٰ واقعةً علىٰ ضِفاف نهر وادي شِلْف ممتدةً إلىٰ سفوح الأطلس الأكبر (دَرَن الأكبر).

ويسقط الداي، ويَعْرِف الحاجُّ أحمد أن يُوَطِّد سلطانه في قسنطينة من غير أن يُلاقِيَ ما يزعجه، وتظلُّ القبائل مستقلةً، ويحاول شيوخ القبائل العربية، الذين ما انفكَّ الترك يُقْصونهم عن شؤون الحكم، استردادَ سابق شَوْكتهم في الولايتين

وهران وتيطرىٰ، ويبحثُ بعضهم عن المُعين فيجدون سلطان مَرَّاكش مولايَ عبدَ الرحمن، فيرسل هذا السلطان كتائبَ إلىٰ مُعَسْكَر وتِلِمْسان ويبحث بعضهم الآخر عن الحامي فَيجِدون الفرنسيين الذين ظهروا، ذات حين، في بونة (عِنَّابَة) والمَرْسىٰ الكبير من غير أن يؤسسوا مستعمرةً دائمة.

ويَصلِ الجنرال كلوزل إلىٰ الجزائر في شهر سبتمبر سنة ١٨٣٠ فيطبع الأمور بطابع الجِدّ فَيبْسُط بالتدريج نفوذَ فرنسة مستندًا إلىٰ شيوخ مشهورين من العرب، فتُتَّبَع هذه السياسة بعدئذٍ بثبات، غير أنه كان هنالك من العوائق ما وجب اقتحامه، ومن ذلك أن أبا مزراغ ذا النفوذ العريض، في المدية التي هي من أعمال تيطرىٰ، تظاهر بالخضوع فحرض العرب سرًّا علىٰ الجهاد مفاوضًا مَرَّاكُش فوَجَب قهرهُ فغُلِب فأُسِر فاستبدل به مصطفىٰ بنُ عمر الذي وَعَد بأن يكون أصدق منه.

وفي الشمال الغربي يُضايق العرب المسلحون القُولُوغْلِيَّةَ (الْموَلَّدين من تُرْكٍ ونِسْوَةٍ عربيات أو مغربيات) الذين فوَّضَت الحكومة الساقطة إليهم أمر الدفاع عن الأماكن الُمحَصَّنة فيستنجد البايُ حسانُ بفرنسة، فيستولىٰ الجنرال كلوزل علىٰ المَرْسىٰ الكبير في شهر نوفمبر وعلىٰ وهران في اليوم العاشر من شهر ديسمبر، وتُسَلَّم وهران إلىٰ التونسيين وَفْقَ بعض الشروط المُوَقَّتة فلم يستطيعوا البقاء فيها، فاستُبْدل الفرنسيون بهم نهائيًا في اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس سنة ١٨٣١.

وكان الجنرال بِرْتَزِن قد تَسَلَّم قيادة الجيش في شهر فبراير سنة ١٨٣١ فنَضَبت موارده فلم يكن لديه أكثر من تسعة آلاف مقاتل، فثار العرب في كلِّ مكان، فحاصر ابن أبي مزراغ مدينة المدية، فأخذ الضيق مصطفىٰ بنُ عمر بخِناقه، ففكَّ الحِصار في اليوم الخامس والعشرين من شهر يونيه، فلم يُفَكِّر في البقاء هنالك مع ذلك، فأمر بالارتداد، فَتمَّ ذلك في أحوال سيئة جدًّا فأيقن العدوُّ قربَ طرد الفرنسيين من الجزائر.

ويتقابل الأفرقاء في تِلِمْسان ومستغانم، وتَغْدُو معسكرُ مركزًا للجهاد بعد قتل الحامية التركية، ويُمَهِّد المرابطُ محيي الدين السبيلَ لابنه عبد القادر، ويُحْبِط الجنرال بويرُ عملَ العرب في تلك الناحية، ويُقَدِّم قاضي آرزو الذي كان حليفًا لفرنسة كلَّ مَدَد إلىٰ حامية وهران وحامية المَرسيَ الكبير.

ويتألف، في تلك الأثناء، حِلْفٌ كبير بجوار الجزائر، وتشترك البليدة والقليعة فيه، وتصبح المديةُ تابعةً لسلطان مَرَّاكُش، وينتصر الجنرال بِرْتَزِن في مَعْبَر الحَرَّاش ويُبَدِّد تلك العاصفةَ ويحافظ علي مبارك، الذي نُصِب أغًا للعرب، علىٰ سلامة السهل كما عاهد عليه.

ويصِل دوك رُوفِيغُو إلىٰ الجزائر في شهر نوفمبر سنة ١٨٣١، ويبدأ القتالُ بعد بضعة أشهر علىٰ مقياسٍ واسع، وكان الشيخ فرحات عَدُوًّا لباي قسنطينة فَدَعا القائد الفرنسي فقُتِلَت رُسُلَه في أرض قبيلة الوفاية فَتَقَرَّر استئصال هذه القبيلة، فكان ذلك في اليوم العاشر من شهر أبريل، فأدىٰ ذلك إلىٰ حِلْفٍ جديد اشتدَّ أزْرُه بِلَوْصِ علي مبارك عن عَهده، فلم يُمَزَّق هذا الحِلْف إلا في شهر أكتوبر سنة ١٨٣٢.

ووَقَعَت حوادثُ مهمةٌ في الشرق في ذلك الحين، وتخلَّصت بونة، التي دُخِلت لوقتٍ قصيرٍ في سنة ١٨٣٠، من سلطةِ باي قسنطينة الحاجِّ أحمد، ثم دخلها الحاجُّ أحمد، المحتاجُ إلىٰ ميناء، عَنْوَة بعد هجوم عنيف قام به في اليوم الخامس من شهر مارس سنة ١٨٣٢، فأحدث فيها ملاحمَ هائلة، واستولىٰ ضباط أرْمَنْدِي ويوسفُ علىٰ القصبة، وأضحت بونةُ قبضةَ الفرنسيين في شهر مايو، ولم يَأْل الحاجُّ أحمد جُهدًا في استردادها فلم يُوَفَّق، وكان الحاجُّ أحمد هذا قد أثار حقدَ كثيرٍ من القبائل العربية فَخَذَلَتْه في ساعة العُسْرة.

وجادت سنة ١٨٣٣ بخير للفرنسيين، فدانت لهم مدينة الجزائر ورَبَضُها[١] والبُقْعُة الواقعة بين الحرَّاش والمتيجة ومازافران والبحر، وخَطَّط الجنرالُ فوارول طُرُقًا عسكرية ونَظَّم معسكراتٍ ذات متاريس، وجَعَل كِفَّةَ الفرنسيين راجحة بغزو القبائل التي لم يَبْدُ منها جُنوحٌ للسِّلْم، وكان من نتائج دخول بونة أن وجَّهَ الحاجُّ أحمد أنظاره إلىٰ بِجاية، ولم يُجْدِه حِصاره المديةَ نَفْعًا، واستولىٰ الفرنسيون في الغرب علىٰ وهران وعلىٰ مسافة فرسخ واحد من جميع أطرافها، وعلىٰ قلعة المَرسىٰ الكبير، وأصبح القُولُوغْلِيَّةُ حلفاءَ للفرنسيين في تِلِمْسان ومستغانم، وشَعَر سلطان مَرَّاكُش بضَعْفه فعدل عن أفكاره في التَّوَسُّع.

---

(١) الربض: ما حول المدينة من بيوت ومساكن.

وإن الأمور لتجري علىٰ ذلك النحو إذْ ظهر عدوٌّ مخيف فأشعل نار الجهاد، إذْ ظهر عبد القادر.

توفِّي والده محي الدين، فبايعه رؤساء قبائل معسكرَ فَحَرّض العرب في كلِّ ناحيةٍ علىٰ امتشاق اُلحسام، وما كانت انتصارات الجنرال دميشل وأيامُ قدور الدبي وسيدىٰ مَحطّان Mahattan (؟) لِتَقِف زحفَه التدريجي، ونودي به بابًا لِتِلِمْسان، حيث لم يكن لِلْقُولُوغْلِيَّةِ سوىٰ المشور، واستولىٰ علىٰ آرزو فقَطَع رأس قاضيها الحليفِ للفرنسيين وهَدَّد مستغانم بالاستيلاء عليها، ولم يُعَتِّم الفرنسيون أن أطبقوا علىٰ هذه المدينة معتمدين علىٰ قبائل الدوائر والزمالة، وطَرَدوه من آرزو وهَزَمُوه في العين البيضاء في اليوم الأول من شهر أكتوبر، وفي تامزوات في اليوم الثالث من شهر ديسمبر، ثم أكرهوه، في ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٤، علىٰ معاهدةٍ تَضَع حَدًّا للقتال.

وأبصر بايُ قسنطينة أحمد حبوطَ خِططه، وقاومت بونةُ غاراتهِ ودَخلت كتائب الجنرال تِرِيزِل مدينةَ بِجاية في ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٣٣، وجُوزيت علىٰ قسوتها «القبائلُ» التي سيطرت علىٰ هذه المدينة منذ سنة ١٨٣١ فأقصت مراكب الفرنسيين من الساحل، فخفَّت القبائل العربية التي أرْهَبَها هذا العِقاب إلىٰ شّدِّ عَضُد الفرنسيين الغالبين.

وحَدَث مثلُ ذلك في سهل الجزائر حيث أصْلحت جسور أبي فاريك، وأضحىٰ للقائد الفرنسي العامِّ صِلات طيبة بالمدية والبليدة، وأُنْشئ معسكرُ الدويرة، ولم يبق ما يُخْشىٰ من قبائل المتيجة.

إذَنْ، تستطيع فرنسة أن تُوَطِّد ما تَمَّ لها من فتح مطمئنةً، فأُلِّفت لَجْنة كبيرة لاقتطاف ثمرة هذا الفتح، ونُشِر في ٢٢ يوليه سنة ١٨٣٤ مرسومٌ ناظم لإدارة الإيالة علىٰ أُسُس جديدة، وأُحدث منصبُ الحاكم العامِّ ومنصبُ الوكيل القائدِ للكتائب والعاملِ بإمْرَة ذلك الحاكم وعِدَّةُ دواوينَ ذاتِ رؤساء خصوصيين.

وعُهِد إلىٰ الجنرال دُرويهِ الإِرْلُونِيِّ في إدارة الشؤون العليا فجَدَّ في خفْض نفقات الاحتلال علىٰ الخصوص، فألَّف كتيبة من الأهالي باسم السباهي، فأعاد

منصب أغا الذي ظَلَّ مُلْغًىٰ منذ لَوْص علىٰ مبارك، فعَهِد إلىٰ مركز «حَوْشْ جاوُش»، بالقرب من أبي فاريك، في حماية المستعمرين.

واغتنم عبد القادر فرصةَ سِلْمٍ دامت سنةً فتَقَوَّىٰ بالتدريج، وعُدَّ عبد القادر عنوانَ القومية العربية، واحتُرم سلطانُه في كلِّ مكان لم يَبْدُ سلطان فرنسة فيه، وكان له في وهران وتيطرىٰ عِدَّةُ حلفاء، ومن غريب المصادفات أن زاد نفوذ هذا الأمير بحادثٍ يُلْقىٰ بذور الفسادِ بين العرب عادةً، وذلك أن المتعصب موسىٰ الدرقاوي اجتذب إلىٰ لوائه نحوَ ألفي مسلم فباغت المدية التي لم تُسالِم عبدَ القادر حتىٰ ذلك الحين، وحاصر مليانة، فأعلن عبد القادر مناهضته للدرقاوي فَمَزَّق شمله فدخل المدية ظافرًا فَحَقَّق بذلك مقصده الخفيَّ فأخذ يَنْصِب القضاة حتىٰ المتيجة.

ورَجَع عبد القادر إلىٰ معسكرَ فلم يَكْتُم مقاصده، فأخذ يستعدُّ للمعركة القادمة بهمة، فَتَلَّقىٰ من الأجنبي عُدَدًا حربية بطريق مصبِّ نهر تافنة، فتأهب لمجازاة قبائل الدوائر والزمالة بسبب موالاتها لفرنسة، وينطلق الجنرال تِريزِل، الذي خَلَف الجنرالَ دميشل في وهران منذ شهر فبراير سنة ١٨٣٥، أمام أراضي هذه القبائل في أوائل شهر يونيه مُطْلِقًا بذلك إشارة الخِصام، وتقع سلسلة وقائعَ غيرِ ذات بالٍ ويُطَارِد ذلك الجنرالَ عَدُوٌّ يفوقه عَدَدًا، ويتقهقر من ضِفاف نهر المقطع المؤلف من اجتماع الرافديْن: السيغ والهبراء، ويصاب بخسائر فادحةٍ ويبلغ آرزو بشِقِّ الأنفس.

أثارت نكبة الفرنسيين في المقطع حماسةَ العرب، فبادر الجميع إلىٰ مبايعة عبد القادر أميرًا، حتىٰ إن البليدة رَضِيت بالحاكم الذي نَصَبه عبد القادر، ولم تَثْبُت القليعةُ علىٰ الطاعة إلا بفضل معسكر المحيلمةِ الذي أُنشئ أمام الدويرة من جهة الغرب، والساعةُ عصيبةٌ، ويُدْرك الجنرال كُلُوزِل، الذي نُصِب حاكمًا عامًّا في شهر أغسطس سنة ١٨٣٥، ضرورةَ إنزال ضربة قاصمة لظهر العدو، ويَجْهَر بعزمه علىٰ مهاجمة عبد القادر في عُقْر داره بمعسكرَ، ويستولىٰ علىٰ جزيرة رشغون (سعيدة) التي تَعْدِل تِلِمْسان ارتفاعًا والمسيطرةِ علىٰ مصبِّ نهر تافنة، ويَتِمُّ استعداده ويزحف في ٢٦ نوفمبر مع دوك أورليان.

نَعَمْ، حاول الأمير عبد القادر أن يُؤَلِّف جيشًا نظاميًا، ولكنه لم يُفكِّر في المقاومة، فغادر عاصمته مع ما فيها من أمواله جاعلًا إياها طُعْمَة للنيران، فدخلها الجيش الفرنسي في اليوم الخامس من شهر ديسمبر بعد أن أتلف العدو ما فيها من مِدْفَعِيَّة وأعْتِدَةِ حربٍ، ثم ارتدَّ الجيش الفرنسي عنها من غير انكسار.

وكان القضاء علىٰ ما يَحِفُّ بعبد القادر من نفوذ أهمَّ نتيجةً لتلك الحملة، فَخَفّ كثير من القبائل العربية إلىٰ تقديم الطاعة، وحاول عبد القادر أن يصنع ما يشتهر به، فَهدَّد مشور تِلِمْسان فدَهَمَه الفرنسيون فأكرهوه علىٰ العدول عن خِططه، فامَر المريشال كُلُوزِل بمطاردته فمُزِّق شملُ جيشه، ولم تُكْتَب النجاة لشخصه إلا بفضل سرعة جَواده.

وما كاد عبد القادر يتوارىٰ حتىٰ ظهر عدوٌّ آخر، حتىٰ ظهرت «قبائلُ» ضِفاف نهر تافنة اليُسْرىٰ، حتىٰ ظهر مَرّاكُشِيُّو الحدود المستعدون لنقض كل حّقٍ دَوْلِيّ، فَعَرضت تلك «القبائل» وهؤلاء المَرّاكُشيون علىٰ عبد القادر شَدَّ أزْره، فهُزِم مرتين، فاكتفي بدَهْم الفْيلق الراجع إلىٰ تِلْمِسان ووهران.

وما كان الحاكم العامُّ ليَتَمَكَّن من إتمام ما بدا به من عمل مجيد بسبب نقص المَدَد، ولكن هذا الحاكم اقتطف ثِمار تلك الحملة التي قادها بهمةٍ وثبات، فَخَفَّ إليه كثير من شيوخ القبائل طلبًا للتولية، وبَدَت مَخايلُ النظام والهدوء في جوار مدينة الجزائر، وقامت ممتلكاتٌ زراعية خارجَ مراكز الفرنسيين الأمامية، وأخذ الوَضْع يتحسن في الشرق شيئًا فشيئًا، وتُغْتَنم فرصةُ انقسام «القبائل» في بِجاية بمهارة فتُحْمَل علىٰ الطاعة، وتُسْتغل مشاعر حقد العرب علىٰ الباي أحمد في بونة فكان للفرنسيين حلفاء نافعون بذلك، ففُتِحت لجنودهم طريق قسنطينة مقدارًا فمقدارًا بذلك.

ويُجدد عبد القادر هَجَماته في الشهر الأول من سنة ١٨٣٦، وتمتدُّ الثورة إلىٰ الجَنوب، ويرىٰ توجيهَ حملةٍ ثالثة إلىٰ مدينة المدية تَثْبيتًا لثِقَة العرب الذين دانُوا للسلطة الفرنسية، وتنال الكتائب الفرنسية بعض الانتصارات فتَدْخل هذه المدينة، وإنها لفي طريقها إلىٰ مدينة الجزائر إذ تَشِيع أنباءٌ كاذبة فَتَحْمل «القبائل» سلاحَها فيصبح علىٰ مبارك سيدًا لمدينة المدية.

ووَجَبت، في الغرب، معاضدة الدوائر والزمالة ضدَّ غارات الغرابة، وحَمَل الجنرال پرْغُو علي الحرباء ووادي شِلْف، وعُهِد إلىٰ الجنرال دَارْلِنْج في إنشاء معسكر علىٰ ضِفاف نهر تافنة، وهَجَمت قبائل مَرَّاكُش علىٰ هذا الجنرال فاضطُرَّ إلىٰ التزام متاريسه في اليوم الخامس عشر من شهر أبريل فطَلَب مَدَدًا، وتولَّي الجنرالُ بُوجُو قيادةَ فرقة وهران في أوائل شهر يونية فجاب البلادَ فدَحَر العدوَّ مرتين، فَهزَم عبد القادر في معركة سكاك، فأكرهه علىٰ العودة إلىٰ معسكرَ، فعاهد سلطانُ مَرَّاكُش علىٰ عدم الإذن للقبائل الموالية لعبد القادر في مجاوزة الحدود.

ولم يَبْقَ في تلك الناحية ما يُقْلق بالَ الحاكم العام، ورأىٰ هذا الحاكم أن يُنّفِّذ مقاصده ضدَّ باي قسنطينة الذي ما انفكَّ يتصرف في شؤون هذه المدينة مطمئنًا مهاجمًا منذ خمس سنين، وكان قائد كتيبة الفرسان يوسفُ قد نَصَبه المريشالُ كُلُوزِل بايًا للولاية فتقدم حتىٰ دران البعيدة ستةَ فراسخ من جَنوب بونة فاتَّصل بكثير من القبائل المعادية للحاجِّ أحمد فاستولىٰ علىٰ القالة التي كانت منذ سنة ١٥٢٠ حتي سنة ١٧٩٩ جزءًا من ممتلكاتنا المعروفة بالمِنَح الإفْرِيقِيَّة، فأخذها الإنكليز سنة ١٨٠٧ فاسْتُردت سنة ١٨١٦، فهَدَمها دايُ الجزائر سنة ١٨٢٧، ثم نَهَضَت، بعد خراب، هذه النقطةُ الصالحة لصيد المَرْجان فابْدَت «القبائلُ» المجاورة قليلَ خِصام لها.

وحَلَّ اليومُ الثامن من شهر نوفمبر، فكان كل شيء مُعَدًا للحمة، فأخذ المريشال، ومعه دوك نمور، يَزْحف علىٰ رأس تسعة آلاف مقاتل، فَبلَغ قالَمة في اليوم الخامس عشر من ذلك الشهر، فلما كان اليوم الحادي والعشرون منه بَدَا تحت أسوار قسنطينةَ، بَيْدَ أن الأحوال كانت إلْبًا علىٰ الجيش الفرنسي، فجاء شتاءٌ شديد فهَطَلَت أمطار فتَأَلَّفت منها سيول عاقت الحركات، فأصبح لا بدَّ من الرجوع إلىٰ بونة بعد هَجَمات غير مُجْدِية قام بها الفرنسيون، وذلك مع مقاومة عدوّ فخور بنصر رخيص جادَ في الإجهاز علىٰ عدوه بحَمَلات متتابعة، وجعلت بسالة جنود فرنسة أثَر تلك الهزيمة غير محسوس، وأيقن العرب أن فرنسة ستقابل الشرَّ بالشرِّ، فإذا ما أتي الفصل الملائم دَقَّت ساعة انتقامها لشرف سلاحها.

وقُضِيَت سنة ١٨٣٧ في الاستعداد، واتُّخِذت أفضل التدابير لبقاء العرب مطيعين ولجعل ما يَحْلُم به عبد القادر من الاضطراب العام أمرًا مستحيلًا، وذهب الحاكم العامُّ الثالث الجنرال دنريمون من أبي فاريك علىٰ رأس سبعة آلاف جنديّ في ٢٧ أبريل، وبلغ البليدة والقليعة وعَرَف مجرىٰ الشِّفَّة ومصبَّ مازافرانَ ودنا من مليانة ووادي شِلْف الأعلىٰ، ووُجِّهَت حملةٌ موفقة إلىٰ الإسِر والغمراوة فأثبتت للعرب عجزهم مرةً أخرىٰ، وأمضىٰ الجنرال بوجو والأميرُ عبد القادر معاهدةَ تافنة التي تعود السِّلم بها إلىٰ جميع تلك البُقْعة.

واختُلِف في تقدير تلك المعاهدة، فإذا كان عبدُ القادر قد نال بها نفوذًا غير مُنْتَظر ونوعًا من السيادة علىٰ العرب وكان لفرنسة أن تَظْفَر بشروطٍ أكثر ملاءمةً بعد الذي بذلته من الرجال والأموال، فإنه قد يقال إن من حسن السياسة خَتْمَ حرب تتطلب جهودًا مستمرة يَجْدُر أن يُفَكَّر في الحملة علىٰ قسنطينة بدلًا منها.

وكانت قد أُنْشِئت معسكرات في دران وقالمة ونشمية وحمام برداء، وكان قد بُلِغ «المجاز الأحمرُ» المشرف علىٰ أشدِّ معابر نهر السيبوز خَطَرًا، فاطُّلِع في اليوم الثاني عشر من سبتمبر علىٰ طريق قسنطينة لأول مرة، واقتُحم «رأس العقبة» بسهولةٍ، فبُلِغ، بعد مناوشة فرسان من العرب، السهلُ الواسعُ الذي يجري نهرُ وادي زناتي من أقصاه، ويُرْجَعُ من «المجازِ الأحمر» في اليوم الثالث عشر، ويؤْتىٰ بِعِدَّةِ هَجَمات من اليوم الحادي والعشرين إلىٰ الثالث والعشرين، فلا يُغْني عِناد العدوِّ وشجاعته عنه شيئًا، ويَصِل دوك نمور إلىٰ المعسكر في الثامن والعشرين، ويبدأ الجنرال دَنْرِيمُون بالزحف في اليوم الأول من شهر أكتوبر، ويُمْكث في اليوم الثالث عشر عند المرابط سيدي طَمْطَم وراء وادي زناتي، ويجازُ، في اليوم الخامس، النهر الصغير الذي يجري بعيدًا فرسخين من قسنطينة والمعروفُ بأبي مرزوق، ويجتمع الجيش كلُّه، في اليوم السادس، تحت أسوار هذه المدينة القائمة وَسَط مضيق واقع بين شواهق المنصورة عن اليمين وشواهق كدية عطيّ عن الشمال ويُبْدأ بحصارها، ويَنْزِل مطرٌ شديد من اليوم السابع إلىٰ التاسع فيُخْشىٰ من حلول نكبةٍ جديدة بالجيش، ويدافع وكيل الحاجِّ أحمد: ابنُ عيسىٰ، عن قسنطينة ولا يُفَكِّر في الاستسلام أبدًا، ويتحسن الجوُّ، وتُفْتَح ثُغْرَةٌ في

الأسوار، ويَهْلِك الجنرال دَنْرِيمُون في ذلك اليوم فيقوم الجنرال ڤاله مقامه حالًا، ويُثِير موت ذلك الجنرال حميةً في قلوب الجنود، فتُدخل قسنطينة عَنوةً في الغد، ويرتدُّ الحاجُّ أحمد إلىٰ الجنوب، ولا يستطيع أن يستردَّ عاصمته مع ما قام به من الجهود، علىٰ أن خضوعه الأخير لم يَتِمَّ إلا في شهر مايو سنة ١٨٤٨.

رُفِعت الراية الفرنسية فوق مدن الإيالة الثلاث المُهِمَّة: الجزائر، ووهرانَ، وقسنطينةَ، واستمرَّ العرب علىٰ انقسامهم، وسَئِمَ العرب الحربَ كما يظهر، ولم يكن من الرأي أن يُرْكَن إلىٰ سكونهم مع ذلك، فقد أبىٰ الأمير عبد القادر أن يوافق علىٰ الميثاق التفسيري لمعاهدة تافنة المؤرخ في ٤ يوليه منتظرًا حلولَ الوقت المناسب لامتشاق الحُسام، وظهر الأمير عبد القادر علىٰ حدود ولاية قسنطينة في شهر ديسمبر سنة ١٨٣٧، وبجبهة المدية في شهر أبريل سنة ١٨٣٨، وبجبهة تاكدمتَ في شهر مايو، ثم كان علىٰ مسافة مئة فرسخ من الساحل، فهَجَم في عين ماضي علىٰ المرابط التِّجِيني الذي استسلم في ١٥ يناير سنة ١٨٣٩، ثم اقترب من مَراكش بعد ستة أشهر فأوغل في أراضي زواوة فأوقد بمكايده نار الاضطراب في كل ناحية.

ولم يُبَدِّد الحاكم العامُّ الجديد وقته عبثًا في تلك الأثناء، وجعل الحاكم العامُّ في قسنطينة ثلاثة خلفاء وثلاثة قواد، وسَلَّمها إلىٰ حاكم، وقَلَّد ابن غانة مشيخةَ العرب، وأقيمت فيليپڤيل (سكيكدة)، وفُتِحت طريقٌ من جميلةَ إلىٰ سطيفَ، ودُخِلت الميلة وجيجل وجميلة، وانقاد سهل المجانة، ودَحَر أهلُه هَجَمات «القبائل» وأنصارَ الحاجِّ أحمد، ثم أُرْسل من يرتاد شِعْب تيزي، ثم رُئِي من الضروري معارضةُ مكايد عبد القادر بتظاهرٍ عسكريّ رادع للقبائل فتَقَرَّر غزوُ أبواب الحديد، وسار دوك أورليان من سطيف في شهر سبتمبر فجاوز ذلك المضيق الهائل فعاد إلىٰ الجزائر مارًّا من بلاد حمزة، وكان آلُ حَجُّوط حلفاءَ لعبد القادر فَبَدَوْا شاهرين سلاحهم فكانت معركةُ الشِّفَّة ومعركة وادي العلق، ولم تلبث الوقائع أن حدثت في جميع الجهات، وغَدَت البليدة، التي التزمت خِطَّة الدفاع، عُرْضَةً لهَجَمات العرب المتوالية في شهر ديسمبر سنة ١٨٣٩ فارتدُّوا عنها في كلِّ مرة، ثم بدئت معارك سنة ١٨٤٠ بما يلائم فرنسة.

وبينما كان الجنرال لامُورِيْسيارُ يُكْثِرُ من المغازي في ولاية وهران، وبينما كان جنود فرنسة يدافعون عن مزغرانَ دفاعَ الأبطال (٢ فبراير سنة ١٨٤٠) كانت ولاية قسنطينة في طُمَأْنِينَة، وهَزَم ابن غانة قائدًا من قُوَّاد عبد القادر في معركة سرسُّو (٢٤ مارس) وأدت معاقبة الحراكتة وقبائل بني موسي (٢٢ أبريل) إلىٰ كفِّ القبائل عن كلِّ اضطراب، وحُصِّنَت قالمة وسيدىٰ طَمْطَم وأُنْشِئَ معسكرُ عين تُرْك علىٰ سبعة فراسخ من سطيف (١٥ مايو).

وارْتَكَزَت نار الحرب في ولاية الجزائر، ودُخلت مدينة شرشال في ١٦ مارس علىٰ أثر معركة مزرغين، واشترك دوكُ أورليال ودوكُ أومال في حملة المدية التي تَمَّت في شهر أبريل، وكان أهمَّ حوادثها واقعةُ عفرون والمرورُ من شِعْب موزاية، وكان أهَمَّ نتائجها دخولُ هذه المدينة (١٨ مايو) ومدينة مليانة (٨ يونيه) التي مُوِّنت في ٧ أكتوبر و١١ نوفمبر من تلك السنة، وعاد عبد القادر لا يقوم بغير حرب نهبٍ وهَجَماتٍ متفرقة بعد ذلك، وذلك مع جَمْعه كتائبَ منظمةً وبقائِه مرهوبًا.

وحَلَّ الجنرال بوُجُو محلَّ الجنرال ڤاله في ٢٢ فبراير سنة ١٨٤١، فعَزَم علىٰ وضْع حدٍّ للحرب بمحق مركز الأمير عبد القادر الرئيس، فانضمَّ إليه دوك نمور في شهر مايو، فتَوَجَّه إلىٰ الغرب فاستولَىٰ علىٰ تاكدمت في اليوم الخامس والعشرين وعلىٰ مُعَسْكرَ في اليوم الثلاثين، فانتصر في معركة عقبة خدّة فظلَّ سيد الموقف.

وتقع في تلك الأثناء حملة مسيلةَ البعيدةِ ثمانيةً وعشرين فرسخًا من سطيف ويتقدم الفرنسيون بها خُطْوَة نحو الشرق، وتُمَوَّن، في الوَسَط، المديةُ ومليانة مرةً أخرىٰ، ويَهْدِم الجنرال باراغوايْ دِيلر كُلًّا من بوغار وتازة.

ولم تَكَدْ أواخر سنة ١٨٤١ تَحِلُّ حتىٰ أُكْرِه عبد القادر علىٰ التزام خِطة الدفاع في كل ناحية، ووطَّدت المعارك سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٤٣ سلطة فرنسة، وأخذ نطاق الاستعمار يَتَّسِع شيئًا فشيئًا، وأوشك الفرنسيون أن يبلغوا الصحراء، وصار الأهالي يُعْرِبون عن خضوعهم لِتَعَبهم من طول المقاومة، وكان استيلاء دوك دومان علىٰ مدينة الزمالة، الواقعة في جوار تاغين (١٤ مايو سنة ١٨٤٣)،

ضربةً أصيب بها عبد القادر من غير أن تَقْصِم ظَهْرَه، وما كانت موارد عبد القادر لِيَنْضُب لها مَعِين، وما فَتِئَ عبد القادر يبحث عن حلفاء جُدُد له، وجعل عبد القادر مَرَّاكُش تلتزم قضية الاستقلال العربي.

وتَنْمُو سيطرة فرنسة منذ سنة ١٨٤٤ بالتدريج، وتُحْمَل القبائلُ علىٰ الخضوع لدستورٍ إداريّ مُنَظَّم، ويتسع نِطاق فتوح فرنسة أكثر من قبل.

وفي الشرق تُدْخَل بسكرةُ وُيذْعِن بنو الزيبان وقبيلة ابن الآزما وقبيلةُ أوراس، وفي ولاية الجزائر تغزىٰ الأغواط وعين ماضىٰ وتؤخذ دلس (٢٩ أبريل) وينشأ مركز أومال وتفتح سباوة، وفي الغرب تُمْلك سبدو ونمور (الغزواتُ) ولا لا مغنيةُ والضاية وسيدي أبو العباس (بلعباس) ويُغْزَىٰ بنو القصور إلخ. ويَعْترف قائد قسنطينة، دوك أومال، بالحدِّ الفاصل بين الجزائر وتونس، ويُزْحف إلىٰ مسافة خمسة فراسخ من جَنوب الجزائر، ويُجازَىٰ سلطان مَرَّاكُش الحامي لعبد القادر علىٰ مخالفاته للمعاهدات التي ارتبط فيها، ويُعَارِض الفرنسيون المَرَّاكُشيين بمُعَسْكر لا لا مغنية، ويستولون علىٰ وجدة، وتُضْرب طنجة بالقنابل من البحر في اليوم السادس من شهر أغسطس، ويَكْسِب الجنرال بوجو معركة إسْلي في اليوم الرابع عشر من ذلك الشهر، ويدُكُّ الأمير جُوَانْڤيل حصون مغادور بالمدافع، ويطلب مولاي عبد الرحمن العفوَ، وتنقلب معاهدة ١٨ سبتمبر إلىٰ سِلْمٍ وطيدةٍ في اليوم الثامن عشر من شهر مارس الآتي.

وحَلَّت سنة ١٨٤٥، فاشتعل عصيان الضَّهْرَاء فأُطْفِئَ من غير إمهال، وثار عدوٌّ جديد في وجه فرنسة، واسمُ هذا العدو أبو مَعْزَة، وجاء هذا العدو من مَرَّاكُش مُسْتَنْفِرًا عِدَّة قبائل ضدَّ الفرنسيين، فَغُلب في مينة، فهَدَّد مدينة أورليانَ (الأصنام) فاستفاد عبدُ القادر من تَلَهِّي الفرنسيين به، ولكن أبا مَعْزَة أكْرِه علىٰ تسليم نفسه إلىٰ الفرنسيين (١٣ أبريل سنة ١٨٤٧) بعد عِدَّة مغامراتٍ وكثير انكساراتٍ، فاعْتُقِل في فرنسة.

ولم يكن عبد القادرِ بن محيي الدين أوفر حَظًّا من ذلك، فقد حاول إثارة «القبائل»، فلم يُفْلِح، فلم تُؤَدِّ الحملة التي وُجِّهَت إلىٰ أوراس وخضوعُ القبائل المجاورة لِبجاية والتظاهراتُ في الجرجرة في الوقت المناسب إلىٰ غير ثبات

سلطان فرنسة، وغُلِب عبدُ القادر الذي كان لا يَعْرف التعبَ في ابنِ نهار (٧ مارس ١٨٤٦) فارتدَّ مُكْرَهًا إلىٰ الغرب، فاختلف هو وأبو مَعْزَة الذي كان يحارب فأمَر بقتل أسارَىٰ الدائرة في اليوم التاسع من شهر مايو، فلم يُعَتِّم أن رأىٰ نفسه مدحورًا إلىٰ مَرَّاكُشَ، فأثار تأثيره في الأهالي حَذَر مولاي عبد الرحمن فأعلن هذا السلطان عَدَاءه له، فطورد من كلِّ جانب فَنضَب مَعِينُ موارده فَسَلَّم نفسه إلىٰ الجنرال لَامُورِيسْيار في سيدي إبراهيم (٢٣ ديسمبر سنة ١٨٤٧)، فأُرْسِل إلىٰ فرنسة حيث اعْتُقِل فأطلقه نابليونُ الثالث في سنة ١٨٥٣ فيقيم الآن معتزلًا ببروسةَ التي هي من مُدُن تركية الآسيوية.

وما انفكَّت الجزائر بأسْرها تَدِين لفرنسة بعد سقوط عبد القادر، وألقىٰ غَزْو الجنرال بُوجُو لِمِنْطَقة «القبائل» الكبرىٰ (مايو ١٨٤٧) ذُعْرًا مؤثرًا في هذه «القبائل»، فصرتَ لا تُبْصِر غيرَ حوادثَ جزئيةٍ كهجوم الزعاطشة المشؤوم (١٦ يوليه ١٨٤٩) الذي أوجب انتقام فرنسة منهم في اليوم السادس من شهر أكتوبر، وكتأديب «القبائل» في الشَّطَّيْن، وكالغارة علىٰ قبيلة المزاوير المَرَّاكُشِيَّة في سنة ١٨٥٠، وكحملة الجنرال سان أرْنُو في مِنْطقة «القبائل»، وكانقياد بني فليسة للجنرال بِيلِيسْيه في سنة ١٨٥١، إلخ.

وعُنِي الحكام العموميون الذين خَلفَوا المريشال بُوجُو [وهم: دوك أومال (٢٧ أغسطس ١٨٤٧) وكافينياك (٢٥ فبراير ١٨٤٨) وَشَنْغارْنِيَه (٢٩ أبريل) وَمارِه مُونْج (١٤ يونيه) وَشَارُونُ (٩ سبتمبر) وَأُوتِپُولُ (٢٢ أكتوبر ١٨٥٠) وبِليسْيه (١٠ مايو ١٨٥١) وَرَانْدُنُ (١١ ديسمبر ١٨٥٠)] بتنظيم الجزائر الإداري علىٰ الخصوص، وعُدَّت القبائل مسؤولةً عما يُقْتَرَف في مناطقها من الجرائم، وعُيِنَت مقادير المغارم، ووُضِعت أنظمةٌ مفيدة لحفظ الغابات، ورُسِمت حدودٌ ثابتة للولايات: الجزائر وقسنطينة ووهران.

وتُقَسَّم تلك الولاياتُ إلىٰ أقسام عسكرية، وتشتمل ولاية الجزائر علىٰ ستة أقسام ثانوية مراكزُها: الجزائر والبليدة والمدية وأومال (صور الغزلان) ومليانة وأورليانڤيل (الأصنام) مع المُدُن بوغار وشرشال وتِينِيس وبِجاية ودَلِس والقليعة، وتشتمل ولاية وهران علىٰ خمسة أقسام ثانوية مراكزُها: وهران ومُعَسْكَر ومستغانم

وسيدي أبو العباس (بلعباس) وتِلِمْسان مع المُدُن آرزو ونمور (الغزوات) وتيارِت وسعيدة ومزرغين ومزغران والضاية ولا لا مغنية وسبدو، وتشتمل ولاية قسنطينة علىٰ أربعة أقسام ثانوية مراكزُها: قسنطينة وبونة (عِنَّابة) وسطيف وباتنة مع المُدُن بسكرة وفليقبل (سكيكدة) وقالمة وجيجل والقالة وتبسة، إلخ.

ويَحُدُّ البحرُ المتوسط الجزائرَ من الشمال، وتَحُدُّها دولة مَرَّاكُش من الغرب، وإيالة تونس من الشرق، وتمتدُّ في الجنوب إلىٰ غرداية بواحةِ وادي ميزاب علىٰ ٣١(د) ٥٠، من العرض الشمالي.

وتشتمل مِنْطقة «القبائل»، التي يصعب رَدعُها علىٰ مسافة ١٤٦ كيلو مترًا متجهةً مع الشاطئِ بين دلس وبِجاية، وتمتدُّ من ناحية اليابسة حتىٰ البيبان أو أبواب الحديد في الجَنوب الغربي وسطيف في الجنوب الشرقي، ويعيش في تلك الِمنطقة حَفَدَةُ المُزُولَان والكِنْكِجنِيين الذين استبسلوا في مقاومة الرومان في القرون الأولىٰ من الميلاد، وكانت تلك المِنطقة تُسَمَّىٰ بالجبل المُصَفَّحِ بالحديد فجاء العرب فدَعَوْها بالأرض العَدُوَّةِ فأدخلوا الإسلام إليها بواسطة مرابطين مسالمين من غير أن يكون لهم سلطانٌ دائم عليها، وما كان للترك حظٌّ أوفر من حظِّ العرب في ذلك، ولن يستطيع أحدٌ أن يُنبِئَنا بأننا سنكون أبرعَ من أولئك.

أجَلْ، إن بلاد الجزائر التي خَضَعت لسلاحنا تتحول شيئًا فشيئًا بفعل الحضارة الأوربية، ولكن ماذا يكون تأثير هذه الحضارة في العرق العربي؟ إن المستقبل وحدَه هو الذي يَكْشف لنا ذلك.

بـيـان

ننشر فيما يلي: تعقيب مجمع البحوث الإسلامية الذي أشرنا إليه في صفحة (٧) من هذا الكتاب.

ويلاحظ أن جميع التذييلات الموجودة في صفحات:- ١٣، ٦٥، ٦٦، ٧٤، ٧٥، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، . هي من عمل مجمع البحوث الإسلامية ونحن نشكر المجمع لقيامه بهذا المجهود.

الـنـاشـر

تعقيب مجمع البحوث الإسلامية
على كتاب تاريخ العرب العام

تناول المؤلف في هذا الكتاب تاريخ العرب، وتاريخ دولتهم من العصر الجاهلي إلىٰ نهاية سقوط دولة العرب في الأندلس، وجغرافية دولتهم، وحضارتهم ومدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية في الشرق والغرب. وفصل كل هذا تفصيلا واضحا بيّن فيه فضل العرب علىٰ أمم العالم في ميدان العلوم، وميدان الثقافة، والفلسفة. ونوه بشأنهم في كثير من فصول الكتاب، وقدر آثارهم تقديرا حسنا، وأثنىٰ عليهم بما هم أهل له.

ولكن يؤخذ علىٰ المؤلف عدة مآخذ حين عرض لسيرة محمد ﷺ، والتشريع الذي أتت به رسالته، والقرآن الذي أوحي إليه، فقد زل قلمه ولسنا ندري أعن تعصب ضد الإسلام أم عن عدم معرفة صحيحة به وقد عددناها عليه وحصرناها فيما يلي:

١- إنكار رسالة محمد ﷺ، والادعاء بأنه رجل عبقري اشترع دينا من عنده وخدع الناس أنه من عند الله أوحىٰ به إليه. وذلك في الصفحات الآتية: (١٣، ٥٩، ٧٤، ٧٥، ٧٦)

٢- زعم انتحال القرآن وافترائه، ورميه بالتناقض في المبادئ التي تضمنها. وذلك في الصفحات الآتية (٧٧، ٨٣، ٨٨، ٩٦، ١٠٣، ١٣٤، ١٩٧).

٣- مطاعن في سيرة الرسول وشخصيته وتعليل حروبه وذلك في صفحة (٦٥).

٤- عجز محمد عن إثبات نبوته وتأييدها بالخوارق والمعجزات كما فعل النبيون السابقون، في صفحة (٧٩).

٥- عدم ملاءمة دين الإسلام لكل زمان ومكان لتألفه من مبادئ وعادات يتعذر تطبيقها علىٰ أمم مختلفة الأصول والميول. وذلك في الصفحات الآتية: (١٤، ١٩٦، ١٩٧).

٦- مطاعن في الإسلام مثل إقرار القصاص، وتعدد الزوجات، والإبقاء علىٰ الرق، في صفحتي (٩٨، ٩٩).

٧- سوء العبارة في سرد وقائع تاريخية مثل مقتل عثمان، ووصف العرب المجاهدين وتنازل الحسن عن الخلافة وذلك في الصفحات الآتية (١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١٤٥).

والمترجم يرىٰ كتاب «تاريخ العرب العام» خير الكتب التي ألفت بالفرنسية والإنجليزية في موضوعه. ويقول: إنه يبدو للمتأمل أنه بسط جامع لتاريخ العرب، وثيق العُرا متصل الحلقات متماسك الأركان مع ما فيه من هفوات لا يخلو من مثلها كتاب مستشرق ص ٤، ٣.

والحق أنها هفوات لا تغتفر، وزلات لا يمكن التغاضي عنها، وكان الأجدر بالمترجم -وهو مسلم- أن يعلق عليها كلها بما يرد الحق إلىٰ نصابه، ويجلو الحقيقة خالصة ويفند هذه الشبهات حتىٰ لا يلتبس الحق بالباطل، وإنا لنحمد للمترجم بعض تعليقاته التي أثبتها في أسفل الصفحات، ولكن كنا نود أن يستوفيها إنصافا للحقيقة.

وحيث إن المترجم قصر في هذا الواجب فلا مناص من أدائه وتحمله، وجبر هذا القصور بالتعقيب والتذييل.

❋ ❋ ❋

الإسلام دين الله الذي رضيه لعباده، ختم به الرسالات، وأتم به النبوات، يشرف به من يكتب عنه، غير أنه لا يقبل من الكاتبين عنه كلمة حق لتكون مدخلا إلىٰ ألف كلمة من الباطل ولا يرضىٰ أن تقدر آثاره وتطعن أصوله، ويجلي ظاهره ويغمط جوهره.

وأولىٰ بمن يكتب عنه أن يكون موصولًا به علمًا ومعرفة، بحثًا ودرسًا، ليجلو حقيقته مبرأة من التعصب، أو الجهل به.

غير أن كثيرا من المستشرقين تناولوه بأقلامهم بدوافع مختلفة، فمنهم من تحامل عليه، ومنهم من أشاد به، ولم يسلم كلا الفريقين من زلات وقعوا فيها، وهم علىٰ ما بينهم من اختلاف في العبارة يرون الإسلام دينا مقطوع الصلة بالله، ومحمدا عبقريا اشترع دينا أصدر فيه عن هواه.

وما المستشرق (سيديو) إلا واحدا من هؤلاء الذين لا يعرفون الإسلام وحيا من السماء وإنما هو جهد أرضي محدود ثم نما، ولا يعتقدون أن محمدا نبي، وإنما هو رجل عبقري اشترع دينا ملفقا من اليهودية والنصرانية فهو ينكر رسالة محمد، ويرميه بانتحال القرآن وافترائه، وعجزه عن إثبات نبوته، ويطعن في شخصيته ومبادئه، ويأخذ علىٰ الإسلام إقرار القصاص، وتعدد الزوجات، والإبقاء علىٰ الرق، مع سوء العبارة أحيانا في سرد بعض الوقائع التاريخية، ولا يشفع له ما مدح به الإسلام في بعض جوانبه، وما قرر من فضل حضارة الإسلام علىٰ الحضارات الأخرىٰ، وما أشاد بالمسلمين وآثارهم في ميادين العلم والثقافة والفلسفة.

ولقد رأينا أن نتعقب زلاته بالتصويب، وشبهاته بالرد عليها، علىٰ وجه الإجمال، مؤثرين التفصيل في ذيل الصفحات التي جاءت بها هذه الأخطاء لتكون بين يدي القارئ في مظانها.

لقد أنكر (سيديو) رسالة محمد وادعىٰ أنه (ألهم المبادئ اليهودية والنصرانية فأقام دينا بعيدا عن الخوارق) ص١٣.

وأنه وجد (الديانة اليهودية والنصرانية لا تحققان خطط الإصلاح الذي يفكر فيه فعزم علىٰ إقامة دين جديد) ص٥٩.

(واختار من تلك المعتقدات الكثيرة بلباقة ما يلائم عقول العرب من غير أن يصدم ميولهم وما فيها من ضعف) ص٧٤.

(وكان يتكلم باسم الله علىٰ الدوام لتكون تعاليمه أعظم تأثيرًا، وكان يقول: إن رسولًا من السماء يأتي إليه بأوامر الله تعالىٰ، ومن الواضح أن يكون ختالًا في وجده) ص٧٥.

وهو إنكار لا يسوغه منطق مادام أهل الكتاب يسلمون بوجود إله، وله جل شأنه أن يصطفي من عباده رسلًا يبلغون عنه، فلم لا يكون محمد رسوًلا كغيره من الرسل السابقين اختاره الله علىٰ علم نبيًّا للعالمين، ورسولًا إلىٰ الناس أجمعين، برهانه بين يديه ودليل صدقة معه واقتضت حكمة الله إرساله لإنقاذ العالم الذي ناء تحت أثقال الضلال وطغيان الغرائز، وشهوات الاستعلاء حين عجزت الديانات السابقة لما أصابها من تحريف، وما خالطها من زيف- أن تسدي عونًا، أو تسعف بإنقاذ، ولم يشترع محمد دينًا من عنده لفّقه من مبادئ الديانات السابقة، وإنما شرعه له الله الذي شرع ما سبق من ديانات، فاتحد معها أصولًا وأهدافًا، وزاد عنها ما يلبي متطلبات البشرية ويلائم تطورها، فالإسلام دين يؤكد ما سبق ويصدقه، ويردد ما قاله المرسلون السابقون ويظهره ويوضحه، فلا عجب أن يأتي الإسلام بعبادات لها أصل في الديانات القديمة كالصلاة والصوم والزكاة، غير أن صورتها وهيئتها تناسب تطور البشرية وتلائمه.

وليس هذا التوافق بين الإسلام والديانات السابقة وتصديق كتبها المنزلة وسيلة يداهن بها محمد اليهود والنصارىٰ كما يزعم (سيديو) حين يقول:

(ويود محمد أن يكون علىٰ وئام هو والنصارىٰ واليهود فيعلن صحة كتبهم المنزلة ويذهب إلىٰ أن كتابه جاء متممًا لما تقدمه) ص٧٧.

ولكن سر هذا التوافق هو وحدة مصدرها، ومبعث هذا التصديق هو أمانة التبليغ عن منزلها.

وليس بصحيح ما يدعيه (سيديو) (أن محمدًا بلغ أن النصارىٰ واليهود علىٰ حق ما دامت التوراة والإنجيل من الكتب المنزلة فيكفي أن يعترفوا بأن القرآن جاء متممًا لهما) ص٧٨.

والحق أن محمدًا طلب إلىٰ اليهود والنصارىٰ أن يؤمنوا بما أنزل إليه وما أنزل من قبله وأن يتبعوا ما جاء به، وأعلمهم أن الديانات السابقة لا تغني عن الإيمان بالإسلام شيئًا.

واقتضت حكمة الله أن تكون رسالة محمد هي خاتم الرسالات وشريعته عالمية أبدية بما تضمنته من مبادئ عامة، وأصول كلية، تاركة التفاصيل وبعض

الجزئيات التي لم ينص عليها للقائمين بالتطبيق مستلهمين فيها روح الدين وأهداف الشريعة.

ومن ثم كان هذا الدين قابلًا للتطبيق في كل زمان ومكان، ويتضح أنه غير صحيح عدم صلاحيته للتطور، ومسايرة المدنية كما يقول (سيديو) (إنه ليس من طبيعة الأوامر والنواهي التي تلائم أممًا في بعض البيئات أن تكون شاملة) ص١٤.

أما دعواه بأن (القرآن مؤلف من قطع متفرقة قدمت إلىٰ المؤمنين علىٰ أنها منزلة من عند الله بحسب مقتضيات الزمن، فدونت صفحة بعد صفحة فلم تخل من متناقضات بحكم الطبيعة لملاءمتها الأحوال كوصية قيصر) ص٧٧.

فإن عدم علمه بطبيعة التشريع الإسلامي وتدرجه دعاه إلىٰ أن يعد تغير الحكم في قضية ما اختلافًا وتناقضًا وما هو في الحقيقة بتناقض «لأن الله جلت حكمته تلطف في أخذ عباده بكثير من الأحكام- وتدرج في حملهم عليها، وذلك بتهيئة أحوالهم النفسية والاجتماعية لقبوله وتنفيذه حتىٰ إذا تكاملت الصلاحية المنشودة لتطبيق الحكم المراد انكشف الغطاء الذي كان يتزحزح قليلًا قليلًا عن الحقيقة التشريعية الأزلية» ومن أمثلة ذلك تحريم الخمر والربا.

ويذهب (سيديو) إلىٰ أن فرض الجهاد علىٰ المسلمين مناقض لصيغة الإسلام التي بدأت سلمية (أن محمدًا لم يسلك سبيل الجهاد إلا لخوفه علىٰ تبدد حرارة أصحابه بسبب البطالة في المدينة ورأىٰ أن الحرب أفضل وسيلة لإمداد نار الحماسة التي أوقدها، وكان يحب أن يوجه الأنظار إليه فما يتم له من الانتصارات الحربية يعده دليلًا معجزًا علىٰ حماية الله له) ص٦٦.

والحق أن فرض الجهاد علىٰ المسلمين كان اقتضاء لأحوال الدعوة ولم ينقض إعلانه دعوة السلام والمسالمة في الإسلام؛ إذ أن الحروب في الإسلام إنما شرعت كلها للدفاع لا للهجوم ولم تشرع اعتداءً أو تشفيًا وانتقامًا وحسبنا دليلًا علىٰ ذلك حسن معاملة الرسول لأهل مكة حين فتحها فقد أطلق وعفا، وسامح وغفر.

ولم تكن إلهاء لأصحاب محمد وشغلًا لأوقاتهم فقد كان عند المسلمين من

المهام في بناء دولتهم، وإقامة مجتمعهم ما يستغرق وقتهم، ويستنفد طاقتهم.

ولم تكن نبوة محمد في حاجة إلىٰ دليل عند أصحابه، فكان الإيمان بها يملأ أقطار نفوسهم، وكان القرآن الكريم كافيًا في التصديق بها فاستغنوا به عن كل إعجاز مادي.

«وشاء الله أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة، شيئًا لا ينفصل عن جوهرها فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحتها كتابًا واحدًا».

ولم يألم المسلمون كما يدعي (سيديو): (لاعتراف نبيهم بعدم قدرته علىٰ الإتيان بمعجزة مادية تؤيد رسالته) ص٧٩- حين طلب إليه كفار مكة ذلك «لعلمهم أن الذي اقترحه الكفار ليس عزيزًا علىٰ قدرة الله تعالىٰ، ولكن الله غالىٰ بقيمة العقل الذي أرخصوه، وأرغمهم علىٰ احترامه فتقرر أن يكون القرآن معجزته فبه كان التحدي، وعليه كان يعتمد الرسول في سيرته مع خصومه وأصحابه طول حياته، ومن بعده ظل القرآن كتاب الإسلام الناطق بدعوته وحجته معًا».

أما ما يراه (سيديو) (من أن محمدًا في الغالب- لم يصنع غير المحافظة علىٰ عادات بلغت درجة من التأصل ما كان يمكن إبطالها... من ذلك أمر المسلمين بالختان، وقبوله مبدأ تعدد الزوجات، وقبوله مبدأ الثأر بقبوله مبدأ القصاص، وإبقاؤه علىٰ الرق في بلاد العرب..) ص٩٥- ١٠٠.

فبنظرة منصفة لدعوة محمد يتبين لنا أنها جاءت لإصلاح دنيا الناس وآخرتهم فما رأته من أحوالهم وعاداتهم صالحًا أقرته، وما رأته ضارًا بهم ألغته وحرمته، أو قومته وعدلته ليحقق مصلحتهم.

فالختان طهارة وله آثار طيبة في الصحة العامة، وسلامة البدن فأقره الإسلام لذلك.

أما تعدد الزوجات فقد كان قبل الإسلام لا يقف عند حد في العدد، فوقف به الإسلام عند أربع وحاطه بضمانات تحقق الهدف منه، وجعل الإفراد واجبًا عند عدم توفر مسوغات التعدد. والتعدد بضروراته أبقىٰ علىٰ عفة المجتمع، وسلامة الأمة من الإفراد الذي يحمل علىٰ التعدد غير المشروع.

وأما إقرار الثأر بقبول مبدأ القصاص فهو أمر لم ينفرد به الإسلام بل جاءت

به كل الشرائع السابقة لمنفعة الجماعة؛ وعلاج النفوس الآثمة حتىٰ تعيش الأمة آمنة مطمئنة، والقصاص ثأر عادل يحارب الإفراط في الشر، والأمر في ذلك لولي الدم إن شاء اقتص، وإن شاء عفا، والعفو أحب إلىٰ الإسلام من القصاص.

«أما إبقاء الإسلام علىٰ الرق فقد جاء الإسلام والرق موجود في أرجاء العالم ولم يذكر أن دينًا من الأديان الأخرىٰ أمر بإلغائه في شكل من أشكاله سواء رق الحروب، أو رق النخاسة والبيع والشراء، وإن أناسًا من أقطاب المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه واعتبروه جزاء عادلًا للخطايا التي يقترفها المسترقُّون، ومن المعلوم أن النظام الاقتصادي القديم في أساسه كان مرتبطًا بالاسترقاق أشد الارتباط فكان إلغاؤه طفرة أقرب شيء إلىٰ المستحيلات ولم يكن أنفع في علاجه من التدرج خطوة فخطوة، فالابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه هو ما شرعه الإسلام.

فالإسلام بدأ بتحريم كل رق غير رق الأسرىٰ في الحروب، ثم حسن إطلاقهم وسمَّاه منًّا وعفوًا يشكر فاعله عليه؛ ثم أجاز للأسير أن يشتري نفسه وجعل عونه مصرفا من مصاريف الزكاة وأوجب حريته في كثير من الحالات كالكفارات، ودعا إلىٰ حسن معاملته حتىٰ تتم حريته». ويمكن إيجاز هذه الخطة الحكيمة في القضاء علىٰ الرق في ثلاث شعب:

١- سد منابع الرق -٢- توسيع مصارف العتق، ٣- صيانة حقوق الرقيق في فترة الانتقال، أما دعوىٰ (سيديو) أن محمدًا كان يستطيع إلغاء الرق إبان سطوته لو أعلن حرية الموالي من المسلمين فتلك نظرة قاصرة عارية من الحكمة، وتدبر العواقب.

تلك هي زلات (سيديو) وهذا تعقيبنا عليها آثرنا فيه الإيجاز المناسب للمقام، وللمستزيد الكتبُ المطولة التي تصدىٰ فيها الأجلاء من علماء المسلمين لتفنيد هذه الشبهات وأمثالها.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.